فقه الآداب

آداب المسلم مع الله تعالى
والنفس والناس والحياة

لفضيلة الدكتور
يوسف القرضاوي

دار المقاصد

فقه الأدب

آداب المسلم مع الله تعالى والنفس والناس والحياة

لفضيلة الدكتور
يوسف القرضاوي

دار المقاصد

الطبعة الأولى
1441 هـ - 2020 م

ISPN - رادمك
978-605-7577-53-5

دار الروضة - وكيل التوزيع الأوروبي
دار الكلمة - وكيل التوزيع بالشرق الأوسط
مكتبة حقول - وكيل التوزيع بالمغرب العربي

E : darelmaqased@gmail.com
Facebook : @DAR.ALMAQASED
T : +201006746388 – +905530045295
Address : Sanayi cad. Bilge sok. No.2
, Yenibosna 34196 Istanbul -Turkey

دار المقاصد
للطباعة والنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله وحدَه، صدَق وعدَه، ونصر عبدَه، وأعزَّ جنده، وهزم الأحزاب وحده، وأزكى صلوات الله وتسليماته على مَن لا نبيَّ بعده، الذي أخلص لله عمله وقصْده، وبذل في الدعوة إلى الله جُهْده، وتحمَّل في الجهاد والثبات على الحق جَهْده، فأعدَّ العُدة، وعقد العقدة، ووفَّى العُهدة، وأعطى الزُّبْدة، وعلى آله وصحبه الذين حفظوا عهده، وذكروا وُدَّه، وآتاهم الله رشده، وعلى مَن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

(أما بعد):

فهذا كتابنا في فقه الآداب الشرعيَّة، الذي سمَّيناه: «أدب المسلم مع الله والنفس والناس والحياة»، وهو جزء من سلسلة: «تيسير الفقه للمسلم المعاصر في ضوء القرآن والسنة»، من محور الفقه في موسوعة أعمالنا الكاملة الذي في فقه الإسلام كله: عقيدةً وشريعةً، وأخلاقًا وحضارة، وفقهًا للسلوك أو الطريق إلى الله؛ الذي يصور شمول المنهج الإسلامي وتنوعه وتوسُّعه، كما يصور توازنه وتكامله، ووسطيَّته واستقامته التي أشار إليها القرآن الكريم بقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۞ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۞ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۞﴾ [الرحمن: ٧- ٩]. وقوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

كما يشير إلى علوه وسُمُوه بالدعوة إلى الحق والخير والجمال، التي تتمثل في الدعوة إلى الله الرحمن الرحيم، وإلى كل كمالات الإسلام والإيمان والإحسان.

ومن يقرأ ما كتبناه عن أدب المسلم، أو عن الآداب الإسلامية المتكاملة، وارتباطها بسائر أنواع السلوك؛ يتبيَّن له بحق: أنَّ الإسلام هو المنهج الذي رسمه اللهُ للمسلمين: أفرادًا وأسرًا، وجماعات وأمة، شبابًا وشيوخًا، رجالا ونساءً، ريفًا ومُدُنًا، وبدوا وحضرًا، ليسيروا عليه في حياتهم كلها: حياتهم الفردية، وحياتهم الاجتماعية. حياتهم الدينية والروحية، وحياتهم المادية والدنيوية. وهو المنهج الذي طلب الله تعالى من المسلم أن يسأل ربه في كل يوم سبع عشرة مرة على الأقل أن يهديه إليه، حين يقرأ الفاتحة في صلواته الخمس: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝﴾ [الفاتحة: ٦ - ٧].

هذا الصِّراط، أو هذا المنهج، يصحب المسلم في رحلة الحياة كلها، من بدايتها إلى نهايتها، مِن لحظة الميلاد إلى ساعة الوفاة، وخصوصًا من ساعة التكليف، ولهذا وجدنا في الإسلام تشريعاتٍ وتوجيهات تتعلق بالمولود منذ رؤيته لنور الحياة، مثل: الفرح به، وحمد الله على ولادته بسلام، وقيام أمِّه بالسلامة، وتسميته، واختيار أحسن الأسماء له، والاحتفال به، والذبح عنه، وهو ما يُعرف باسم «العقيقة»، وغير ذلك من أحكام، جمعها الإمام ابن القيم في رسالة سمَّاها: «تحفة المودود في أحكام المولود». بل هناك أحكام شرعية تتعلق بالإنسان، وهو جنين في بطن أمه، أي قبل أن يولد ويعرف له اسم، كالأحكام التي تتعلق بالمرأة الحامل، والمحافظة على الجنين، وعلى حياته، فلا يجوز لها أن تجهض حملها عمدًا، ولو جاء من حرام، فهو لا ذنب له، وإن كان صوم رمضان يضرها أو يضره؛ فلا يجوز لها أن تصوم.. إلى غير ذلك من الأحكام. ولهذا رأينا الرسول الكريم يرجئ

عقاب المرأة الغامدية، حتى تلد طفلها[1]، ويصبح في الإمكان استغناؤه عنها.

ولقد عبَّر الإمام الشهيد حسن البنا، عن شمول المنهج الإسلامي، فقال وأجاد فيما قال: إنها الرسالة التي امتدت طولًا حتى شملت آباد الزمن، وامتدت عرضًا حتى انتظمت آفاق الأمم، وامتدت عُمقًا حتى استوعبت شؤون الدنيا والآخرة.

الامتداد الطولي للمنهج الإسلامي:

ويظل الإسلام يصحب الكائن الإنسانيَّ في أطواره كلِّها: في مهده ورضاعه وفطامه، وتربيته وتعليمه وتغذيته، وإلهامه وإمداده، وتدريسه وتدريبه وتفقيهه، في صباه وشبابه، ويفاعته ورجولته، وكهولته وشيخوخته، بما فيها زواجه وإنجابه، ومعاشه، وعمله الديني والدنيوي، حتى يدخل القبر.

ومن ذلك: صحته ومرضه، في جسمه ونفسه، ووقايته وعلاجه، فردًا ومجتمعًا وأمة، حتى يقوم بكل ما يحتاج إليه، وما يُتطلَّب منه من أقوات ومأكولات ومشروبات وملابس ومساكن وأدوات للسلم وللحرب، ولكل ما هو لازم أو مطلوب للإنسان.

والأحكام التي تتعلق بالمرض والاحتضار، وتلقين الشهادة، والوفاة، والتغسيل والتكفين والصلاة والدفن، معروفة لدى عامة المسلمين، وهي التي تُعرض في الفقه الإسلامي تحت عنوان: «أحكام الجنائز».

الامتداد العرضي والأفقي للمنهج الإسلامي:

وكما يصحب الإسلامُ المسلمَ – طُوليًا أو رأسيًا أو زمنيًا – عُمُرَه كله، يصحبه

(١) رواه مسلم في الحدود (١٦٩٥)، عن بريدة بن الحصيب.

عَرْضيًّا أو أفقيًّا أو مكانيًّا في مجالات حياته كلها كذلك: في البيت، وفي المسجد، وفي المدرسة والجامعة، وفي السوق، وفي المزرعة، وفي المصنع، وفي المكتب، وفي المتجر، وفي كل عمل، يصحبه حين ينام، وحين يستيقظ، وحين يعمل ويكدُّ لدنياه، وحين يلهو ويُروح عن نفسه، وحين يتعبَّد لربِّه، وحين يتعامل مع خلقه، وحين يتعلم ويتثقَّف، وحين يسافر، وحين يُقيم، وحين يغدو ويروح، وحين يتعب، وحين يستريح. يشعر في ذلك كله أنه ملتزم بمنهج لا يجوز له التَّخلِّي عنه، أو الانفلات منه، بل يتلو دائما قول ربِّه: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام:١٦١، ١٦٢].

الامتداد العمقي للمنهج الإسلامي:

وكما يمتدُّ الإسلام في حياة المسلم طُولًا وعَرْضًا، يمتدُّ فيها عُمْقًا، فهو ليس مع المسلم في أحواله المادية والظاهرية فحسب، التي يُعنى بها رجال القانون، ولكنه مع المسلم أيًّا كان وضعه، من ذكر أو أنثى، من حاكم أو محكوم، من غني أو فقير؛ في كل شؤونه وأحواله، الماديَّة والروحيَّة، والفكريَّة والاجتماعيَّة، والاقتصاديَّة والبيئية، إنه مع المسلم بأوامره ونواهيه، وتشريعاته ووصاياه، في تفكيره وثقافته، وفي عواطفه ومشاعره، في أكْلِه وشُربه، وفي مَلْبَسه، وفي زِينته، وفي مِشيته وجِلسته، وفي فرَحه وحُزنه، وفي ضَحِكه وبكائه، وفي نومه ويقظته، وفي جِدِّه وهزْله، وفي خلوته وجلوته.

لا يغفل الإسلام أن الإنسان مخلوق ركَّبه الله تركيبًا عجيبًا، فهو مخلوق من طين، والطين لا يخلو من الكَدَر، ولكنَّ الله سواه ونفخ فيه من روحه، حين طلب من الملائكة أن تسجد تحية له، وطرد إبليس من حضرته حين رفض ذلك. قال

تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [الحجر:٢٨- ٤١].

إنَّه مع المسلم في علاقته بنفسه، وفي علاقته بربِّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وفي علاقته بأسرته، وفي علاقته بجيرانه وعُشَرائه، وفي علاقته بمجتمعه وأمته، وفي علاقته بأهل مِلَّته، وفي علاقته بمخالفي دينه، وفي علاقته بالعالم من حوله، مسالمين ومحاربين، وبالكون كله: أرضه وسمائه، ما يُرى وما لا يرى، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١].

إنَّ هذا الدين هو منهج الله للإنسان، أي: للإنسان كله: الإنسان رُوحًا، والإنسان جسمًا، والإنسان عقلًا، والإنسان وجدانًا، والإنسان إرادة، الإنسان فردًا، والإنسان في أسرة، والإنسان في جماعة، والإنسان في دولة، والإنسان في أمة، والإنسان في محيطه العالمي. فهو يشرِّع له ويوجِّهه في كل أحواله، وفي أموره كافَّة؛ حتى لا يتيهَ في الدرب، ولا تتفرّق به السُّبل، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام:١٥٣].

المسلم مقيَّد بشرع الله في كل حياته:

إنَّ المسلم مقيَّد بحدود الله وأحكامِه وتعليماته في حياته كلها: في ثقافة فكره، وعواطف قلبه، وسلوك جوارحه. وبعبارة أخرى: في اعتقاداته وأفكاره، وشعائره وعباداته، وحلاله وحرامه، ومشاعره وأقواله، وأعماله وأخلاقه، في حبه أو كرهه، في سلمه وحربه، إذا تعامل مع أصدقائه أو مع أعدائه، مع أقرب الناس إليه، أو أبعد الناس عنه. فهو إذا تعلَّم أو فكَّر أو تعامل بعواطفه، مُقيَّد بأمر الله ونهْيه، أي: بشرع الله. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ۝٣٦﴾ [الأحزاب:٣٦].

وهو إذا أحبَّ أو كَرِه، رضِيَ أو سخط، فرح أو حزن، قبل أو رفض؛ مقيَّد بشرع الله، ولهذا جاء في الحديث: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به»[(١)]. وقال ﷺ: «ثلاث من كُنَّ فيه، وجد حلاوة الإيمان: أن يكون اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه ممَّا سواهما، وأن يحبَّ المرءَ لا يحبُّه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله، كما يكره أن يقذف في النار»[(٢)].

فهو يفرح بكل ما يناله هو أو من يحبه من خير، فرحَ المؤمنين لا فرح المستكبرين، الذين يفرحون بالماديات وحدها دون أن يؤدوا حقها، كفرح قارون الذي نصحه قومه وقالوا: ﴿لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ۝٧٦﴾ [القصص: ٧٦]. فبغى على قومه، ومشى في ركاب فرعون، وخسف الله به وبداره الأرض، ﴿فَمَا

---

(١) رواه ابن أبي عاصم في السنة (١٥)، وابن بطة في الإبانة (٢٧٩)، والبيهقي في المدخل للسنن الكبرى (٢٠٩)، وصحح إسناده النووي في آخر الأربعين النووية، وقال الحافظ في فتح الباري (١٣/ ٢٨٩): رجاله ثقات، عن عبد الله بن عمرو.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣) كلاهما في الإيمان، كما رواه أحمد (١٣٥٩٢)، والترمذي في الإيمان (٢٦٢٤)، عن أنس.

كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [القصص:٨١].

وهو يحزن على ما يصيبه من هموم، ولكن لا يُخرجه الحزن عن إيمانه بربّه، وعن صدقه في سلوكه، ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ﴾ [يوسف:٨٤]. وقال: ﴿ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٨٦]. فهو حزن شديد، ولكن لا يفقد صاحبه الأمل، ولا يوئسه من روح الله، ولا من رحمة الله التي وسعت كل شيء، ولذلك يقول تعالى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴾ [يونس:٥٨]. فالفرح المتّصلُ بالله مطلوب، كما أن فرح المعجب بنفسه، والفرح بالشر غير مطلوب، كما قال تعالى لأهل النار: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ﴾ [غافر:٧٥].

وهو إذا عبّر عن فكره أو شعوره، بلسانه أو قلمه، بشعره أو نثره أو رسمه؛ مُقيَّد بشرع الله.

فشرع الله تعالى- أي أمره ونهيه، وحلاله وحرامه- يحكمه في حياته كلها، منفردًا أو مجتمعًا، لا ينفصل هذا الشرع عنه، ولا ينعزل هو عن هذا الشرع؛ لأن الله معه دائمًا، ولا يغيب عنه، كما قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة:١١٥].

وإنْ شرَّق المرء المسلم أو غرَّب، فالشريعة معه توجِّهه حيثما توجه، وتحكمه أينما سار، يمنة أو يسرة، كما قال تعالى لرسوله: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الجاثية: ١٨- ٢٠].

ربط المسلم بربه دائماً:

ومن خصائص المنهج الإسلامي: أنه يقصد ويعمل على ربط المسلم بربّه في كل حين، وفي كل حال، في كل قول أو عمل، فإذا كان كل شيء في هذه الدنيا خُلق من أجل الإنسان، ومنفعة الإنسان: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩]، فالإنسان كله قد خلق لله ﷻ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٦ - ٥٨].

فلذلك تتميَّز الآداب الإسلامية كلها: في الطعام والشراب، واللباس والتزين، والزواج، والبيع والشراء، والتعلُّم والعمل، والصحبة والسفر، واللهو والترويح، وفي كل شؤون الحياة؛ بالمعاني الربَّانيَّة المرتبطة بها.

ولذلك نجد في كل هذه الألوان من الحياة الفرديَّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة وغيرها أذكارًا مأثورة، تصل المرء بربه، وترطب لسانه بذكره، وقلبه بمحبته.

فهو يبدأ طعامَه باسم الله، ويُنهيه بالحمد لله، وكذلك شرابه، وكذلك لباسه، وتجمله، يبدأ بذكر الله تعالى المناسب له، الذي ينبغي أن يحفظه ويذكره في كل مناسبة له، كما ذكر لنا القرآن نموذجًا، فقال: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١٢ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ۝١٤﴾ [الزخرف:١٢ - ١٤]. فهو إذا ركب الدابة أو السفينة ذكر الله، وكذلك إذا ركب السيارة أو القطار أو الطائرة أو ما هو أسرع، ذكر الله.

الإسلام هو دين الله الواحد:

والإسلام هو دين الله تعالى الواحد، الذي أنزل به كتبه، وبعث به رسلَه،

حسب حاجة الخلق، منذ خلق الله آدم أبا البشر، إلى أن ختم رسله بمحمد عليه وعليهم الصلاة والسلام. اتفقت رسل الله وأنبياؤه جميعًا على أصوله العقديَّة والأخلاقيَّة، وجعل لكل منهم شرعةً ومنهاجًا، كما قال تعالى في كتابه الخالد، الذي أنزله على نبيِّه الخاتم: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى:١٣]، وقال تعالى في سورة أخرى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨].

لهذا كانت عقائد الأنبياء، وقيمهم الأخلاقية الكبرى واحدة، وإنما تختلف شرائعهم، ولذا قال المسيح لليهود: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران:٥٠].

وجاء الإسلام بالشريعة العامَّة الخالدة، التي نسخت كل الأحكام المرحلية، التي جاءت بها الشرائع السابقة، وكل الأحكام التي كان تشريعها لظروف خاصَّة، كالمحرَّمات التي حرمت على اليهود، جزاء على ظلمهم وبغيهم، كما قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَوٰا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ النَّاسِ بِالْبَٰطِلِ﴾ [النساء:١٦٠، ١٦١].

ولهذا أعلن عن شريعة محمد في كتب الأقدمين، من قبل أن يبعث، بما وصفه القرآن: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَىٰةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَٰلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

هذا الإسلام العظيم، الذي حُفِظَ كتابُه المُبين: القرآن الكريم، فبقي كما أنزله الله تعالى، ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾ [هود:١]. وتكفَّل الله سبحانه بحفظه، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩].

وامتنَّ سبحانه به على الأمة فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣].

قال أُناس من اليهود: لو نزلتْ هذه الآية فينا لاتَّخذنا ذلك اليوم عيدًا. فقال عمر: أيَّة آية؟ فقالوا: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. فقال عمر: إني لأعلم أي مكان أنزلت، أنزلت ورسول الله ﷺ واقف بعرفة(١). أيْ: أنزلت في يوم العيد في حجة الوداع.

وأعلن القرآن أن كل الرسل والأنبياء من قبلُ كانوا مسلمين. فشيخ المرسلين نوح قال لقومه: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [يونس:٧٢].

وإبراهيم قال الله في شأنه: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران:٦٧]، ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة:١٣١].

ويعقوب مع إبراهيم وبنيه مسلمون: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة:١٣٢].

ويوسُف قال لربِّه: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف:١٠١].

وموسى قال لقومه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس:٨٤].

والمسيح قال لقومه: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [آل عمران:٥٢].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في المغازي (٤٤٠٧)، ومسلم في الإيمان (٣٠١٧)، عن طارق بن شهاب.

والأنبياء في العصور كافة كانوا يدعون الناس إلى الإسلام، لا إلى أنفسهم أو أقوامهم أو مصالحهم، هذا هو شأن كل نبي، ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝٨٠﴾ [آل عمران:٨٠].

ولذا أعلن الله ﷻ هذه الحقيقة الناصعة، التي أصبحت قاعدة عامَّة للبشرية كافة: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ﴾ [آل عمران:١٩].

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝٨٥﴾ [آل عمران:٨٥].

وإذا كان الناس في عصورهم المختلفة، قد بدا لهم أن يغيِّروا في حقائق هذا الدين الواحد، بما فيه من معتقدات ومفاهيم، وعبادات ومعاملات، وتشريعات وأخلاقيات، فقد شاء الله أن يبعث رسوله محمدًا، ويختم به الرسل، ليجدد هذا الدين الواحد، الإسلام الذي بعث به كل الرسل، ويُجلي أصوله، ويُرسي قواعده، ويشرح أهدافه، ويقيم أمَّته، ويُعلي حجته، ويرفع رايته، ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ۝٩٢﴾ [الأنبياء:٩٢].

منهجنا في هذا الكتاب:

ونحن في هذا الكتاب في سلسلة «تيسير الفقه للمسلم المعاصر في ضوء الكتاب والسنة»، نحاول أن نضع أمام المسلم، رجلًا كان أو امرأة، في الشرق أو في الغرب، من العرب أو من العجم: «فقه الآداب الإسلامية»، التي هي جزء أساس من الفقه الإسلامي المطلوب للمسلم وللحياة الإسلامية.

ولهذا سمَّيناه «أدب المسلم مع الله والنفس والناس والحياة»، وهو أدب عُنِيَ به الإسلام، في قرآنه وسنَّته، وعُني به الصحابة وتابعوهم بإحسان ﷺ، وعُني به علماء الأمَّة على اختلاف تخصُّصاتهم، فقهاء ومفسِّرون ومحدِّثون ومتصوفة، وإن لم يفردوا

هذه الآداب بصورة واضحة، في الفقه الإسلامي، ولكنهم ذكروا أجزاء منها في كتب الفقه، في أبوابه المتفرقة، وبعضهم جمعوها في أبواب خاصة، وبعضهم ألَّفوه في كتب مستقلة، تشمل الآداب خاصة، كما فعل الإمام محمد بن مفلح الحنبلي «ت٧٦٢هـ»، الذي قال فيه ابن القيم: لا يوجد تحت قبة الفلك، أعلم منه بمذهب أحمد[١]. والذي ألف كتابه الشهير: «الآداب الشرعية والمنح المرعية»، ونشره العلامة السلفي المجدد الشيخ محمد رشيد رضا، ثم نشرته دار الرسالة في بيروت بتحقيق الشيخ العالم المحقق: شعيب الأرناؤوط، والدكتور المحقق عمر حسن القَيَّام.

وقد انتفعنا بهذا الكتاب ما وسِعنا، وانتفعنا بالكتب الأخرى، مثل «الإحياء» للإمام أبي حامد الغزالي «ت٥٠٥هـ»، فقد عُني في الربع الثاني من الكتاب بهذه الآداب، فقد جعل الربع الأول في العبادات، وجعل الربع الثاني في المعاملات، وبعضها في أسس الآداب مباشرة، وبعضها في مفاهيم أخرى، وإن كان لها صلة ما بهذه الآداب، مثل الحلال والحرام، والعزلة والاختلاط، ونحوها.

وقد استفدنا كثيرًا ممَّا كتبه الإمام الغزالي في هذه الآداب، ولكن تركنا الأحاديث الواهية والضعيفة والمكذوبة وما لا أصل له من كتابه، وكذلك المبالغات المبنيَّة على هذه الأحاديث، ومثلها ما بُني على الإسرائيليَّات والمنامات، وما لا يعتد به عند الراسخين، وما عدا ذلك استفدنا منه، ولم نجد في ذلك أي غضاضة.

كما استفدنا من كتاب الإمام ابن القيم في كتابه: «زاد المعاد في هدي خير العباد»، وغيره من الكتب.

---

(١) ينظر: شذرات الذهب (٨/ ٣٤٠)، نشر دار ابن كثير - دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م.

وقد بدأنا كتابنا هذا بتمهيد طويل عن «الأدب» الذي هو موضوع هذا الكتاب، الذي اهتمَّ به أولًا علماء الحديث، وجعلوا في كتبهم: (كتاب الأدب) كما في البخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه. وألَّف الإمام البخاري كتابًا خاصًّا سمَّاه: «الأدب المفرد»، وكانت بدايتهم من الحديث المشهور: «أدَّبني ربي فأحسن تأديبي»[1] وحوله دندنوا.

كما عُني المتصوفة بالأدب، وتحدَّثوا عنه في كتبهم ومؤلفاتهم الخاصة، وصنفوه ضمن «منازل السائرين» إلى مقامات ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾، كما فعل الإمام الهروي (ت٤٨١هـ) في رسالته التي شرحها الإمام ابن القيم (ت٧٥١هـ)، على منهج شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية (ت٧٢٨)، في كتابه: «مدارج السالكين»، وقد استفدنا منه، ومن كتب ابن القيم كلها، ومن مدرسة ابن تيمية، وعلمائها الأفذاذ.

وكذلك عُني بالأدب علماء اللغة العربية وآدابها، وانتقلت الكلمة إليهم، لتضيف لهم علمًا كبيرًا واسعًا، يسمَّى: «علم الأدب».

وقد أُلِّفَتْ فيه الموسوعات الأدبيَّة قديمًا وحديثًا، من شعر ونثر ورسائل ووصايا وقصص وروايات ومقامات، ممَّا قدُم وما حدث. وما لا يزال يتصبب علينا سيولًا وأغادير، منها ما يروي، ومنها ما يُغرق، ومنها ما يصفو، ومنها ما يكدِّر.

---

(١) وهو حديث ضعيف جدًّا، كما قرَّر الحافظ السَّخاوي في «المقاصد الحسنة» ح (٤٥) وعزاه إلى العسكري في كتابه: «الأمثال بسنده» إلى سيدنا عليٍّ عن النبي ﷺ، وبنحوه أخرجه ابن السَّمْعاني في «أدب الإملاء والاستملاء» ص١ عن ابن مسعود مرفوعًا بسند ضعيف. قال السخاويّ رحمه الله: وبالجملة فهو كما قال ابنُ تيميّة لا يُعرَفُ له إسناد ثابت. وقال الإمامُ الزَّركشيُّ: حديث أدّبني ربّي فأحسن تأديبي، معناه صحيح، لكنه لم يأتِ من طريق صحيح. وينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (١/ ٤)، ط. دار الكتب العلمية القاهرة ١٣١٩هـ.

وواضح اختلاف معنى الأدب عند اللغويين عنه عند الشرعيين.

ولكل شريحة من شرائح المجتمع في ديننا آداب تخصها، مثل: أدب العالم، وأدب المتعلم، وأدب القاضي، وأدب الوزير، وأدب الكاتب، وأدب المدرس، وأدب الفقيه، وأدب المفتي والمستفتي، وأدب المملي والمستملي، وأدب المعيد، وأدب المناظرة، وأدب الكلام، وأدب الضيافة وأدب المائدة، إلى آخره.

وفي هذا الكتاب تحدَّثتُ بعد التمهيد الطويل عن الأدب وأهميته ووسائل اكتسابه، وعن الملامح العامة للآداب الإسلامية: من ملاءمة الفطرة السليمة وتكميلها، وترقية الذوق الإنساني، والارتفاع بالإنسان عن مستوى الغرائز الحيوانية، ومن درك الأنانية إلى الأخوة والإيثار، والحرص على تميز المجتمع المسلم بمظهره ومخبره عن غيره من المجتمعات، وتكافله في رعاية هذه الآداب وحمايتها، ومسؤولية الدولة عن تعهد هذه الآداب وحراستها، وربط الإنسان بربه في كل أحواله وأحيانه.

ثم تحدثنا عن جملة كبيرة من هذه الآداب المهمَّة، وأطلنا في الحديث عنها حتى نُوفِّيها بعض حقِّها. وإن كان كل أدب منها يستحق أن يؤلف فيه كتاب خاص، فلا عجب من تطويلنا فيها، فهي تستحق.

وبدأنا بأول الآداب وأهمها وذروتها: الأدب مع الله تعالى، وألحقنا به الأدب مع رسوله ﷺ، فهو تتمة له.

ثم أتبعته ببعض آداب المسلم مع نفسه: أدب التبصُّر في تكوين الرأي، وأدب التمسك بالحق والثبات عليه.

ثم عن أدب المسلم في الحياة اليومية: أدب النوم واليقظة، وأدب الطعام والشراب، وأدب المشي في الطريق، وأدب الجلوس، وأدب اللباس والزينة.

ثم عن أدب المسلم في الأسرة: أدب الخطبة، وأدب الزواج والزفاف، وأدب العشرة الزوجية، وأدب الطلاق والفراق، وأدب التعامل مع الوالدين، وأدب التعامل مع الأولاد، وأدب التعامل مع ذوي القربى.

ثم عن أدب المسلم في الحياة الاجتماعية: أدب التعامل مع الضعفاء من اليتامى والمساكين وأبناء السبيل وما ملكت الأيمان، وأدب الجوار، وأدب الصحبة والصداقة، وأدب الزيارة، وأدب التحية والسلام، وأدب المجالس، وأدب الحديث، وأدب الضحك والمزاح واللهو، وأدب الصحة والمرض، وأدب السفر والارتحال، وأدب الكسب والاحتراف، وختمت الآداب بالحديث عن أدب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولما كنتُ قد كتبتُ عن جملة كبيرة من الآداب في ثنايا كتبي، اكتفيت بما كتبتُ هناك بما يغني عن إعادته، وأحيل القارئ الكريم إليه في مواضعه: مثل: آداب العبادة وشمولها في «العبادة في الإسلام»، وآداب العلم في كتبي: «الرسول والعلم»، و«الحياة الربانية والعلم»، و«العقل والعلم في القرآن الكريم»، وآداب التعامل مع القرآن الكريم في «كيف نتعامل مع القرآن»، وآداب الجهاد والمجاهدين في كتاب: «فقه الجهاد»، وآداب الاختلاف في «الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم»، وآداب البيئة في «رعاية البيئة في شريعة الإسلام»، وغير ذلك من الآداب الإسلامية مما تناولته في خطبي ومحاضراتي وبرامجي ولقاءاتي.

ولا نعدُّ أنفسنا قد استوفينا جميع الآداب التي تلزم المسلم في حياته، ولكن حسبُنا أننا وضعنا أمامه أهم هذه الآداب، ليتأدب بها، ويتعلَّم منها، ويتخذها

نبراسًا لحياته، حتى يفلح سعيه، ويصلح عمله، وتربح تجارته في الدنيا والآخرة. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾ [فاطر:٢٩، ٣٠].

وهكذا نرى المسلم في حضره وسفره، وفي يقظته ونومه، وجوعه وشبعه، وفي ضحكه وبكائه، وفي فرحه وحزنه، وفي تعبُّده الديني، وفي عمله الأسري، وعمله الثقافي، وعمله الاجتماعي، وعمله السياسي؛ له أدب مع ربه في كل حالة، يحفظه ويردده بلسانه وقلبه، ويقوم به بجوارحه وعقله، سائلًا ربَّه المغفرة والرحمة، وطالبًا منه النصرة والمعونة، ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم:٤٠، ٤١].

﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأعراف:٨٩].

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [آل عمران:١٤٧].

فالمسلم- كما أشرنا- إذا تحرَّك بجوارحه لعمل ما، مقيَّد بشرع الله، مُبْتغٍ وجْهَ الله، ساعٍ إلى رضاه. فهو مخلوقٌ ربَّانيُّ الأساس، إنسانيُّ الوجْهة، عالَمِيُّ الهدف، أخلاقيُّ الغاية، إيمانيُّ الروح.

المسلم كل المسلم في عباداته، وفي معاملاته، وفي آدابه، وفي أخلاقه، وفي كل أنواع سلوكه: مع ربه، ومع نفسه، ومع أسرته، ومع مجتمعه، ومع أمته، ومع مخالفي ملته، مع المسالمين والمحاربين؛ ملتزم كل الالتزام بما يقيِّده به الإسلام، ولا يقيِّده الإسلام إلا بالحق والخير والجمال، حتى يرضى بالله تعالى ربًّا،

وبالإسلام دينًا، وبالقرآن إمامًا، وبمحمَّد ﷺ نبيًّا ورسولًا. ومثل هذا لا يصدر عنه إلا كل ما ينفع الناس ويمكث في الأرض.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ۝ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ۝﴾ [آل عمران:٨- ٩].

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝﴾ [الحشر:١٠].

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۝﴾ [البقرة:٢٨٦].

الدوحة

الخامس من أبريل ٢٠١٧م

الثامن من رجب ١٤٣٨هـ

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته

يوسف بن عبد الله القرضاوي

تمهيد

(١)

مفهوم «الأدب» في تراثنا العربي والإسلامي

الأدب إحدى الكلمات القلائل النادرة التي تشمل كلَّ ما جاء به الإسلام، مَثَلها مَثَل كلمة «الأمانة»، فهي في معناها المحدود: أداء الوديعة لصاحبها، ولكنها في معناها العام المراد بقوله سبحانه آخر سورة الأحزاب: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾ [الأحزاب:٧٢]: هي الإسلام كله.

قال القرطبي: «الأمانة تعمّ جميع وظائف الدين، على الصحيح من الأقوال، وهو قول الجمهور»(١).

كذلك كلمة: «العدل» فإن معناها الضيِّق: العدل في الحكم والقضاء، وهو ضد الظلم، لكنها في معناها العام شاملة للإسلام كله(٢).

ومن ذلك كلمة «الأدب»، فإنها تحمل هذا المعنى الشامل للإسلام كله، فإن الأدب أدبٌ مع الله ﷻ، وأدبٌ مع مخلوقاته كلهم: أنبيائه، وملائكته.. ومن سواهم، وأدب العبد مع نفسه، ومع من يتصل به اتصالًا وثيقًا كوالديه، أو اتِّصالًا خفيفًا، كمن يلقاه ولو مرةً في طريقه.

---

(١) في تفسير الآية (١٤/ ٢٥٣).

(٢) كما شرحه ابن العربي في أحكام القرآن (٣/ ١٥٣-١٥٤) تفسير الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل:٩٠].

بل هو باختصار وإيجاز شديد: أدب العبد مع ربّه بالتصديق بكل ما جاء عنه وبالعمل به.

ومن شواهد هذا العموم والشمول: ما حكاه الإمام أبو القاسم القشيري رحمه الله تعالى في «الرسالة القشيرية»، عن سيِّد التابعين سعيد بن المسيَّب رضي الله عنه قال: «مَن لم يعرف ما لله عز وجل عليه في نفسه، ولم يتأدَّب بأمره ونهيه: كان من الأدب في عزلة»[1].

معنى كلمة (أدب) في «القاموس» وشرحه «التاج»:

«الأَدَب- محركة- الذي يتأدَّب به الأديبُ من الناس، سُمِّي به؛ لأنه يأدُب الناس إلى المحامد، وينهاهم عن المقابح. وأصل الأدب: الدعاء. وقال شيخنا[2] ناقلًا عن تقريرات شيوخه: الأدب ملكةٌ تعصم من قامت به عمَّا يشينه.

وفي «المصباح المنير»: هو تعلُّم رياضة النفس ومحاسن الأخلاق.

وقال أبو زيد الأنصاري: الأدب: يقع على كل رياضة محمودةٍ يتخرج بها الإنسان في فضيلة من الفضائل. ومثله في «التهذيب».

وفي «التوشيح»: هو استعمال ما يحمد قولًا وفعلًا، أو الأخذ بمكارم الأخلاق، أو الوقوف مع المستحسنات، أو تعظيم من فوقك والرفق بمن دونك.

---

(١) الرسالة القشيرية (٢/ ٤٤٥) ت: الإمام الدكتور عبد الحليم محمود، والدكتور محمود بن الشريف. دار المعارف، القاهرة.

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن الطيب بن محمد الفاسي، المولود بفاس سنة ١١١٠، والمتوفى بالمدينة المنورة سنة ١١٧٠، قال عنه الزبيدي في مقدمة التاج: وهو عمدتي في هذا الفن، والمقلِّد جيدي العاطل بحلي تقريره المستحسن.

ونقل الخفاجي في «العناية» عن الجواليقي في «شرح أدب الكاتب»: الأدب في اللغة: حُسن الأخلاق وفعْل المكارم، وإطلاقه على علوم العربية مولَّدٌ حدث في الإسلام.

وقال ابن السيد البطليوسي: الأدب أدب النفس والدرس.

والأدب: «الظَّرْف» - بالفتح- و«حسن التناول»، وهذا القول شاملٌ لغالب الأقوال المذكورة، ولذا اقتصر عليه المصنف.

وقال أبو زيد: «أدُب» الرجل «كحسُن» يأدُب أدبًا فهو أديبٌ ج: «أدباء».

وقال ابن بزرج: لقد أدُبت «آدب» أدبًا حسنًا وأنت أديبٌ، و«أدَّبه»، أي: «علمه فتأدَّب» تعلَّم، واستعمله الزجَّاج في الله ﷻ فقال: والحق في هذا ما أدَّب الله تعالى به نبيَّه ﷺ.

«و» فلانٌ قد «استأدب» بمعنى تأدَّب، ونقل شيخنا عن «المصباح»: أدَبْته أدبًا، من باب ضرب: علَّمته رياضة النفس ومحاسن الأخلاق. وأدَّبته تأديبًا مبالغةٌ وتكثيرٌ. ومنه قيل: أدَّبته تأديبًا، إذا عاقبته على إساءته؛ لأنه سببٌ يدعو إلى حقيقة الأدب.

وقال غيره: أدبه، كضرب، وأدَّبه: راض أخلاقه وعاقبه على إساءته لدعائه إياه إلى حقيقة الأدب. ثم قال: وبه تعلم أن في كلام المصنِّف[1] قصورًا من وجهين. «والأُدبة بالضم والمأدُبة»، بضم الدال المهملة، كما هو المشهور، وصرح بأفصحيته ابن الأثير وغيره «و» أجاز بعضهم «المأدَبة» بفتحها، وحكى ابن جني كسرها أيضًا، فهي مثلثة الدال، ونصُّوا على أن الفتح أشهر من الكسر: كل «طعام

(١) يعني: صاحب المصباح المنير.

صنع لدعوة»، بالضم والفتح، «أو عرس» وجمعه المآدِب، قال صخر الغي يصف عُقابًا[(١)]:

كأن قلوب الطير في قعر عُشِّها نوى القسْب ملقًى عند بعض المآدِب

قال سيبويه: قالوا: المأدَبة، كما قالوا: المدعاة، وقيل: المأدَبة من الأدب، وفي الحديث عن ابن مسعود ﷺ: «إن هذا القرآن مأدبة الله في الأرض، فتعلَّموا من مأدبته» يعني: مدعاته.

قال أبو عبيدٍ، يقال: مأدَبةٌ ومأدُبةٌ، فمن قال مأدُبةٌ أراد به الصنيع يصنعه الرجل فيدعو إليه الناس، شبَّه القرآن بصنيعٍ صنعه الله للناس، لهم فيه خيرٌ ومنافع، ثم دعاهم إليه. ومن قال مأدَبةٌ جعله مفعلة من الأدب.

وكان الأحمر يجعلها لغتين مأدُبة ومأدَبة بمعنى واحدٍ.

وقال أبو زيد: آدبتُ أودِب إيدابًا، وأدَبت آدِب أدبًا، والمأدُبة للطعام، فرَّق بينها وبين المأدَبة للأدب.

وآدب البلادَ يُؤدِب «إيدابا: ملأها» قسطًا و«عدلًا»، وآدَب القومَ إلى طعامه يُؤدِبهم إيدابا وأَدَب: عمل مأدبة»[(٢)].

وقال الحافظ ابن حجر: «الأدب: استعمال ما يُحمد قولًا وفعلًا. وعبَّر بعضهم بأنه: الأخذ بمكارم الأخلاق. وقيل: الوقوف مع المُسْتَحسنات»[(٣)].

وذكر المُناوي تعريفًا آخر- زيادة على ما تقدَّم- نقله عن «شرح النوابغ» قال:

---

(١) شرح أشعار الهذليين (١/ ٢٥١)، ولسان العرب (أدب).

(٢) تاج العروس (أدب).

(٣) الفتح، أول كتاب الأدب (١٠/ ٤٠٠).

«هو ما يؤدِّي بالناس إلى المحامد»[1].

أي: يدعوهم»[2].

وكلٌّ هذه المعاني مرادةٌ في معنى الأدب، داخلة في مُسمَّاه، ولا تعارض بين واحد منها والآخر.

استعمال كلمة «أدب» في علوم اللغة العربية:

كتب الأستاذ الدكتور شوقي ضيف رئيس مجمع اللغة العربيَّة بالقاهرة، وأستاذ الأدب العربي المتخصِّص، في مقدمة كتابه عن «الشعر الجاهلي» مقدمة نفيسة عن استعمال كلمة «أدب» في اللغة العربية، في عصر الجاهليَّة، والعصر الإسلامي بعهوده المختلفة من العصر النبوي والراشدي والأموي والعباسي وما بعدهما، لخَّص فيها تلخيصًا جيدًا ما انتهى إليه الرأي والبحث في هذه القضية، فقال: «كلمة (أدب) من الكلمات التي تطور معناها بتطور حياة الأمة العربية وانتقالها من دور البداوة إلى أدوار الحضارة. وقد اختلفت عليها معانٍ متقاربة، حتى أخذت معناها الذي يتبادر إلى أذهاننا اليوم، وهو: الكلام الإنشائي البليغ، الذي يقصد به التأثير في عواطف القراء والسامعين، سواء أكان من الشعر أم من النثر.

وإذا رجعنا إلى العصر الجاهلي ننقِّب عن الكلمة فيه، لم نجدها تجري على ألسنة الشعراء، إنما نجد لفظة «آدِب» بمعنى الداعي إلى الطعام، فقد جاء على لسان طرفة بن العبد:

نحنُ في المَشْتاةِ ندعو الجَفَلَى ... لا ترى الآدِبَ فينا يَنْتَقِرْ

ومن ذلك «المأدُبة» بمعنى الطعام الذي يُدعى إليه الناس، واشتقوا من هذا

(١) التوابغ: هو نوابغ الكلم للزمخشري.

(٢) فيض القدير (١/ ٢٢٤).

المعنى أدُبَ يأدُب، بمعنى صنع مأدبُة أو دعا إليها.

وليس وراء بيت طَرَفة أبيات أخرى تدل على أن الكلمة انتقلت في العصر الجاهلي من هذا المعنى الحسي إلى معنى آخر، غير أننا نجدها تُسْتَخْدم على لسان الرسول ﷺ، في معنًى تهذيبي خلقي، ففي الحديث النبوي: «أدَّبني ربي فأحسن تأديبي»[1]. ويستخدمها شاعر مخضرم يسمَّى سهم بن حنظلة الغَنَوي بنفس المعنى إذ يقول:

لا يمنعُ الناسُ منِّي ما أردت ولا　　　أعطيهمُو ما أرادوا حُسْنَ ذا أدبا

وربما استُخدمت الكلمة في العصر الجاهلي بهذا المعنى الخُلُقي، غير أنه لم تصلنا نصوص تؤيِّد هذا الظن.

ولا نمضي في عصر بني أُميَّة حتى نجد الكلمة تدور في المعنى الخُلُقي التهذيبي، وتضيف إليه معنى ثانيًا جديدًا، وهو معنى تعليمي؛ فقد وجدت طائفة من المعلِّمين تسمَّى بـ«المؤدبين»، كانوا يعلمون أولاد الخلفاء ما تطمح إليه نفوس آبائهم فيهم من معرفة الثقافة العربية، فكانوا يلقِّنونهم الشعر والخطب وأخبار العرب وأنسابهم وأيامهم في الجاهلية والإسلام. وأتاح هذا الاستخدام الجديد لكلمة «الأدب» أن تُصبح مقابلة لكلمة «العِلْم» الذي كان يطلق حينئذٍ على الشريعة الإسلامية، وما يتصل بها من دراسة الفقه والحديث النبوي وتفسير القرآن الكريم.

وإذا انتقلنا إلى العصر العباسي، وجدنا المعنيين التهذيبي والتعليمي يتقابلان

(١) تقدم تخريجه.

في استخدام الكلمة، فقد سمَّى ابن المقفع رسالتين له تتضمنان ضروبًا من الحِكَم والنصائح الخلقية والسياسية باسم «الأدب الصغير» و«الأدب الكبير».

وبنفس هذا المعنى سمَّى أبو تمَّام المتوفى سنة «٢٣٢هـ» الباب الثالث من «ديوان الحماسة» الذي جمع فيه مختارات من طرائف الشعر باسم: «باب الأدب».

وينطبق هذا المعنى تمام الانطباق على كتاب «الأدب» الذي عقده البخاري المتوفى سنة «٢٥٦هـ» في مؤلفه المشهور في الحديث، والمعروف باسم «الجامع الصحيح»[(١)] كما ينطبق على كتاب «الأدب» الذي صنَّفه ابن المعتز المتوفى سنة «٢٩٦هـ».

وفي هذه الأزمنة، أي في القرنين الثاني والثالث للهجرة وما تلاهما من قرون، كانت الكلمة تطلق على معرفة أشعار العرب وأخبارهم، وأخذوا يؤلفون بهذا المعنى كتبًا سمَّوها كتب «أدب» مثل: «البيان والتبيين» للجاحظ المتوفى سنة «٢٥٥هـ»، وهو يجمع ألوانًا من الأخبار والأشعار والخطب والنوادر، مع ملاحظات نقدية وبلاغية كثيرة.

ومثله كتاب «الكامل في اللغة والأدب» للمُبرِّد، المتوفى سنة «٢٨٥هـ»، وقد وجَّه اهتمامه إلى اللغة لا إلى البلاغة والنقد، كما صنع الجاحظ، وقدَّم فيه صورًا من الرسائل النثريَّة التي ارتقت صناعتها في تلك العصور، جاء في مقدمته: «هذا كتاب ألَّفناه، يجمع ضروبًا من الآداب، ما بين كلام منثور، وشعر مرصوف، ومثل سائر، وموعظة بالغة، واختيار من خطبة شريفة، ورسالة بليغة»[(٢)].

وممَّا أُلِّف في الأدبِ بهذا المعنى كتاب «عيون الأخبار» لابن قتيبة المتوفى سنة

(١) وله أيضا: كتاب الأدب المفرد، ولأبي داود أيضًا في سننه: كتاب الأدب.

(٢) الكامل في اللغة (١/ ٢).

٢٧٦هـ، و«العِقْد الفريد» لابن عبد ربه المتوفى سنة ٣٢٨هـ، و«زهر الآداب» للحصري المتوفى سنة «٤٥٣هـ»[١].

كلمة «الأدب» عند أهل العلوم الدينيّة:

ومن المهم هنا أن نتحدث عن كلمة «الأدب» في تراثنا الديني والشرعي، فلا ريب أن الكلمة قد عُرفت عندهم كما عُرفت عند غيرهم، بل إنَّ القرون الأولى كان الجانب الديني فيها أظهر من غيره، كما يظهر ويتجلّى ذلك للدارسين والباحثين[٢].

ولقد ظهر لنا في بحث رجال اللغة: أنهم وجدوا الحديث الذي نسبوه إلى الرسول الكريم: «أدَّبني ربِّي فأحسنَ تأديبي». وهو حديث معروف عند علماء الدين، وإن لم يبلغ درجة الصحَّة المعروفة عندهم، ولكنهم تقبّلوه وتَحدَّثوا عنه وشرحوه، وخصوصًا المتأخرين منهم، كالعلامة المصري المُناوي «ت١٠٣١هـ» شارح «الجامع الصغير» للحافظ السيوطي.

حول معنى حديث: «أدبني ربي»:

قال المناوي: «أدَّبني ربي»، أي: علَّمني رياضة النفس، ومحاسن الأخلاق الظاهرة والباطنة. والأدب: ما يحصل للنفس من الأخلاق الحسنة والعلوم المكتسبة.

«فأحسن تأديبي»، بإفضاله عليَّ بالعلوم الكسبيَّة والوهبيَّة، بما لم يقع نظيره لأحد من البشر.

---

(١) من مقدمة كتاب «الشعر الجاهلي» للدكتور شوقي ضيف، ص ٧-٩، ط: الحادية عشرة، دار المعارف.

(٢) وقد أُلّفت فيه كتب كثيرة، وذكره علماء الحديث في كتبهم الاصطلاحية، إذ لا بد منه في نظرهم، لذلك جعلوا الأدب نوعًا وبابًا من أبواب علوم الحديث.

قال بعضهم: أدَّبه بآداب العبوديَّة، وهذَّبه بمكارم أخلاق الربوبيَّة. لما أراد إرساله ليكون ظاهر عبوديته مرآة للعالم، كقوله: «صلُّوا كما رأيتموني أصلِّي»[1]، وباطن حاله مرآة للصادقين في متابعته وللصِّدِّيقين في السير إليه ﴿فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١].

وقال القرطبي: حفظه الله من صغره، وتولَّى تأديبه بنفسه، ولم يكِلْه في شيء من ذلك لغيره، ولم يزل الله يفعل به، حتى كرَّه إليه أحوال الجاهلية، وحماه منها، فلم يجرِ عليه شيء منها، كل ذلك لُطْف به، وعطْف عليه، وجَمْع للمحاسن لديه.

وفي هذا من تعظيم شأن الأدب ما لا يخفى»[2].

تأديب الله حبيبه وصفيه محمداً بالقرآن:

كان رسول الله ﷺ كثير الضراعة والابتهال، دائم السؤال من الله تعالى أن يُزيِّنه بمحاسن الآداب، ومكارم الأخلاق، فكان يقول في دعائه: «اللهمَّ كما أحسنتَ خَلقي فحسِّن خُلقي»[3]. ويقول: «اللهمَّ جنِّبني منكرات الأخلاق»[4]. فاستجاب الله تعالى دعاءه وفاء بقوله ﷻ: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، فأنزل عليه القرآن وأدَّبه به، فكان خُلُقه القرآن.

قال سعد بن هشام: دخلت على عائشة ﵂ وعن أبيها، فسألتها عن أخلاق

(١) رواه البخاري في الأذان (٦٣١)، عن مالك بن الحويرث.

(٢) فيض القدير (١/ ٢٢٤).

(٣) رواه أحمد (٢٤٣٩٢) وقال: حديث صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين، والبيهقي في شعب الإيمان (٨١٨٤)، عن عائشة.

(٤) رواه الترمذي في الدعوات (٣٥٩١) وقال: حسن غريب، وابن حبان في الرقائق (٩٦٠). وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح، والحاكم في الدعاء (١/ ٥٣٢)، وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (١٢٩٨)، عن عم زياد بن علاقة.

رسول الله ﷺ، فقالت: أما تقرأ القرآن؟ قلت: بلى. قالت: كان خلقه ﷺ: القرآن[1].

وإنما أدَّبه القرآن بمثل قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩﴾ [الأعراف:١٩٩]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [النحل:٩٠]، وقوله: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝١٧﴾ [لقمان: ١٧]، وقوله: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٣﴾ [المائدة: ١٣]، وقوله: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢]، وقوله: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝٣٤﴾ [فصلت: ٣٤]، وقوله: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٣٤﴾ [آل عمران: ١٣٤]، وقوله: ﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢]، ولما كُسِرت رَبَاعِيتُه ﷺ، وشُجَّ يوم أحد، فجعل الدم يسيل على وجهه، وهو يمسح الدم ويقول: «كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم؟»[2] فأنزل اله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] تأديبًا له على ذلك.

وأمثال هذه التأديبات في القرآن لا تحصر، وهو عليه السلام المقصود الأول بالتأديب والتهذيب، ثم منه يشرق النور على كافَّة الخلق، فإنه أُدِّب بالقرآن، وأدَّب الخلق به، ولذلك قال ﷺ: «إنما بُعثت لأتمِّم مكارم الأخلاق»[3]. ثم رغَّب

---

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٤٦)، وأحمد (٢٤٦٠١)، عن عائشة.

(٢) رواه مسلم في الجهاد والسير (١٧٩١)، وأحمد (١٣١٣٨)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٢٧)، عن أنس بن مالك.

(٣) رواه أحمد (٨٩٥٢) وقال مخرجوه: صحيح، والبخاري في الأدب المفرد في حسن الخلق (٢٧٣)، والحاكم في تواريخ المتقدمين (٢/ ٦١٣) وقال: على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٥)، عن أبي هريرة.

الخلق في محاسن الأخلاق، ثم لما أكمل الله تعالى خُلُقه، أثنى عليه فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [ن: ٤]، فسبحانه ما أعظم شأنه، وأتم امتنانه! ثم انظر إلى عميم لُطْفه، وعظيم فضله، كيف أعطى ثم أثنى؟ فهو الذي زيَّنه بالخلق الكريم، ثم أضاف إليه ذلك، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤]. ثم بيَّن رسول الله ﷺ للخلق أنَّ الله يحبُّ مكارم الأخلاق، ويبغض سفسافها[١].

✿✿✿

(١) رواه الطبراني في الكبير (٦/ ١٨١)، والأوسط (٢٩٤٠)، والحاكم في الإيمان (١/ ٤٨) وقال: صحيح الإسناد، وقال الذهبي: تفرد به أحمد بن يونس، وعلته أن ابن المبارك رواه عن الثوري عن أبي حازم عن طلحة ابن كريز مرسلًا، والبيهقي في الشهادات (١٠/ ١٩١)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٦٨٧): رواه الطبراني في الكبير والأوسط بنحوه، إلا أنه قال: «يحب معالي الأخلاق» ورجال الكبير ثقات. وصححه الألباني في الصحيحة (١٣٧٨)، عن سهل بن سعد.

(٢)

أهمية الأدب في حياة المسلم وطرق اكتسابه

قال الإمام ابن القيم: «أدب المرء عنوان سعادته وفلاحه، وقلة أدبه عنوان شقاوته وبواره.

فما استُجْلِب خيرُ الدنيا والآخرة بمثل الأدب، ولا استُجلب حرمانهما بمثل قلة الأدب.

فانظر إلى الأدب مع الوالدين: كيف نَجَّى صاحبه من حبس الغار حين أطبقت عليهم الصخرة[(١)]؟ والإخلال به مع الأم تأويلًا وإقبالًا على الصلاة كيف امتُحِن صاحبه بهدم صومعته، وضرب الناس له، ورميه بالفاحشة؟[(٢)]

وتأمّل أحوال كل شقيٍّ ومغترٍّ ومُدْبِر: كيف تجد قلة الأدب هي التي ساقته إلى الحرمان؟

وانظر قلة أدب عوف مع خالد: كيف حرمه السلب بعد أن بَرَد بيديه؟[(٣)]

وانظر أدب الصِّدِّيق ﷺ مع النبي ﷺ في الصلاة أن يتقدم بين يديه، فقال: ما

(١) إشارة إلى حديث الثلاثة الذين أطبق عليهم الغار، متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٥٩٧٤)، ومسلم في الرقاق (٢٧٤٣)، عن ابن عمر.

(٢) إشارة إلى حديث جريج الراهب، متفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٣٦)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٥٠)، عن أبي هريرة.

(٣) إشارة إلى حديث عوف بن مالك، قال: قتل رجل من حمير رجلًا من العدو، فأراد سلبه، فمنعه خالد بن الوليد... فمر خالد بعوف، فجر بردائه، ثم قال: هل أنجزت لك ما ذكرت لك من رسول الله ﷺ؟ فسمعه رسول الله ﷺ فاستغضب، فقال: «لا تعطه يا خالد...» رواه مسلم في الجهاد والسير (١٧٥٣)، وأحمد (٢٣٩٩٧).

كان ينبغي لابن أبي قحافة أن يتقدَّم بين يدي رسول الله[1]، كيف أورثه مقامه والإمامة بالأمة بعده؟ فكان ذلك التأخُّر إلى خلفه- وقد أومأ إليه أن: اثبت مكانك- جمْزًا[2] وسعيًا إلى قُدَّام، بكل خطوةٍ إلى وراء مراحل إلى قُدَّام، تنقطع فيها أعناق المَطِيِّ. والله أعلم»[3].

أدب الظاهر عنوان أدب الباطن:

وأدب الإنسان الذي يظهر من خلال كلامه وسلوكه وتصرفاته، إنما هو انعكاس لعقله وروحه وباطنه، وكلما زاد أدب إنسان، دل ذلك على كمال عقله ونفسه وروحه، فالأدب هو المرآة التي تظهر فيها خبيئةُ النفس، لذلك قالوا: الأدب صورة العقل، فصور عقلك كيف شئت. وقيل أيضًا: لا أدب إلا بعقل، ولا عقل إلا بأدب.

وقال الأحنف: الأدب نور العقل، كما أن النار في الظلمة نور البصر[4].

ولما ورد أبو حفص النيسابوري العراق، جاءه الجُنَيد، فرأى أصحابه وقوفًا على رأسه يأتمرون بأمره، فقال: أدَّبت أصحابك آدابَ الملوك. قال: لا، ولكن حُسن الأدب في الظاهر، عنوان حسن الأدب في الباطن[5].

ويؤكد أبو حامد الغزالي هذا المعنى فيقول: «آداب الظواهر عنوان آداب البواطن، وحركات الجوارح ثمرات الخواطر، والأعمال نتيجة الأخلاق،

(١) متفق عليه: رواه البخاري في فضل الصلاة (١٢١٨)، ومسلم في الصلاة (٤٢١)، عن سهل بن سعد الساعدي.

(٢) الجمز: الإسراع والوثب.

(٣) مدارج السالكين (٢/ ٣٦٧- ٣٧٠).

(٤) الآداب الشرعية والمنح المرعية (٣/ ٥٥٢)، لابن مفلح، نشر عالم الكتب.

(٥) فيض القدير (١/ ٢٢٤).

والآداب رشح المعارف، وسرائرُ القلوب هي مغارس الأفعال ومنابعها، وأنوار السرائر هي التي تُشرق على الظواهر فتزيِّنها وتجلِّيها، وتُبدِّل بالمحاسن مكارِهها ومساوئها. ومن لم يخشعْ قلبُه لم تخشع جوارحه. ومن لم يكن صدرُه مشكاةَ الأنوار الإلهيَّة، لم يُفض على ظاهره جمالُ الآداب النبويَّة»[(١)].

لزوم الأدب للعلم والعمل:

قال السهروردي في «المعارف»: «بالأدب يُفهم العلم، وبالعلم يصلُح العمل، وبالعمل تُنال الحكمة»[(٢)].

ورُوي عن عمر ﷺ قال: تأدَّبوا، ثم تعلموا[(٣)].

وقال أبو عبد الله البلخي: أدب العلم أكثر من العلم.

وقال ابن المبارك: لا ينبُل الرجل بنوعٍ من العلم ما لم يُزين عِلْمه بالأدب[(٤)].

وقال ابن المبارك: قال لي مَخْلَدة بن الحسين: نحن إلى كثير من الأدب أحوج مِنَّا إلى كثير من الحديث[(٥)].

طرق اكتساب الأدب:

١- التربية:

كان يقال: الأدبُ من الآباء، والصلاح من الله. ويقال: من أدَّب ابنه صغيرًا، قرَّت به عينُه كبيرًا.

---

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ٣٥٧).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٣٩)، عن يوسف بن الحسين، وانظر: عوارف المعارف، للسهروردي (٢/ ٩٩)، ت: الدكتور عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف، ط: دار المعارف، القاهرة.

(٣) ذكر هذا وسابقه ابن مفلح في الآداب الشرعية (٣/ ٥٥٢).

(٤) رواه البيهقي في شعب الإيمان (١٥٦٧).

(٥) رواه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (١١).

وقال الحسن ﷺ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم: ٦] قال: أدِّبوهم وعلِّموهم [١].

وقال بعضهم:

قد ينفع الأدب الأحداث في صِغَر	وليس ينفع عند الشيبة الأدب
إنَّ الغصون إذا قومتها اعتدلت	ولا تلين إذا قومتها الـخُشُب [٢]

وقال محمد بن سيرين: كانوا يقولون: أكرم ولدك، وأحسن أدبه [٣].

وعن سعيد بن العاص مرفوعًا: «ما نَحَلَ والدٌ ولدًا أفضل من أدب حسن» [٤].

وعن جابر بن سمرة مرفوعا: «لأن يؤدِّب الرجل ولَده خير من أن يتصدق بصاع» [٥].

٢- الاقتداء بالنبي ﷺ:

وفي «العوارف»: كل الآداب متلقَّيات عن المصطفى ﷺ، فإنه مجمعها ظاهرًا وباطنًا [٦].

---

(١) رواه أبو عبد الله السلمي في البر والصلة (١٨٩)، وابن أبي الدنيا في العيال (٣٢٣).

(٢) من شعر ابن نباتة.

(٣) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه في الأدب (٢٦١٦٦).

(٤) رواه أحمد (١٥٤٠٣) وقال مخرجوه: إسناده ضعيف، والترمذي في البر والصلة (١٩٥٢) وقال: حديث غريب... وهذا عندي حديث مرسل. والحاكم في الأدب (٤/ ٢٦٣)، وصحح إسناده، وقال الذهبي: بل مرسل ضعيف، عن جد إسماعيل بن أمية.

(٥) رواه أحمد (٢٠٩٧٠) وقال مخرجوه: إسناده ضعيف، والترمذي في البر والصلة (١٩٥١) وقال: حديث غريب، عن جابر بن سمرة.

(٦) عوارف المعارف (٢/ ١٠٢).

٣- الاعتبار بالغير:

قيل لعيسى عليه السلام: من أدّبك؟ قال: ما أدّبني أحد، رأيتُ جهلَ الجاهل فاجتنبته[1].

٤- الاعتبار بالحوادث والأيام:

قال بعضهم: من لم يؤدِّبه والداه أدَّبه الليل والنهار.

❁❁❁

(١) ذكره الغزالي في بداية الهداية ص ٦٦، نشر مكتبة مدبولي- القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣م.

(٢)

ملامح عامة للآداب الإسلامية

للآداب الإسلامية التي حرص الإسلام في قرآنه وسنة نبيّه على غرسها وتثبيتها وتكميلها: ملامح وأهداف عامة، يعمل على إذاعتها وتعليمها ونشرها بين أبنائه، لترسخ في أفهامهم، وتطمئن إليها قلوبهم، ويتدارسها أبناؤهم وبناتهم، وتنتقل من جيل إلى جيل، ومن طبقة إلى طبقة، حتى يصبحوا كأنهم مولودون بها، والواقع أنها من أثر التثقيف والتربية الدائمين.

١- ملاءمة الفطرة السليمة وتكميلها:

وأول ما نُحسُّه ونلمسه من هذه الملامح الأساسية في هذه الآداب العامة: ملاءمة الفطرة السليمة، التي فطر الله تعالى عليها البشر، وأهّلهم بأصل خلقه تعالى لهم أن يكونوا موحدين بالفطرة، معترفين بأن لا إله إلا الله، كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠].

وكما أننا إذ نرجع إلى فطرة البشر السليمة البعيدة عن تأثير الغاوين والمفتونين بشياطين الجن والإنس، الذين أضلوا الناس عن الحق، وأصمُّوا آذانهم عن الخير، وأبعدوهم عن طريق الرشد، نجد هذه الفطرة أو الطبيعة الأصلية الحية تنادي كل إنسان من أعماقه إذا مسه الضر أن يقول: يا رب نجِّني. وإذا عضَّه الفقر أن يقول: يا رب أغنني. وإذا أقعده المرض أن يقول: ربِّ إني مسَّنيَ الضر، وأنت أرحم الراحمين. فيدعوه أن يكشف ضرَّه، كما كشف الضر عن أيوب، وأن يرد عليه العافية والبصر كما ردَّهما على يعقوب، وسرعان ما يستجيب الله له كما استجاب

لسيدنا يونس ذي النون، لمّا دعا ربه حين التقمه الحوت وهو مليم، ونادى في الظلمات: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧﴾ [الأنبياء:٨٧]. فاستجاب الله له، فنجَّاه من الغمِّ، وكذلك يُنجي المؤمنين.

ومن هنا كان على الإنسان المؤمن أن يكون دائمًا مع الله، مع ربه الذي خلقه فسواه فعدله، فيدعوه إذا نزلت به الشدة، وحلَّت به المحنة، ويخصُّه بالدعاء، ولا يشرك معه أحدًا، فسرعان ما يستجيب له، ويقول له: لبيك عبدي وسعديك، والخير مني إليك.

حينما تضيق بك سبل الحياة، وتشعر أن الدنيا قد سُدَّت في وجهك، وغُلِّقت الأبواب كلها، فارجع إلى فطرتك، إلى جُوَّانيتك، ستجد ربك الذي لا يُغلق أبوابه أبدًا، بل يفتحها في وجه كل مخلوق، مهما غلُظ قلبه، وبعدت به الريح يمينًا وشمالًا، يقول له: عُد إلى ربك، فليس لك بابٌ غير بابه، ولا محراب غير محرابه، وقل: يا رب اقضِ حاجتي، وسُدَّ خُلَّتي، واستر عورتي، وآمِنْ روعتي، ورُدَّ عني من لا أقدر عليه إلا بك، وأنت على كل شيء قدير.

هنالك تجد كلَّ الأبواب قد فُتِّحت، وكلَّ الطرقات قد مُهِّدت، وكل المعوقات قد عُبِّدت؛ لأن هذا هو فضل الله تعالى ورحمته لعباده، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ۝٢٨﴾ [الشورى:٢٨]، ويقول تعالى: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢﴾ [فاطر:٢]. ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣﴾ [الزمر:٥٣].

إن من جمال المنهج الإسلامي أنه لا يحارب دوافع الفطرة، ولا يستقذرها، إنما ينظِّمها ويُطهِّرها ويرفعها عن المستوى الحيواني ويرقيها بتشريعاته وآدابه.

إن الإنسان فُطِرَ على حب الكمال، والميل إليه، ووظيفة الآداب الإسلامية السمو بالإنسان إلى المستوى الذي تستطيعه طبيعته البشرية من مراتب الكمال، سواء أكانت هذه الآداب آدابًا اعتقادية أم آدابًا عبادية أم آدابًا في تعامله مع الخلق، كل الخلق، من إنسان وحيوان ونبات وجماد.

بل الناظر إلى بعض الآداب التي أرشد إليها النبي ﷺ، يجد هذا الامتزاج بين تلك الآداب والفطرة، حتى إن النبي ﷺ يجعل هذه الآداب جزءًا من الفطرة.

فمن الآداب التي أرشد إليها النبي ﷺ في جانب التطهر والتنظف قوله: «عشر من الفطرة: قصُّ الشارب، وإعفاء اللحية، والسِّواك، واستنشاق الماء، وقصُّ الأظفار، وغسل البراجِم، ونتفُ الإبْط، وحلق العانة، وانتقاص الماء»(١).

ومن ذلك التبكير بصلاة المغرب، يقول ﷺ: «لا تزالُ أُمَّتي بخيرٍ- أو قال: على الفِطرةِ- ما لم يُؤَخِّروا المَغرِبَ إلى أن تَشتَبِكَ النُّجومُ»(٢).

وفي آداب النوم قول النبي للبراء بن عازب: «إذا أتيتَ مضجعك، فتوضَّأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شقك الأيمن، وقل: اللهم أسلمت وجهي إليك، وفوضتُ أمري إليك، وألجأتُ ظهري إليك، رهبةً ورغبة إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، آمنتُ بكتابك الذي أنزلت، ونبيِّك الذي أرسلت» قال: «فإن مِتَّ مِتَّ على الفطرة، واجعلهن آخر ما تقول»(٣).

---

(١) رواه مسلم في الطهارة (٢٦١)، وأحمد (٢٥٠٦٠)، عن عائشة.

(٢) رواه أحمد (١٧٣٢٩)، وقال مخرجوه: إسناده حسن، وأبو داود (٤١٨)، وابن خزيمة (٣٣٩)، كلاهما في الصلاة، والطبراني (٤/ ١٨٣)، والحاكم في الطهارة (١/ ١٩٠) وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، عن أبي أيوب.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الوضوء (٢٤٧)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧١٠)، عن البراء بن عازب.

فلا بد للمسلم أن يكون ملائمًا لفطرته، مكمّلًا لها بالآداب، مزيِّنًا لها بكل ما يصونها ويحميها، ويضمن لها البقاء والنماء والاستمرار.

٢- ترقية الذوق الإنساني:

ومن الملامح المهمة التي يحاول الإسلام أن يرقى بها في الإنسان: الذوق. والذوق كلمة خفيفة على اللسان، ثقيلة في الميزان، تجعل الإنسان رقيقًا في طبعه، طيِّبًا في مسلكه، متجاوبًا مع من حوله، يُحِسُّ بهم، ويفرح لفرحهم، ويحزن لحزنهم، وليس من أولئك الغلاظ القلوب، الذين يعيشون لأنفسهم وحدها، ولا يبالون بغيرهم، وقد هيَّأ الله تعالى للرسول العالمي الأخير بالوحي الإلهي أن يصنع أمة عالية الذوق، داعية إلى الخير، آمرة بالمعروف، ناهية عن المنكر، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝﴾ [آل عمران:١٠٤].

وقد عمل الإسلام في تعاليمه وآدابه وعباداته ومعاملاته وشرائعه وأعماله كلها: أن يرقى بالإنسان في ذَوقه الروحي والفكري والأدبي، والإسلام لا يعتبر العِوج الذي يغشى الجانب الإنساني هو الأصل، بل هو عكس الأصل، الذي تقوم عليه الشجرة الإنسانية، فلا يجوز لها أن ترتكز على القاعدين والمكسورين، والذين هم تحت الخط العام.

وكلَّف الإسلام الإنسان أن يمضي في طريقه محصَّنًا باسم ربه الأعلى، كما قال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝﴾ [الأعلى:١- ٤].

وكان محمد عليه الصلاة والسلام هو المثل الأعلى للإنسان المتطلِّع إلى الأمام، والمتطلِّع إلى أعلى، ولذلك دعا هذا الإسلام الناس جميعًا، وإن اختلفت مواطنهم، واختلفت أنسابهم، واختلفت صورهم: أن يعلُوا على هذه الاختلافات،

برقي الذوق، ورقي المعرفة، التي تربط الإنسان بمن خلقه، ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ۝﴾ [طه: ٥٠- ٥٢].

ويختلف الناس ما بين أصولهم المختلفة، التي ترجع إلى أصل واحد، وأب واحد، هو آدم عليه السلام: الإنسان الأول، والذي لا يعرف الإنسان المعاصر مبدأه الأول، وكيف تناسل، وكيف اختلفت ذريته ما بين أسود وملون وأبيض، وما بين مفطورين على الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وما بين الفطر الأخرى التي اعوجت وانحرفت وسارت عليها الأمم المختلفة، وجاءتهم رُسل الله داعية لهم، ومبينة ما طرأ عليهم من ظلم وفساد، فكان رسل الله معهم مبشِّرين ومنذرين، ودعَوهم إلى الإيمان بالله كما يؤمن الناس الواعون المتبصرون، الذين انتفعوا بإنذار رب العالمين لهم.

إن الذوق الإنساني الذي حاولت الثقافة الإسلامية أن تحييه، وحاولت التربية الإسلامية أن تسقيه وتزكِّيه، وحاول التشريع الإسلامي بكل مكوناته أن ينميه ويقويه، نجد كل هذه المعالم والمكونات الإسلامية تتعاون وتتضافر في إمداد هذا الكائن الذي لا يستغني عنه الإنسان، والذي يحتاج إليه الجسم والروح، والعقل والقلب، وفي مثله خاطب الشاعر الحكيم في منظومته قائلًا(١):

يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته ... أتطلب الربح مما فيه خسران؟!

أقبل على النفس واستكمل فضائلها ... فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

ماذا نسمِّي هذه المعاني الجميلة، التي يدعو الإسلام إليها، ويجمع العقول

(١) الشاعر هو أبو الفتح البُستي.

والقلوب عليها، ويعبر الناس عنها بالذوق، وهي تعرف بأكثر من الذوق، وبأدق من الذوق، وبأرق من الذوق، ولكن أجمل كلمة لها هي: الذوق؟!

نريد الذين يحبون الإنسان، ويتمنون ترقّي الإنسان، وتخلُّق الإنسان بالأخلاق الفاضلة، وكل المعاني الكبيرة: أن يجتمعوا، ليبحثوا عن الأفكار الحلوة التي يلتقي الجميع عليها ويتنادون بها، سمِّها: اللياقة، أو الرقة، أو الملاءمة، أو الرفق، أو الاحتمال، أو اللطف، وحسن خلق، أو قل كما قال ابن زيدون في خطاب من يحبه:

تِهْ أحتملْ، واستطلْ أصبرْ، وعِزَّ أهنْ ... ولِّ أُقبِلْ، وقُلْ أسمَعْ، ومُرْ أُطِعِ

إن آداب الإسلام ترتقي بشعور المسلم وذوقه، ليحب كل جمال، ويتطلع إلى كل فضيلة، وينبو عن كل قبيح مادي أو معنوي، في الأفكار والأخلاق، وفي المظهر والمخبر، في تعامله مع الله، أو مع نفسه، أو مع غيره، هو في ذلك كله صاحب ذوق سليم، وخلق قويم، وإحساس رهيف.

وتأمل هذه النماذج القرآنية وكيف ترقى بالذوق العام للمجتمع المسلم الأول الذي كان أقرب إلى البداوة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾ [الحجرات: ٢- ٥]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ

حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب:٥٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [المجادلة:١١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [النور:٢٧، ٢٨].

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان:١٨، ١٩].

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾ [النساء:٨٦].

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف:٣١- ٣٣].

وإذا نظرنا إلى السنة النبوية القولية والفعلية وجدناها تحوي آدابا كثيرة تتعلق بالذوق العام، أو ما نطلق عليه بلغة عصرنا (الإتيكيت)، من ذلك:

ما رواه أبو داود عن عبد الله بن بسر: كان رسولُ الله ﷺ إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تِلقاء وجهه، ولكن مِنْ رُكْنِه الأيمن أو الأيسر، ويقول: «السلام

عليكم، السلام عليكم» ذلك أن الدُّورَ لم يكن عليها يومئذ ستور[1].

وروى عن ربعي بن حراش: قال: جاء رجل من بني عامر، فاستأذنَ على رسولِ الله ﷺ وهو في بيت، فقال: أألِجُ؟ فقال رسولُ الله ﷺ لخادمه: «اخرج إلى هذا، فعَلِّمْه الاستئذانَ، فقل له: قل: السَّلامُ عليكم، أأدخُل؟» فسمع الرجلُ ذلك من رسولِ الله ﷺ، فقال: السلامُ عليكم، أأدْخُل؟ فأذِنَ لَهُ رسولُ الله ﷺ، فَدَخَلَ[2].

وعن هزيل بن شرحبيل رضي الله عنه قال: جاء رجل يستأذن، فقام على الباب فقال له النبيُّ ﷺ: هكذا عنك أو هكذا فإنما الاستئذان من النظر[3].

وعنه أيضًا عن أيوب بن بشير بن كعب العدوي عن رجل من عَنَزَةَ أنه قال: قلتُ لأبي ذَرٍّ: هل كان رسولُ الله ﷺ يُصَافِحُكم إذا لَقِيْتُمُوه؟ قال: ما لقِيتُه قط إلا صافحني، وبعَثَ إليَّ ذات يوم، ولم أكُنْ في أهلي، فَجِئْتُ، فَأُخْبِرْتُ أنه أرسل إليَّ، فأتيتهُ وهو على سَريره، فالتزمني، فكانت تلك أجودَ وأجودَ[4].

وعن أبي هريرة أن رسولَ الله ﷺ قال: «يسلِّم الراكب على الماشي،

(١) رواه أحمد (١٧٦٩٢) وقال مخرجوه: إسناده حسن، وأبو داود في الأدب (٥١٨٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٦٣٨).

(٢) رواه أحمد (٢٣١٢٧) وقال مخرجوه: صحيح لغيره، وأبو داود في الأدب (٥١٧٧)، والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (١٠٠٧٥). وصحح إسناده النووي في الأذكار (١٣١١) ط ابن حزم، وصححه الألباني في الصحيحة (٨١٩).

(٣) رواه أبو داود (٥١٧٤)، وابن أبي شيبة (١٣/ ٣٧٧)، كلاهما في الأدب، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٤٣١٠).

(٤) رواه أحمد (٢١٤٧٦)، وقال مخرجوه: إسناده ضعيف، وأبو داود في الأدب (٥٢١٤)، وقال الحافظ في الفتح (١١/ ٥٩): رواه أحمد وأبو داود، ورجاله ثقات إلا هذا الرجل المبهم – الراوي عن عنزة –.

والماشي على القاعد، والقليل على الكثير»[١].

وفي الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة ﷺ، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إذا انتعلَ أحدُكم، فليبدأ باليمنى، وإذا خلَعَ، فليبدأْ بالشِّمال». وقال: «لا يَمشِ أحدُكم في نَعل واحدة، ليُحْفِهما جميعًا، أو لِينْعِلْهُما جميعًا»[٢].

وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال النبيُّ ﷺ: «إذا انقطع شِسْعُ أحدكم– أو انقطع شِسْع نعله– فلا يمشِ في نعلٍ واحدة، حتى يُصلح شِسْعَهُ، ولا يمشِ في خُفٍّ واحد، ولا يأكل بِشماله، ولا يحتَبِي بالثوب الواحد، ولا يلتحف الصَّمَّاء»[٣].

وعن أنس بن مالك ﷺ: قال: جاء شيخ يريد النبيَّ ﷺ، فأبطأ القوم أن يُوسِّعُوا له، فقال النبيُّ ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَن لم يَرحَمْ صغيرَنا، ويُوقرْ كَبيرنا»[٤].

وعن أبي موسى الأشعري، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «إنَّ من إجلالِ اللهِ: إكرامَ ذي الشَّيْبَة المسلم، وحاملِ القرآنِ غيرِ الغالي فيه، ولا الجافي عَنهُ، وإكرامَ ذي السلطانِ المُقْسِط»[٥].

وعن المغيرة بن شُعبة: أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا ذهبَ المَذهَبَ أبعَدَ[٦].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الاستئذان (٦٢٣٢)، ومسلم في السلام (٢١٦٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٨٥٥)، ومسلم (٢٠٩٧)، كلاهما في اللباس.

(٣) رواه مسلم في اللباس والزينة (٢٠٩٩)، وأحمد (١٤١١٨).

(٤) رواه الترمذي في البر والصلة (١٩١٩) وقال: حديث غريب، وفي إسناده، زربي وهو ضعيف يروي مناكير، وأبو يعلى (٤٢٤٢)، وقال محققه: إسناده ضعيف جدا، وصحيح الألباني في صحيح الترمذي (١٥٦٥)، وله شاهد عن عبد الله بن عمرو، رواه أحمد (٦٧٣٣) وقال مخرِّجوه: حديث صحيح.

(٥) راوه أبو داود في الأدب (٤٨٤٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٥٧)، وحسّن إسناده النووي في رياض الصالحين (٣٥٤)، والعراقي في تخريج الإحياء (١٨٧٦)، وابن حجر في التلخيص الحبير (٢٤٦٠)، وحسَّنه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٢٧٤).

(٦) رواه أبو داود (١)، والترمذي (٢٠)، وقال: حسن صحيح، والنسائي في «الكبرى» (١٦)، وابن ماجه (٣٣١)، ثلاثتهم في الطهارة.

وعن ابن عمر: أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ إذا أرادَ حاجَةً لا يرفَعُ ثَوبَهُ حتَّى يَدنُو منَ الأرضِ[1].

وعن أبي سعيد، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لا يَخرُجُ الرجلانِ يَضرِبانِ الغائِطَ كاشِفَينِ عن عَورَتِهما يتحدَّثانِ، فإن الله ﷻ يَمقُتُ على ذلك»[2].

وعن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «اتَّقُوا اللاعِنَيْنِ» قالوا: وما اللاَّعِنانِ يا رسولَ الله؟ قال: «الذي يَتَخَلَّى في طريقِ النَّاسِ أو ظِلِّهم»[3].

إن هذا الذوق يتعدى معاملة الكبير إلى معاملة الصغير، فهذا رسول الله ﷺ من ذوقه وملاطفته ونُبْله أن يعزِّي طفلًا صغيرًا مات عصفوره، فعن أنس بن مالك ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خُلُقًا، وكان لي أخ يقال له: أبو عمير - وهو فَطيم- كان إذا جاءنا، قال: «يا أبا عمير، ما فعل النُّغَير؟» لِنُغَرٍ كان يلعب به، وربما حضرت الصلاة وهو في بيتنا، فيأمر بالبساط الذي تحته، فيُكنس، ثم يُنضَح، ثم يقوم ونقوم خلفه، فيصلِّي بنَا[4].

وعن عائشة ﷺ قالت: كُنتُ ألْعَبُ بالبناتِ عند رسولِ الله ﷺ، وكانت تأتيني صواحِبي، فكُنَّ ينقَمِعنَ من رسولِ الله ﷺ، وكان يُسَرِّبُهُنَّ إليَّ فيَلْعَبْنَ مَعي[5].

---

(١) رواه أبو داود (١٤)، والترمذي عن ابن عمر وأنس(١٤)، والبيهقي في الكبرى (١/ ٩٦)، ثلاثتهم في الطهارة، وقال الترمذي في العلل الكبير (٨): سألت محمدًا عن هذا الحديث: أيهما أصح؟ فقال: كلاهما مرسل، ولم يقل: أيهما أصح. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٦٥٢).

(٢)رواه أحمد (١١٣١٠)، وقال مخرجوه: صحيح لغيره، وأبو داود (١٥)، وقال: هذا لم يسنده إلا عكرمة بن عمار، والنسائي في الكبرى (٣٧)، وحسنه النووي في الخلاصة (١/ ١٥٩)، وكذا الألباني في السراج المنير (٤٣٩).

(٣) رواه مسلم في الطهارة (٢٦٩)، وأحمد (٨٨٥٣)، وأبو داود في الطهارة (٢٥).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٢٠٣)، ومسلم في الآداب (٢١٥٠).

(٥) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦١٣٠)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٤٠).

وعن سهل بن سعد ﷺ، أن رسول الله ﷺ أُتِيَ بشراب، فشرب منه، وعن يمينه غلام، وعن يساره الأشياخُ، فقال للغلام: أتأذَنُ لي أن أُعطيَ هؤلاء؟» فقال الغلامُ: والله يا رسول الله، لا أُوثِرُ بنصيبي منك أحدًا. فتَلَّهُ رسول الله ﷺ في يده[1].

بل إن ذوقه ﷺ تعدى إلى البهائم العجماوات، فعن الوضين بن عطاء، أن جزارًا فتح بابًا على شاة ليذبحها، فانفلتت منه حتى أتت النبي ﷺ، وأتبعها فأخذها يسحبها برجلها، فقال لها النبي ﷺ: «اصبري لأمر الله، وأنت يا جزار، فسقها إلى الموت سوقًا رفيقًا»[2].

هذه بعض نماذج وأمثلة توضح كيف أن الإسلام وآدابه يرقيان بالذوق العام للمسلم حتى مع الحيوان البهيم.

٣- الارتقاع بالإنسان عن مستوى الغرائز الحيوانية:

ومن ملامح الآداب الإسلامية: أنها ترتفع بالإنسان في حياته كلها عن مستوى الغرائز البهيمية، التي لا يجب أن يجنح إليها، ويهبط إلى دركاتها.

سوى الله الإنسان، فخلقه في أحسن تقويم، وصوره فأحسن صورته، وناداه في كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝﴾ [الانفطار:٦- ٨]. وأراد تعالى أن هذا الإطار الجميل الذي وضع الله فيه الإنسان، ليحمي الحقيقة التي تصاغ فيه، ويصونها من كل ما يشينها، فلا يولِّي عليها كائنًا آخر يعادي الإنسان، ويحاول أن يهوي به إلى منحدر سحيق. كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ۝﴾ [الحج:٣١].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في المساقاة (٢٣٦٦)، ومسلم في الأشربة (٢٠٣٠).

(٢) رواه عبد الرزاق في المناسك (٤/ ٤٩٣) ح (٨٦٠٩)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب: هذا مُعْضل، والوضين فيه كلام (٢/ ١٥٩).

لقد أراد الله تبارك وتعالى أن يؤدِّب الإنسان بأدب يطهره ولا يلوثه، كما قال في سورة المدثر- وهي من أوائل من أنزل على محمد ﷺ- : ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝﴾ [المدثر:٤]. وهو يرتقي بهذا من الظاهر إلى الباطن، ومن البدن إلى الروح، ومن المادة إلى المعنى.

وهذا ما نلحظه في القرآن المكي النازل من أول الأمر، ومن أول آية نطق بها جبريل ليبلغها محمدًا ﷺ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝﴾ [العلق:١] فهو يأمره أن يقرأ، ولكن أي قراءة هي؟ وباسم من تكون القراءة؟ إن القراءة لا تُعتبر إذا لم تكن لله، وباسم الله، باسم الرب الخالق الأعلى.

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝﴾ فأول تعليم من تعاليم رسالته أن يقرأ، وأن تكون قراءته باسم الرب الذي خلق.

في الإنسان من معاني الحيوانية هذه «المعدة» المفتوحة، والتي خلق الله لها في الكون ما يملأ أحشاءها وأمعاءها، وجعل فيها من الإفرازات ما يقوم على هضم ما يدخل إليها من أصناف الطعام، وألوان الملذات التي يشتهيها الناس، ويتفنَّنون فيها، وفي أنواعها ولذائذها، الحلو منها والحامض والمالح.. إلخ. تتنوع هذه المأكولات، وتذهب كلها إلى تلك المعدة «أعظم معمل كيماوي» في العالم.

وانظر كيف يستطيع الإنسان أن يعيش على بعض الأطعمة البسيطة، ويُكمّلها ببعض ما لا بد لها من الملح والتوابل والمحسنات ومكسبات الطعم.. إلى آخر ما يهتدي إليه الإنسان من الطعوم والأذواق والملاذّ، وغير ذلك مما لا عين من أعين السابقين رأت، ولا أذن سمعت.

غير أن الذي ينبغي أن يحرص عليه الإنسان ليبقى في عليائه، منطلقًا إلى سمائه، مترقِّيًا إلى أجوائه، هو أفق أعلى من المعدة والأكل والشرب ولذة الجنس.

قد يغالب الإنسان الإنسان في المأكل والمشرب، ولكن ليس هذا هو مبتغى الإنسان، وقد يتغلب الإنسان على الإنسان الآخر بأنيابه وأضراسه، أو بأدوات حسية، أو بآلات يصنعها، وقد وصل فيها اليوم إلى ما لا يُحسَب أنه من صُنْع الإنسان، إن الإنسان الذي يهبط إلى هذا المستنقع الآسن هو الإنسان الحيواني أو البهيمي، الذي تتحكم فيه القوة السبُعية، التي هي للوحوش ذات الأنياب والأظفار.

وقد يصل الإنسان بالكيد، واستعمال العقل والذكاء والمهارة والعلم، وما في إمكاناته من أشياء هائلة، لا يكاد يصدقها الإنسان، وهي التي نقول لمن يملكها: هذا شيطان. كما قال الشاعر قديمًا:

وكنتُ امرأً من جند إبليس، فارتقى ... بيَ الحال حتى صار إبليسُ من جندي![1]

أما الإنسان الأرقى؛ فهو الذي يملك القوة والقدرة والحنكة والذكاء والمال والثراء، يملك ذلك كله وأكثر منه، ثم يسخِّره لأمر ربه الذي خلقه، وسخَّر له ما سخر، ليهديه إلى طريقه، كما قال تعالى على لسان سيدنا إبراهيم: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحۡيِينِ ۝٨١ وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ ۝٨٢﴾ [الشعراء:٧٨- ٨٢]. وكما قال سليمان حين قال بعد ما رأى ما سخَّر الله له من قوى: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّى لِيَبۡلُوَنِىٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ۝٤٠﴾ [النمل:٤٠].

٤- الارتقاء بالإنسان من درك الأنانية إلى الأخوة والإيثار:

ومن ملامح الأدب الإسلامي، الذي أدَّب الله به هذا المخلوق الراقي بطبيعته، العالي بفطرته، حين علَّمه ما لم يكن يعلم، فلقَّنه بالفطرة الربانية، التي

(١) البيت نسب للشاعر الخبز أرزي.

وهبها الله له، ليستعين بها على الترقي إلى الأعلى، وعلى ترك الأنانية التي تهبط بالإنسان دائمًا إلى الأسفل فالأسفل، حيث يقول: أنا هنا، أنا هنا، يريد التراب، ويريد الطين، ويريد الحمأ المسنون. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الحجر:٢٦].

لا بد للإنسان أن يعمل على أن يرتقي بهذه الفطرة، وأن ينقيها من ملوثاتها الطبيعية، ويغسلها من طينها وحَمَئِها، فترتفع من ضيق الأنانية، وشح الملكية، إلى الأفق الأعلى: أفق الأخوة العامة، والإيثار الأعلى، إيثار الذي يريد أن يعطي، لا الذي يريد أن يأخذ، وأخوة الذي يريد أن يشبع ويُشبع غيره، لا الذي يريد أن يأكل وحده ويمنع رفده، هذا هو الإنسان الذي أراده الله، وأنزل شرائعه بما فيها من آداب، ليرتقي من اتبعها إليه.

إنه الإنسان الذي يفكر في الآخرين قبل أن يفكر في «الأنا»، وإنما «الأنا» عنده أن يكون ذا يد عليا، تعطي غيرها، أن يكون سامقًا سموق النخلة الباسقة التي في كل جزء فيها نفع لغيرها، فـ«الأنا» عنده أن يفكر كيف يحيي الآخرين، ولو مات هو في سبيل إحيائهم، هو حيٌّ بإحيائهم.

كان في الجاهلية العربية، وفي كل الجاهليات: أن الفارس حقًّا هو من يبذل نفسه، ويقدِّم رُوحه، ويتقدَّم الجيش ويخرج من المعركة التي أعلن عنها عنترة معتزًّا بها ومفاخرًا:

هلَّا سألتِ الخيل يا ابنة مالك إن كنتِ جاهلةً بما لم تَعْلَمِي!
يخبرك من شهد الوقيعة أنني أغشى الوغى، وأعفُّ عند المغنم!

هذا ما يسعى إليه الفرسان الكبار: أغشى الوغى، وأعفُّ عند المغنم.

وكما وصف الأنصار ﷺ بأنهم يقلُّون عند الطمع، ويكثرون عند الفزع، وقد

قال تعالى في وصف المهاجرين والأنصار والذين جاؤوا من بعدهم: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ۝ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝﴾ [الحشر:٨- ١٠].

٥- الحرص على تميز المجتمع المسلم بمظهره ومخبره عن غيره من المجتمعات:

ومن المعاني المهمة، والملامح العريقة، التي تتميز بها الآدابُ الإسلامية، التي يحرص عليها القرآن الكريم والسنة المطهرة، ويُجمع عليها الصحابة الأكرمون، الذين هيَّأهم الله لنصرة هذا الدين، والدفاع عن نبيه الأمين، والحفاظ على المكارم الأخلاقية، التي بُعث بها الرسول ليتممها، كما قال ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[1]: الحرص على التميز لأتباعه في المظهر والمخبر.

هؤلاء الصحابة من المهاجرين والأنصار، الذين مدحهم في كتابه، هم الذين ظلُّوا ثلاثة عشر عامًا في مكة، يلقَون الأذى، ويتحمَّلون الإهانة، ويصبرون ويتحملون ما لا تستطيعه الجبال الشم.

علَّمهم الإسلام أن يتميَّزوا بمجتمعهم التوحيدي المؤمن، وبمجتمعهم

(١) رواه أحمد (٨٩٥٢)، وقال مخرجوه: صحيح وهذا إسناد قوي، والبخاري في الأدب المفرد في حسن الخلق (٢٧٣)، والحاكم في تواريخ المتقدمين (٢/ ٦١٣)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في الصحيحة (٤٥)، عن أبي هريرة.

الأخلاقي المسلم، أن يتميَّزوا بمظهرهم وبمخبرهم، وبتوحيدهم وبأخلاقهم، فلا يؤمنون إلا بالله وحده، ولا ينحنون إلا لله وحده، ولا يركعون ولا يسـجدون إلا لله وحده.

هذا المجتمع المسلم الصادق متميِّز بتوحيده، فلا يُسمع فيه إلا مثل هذه الكلمات الخفيفة على اللسان، الثقيلة في الميزان، الحبيبة إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم.

لا يُرى فيه إنسان يركع لإنسان، أو يسجد لإنسان، أو يُظهر ما لا يليق إظهاره من أجل إنسان، الركوع والسجود والانحناء لله وحده.

المجتمع المسلم الملتزم بآداب الإسلام مجتمع متميز بمظهره، بحيث يعرفه الإنسان من مظهره العام: في أذانه، وفي إقامته، وصلوات الجماعة في مساجده الكبيرة والصغيرة، فكل ما في الأذان والإقامة، وكل ما في الصلوات من تكبيرات وتسبيحات وقراءات، كلها تعلن عن توحيد الله وتكبيره، والإعلان عن ضعف خلقه، وعن حاجة الناس كل الناس إليه سبحانه.

وكل ما يسمعه الناس من تحيَّات، ومن تهانٍ، ومن تعازٍ، ومن مجاملاتٍ، كلها مبنيَّة على يمليه الإسلام على أهله من كلمات ودعوات وصلوات وتسليمات.

من يمشي في بلاد المسلمين، ويرى المسلمين في مجتمعاتهم أيًّا كانت، مجتمعات عاملة أو خاملة، كادحة أو مرتاحة، يجد أثر الصبغة الإسلامية ما زال موجودًا في مظهر مجتمعاتها ومخبرها، في ظاهر أفرادها وباطنهم، وهذا أثر من آثار الآداب التي ربَّى الإسلام عليها المسلمين، والتي توارثها الأبناء عن الآباء.

إن لهذا المجتمع آدابه التي يتميز بها عن غيره من المجتمعات: في المأكل والمشرب، والزينة والملبس، والنوم واليقظة، والسفر والإقامة، والزمالة

والعِشْرة، والعمل والراحة، والصداقة والصحبة، والزواج والطلاق، في العلاقة بين الرجل والمرأة، وفي العلاقة بين الولد وأبيه، وفي العلاقة بين القريب وقريبه، وفي العلاقة بين الجار وجاره، وفي العلاقة بين الكبير والصغير، وفي العلاقة بين الغني والفقير، وفي العلاقة بين البائع والمشتري، وفي العلاقة بين الرئيس والمرؤوس، وفي العلاقة بين الخادم والمخدوم.

٦- تكافل المجتمع في رعاية هذه الآداب وحمايتها:

ومن خصائص الآداب العامة في الإسلام: أن الإسلام رعاها وحماها في أمته الكبرى حين قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣]. وقال أيضًا في سورة آل عمران: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠].

وهكذا جعلكم أمة وسطًا لتكونوا شهداء على الناس، وتكونوا دعاة إلى الخير، آمرين بالمعروف، ناهين عن المنكر، وبهذا يكتب لكم الفلاح؛ فهذا هو سبيل الفلاح للأمة كلها، التي دعاها لتكون داعية إلى الخير، آمرة بالمعروف، ناهية عن المنكر. ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران:١٠٤]، فالأمة المسلمة أمة القرآن، أمة محمد، شهيدة الأمم، أمة الأمر والنهي، هي المستجيبة لله بالدعوة والأمر والنهي، وهي المكتوب لها الفلاح، ولا يكتب لغيرها.

فهذه الأمة تظفر بالفوز بالفلاح مرتين:

المرة الأولى: في تكافلها المعيشي والمادي، الذي يجعلها كالبنيان المرصوص، متصافَّة متحدة يتساند بعضها ببعض، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ

﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾ [الصف:٤]. فهي كالأحجار المرصوصة بانتظام، بحيث يغطي بعضها بعضًا، ويرتبط بعضها ببعض، ويلتصق بعضها ببعض، ويُكمّل بعضها بعضًا، ويقوي بعضها بعضًا، كما قال تعالى: ﴿بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ [آل عمران:١٩٥].

وهنا قال ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشُدُّ بعضه بعضًا». وشبَّك بين أصابعه[١].

وهذا التكافل فرضه الإسلام بفرض الزكاة، وهو الركن الثالث من أركان الإسلام، والذي رُبِط بالصلاة ثماني وعشرين مرة في القرآن، وقد تزيد. كما فرضه ببعض الفرائض المالية الأخرى التي أوجبها الإسلام على أبنائه[٢].

وقد أوجب الإسلام هذا التكافل المادي في السلم والحرب، حتى يصبح المجتمع المسلم، كأعضاء الجسد التي يكمل بعضها بعضًا، كما قال ﷺ: «مثل المؤمنين في تراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى»[٣].

والجانب الآخر من تكافل المجتمع المسلم هو التكافل الأدبي، فهنا يتأتى القسم الثاني من التكافل الاجتماعي، وهو التكافل الذي يكون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الخير، والتناصح في الدين، والتعاون على البر والتقوى. فهذه كلها توجب التضامن الأدبي والعلمي والفكري بين المؤمنين،

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الصلاة (٤٨١)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٥)، عن أبي موسى الأشعري.

(٢) ينظر في ذلك كتابنا: مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠١١)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٦، عن النعمان بن بشير.

وتجعلهم كالجدار المرصوص، يشد بعضه بعضًا، وهو ما صوره الحديث النبوي حين شبَّههم بسفينة ذات طابقين أو أكثر، كما قال النبي ﷺ: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء، مرُّوا على مَن فوقهم، فقالوا: لو أنَّا خرقنا في نصيبنا خرقًا، ولم نؤذِ مَن فوقنا! فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجَوا، ونجَوا جميعا»[1].

ومن المهم هنا أن نذكر: أن آداب الإسلام العامة لكي يحياها الفرد والمجتمع، ولتعيش في ظلها الأسرة والأمة، وليحيا الجميع في ظلالها الوارفة، أفرادًا ومسؤولين، حكامًا ومحكومين، هي مسؤولية المسلمين جميعا، كل واحد لا بد عليه جزء من هذه المسؤولية، مؤتمَنٌ عليه، فلا يقول الحاكم: هذه آداب على الزوج والأب والقريب أن يراعيها في حدوده. أو يقول شيخ المسجد: هي مسؤولية الحاكم. أو يقول المجتمع: هذه مسؤولية الإعلام والساسة، أو يقول المدرس مثلًا: أنا مدرس مسؤول عن وظيفتي في مدرستي، ولست مسؤولًا عن غيرها.

المجتمع كله مسؤول عن كل الولايات الخاصة والعامة، وعن هذه الآداب، ولا يجوز لأحد أن يقول: هذه ولايتي، وليست لك ولاية عليها. أو هذه ولايتك، وليس لي أيّ مسؤولية عنها.

فالأصل في هذا أن الفرد في المجتمع المسلم مسؤول عن كل شيء فيه، بقدر ما يستطيع.

---

(١) رواه البخاري في الشركة (٢٤٩٣)، وأحمد (١٨٣٦١)، والترمذي في الفتن (٢١٧٣).

والنبي ﷺ يقول: «كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته»[1]. فالمسؤولية عامة، والرعاية عامة، وكل واحد له مسؤولية عن المجتمع كله بقدر ما. ولا يجوز لكل واحد أن يتخلَّى عن المسؤولية العامة، فإن كل واحد نعم هو مسؤول عن وظيفته الصغرى، الحاكم والأب والواعظ والمدرس .. إلخ، لكن الأمة كلها مسؤولة عن الدين وإقامته وتبليغه والحفاظ على آدابه.

لذا حث الإسلام أتباعه على النصيحة في الدين، والدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وهي أمور عامة على كل المسلمين، ولا يجوز لأحد أن يفرط فيها، ويقول: ليس عليّ شيء! بل يجب أن تتواصى الأمة بهذه المسؤوليات التي يراها بعضهم صغيرة، ولكن بضمها بعضها إلى بعض، وتجميعها وتكاثرها، وإعطائها حقها، وإعطائها ما جعله الإسلام لها من الفضل والمكانة، تحفظ على المجتمع المسلم تميُّزه وتكافله وآدابه.

٧- مسؤولية الدولة عن تعهُّد هذه الآداب وحراستها:

ومن ملامح الآداب الإسلامية أن الإسلام أوجب على الدولة أن ترعى هذه الآداب وتجعلها ضمن مسؤوليتها، فوظيفة الدولة (أو الخلافة) في الإسلام- كما بينها ابن خلدون- حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا، ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع (النبي ﷺ) في حراسة الدِّين وسياسة الدنيا به[2].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجمعة (٨٩٣)، ومسلم في الإمارة (١٨٢٩)، كما رواه أحمد (٤٤٩٥)، عن ابن عمر.

(٢) مقدمة ابن خلدون، (٢/ ٥١٨) ط: لجنة البيان العربي، ت: د. علي عبد الواحد وافي.

بل إن دور الدولة أكبر من مجرد الحفاظ على هذه الآداب، إنها مسؤولة عن غرسها وتنميتها.

إن مناهج التربية والتعليم، ووسائل التثقيف والإعلام، وأدوات التوجيه والترفيه، يجب أن تسير كلها وفقًا لمفاهيم الإسلام، وآداب الإسلام، وأن تعمل كلها على غرس فضائل الإسلام، وتعظيم حرمات الإسلام.

يجب أن يكون الكتاب والرسالة، والمجلة والصحيفة، والقصة والمسرحية والفيلم والأغنية، وكل ما ينتجه العلم والأدب والفن في خدمة الإسلام ومُثُله العليا وآدابه الراقية.

أما أن يكون المسجد والمنبر في جانب، والمدرسة والجامعة، والصحافة والإذاعة، والتليفزيون والسينما والمسرح، وكل أجهزة التأثير والدعاية والتوجيه في جانب آخر، جانب التحلل من الدين، والإزراء بقيمه، والسخرية بتعاليمه، فهيهات أن يُغني صوت المنبر شيئًا، وهذا إذا افترضنا أن تتاح له الحرية ليقول كلمة الحق .. وما تغني كلمة خافتة في ساعة من الأسبوع تضيع وسط الضجيج والصخب الهائل الذي تخرجه الإذاعات والصحف والأبواق الهدامة هنا وهناك؟!

متى يبلغ البنيان يومًا تمامه إذا كنتَ تبنيه وغيرك يهدم؟!

إن واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي فرضه الإسلام هو واجب على عاتق الفرد والجماعة والدولة، ويعني حراسة هؤلاء جميعًا للحق في مختلف صوره، ومدافعتهم للبغي في مختلف صوره. وقد عرف تاريخ الإسلام في هذا الصدد وظيفة المُحتَسِب بالنسبة للحكومة، ودعوى الحسبة بالنسبة للأفراد، فجهود الأفراد تتضافر مع مقدرة الدولة وسلطانها لحماية آداب المجتمع المسلم، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١﴾ [الحج:٤١].

فلا صلاح للفرد إلا في مجتمع يساعده على النمو السليم، والتكيُّف الصحيح، والسلوك القويم. وذلك بأن تقوم على رأس المجتمع دولة تنفذ تشريعاته وتوجيهاته، وتحرس عقائده وشعائره، وتقيم مثله وآدابه، فالمجتمع هو التربة التي تنبت فيها بذرة الفرد والجماعة، وتنمو وتترعرع في مناخها، والانتفاع بسمائها وهوائها وشمسها. وما كانت الهجرة النبويَّة إلى المدينة، إلا سعيًا إلى مجتمع مستقلٍ، تتجسَّد فيه عقائد الإسلام وقيَمه، وشعائره وشرائعه، وتقوم عليه الدولة التي يرأسها النبي ﷺ.

وقد لمسنا في عصرنا محنة الفرد المسلم في المجتمعات التي لا تلتزم بالإسلام منهاجًا لحياتها، ناهيك بالمجتمعات التي تعادي شريعته، وتطارد دعوته، وكيف يعيش هذا الفرد في توتُّر وقلق وحَيْرة، نتيجة لما يحسُّ به من تناقض صارخ، بين ما يؤمن به من أوامر دينه ونواهيه من جهة، وما يُعايشه ويضغط عليه من أفكار المجتمع ومشاعره وتقاليده وأنظمته وقوانينه، التي يراها مخالفة لتوجيهات عقيدته، وأحكام شريعته، ودوافع أخلاقه، وروائع آدابه، ومواريث ثقافته، من جهة أخرى.

٨- ربط الإنسان بربه في كل أحواله وأحيانه:

ومما يلحظه المسلم والمتأمل في الآداب العامة للإسلام: أدبٌ يشمل كل الآداب، ولا يغيب عن واحد منها، وحرص الإسلام العظيم حرصًا دؤوبًا على أن يغرسه بكل عناية، تجد هذا الأدب الكبير والعميق في أدب الفرد، وأدب الأسرة، وأدب الجماعة، وأدب الأمة، وأدب الحُكَّام، وأدب المحكومين، وأدب الرجال، وأدب النساء، وأدب الشيوخ، وأدب الشباب، بل أدب الأطفال.

هذا الأدب المحيط بكل الآداب، والمغذِّي لها، والمقوي لها، والمعين عليها، والداعي إليها هو: «الربانية»، أو ربط الإنسان في كل مراحل حياته، وفي كل مناحي حياته، في حياته الفردية والزوجية، وحياته المادية والروحية، وحياته الجادة والعاطفية، وحياته الضاحكة والباكية، وحياته الخشنة والناعمة، حياته أيًّا كانت، لا بد أن ترتبط بربه الأعلى، الذي خلق فسوى، والذي قدَّر فهدى.

وكل الآداب توصي بهذا الأمر، فإذا أكلتَ، فإن من أول أدب الأكل: أن تأكل باسم الله أول ما تأكل، وتشرب باسم الله أول ما تشرب.

وإذا استمتعت بزوجك في فراش نومك، وأقبلت على لذتك الجنسية لم تنسَ أن تقول: اللهمَّ جنِّبنا الشيطان، وجنِّب الشيطان ما رزقتنا، باسم الله[1].

وإذا أردت أن تلبس ثوبًا جديدًا، فلا تنس أن تقول: الحمد لله الذي كساني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة[2].

وإذا دخلت مسكنًا جديدًا، بنيته وأسسته ووسعته لنفسك وأهلك وعيالك وضيفك، فقد أعطاك الله مُلكًا جديدًا، وطلب منك أن تشكر نعمته، وتسأله تعالى المزيد منها، ثم تقول: الحمد لله الذي ملَّكني هذا الشيء ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة، اللهم إني أسألك من خيره وخير ما هو له، وأعوذ بك من شره وشر ما هو له.

وكلما استمتعت بشيء جديد؛ لأنك ملكته، فعليك أن تقول ما يقوله المؤمن حين يملك شيئًا جديدًا، كما إذا ملك الدابة التي يركبها، أو السفينة تهون عليه سفره الطويل: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الوضوء (١٤١)، ومسلم في النكاح (١٤٣٤)، عن ابن عباس.

(٢) رواه أبو داود في اللباس (٤٠٢٣)، وأبو يعلى (١٤٨٨)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٠٤٢): حسن لغيره، عن معاذ بن أنس.

لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف:١٣، ١٤]، وهو ما يدعو به المسلم كلما ركب حمارًا أو سيارة أو قطارًا أو طائرة.

وهكذا كلما تهيأ المؤمن لملابسة شيء جديد، أو الاستمتاع بشيء جديد، يدعو الله تعالى بالدعاء الخاص به، ثم يمارس التمتع به بما يليق به من الاستمتاع الحلال، الذي لا إفراط فيه ولا تفريط.

وستجد في سورة الأنعام وفي سورة النحل أعدادًا كثيرة من النعم، وستجد في الحديث أيضًا ألوانا كثيرة من منح الله تعالى وخيراته.

وكل موحِّد عليه أن يعطيها حقَّها من الشكر، وأن يأخذ منها حقها من الاستمتاع، وأن يدعو بدعائها، وأن يحفظها ويرعاها، ولا يبخل بها عمن احتاج إليها إذا كان هو في غنًى عنها.

والدعاء المناسب هنا الذي علمه الرسول للمؤمن أن يقول: «اللهم أني أسألك من خيرها، وخير ما هي له، وأعوذ بك من شرها، وشر ما هي له»(١).

ومما علَّمنا القرآن أن ندعو به: ﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾ [الإسراء:٨٠].

وإذا دخلت مكانًا لا تعرف فيه أحدًا فقل كما قال موسى حين توجه إلى مدين: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ [القصص:٢٢].

وإذا نصرت مظلومًا، واتُّهمت أنت بالظلم، قل: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [القصص:١٧].

---

(١) رواه أحمد (١١٢٤٨) وقال مخرجوه: إسناده حسن، وأبو داود (٤٠٢٠)، والحاكم (٤/ ١٩٢)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، كلاهما في اللباس، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٦٦٤) عن أبي سعيد.

وإذا شعرت بتآمر الظالمين عليك، وضعُفَتْ قوتك عن مواجهتم، فقل: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [يونس:٨٥، ٨٦].

وإذا وهبت إليك نعمة من الله تعالى، فاقبلها، واشكر ربك عليها، وقل ما قال سليمان حين سُخِّر له ما سُخِّر: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل:١٩].

وإذا ضاقت عليك مسالك الحياة، وأظلمت الدنيا في وجهك، فلا تيأس من رَوح الله أبدًا، اقرأ قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾﴾ [الممتحنة: ٤، ٥]. وقل ما قال يعقوب لأولاده حين بعثهم في قافلة إلى مصر، وقال لهم: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف:٨٧].

وكاد يكون لكل باب أو كتاب في الفقه آداب ينبغي على المسلم أن يتأدب بها، ومن بين هذه الآداب أذكار وأدعية لله رب العالمين، ليكون المسلم موصولا بالله في حياته كلها.

✿✿✿

البَابُ الأوَّلُ

الأدب مع الله ورسوله

الفصل الأول

الأدب مع الله تعالى

أدب المسلم: أدب شامل وعميق ومتنوع. وقد تحدَّث عنه أهل الأدب من رجال الفقه والسلوك والتربية، فهم يقسمونه إلى أنواع:

فهناك أدب مع الله ﷻ، وأدب مع رسوله الذي بلَّغ رسالته إلى الناس، وأدب مع الناس، كلِّ الناس، القريبِ والبعيد، والمسلم وغير المسلم، والصغير والكبير، والضعيف والقوي، والمرأة والرجل، وإن كان اهتمام الإسلام الأكبر والأقوى بالضعفاء من الناس، مثل: اليتامى والمساكين وابن السبيل وما ملكت الأيمان.

وهو ما حفلت به آية «الحقوق العشرة» التي جاءت بها سورة النساء، وبدأتها بحقِّ الله تبارك وتعالى، فقال: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء: ٣٦]، لهذا سنبدأ بما بدأ الله تعالى به، وهو الأدب مع الله سبحانه، والأدب مع رسوله، فهو مضاف إلى الأدب مع الله ﷻ، ولهذا جعلناهما أدبًا واحدًا في ضمن الأدب الديني الواسع الذي يجب أن يكون طليعة بينة لحياة المسلم. قال

تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝﴾ [الأحزاب: ٧١]، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ۝﴾ [الأحزاب: ٣٦].

ذروة الأدب: الأدب مع الله:

ونحن نؤكد ما ذكره كبار علمائنا المربِّين: أن ذروة الأدب هي: الأدب مع الله تبارك وتعالى، فإن أحق من نتأدب معه، في قولنا وعملنا، في عبادتنا ومعاملتنا، في عمل جوارحنا وعمل قلوبنا، في سرِّنا وعلانيَّتنا، أن نتأدَّب معه سبحانه أعلى أنواع الأدب وأصفاها وأثبتها وأخلصها.

كيف لا وهو أدب العبد مع ربه، أدب المخلوق مع خالقه، أدب المُحْدَث الفاني مع الأزليِّ الباقي؟

وهو جل شأنه يستحق هذا الأدب الأكبر والأعمق منا؛ لأنه هو الذي خلقنا من العدم، وجعلنا شيئًا مذكورًا، وخلقنا في أحسن تقويم، وكرَّمنا أعظم تكريم، ورزقنا العقل الذي به نفكر، والإرادة التي بها نرجِّح، والقدرة التي بها ننفِّذ، ووهب لنا السمع والبصر والحواسَّ التي تصلنا بالعالم من حولنا، وخلق ما في السماوات وما في الأرض جميعًا منه، وأسبغ علينا نعمَه ظاهرةً وباطنةً، فكل ما في الكون من حولنا، عن أيماننا وعن شمائلنا، ومن بين أيدينا ومن خلفنا، ومن فوقنا ومن تحتنا، جعله الله في خدمتنا ومنفعتنا، ويصب كله في مصلحتنا، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ۝ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۝ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ۝﴾ [إبراهيم: ٣٣- ٣٤]. فانظر كيف

خلق الله هذه الأجرام الكبيرة، وسخَّر ما فيها من نِعَم جليلة لفائدة الإنسان. ولذا كرَّر في هذه الآيات كلمة ﴿لَكُم﴾ خمس مرات، لينبِّهنا على أنه خلق هذه النعم وسخرها لنا ولمصلحتنا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

وقد ذكَّر الله الناس عامَّة، والمؤمنين خاصَّة، بهذه النعم التي أنعم بها على عباده: نعمة الحياة، ونعمة الزرع، ونعمة الماء، ونعمة النار، في سورة الواقعة، فقال: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقعة: ٧٣- ٥٨].

(١)

الأدب مع الله

بتوحيده وطاعته واتباع منهجه

والأدب مع الله رب العالمين، يتمثل في عدة أمور أولها: توحيده سبحانه، وهو يتضمن ثلاثة أشياء كلها تدخل في حقيقة توحيده، الذي يحبُّه من عباده ولا يقبل التفريط في شيء منه، فهناك:

أولا: توحيد الربوبيَّة أو الخالقيَّة

وهو ما تقرُّ به الفطرة السليمة، وما ينطق به العقل الرشيد: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الطور: ٣٦- ٣٥].

وهذا ما اعترف به عرب الجاهلية، حين يُسألون عنه: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝٩﴾ [الزخرف: ٩]، ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٣١ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٣٢﴾ [يونس:٣١، ٣٢].

وكانوا يقرُّون بأن الله تعالى هو الخالق الرازق مُدبِّر الأمر، ولكنهم مع هذا يأكلون خيره، ويعبدون غيره، أو يأكلون تمرَه، ويعصون أمرَه. ولذلك كان التوحيد الذي أكد عليه رسل الله وأنبياؤه الذين بعثهم إلى الخلق مبشرين ومنذرين هو الدعوة إلى توحيد العبادة أو توحيد الإلهية. وهو ما نتحدث عنه في الفقرة التالية.

ثانيا: توحيد العبادة لله رب العالمين، أو توحيد الإلهيَّة

بمعنى أنه لا إله غيره، ولا يستحق أن يعبد في الأرض أو في السماء إلا هو، ولا أن تسجد له الجباهُ، وتنحني له الرؤوس راكعة ساجدة إلا الله، وهو ما دعا إليه كل رسول قومه، وما دعا إليه القرآن الكريم، وأنذر به المشركين، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦]. والطاغوت مشتق من الطغيان، وهو كل ما يعبد ويعظم ويشرك من دون الله ﷻ، وهو من مصادر الطغيان والفساد، في حين أن التوحيد من مصادر العدل والصلاح، بل التوحيد هو العدل، والشرك هو الظلم؛ لأنَّ من يشرك بالله الخالق المنعِم العظيم الأعلى، مخلوقًا حقيرًا فانيًا لا يقدر على شيء؛ فقد ظلَمَ التوحيد، وظلم نفسه، ولذا قال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الأعلى: ١-٣]، ولذا حكم القرآن على عرب الجاهلية بالشرك الأكبر، الذي يوجب دخول النار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: ٧٢].

وقال عن أهل الكتاب: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١].

ثالثا: توحيد الحاكميَّة

وهذا هو التوحيد الثالث، الذي أكمل القرآن به حقيقة التوحيد الذي يرضاه الله من خلقه. وهو أن يوحِّد الله تعالى في تشريعه الذي شرَع لعبادته، فعليه أن يرضى به، ويتعبَّد بأحكامه، ويقبل جريانها عليه في دينه ونفسه، وعِرْضه ونسبه،

ونسله وماله، وكل شؤون حياته. قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤]، وقال في هذه السورة نفسها: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وهذا ما يسمونه توحيد الربوبية. وقال فيها أيضًا: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الأنعام: ١٤] وهذه تشير إلى توحيد العبادة أو توحيد الألوهية.

ولا بدَّ للإنسان المسلم الذي يريد أن يلقى ربه عابدًا مخلصًا له، بريئًا من كل ما يعبد من دونه في الأرض أو في السماء؛ لا بد له من هذه التوحيدات كلها. ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يونس: ١٠٤ - ١٠٦].

(٢)

طاعة الله فيما أمر به

ومن واجب كل مسلم رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبالقرآن إمامًا، وبمحمد من الله نبيًا ورسولًا: أن يطيع الله تعالى فيما أمره به في كتابه المبين، أو على لسان رسوله الذي ثبتت رسالته باليقين والأدلة القطعيَّة، فعليه أن يقول في الأمور الغيبية: آمنا وصدقنا. وفي العمليات: سمعنا وأطعنا. كما قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وكل ما أمر الله تعالى به، وكل ما نهى الله تعالى عنه بصراحة وجزم، فهو مما تجب طاعته، امتثالًا للأمر، واجتنابا للنهي، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب: ٧١].

ومن ذلك: العبادات الرُّكنيَّة، التي أجمع علماء الأمة على أن كل واحدة منها ركن من أركان الإسلام الخمسة العمليَّة. وهي بعد الشهادتين؛ شهادة ألَّا إله إلا الله، وشهادة أن محمدًا رسول الله: إقامة الصلوات الخمس، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان كل سنة، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلًا مرة واحدة في العمر.

وهناك طاعة الله تعالى في امتثال كل ما أمر به، من إيفاء العقود، وإنجاز الوعود، وإبرام العهود، وإقامة الحدود، وتحليل الحلال، وتحريم الحرام، والانتهاء عن كل ما حرَّم الله، من أكل أموال الناس بالباطل، بسرقة أموالهم، أو

اختلاسها أو الغش فيها، ومن كل أنواع إيذاء الناس، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [النساء: ٢٩]، ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [البقرة: ١٨٨].

ومن ذلك ما يتعلق بأحكام الأسرة، وضرورة رعايتها والمحافظة عليها، قال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾ [النور: ٣٢]، وقال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً﴾ [النساء: ٣]. وقال: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾﴾ [النساء: ٤]. وقال: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ﴾ [البقرة: ٢٢٨]. وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾ [النساء: ١٩- ٢٢].

(٣)

اتباع المنهج الذي أمر الله به

ومما يجب على المكلَّف نحو ربِّه الذى خلقه وهداه ورزقه ودبَّر أمره: أن يتَّبع المنهج الذي أمره الله باتباعه، وهو الشريعة التي دَعا الله تعالى إليها عباده، ليقيموا بها أمره، ويتَّبعوا فيها طريقه المستقيم، الذي يتضمَّن العدل في الرعيَّة، والقضاء بالسويَّة، والأمانة في القضيَّة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ [النساء: ٥٨].

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [ص: ٢٦].

﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٤٩ - ٥٠].

وقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة:٤٤]

وقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [المائدة:٤٥]

وقال: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المائدة:٤٧].

فهذه ثلاث آيات في سورة واحدة في سياق واحد، تُنذر كل من حكم بغير ما أنزل الله.

ولو كـان سهمًا واحـدًا لاتَّقَيْتُهُ ولكنَّـه سهـمٌ وثانٍ وثَـالِثُ![1]

قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الجاثية: ١٩].

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣].

(١) البيت للقاضي أبي بكر ابن العربي.

(٤)

محبة الله تعالى وعبادته الباطنة

كما أن المطلوب من المسلم أن يحب الله ﷻ، حتى تكون عبادته عبادةً خالصة له. وحقيقةُ العبادة: أن يكون العبد بين غاية الحب لله تعالى، وغاية الخضوع والذل له. وقد قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ١٦٥].

ووصف الله تعالى جنده المؤمنين الأقوياء الذين ادَّخرهم لنصرة دينه إذا ارتدَّ عنه المرتدون والمنافقون، ومَرَق عنه المارقون، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ﴾ [المائدة: ٥٤].

وجعل النبيُّ ﷺ حب الله ورسوله أحب من كل ما سواهما: أول العناصر الثلاثة التي تُكون الإيمان الحقيقي الذي يذوق المؤمن حلاوتَه، فقال ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»(١).

ووضع القرآن المسلم في مفاصلةٍ بين كل رَغَبات الحياة الدنيا ومشتهياتها، وبين حب الله ورسوله، ليختار أهلُ الإيمان أي الجهتين يسلكون، فقال تعالى:

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣) كلاهما في الإيمان، عن أنس.

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤]

وهذه المحبة لله ورسوله هي عبادة من العبادات القلبيَّة التي جاء بها الإسلام، وعُني بها، ودعا المسلمين إلى إتقانها، فليست العبادات هي الأربع الركنيَّة فقط، فهناك العبادات التي يتنفَّل بها المسلم بعد فرائضه، وفي سائر أوقاته من الذكر والتهليل والتسبيح والتحميد والتكبير، وتلاوة القرآن، والدعاء والاستغفار، والصلاة على النبي ﷺ. وكلها جاء بها القرآن العظيم، وفصَّلتها السنة النبويَّة، وألَّف فيها المسلمون الكتب، وأقاموا عليها أورادهم وتسابيحهم. وقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٢]، ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال ﷻ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال تعالى: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾ [النساء: ٣٢]، وقال تعالى على لسان نوح: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح: ١٠-١٢]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾ [فاطر: ٢٩-٣٠].

وقال تعالى في الحديث القدسي الذي رواه أبو ذر عن رسول الله ﷺ عن ربه:

«يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرما، فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع، إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار، إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعا، فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي، فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد، ما نقص ذلك من ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا، فليحمد الله ومن وجد غير ذلك، فلا يلومن إلا نفسه»[(١)].

إلى آخر ما جاء به القرآن وجاءت به السنة، من ترطيب اللسان بذكر الله تعالى من التسبيح والتحميد، والتهليل والتكبير، والحوقلة والدعاء، والرقية، والاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، والاستغفار لله تعالى، والتلبية لندائه، وذكر اسمه كثيرًا.

وقد ختم البخاري جامعه الصحيح بهذا الحديث: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله العظيم، سبحان الله وبحمده»[(٢)].

---

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٧٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في (٦٤٠٦)، ومسلم في (٢٦٩٤)، عن أبي هريرة.

ثم تأتي العبادات الباطنيَّة التي تملأ قلب المسلم وفكره، وساحة حياته وحياة أسرته وحياة مجتمعه، والدنيا كلها من حوله، وهي عبادات مقرُّها القلوب، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج: ٣٢]، وكما قال تعالى عن الذبائح والهدي التي تُهدى إلى الكعبة: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

لا تقبل العبادات الشعائريَّة إلا بعبادات قلبيَّة وأولها الإخلاص:

وبيَّن القرآن أن العبادات الشعائريَّة الكبرى، من الصلاة والزكاة والصيام والحج، لا تقبل عند الله، إلا إذا كان معها عبادة قلبيَّة، وهي الإخلاص لله، كما قال سبحانه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥]. فأيُّ عبادة من هذه العبادات خلت من الإخلاص، وأفسدها الرياء، فهي مرفوضة عند الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

ولهذا كانت هذه الذنوب الكبيرة من أشدِّ ما يُبعد عن رضا الله سبحانه، مثل الرياء والعُجْب، واليأس من رَوح الله، والأمن من مكره، ونحوها. قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾ [التوبة: ٢٥]. ﴿وَلَا تَا۟يْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف: ٨٧]. ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٩].

لا بد من تطهير الأنفس، وتصفية القلوب، وتنقية الضمائر من هذه الموبقات:

«إنَّ الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[(١)].

«ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[(٢)].

ولذلك ما زلنا نؤكِّد على العبادات القلبيَّة التي لا يلتفت إليها كثير من الناس، لتيههم وغفلتهم عنها، وهي التي تُعبِّر عن حقيقة إيمانهم، وتُعَرِّف بقيمتهم الحقيقيَّة عند الله.

وقد سمعتُ أحاديث الثلاثة الذين أخبر النبي ﷺ عنهم: أنهم أول من تُسَعَّر بهم النار يوم القيامة[(٣)]: المنافق والقارئ «أو العالم» والمجاهد، الذين رُفضت عباداتهم عند الله؛ لأنهم زيَّفوها على الله، وغلَّفوها بغلاف ظاهره الحسن، وهو زائف، فردَّها الله عليهم؛ لأنه تعالى لا يقبل الزيف، وهو سبحانه ناقد بصير.

ولا بد أن نضع أمام المسلم الغيور على دينه، والحريص على نجاة نفسه، المقبل على آخرته، المعنيّ برضا ربه، هذه العبادات المعروفة عند أهل التقوى والإخلاص بالعبادات: القلبية أو الروحية.

عبادة: الشكر لله:

ومن الآداب أيضا، والعبادات القلبيَّة المهمة: عبادة الشكر لله تعالى على نعمائه.

فلا يكفي في هذا أن يقول اللسان: الحمد لله. وقلبه محجوبٌ عن رؤية فضل الله تعالى، ولا يرى إلا الناس، الذين ساعدوه، والذين أمدُّوه أو مَولوه، فهذا ليس

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٤)، وابن ماجه الزهد (٤١٤٣)، عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليه: البخاري في الإيمان (٥٢)، ومسلم في المساقاة (١٥٩٩)، عن النعمان بن بشير.

(٣) رواه مسلم الإمارة (١٩٠٥)، وأحمد (٨٢٧٧)، والترمذي في الزهد (٢٣٨٢)، عن أبي هريرة.

بشكر لله، ولكنه كفر به. قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [إبراهيم: ٧].

وقال تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾ [سبأ: ١٣].

وقد بدا قبول شكر داود، ولذلك زاده الله نعمة وفضلا. ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١﴾ [سبأ: ١٠- ١١].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝١٥ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ۝١٦ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ۝١٧﴾ [سبأ: ١٥- ١٧]

والقرآن يأمر عباد الله بالشكر له وعدم الكفر به، كما قال تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ۝١٥١ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ۝١٥٢﴾ [البقرة: ١٥١-١٥٢]

والنِّعم التي يُسْبِغها الله على عباده متعدِّدة الأنواع والألوان، منها نعم ماديَّة، كما في نعمة سبأ وجنتيها عن يمين وشمال، ومنها نعم معنويَّة، كالنعمة التي آتاها الله لقمان، وهي الحكمة: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝١٢﴾ [لقمان: ١٢].

ومن ذلك نعمة الله على الإنسان منذ ولادته، فقد غمره الله تعالى في نعمه المادية والمعنوية: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ۝١٤﴾ [لقمان: ١٤]، وقد طلب الله من الإنسان أن يشكر لله الذي خلقه، وهيَّأ له ما يحفظه ويُعينه من الأشياء، ويشكر لوالديه اللذين كانا سببًا في ميلاده وحياته وبقائه، مع فضل الله تعالى وإمداده.

عبادة الصبر لله:

وكما يُطالب الإنسان بشكر الله تعالى، يطالب بالصبر على بلائه. كما جاء في حديث صهيب الذي رواه مسلم: «عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كلَّه خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سرَّاء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرَّاء، صبر فكان خيرًا له»[(١)].

الصبر على طاعة الله:

وللمؤمن أنواع ودرجات من الصبر، فهناك صبر على طاعة الله، كما قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ [مريم: ٦٥]، وقوله أيضا: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه: ١٣٢].

وقد استخدم القرآن هنا صيغة الافتعال من الصبر (اصطبر) مكان الصيغة المعتادة (اصبر)، لأنَّ الافتعال يدل على المبالغة في الفعل، فزيادة المبنى تدل في العادة على زيادة المعنى، وما ذاك إلا لأنَّ الطريق إلى طاعة الله مليئة بالمعوقات من داخل النفس ومن خارجها. وفيها يقول الشاعر:

إني ابتليت بأربع يرمينني ... بالنَّبل عن قوس له توتير

إبليس والدنيا ونفسي والورى ... يا رب أنت على الخلاص قدير[(٢)]

وثمة معنى نفسي عميق الأغوار، يجعل طاعة الله وعبادته صعبة على نفس الإنسان، وقد نبَّه على هذا المعنى الإمام الغزالي في «إحيائه»، فقال: «الصبر على الطاعة شديد؛ لأن النفس بطبعها تنفر عن العبوديَّة، وتشتهي الربوبيَّة، ولذلك قال

(١) رواه مسلم في الزهد والرقائق (٧٦٩٢)، وأحمد (١٨٩٣٤)، عن صهيب الرومي.

(٢) ذكرهما القرطبي في التذكرة ص٨٨٠، ولم ينسبهما لأحد، نشر مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع- الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ.

بعض العارفين: ما من نفس إلا وهي مضمرة ما أظهر فرعون من قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]. ولكن فرعون وجد له مجالًا وقبولًا، فأظهره، إذ استخفَّ قومه فأطاعوه، وما من أحد إلا وهو يدَّعي ذلك مع عبده وخادمه وأتباعه، وكل من هو تحت قهره وطاعته، وإن كان ممتنعًا من إظهاره، فإن استشاطته وغيظه عند تقصيرهم في خدمته واستعباده، ذلك ليس يصدر إلا عن إضمار الكِبْر ومنازعة الربوبيَّة في رداء الكبرياء.

فإذًا العبودية شاقَّة على النفس مطلقًا، ثم من العبادات ما يُكره بسبب الكسل كالصلاة، ومنها ما يكره بسبب البخل كالزكاة، ومنها ما يكره بسببهما جميعًا كالحج والجهاد، فالصبر على الطاعة صبر على الشدائد.

ويحتاج المطيع إلى الصبر على طاعته في ثلاث أحوال:

الأولى: قبل الطاعة، وذلك في تصحيح النيَّة والإخلاص، والصبر عن شوائب الرياء ودواعي الآفات، وعقد العزم على الإخلاص والوفاء، وذلك من الصبر الشديد عند من يعرف حقيقة النيَّة والإخلاص وآفات الرياء ومكايد النفس، وقد نبَّه عليه ﷺ إذ قال: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»[1]. وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، ولهذا قدَّم الله تعالى الصبر على العمل، فقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [هود: ١١].

الحالة الثانية: حالة العمل، كي لا يغفل عن الله في أثناء عمله، ولا يتكاسل عن تحقيق آدابه وسننه، ويدوم على شرط الأدب إلى آخر العمل الأخير، فيلازم الصبر عن دواعي الفتور إلى الفراغ، وهذا أيضًا من شدائد الصبر، ولعله المراد بقوله تعالى: ﴿نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ۝ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ [العنكبوت ٥٨، ٥٩]، أي: صبروا إلى تمام العمل.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (١)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٧)، عن عمر بن الخطاب.

الحالة الثالثة: بعد الفراغ من العمل، إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه، والتظاهر به للسمعة والرياء، والصبر عن النظر إليه بعين العُجب، وعن كل ما يبطل عمله ويُحبط أثره، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ۝﴾ [محمد: ٣٣]، وكما قال تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، فمن لا يصبر بعد الصدقة عن المن والأذى، فقد أبطل عمله.

والطاعات تنقسم إلى فرض ونفل، وهو محتاج إلى الصبر عليهما جميعًا، وقد جمعهما الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠]، فالعدل هو الفرض، والإحسان هو النفل، وإيتاء ذي القربى هو المروءة وصلة الرحم، وكل ذلك يحتاج إلى صبر»[(١)].

الصبر عن معصية الله:

وهناك صبر عن المعصية، مثل صبر يوسف عليه السلام، حيث فُتنت به امرأة العزيز، وهي امرأة ذات منصب وجمال، وقد هيّأت الأسباب، وغلّقت الأبواب، وقالت: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ بصريح العبارة، فقال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝﴾ [يوسف: ٢٣]، فردعها بكل الروادع الربانيّة والأخلاقيّة والعمليّة، ومع هذا لم ترتدع، وقالت بصراحة أمام النسوة اللاتي دعتهن إلى قصرها، فأرتهن يوسف، فلم يملكن حين رأينه فجأة، إلا أن قطّعن أيديهن بالسكاكين، التي في أيديهن، وقلن: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۝﴾ [يوسف: ٣١- ٣٢].

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ٧٠).

ولقد كان يوسف عليه السلام مخيَّرًا بين محنتين: محنة في دينه؛ أن يستجيب لها، وينجو من السجن، وينضم إلى أرباب العشق، ويصبح من الفاسقين، أو يرفض، ويستقبل ما يأتي به القدر من نتائج. وهو ما صمَّم عليه.

لكنه ظل صابرًا عن المعصية، فانتصر في صبره، ورضي بمحنة الدنيا على محنة الدين، ودخل في السجن، ولبث فيه بضع سنين.

الصبر على البلاء:

وهناك الصبر على البلاء، كما صبر أيوب عليه السلام على مرضه الذي طال عليه، وفقد من فقد من أولاده، كما ذكر القرآن: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٨٣ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ۝٨٤﴾ [الأنبياء: ٨٣- ٨٤]، وقال الله تعالى عن أيوب: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝٤٤﴾ [ص: ٤٤].

ولقد صبر المسلمون في سبيل عقيدتهم على ما نزل بهم من بلاء في أنفسهم وأهليهم وأموالهم، وكل ما لهم، كما قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: ٢- ٣] هذا في مكة. وفي العهد المدني: جاءت نوازل أخرى، ابتُلي بها المؤمنون وزلزلوا زلزالًا شديدًا، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ۝١٥٧﴾ [١٥٥- ١٥٧].

وفي غزوة الأحزاب، كان بلاءٌ شديد، وصفه القرآن بقوله: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠

﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ١١﴾ [الأحزاب: ١٠- ١١]، وهنا ظهر صبر المؤمنين الصادقين: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ٢٢﴾ [الأحزاب: ٢٢].

وفي سورة البقرة قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ٢١٤].

الصبر على الدعوة ومشاقِّها ومتاعبها:

وهناك الصبر على الدعوة ومشاقِّها، وما يحفُّ بها من متاعب وآلام، تنوءُ بها الظهور، وتضعف عن حملها الكواهل، إلا من رحم الله.

وذلك أنَّ أصحاب الدعوة إلى الله يطلبون من الناس أن يتحرَّروا من أهوائهم وأوهامهم وموروثاتهم ومألوفاتهم، ويثوروا على شهوات أنفسهم، ومعبودات آبائهم، وعادات أقوامهم، وامتيازات طبقاتهم، وينزلوا عن بعض ما يملكون إلى إخوانهم، ويقفوا عند حدود الله فيما أمر ونهى، وأحلَّ وحرَّم، وأكثر الناس لا يؤمنون بهذه الدعوة الجديدة، فلهذا يقاومونها بكلِّ قوة، ويحاربون دُعاتها بكلِّ سلاح، مُدِلِّين بأنهم أكثر مالًا، وأعز نفرًا، وأقوى نفوذًا، وأوسع سلطانًا. فليس أمام دعاة الحق إلا أن يعتصموا باليقين، ويتسلَّحوا بالصبر في وجه القوة الضاربة، والسلطة الطاغية.

فالصبر هنا- كما قال الإمام علي- : سيف لا ينبو، ومطيةٌ لا تكبو، وضياء لا يخبو[١]. وكما جاء في الحديث الصحيح: الصبر ضياء[٢].

(١) أدب الدنيا والدين، للماوردي ص ٢٨٧.

(٢) جزء من حديث رواه مسلم في الطهارة (٢٢٣)، وأحمد (٢٢٩٠٢)، والترمذي في الدعوات (٣٥١٧)، عن أبي مالك الأشعري.

وهذا هو السر في اقتران التواصي

بالصبر بالتواصي بالحق في سورة العصر: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝﴾ [العصر: ٢- ٣]. فلا بقاء للحق بغير صبر.

وهو السر فيما ذكره الله على لسان لقمان الحكيم حيث وصّى ابنه بالصبر على ما يصيبه من بلاء وأذى عقب وصيَّته له بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال الله تعالى على لسانه: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝﴾ [لقمان: ١٧].

كأنه يقول له: ما دُمتَ تدعو الناس إلى الخير، وتأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر، فوطِّن نفسك على احتمال المكاره منهم، وتقبُّل الأذى من جهتهم، فهم خصوم لمن يأمرهم بالمعروف؛ لأنه ثقيل عليهم، ولمن ينهاهم عن المنكر؛ لأنه محبَّب إليهم.

صور تمثِّل مشاقَّ الدعوة إلى الله:

ومشاقّ الدعوة إلى الله تتمثل في صور شتّى، وقد ذكر القرآن منها أنواعًا وأمثلة:

١- تتمثل في إعراض الخلق عن الداعية، فليس أشقّ على نفس صاحب الدعوة أن يدعو بملء فيه، ويصيح بأعلى صوته، بشيرًا ونذيرًا، فلا يجد إلا آذانًا صُمًّا، وقلوبًا غُلْفًا!

رأينا ذلك مع نوح عليه السلام، حيث قال مناجيًا ربه: ﴿رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝﴾ [نوح: ٥-٧].

ورأينا ذلك مع هود عَلَيْهِ السَّلَامُ حين قال له قومه: ﴿يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝٥٣﴾ [هود: ٥٣].

ورأينا ذلك مع خاتم الرسل محمد ﷺ، حيث وصف الله حال قومه معه، فقال: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥﴾ [فصلت: ١ - ٥]، ولهذا قال الله لرسوله: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [النحل: ١٢٧].

وأوضح مَن يُمثِّل هذا النوع من الصبر: نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيث لقي من الإعراض والصد ما لم يلقه نبيٌّ بعده.

٢- وتتمثل متاعب الدعوة في أذى الناس بالقول أو الفعل، فليس أشدَّ على نفس الرجل المخلص في دعوته، البريء من الهوى، المحبِّ لخير الناس، من أن يمحِّض لهم النصح، فيتَّهموه بما ليس فيه، وأن يدعوهم إلى سبيل ربه بالحكمة، فيردوه بالقوة، ويعظهم بالحسنى، فيستقبلوه بالسُّوأى، ويجادلهم بالتي هي أحسن، فيقاوموه بالتي هي أخشن، ويدلهم على الخير، فيقذفوه بالشر، ويصدع فيهم بكلمة الحق، فلا يسمع منهم إلا كلمة الباطل.

وقد لا يقف الأمر عند هذا الحد، فكثيرًا ما يمتد الطغيان إلى الأموال فينهبونها، وإلى الأبدان فيعذِّبونها، وإلى الحريات فيسلبونها، وإلى الحرمات فينتهكونها، بل إلى الأنفس فيقتلونها، حتى الأرض التي نبتوا منها، وشبُّوا عليها، ونشؤوا في أحضانها، هم وآباؤهم وأجدادهم، يُخْرَجون منها إخراجًا.

وهذا ما أقسم القرآن على وقوعه للداعين إلى الله، حيث خاطب بذلك المؤمنين ليوطِّنوا أنفسهم على الصبر الطويل، فقال: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ

وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًاۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران: ١٨٦]، ومن هنا أمر الله رسوله أن يصبر على إيذاء قومه بمثل قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾﴾ [المزمل: ١٠].

والأنبياء جميعًا يمثلون هذا النوع من الصبر، ولهذا حكى الله على لسانهم هذا القول ردًّا على أقوامهم: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [إبراهيم: ١٢]، وعزّى الله خاتم رسله بما حدث لإخوانه من قبله فقال: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ [الأنعام: ٣٤].

ومن أتباع الرسل ذكر لنا القرآن هنا مثلًا رائعًا يتجلّى في سحرة فرعون، حين وقع الحق وبطل ما كانوا يعملون، فأعلنوا إيمانهم برب موسى وهارون، وعندها قال لهم فرعون: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَاۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الأعراف: ١٢٣ – ١٢٤].

فماذا كان موقف السحرة إزاء هذا الوعيد الهادر من ملك جبّار يقول للناس: أنا ربكم الأعلى؟ لقد وقفوا بإيمانهم الجديد كالجبال الشُّمّ، متحدّين جبروت فرعون، مستعدين لكل ما يُرغِي به ويُزبد، سائلين الله تعالى أن يفرغ عليهم صبرًا يتحملون به العذاب راضين، ويستقبلون به المكاره مطمئنين.. ومن هنا قالوا لفرعون: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَاۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأعراف: ١٢٥–١٢٦].

٣- وتتمثل مشاق الدعوة كذلك في صورة أخرى هي: طول الطريق، واستبطاء النصر، فقد جعل الله العاقبة للمتقين، وكتب النصر لدعاة الحقِّ من رسله وأتباعهم وورثتهم المؤمنين، ولكن هذا النصر لا يتحقَّق بين عشية وضحاها، ولا تشرق شمسه، إلا بعد ليل طويل حالك من الشدائد والمحن المتعاقبة، تزيغ لهولها الأبصار، وتبلغ القلوب الحناجر، ويظن الناس بالله الظنون، هناك يبتلى المؤمنون ويزلزلون زلزالًا شديدًا، كما صور القرآن الحالة النفسيَّة للمسلمين في غزوة الأحزاب.

وكم أكَّد القرآن هذه الحقيقة في أكثر من موضع، وبأكثر من أسلوب، فهو يخاطب المؤمنين في المدينة فيقول: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤].

يقولون: متى نصر الله؟ استبطاءً له، واستعجالًا لمجيئه، فيجيء معه الغوث للملهوف، والفرج للمكروب.

ويقول جل شأنه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾ [يوسف: ١١٠].

أ- الرجاء في رحمة الله والخوف من عذابه:

ومن الآداب والعبادات القلبية: الرجاء في رحمة الله تعالى، فبعض الناس ينظر إلى جانب، فيُغَلِّبُه على الله ﷻ، مع أنه تعالى هو الذي يُعرِّفنا بحقائق صفاته كما هي، وهي كلها تنحو منحى الوسط المعتدل، فمن الناس من يظن أن الله سبحانه هو القوي المتين، ذو البطش الشديد، الذي لا يعجز عن شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو الذي يأخذ الكفرة

والعصاة أخذ عزيز مُقْتدر، وينزل عليهم سخطه، ويصبُّ عليهم عذابه ونقمه، وينسى الجانب الآخر من صفاته ﷻ، وهو أنه ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤﴾ [البروج: ١٤]، ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣﴾ [الزمر: ٥٣]، ﴿قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

والواجب على المسلم الذي يحب أن يعرف الله معرفة حقيقيَّة صادقة: أن يجمع كل الآيات والنصوص التي تصف الله تبارك وتعالى، ويضمُّها بعضها إلى بعض؛ ليعرف من الجميع حقيقة ما وصف الله تعالى به نفسه، ووصفه به رسولُه.

ولذلك نقول للذين يصفون الله تعالى بأنه الكبير المتعال، المتكبِّر الجبار، القوي القدير، الذي إذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون؛ يجب أن تعلموا أنه كذلك هو الغفور الرحيم، البَر الكريم، العليم الحكيم، الذي هو خير الراحمين، وأرحم الراحمين، وأكرم الأكرمين، وخير الغافرين، الذي وسعت رحمته كل شيء، وسبقت رحمته غضبه، فلا بد لنا أن نضع هذه الصفات كما وضعها القرآن، قال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٩٨﴾ [المائدة: ٩٨]، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٦﴾ [الرعد: ٦]. ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝١١٠﴾ [النساء: ١١٠]، ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ۝١٤٧﴾ [النساء: ١٤٧]. وقال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۝٥٧﴾ [الإسراء: ٥٧]، ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ﴾ [الزمر: ٩].

وهكذا ترى القرآن دائمًا يجمع التخويف والتأمين، حتى في بعض الكلمات يقول ﷻ: ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣] فقوله: ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ﴾ غير قول «من خشي الجبار» أو «القهار»، يدل على أنه يريد إدخال اسم الرحمن في الخشية، ليكون التأمين والتخويف في الكلمة نفسها.

وهذا هو دأب القرآن دائمًا، كما في قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩- ٥٠]، وقال: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [غافر: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ [الحديد: ٢٠].

وهناك كثير من العبادات القلبيَّة التي دعا إليها القرآن، وأمر أهل الإيمان أن يلتزموا بها، فيجعلوها من مقومات سلوكهم، ومن أركان حياتهم، من الرضا عن الله، والتوكل عليه، وخشية لقائه، وخوف حسابه، أو حب المرء لا يحبُّه إلا لله، وبُغضه لا يبغضه إلا لله، والتجالس في الله، والتزاور في الله، كما في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله، فمن هذه الأصناف السبعة نجد: «.. ورجلان تحابَّا في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه»(١).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٦٦٠)، ومسلم في الزكاة (١٠٣١)، عن أبي هريرة.

(٥)

إسناد العبد الخير والطاعة إلى ربه والشر والمعصية إلى نفسه

ومن أدب المؤمن مع الله: أن يسند المعصية إلى نفسه، ويسند الطاعة إلى فضل ربه وتوفيقه، ولا يكون كالذي قال فيه بعض علماء السلف: أنت في المعصية جَبْري، وفي الطاعة قَدَري! يريد أنه إذا انزلق في المعصية، ووسوست له نفسه بعمل السوء، وغرَّته الحياة الدنيا، وغرَّه بالله الغرور، لا يلوم نفسه، بل يقول: قدَّره الله عليّ، وهو مكتوب في الأزل لا مَهْرب منه، هكذا أراد الله لي.. إلى آخر هذه العبارات، التي مجملها تبرئة نفسه، وتحميل الأقدار نتيجة ما فعل.

أما في حال الطاعة، فلسانه لسان القدَرِية- يعني: المعتزلة- الذين يقولون: إن المكلَّف هو خالق أفعال نفسه. فهو هنا يقول: أنا صليتُ، وأنا صُمت، وأنا بذلت، وأنا أنفقت. ناسيًا- أو متناسيًا- توفيق ربِّه، ولُطفه وعونه وإمداده، حتى يَسَّر له ما عمل من خير.

وإنَّ الأدب مع الله على عكس هذا النوع من الخلق، فما وفّق الله إليه من عمل قال: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات[1]. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا

(١) رواه ابن ماجه في الأدب (٣٨٠٣)، والطبراني في الأوسط (٦٩٩٩)، والحاكم في الدعاء (١/ ٤٩٩)، وصحّح إسناده على شرطهما، وسكت عنه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٦٤٠)، عن عائشة.

لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]. ويقول كما قال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد أن علَّم صاحبيه في السجن بعض الأشياء: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٣٧ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۝٣٨﴾ [يوسف: ٣٧- ٣٨].

فانظر كيف بدأ حديثه بقوله: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ﴾. وأنهاه بقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾.

وأمَّا ما زلَّت فيه قدما العبد من معصية الله تعالى، سواء أكانت من معصية الجوارح أم من معاصي القلوب، فإنما يرجع ذلك إلى ظلم نفسه، وسوء اختياره، ونسيانه لربه.

كما رأينا ذلك في موقف أبينا آدم وزوجه، بعد أن أكلا من الشجرة: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٢٣﴾ [الأعراف: ٢٣].

وكذلك قال موسى بعد أن وكز الرجل القبطي فقضى عليه: ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ۝١٥ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٥- ١٦].

وبعد ذلك اختاره الله وبعثه إلى فرعون وقومه، وهنالك قال له بنو إسرائيل لما كانوا في التيه في الصحراء: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ﴾ [البقرة: ٦١]، فانظر إلى قولهم: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾. وكأنما ليس هو ربّهم، إنما هو ربه وحده. ونسوا ما نزّل الله عليهم في هذه الصحراء من المنِّ والسلوى[1].

(١) المن هو: الكمأة أوما يسمونه في بلاد الخليج: الفِقْع. والسلوى: الطيور المهاجرة التي تأتي في مجموعات غفيرة.

وبذلك تشبَّهوا بالكفرة من فرعون وملئه الذين قالوا حين وقع عليهم الرجز والعذاب: ﴿يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾ [الأعراف: ١٣٤].

ومن ذلك قولهم: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [البقرة: ٥٥].

ومن ذلك: أنهم حين قال لهم موسى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾ [المائدة: ٢١]. لم يسمعوا لنبيِّهم، ولم يستجيبوا لدعائه، رغم أنه قال عن الأرض: ﴿ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾. ورغم أنه حذَّرهم من النكوص والارتداد على أدبارهم، قالوا: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾، ورغم تحريض رجلين من العارفين من قومهم على الدخول، وأنهم غالبون بإذن الله، إذا دخلوا عليهم الباب، وإذا توكلوا على الله: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة: ٢٣]، ولكن القوم رفضوا النُّصح، وأعلنوا موقفهم المخزي بصراحة غريبة: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

انظر إلى سوء الأدب في تعبيرهم ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾! على خلاف ما قاله أصحاب محمد ﷺ في غزوة بدر: لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ ولكن: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون[١]. ولا غرو أن قال موسى لربه شاكيًا آسيًا أسِفًا، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾. القوم

(١) رواه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٠٩)، عن ابن مسعود.

الفاسقون هم قومه بنو إسرائيل الذين عصوه ولم يطيعوه، وخذلوه ولم ينصروه، ومن هنا استحقوا أن يصدر عليهم الحكم الإلهي من فوق سبع سماوات عن الأرض المقدسة: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة: ٢١-٢٦].

نماذج عليا في الأدب مع الله:

لقد سجَّل القرآن لصفوة الخلق رسل الله تعالى وأنبيائه الذين اصطفاهم لحمل رسالته إلى جنس البشر، نماذج عليا في أدبهم مع الله إذا سألوه أو خاطبوه أو تعبدوا له.

أدب أيوب عليه السلام مع ربِّه:

انظر إلى أدب أيوب، حين ابتُلي بالمرض، وطال عليه، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣]. فوصف حاله، ولم يبالغ في تبشيع ما أصابه؛ لأنه من الله في واقع الأمر، بل قال: ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾، والتعبير بـ«مسَّني» فيه تلطف، وهو مجرَّد من أيِّ شكوى أو أي طلب، ثم أثنى على ربِّه بأنه ﴿أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾، وهذه من العبارات التي ذُكِرت في القرآن، بلسان الأنبياء: إبراهيم ويعقوب ويوسف وموسى عليهم السلام، ومعها ﴿خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾. ولم يصرح أيوب بما يريد، أدبًا مع الله تعالى، كما قال القائل: علمه بحالي، يغني عن صريح سؤالي!

أدب موسى عليه السلام:

وقريب من ذلك مناجاة موسى لربِّه في غربته في أرض مدين، التي رحل إليها من مصر ماشيًا على قدميه، بعد أن سقى للمرأتين مروءةً منه، ثم أوى إلى الظل،

فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ۝﴾ [القصص: ٢٤]، أبدى فقره إلى الله، وإلى ما عنده من خير، ولم يطلب منه شيئًا، حياءً من ربه.

أدب ذي النون عليه السلام:

ومن هذا الأدب العالي: قولُ ذي النون، حين التقمه الحوت، فنادى في الظلمات: ظلمة البحر، وظلمة الليل، وظلمة بطن الحوت: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝﴾ [الأنبياء: ٨٧].

فاكتفى في هذه الآية الموجزة بإثبات ثلاث حقائق:

إثبات التوحيد، والتنزيه لربه، والاعتراف بالظلم على نفسه، ولم يسأل النجاة ممَّا هو فيه، أدبًا مع ربه جلَّ وعلا، ولكن الله استجاب له، وإن لم يسأل بلسانه، وإنما سأل بلسان حاله وفاقته. ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ [الأنبياء: ٨٨].

قال رسول الله ﷺ: «دعوة أخي ذي النون، ما دعا بها مكروب، إلا فرج الله كربته: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين»(١).

أدب إبراهيم عليه السلام:

وإبراهيم خليل الرحمن يثني على ربِّه رب العالمين، فيقول: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۝ وَٱلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۝ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝﴾ [الشعراء: ٧٨- ٨٠]، أدبًا مع الله تعالى، فنسب إليه الشفاء، ولم ينسب إليه الإمراض، لم يقل: «والذي هو يمرضني ويشفين». كما أنه جعل المرض عَرَضًا طارئًا، فعلّقه على الشرط ﴿وَإِذَا

---

(١) رواه أحمد (١٤٦٢)، وقال مخرّجوه: إسناده حسن، والترمذي في الدعوات (٣٥٠٥)، قال: ورواه جماعة عن إبراهيم بن محمد بن سعد عن سعد فلم يقل فيه عن أبيه، والحاكم في الدعاء (١/ ٥٠٥) وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٣٨٣)، عن سعد بن أبي وقاص.

مَرِضْتُ﴾ ولم يجعله أمرًا ثابتًا متجدِّدًا كالهداية والإطعام والسقاية.

وقد تكرَّر في القرآن على ألسنة الأنبياء والمؤمنين نسبة الخير إلى الله تعالى، ونسبة الشر إلى غيره، أو بناء الفعل للمجهول فيما يخص الشر، كما ذكر القرآن عن مؤمني الجن أنهم قالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الجن: ١٠].

أدب المسيح عيسى عليه السلام:

ومن أدب النبوة مع الألوهية: أدب عيسى مع ربِّه يوم القيامة، إذا سأله ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾[المائدة: ١١٦].

ولم يقل: «لم أقل». وإنما قال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة: ١١٧]. فبيّن براءته من كل ما اتهمه به الظالمون، ثم قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٨]. أي: التعذيب والإثابة من شأنك مع عبادك، لا يشاركك أحد في أمرهم، ولا ينازع في شأنهم، وإن تغفر لهم فأنت تغفر غفران صاحب العزة والقدرة، وصاحب الحكمة الذي يضع كل شيء في موضعه.

يقول الإمام ابن القيم في تفسير الآيات الثلاث من أواخر سورة المائدة من الكلام بين الله سبحانه وعيسى يوم القيامة: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ

أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٦-١١٨]: «وتأمل أحوالَ الرسل صلوات الله وسلامه عليهم مع الله، وخطابهم وسؤالَهم، كيف تجدها كلَّها مشحونة بالأدب، قائمةبه.

قال المسيح عليه السلام: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ [المائدة: ١١٦] ولم يقل: «لم أقله». وفرق بين الجوابين في حقيقة الأدب.

ثم أحال الأمر على علمه سبحانه بالحال وسرِّه، فقال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى﴾ [المائدة: ١١٦].

ثم برَّأ نفسَه عن علمه بغيب ربِّه، وما يختص به سبحانه، فقال: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦].

ثم أثنى على ربِّه، ووصفه بتفرده بعلم الغيوب كلها، فقال: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦].

ثم نفى أن يكون قال لهم غير ما أمره ربه به- وهو محض التوحيد- فقال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧].

ثم أخبر عن شهادته عليهم مدَّة مقامه فيهم، وأنه بعد وفاته لا اطلاع له عليهم، وأنَّ الله عز وجل وحده هو المنفرد بعد الوفاة بالاطلاع عليهم، فقال: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧].

ثم وصفه بأن شهادته سبحانه فوق كل شهادة وأعم، فقال: ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة: ١١٧].

ثم قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: ١١٧] وهذا من أبلغ الأدب مع الله في مثل هذا المقام، أي شأن السيد رحمة عبيده، والإحسان إليهم، وهؤلاء عبيدك ليسوا عبيدًا لغيرك، فإذا عذَّبتهم- مع كونهم عبيدك- فلولا أنهم عبيد سوء من

أبخس العبيد، وأعتاهم على سيدهم، وأعصاهم له؛ لم تعذِّبهم، لأن قربة العبودية تستدعي إحسان السيِّد إلى عبده ورحمته، فلماذا يعذِّب أرحم الراحمين وأجود الأجودين وأعظم المحسنين إحسانا عبيدَه؟ لولا فرْط عُتُوهم، وإباؤهم عن طاعته، وكمال استحقاقهم للعذاب.

وقد تقدم قوله: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦] أي: هم عبادك، وأنت أعلم بسرِّهم وعلانيتهم، فإذا عذَّبتهم: عذَّبتهم على علم منك بما تُعذِّبهم عليه، فهم عبادك، وأنت أعلم بما جنَوه واكتسبوه. فليس في هذا استعطاف لهم، كما يظنه الجهال، ولا تفويض إلى محض المشيئة والملك المجرَّد عن الحكمة، كما تظنه القدرية، وإنما هو إقرار واعتراف وثناء عليه سبحانه بحكمته وعدله، وكمال علمه بحالهم، واستحقاقهم للعذاب.

ثم قال: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١١٨﴾ [المائدة: ١١٨] ولم يقل: الغفور الرحيم. وهذا من أبلغ الأدب مع الله تعالى، فإنه قاله في وقت غضب الرب عليهم، والأمر بهم إلى النار، فليس هو مقام استعطاف ولا شفاعة، بل مقام براءة منهم. فلو قال: «فإنك أنت الغفور الرحيم» لأشعرَ باستعطافه ربَّه على أعدائه الذين قد اشتدَّ غضبه عليهم، فالمقام مقام موافقة للرب في غضبه على من غضب الرب عليهم، فعدل عن ذكر الصِّفَتين اللتين يسأل بهما عطفه ورحمته ومغفرته إلى ذكر العزة والحكمة، المتضمنتين لكمال القدرة وكمال العلم.

والمعنى: إن غفرت لهم، فمغفرتك تكون عن كمال القدرة والعلم. ليست عن عجْز عن الانتقام منهم، ولا عن خفاء عليك بمقدار جرائمهم، وهذا لأنَّ العبد قد يغفر لغيره لعجزه عن الانتقام منه، ولجهله بمقدار إساءته إليه، والكمال:

هو مغفرة القادر العالم، وهو العزيز الحكيم. وكان ذكر هاتين الصفتين في هذا المقام عين الأدب في الخطاب.

نماذج أخرى من أدب الأنبياء والصالحين:

وكذلك قول إبراهيم الخليل ﷺ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝﴾ [الشعراء: ٧٨- ٨٠] ولم يقل: «وإذا أمرضني»، حفظًا للأدب مع الله.

وكذلك قول الخضر عليه السلام في السفينة: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩]. ولم يقل: «فأراد ربُّك أن أعيبها». وقال في الغلامين: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢].

وكذلك قول مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الجن: ١٠]، ولم يقولوا: أراده بهم ربُّهم. ثم قالوا: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝﴾ [الجن: ١٠].

وألطف من هذا قول موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ۝﴾ [القصص: ٢٤]، ولم يقل: أطْعِمْني.

وقول آدم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ۝﴾ [الأعراف: ٢٣]، ولم يقل: رب قدّرت عليّ وقضيت عليّ.

وقول أيوب عليه السلام: ﴿مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝﴾ [الأنبياء: ٨٣]، ولم يقل: فعافِني واشفني.

وقول يوسف لأبيه وإخوته: ﴿هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ [يوسف: ١٠٠]، ولم يقل: أخرجني من الجُبِّ؛ حفظًا للأدب مع إخوته، وتفتّيا عليهم[1] ألّا يخجلهم بما جرى في الجب، وقال: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ

(١) يعني اتصافًا بالفتوة معهم، وهي أحد مقامات الصوفية، يعرفها ابن القيم في المدارج (٢/ ٣٢٣) بقوله: الإحسان إلى الناس. وكف الأذى عنهم. واحتمال أذاهم. فهي استعمال حسن الخلق معهم.

ٱلۡبَدۡوِ﴾ [يوسف: ١٠٠]، ولم يقل: رفع عنكم جَهد الجوع والحاجة. أدبًا معهم، وأضاف ما جرى إلى السبب، ولم يضفه إلى المباشر الذي هو أقرب إليه منه، فقال: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ [يوسف: ١٠٠]، فأعطى الفُتُوَّة والكرم والأدب حقه. ولهذا لم يكن كمال هذا الخلق إلا للرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم».

أدب النبي محمد ﷺ مع ربه:

قال ابن القيم: «وجرت عادة القوم: أن يذكروا في هذا المقام قوله تعالى عن نبيِّه ﷺ، حين أراه ما أراه: ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ١٧﴾ [النجم: ١٧]. وأبو القاسم القُشَيْري صدَّر «باب الأدب» بهذه الآية، وكذلك غيره، وكأنهم نظروا إلى قول من قال من أهل التفسير: إنَّ هذا وصف لأدبه ﷺ في ذلك المقام، إذ لم يلتفت جانبًا، ولا تجاوز ما رآه، وهذا كمال الأدب. والإخلال به: أن يلتفت الناظر عن يمينه وعن شماله، أو يتطلَّع أمام المنظور. فالالتفات: زيغ، والتطلع إلى ما أمام المنظور: طغيان ومجاوزة. فكمال إقبال الناظر على المنظور: ألّا يصرف بصره عنه يَمْنة ولا يَسْرة، ولا يتجاوزه. هذا معنى ما حصلته عن شيخ الإسلام ابن تيميَّة قدَّس الله روحه.

وفي هذه الآية أسرار عجيبة، وهي من غوامض الآداب اللائقة بأكمل البشر ﷺ: تواطأ هناك بصره وبصيرته، وتوافقا وتصادقا فيما شاهده بصره، فالبصيرة مواطئة له، وما شاهدته بصيرته فهو أيضًا حق مشهود بالبصر؛ فتواطأ في حقه مشهد البصر والبصيرة.

ولهذا قال ﷺ: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ١٢﴾ [النجم: ١١ - ١٢] أي: ما كذب الفؤادُ ما رآه ببصره.

ولهذا قرأها أبو جعفر: ﴿مَا كَذَّبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝﴾- بتشديد الذال- أي لم يكذب الفؤاد البصر، بل صدقه وواطأه، لصحة الفؤاد والبصر، أو استقامة البصيرة والبصر، وكونِ المرئي المشاهد بالبصر والبصيرة حقًّا.

وقرأ الجمهور: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ﴾ أي: بالتخفيف. وهو متعدٍّ، و«ما» ﴿مَا رَأَىٰٓ ۝﴾ مفعوله: أي ما كذَّب قلبه ما رأته عيناه، بل واطأه ووافقه؛ فلِمواطأة قلبه لقالبه، وظاهره لباطنه، وبصره لبصيرته: لم يكذب الفؤادُ البصرَ، ولم يتجاوز البصر حدَّه فيطغى؛ ولم يمِلْ عن المرئي فيزيغ؛ بل اعتدل البصر نحو المرئي. ما جاوزه ولا مال عنه، كما اعتدل القلب في الإقبال على الله، والإعراض عمَّا سواه، فإنه أقبل على الله بكُلِّيَّته. وللقلب: زيْغ وطغيان، وكلاهما متْفٍ عن قلبه وبصره، فلم يزِغ قلبه التفاتًا عن الله إلى غيره، ولم يطغ بمجاوزته مقامه الذي أقيم فيه.

وهذا غاية الكمال والأدب مع الله، الـذي لا يلحقـه فيـه سـواه، فـإنَّ عـادة النفوس، إذا أقيمت في مقام عال رفيع: أن تتطلع إلى ما هو أعلى منه وفوقه.

ألا ترى أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لمَّا أقيم في مقام التكليم والمناجاة: طلبت نفسُه الرؤية؟ ونبيُّنا ﷺ لما أقيم في ذلك المقام، وفَّاه حقه: فلم يلتفت بصرُه ولا قلبُه إلى غير ما أقيم فيه البتة، ولأجل هذا ما عاقه عائق، ولا وقف به مراد، حتى جاوز السماوات السبع، حتى عاتبَ موسى ربَّه فيه، وقال: «يقول بنو إسرائيل: إني كريم الخلق على الله. وهذا قد جاوزني وخلَّفني علوًّا، فلو أنه وحده! ولكن معه كل أمته»(1).

---

(١) رواه البزار (٩٥١٨) بلفظ: «يزعم بنو إسرائيل أني أفضل الخلق، وهذا قد خلفني، فلو أنه وحده ولكن معه كل أمته»، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٣٥): رجاله موثقون، إلا أن الربيع بن أنس قال: عن أبي العالية أو غيره؛ فتابعيُّه مجهول، عن أبي هريرة.

وفي رواية للبخاري: «فلما جاوزتُه بكى، قيل: ما يبكيك؟ قال: أبكي أنَّ غلامًا بُعث بعدي يدخل الجنة من أمّته أكثر ممَّن يدخلها من أمَّتي»[1]. ثم جاوزه عُلُوًّا فلم تُعِقْه إرادة، ولم تقف به دون كمال العبوديَّة هِمّة.

ولهذا كان مركوبه في مَسْراه يسبق خطوُه الطَّرْف، فيضع قدمه عند منتهى طَرْفه، مشاكلًا لحال راكبه، وبُعْد شأوه، الذي سبق العالم أجمع في سيْره، فكان قَدَمُ البُراق لا يختلف عن موضع نظره، كما كان قدمُه ﷺ لا يتأخر عن محل معرفته.

فلم يزل ﷺ في خِفارة كمال أدبه مع الله سبحانه، وتكميل مراتب عبوديَّته له، حتى خرق حُجب السماوات، وجاوز السبع الطباق، وجاوز سدرة المنتهى، ووصل إلى محل من القرب سبق به الأولين والآخرين. فانصبّت إليه هناك أقسام القُرب انصبابًا، وانقشعت عنه سحائب الحُجُب ظاهرًا وباطنًا حجابًا حجابًا، وأقيم مقامًا غَبَطه به الأنبياء والمرسلون، فإذا كان في المعاد أقيم مقامًا من القُرب ثانيًا، يغبطه به الأولون والآخرون، واستقام هناك على صراط مستقيم، من كمال أدبه مع الله ما زاغ البصر عنه وما طغى. فأقامه في هذا العالم على أقوم صراط من الحق والهدى، وأقسم بكلامه على ذلك في الذكر الحكيم، فقال تعالى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤﴾ [يس: ١ - ٤]، فإذا كان يوم المعاد أقامه على الصِّراط، يسأله السلامة لأتباعه وأهل سنَّته، حتى يجوزوه إلى جنات النعيم: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢١﴾ [الحديد: ٢١]»[2].

من أدب المؤمنين في الدعاء:

من أدب المؤمنين مع الله ما حكاه القرآن عن الربَّانيين الذين قتل منهم من

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٠٧)، ومسلم في الإيمان (١٦٤)، عن مالك بن صعصعة.

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٣٥٨-٣٦٣).

قتل في سبيل الله، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا. ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [آل عمران: ١٤٧].

فكان من أدبهم أن قدّموا اعترافهم لربّهم بذنوبهم، وإسرافهم في أمرهم، طالبين المغفرة من مولاهم، ثم سألوا ربّهم بعد ذلك التثبيتَ والنصر، أي إنهم اتّهموا أنفسهم أولًا بالتقصير، بدل أن يتّهموا الأقدار بالتخلّي عنهم.

نماذج من أدب المسلم مع ربه في العبادات:

ومما ينبغي أن ننوه به في هذا المقام ما ذكره الإمام ابن القيم في «المدارج» من كلام له أهمية بالغة، فقد قال في بيان منازل السائرين عند شرح «مقام الأدب»: «ومن هذا أمر النبي ﷺ الرجل: أن يستر عورته، وإن كان خاليًا لا يراه أحد[(١)]، أدبًا مع الله، على حسب القرب منه، وتعظيمه وإجلاله، وشدة الحياء منه، ومعرفة وقاره.

فإن ستر العورة من الأدب، والوضوء وغسل الجنابة من الأدب، والتطهُّر من الخبث من الأدب، حتى يقف بين يدي الله طاهرًا. ولهذا كانوا يستحبُّون أن يتجمّل الرجل في صلاته، للوقوف بين يدي ربه.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: أمر الله بقدر زائد على ستر العورة في الصلاة، وهو أخذ الزينة، فقال تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، فعلّق الأمر بأخذ الزينة، لا بستر العورة، إيذانًا بأن العبد ينبغي له:

(١) إشارة إلى حديث: عن معاوية بن حيدة قال: قلت يا رسول الله، عوراتنا ما نأتي منها وما نذر؟ قال: «احفظ عورتك إلا من زوجتك» قال: قلت: يا رسول الله، إذا كان أحدنا خاليا؟ قال: «الله أحقُّ أن يُستحيا منه من الناس». رواه أحمد (٢٠٠٣٤) وقال مخرجوه: إسناده حسن، أبو داود في الحمام (٤٠١٧)، والترمذي في الأدب (٢٧٩٤) وحسنه، وابن ماجه في النكاح (١٩٢٠).

أن يلبس أزين ثيابه، وأجملها في الصلاة.

وكان لبعض السلف حُلَّة بمبلغ عظيم من المال، وكان يلبسها وقت الصلاة، ويقول: ربي أحقُّ من تجمَّلت له في صلاتي.

ومعلوم: أن الله ﷻ يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، لا سيما إذا وقف بين يديه، فأحسن ما وقف بين يديه: بملابسه ونعمته التي ألبسه إياها ظاهرًا وباطنًا.

أدب المسلم في صلاته:

ومن الأدب: نهيُ النبي ﷺ المصليَ أن يرفع بصره إلى السماء[1].

فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدَّس الله روحه يقول: هذا من كمال أدب الصلاة: أن يقف العبد بين يدي ربه مُطرقًا، خافضًا طرْفه إلى الأرض، ولا يرفع بصره إلى فوق... إذ من الأدب مع الملوك: أن الواقف بين أيديهم يطرق إلى الأرض، ولا يرفع بصره إليهم، فما الظن بملك الملوك سبحانه؟ وسمعته يقول في نهيه ﷺ عن قراءة القرآن في الركوع والسجود[2]: إن القرآن هو أشرف الكلام، وهو كلام الله، وحالتا الركوع والسجود حالتا ذل وانخفاض من العبد؛ فمن الأدب مع كلام الله: ألاَّ يقرأ في هاتين الحالتين، ويكون حال القيام والانتصاب أولى به.

ألَّا يستقبل بيت الله ولا يستدبره عند قضاء الحاجة:

ومن الأدب مع الله: ألا يستقبل بيتَه ولا يستدبره عند قضاء الحاجة، كما ثبت

---

(١) إشارة إلى حديث: «لينتهين أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة، أو لا ترجع إليهم». رواه مسلم في الصلاة (٤٢٨)، وأحمد (٢١٠٤٢)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٤٥)، عن جابر بن سمرة.

(٢) إشارة إلى حديث: نهاني رسول الله ﷺ أن أقرأ راكعا أو ساجدا. رواه مسلم في الصلاة (٤٨٠)، والنسائي في التطبيق (١١١٩)، عن علي بن أبي طالب.

عن النبي ﷺ في حديث أبي أيوب[1] وسلمان[2] وأبي هريرة[3]، وغيرهم ﭫ، والصحيح: أن هذا الأدب: يعمُّ الفضاء والبنيان. كما ذكرنا في غير هذا الموضع.

وضع اليمنى على اليسرى عند القراءة:

ومن الأدب مع الله، في الوقوف بين يديه في الصلاة: وضع اليمنى على اليسرى، حال قيام القراءة، ففي الموطأ لمالك، عن سهل بن سعد: أنه من السنة، وكان الناس يؤمرون به[4]، ولا ريب أنه من أدب الوقوف بين يدي الملوك والعظماء، فعظيم العظماء أحقُّ به.

أدب المصلي في حال قيامه:

ومنها: السكون في الصلاة. وهو الدوام الذي قال الله تعالى فيه: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ٢٣﴾ [المعارج: ٢٣]. قال عبد الله بن المبارك، عن ابن لَهِيعَة، حدَّثني يزيد بن أبي حبيب، أنَّ أبا الخير أخبره قال: سألنا عقبة بن عامر عن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ٢٣﴾: أهم الذين يصلون دائمًا؟ قال: لا، ولكنه إذا صلَّى لم يلتفت عن يمينه، ولا عن شماله، ولا خلفه[5].

قلت: هما أمران: الدوام عليها، والمداومة عليها. فهذا الدوام. والمداومة في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٩﴾ [المؤمنون: ٩]. وفسَّر الدوام بسكون الأطراف والطمأنينة.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الوضوء (١٤٤)، ومسلم في الطهارة (٢٦٤).

(٢) رواه مسلم في الطهارة (٢٦٢)، وأحمد (٢٣٧١٣)، وأبو داود في الطهارة (٧).

(٣) رواه مسلم في الطهارة (٢٦٤)، وأحمد (٧٣٦٨)، وأبو داود في الطهارة (٨.

(٤) موطأ مالك (٥٤٦) ت الأعظمي.

(٥) رواه ابن المبارك في الزهد (١١٨٩)، والمرزوي في تعظيم قدر الصلاة (٦٧).

وأدبه في استماع القراءة: أن يُلقِي السمع وهو شهيد.

أدب المصلي في ركوعه:

وأدبه في الركوع: أن يستوي، ويُعظِّم الله تعالى، حتى لا يكون في قلبه شيء أعظم منه، ويتضاءل ويتصاغر في نفسه، حتى يكون أقل من الهباء، والمقصود: أن الأدب مع الله تبارك وتعالى: هو القيام بدينه، والتأدب بآدابه ظاهرًا وباطنًا.

ولا يستقيم لأحد قط الأدبُ مع الله إلا بثلاثة أشياء: معرفته بأسمائه وصفاته، ومعرفته بدينه وشرعه، وما يحب وما يكره، ونفس مستعدة قابلة لينة متهيِّئة لقبول الحق علمًا وعملًا وحالًا. والله المستعان»[1].

(١) مدارج السالكين (٢/٣٥٨- ٣٦٥) بتصرف.

(٦)

شمولية العبادة وعلاقتها بالأدب مع الله

إن مما يعين المسلم على أن يكون حسن الأدب في تعامله مع ربه، أن يصحح مفهوم العبودية لله، فالعبودية لله تشمل الحياة كلها، وتشمل الدين كله، وأن يعلم لله في شأنه كله وفي أمور حياته كلها: أوامر ونواهي ومحبوبات ومكروهات، فمن الأدب مع الله أن يحرص على طاعة الله فيما أمر وأحب، وأن يجتنب ما نهى عنه وكره.

وأود أن أقتبس هنا من ثاني كتاب ألفتُه في بداية توجُّهي إلى التأليف بعد كتاب «الحلال والحرام في الإسلام» الذي ألفته بتكليف من الدكتور محمد البهي المدير العام لإدارة الثقافة الإسلامية بالأزهر الشريف، وهو كتاب «العبادة في الإسلام» فقد قلت في أحد فصوله:

وإذا عرفنا أنَّ الدين كله عبادة كما قال الإمام ابن تيمية، وعرفنا أن الدين قد جاء يرسم للإنسان منهج حياته، الظاهرة والباطنة، ويحدد سلوكه وعلاقاته، وفقًا لما يهدي إليه هذا المنهج الإلهي، عرفنا أن عبادة الله تَسع الحياةَ كلها، وتنتظم أمورها قاطبة: من أدب الأكل والشرب، وقضاء الحاجة، إلى بناء الدولة، وسياسة الحكم، وسياسة المال، وشؤون المعاملات والعقوبات، وأصول العلاقات الدولية في السلم والحرب.

ولهذا نجد كتاب الله الكريم يخاطب عباده المؤمنين بأوامر تكليفيَّة وأحكام

شرعيَّة، تتناول جوانب شتَّى من الحياة، وفي سورة واحدة هي سورة البقرة نجد مجموعة من التكاليف كلها جاءت بصيغة واحدة: «كُتِبَ عليكم».

ولنقرأ هذه الآيات الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى﴾ [البقرة: ١٧٨]، ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ [البقرة: ١٨٠].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ [البقرة: ١٨٣].

﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: ٢١٦].

فهذه الأمور كلها من القصاص، والوصية، والصيام، والقتال، مكتوبة من الله على عباده، أي مفروضة عليهم، فعليهم أن يعبدوا الله بالتزامها والانقياد لها. وبهذا البيان يتَّضح لنا حقيقة مهمة ما زال يجهلها كثير من المسلمين، فبعض الناس لا يفهم من كلمة «العبادة» إذا ذكرت إلا الصلاة والصيام والصدقة والحج والعمرة، ونحو ذلك من الأدعية والأذكار، ولا يحسب أنَّ لها علاقة بالأخلاق والآداب، أو النظم والقوانين، أو العادات والتقاليد.

إنَّ عبادة الله ليست محصورة- إذن- في الصلاة والصيام والحج وما يلحق بها من التلاوة والذكر والدعاء والاستغفار، كما يتبادر إلى فهم كثير من المسلمين إذا دُعوا إلى عبادة الله، وكما يحسب كثير من المتديِّنين أنهم إذا قاموا بهذه الشعائر فقد وفَّوا الإلهية حقَّها، وقاموا بواجب العبودية لله كاملًا.

إن هذه الشعائر العظيمة والأركان الأساسية في بناء الإسلام- على منزلتها وأهميتها- إنما هي جزء من العبادة لله، وليست هي كل العبادة التي يريدها الله من عباده.

والحق أن دائرة العبادة التي خلق الله لها الإنسان، وجعلها غايته في الحياة، ومهمته في الأرض؛ دائرة رحبة واسعة، إنها تشمل شؤون الإنسان كلها، وتستوعب حياته جميعًا.

العبادة انقياد لمنهج الله وشرعه:

إنَّ مقتضى عبادة الإنسان لله وحده: أن يُخضع أموره كلها لما يحبه تعالى ويرضاه، من الاعتقادات والأقوال والأعمال، وأن يكيِّف حياته وسلوكه وفقًا لهداية الله وشرعه، فإذا أمره الله تعالى أو نهاه، أو أحلَّ له أو حرَّم عليه؛ كان موقفه في ذلك كله: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ففرق ما بين المؤمن وغيره: أنَّ المؤمن خرج من العبوديَّة لنفسه وللمخلوقين إلى العبوديَّة لربِّه، خرج من طاعة هواه إلى طاعة الله، ليس المؤمن «سائبًا» يفعل ما تهوى نفسه أو يهوى له غيره من الخلق، إنما هو «ملتزم» بعهد يجب أن يفي به، وميثاق يجب أن يحترمه، ومنهج يجب أن يتَّبعه، وهذا التزام منطقي ناشئ من طبيعة عقد الإيمان ومقتضاه.

مقتضى عقد الإيمان: أن يُسْلم زمام حياته إلى الله، ليقودها رسوله الصادق، ويهديه الوحي المعصوم.

مقتضى عقد الإيمان: أن يقول الرب: أمرتُ ونهيتُ، ويقول العبد: سمعتُ وأطعت.

مقتضى عقد الإيمان: أن يخرج الإنسان من الخضوع لهواه إلى الخضوع لشرع مولاه.

وفي هذا يقول القرآن الكريم: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦].

ويقول: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥١﴾ [النور: ٥١].

ليس بعابد لله- إذن- من قال: أصلّي وأصوم وأحج، ولكني حُرٌّ في أكل لحم الخنزير، أو شرب الخمر، أو أكل الربا، أو رفض ما لا يروقني من أحكام الشريعة، فأحكم فيه بغير ما أنزل الله!

ليس بعابد لله من أدَّى الشعائر، ولكنه لم يخضع لآداب الإسلام وتقاليده في نفسه أو أهله، كالرجل الذي يلبس الحرير الخالص، ويتحلى بالذهب، ويتشبَّه بالنساء، والمرأة التي تلبس ما يبرز مفاتنها، ولا يغطِّي جسدها، ولا تضرب بخمارها على جيبها.

ليس بعابد لله من ظن أن عبوديَّته لله لا تعدو جدران المسجد، فإذا انطلق في ميادين الحياة المتشعبة، فهو عبد نفسه فقط، وبعبارة أخرى: هو حُر في اتباع هواها، أو اتباع أهواء عبيد أنفسهم من المخلوقين!

من اتبع غير منهج الله فقد أشرك في عبادته:

إن من العبادة التي يغفلها كثير من الناس: الخضوع لشرع الله، والانقياد لأحكامه التي أحل بها الحلال، وحرم الحرام، وفرض الفرائض، وحدَّ الحدود.

فمن أدَّى الشعائر وصلى وصام وحجَّ واعتمر، ولكنه رضي أن يحتكم في شؤون حياته وأسرته الخاصَّة والعامَّة، أو في شؤون المجتمع والدولة، إلى غير شرع الله وحكمه، فقد عبدَ غير الله، وأعطى غيره ما هو خالص حقه سبحانه. إنَّ الله وحده هو المشرِّع الحاكم لخلقه؛ لأن الكون كله مملكته، والناس جميعًا عباده، وهو وحده الذي له أن يأمر أو ينهى، وأن يقول: هذا حلال، وهذا حرام، بمقتضى ربوبيَّته وملكه وألوهيَّته للناس، فهو ربُّ الناس، ملك الناس، إله الناس. فمن

ادَّعى من الخلق أن له أن يشرع ما شاء، أمرًا ونهيًا وتحليلًا وتحريمًا، بدون إذن من الله، فقد تجاوز حدَّه، وعدا طَوره، وجعل نفسه ربًّا أو إلهًا من حيث يدري أو لا يدري!

ومَنْ أقرَّ له بهذا الحق وانقاد لتشريعه ونظامه، وخضع لمذهبه وقانونه، وأحلَّ حلاله وحرَّم حرامه؛ فقد اتَّخذه ربًّا، وعبده مع الله، أو من دون الله، ودخل في زُمرة المشركين من حيث يشعر أو لا يشعر!

إنَّ القرآن الكريم دَمَغ أهل الكتاب بالشِّرك، ورماهم بأنهم عبدوا أحبارهم ورهبانهم، واتَّخذوهم أربابًا من دون الله، وذلك حين أطاعوهم واتَّبعوهم فيما شرعوا لهم ممَّا لم يأذن به الله.

قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣١﴾ [التوبة: ٣١]. وقد فسّر هذه الآية أعلم الناس بمراد ربه -ﷺ- من كلامه، وهو الرسول الذي لا ينطق عن الهوى، والذي أوحى الله إليه هذا القرآن ليبينه للناس ولعلهم يتفكرون، فلنُصغ إلى التفسير النبوي الكريم لهذه الآية الكريمة.

روى الترمذي وابن جرير- من طرق- عن عدي بن حاتم ﷺ: أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ، فرَّ إلى الشام، وكان قد تنصَّر في الجاهلية، فأُسِرت أخته وجماعة من قومه، ثم مَنَّ رسولُ الله ﷺ على أخته وأعطاها، فرجعت إلى أخيها، فرغَّبته في الإسلام، وفي القدوم على رسول الله ﷺ، فقدم عدي إلى المدينة. وكان رئيسًا في قومه وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم، فتحدث الناس بقدومه، فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عدي صليب من فضة، وهو يقرأ هذه الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ

﴿أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] قال: إنهم لم يعبدوهم! فقال: «بلى، إنهم حرّموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم»(١).

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره: وهكذا قال حذيفة بن اليمان(٢)، وعبد الله بن عباس(٣)، وغيرهما في تفسير ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾: إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا.

وقال السدي: استنصحوا الرجال، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم. قال: ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ أي الذي إذا حرّم الشيء فهو حرام، وما حلله فهو الحلال، وما شرعه اتُّبع، وما حكم به نفذ ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣١﴾(٤).

شمول العبادة لكيان الإنسان كله:

هذا هو المظهر الثاني لشمول العبادة في الإسلام.

فكما شملت العبادة في الإسلام الحياة كلها، استوعبت كذلك كيان الإنسان كله.

فالمسلم يعبد الله بالفكر، ويعبد الله بالقلب، ويعبد الله باللسان، ويعبد الله بالسمع والبصر وسائر الحواس، ويعبد الله ببدنه كله، ويعبد الله ببذل المال، ويعبده ببذل النفس، ويعبده بمفارقة الأهل والوطن.

---

(١) رواه الترمذي في التفسير (٣٠٩٥) وقال: حديث غريب، وابن جرير في تفسيره (١٤/ ٢١٠)، والطبراني (١٧/ ٩٢)، والبيهقي في آداب القاضي (١٠/ ١١٦)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٣٢٩٣).

(٢) رواه ابن جرير في تفسيره (١٤/ ٢١٣).

(٣) المصدر السابق (١٤/ ٢١٢).

(٤) تفسير ابن كثير (٤/ ١٣٥).

المسلم يتعبَّد الله بالفكر، عن طريق التأمُّل في النفس والآفاق، والتفكر في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء، والتدبُّر لآيات الله المنزلة وما فيها من هدى وحكمة، والنظر في مصاير الأمم وأحداث التاريخ وما فيها من عظة وعبرة، فهذا كله ممَّا يتقرَّب به المسلم إلى الله الذي أنزل كتابه إلى الناس؛ ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [ص: ٢٩]، ودعاهم في محكم كتابه إلى إعمال العقل نظرًا وتفكرًا وتعلمًا ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ [الذاريات: ٢٠-٢١].

﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾ [آل عمران ١٩٠، ١٩١].

وقد ورد عن ابن عباس: تفكر ساعة خير من قيام ليلة[(١)]. وقال الرسول ﷺ: «من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا سهّل الله له طريقًا إلى الجنة»[(٢)].

وقال الشافعي ﵁: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة[(٣)]. ونصَّ على ذلك أبو حنيفة ﵁.

وقال وهب: كنت بين يدي مالك ﵁، فوضعت ألواحي، وقمت أصلي، فقال: ما الذي قمت إليه بأفضل من الذي قمت عنه[(٤)].

ويتعبَّد المسلم لله بالقلب، عن طريق العواطف الربَّانيَّة والمشاعر الروحيَّة،

(١) رواه أبو الشيخ الأصبهاني في العظمة (٤٢).

(٢) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٦٩٩)، وأحمد (٧٤٢٧)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٩/ ١١٩).

(٤) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (١١٦). وانظر: مدارج السالكين (٢/ ٤٤٠).

مثل: حب الله وخشيته، والرجاء في رحمته والخوف من عقابه، والرضا بقضائه، والصبر على بلائه، والشكر لنعمائه، والحياء منه، والتوكل عليه، والإخلاص له. قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥]، ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

ويتعبَّد المسلم لله باللسان، عن طريق الذكر والتلاوة والدعاء والتسبيح والتهليل والتكبير، جاء في القرآن الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٤٢﴾ [الأحزاب: ٤١- ٤٢]، ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٢٠٥﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وقال عليه الصلاة والسلام: «اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه»(١). وقال رجل للنبي ﷺ: «إن شرائع الإسلام قد كثرت عليَّ، فمُرني بأمر أتشبَّث به. فقال: «لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله»(٢). والذكر نوعان: ذكر ثناء مثل: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. وذكر دعاء مثل: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣﴾ [الأعراف: ٢٣].

وقد جاء من النوعين عن النبي ﷺ أدعية وأذكار كثيرة، في مختلف المناسبات والأوقات، تجعل المسلم موصولَ القلب بربه، ورطْب اللسان بذكره تعالى: عند النوم واليقظة، وعند الإصباح والإمْساء، وعند الأكل والشرب، وعند السفر والأوبة، وعند لبس الثوب، وركوب الدابّة، وهبَّة الريح ونزول المطر..

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٨٠٤)، وأحمد (٢٢١٤٦)، عن أبي أمامة الباهلي.

(٢) رواه أحمد (١٧٦٨٠) وقال مخرجوه: إسناده صحيح، والترمذي في الدعوات (٣٣٧٥) وقال: حسن غريب، وابن ماجه في الأدب (٣٧٩٣)، والحاكم في الدعاء (١/ ٤٩٥)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، عن عبد الله بن بسر.

وفي كل حال وكل حين، وقد ألّف العلماء في ذلك كتبًا شتى. والذكر المحمود هو ما اجتمع فيه القلب واللسان، ولا خير في ذكر اللسان إذا كان القلب ناسيًا غافلًا.

مراتب العبوديّة الخمسون موزّعة على القلب والبدن:

وقد قرأت لابن القيم ﷺ تفصيلًا حسنًا في مراتب العبودية لله، وحظ القلب واللسان والجوارح والحواس كلها من هذه العبوديّة الشاملة، رأيت أن أنقله هنا- ببعض تصرف- من كتابه القيم النافع «مدارج السالكين، شرح منازل السائرين إلى مقامات إيّاك نعبد وإياك نستعين» قال:

«ورحى العبودية تدور على خمس عشرة قاعدة، من كمّلها كمّل مراتب العبوديّة.

وبيانها: أن العبوديّة منقسمة على القلب واللسان والجوارح، وعلى كل منها عبوديّة تخصُّه.

والأحكام التي للعبوديّة خمسة: واجب، ومستحب، وحرام، ومكروه، ومباح. وهي لكل واحد من القلب واللسان والجوارح.

حظ القلب من العبوديّة لله:

فواجب القلب: منه متفق على وجوبه، ومختلف فيه؛ فالمتفق على وجوبه: كالإخلاص، والتوكل، والمحبة، والصبر، والإنابة، والرجاء، والخوف، والتصديق الجازم، والنيّة في العبادات. وهذه قدر زائد على الإخلاص، فإن الإخلاص هو: إفراد المعبود عن غيره.

ونية العبادة لها مرتبتان:

إحداهما: تمييز العبادة عن العادة.

والثانية: تمييز مراتب العبادات بعضها عن بعض.

والأقسام الثلاثة واجبة.

وكذلك الصبر واجب باتفاق الأمّة، قال الإمام أحمد: ذكر الله الصبر في تسعين موضعًا من القرآن، أو بضع وتسعين، وله طرفان أيضًا: واجب مستحق، وكمال مستحب.

وأما المختلَف فيه: فكالرضا، فإن في وجوبه قولين للفقهاء والصوفية.

ومن هذا أيضًا اختلافهم في الخشوع في الصلاة، وفيه قولان للفقهاء، وهما في مذهب أحمد وغيره.

وعلى القولين اختلافهم في وجوب الإعادة على من غلب عليه الوسواس في صلاته، فأوجبها ابن حامد من أصحاب أحمد، وأبو حامد الغزالي في «إحيائه»[1]، ولم يوجبها أكثر الفقهاء.

والمقصود أن يكون مَلِك الأعضاء– وهو القلب– قائمًا بعبوديَّته لله سبحانه هو ورعيته.

وأما المحرَّمات التي عليه: فالكبْر، والرياء، والعُجْب، والحسد، والغفلة، والنفاق. وهو نوعان: كفر ومعصية.

فالكفر: كالشك، والنفاق، والشرك وتوابعها.

والمعصية نوعان: كبائر، وصغائر.

فالكبائر: كالرياء، والعُجْب، والكِبْر، والفخر، والخيلاء، والقنوط من رحمة

---

(١) (١/ ١٩٠، ١٩١).

الله، واليأس من رَوح الله، والأمن من مكر الله، والفرح والسرور بأذى المسلمين، والشماتة بمصيبتهم، ومحبة أن تشيع الفاحشة فيهم، وحسدهم على ما آتاهم الله من فضله، وتمنّي زوال ذلك عنهم، وتوابع هذه الأمور التي هي أشد تحريمًا من الزنى، وشرب الخمر وغيرهما من الكبائر الظاهرة، ولا صلاح للقلب ولا للجسد إلا باجتنابها والتوبة منها، وإلا فهو قلب فاسد، وإذا فسد القلب فسد البدن.

وهذه الآفات إنما تنشأ من الجهل بعبوديّة القلب، وترك القيام بها، فوظيفة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على القلب قبل الجوارح، فإذا جهلها وترك القيام بها امتلأ بأضدادها ولا بد، وبحسب قيامه بها يتخلص من أضدادها.

وهذه الأمور ونحوها قد تكون صغائر في حقه، وقد تكون كبائر، بحسب قوتها وغلظها، وخفتها ودقتها.

ومن الصغائر أيضًا: شهوة المحرَّمات وتمنيها. وتتفاوت درجات الشهوة في الكبر والصغر، بحسب تفاوت درجات المشتهى. فشهوة الكفر والشرك: كفر. وشهوة البدعة: فسق، وشهوة الكبائر: معصية. فإن تركها لله مع قدرته عليها أثيب، وإن تركها عجزًا بعد بذله مقدوره في تحصيلها: استحق عقوبة الفاعل، لتنزله منزلته في أحكام الثواب والعقاب، وإن لم يُنَزَّل منزلته في أحكام الشرع. ولهذا قال النبي ﷺ: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار». قالوا: هذا القاتل يا رسول الله، فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصا على قتل صاحبه»(١).

فنزَّله منزلة القاتل، لحِرصه على قتل صاحبه، وله نظائر كثيرة في الثواب والعقاب.

وقد عُلم بهذا مستحب القلب ومباحه.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الإيمان (٣١)، ومسلم في الفتن (٢٨٨٨)، عن أبي بكرة.

حظ اللسان من العبوديّة لله:

وأما عبوديات اللسان الخمس فواجبها: النطق بالشهادتين، وتلاوة ما يلزمه تلاوته من القرآن، وهو ما تتوقف عليه صحَّة صلاته، وتلفظه بالأذكار الواجبة في الصلاة، التي أمر الله بها ورسوله، كما أمر بالتسبيح في الركوع والسجود، وأمر بقول: «ربنا ولك الحمد» بعد الاعتدال، وأُمر بالتشهد، وأمر بالتكبير.

ومن واجبه: رد السلام، وفي ابتدائه قولان.

ومن واجبه: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم الجاهل، وإرشاد الضال، وأداء الشهادة المتعيِّنة، وصدق الحديث.

وأما مستحبه: فتلاوة القرآن، ودوام ذكر الله، والمذاكرة في العلم النافع، وتوابع ذلك.

ويحرم عليه استماع الكفر والبدع، إلا حيث يكون في استماعه مصلحة راجحة، من ردِّه، أو الشهادة على قائله، أو زيادة قوة الإيمان والسنة بمعرفة ضدهما من الكفر والبدعة.. ونحو ذلك، وكاستماع أسرار من يهرب عنك بسرِّه، ولا يحب أن يطلعك عليه، ما لم يكن متضمنًا لحقٍّ لله يجب القيام به، أو لأذى مسلم يتعيَّن نصحه، وتحذيره منه.

وكذلك استماع أصوات النساء الأجانب التي تُخشى الفتنة بأصواتهن، إذا لم تدع إليه حاجة: من شهادة، أو معاملة، أو استفتاء، أو محاكمة، أو مداواة ونحوها.

وأما السمع المستحب: فكاستماع المستحب من العلم، وقراءة القرآن، وذكر الله، واستماع كلّ ما يحبه الله وليس بفرض.

والمكروه: عكسه، وهو استماع كل ما يكره ولا يعاقب عليه.

والمباح: ظاهر.

حفظ النظر:

وأما النظر الواجب: فالنظر في المصحف، وكتب العلم عند تعيُّن تعلُّم الواجب منها، والنظر إذا تعيَّن لتمييز الحلال من الحرام في الأعيان التي يأكلها أو ينفقها أو يستمتع بها، والأمانات التي يؤدِّيها إلى أربابها ليميِّز بينها، ونحو ذلك.

والنظر الحرام: النظر إلى الأجنبيَّات بشهوة مطلقًا وبغيرها، إلا لحاجة؛ كنظر الخاطب، والمستام، والمعامِل، والشاهد، والحاكم، والطبيب، وذي المحرم.

والمستحب: النظر في كتب العلم والدين التي يزداد بها الرجل إيمانًا وعلمًا، والنظر في المصحف، ووجوه العلماء الصالحين والوالدين، والنظر في آيات الله المشهودة، ليستدل بها على توحيده ومعرفته وحكمته.

والمكروه: فضول النظر الذي لا مصلحة فيه، فإن له فضولًا كما للسان فضولًا، وكم قاد فضولها إلى فضولٍ عزَّ التخلصُ منها، وأعيا دواؤها. وقال بعض السلف: كانوا يكرهون فضول النظر، كما يكرهون فضول الكلام.

والمباح: النظر الذي لا مضرَّة فيه في العاجل والآجل، ولا منفعة.

ومن النظر الحرام: النظر إلى العورات، وهي قسمان:

عورة وراء الثياب، وعورة وراء الأبواب.

ولو نظر في العورة التي وراء الأبواب، فرماه صاحب العورة، ففقأ عينه، لم يكن عليه شيء، وذهبت هَدَرًا، بنص رسول الله ﷺ في الحديث المتفق على صحته[1]، وإنْ ضعَّفه بعض الفقهاء، لكونه لم يبلغه النص، أو تأوله.

(١) إشارة إلى الحديث المتفق عليه: اطلع رجل من جحر في حجر النبي ﷺ ومع النبي ﷺ مِدرى يحكُّ به رأسه، فقال: «لو أعلم أنك تنظر، لطعنت به في عينك، إنما جعل الاستئذان من أجل البصر». رواه البخاري في الاستئذان (٦٢٤١)، ومسلم في الآداب (٢١٥٦)، عن سهل بن سعد الساعدي.

وهذا إذا لم يكن للناظر سبب يباح النظر لأجله، كعورة له هناك ينظرها، أو ريبة هو مأمور، أو مأذون له في الاطلاع عليها.

حاسة الذوق وحظها من العبودية لله:

وأما الذوق الواجب: فتناول الطعام والشراب عند الاضطرار إليه وخوف الموت. فإن تركه حتى مات، مات عاصيًا قاتلًا لنفسه.

قال الإمام أحمد وطاوس: من اضطر إلى أكل الميتة، فلم يأكل حتى مات، دخل النار[(١)].

ومن هذا: تناول الدواء إذا تيقَّن النجاة به من الهلاك، على أصحِّ القولين. وإن ظن الشفاء به، فهل هو مستحب مباح، أو الأفضل تركه؟ فيه نزاع معروف بين السلف والخلف.

والذوق الحرام: كذوق الخمر، والسموم القاتلة، والذوق الممنوع منه للصوم الواجب.

وأما المكروه: فكذوق المشتبهات، والأكل فوق الحاجة، وذَوق طعام الفجاءة، وهو الطعام الذي تفجأ آكله، ولم يُرد أن يدعوك إليه، وكأكل أطعمة المرائين في الولائم والدعوات ونحوها.

وفي السنن: أنَّ رسول الله ﷺ «نهى عن طعام المُتَبَارِيَنِ»[(٢)]. وذوق طعام من يطعمك حياءً منك لا بطيبة نفس.

---

(١) انظر: الاستذكار لابن عبد البر (٥/ ٣٠٧).

(٢) رواه أبو داود في الأطعمة (٣٧٥٤)، والحاكم (٤/ ١٢٨)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، كلاهما في الأطعمة، وقال الذهبي في الميزان (١/ ٣٣٤): صوابه مرسل، وصحّحه ابن القطان في بيان الوهم والإيهام (٢٦٠٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٩٦٥)، عن ابن عباس.

والذوق المستحبّ: أكل ما يُعينك على طاعة الله ﷻ، مما أذن الله فيه، والأكل مع الضيف ليطيب له الأكل، فينال منه غرضه، والأكل من طعام صاحب الدعوة الواجب إجابتها أو المستحب.

وقد أوجب بعض الفقهاء الأكل من الوليمة الواجب إجابتها، للأمر بـه مـن الشارع.

والذوق المباح: ما لم يكن فيه إثم ولا رجحان.

حاسة الشم:

وأما تعلّق العبوديات الخمس بحاسة الشم.

فالشم الواجب: كل شم تعيّن طريقًا للتمييز بين الحلال والحـرام، كالشـم الذي تعلم به هذه العين هل هي خبيثة أو طيبة؟ وهل هـي سـم قاتـل أو لا مضـرة فيها؟ أو يميِّز به بين ما يملك الانتفاع به وما لا يملك؟ ومن هذا شمّ المقوم وربّ الخبرة عند الحكم بالتقويم.. ونحو ذلك.

وأما الشم الحرام، فالتعمُّد لشمِّ الطيب في الإحرام، وشم الطيب المغصوب والمسروق، وتعمُّد شم الطيب من النساء الأجنبيات خشية الافتتان بما وراءه.

وأما الشم المستحب، فشم ما يعينك على طاعة الله، ويقوي الحواس، ويبسط النفس للعلم والعمل، ومن هذا هدية الطيب والريحان إذا أهديت لك. ففي صحيح مسلم عن النبي ﷺ: «من عُرض عليه ريحان، فلا يردّه، فإنه طيّب الريح، خفيف المحمل»[1].

(١) رواه مسلم في الألفاظ مـن الأدب (٢٢٥٣)، وأحمـد (٨٢٦٤)، وأبـو داود في الترجـل (٤١٧٢)، عـن أبي هريرة.

والمكروه: كشمّ طِيب الظَّلَمة، وأصحاب الشبهات، ونحو ذلك.

والمباح: ما لا منع فيه من الله ولا تَبِعة، ولا فيه مصلحة دينيَّة، ولا تعلق له بالشرع.

حاسة اللمس:

وأما تعلق هذه الخمسة بحاسة اللمس، فاللمس الواجب: كلمس الزوجة حين يجب جماعها، والأَمَة الواجب إعفافها.

والحرام: لمسُ ما لا يحل من الأجنبيات.

والمستحب: إذا كان فيه غضُّ بصرِه، وكفُّ نفسه عن الحرام، وإعفاف أهله.

والمكروه: لمس الزوجة في الإحرام للذة، وكذلك في الاعتكاف، وفي الصيام إذا لم يأمن على نفسه.

ومن هذا لمس بدن الميت- لغير غاسله- لأن بدنه قد صار بمنزلة عورة الحي تكريمًا له، ولهذا يستحب ستره عن العيون، وتغسيله في قميصه في أحد القولين. ولمس فخذ الرجل، إذا قلنا هي عورة.

والمباح: ما لم يكن فيه مفسدة ولا مصلحة دينيَّة.

البطش باليد والرجل:

وهذه المراتب أيضًا مرتَّبة على البطش باليد، والمشي بالرجل. وأمثلتها لا تخفى.

فالتكسب المقدور للنفقة على نفسه وأهله وعياله واجب. وفي وجوبه لقضاء ديْنه خلاف. والصحيح: وجوبه ليمكنه من أداء ديْنه، ولا يجب لإخراج الزكاة. وفي وجوبه لأداء فريضة الحج نظر، والأقوى في الدليل وجوبه لدخوله في الاستطاعة، وتمكنه بذلك من أداء النسك، والمشهور عدم وجوبه.

ومن البطش الواجب: إعانة المضطر، ورمي الجمار، ومباشرة الوضوء والتيمُّم.

والحرام: كقتل النفس التي حرَّم الله قتلها، ونهب المال المعصوم، وضرب من لا يحل ضربه.. ونحو ذلك، وكأنواع اللعب المحرم بالنص: كالنرد، أو ما هو أشد تحريمًا منه عند أهل المدينة كالشطرنج، أو مثله عند فقهاء الحديث كأحمد وغيره، أو دونه عند بعضهم[1]، ونحو كتابة البدع المخالفة للسنَّة تصنيفًا أو نسخًا، إلا مقرونًا بردِّها ونقضها، وكتابة الزُّور والظلم، والحكم الجائر، والقذف والتشبيب بالنساء الأجانب، وكتابة ما فيه مضرَّة على المسلمين في دينهم أو دنياهم، ولا سيما إن كسبتَ عليه مالًا: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة: ٧٩]، وكذلك كتابة المفتي على الفتوى ما يخالف حكم الله ورسوله، إلا أن يكون مجتهدًا مخطئًا، فالإثم موضوع عنه.

وأما المكروه: فكالعبث واللعب الذي ليس بحرام، وكتابة ما لا فائدة في كتابته، ولا منفعة فيه في الدنيا والآخرة.

والمستحبُّ: كتابة كل ما فيه منفعة في الدين، أو مصلحة لمسلم. والإحسان بيده بأن يعين صانعًا، أو يصنع لأخرق، أو يُفرغ من دلوه في دلو المستسقي، أو يحمل له على دابَّته، أو يمسكها حتى يحمل عليها، أو يعاونه فيما يحتاج إليه ونحو ذلك. ومنه: لمس الركن بيده في الطواف، وفي تقبيلها بعد اللمس قولان.

والمباح: ما لا مضرَّة فيه ولا ثواب.

وأما المشي الواجب، فالمشي إلى الجمعات والجماعات، في أصحِّ القولين، لبضعة وعشرين دليلًا، مذكورة في غير هذا الموضع. والمشي حول البيت للطواف الواجب، والمشي بين الصفا والمروة بنفسه أو بمركوبه، والمشي إلى

(١) انظر رأينا في لعب الشطرنج في كتابنا: الحلال والحرام الطبعة الجديدة الموسعة.

حكم الله ورسوله إذا دُعِي إليه، والمشي إلى صلة رحمه، وبر والديه، والمشي إلى مجالس العلم الواجب طلبه وتعلمه، والمشي إلى الحج إذا قرُبت المسافة ولم يكن عليه فيه ضرر.

والحرام: المشي إلى معصية الله، وهو من رَجِل الشيطان، قال تعالى: ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤]. قال مقاتل: استعن عليهم بركبان جندك ومشاتهم. فكل راكب وماش في معصية الله فهو من جند إبليس[(١)] ..

حتى الركوب على الدابة:

وكذلك تتعلق هذه الأحكام الخمس بالركوب أيضًا.

فواجبه في الركوب في الغزو، والجهاد، والحج الواجب.

ومستحبه: في الركوب المستحب من ذلك، ولطلب العلم، وصلة الرحم، وبر الوالدين، وفي الوقوف بعرفة نزاع: هل الركوب فيه أفضل، أم على الأرض؟ والتحقيق: أن الركوب أفضل إذا تضمن مصلحة: من تعليم للمناسك، واقتداء به، وكان أعون على الدعاء، ولم يكن فيه ضرر على الدابة.

وحرامه: الركوب في معصية الله ﷻ.

ومكروهه: الركوب للَّهو واللعب، وكل ما تركه خير من فعله.

ومباحه: الركوب لما لم يتضمن فوت أجر، ولا تحصيل وزر.

فهذه خمسون مرتبة على عشرة أشياء: القلب، واللسان، والسمع، والبصر، والأنف، والفم، واليد، والرجل، والفرج، والاستواء على ظهر الدابّة[(٢)] اهـ تفصيل ابن القيم.

(١) تفسير البغوي (٥/ ١٠٥)، نشر دار طيبة، الطبعة الرابعة ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

(٢) مدارج السالكين (١/ ١٢٩ - ١٤١).

وبهذا البيان المستوعب يتَّضح لنا شمول العبادة في الإسلام للإنسان كله، من قرنه إلى قدمه، ظاهره وباطنه، وأن حياة المسلم ليست حياة سائبة، إنما هي في جوهرها تعبد والتزام. ومعظم ما ذكره ابن القيم مقبول، والقليل منه جدًّا قد ينازع فيه، والموفق من هداه الله إلى أرجح الأقوال.

وأضيف إلى ذلك: الشمول الزماني، فعبادة الله تشمل حياة المسلم كل أزمنته وأوقاته: في مرحلة شبابه، وفي مرحلة كهولته، وفي مرحلة شيخوخته. فهو فيها كلها عابدٌ لله، قانتٌ لله، مخلصٌ لله؛ كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢- ١٦٣].

وهذه العبادة، تشمل الفرد والأسرة والجماعة والمجتمع الكبير والأمَّة الإسلامية، فكلها مطالبة ومأمورة من الله تعالى ورسوله أن تعبد الله وحده لا شريك له، وأن يستعين به كل أبنائها ويتوكل عليه، وأن يقيم دينه في الأرض؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء: ٩٢]، ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ [المؤمنون: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [يس: ٦٠- ٦١].

وبهذا تتَّسع العبادة التي جاء بها الإسلام في طولها لتشمل العمر كله شبابًا وكهولة وشيخوخة، وتمتد في عرضها لتشمل العالم كله بكل أجناسه وألوانه، ورجاله ونسائه، وشبابه وشيوخه، أغنياء وفقراء، ورؤساء ومرؤوسين، وحكامًا ومحكومين، بيضًا وسودًا وملوَّنين.

وتمتد في عمقها، لتشمل العبادةُ الدينَ كله، ما يخص الأقوال والأعمال، وما يخص الجوارح والقلوب، وما يشمل كيان الإنسان كله ظاهرًا وباطنًا، من الحواس الخمس، ومن العقل والقلب، والإرادة والوجدان، وكل ما يتعلق بالإنسان.

(٧)

مقاومة قطاع الطريق إلى الله

ومن أدب المسلم مع الله، بعد الفوز بطاعته، والحذر من معصيته، والاعتصام بعبادته وتقواه، والتوكل عليه، والإنابة إليه: أن يقاوم قواطع الطريق إلى الله. فلا شك أن كل طريق يهدي إلى الحق، ويوصل إلى الخير في الدنيا وفي الآخرة، لا بد له من قواطع أو قطّاع للطريق، يعرفها أو يعرفهم أهل هذا الطريق ويحذرون الناس منهم.

وكذلك طريق الآخرة، وطريق الاستقامة، وطريق التقوى، والطريق الموصل إلى الفوز بجنات النعيم، والبعد من نار الجحيم، لا بد لنا أن نعرف قواطع طريقه وقطاعه، حتى يتسلّح السائرون في مراحل هذا الطريق، بالإرشادات اللازمة، وبالتعليمات المهمة، وبالأسلحة القويّة، التي يحتاج إليها من سلك هذه السبيل، ليفوز بسعادة الدارين، وخصوصًا سعادة الآخرة: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران:١٨٥].

وقد بيّن لنا العلماء الربّانيون، بما عرفوه من كتاب ربّهم، وسنة نبيّهم، وخبرة أئمتهم: أن قواطع الطريق إلى الآخرة، تتركز في أربع: النفس، والشيطان، والدنيا، والناس أو الخلق. وهي التي شكا منها الصالحون من علماء وأدباء وشعراء، ونطق الشاعر بلسان حالهم، كما تعلمنا ذلك من شعرهم.

وسنركز الحديث على كل واحد من هذه الأربع:

القاطع الأول: النفس:

أول عدو للإنسان الذي يتعامل مع الله سبحانه هو نفسه التي بين جنْبَيْه، وهي التي سمَّاها القرآن: الأمَّارة بالسوء، كما قالت امرأة العزيز: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥٣﴾ [يوسف:٥٣].

وكلمة «أمَّارة» من صيغ المبالغة، التي تدلُّ على أن الأمر بالسوء ديْدنها الذي تهواه وتتفنن فيه، والمراد من السالك إلى الله: أن يكون واعيًا تمام الوعي، متنبهًا كل التنبه لهذه النفس، فإنها إذا تُركتْ وحدها وقعت في الخبائث، ولذلك نبَّهنا القرآن إلى ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ۝٦﴾ [العاديات:٦]، و﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ۝٣٤﴾ [إبراهيم:٣٤]، و﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ۝٥٤﴾ [الكهف:٥٤]، و﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ۝٧٢﴾ [الأحزاب:٧٢]، ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ۝١١﴾ [الإسراء:١١].

فهذه الآيات تشير إلى أن طبيعة الإنسان وحده، إذا لم يقيِّده الإيمان، والتربية على مقتضاه، يضل ضلالًا بعيدًا، ولذلك كان من الضروري الذي يحتاج إليه الإنسان، وتحتاج إليه نفسه: التزكية، التي تقوم بها النفس ذاتها، فلئن كان فيها الظلم والجهل والكنود والعجَلة والجدل والكفر بالنعمة، فإن فيها استعدادًا أصيلًا للتغلب على هذه النوازع. وقد قال تعالى: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس:٧- ١٠].

بيَّن القرآن أن في تركيبة النفس: استعدادها للتقوى، واستعدادها للفجور ﴿فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨﴾، وأن جهد الإنسان لتزكيتها لن يضيع سُدًى، ولن يذهب عبثًا، بل قرَّر القرآن بصريح العبارة: أن من زكَّى نفسه أفلح، ومن دسَّاها خاب: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾.

وكان من دور النَّبيين والمرسلين، والعلماء والدعاة الربَّانيين: أن يأخذوا بيد الإنسان، ويعلموه ويساعدوه، على تزكية نفسه، وقد استطاع مئات الملايين وآلاف الملايين من الناس أن يزكوا أنفسهم. كما قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ۝﴾ [الأعلى:١٥- ١٤].

التزكية: طهارة ونماء:

والتزكية المطلوبة تتطلب أمرين هما من معناها: الطهارة والنماء.

فالمعنى الأول للتزكية: هو الطهارة، فعلى المسلم أن يُطهِّر نفسه من أدران الشِّرك والنفاق وأمراض القلوب، وكل عوامل السوء، وبواعث الشر والفساد، ويطهِّرها من الأفكار الرديئة، التي تزيِّن للناس الباطل في صورة الحق، وتظهر الحق في صورة الباطل، وتزيِّن لهم سوء أعمالهم، ومن الرذائل التي تهبط بالإنسان من قمة إنسانيته إلى أوحال الشهوات البهيميَّة، والافتراسات السبعيَّة، والإيذاءات الشيطانيَّة، بحيث تصبح نفسه نظيفة تمامًا من جراثيم الشر والباطل.

والمعنى الثاني: هو النماء، أو التنمية، فالإنسان كما هو مطالب بالتطهير لنفسه، مطالب بتنمية نفسه تنمية شاملة، وتزكيتها بالفضائل، وتحليتها بالمكارم، بعد تخليتها من الرذائل والسفاسف.

وما جاء به الإسلام من عبادات كالصلاة والصيام والزكاة والحج، وغيرها...، إنما هي – مع أهميتها في نفسها – أدوات لها أهميتها في التزكية والتربية.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝﴾ [البقرة:١٨٣].

وقال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣].

وقال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ [الحج:٢٧-٢٨].

التحذير من اتباع هوى النفس وأهواء الآخرين:

التزكية المطلوبة للنفس: أن تمنعها من اتّباع هواها، فنهيها عن الهوى، هو أول ما يسوق إلى الجنة: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝﴾ [النازعات:٤٠-٤١]، لهذا حذر القرآن منه أشدَّ التحذير: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۝ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۝﴾ [الفرقان:٤٣-٤٤]، ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝﴾ [الجاثية:٢٣].

ولذا قال ابن عباس: شرُّ إله عُبِد في الأرض الهوى [(١)].

وقال الله تعالى لداود: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [ص:٢٦]. وقال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [القصص:٥٠].

وذمَّ الله قومًا فقال: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا أَهْوَآءَهُمْ ۝﴾ [محمد:١٦].

وحذَّر الرجال الذين يقومون على التربية الإيمانية من هوى الأنفس، كما قال البوصيري:

والنفس كالطفل إن تُهمِلْه شبَّ على ... حبِّ الرضاع، وإن تفطمه ينفطمِ
فاصرف هواها وحاذر أن تُوَلِّيَه ... إن الهوى ما تولَّى يُصمِ أو يَصِمِ

---

(١) انظر: المدخل لابن الحاج (٣/ ١١٦)، ط. دار التراث.

والقرآن يحذِّر الإنسان من اتباع هوى نفسه، أو اتباع أهواء الآخرين، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الجاثية:١٨] ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [المائدة:٤٩].

كما يحذِّر القرآن من طاعة من يتَّبع هواه، كما قال تعالى لرسوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف:٢٨] كما حذر الله موسى من قبل: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [طه:١٦].

إن أول جريمة وقعت في الأرض، حين قتل ابن آدم الشرير أخاه الطيب، حيث تقبل الله منه قربانه، ولم يتقبل من الشرير ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [المائدة:٢٧-٣٠] لم يكن هناك مجتمع ولا معلمون. إنما هي النفس الأمَّارة بالسوء.

القاطع الثاني: الشيطان:

والقاطع الثاني: الشيطان، وهو العدو الخفي الذي يريد للإنسان كل شر، ولا يريد له أي خير، وعداوته قديمة للإنسان، منذ خلق الله آدم وخصَّه بما خصَّه من فضائل، أمره الله بالسجود له تحيةً وتكريمًا، فرفض الخضوع لأمر الله، وأبى واستكبر وكان من الكافرين. وقال متحديًا الجبروت الإلهي: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف:١٢]. ومن المعلوم أن كلامه غير صحيح.

ثم حدثت مقاولة ومُجادلة بين الله وعدوه إبليس، وانتهت بتحدي إبليس لآدم وذريَّته: ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف:١٧].

بادرهم من الجهات الأربع: من أمام ومن خلف، وعن اليمين وعن الشمال، ولا يترك لهم بابًا إلا دخل عليهم منه، ولا طريقًا إلا سلكه؛ ليؤذيهم ويرديهم. لذا حذَّر القرآن من الشيطان وذرِّيته وأتباعه أن نتَّخذهم أولياء: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف:٥٠].

يتدرج الشيطان مع الإنسان في إضلاله خطوة خطوة، ودركة دركة، ولذا يحذِّرنا القرآن من هذه الخطوات التي إن اتُّبعت فإنها تؤدِّي إلى الضلال المبين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾ [البقرة:٢٠٨]. وقد تكرَّر هذا النهي وهذا التحذير من خطوات الشيطان أكثر من مرة.

وبيَّن لنا القرآن بعض هذه الخطوات متصلة، لنحتاط منها، ونجتنب شرها، حيث قال الشيطان: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾ [النساء:١١٩].

وأحيانًا يلخص طرائقه وخطواته في أمرين، وهما: الإغواء والتزيين. وقد صرَّح بهما إبليس أمام الله رب العالمين: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر:٣٩-٤٠].

فهؤلاء عباد الله المخلَصون، الذين أخلصهم الله لدينه، أو المخلِصون، الذين أخلصوا دينهم لله، اعترف إبليس مع غروره بأنه لا سلطان له على هؤلاء. ولذلك قال الله تعالى ردًّا عليه: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر:٤١-٤٢]. وفي مقام آخر قال: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الإسراء: ٦٥].

ولذا أمرنا الله ﷻ أن نستعيذ بالله من شر الشيطان، فهو كلْب كَلِب، وكلب عقور، ولا بد للسائر في الطريق أن يلجأ إلى صاحب الكلاب أن يبعدها عنه، ويبعد أنيابها أن تطوله، ولذا قال الله لرسوله ولكل من يصلح أن يوجه له الخطاب من بعده: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ [المؤمنون:٩٧، ٩٨]، ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل:٩٨]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ [الناس:١ - ٦].

فهذه آخر سورة ختم بها المصحف الشريف تتضمَّن الاستعاذة بالله تعالى الذي وصف نفسه بثلاث صفات: أنه رب الناس، أي الذي خلقهم ورزقهم ودبَّر أمرهم، فلا يبغون غيره ربًّا. وأنه ملك الناس، أي الذي يحكمهم ويأمرهم وينهاهم، فلا يبتغون غيره حكمًا. وأنه إله الناس، أي: الذي لا يستحق أن يُعبد غيره، وهو التوحيد الذي أنزل الله به كتبَه، وبعث به رسلَه، ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

فبيَّن الرب الملك الإله للمؤمنين أن يستعيذوا من شرِّ هذا الشيطان الذي وصفه الله بالوسواس الخنَّاس، الذي شأنه الوسوسة في صدور الناس، والذي طبيعته أن يخنس ويختفي، فلا يعمل ظاهرًا، وإنما يدسُّ ويحتال، وخصوصًا على الناسي من الجِنَّة والناس، أما الذي يذكر الله، ويستعين عليه بذكره وشكره وحسن عبادته، فهو مقهور عنه. ولهذا قال تعالى في أناس: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [المجادلة:١٩].

لا بد من اليقظة القلبيَّة الواعية، ولا بد من الصحوة الفكريَّة العاقلة، ولا بد من الإرادة الحديديَّة المجاهدة للوقوف في وجْه الشيطان، كما وقف مع النفس الأمَّارة بالسوء، وبذلك يحمي المؤمن نفسه في معركة جهاد النفس والشيطان، كما قال الشاعر:

وخالف النفس والشيطان واعصهما ... وإن هما محضاكَ النصْحَ فاتهِمِ
ولا تطع منهما خصما ولا حكما ... فأنت تعرفُ كيدَ الخصمِ والحكمِ (١)

القاطع الثالث: الدنيا:

والقاطع الثالث لطريق الآخرة، الطريق الموصل إلى الله تعالى، وإلى جناته، وإلى مرضاته، هو: الدنيا.

فما الدنيا؟ وما المراد منها؟ وهل المراد أن يعتزل الناس العمل لعمارة الأرض، وعمل الحياة، وازدهار العمران؟ أو المراد: أن يعمل الناس، فتخضر الأرض، وتنبت الطيِّبات، فيحرمها الناس على أنفسهم، ويأكلوا الخبائث، ويلبسوا المرقوعات، ويسكنوا الأكواخ؟

إننا هنا لا بد أن نُبيِّن للناس المراد بالدنيا التي يحذِّر منها الله تعالى، وتحذِّر منها كتبه ورسله، ويحذِّر منها آخر الكتب وهو القرآن الكريم، وآخر الرسل، وهو محمد ذو الخلق العظيم.

إن بعض المتصوفة وغلاة المتزهِّدين والمقلِّدين لنُسَّاك الهنود والرهبان والمغالين، وكل من غلبت على نظراتهم النزعة التشاؤمية والسوداوية إلى الدنيا، قد اعتبروا الحياة الدنيا عبئًا ثقيلًا، أو داء وبيلًا على الإنسان، وعِدُّوا العيش سجنًا،

(١) من شعر البوصيري في البردة.

يعيش الإنسان فيها كما يعيش المسجون في السجن، على أن الناس في عصرنا الحديث، طفقوا يطورون في حياة المساجين، وأصبحت هناك شروط للسجن الذي يقضي فيه السارق والغاصب والمرتشي والقاتل والمجرم على اختلاف جرائمه، سنوات معينة. ولا بد له من تهيئة الغرف النظيفة، والمهيَّئة بالفراش والغطاء المناسب، والمرفِّهات الملائمة، والصحف والمجلات، والإذاعة والتلفاز. والإعانة على التعلُّم المنتظم لمن أراده، حتى إن منهم من حصل على البكالوريوس والماجستير والدكتوراه.

وفي مقابل هؤلاء هناك من غرقوا في الشهوات، وعبَّدوا أنفسهم للماديات، ولم يعرفوا لهم هدفًا يركضون وراءه، غير المنافع الفردية الدنيوية العاجلة. وهذا شأن الماديين في كل زمان ومكان.

أما منهج الإسلام فإنه يجعل الدنيا مزرعة للآخرة، ويرى العمل في عمارتها عبادة لله، وأداء لرسالة الإنسان، وينكر على غلاة المتدينين تحريم الزينة والطيبات، كما ينكر على الآخرين انهماكهم في الترف والشهوات. يقول الله في كتابه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴿١٢﴾﴾ [محمد:١٢]. ويقول تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف:٣١، ٣٢] ويذكر القرآن أن السعادة والحياة الطيبة في الدنيا من مثوبة الله لعباده المؤمنين، فيقول: ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [آل عمران:١٤٨] ويعلِّم المؤمنين هذا الدعاء الجامع لحسنيي الدارين: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البقرة:٢٠١].

إن الدنيا دار أو مرحلة كُتب لنا أن نعيش فيها مدة من الزمن، هي العمر المقدر لنا أن نعيشه، ومقابلها: الآخرة، أو الدار الآخرة، والله تعالى يقول: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت:٦٤]، أي: إن الدار الآخرة هي الحياة الحقيقية للإنسان، لو تمَّ له العلم وعرف الحقائق. ويقول تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران:١٨٥]. وقال ﷻ: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد:٢٠].

ويطلق القرآن على هذه الحياة أو هذه المرحلة التي نعيشها أو نعيش فيها، أو تعيش فينا: الحياةَ الدنيا، والدنيا هنا مؤنث أدْنى، والأدنى يراد به أحيانا: الأقل، ويقابله الأكثر، كما قال تعالى: ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ﴾ [المجادلة:٧]، ويُراد بالأدنى أحيانا أخرى: الأسفل من الآخر، ويقابله: الأعلى، كما قال تعالى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ﴾ [البقرة:٦١].

وقد رأينا رسول الإسلام يحذر أمته من الدنيا ومتاعها وزينتها تحذيرًا شديدًا، يزلزل القلوب، ويزرع الخشية في النفوس، ويعلم الناس أن الدنيا دار مفرّ، لا دار مقرّ، وأنها قنطرة إلى الآخرة، وعلى الناس أن يعبروها، ولا يعمروها، بمعنى: ألا يعتقدوا بقاءهم فيها، فهم عنها راحلون.

قال ﷺ: «مَن كانت الآخرة همَّه، جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمْله، وأتته الدنيا وهي راغمة. ومَن كانت الدنيا همَّه، جعل الله فقره بين عينيه، وفرّق عليه

شمْله، ولم يأتِه من الدنيا إلا ما قُدِّر له»[1].

وقال عليه الصلاة والسلام: «مَن جعل الهمومَ همًّا واحدًا، كفاه الله همَّ دنياه. ومَن تشعّبتْ به الهمومُ لم يبالِ الله في أيِّ أوْدِية الدنيا هلَكَ»[2].

وقال ﷺ: «إن الدنيا حُلْوة خَضِرَة، وإنّ الله مُستخلفُكم فيها، فناظرٌ كيف تعملون، ألا فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء»[3].

وقال عليه الصلاة والسلام: «يقول العبد: مالي، مالي، إنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فاقتنى، وما سوى ذلك فهو ذاهب، وتاركه للناس»[4].

وإن حب الدنيا لهو من أخطر أمراض الأنفس والقلوب، التي تصيب الناس، وفي الصحيحين: «والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم»[5].

والمراد بحب الدنيا المذموم: ليس ترك الدنيا بالكلية، أو تركها للكفار والفساق يبنونها ويتنعّمون بها، ونحن نتفرج عليهم، ونقول: ﴿ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [آل عمران:١٩٧]، فليس المراد برفض حب الدنيا: أن ندع

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٦٥) وسكت عنه، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٤٧٨٩): رواه الترمذي عن يزيد الرقاشي عنه، وقد وُثِّق، ولا بأس به في المتابعات، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٥١٠)، عن أنس بن مالك.

(٢) رواه ابن ماجه في الزهد (٤١٠٦)، وحسّنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٣١٤)، عن ابن مسعود.

(٣) رواه مسلم في الرقاق (٢٧٤٢)، أحمد (١١١٤٣)، عن أبي سعيد الخدري.

(٤) رواه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٥٩) عن أبي هريرة.

(٥) متفق عليه: البخاري في المغازي (٤٠١٥)، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٦١)، عن عمرو بن عوف الأنصاري

الدنيا فارغة لا نعمل فيها، ولا نبني ولا نزرع، ولا نتاجر ولا نصنع، بل المراد: أن تملك الدنيا ولا تملكك، وأن تعيش فيها ولا تعيش فيك، وألا تتخذها ربًّا، فتتخذك لها عبدًا، وأن تكون فيها عبدًا لله سيدًا للكون.

فعلى كل سائر في طريق الله أن يحذر هذه الدنيا، وألا ينشغل بمغرياتها عن الآخرة، فالدنيا تتزيَّن للناس، وتفتنهم بما لديها من مال وبنين، ونساء وقناطير مقنطرة، وأنعام وحرْث، كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [آل عمران:١٤].

فهذه هي مجمل شهوات الدنيا التي يلهث الناس وراءها، ويلغون عقولهم أو يجحدونها، من أجل الحصول عليها، بل ربما يقتل بعضهم بعضًا من أجلها.

وقد انتصر أهل الإيمان عليها عندما قارنوها بالآخرة، من ناحية الزمن، فالدنيا عمرها قصير، والآخرة هي دار الأبد، ومن ناحية المتاع، فهو متاع قليل، أيام معدودة، وأنفاس محدودة، ثم يتركك ويذهب إلى غيرك، وهو متاع غرور، يغُرُّ صاحبه ويخدعه بالبريق والزهو الذي يظهر عليه، وينسى ما يخبِّئه من غدر وضياع، ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝٧٧ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ﴾ [النساء:٧٧- ٧٨].

القاطع الرابع: الناس:

ومن قواطع الطريق إلى الله وإلى الآخرة مع النفس، والشيطان، والدنيا: الناس من شياطين الإنس الذين يفتنون غيرهم مع شياطين الجن، والذين يزيِّنون الدنيا بزخارفها وزينتها بدلًا من الآخرة، ويريدون للناس أن يتخذوا الشياطين أولياء من دون الله.

وهؤلاء موجودون في كل عصر، يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الفرقان:٣١].

وليس كلُّ الناس أعداء وقطّاعًا للطريق، ولكن أكثر الناس، كما قال تعالى في القرآن: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الأنعام:١١٦].

كما بيَّن القرآن أن أكثر الناس لا يعقلون، ولا يعلمون، ولا يفقهون، ولا يؤمنون، ولا يشكرون. وأنَّ الصالحين قليل من الناس: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ﴾ [ص:٢٤]. ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ:١٣].

والإنسان يتأثر بهذه الكثرة الصَّادَّة عن سبيل الله، عن طريق العدوى، فالشرُّ يُعدي كما يعدي الأجربُ السليمَ، وعن طريق المحاكاة والتقليد الأعمى، كما يقلد الببغاء الإنسان، وعن طريق الوسوسة السرية والدعوة العلنية، بأساليبها التي لا حدود لها، ولا نهاية لها، ولهذا حذَّر الله رسوله فقال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ﴾ [الجاثية:١٨- ١٩].

وخصوصًا إذا كان هؤلاء الناس يخالفونك في دينك أو اتجاهك، ويريدون أن يحرفوك عما أنت فيه، وأن يضمُّوك إليهم، فهنا يكون التحذير أكبر، كما قال تعالى آمرًا بتحكيم كتابه الذي أنزله، ومحذِّرًا من المخالفين الذين يكرهونه ولا يحبُّون انتشاره: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ﴾ [المائدة:٤٩].

ويُحذِّر القرآن من كثير من الأصناف الذين يُضلُّون الناس، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف:٢٨]. وفي سورة أخرى يقول: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾﴾[القلم:٨- ١٤].

وحذَّر القرآن من طاعة الكافرين في مكايدتهم للمؤمنين، وصناعة الأباطيل لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [آل عمران:١٠٠- ١٠١]. وقد دلَّت التفاسير القرآنية على أن ﴿يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾، أي: بعد وحدتكم متفرقين، فهم يسعون باستمرار لتمزيق عُرى المسلمين، وتفكيك وحدتهم، والله تعالى يقول: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران:١٠٣]. ويقول بعدها: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران:١٠٥]. ويقول الرسول الكريم لأمته من بعده: «لا ترجعوا بعدي كفَّارًا يضرب بعضكم رقاب بعض»(١).

احذر من كل مَن يريد إضلالك عن دينك، عن عقيدتك، بأن يريد أن يخرجك من مِلَّتك، أو يريد أن يزحزحك عن طريقك المستقيم، فهو يحاول أن يخرج أهل الإيمان من أصل إيمانهم، فإن هو عجز عن أهل الإيمان الصادقين، حاول مع أهل الإسلام: أن يفتنهم عن إسلامهم: عن صلاتهم، عن زكاتهم، عن صيامهم، عن حجهم، عن سائر فرائضهم وأركانهم.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (١٢١)، ومسلم في الإيمان (٦٥)، عن جرير بن عبد الله.

فإن عجز عنهم لجأ إلى أهل الإحسان، يريد أن ينزلهم من درجة الإحسان التي هي أعلى درجة في سلم الترقِّي إلى الله، فينزلهم إلى درجة مَن هو أدنى منهم، وهو يعتبر إنزال الإنسان من درجة إلى أدنى مكسبًا له.

والمطلوب هنا: الحذر من شرار الناس، الذين يزيِّنون السوء، ويهدون غيرهم إلى طريق النار، ويزهِّدونهم في المعروف، ويرغِّبونهم في المنكر، ويفرشون لهم الطريق لعمل السيئات وترويجها، وللابتعاد عن الحسنات والدعوة إليها. وهؤلاء هم الخطر على الناس، كما أن شياطين الجن خطر عليهم.

وقال مالك بن دينار: إنَّ شياطين الإنس أشد عليَّ من شياطين الجن؛ وذلك أني إذا تعوَّذت بالله ذهب عني شيطان الجن، وشيطان الإنس يجيئني، فيجرُّني إلى المعاصي عيانًا[(١)].

وهذا النبي ﷺ سُلِّط عليه قرينه من شياطين الجن، ولكن الله أعانه عليه فأسلم، كما في صحيح مسلم مرفوعًا: «ما منكم من أحد إلا وقد وُكل به قرينه من الجن» قالوا: وإيَّاك يا رسول الله؟ قال: «وإيَّاي، إلا أن الله أعانني عليه، فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير»[(٢)].

وسمع الشافعي امرأة تنشد:

إنَّ النساء رياحين خلقن لكم ... وكلكم يشتهي شم الرياحين!

فأجابها بقوله:

إن النساء شياطين خُلقن لنا ... نعوذُ بالله من شرِّ الشياطين!

وما أظن ذلك صحيحًا عنه، ولكنا حُذِّرنا من فتنة النساء، كما حُذِّرنا من فتنة

(١) تفسير القرطبي (٧/ ٦٨).

(٢) رواه مسلم في صفة القيامة والجنة والنار (٥٠٣٤)، وأحمد (٣٦٤٨)، عن ابن مسعود.

الأموال والأولاد، كما قال النبي ﷺ: «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء»[1].

وقال ﷻ: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ [التغابن:١٤]

وقال: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التغابن:١٥]

أخالف الإمام الغزالي في الدعوة إلى العزلة عن الناس:

والإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله جعل «الخلق» من قواطع الطريق إلى الله، ولكنه يريد التخلص من هذا العائق بالعزلة عن الناس، فإنهم يشغلونك عن الله، ويبعدونك عن الجنة، ويقرِّبونك من النار. والنجاة والخلاص في العزلة عن الناس، ويذكر الغزالي في ذلك الأحاديث التي ترغب في الاعتزال والبعد عن الناس.

ولكني أخالف إمامنا الغزالي رحمه الله في ذلك، وأرى أنه مات رحمه الله في أوائل القرن السادس للهجرة (٥٠٥هـ)، ومرَّ على وفاته أكثر من تسعة قرون هجرية، قامت فيها دول وسقطت دول، وماتت مجتمعات، وحييت مجتمعات، ولا تزال حياة الناس مختلفة بالحركة والجدِّ والكفاح والجهاد من كل أصحاب الأديان من الكتابية والوثنيَّة واللادينية، بعضهم من بعض، ومن أصحاب الإيديولوجيَّات المختلفة، ومن طلاب الدنيا وأصحاب المتع والشهوات، وأصبحت الحياة تفرض على الناس أن يدخلوا فيها، ولا يدعوها، فهم إن تركوها لم تتركهم، وإن ابتعدوا عنها قاربتهم.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في النكاح (٥٠٩٦)، ومسلم في الذكر (٢٧٤٠)، عن أسامة بن زيد.

ولهذا نرى أن على المسلم الذي يعد نفسه جزءًا من أمة الإسلام، أمة القرآن، أمة محمد عليه الصلاة والسلام: أن يعلم أن خلاصه في أن يندمج في الأمة، ويعمل فيها، ولا ينفصل أو ينعزل عنها، ويحمل عبئها كواحد منها. فهو واحد من أمة عرفها الله تعالى بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠]، وقال عنها: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣].

لا يجوز للمسلمين الذين يريدون وجْهَ الله تعالى ورضوانه، ويرجون رحمته ويخافون عذابه: أن يجعلوا كل همِّهم النجاة بأنفسهم أفرادًا، ويتركوا الأمة لأعدائها يفترسونها، أو يحرفونها عن دينها ووجهتها، ولا يحاولوا أن يسمعوا لصرخاتها وهي توقظ النائمين، وتزعج اليقظين، وتقلق المطمئنين، وتدخل الحزن والتعب على المستريحين والمرفَّهين.

نحن ننادي المسلمين في كل مكان، ننادي كل من عنده قوة: في دين أو في دنيا، في فكر، أو في علم، أو في أدب، أو في صناعة، أو في جهاد، أو في مال، أو في بدن، أو في فن من الفنون، أو في أي ناحية من نواحي الحياة: أن ينضم ومعه قوته هذه إلى الأمة، أو إلى جماعة مؤمنة، تريد أن تنصر الحق، وتخذل الباطل، وتقوي العدل، وتضعف الظلم، وتعز جانب المؤمنين، وتقف ضد معاول الكائدين والمجرمين. كما قال سيدنا موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [القصص: ١٧].

نحن هنا نحشد أبناء الأمة الأقوياء، القادرين على العمل، الناصرين للرحمن، الخاذلين للشيطان: أن يشدَّ بعضهم أزر بعض، ويتعاون بعضهم مع بعض ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ

ٱلْعِقَابِ ۝﴾ [المائدة:٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران:١٠٣]، وقال: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝﴾ [الأنفال:٤٦]، وقال: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ۝﴾ [الزخرف:٦٧]. وقال صلى الله عليه وسلَّم: «المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضًا» وشبّك بين أصابعه[(١)].

نحن هنا ندعو إلى تكوين الجماعات المؤمنة المجاهدة، الداعية إلى الخير، الآمرة بالمعروف، الناهية عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝﴾ [آل عمران:١٠٤].

مناقشة الغزالي في الدعوة إلى الخلوة:

ولا يجوز لإمامنا الغزالي وأمثاله من المؤمنين بفكرة العزلة: أن يقفوا في وجه الأُمّة إذا أرادت النهوض بواجباتها الكبرى، في حماية الأمة من أعدائها، وتقويتها من داخلها بحسن الزراعة والصناعة والتنمية والتربية والتعليم والتفنن، في مختلف جوانب الحياة، وسد كل أبواب الشرور والمفاسد والفتن، ما ظهر منها وما بطن. وإعداد القوة المستطاعة للدفاع عنها في الداخل والخارج، وإقامة العدل بين الناس، وإقامة الموازين بالقسط، وإرساء دعائم الحق في القضاء والتشريع والإعلام والحكم والتنفيذ، وأداء الأمانات إلى أهلها.

ولذلك لا أوافق على ما قاله الغزالي في كتابه «منهاج العابدين»: «ثم عليك - رفعك الله وإيَّانا لطاعته - بالتفرد عن الخلق، وذلك لأمرين:

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الصلاة (٤٨١)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٥)، كما رواه أحمد (١٩٦٢٤)، والترمذي في البر والصلة (١٩٢٨)، والنسائي في الزكاة (٢٥٦٠ عن أبي موسى.

أحدهما: أنهم يشغلونك عن عبادة الله ﷻ، على ما حكي عن بعضهم أنه قال: مررتُ بجماعة يترامَون (بالسهام يتعلمون التهديف) وواحد جالس بعيدًا عنهم، فأردت أن أكلِّمه، فقال: ذكر الله أشهى إليَّ من كلامك. فقال: أنت وحدك. فقال: معي ربي وملكاي. فقلت: مَنْ سبق من هؤلاء؟ قال: مَنْ غفر الله له. فقلت له: أين الطريق؟ فأشار بيده نحو السماء، وقام وتركني. وقال: أكثر خلقك شاغل عنك!

قال الغزالي: فالخلق- إذن- يشغلونك عن العبادة، بل يمنعونك عنها، بل يوقعونك في الشر والهلاك، على ما قال حاتم الأصم رحمه الله: طلبت من هذا الخلق خمسة أشياء، فلم أجدها: طلبت منهم الطاعة والزهادة فلم يفعلوا. فقلت: أعينوني عليهما إن لم تفعلوا. فلم يفعلوا. فقلت: ارضوا عني إن فعلت. فلم يفعلوا. فقلت: لا تمنعوني عنهما إذن. فمنعوني. فقلت: لا تدعوني إلى ما لا يُرضي الله العظيم، ولا تعادوني عليه إن لم أتابعكم. فلم يفعلوا. فتركتهم واشتغلت بخاصة نفسي»[1].

وأرى أن هذه الأقوال لا توجب البعد عن الناس، وأن هذا الرجل الذي جلس وحده، وانفرد عن الخلق بالعبادة، وترك من حوله من الرجال الذين يتسابقون في فن الرماية والتهديف لم يكن مصيبًا، في هذا الوقت الذي يُهدَّد المسلمون من جيرانهم من الروم أو من الصليبيين، يتعيَّن عليهم أن يتدربوا، وأن يعدُّوا أنفسهم وشبابهم للأيام القادمة، التي يعدُّ لها الرجال، وتنتظر الأبطال: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [العنكبوت:٥، ٦]

(١) منهاج العابدين للغزالي ص ٨٩- ٩٠، ط: مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى: ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م، ت: محمود مصطفى حلاوي.

ولا نرى أنه حين تدخل الأمة في حروب مع أعدائها الذين يتربَّصون بها، مثل الصليبيين الذين ظهروا في أواخر أيام الغزالي، ومثل التتار الذين ظهروا بعده، ومثل أعداء الإسلام الذين لا يزالون يظهرون يوما بعد يوم: أن الحل للصالحين والمتعبدين من أبناء الأمة أن يفرُّوا إلى الخلوات والفَلوات، ويغيبوا عن أعين الناس. بل الواجب عليهم أن يكونوا كما كان الأولون من رجال السلف الصالحين من أمثال إبراهيم بن أدهم، وعبد الله بن المبارك وأمثالهما؛ في صفوف المجاهدين. ولا سيما في هذه الأيام، فالجهاد الآن ـ والأمة يُغار عليها ـ أصبح فرض عين على الرجال القادرين.

لم يعد بإمكان الصالحين الفرار من الناس، فإن الأجهزة الإعلاميَّة الحديثة تدخل عليهم مضاجعهم، وتسمعهم كل صوت، وتريهم كل صورة وكل واقعة. والأمة تحتاج إلى كل واحد منهم، ليسدَّ فيها ثغرة، ويستر فيها عورة، ويبني فيها حجرًا، ويغرس فيها شجرة، ويتعاون مع الصالحين من أمثاله، كما قال الرسول الكريم: «المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضا» وشبَّك بين أصابعه[(١)].

ثم على هؤلاء أن يُكوِّنوا منهم ومن غيرهم جنودًا قادرين على الدفاع عن الأمة إذا غُزيت، وقادرين على أن يردُّوا الغزاة بما لديهم من أسلحة تفوق أسلحتهم، كما قال تعالى في صلاة الخوف: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [النساء:١٠٢].

لسنا مع الغزالي في أن العزلة واجبة الآن، بل الواجب الآن لإحياء الأمة الإسلامية وبعثها من جديد إيمانيًّا وفكريًّا وأخلاقيًّا واجتماعيًّا وسياسيًّا: التعاون

(١) سبق تخريجه.

معًا في سدِّ ثغراتها، وتكميل ما نقص منها، ومقاومة النزعات العرقية والعصبية واللادينية التي تريد أن تمزقها إلى أمم شتى.

لا بد للأمة المسلمة الكبرى من العمل الجاد، والعمل الإسلامي، والعمل الجماعي، وأن يتَّحد أبناء الأمة فيما يجب عليهم لأنفسهم ولأسرهم، ولمجتمعهم الصغير، ولأمتهم الكبرى، ولدولتهم القريبة والمنتظرة، وللإنسانية جمعاء.

إن الأمة الإسلامية مدعوَّة لتبليغ رسالة الله إلى العالم، فهل بلغتها؟ هل عندها من الدعاة بلغات العالم من يستطيعون أن ينادوا كل أمة بلسانها إلى الإسلام؟ ليس عندنا – والله – عشر المعشار، ولا أقل منه من المطلوب لنشر الإسلام في العالم، في حين أن رجال التنصير عندهم ملايين مُعدون للتنصير في كافة القارات، وبكل اللغات، وسائر الأساليب والآليات، ولتنصيرنا نحن المسلمين، فقد أصبحنا نحن من المهيَّئين لغزوهم، وعقدوا لذلك المؤتمرات، وأصدروا لذلك المنشورات، وهيؤوا لذلك الأفراد والجماعات، والمدارس والجامعات، وصرخنا في المسلمين أن يهيِّئوا قواهم ليدافعوا عن الأمة، ويحموا المسلمين من هجمات التنصير.

الأمة الإسلامية مدعوة من أقصاها إلى أقصاها: أن تخرج من دائرة العالم الثالث، المحسوبة عليه كلها، وهو عالم التخلف والتدهور، والرضا بالدون، والقليل الهون، والوقوف في طابور الانتظار، ليعطيك المعطون من فضول نعمهم، وفضلات أرزاقهم، مما يلقونه في صنايق القمامة، ونحوها، ونحن – للأسف – راضون بما يلقى إلينا؛ لأننا لا نعمل وهم يعملون، ولا نُنتج وهم يُنتجون، ولا نفكِّر وهم يفكرون.

الأمة الإسلامية مدعوةٌ أن تعود إلى العالم من جديد، أن تبني نفسها من جديد، تعمِّر بناءها كله الذي فرّطت فيه، ولم توجِّه همَّتها إليه: بناء الفرد بناء سليمًا، كما أراده الله تعالى، واعي الفكر، طاهر القلب، خيِّر الوجدان، قوي الإرادة، صحيح الجسم، جيِّد التعلم، قادرًا على العمل، يعمل في الزراعة أو الصناعة، أو الإدارة، أو أي عمل يقدم خيرًا أو خدمة للأمة، تكبر أو تصغر، ولا يعيش عالة على الناس، يأكل من زرعهم، ولم يزرع أو يساهم في زرع، ويلبس ويداوى، ويستفيد مما صنعت أيديهم، وهو لم يشارك في صنعة، ولم يسهم في أي عمل يفيد الدنيا بشيء، أيِّ شيء. فكيف يستحق الطعام الذي يأكله، أو الماء الذي يشربه أو اللباس الذي يستره، أو المدرسة التي تعلمه، أو الجامعة التي تنضجه؟!

لا بد للأمة من أن تبني الأفراد، وأن تبني الأسر، وأن تبني المجتمعات، ثم تبني الأمة الكبرى، أمة الرسالة، أمة الهداية للعالم، تبنيها كلها بالعلم والأدب، والتربية والحرية؛ فهذه هي الحجارة الأساسية التي يلزم جمعها وصفها ورصها وإلصاق بعضها ببعض، لكي تبنى الأمم، وأهم ما تبنى عليه الأمم الأخلاق، كما قال شوقي:

فإنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فإن همُو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وقال أيضًا:

وإذا أصيب القوم في أخلاقهم ... فأقم عليهم مأتمًا وعويلا

لا بد بعد بناء الأمة أن يجتمع بعضنا مع بعض، وإلا لم يكن هناك معنى لكلمة «أمّة»، فالأمة هي مجموع الشعوب الإسلامية وإن اختلفت أوطانها، واختلفت أصولها، واختلفت لغاتها، واختلفت طبقاتها ومذاهبها، المهم أن يقوم البناء على التوحيد، وعلى عبادة الله وحده، وعلى أركان الإسلام العقديَّة والعمليَّة:

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء:١٣٦].

ولا بد أن تتوحَّد شعوب الأمة وتجتمع وتتلاقى وتتساند، وتتضامن وتتعاون، لتكون كما وصفها رسولها، كالجسد الواحد، وكالبنيان الواحد، الذي يشدُّ بعضه بعضًا.

ولا بد أن تهيِّىء نفسها للجهاد في سبيل الله، فهي أمة يُطمع في خيرها، ويُخاف من بأسها، فيلزمها أن تكون قويَّة قوة عسكرية مرهوبة، تحمي ولا تهدِّد، وتحفظ ولا تبدِّد، وتيسِّر ولا تشدد، كل شدتها على من يعتدي عليها، أو على حرماتها، أو على عقيدتها، أو على أبنائها. ولذا قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

هذا ما نريده من كل وارث لتفكير الإمام الغزالي أن يفكر فيه، فلا يقول أحد: إن المهم في الإسلام هو الفرد، بل المهم هو الفرد والأسرة والمجتمع، والأمة كلها. ولهذا خاطب الله في القرآن منذ نشأ المجتمع في المدينة بصيغة الجماعة دائما: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾. ولم يقل: يا أيها المؤمن. بل ذكر الأمة، وذكرها بصيغة الجمع: الذين آمنوا، المؤمنون.

إن الإمام الغزالي الفقيه الشافعي الكبير في كتبه: «البسيط» و«الوسيط» و«الوجيز»، وصاحب «المستصفى» في الأصول: لا يخفى عليه ما تتطلبه الأمة، وخصوصًا في عصور الصراع الحادِّ بين الأديان والفلسفات والإيديولوجيات، وتداعي الأمم المختلفة على أمتنا كما تتداعى الأكلة على قصعتها.

هنا تظهر الأمة المسلمة بأبنائها وأسلحتهم وعتادهم وتنظيمهم، ولا يجوز لجماعة في هذا الموقف أن يدعوهم داعٍ إلى الخلوة، والابتعاد عن الأمة، لأن الأمة

إذا تخلى عنها أبناؤها الأقوياء، فمن لها؟ ومن يذود عن حياضها؟ ومن يدافع عن دينها وحرماتها وأعراضها؟

لا مانع أن نذكر ما ذكره الغزالي هنا، ممَّا قاله السلف عن أزمانهم، ونذكر ما يجب قوله عن أزماننا، لتستعد له الأمة، لتغير ما بأنفسها، حتى يغير الله ما بها؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١].

وقد نقل الغزالي آثارا عن سوء حال الزمان، ثم قال: «وجميع ما ذكر في هذه الأخبار، تراه بعينك في زمانك وأهله، فانظر لنفسك. ثم إن السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعوا على التحذير من زمانهم وأهله، وآثروا العزلة، وأمروا بذلك، وتواصَوْا به، ولا شك أنهم كانوا أبصر وأنصح، وأن الزمان لم يصِرْ بعدَهم خيرًا مما كان، بل أشر منه وأمرّ. وهذا ما ذكر عن يوسف بن أسباط أنه قال: سمعت الثوري يقول: والله الذي لا إله إلا هو، لقد حلت العزلة في هذا الزمان»[(١)].

قلت «القرضاوي»: قد يقول أهل زماننا: لئن حلَّت في زمان الثوري ففي زماننا هذا وجبت وافترضت.

ثم نقل الغزالي عن سفيان الثوري أيضًا: «أنه كتب إلى عبَّاد الخوَّاص رحمهما الله: أما بعد، فإنك في زمان كان أصحاب محمد ﷺ يتعوَّذون بالله من أن يدركوه فيما بلغنا، ولهم من العلم ما ليس لنا، فكيف بنا حين أدركناه على قلة علم، وقلة صبر، وقلة أعوان على الخير، وكدر من الدنيا، وفساد من الناس؟ فإن عمر بن الخطاب ﷺ قال: في العزلة راحة من خلطاء السوء»[(٢)].

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٨٨).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في زهد الصحابة (٣٥٦١٨).

ولقد وجدت عن سفيان بن عيينة أنه قال: قلت للثوري: أوصني. قال: أقلل من معرفة الناس. قلت: يرحمك الله، أليس جاء في الخبر: «أكثروا من معرفة الناس، فإن لكل مؤمن شفاعة»[(1)]؟ قال: لا أحسبك رأيت قط ما تكره إلا ممن تعرف. قلت: أجل. ثم مات ﷺ، فرأيته بعد موته في المنام يحج، فقلت: يا أبا عبد الله، أوصني. قال: أقلل من معرفة الناس ما استطعت، فإن التخلص منهم شديد.

قال الفضيل ﷺ: هذا زمان احفظ لسانك، وأَخْفِ مكانك، وعالج قلبك، وخذ ما تعرف، ودع ما تنكر.

وقال سفيان الثوري: هذا زمان السكوت، ولزوم البيوت، والرضا بالقوت، إلى أن تموت[(٢)].

وعن داود الطائي ﷺ: صم عن الدنيا، واجعل فطرك الآخرة، وفِر من الناس فرارك من الأسد.

وعن أبي عبيدة: ما رأيت حكيمًا قط إلا قال لي في عقب كلامه: إن أحببت ألا تُعرف، فأنت من الله على بال. والأخبار في هذا الباب أكثر من أن يحتملها هذا الكتاب.

وقد صنفنا فيه كتابًا مفردًا، وسميناه كتاب: «أخلاق الأبرار والنجاة من الأشرار»، فقف عليه ترى العجب العجاب، والعاقل يكفيه إشارة. والله ولي التوفيق والهداية بفضله»[(٣)].

والذي نراه أن هذا يمكن أن يؤخذ به عند ما تكون الأمة في حال قوة وغلبة على أعدائها، وقد استكملت كل قوتها وبنت نفسها من كل ناحية.

---

(١) عزاه المتقي الهندي في كنز العمال (٢٤٦٤٢)، لابن النجار في تاريخه.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في العزلة والانفراد (٩٧).

(٣) منهاج العابدين ص٩١- ٩٤.

أما إذا بدا غرور الدنيا وزخرفها يسيطران على النـاس، ويغـري كثيـرًا مـنهم بالافتتان والضياع مع الضائعين. فالواجب على المؤمن القـوي أن يشـتغل بـدعوة الناس إلى الحق والخير، ويعظهم بالله والدار الآخرة، ويقيم مع الصالحين جمعيات ربَّانية الوجهة، محمديَّة الطريق، وإن جاز هنا أن يُفضِّل بعض الناس العزلة، ولكن في عصرنا لم تعد العزلة ممكنة، وأعـداء الإسـلام يُجمِّعـون النـاس مـن كـل حـدب وصوب، ليبشِّروا أمة المسلمين، ويفتنوهم عن دينهم، ويفرقوهم بعضهم عن بعض.

فالأولى لنا أن نُفكِّر دائمًا بعقلية الجماعـة، وعقليـة الـدعوة، وعقليـة الأمـة الواحدة، وبهذا يجب أن يصطف الجميع، كما يصـطف المصـلُّون وراء إمـامهم، داعين الله تعالى أن يُتمَّ عليهم النعمة، ويهديهم صراطًا مستقيما، وينصـرهم نصـرًا عزيزًا.

الآن الأمة في خطر، بل في خطر كبير، ويزداد كل يوم كبرا، وقد مزقوها إربـا إربا، ويريدون ألا يدعوا لها شيئًا تعتمد عليه، وتستمسك به، فلا بد لعلمـاء الأمـة ودعاتها ومفكريها وأولي الرأي بها أن يجتمعوا ولا يتفرقـوا، ويجتهـدوا في العمـل ولا يتخلوا، ويرفضوا كل دعوة إلى الخلوة. الخلوة عن الأمة يعني: التفريط فيهـا، وفي وجودها، يعني ضياع الأمة، أو هلاكها.

ضع يدك في يدي، ولنضع أيدينا في أيـدي إخواننـا، وجيرانـا وأصـدقائنا، وأبنائنـا وأمتنا، وقد وجدناهم والله عند الشدة وتجمع الأعداء علينا، على قلب رجل واحد.

فهيا هيا، والله شهيد علينا، وناصر لنا: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾ [الطلاق: ٣]

✿✿✿

الفَصْلُ الثَّانِي

أدب المسلم مع رسول الله ﷺ

يأتي الأدب مع رسول الله ﷺ، عقب الأدب مع الله تبارك وتعالى.

فما دمنا آمنَّا بالله تعالى ربًّا، وأنه هو الرب الأعلى، الذي خلق فسوَّى، والذي قدَّر فهَدَى، والذي وسِع علمه كلَّ شيء، وأحاطتْ قدرتُه بكل شيء، وهو الذي خلق الخلق جميعًا، وخلق الناس المكلَّفين بعبادة الله تعالى، وهو أعلم بما يحتاجون إليه ليسعدوا في حياتهم الدنيا، الحياة القصيرة الفانية، ثم ليستعدوا فيها ليسعدوا في الحياة الآخرة، وهي الأولى بالتعب لها والمعاناة والاستعداد، كما جاء في الحديث الصحيح الذي قال: «ما مثل الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعلُ أحدُكم إصبعه هذه- وأشار يحيى (أحد الرواة) بالسبابة- في اليمِّ، فلينظر بم يرجع؟»[1].

فما دُمْنا آمنَّا هذا الإيمان بالله، وجب علينا أن نتأدَّب معه الأدب الكامل في حدود طاقتنا واستطاعتنا، نتأدَّب معه في قولنا وعملنا، في عبادتنا ومعاملتنا، في عمل جوارحنا وعمل قلوبنا، في سرِّنا وعلانيتنا، وفي كل أحوالنا، أن نتأدَّب معه سبحانه أعلى أنواع الأدب وأصفاها وأثبتها وأخلصها.

هذا الأدب مع الله العظيم، يأتي عقبه مباشرة الأدب مع رسوله الكريم، فالله هو الذي خلق وعلَّم وهَدَى، والرسول هو الذي نزَّل الله عليه الكتاب، وأرسله

(١) رواه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٥٨)، والترمذي (٢٣٢٣)، وابن ماجه (٤١٠٨)، كلاهما في الزهد، عن المستورِد أخي بني فهر.

بالوحي من الله تعالى، فعلَّمه الوحي وهَدَاه وأرشده، ليبلِّغَ للناس ما يريد الله تعالى منهم، وما يأمرهم به، وما ينهاهم عنه، ما يرتقي بهم إلى أعلى، وما ينزل بهم إلى أسفل.

حاجة البشر إلى الهداية والترقية والتربية:

الذي يقوم بمهمة الترقية للإنسان إلى الكمالات العليا، التي تنتزعه من طين الأرض ومن خبثها، لترتقي به إلى نور السماوات العُلا، هو الرسول القائد المعلِّم الهادي إلى الصراط المستقيم.

كان بعض الناس يعجبون: هل يحتاج الله إلى بعض خلقه ليبلِّغوا هدايته وتعاليمه وأحكامه للناس؟

ونقول لهم: ليس الله تعالى هو الذي يحتاج إلى واسطة لهذا التبليغ والتعليم والهداية، ولكنَّ عباده من البشر الذين خلقهم جميعًا من إنسان واحد هو آدم، عباده هؤلاء هم الذين يحتاجون إلى هذه الواسطة، وهذا التبليغ، وتلك الهداية والترقية والتربية.

خلق الله آدم أبا البشر الإنسان الأول من تراب، اختلط به الماء، فأصبح طينًا، ثم تخمَّر وجفَّ، فأصبح صلصالًا، أو حمأً مسنونًا، كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝١٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٦﴾ [الرحمن: ١٤-١٦]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٦ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٨ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٢٩﴾ [الحجر: ٢٦-٢٩].

فبيَّن الله كيف خلق الإنسان الأول - الذي هو النموذج الأول للبشر - من الصلصال والحمأ، ثم سواه كما يرى، ونفخ فيه من رُوحه، وهذه النفخة الإلهية

هي التي جعلت لهذا الطين والحمأ المسنون قيمة، فلم يعد مجرد تراب أو طين أو صلصال، بل ارتقت به الروح الإلهية بعد النفخة، فاستحق أن يأمر الله الملائكة أن تسجد لآدم تكريمًا له، وإعلاءً لمنزلته عند ربه، ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ [الحجر: ٣٠].

الحكمة من اختيار الرسل من البشر

وكان الرسول مطلوبًا في كل الرسالات الإلهية إلى البشر؛ لأن الله أعطاه من المواهب الرُّوحية الربَّانيَّة، ما يُمكِّنه من الأخذ عن الله تعالى بوساطة ملائكته، وخصوصًا الذين هيَّأهم الله لهذه الرسالة، فمنهم يأخذ البشر، ويحملون عنهم إلى إخوانهم وإلى أسرهم.

كما أن الرسول قد جعله الله بشرًا عاديًا، ليكون أسوة للناس، ولا يقولوا: هذه رسالة فوق طاقتنا، وفوق احتمالنا. بل هو رسول منكم، تتعلمون منه ما يعلِّملكم، وتحملون منه ما تقدرون عليه.

كان الناس من قديم يتصوَّرون أن يكون الرسول من الملائكة لا من البشر، وهو تصوُّر غريب حقًّا، وماذا يستفيد الناس من كون الرسول من الله ملكيًّا لا بشريًّا.

إن البشر يمكن أن يتشبهوا بالرسول؛ لأنه منهم، وقد قال الحكماء من قبل(١):

فتشبَّهوا إن لم تكونوا مثلهم   إن التشبُّهَ بالرِّجال فلاحُ

ولذلك قيل للبشر في رسالة محمد للمؤمنين منهم: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ۝﴾ [الأحزاب:٢١].

(١) القائل هو الشاعر العباسي السهروردي المقتول.

وأنكر القرآن كثيرًا على الذين ظنوا أن إرسال المَلَك بالرسالة أولى من الرجال، وقال تعالى في الرد عليهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨﴾ [الأنعام:٨]، بيَّن القرآن أن إنزال المَلَك على البشر إنما جاء بحمل شيء من السماء بأن قضاء الله نزل بالقضاء على القوم فهم لا يُنظرون، فهنا لا ينزل الملك لتبليغ رسالة هداية، وإنما ينزل لعقاب سماوي. ثم قال تعالى في السياق نفسه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾ [الأنعام:٩] يقول القرآن: ولو جعلنا الرسول المطلوب ملكًا كما يظنون، لكانت الحكمة تقتضينا أن نجعله رجلًا، حتى يكون واحدًا من جنس المبعوث إليهم، يستطيع أن يُحدِّثهم وأن يُفهمهم، وأن يفهم منهم، ولو حدث هذا التحويل من مَلَك إلى رجل، لحدث الاشتباه والالتباس بين الملك وبين الرجل؟

وأولى من هذه التكهنات والتكلفات: أن يبقى كل شيء كما فعله الله وحكم به.

وقد بيَّن الله في سورة أخرى أن الله لم يبعث ملائكة رسلًا إلى البشر، وأن الله تعالى لا يُنزل رسلًا إلى قوم، إلا إذا كانوا مثلهم في الخلقة والنشأة والتركيب والتكوين. لهذا قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ۝٩٥﴾ [الإسراء:٩٥].

لهذا كان الرسول بشرًا، وكان أليق بمنصبه من غيره، ليجد البشر أسوة منهم قادرين على أن يتخذوا منها أسوة، وأن يجعلوها إمامًا وقدوة، وأن يقال للواحد منهم: ما لك لا تقتدي برسولك، وتتخذ منه إماما لك؟

وجوب الإيمان بالرسل:

وأول ما على البشر المرسَل إليهم: أن يؤمنوا بهذا الرسول المبعوث إليهم من الله تعالى، فهو جزء أساسي من المهمة الإسلامية، ولهذا كان مفتاح الدخول في الإسلام الشهادتين: شهادة ألَّا إله إلا الله، وشهادة أن محمدًا رسول الله.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات:١٥].

ولما أرشد الله الأمة إلى خيري الدنيا والآخرة، قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الصف:١٠، ١١].

الحكمة العظمى من إرسال الرسل (تبليغ الوحي):

وتلقِّي النبيِّ الوحيَ من الله ليبلغه إلى خلقه، هو منتهى الحكمة من خالق البشر، وهي حكمة ممن يملكها، وضعت في موضعها، قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾ [يونس:٢].

وقد كتب العلامة محمد رشيد رضا رحمه الله في بيان هذه الآية، وما فيها من حكم ومعان ومعجزات، ملأت كتابه «الوحي المحمدي»، وكان مما قاله تحت عنوان: «**حاجة البشر إلى الرسالة وأصول أديان الرسل الأساسية**»: «وجه حاجة البشر إلى هداية الأنبياء عليهم السلام في الجملة: أن موضوع رسالتهم المقصود بالذات، أو بالقصد الأول: ثلاثة أمور لا تستقل معارفهم المكتسبة بحواسهم وعقولهم بها، ولا يذعنون فيها إلا لأمر ربهم وخالقهم.

(أحدها): الإيمان بالغيب، ورأسه توحيد الله وصفاته، وآياته الدالة على كماله وتنزُّهه عن النقص، وما يجب من عبادته وشكره وذكره، الذي هو على ما تتزكى به النفس، وتتطهر من أدران مساوئها، وتصل إلى الكمال المستعدة له بفطرتها. ويليه الإيمان بملائكته وما يناط بهم من الوحي، والنظام في الخلق والأمر، ويجب الوقوف في ذلك عند ما ورد به النص.

ومما أخبر به الأنبياء من أمر عالم الغيب: الجن والشياطين، أن ما يجده الناس في أنفسهم من خواطر السوء، وتقوية دواعي الشر والباطل فهو من وسواس الشياطين.

وحكمة إعلامهم بذلك: إرشادهم إلى محاسبة أنفسهم على خواطرها، والتمييز بين حقها وباطلها، وخيرها وشرها، فهو أكبر معين لهم على تربيتها وتزكيتها، وقد وضحناه بالدلائل في تفسيرنا، وضربنا له المثل بعوالم الجِنّة المادية التي تسمى بالميكروبات، وكون تأثيرها في الأجسام كتأثير الشياطين في الأرواح، وقد مر على البشر الألوف الكثيرة من السنين وهم يجهلونها على ما لها من التأثير العظيم في صحتهم وأمراضهم، وطعامهم وشرابهم، حتى كشفوها في هذا العصر، ولو حاسب الناس أنفسهم على خواطرهم السُّوأى اتقاء لوسوسة الشياطين كما يتقون ميكروبات الأمراض لحفظ أبدانهم لكان تأثير هذه التقوى لحفظ الأنفس من الشر والفساد أعظم من تأثير تلك الوقاية في حفظ الأجساد من الأمراض.

وقد كشف بعض الماديين في القرن الثامن عشر أن للبشر أرواحًا مستقلة، كما أخبرهم الأنبياء، ووجدوا وسيلة لإدراك بعض الجِنَّة غير المادية، وهو ما يعتقدون أنه من أرواح الموتى. والراجح عندنا: أن أكثرها من أرواح شياطينهم،

ولا يتسع هذا الفصل لبيان الحق في هذه المسألة التي لا تزال موضع الخلاف بين الناس، وإنما المراد هنا تعريف موضوع الرسالة بالإجمال.

المشهور: أن أرقى البشر عقلًا ورأيًا في شؤون العالم رجال السياسة الدولية في الغرب، وإنك لتجد غاية سياستهم أن يسخروا ثروة شعوبهم ونتائج علومها وفنونها لعداوة بعضهم لبعض، وإعدادها للتقتيل والتدمير. أليست هذه السياسة الشيطانية مصداقًا لقول الله تعالى فيهم: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝﴾ [النحل: ٦٣، ٦٤].

(ثانيها): ما يجب اعتقاده من البعث بعد الموت والحساب، والجزاء على الإيمان والأعمال، وهو أكبر البواعث- بعد الإيمان بالله ومعرفته- على اتباع ما شرعه من اتباع الحق، وإقامة العدل، وأعمال البر والخير، والصدود عن أضدادها.

(ثالثها): وضع حدود وأصول للأعمال التشريعيَّة المشار إليها لا مجال للآراء والأهواء فيها، لتكون جامعة للكلمة، مانعة من التفرقة، متبعة في السر والعلانية.

وجملة القول: إن تهذيب البشر بالدين مبني على الإيمان بالغيب والوقوف فيه عند خبر الأنبياء عليهم السلام، ولا يمكن تهذيبهم بالعلوم المادية الكسبية وحدها وهو ما نُكرّر بيانه في هذا الكتاب»[1].

---

(١) الوحي المحمدي ص٢٩، ٣٠، ط: دار الكتب العلمية - بيروت.

حاجة البشرية في عصرنا هذا إلى الوحي المحمدي:

ثم قال السيد رشيد رضا ﷺ: «فإن قيل: إن الإيمان بالغيب ووجود الرب غريزي في الفطرة البشرية كما حققتم، أو إلهام من إلهاماتها يُلقى في رُوع أفرادها عند نمو إدراكهم، وأن بعض الحكماء المفكرين قد ارتقوا في معارفهم العقلية إلى حيث أقاموا البراهين على وجود واجب الوجود وعلمه وحكمته، ووجوب تعظيمه وشكره وعبادته، وقد قرر بعضهم بقاء النفس بعد الموت وخلودها في نعيم مقيم أو عذاب أليم، ووضعوا للناس أصول الفضائل والتشريع والآداب التي تصلح بها الإنسانية وروابط الاجتماع.

قلت: نعم، لكل ذلك أصل يثبته التاريخ الماضي، ويشهده العصر الحاضر. ولكن بين هداية الأنبياء وحكمة الحكماء وعلومهم فروقًا في مصدر كل منهما، وفي الثقة بصحته، وفي الإذعان لحقيَّته، وفي تأثيره في أنفس جميع طبقات المخاطبين.

فحكمة الحكماء وعلومهم آراء بشرية ناقصة، وظنون لا تبلغ من عالم الغيب إلا أنه موجود مجهول، وهي عرضة للتخطئة والخلاف، ولا يفهمها إلا فئة مخصوصة من الناس، وما كل من يفهمها يقبلها، ولا كل من يقبلها ويعتقد صحَّتها يرجِّحها على هواه وشهواته، إذ لا سلطان لها على وجدان العالم بها، فلا يكون لها تأثير الإيمان وإسلام الإذعان والتعبد؛ لأن النوع البشري يأبى طبعه وغريزته أن يدين ويخضع خضوع التعبد لمن هو مثله في بشريته، وإنْ فَاقَه في علمه وحكمته، وإنما يدين لمنْ يعتقد أن له سلطانًا غيبيًّا عليه بما يملكه من القدرة على النفع والضر بذاته، دون الأسباب الطبيعية المبذولة لجميع الناس بحسب سنن الكون ونظامه.

وأضرب لهذا مثلًا: أنه كان للفيلسوف الرئيس ابن سينا خادم متعلِّم معجَب بعلومه وفلسفته، وكان يعجب منه كيف يدين بملة محمد ﷺ ويتبعه، وهو في رأيه أعلم منه وأرقى، وكان يكاشفه بذلك، فيُعرض عنه أو يُوبِّخه، فاتفق أن كانا في مدينة أصفهان في ليلة شديدة البرد كثيرة الثلج، فأيقظ الرئيس خادمه في وقت السَّحر، وطلب منه ماء ليتوضأ به، فاعتذر بشدة البرد وبقاء الليل، ثم أيقظه الرئيس في وقت أذان الصبح، وطلب منه الماء، فاعتذر بشدة البرد، حتى قال المؤذن: أشهد أنَّ محمدًا رسول الله. قال الرئيس لخادمه:

اسمع ماذا يقول المؤذن؟ قال: إنه يقول أشهد أن محمدًا رسول الله. قال الرئيس: الآن قد آن لي أن أبين لك ضلالك القديم، إنك خادمي لا عمل لك غير خدمتي، وإنك أشدّ الناس إعجابًا بي وإجلالًا وتعظيمًا لي؟ حتى إنك تفضِّلني على رسول الله ﷺ، وتنكر عليّ أن أومن به وأتبعه، وإنك على هذا تخالف أمري في أهون خدمة أطلبها منك في داخل الدار معتذرًا بشدة البرد، وإن هذا المؤذن الفارسي يخرج من بيته قبل الفجر، ويصعد هذه المنارة، وهي أشد مكان في البلد بردًا، حتى إذا لاح له الفجر أشاد في أذانه بذكر محمد العربي بعد مرور أربعة قرون ونيف على بعثته، إيمانًا وإذعانًا وتعبُّدًا واحتسابًا. فتأمل هذا وتدبره في نفسك يظهر لك الفرق بين سلطان النبوة على الناس وسلطان العلم والفلسفة.

فمن أعظم مزايا هداية الوحي الدينية على العلمية الكسبية: أن جميع طبقات المؤمنين بها يُذعنون لها بالوازع النفسي التعبدي، فبذلك تكون عامة ثابتة لا مجال للخلاف والتفرق فيها ما دام الفهم لها صحيحًا والإيمان بها راسخًا، ولذلك نرى الشعوب التي ساء فهمها للدين، وتزلزل إيمانها به أو زال، لا ينفعها من دونه علوم العلماء، ولا حكمة الحكماء، وقد ارتقت العلوم والحكمة في هذا

العصر، وعمَّ انتشارهما بما لم يُعرف مثله في عصر آخر، وهم لا يذعنون في أنفسهم لإرادة ملك أو أمير، ولا لرأي عالم نحرير، ولا فيلسوف شهير، ولا مخترع خبير، بل صاروا إلى فوضى في الأخلاق والآداب والاجتماع، واستباحة الأموال والأعراض وكذا الدماء، لم يعهد لها في البشر نظير. صارت بها الأمم والدول عُرضة لفتنة في الأرض وفساد كبير.

أكثر البشر المؤمنين بوجود الله وعلمه وحكمته، والمثقفين بالتعليم العصري يؤمنون بوحدانيته، ولم يبقَ للشرك به تعالى بقية إلا في جُهَّال المتبعين لتقاليد الأديان المنسوبة إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وما هي من أديانهم في شيء. بل هي هادمة لأساسها الأعظم وهو التوحيد المطلق، فكان فشوُّ الشرك بعبادة الأنبياء والقديسين وما ترتَّب عليه، واقترن به من الخرافات وفساد الأخلاق من أكبر الشبهات على صحة هذه الأديان والمنفِّرات عن اتباعها، وصار أكثر البشر إما مؤمنين بالأنبياء دائنين بالخرافات، وإمّا كافرين بهم منكرين أن الدين وحي من الله تعالى، وتعين إرجاع الفريقين إلى هداية الدين الصحيح، وما هو إلا دين الإسلام.

إن الدين الذي ينتمي إليه أكثر شعوب الحضارة في هذا العصر هو النصرانية، وإنما سبب بقائه فيهم أن دولهم قد جعلته من نظام حياتهم الاجتماعية، ولكنه لم يبقَ له سلطان روحي إلا في قلوب النساء والعوام الخرافيين، وقد جاءتنا الأنباء قبل طبع هذا الفصل بأن زعماء الشعب الألماني، وهو أرقى شعوب الأرض علمًا وفنًّا وحضارة قد ثار على هذا الدين ثورة جديدة، يريد بها هدم أساسه من كتب العهد القديم، وتنقيح تعاليم العهد الجديد، وجعل ما يبقون منه وطنيًّا ألمانيًّا خاصًّا بالجنس الآري الهندي الفارسي الأصل، والبراءة من كل ما

هو ساميٌّ منه، وما أنبياؤهم ورسلهم ومسيحهم ومعبودهم إلا من الساميين. بل يريدون تقديس شهداء الحرب وعظماء أسلافهم الألمانيين، وإنْ هذه إلا وثنية كوثنية اليابانيين. تُذكي سعير العداوة بينهم وبين سائر الأوروبيين.

فلا سبيل إلى إنقاذ البشر في هذا العصر إلا إثبات الوحي المحمدي الموحِّد لإنسانيتهم، المزكّي لأنفسهم، والمكمِّل لفطرتهم. الذي فيه السعادة الدنيوية والأخروية لهم في جملتهم، وقد بيَّنا في هذا الكتاب أنّ محمدًا رسول الله وخاتم النبيين. وهو المرسل إلى كافة الناس رحمة للعالمين، وأنه هو الذي أكمل الله به الدين، وأزال العصبيات الجنسيّة والوطنيّة، لتوحيد الأخوة الإنسانية، فاتّباعه هو الترياق المجرّب لهذه السموم الروحية الاجتماعية القاتلة. راجين أن يفتح الله تعالى به أبواب الهُدى لكل من يعقله ويتدبَّره من مستقلي الفكر، وطالبي معرفة الحق، وإصلاح الخَلْق المعنيين بقول الله ﷻ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥، ١٦]»[1].

وبعد أن استعرضنا وجوب الإيمان برسل الله، وأهمية إرسال الرسل والحكمة منه، وحاجة البشرية إلى الوحي الإلهي، نشرع في موضوعنا الأساسي، وهو الأدب مع رسول الله ﷺ، وهو ما ستتناوله في الصفحات التالية.

---

(١) الوحي المحمدي ص٣٤-٣٨.

(١)

كيف نتأدب مع رسول الله ﷺ؟

الأدب مع النبي ﷺ في القرآن:

الذي يتدبَّر كتاب الله الخاتم الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت:٤٢]، يجد عظم مكانة النبيّ ﷺ عند ربّه ورفعة منزلته على كلّ الخلق؛ مبثوثة في سوره وآياته، بل لا نبالغ إن قلنا: يجد ذلك في جل آياته، وكل سوره، بل إن القرآن خطابٌ لمحمد، أو حديثٌ عن محمد، وعن دعوة محمد، ورسالة محمد.

وفي كثير من آيات القرآن تعليم للمؤمنين كيف يكون الأدب معه ﷺ، ففي سورة الحجرات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [الحجرات:١-٥].

وفي سورة الأحزاب: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ﴾ [الأحزاب:٦]، ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب:٢١]، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب:٣٦]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ [الأحزاب: ٥٦، ٦٦].

سورة النور نموذج للأدب مع رسول الله ﷺ:

جاءت سورة النور- ومجالها الأول آداب الأسرة المسلمة والأسرة النبوية- تحمل معها أدبين كبيرين من الأدب مع رسول الله ﷺ:

أولهما: يعمد إلى بيان حقيقة الإيمان بالله ورسوله، فليس كل من قال: آمنتُ بالله ورسوله، أو رضيتُ بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا؛ كان صادق القول، ناطقًا بالحق في هذه الدعوى، إنما المهم أن يثبت ما يؤذِن بحقيقة إيمانه، وأساس يقينه فيما يقول، فهناك علم اليقين، وهناك عين اليقين، وهناك حق اليقين، والمؤمنون يتفاوتون في هذه الساحات العريضة، وفي هذه الآفاق العالية، وفي هذه الدرجات الرفيعة، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَـٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور:٤٧- ٥٢].

والشوط الثاني من سورة النور في أواخر هذه السورة، يتحدث عن أدب أصيل حقًّا من أدب أهل الإيمان الذين يستحقون أن ينسبوا إلى الأدب مع الرسول ومقامه العظيم، وهو ما يسمونه «آداب الكبار» الذين يراعون لكلِّ شيء ذوقه، فالمكان يرتفع بمن فيه، والزمان يرتقي بمن فيه، والحال يستعلي بما يجري فيه،

كما قالوا عن الإمام محمد بن إدريس الشافعي حين زار بغداد، لم يقنت في صلاة الصبح مراعاة للإمام أبي حنيفة.

وكما قالوا عن السيدة عائشة ﵂: إنها كانت ترفع حجابها، بعد موت زوجها رسول الله ﷺ وأبيها أبي بكر ﵁، فلما دُفِن أمير المؤمنين عمر ﵁، بدأت تتخذ الحجاب إذا جاءت أمام القبر[1].

والنص المذكور هنا هو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور: ٦٢، ٦٣].

قال الإمام الشافعي ﵀: «فأعلم الله الناس في هذه الآية أن دعاءهم إلى رسول الله ليحكم بينهم: دعاء إلى حكم الله؛ لأن الحاكم بينهم رسول الله، وإذا سلموا لحكم رسول الله، فإنما سلموا لحكمه بفرض الله.

وأنه أعلمهم أن حكمه حكمه، على معنى افتراضه حكمه، وما سبق في علمه جل ثناؤه من إسعاده بعصمته وتوفيقه، وما شهد له به من هدايته واتباعه أمره. فأحكم فرضه بإلزام خلقه طاعة رسوله، وإعلامهم أنها طاعته. فجمع لهم أن أعلمهم أن الفرض عليهم اتباع أمره وأمر رسوله، وأن طاعة رسوله طاعته، ثم

---

(١) رواه أحمد (٢٥٦٦٠)، وقال مخرجوه: صحيح على شرط الشيخين، والحاكم في المغازي (٣/ ٦١)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٧٠٤): رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح، عن عائشة.

أعلمهم أنه فرض على رسوله اتباع أمره، جل ثناؤه»[1].

والأدب مع رسول الله ﷺ يتمثل في عدة أمور، نستطيع أن نجملها فيما يلي:

١. طاعة الرسول ﷺ:

من الأدب مع رسول الله: طاعته في كل ما أمره به، وينتهي عما ينهاه عنه، ويوفِّي بكل ما يُعهد إليه منه. فقد أوجب القرآن على المسلمين طاعة الرسول بجوار طاعة الله. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء:٥٩]، وجعل طاعته طاعة لله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، وجعل ثمرة طاعته الاهتداء: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾ [النور:٥٤]. كما جعل ذلك في اتباعه: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١٥٨﴾ [الأعراف:١٥٨]. وجعل اتباعه دليلًا على محبة الله ومغفرته: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران:٣١]. وأمرهم باتباعه فيما يأمر وينهى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر:٧].

وأمرهم بالاستجابة لدعوته، واعتبر ما يدعوهم إليه هو الحياة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:٢٤].

وحذَّر من مخالفة أمره: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٦٣﴾ [النور:٦٣].

وأوجب الرجوع إليه عند التنازع: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [النساء:٥٩].

(١) انظر: الرسالة للشافعي ص ٨٢ – ٨٤ ط. الحلبي، ت: أحمد شاكر، ط. الأولى ١٩٤٠م.

ولم يجعل لمؤمن ولا مؤمنة خيارًا في قبول حُكمه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب:٣٦].

وأقسم على نفي الإيمان عمن أعرض عن تحكيمه، أو لم يقبل حكمه راضيًا مُسلِّمًا: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء:٦٥].

وجعل قبول حكمه أو التولي عنه المحكَّ الذي يميِّز الإيمان من النفاق: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النور:٤٧، ٤٨]، ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور:٥١].

ورغَّب في الاقتداء به: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب:٢١].

وأما السُّنَّة، فقد دَلَّت الأحاديث الكثيرة على وجوب اتباعه ﷺ وطاعته:

ومن ذلك ما رواه أبو هريرة أنه قال: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى» قيل: ومَن يأبى يا رسول الله؟ قال: «مَن أطاعني دخل الجنة، ومَن عصاني فقد أبى»(١).

ومن ذلك ما رواه العرباض بن سارية قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجِلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله، كأنها موعظة مُودِّع! فأوصنا. قال: «أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن تأمَّر عليكم

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٢٨٠).

عبدٌ، وإنه مَن يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسُنَّتي، وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديِّين، عَضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومُحدَثات الأمور، فإنَّ كل بدعة ضلالة»[(١)].

فهو يوصيهم أن يرجعوا إلى السُّنَّة عند كثرة الاختلاف، لتجتمع كليمتهم، فلا تضلهم البدع، ولا تتفرق بهم السُّبُل.

ومثل ذلك وصيَّته لهم في حجة الوداع، كما رواها ابن عباس ﷺ: «قد تركتُ فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدًا: كتاب الله، وسُنَّة نبيه»[(٢)].

ومما ينبغي ذكره هنا: الأحاديث التي حذَّرت من دعوى الاستغناء بالقرآن عن السُّنَّة، كما هو شأن قِلَّة من أهل الترف والاسترخاء، كشف النبي ﷺ النقاب عنهم من وراء الغيب، كأنه يشاهدهم رأي العين.

وذلك في قوله ﷺ: «ألا إني أوتيتُ الكتاب ومثله معه، ألا إني أوتيتُ القرآن ومثله معه، ألا يوشك رجل ينثني شبعانًا على أريكته، يقول: عليكم بالقرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرِّموه»[(٣)]. ورواه الترمذي من حديثه أيضًا بلفظ: «ألا هل عسى رجل يبلغه الحديث عني وهو

---

(١) رواه أحمد (١٧١٤٢) وقال مخرجوه: حديث صحيح بطرقه وشواهده، وأبو داود في السنة (٤٦٠٧)، والترمذي في العلم (٢٦٧٦) وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه في المقدمة (٤٢)، وصحَّحه الألباني في صحيح ابن ماجه (٤٠).

(٢) رواه الحاكم في العلم (١/ ٩٣) وقال: احتج البخاري بعكرمة، واحتج مسلم بأبي أويس عبد الله، وله أصل في الصحيح. ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٤٠).

(٣) رواه أحمد (١٧١٧٤) وقال مخرجوه: إسناده صحيح، وأبو داود (٤٦٠٤)، والترمذي في العلم (٢٦٦٤) وقال: حسن غريب، وابن ماجه في المقدمة (١٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٦٤٣)، عن المقدام بن معديكرب.

متكئ على أريكته، فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه حلالًا استحللناه، وما وجدنا فيه حرامًا حرَّمناه، وإنَّ ما حرَّم رسول الله ﷺ كما حرَّم الله»[(1)].

وقال ﷺ: «لا ألفينَّ أحدكم متكئًا على أريكته، يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به، أو نهيتُ عنه، فيقول: لا ندري، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه»[(2)].

٢. تعظيم ما عظمه رسول الله وتحقير ما حقره:

ومن الأدب مع رسول الله: أن تعظِّم ما عظَّمه، وتكرِّم من كرَّمه، وتأتمن من ائتمنه، وتخوِّن من خوَّنه، ولا يجوز أن تقف في موقف مناقض لموقف الرسول ﷺ، بأن يأتمن وأنت تخوِّن، ويعظِّم وأنت تهوِّن، ويشهد للشخص بما يبرِّئه، وأنت تشهد عليه بما يدينه.

وهذا الأدب نجده في قول عمر وهو يُقبِّل الحجر الأسود ويقول: إني لأعلم أنك حجرٌ لا تضرُّ ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يُقبِّلك ما قبَّلتك[(3)].

فإنما قبَّل عمر الحجر الأسود وعظمه؛ لأن رسول الله قبَّله وعظَّمه.

ومن ذلك حديث بريدة قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية، واستعمل علينا عليًّا، فلما جئنا سألنا رسول الله ﷺ: «كيف رأيتُم صحبة صاحبكم؟» قال: فإما شكوتُه أنا، وإما شكاه غيري، فرفعت رأسي وكنتُ رجلًا مِكبابًا، وكنتُ إذا حدثتُ الحديثَ أكببتُ، وإذا النبي ﷺ قد احمرَّ وجهه، فقال: «من كنت وليه فإن عليًّا

---

(١) رواه الترمذي في العلم (٢٦٦٤)، وقال: حسن غريب، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٦٥٧).

(٢) رواه أحمد (٢٣٨٧٦)وقال مخرجوه: إسناده صحيح، وأبو داود في السنة (٤٦٠٥)، والترمذي في العلم (٢٦٦٣)، وابن ماجه في المقدمة (١٣)، والحاكم في العلم (١/١٠٨) وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٣)، عن أبي رافع.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (١٥٩٧)، ومسلم (١٢٧٠)، كلاهما في الحج، كما رواه أحمد (٩٩)، وأبو داود في المناسك (١٨٧٣)، والترمذي في الحج (٨٦٠)، والنسائي في مناسك الحج (٢٩٣٧).

وليُّه، فذهب الذي في نفسي عليه، فقلت: لا أذكره بسوء[(١)].

فبمجرد أن ظهر من النبي ﷺ حبُّ عليٍّ ﷺ ذهب من نفْس بريدة ﷺ ما كان يجده تجاه عليٍّ.

وهذا عبد الله بن عبد الله بن أبيّ بن سلول لما قال أبوه رأس النفاق- كما ذكر القرآن- : ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون:٨]. يعني رسول الله ﷺ وأصحابه، وقف لأبيه في طريقه، وقال له: والله لا تنقلب حتى تُقِرَّ أنك الذليل، ورسول الله ﷺ العزيز. ففعل[(٢)].

بل إن بعض الصحابة غيَّر طبعه الجِبِلِّي في اشتهاء طعام معين لمَّا وجد رسول الله ﷺ يحبُّه، فعن أنس ﷺ، قال: دخلت مع النبي ﷺ على غلام له خياط، فقدَّم إليه قصعة فيها ثريد. قال: وأقبل على عمله، قال: فجعل النبي ﷺ يتتبّع الدُّبَّاء. قال: فجعلت أتتبعه، فأضعه بين يديه. قال: فما زلت بعدُ أحبُّ الدُّبَّاء[(٣)].

ويدخل تحت هذا الباب من الأدب مع رسول الله ﷺ: محبة أصحابه وموالاتهم، وبخاصة السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان ﷺ ورضوا عنه، فعن عمران بن حصين: «خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»[(٤)].

إنهم ذلك الجيل المتميِّز الذي اختاره القدر الأعلى، ليتلمذ في مدرسة محمد ﷺ، ويتلقَّى القرآن منه غضًّا طريًّا، وليأخذ هذا القرآن على أنه منهاج يُتَّبع، فهو يتلقَّاه

---

(١) رواه الحاكم في قسم الفيء (٢/ ١٢٩) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذه السياقة، ووافقه الذهبي.

(٢) رواه الترمذي في التفسير (٣٣١٥) وقال: حسن صحيح.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الأطعمة (٥٤٢٠)، ومسلم في الأشربة (٢٠٤١)، عن أنس.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في فضائل أصحاب النبي (٣٦٥٠) ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٣٥).

للتنفيذ والاتباع، لا لمجرَّد الاستماع، وقد تحمل هذا الجيل القرآني الفريد- كما سمَّاه سيد قطب- عبءَ الدعوة إلى الله، وما تفرضه على أصحابها من معاناة ومسِّ البأساء والضراء والزلزلة، وما يُوجبه ذلك من تحمُّل ضريبة الجهاد بالنفس والمال، فهم أحقُّ الناس بوصف المؤمنين، الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات:١٥].

وهم الذين أثنى عليهم الله تعالى ثناء عامًّا عاطرًا في ختام سورة الفتح: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح:٢٩].

وأثنى ثناء خاصًّا على السابقين الأولين منهم من المهاجرين والأنصار، فقال تعالى في سورة التوبة: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة:١٠٠].

وتحدَّث عن المهاجرين والأنصار بصفة عامَّة، فقال تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنفال:٧٤].

كما تحدَّثت سورة الحشر عن فضل المهاجرين والأنصار، بما يُبيِّن رفيع مكانتهم عند الله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ

ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر:٨، ٩].

وتحدَّث القرآن عن الذين شاركوا في غزوة بدر، ونصرهم الله وهم أذلَّة، وآواهم وأيَّدهم بنصره، ورزقهم من الطيبات لعلهم يشكرون، فقال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾ [آل عمران:١٢٣- ١٢٧]، وقال النبيُّ ﷺ لعُمَر حين ارتكب بعض البدريين خطيئة كبيرة، فقال: دعني أضرب عنقه يا رسول الله، فقد نافق! فقال: «إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعلَّ الله أن يكون قد اطَّلع على أهل بدر، فقال اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم»(1).

وتحدَّث القرآن عن أهل أُحد، ومخالفتهم لوصية رسول الله ﷺ، وفرار بعضهم، فأعلن عفوه عنهم، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [آل عمران:١٥٢]، وقال في السورة نفسها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾ [آل عمران:١٥٥].

وتحدَّث عن غزوة الأحزاب، فقال: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ

---

(1) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٠٧)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٩٤)، عن علي.

رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب:٢٢، ٢٣].

وتحدَّث عن أهل بيعة الرضوان، الذين بايعوا النبيَّ الكريم على الموت في سبيل الإسلام، فقال ﷻ: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح:١٨].

صحيح أن الصحابة مراتب ومستويات في بذلهم وجهادهم، ولكن الله تعالى وسعهم جميعًا بفضله، فقال: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ [الحديد:١٠]، فما أعظم هذا الوعد من ربنا: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾.

هذا الجيل الربّاني القرآني المحمدي العظيم، الذي لم تكتحل عين الدنيا برؤية مثله في الإيمان والاستقامة والصبر على البلاء، والبذل والتضحية في سبيل الله، والزهد في الدنيا من أجل الدين، والأخوَّة في الله، والإيمان بالله تعالى وبنصره للمؤمنين، كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال:٦٢، ٦٣].

والعجيب أن يخرج من بين المسلمين من يعادي هذا الجيل، ويتبرَّأ منه!

ويلعن المؤمن الأول، والصِّدِّيق الأول، والصاحب الأول، ويلعن عمر الفاروق، الذي فرق الله به بين الحق والباطل، ويلعن بعض أزواج النبي ﷺ، ويصم هذا الجيل الفريد بكل منقصة، إلا عددًا محدودًا لا يتجاوز أصابع اليدين، ثم هم بعد كلِّ هذه الضلالات وتلك الترهات، يزعمون أنهم ينصرون رسول الله، وأهل بيته!!

قال الإمام ابن تيمية يبين موقف أهل السنة من الصحابة ومن آل البيت رضوان الله عنهم جميعًا:

«من أصول أهل السنة والجماعة: سلامةُ قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله ﷺ، كما وصفهم الله به في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ۝١٠﴾ [الحشر: ١٠].

وطاعة النبي ﷺ في قوله: «لا تسبُّوا أصحابي. فوالذي نفسي بيده، لو أن أحدكم أنفق مثل أُحُد ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه»[(١)].

ويقبلون ما جاء به الكتاب والسنة والإجماع من فضائلهم ومراتبهم. فيُفضِّلون من أنفق قبل الفتح- وهو صُلْح الحديبية - وقاتل، على من أنفق من بعده وقاتل، ويقدِّمون المهاجرين على الأنصار، ويؤمنون بأن الله قال لأهل بدر- وكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر- : «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»، وبأنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة، كما أخبر به النبي ﷺ[(٢)]، بل قد رضي الله عنهم ورضوا عنه، وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة.

ويشهدون بالجنة لمن شهد له رسول الله ﷺ بالجنة، كالعشرة، وكثابت بن قيس بن شمَّاس، وغيرهم من الصحابة.

ويحبُّون أهل بيت رسول الله رضوان الله عليهم، ويتولونهم، ويحفظون فيهم

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١) كلاهما في فضائل الصحابة، عن أبي سعيد الخدري.

(٢) رواه أحمد (١٤٧٧٨) وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، وأبو داود في السنة (٤٦٥٣)، والترمذي في المناقب (٣٨٦٠) وقال: حسن صحيح، عن جابر بن عبد الله.

وصية رسول الله ﷺ حيث قال يوم غدير خُم: «أذكِّركم الله في أهل بيتي، أذكِّركم الله في أهل بيتي»[1]. وقال أيضًا للعبَّاس عمه وقد اشتكى إليه أن بعض قريش يجفو بني هاشم فقال: «إن الله اصطفى بني إسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشًا، واصطفى من قريش هاشمًا، واصطفاني من هاشم»[2].

ويتولَّوْن أزواج النبي أمهات المؤمنين، ويؤمنون بأنهن أزواجه في الآخرة، خصوصًا خديجة رضي الله عنها أم أكثر أولاده، وأول من آمن به وعاضده على أمره، وكان لها منه المنزلة العالية.

والصِّدِّيقة بنت الصديق رضي الله عنهما، التي قال فيها النبي ﷺ: «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»[3].

ويتبرؤون من طريقة الروافض، الذين يبغضون الصحابة ويسبونهم.

ومن طريقة النواصب، الذين يؤذون أهل البيت بقول أو عمل.

ويمسكون عما شجر بين الصحابة.

ويقولون: إن هذه الآثار المروية في مساوئهم منها ما هو كذب، ومنها ما قد زِيدَ فيه ونُقص وغُيِّر عن وجهه، والصحيح منه هم فيه معذورون، إما مجتهدون مصيبون، وإما مجتهدون مخطئون.

وهم مع ذلك لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم

(١) رواه مسلم في فضائل الصحابة (٢٤٠٨)، وأحمد (١٩٢٦٥)، عن زيد بن أرقم.

(٢) رواه مسلم في الفضائل (٢٢٧٦)، وأحمد (١٦٩٨٦)، عن واثلة بن الأسقع.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤١١)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٣١)، عن أبي موسى الأشعري.

وصغائره، بل تجوز عليهم الذنوب في الجملة، ولهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر منهم إن صدر، حتى إنه يُغفر لهم من السيئات ما لا يُغفر لمن بعدهم؛ لأن لهم من الحسنات التي تمحو السيئات ما ليس لمن بعدهم، وقد ثبت بقول رسول الله ﷺ: إنهم خير القرون، وإن المُدَّ من أحدهم إذا تصدق به كان أفضل من جبل أُحد ذهبًا ممن بعدهم.

ثم إذا كان قد صدر من أحدهم ذنب فيكون قد تاب منه، أو أتى بحسنات تمحوه، أو غفر له بفضل سابقته، أو بشفاعة محمد ﷺ، الذي هم أحق الناس بشفاعته، أو ابتلي ببلاء في الدنيا كفر به عنه. فإذا كان هذا في الذنوب المحققة، فكيف بالأمور التي كانوا فيها مجتهدين: إن أصابوا فلهم أجران، وإن أخطؤوا فلهم أجر واحد، والخطأ مغفور لهم؟

ثم القدر الذي ينكر من فعل بعضهم قليلٌ نـزْرٌ، مغمور في جنب فضائل القوم ومحاسنهم، من الإيمان بالله ورسوله، والجهاد في سبيله، والهجرة والنصرة، والعلم النافع والعمل الصالح.

ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة، وما مَنَّ الله به عليهم من الفضائل علم يقينًا أنهم خير الخلق بعد الأنبياء، لا كان ولا يكون مثلهم، وأنهم هم الصفوة من قرون هذه الأمة، التي هي خير الأمم وأكرمها على الله تعالى»[1].

٣. المخاطرة بالنفس والمال وكل محبوب أدبًا مع رسول الله:

ومن الأدب مع الرسول: أن تكون مستعدًا لتنفيذ أمره، وإن كان فيه مخاطرة بنفسك أو مالك أو ما تحب، كما إذا اقتضاك رسول الله أو سُنَّته أو دعوته: أن

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣/ ١٥٢-١٥٦).

تشارك لإنقاذ جماعة من المسلمين وقعوا في مهلكة، ويحتاجون إلى من ينهض لإنقاذهم مما هم فيه من أسباب الموت والهلاك وفساد الحرث والنسل، فإذا تُلي عليه حديث من أحاديث الرسول الصحيحة، أو نوشد هو ومجموعة أن يُرسَلوا إلى هذه المعركة الخطرة، فلا شك أنه سيكون عند حسن الظن، ولن يسوء ظن قومه فيه أبدًا.

وهذا على النقيض من المنافقين، الذين يهربون من المواجهة، ويختلقون الأعذار، فلا يُوضعون في موضع يعرضهم لأي خطر ولو من بعيد، وإذا حدث لهم أدنى خوف أو أقل قلق ملؤوا الدنيا صياحًا ونواحًا، وإن لم يفقدوا شيئًا. اقرأ في سورة التوبة قدر هؤلاء المنافقين بجوار إخوانهم المجاهدين أصحاب الرسول، قال تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [التوبة: ٨١، ٨٢].

قال الشهيد سيد قطب عليه رحمة الله: «﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ﴾ وهي قولة المسترخي الناعم الذي لا يصلح لشيء مما يصلح له الرجال.

إن هؤلاء لهُم نموذج لضعف الهِمَّة، وطراوة الإرادة، وكثيرون هم الذين يشفقون من المتاعب، وينفرون من الجهد، ويؤثرون الراحة الرخيصة على الكدح الكريم، ويفضلون السلامة الذليلة على الخطر العزيز.

وهم يتساقطون إعياءً خلف الصفوف الجادة الزاحفة العارفة، بتكاليف الدعوات. ولكن هذه الصفوف تظل في طريقها المملوء بالعقبات والأشواك؛ لأنها تدرك بفطرتها أن كفاح العقبات والأشواك فطرة في الإنسان، وأنه ألذ وأجمل من القعود والتخلف والراحة البليدة التي لا تليق بالرجال والنص يرد عليهم

بالتهكم المنطوي على الحقيقة ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ۝٨١﴾.

فإن كانوا يشفقون من حر الأرض، ويؤثرون الراحة المسترخية في الظلال. فكيف بهم في حر جهنم وهي أشد حرًا، وأطول أمدًا؟ وإنها لسيخرية مريرة، ولكنها كذلك حقيقة. فإما كفاح في سبيل الله فترة محدودة في حر الأرض، وإما انطراح في جهنم لا يعلم مداه إلا الله: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٨٢﴾»[1].

وقد أنكرت سورة التوبة على هؤلاء المنافقين تخلُّفهم عن الجهاد بتعلُّلات وأعذار شتَّى يختلقونها، وأشادت بموقف أنصار الحق الذين ثبتوا وصدقوا باذلين كل شيء في سبيل الله ونصرة رسوله، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ۝٨٦ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٨٧ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨٨﴾[التوبة:٨٦- ٨٨].

كلام ابن القيم في الأدب مع الرسول:

كتب الإمام ابن القيم في «مدارج السالكين» في الأدب مع رسول الله ﷺ كلامًا قيِّمًا أحببتُ أن أُضيفه إلى ما كتبناه، لتكتمل الصورة، قال رحمه الله: «وأما الأدب مع الرسول ﷺ، فالقرآن مملوء به.

---

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٦٨٢)، دار الشروق - بيروت- القاهرة، ط: السابعة عشر - ١٤١٢هـ.

١. كمال التسليم له:

فرأس الأدب معه: كمال التَّسليم له، والانقياد لأمره، وتَلقي خبره بالقَبول والتصديق، دون أن يُحمِّله معارضةَ خيالٍ باطل، يسمِّيه معقولًا، أو يُحمِّله شبهة أو شكًّا، أو يُقدِّم عليه آراءَ الرجال، وزُبَالات أذهانهم، فيوحِّده بالتحكيم والتسليم، والانقياد والإذعان، كما وحّد المرسِل ﷺ بالعبادة والخضوع والذل، والإنابة والتوكل.

فهما توحيدان، لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما: توحيد المرسِل، وتوحيد متابعة الرسول، فلا يُحاكِم إلى غيره، ولا يرضى بحكم غيره، ولا يقف تنفيذ أمره، وتصديق خبره؛ على عرضه على قول شيخه وإمامه، وذوي مذهبه وطائفته، ومن يعظِّمه، فإن أذنوا له، نفّذه وقَبِل خبرَه، وإلا، فإنْ طلبَ السلامةَ: أعرض عن أمْرِه وخبرِه، وفوَّضه إليهم، وإلا حرَّفه عن مواضعه، وسمَّى تحريفه: تأويلًا وحملًا. فقال: نؤوله ونحمله.

فلأنْ يلقى العبدُ ربّه بكل ذنب على الإطلاق- ما خلا الشرك بالله- خيرٌ له من أن يلقاه بهذه الحال.

ولقد خاطبتُ يومًا بعض أكابر هؤلاء، فقلت له: سألتُك بالله، لو قُدِّر أن الرسول ﷺ حيّ بين أظهرنا، وقد واجَهَنا بكلامه وبخطابه، أكان فرضًا علينا أن نتَّبعه من غير أن نعرضه على رأي غيره وكلامه ومذهبه، أم لا نتبعه حتى نعرض ما سمعناه منه على آراء الناس وعقولهم؟

فقال: بل كان الفرض المبادرة إلى الامتثال من غير التفات إلى سواه. فقلت: فما الذي نسخ هذا الفرض عنّا؟ وبأيِّ شيء نُسِخ؟ فوضع إصبعه على فيه، وبقي باهتًا متحيِّرًا، وما نطق بكلمة.

هذا أدبُ الخواصّ معه، لا مخالفةُ أمره والشرك به، ورفع الأصوات وإزعاج الأعضاء بالصلاة عليه والتسليم، وعزل كلامه عن اليقين، وأن يُستفاد منه معرفة الله، أو يتلقى منه أحكامه.

بل المعوَّل في باب معرفة الله: على العقول المتهوِّكة المتحيِّرة المتناقضة. وفي الأحكام: على تقليد الرجال وآرائها. والقرآن والسنة إنما نقرؤهما تبرُّكًا، لا أن نتلقى منهما أصول الدين ولا فروعه. ومن طلب ذلك ورامه عاديناه وسعينا في قطع دابره، واستئصال شأفته، ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ۚ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [المؤمنون: ٦٣- ٧٤].

والناصح لنفسه، العامل على نجاتها: يتدبَّر هذه الآيات حقَّ تدبرها، ويتأملها حق تأمُّلها، ويُنزلها على الواقع؛ فيرى العجب، ولا يظنها اختصت بقوم كانوا فبانوا، فالحديث لك، واسمعي يا جارة. والله المستعان.

٢. لا يتقدَّم بين يديه بأمر ولا نهي:

ومن الأدب مع الرسول ﷺ: ألّا يتقدَّم بين يديه بأمر ولا نهي، ولا إذن ولا تصرُّف، حتى يأمر هو، وينهى ويأذن، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ

يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ۝١﴾ [الحجرات: ١]، وهذا باقٍ إلى يوم القيامة ولم يُنسخ، فالتقدم بين يدي سُنَّته بعد وفاته، كالتقدم بين يديه في حياته، ولا فرق بينهما عند ذي عقل سليم. قال مجاهد رحمه الله: لا تفتاتوا على رسول الله[1].

وقال أبو عبيدة: تقول العرب: لا تُقَدِّم بين يدي الإمام وبين يدي الأب، أي: لا تعجلوا بالأمر والنهي دونه[2].

وقال غيره: لا تأمروا حتى يأمر، ولا تَنْهَوا حتى ينهى.

٣. لا ترفع الأصوات فوق صوته:

ومن الأدب معه: ألّا ترفع الأصوات فوق صوته، فإنه سبب لحبوط الأعمال! فما الظنُّ برفع الآراء ونتائج الأفكار على سنَّته وما جاء به؟! أترى ذلك موجبًا لقبول الأعمال؟! ورفعُ الصوت فوق صوته مُوجبًا لحبوطها؟!

٤. ألا يجعل دعاءه كدعاء غيره:

ومن الأدب معه: ألّا يَجعل دعاءَه كدعاء غيره. قال تعالى: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ﴾ [النور: ٦٣].

وفيه قولان للمفسرين:

أحدهما: أنكم لا تدعونه باسمه، كما يدعو بعضكم بعضًا، بل قولوا: يا رسول الله يا نبي الله. فعلى هذا: المصدر مضاف إلى المفعول، أي دعاءَكم الرسولَ ﷺ.

الثاني: أن المعنى لا تجعلوا دعاءَه لكم بمنزلة دعاء بعضكم بعضًا؛ إن شاء أجاب، وإن شاء ترك، بل إذا دعاكم لم يكن لكم بُدٌّ مِن إجابته، ولم يسعْكم التخلفُ

(١) رواه الطحاوي في مشكل الآثار (١/ ٣١٦).

(٢) مجاز القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنى (٢/ ٢١٩)، مكتبة الخانجي — القاهرة، الطبعة: ١٣٨١هـ تحقيق: فواد سزگين.

عنها البتة، فعلى هذا: المصدر مضاف إلى الفاعل، أي: دعاؤه إياكم.

٥. ألّا يذهب حتى يستأذنه:

ومن الأدب معه: أنهم إذا كانوا معه على أمر جامع- من خطبة، أو جهاد، أو رباط- لم يذهب أحد منهم مذهبًا في حاجته حتى يستأذنه؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ [النور: ٦٢] فإذا كان هذا مذهبًا مقيَّدًا بحاجة عارضة لم يُوسَّع لهم فيه إلا بإذنه، فكيف بمذْهَب مطلق في تفاصيل الدين؛ أصوله وفروعه، دقيقه وجليله، هل يشرع الذهاب إليه بدون استئذانه، ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

٦. ألّا يستشكل قوله:

ومن الأدب معه: ألّا يستشكل قوله، بل تُستشكَل الآراء لقوله، ولا يعارَض نصُّه بقياس، بل تُهدر الأقيسة وتلقى لنصوصه، ولا يُحرَّف كلامَه عن حقيقته لخيال يسمِّيه أصحابه معقولًا، نعم هو مجهول، وعن الصواب معزول، ولا يُوقَف قبول ما جاء به على موافقة أحد، فكل هذا من قلة الأدب معه ﷺ، وهو عين الجرأة»[1].

بهذا سنكمل أدبنا مع رسول الله ﷺ، ونظل دائمًا نصغي لما يأتينا من قبله، نصغي إليه، ونسرع في متابعته على بركة الله.

(١) مدارج السالكين (٢/ ٣٦٥-٣٦٨)، نشر دار الكتاب العربي-بيروت، الطبعة الثالثة ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م.

البَابُ الثَّانِي

الأدب مع النفس

الباب الثاني

الأدب مع النفس

على الإنسان أن يبذل جهده ليرقى بنفسه ويزكِّيها، ولا يهملها فيدسِّيها، وهي قابلة لهذا وذاك، فهي مستعدة للفجور استعدادها للتقوى. وإنما ترتقي إلى التقوى بالرياضة والمجاهدة والتزكية والتأديب، كما قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝﴾ [الشمس:٧-١٠].

وكلمة (تزكية) مشتقة من كلمة (زَكَا)، ومعناها لغة: طهر ونما. فهي تتضمن عنصرين: الطهارة والنماء. وتزكية النفس تعني: تطهيرها من عقائد الشرك، ورذائل النفاق، وصفات الأشرار، وتنميتها بعقائد التوحيد، وفضائل المؤمنين، وخصال الأخيار. وهو ما يعبِّر عنه أهل السلوك بـ(التخلية) و(التحلية)، أي التخلية من الباطل في الاعتقاد، والكذب في الأقوال، والسوء في الأفعال، والتحلية بالحق في الاعتقاد، والصدق في الأقوال، والخير في الأفعال.

ولا غرو أن شرع لنا الإسلام أن نجاهد أنفسنا، ونروِّضها على تقوى الله والإحسان للناس، كما روى الإمام أحمد في مسنده، عن فَضَالَة بن عُبيد قال: قال رسول الله ﷺ في حَجَّة الوداع: «ألا أخبركم بالمؤمن؟ مَن أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم. والمسلم: مَن سلِم الناس من لسانه ويده. والمجاهد: مَن

جاهد نفسه في طاعة الله. والمهاجر: مَن هجر الخطايا والذنوب»[1].

ولهذا أوصى المربُّون على اختلاف العصور برياضة النفس، كما يراضُ البدن، ليقوى ويصحَّ، ويقدر على سرعة الحركة، وتحمُّل الخشونة والمعاناة.

بل رياضة النفس أهم من رياضة البدن. يقول أبو الفتح البُستي في نونيته:

يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته ... أتطلب الربح مما فيه خسران؟

أقبل على النفس واستكمل فضائلها ... فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان!

ويقول البوصيري في بردته:

والنفس كالطفل إن تهمله شبَّ على ... حبِّ الرَّضاع، وإن تفطمه ينفطمِ

فاصرف هواها وحاذر أن تولِّيه ... إن الهوى ما تولَّى يُصْم أو يَصِمِ

معنى: يُصْم: يقتل. ومعنى: يَصِم: يعيب. من وصمه أي عابه، فاتباع الهوى إما يهلكك وإما يَشينك.

وهذا كله يحتاج إلى مجاهدة، والمجاهدة إذا كانت في ذات الله، ومن أجل ابتغاء مرضاته: فهي لا بد موصِّلة إلى ثمرتها، وَفْق سنن الله سبحانه، وهي الهداية الربانية، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٦٩﴾ [العنكبوت:٦٩]، ومعنى ﴿جَٰهَدُواْ فِينَا﴾: أي في ذاتنا وفي سبيلنا وابتغاء مرضاتنا.

---

(١) رواه أحمد في المسند (٢٣٩٥٨)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح، والترمذي في الجهاد (١٦٢١) وقال: حسن صحيح، وابن حبان في السير (١٠/ ٤٨٤)، والطبراني في الكبير (١٨/ ٣٠٩)، والحاكم في الإيمان (١/ ٥٤)، وصحَّحه على شرط مسلم، وسكت عنه الذهبي، والبيهقي في الشعب باب أن يحب الرجل لأخيه المسلم... (٧/ ٤٩٩).

يصف الإمام الغزالي هذه النفس، فيقول: إنها في حالة الشهوة بهيمة، وفي حال الغضب سَبُع، وفي حال المصيبة تراها طفلًا صغيرًا، وفي حال النعمة تراها فرعونًا، وفي حال الجوع تراها مجنونًا، وفي حال الشِّبَع تراها مختالًا! إن أشبعتها بطِرت وفرحت، وإن جوَّعتها صاحت وجزِعت، فهي كما قال الأول:

كحمار السوء إن أشبعته ... رَمَح الناس(١) وإن جاع نَهَق!(٢)

ولهذا حذَّر القرآن الكريم من اتباع هوى النفس، كما قال تعالى لداود: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص:٢٦]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص:٥٠]. وقال في ذمِّ المنافقين: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾ [محمد:١٦]. وقال لرسوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف:٢٨].

وجعل اتباع الهوى ضربًا من الشرك، إذا اتَّخذ المرء إلهه هواه، كما قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان:٤٢، ٤٣].

وفي سورة أخرى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية:٢٣].

ولهذا قال ابن عباس: شرُّ إلهٍ عُبِدَ في الأرض الهوى.

وعلى المؤمن أن يجرِّد نفسه من اتباع الهوى أو (عبادة الذات)، حتى يَخلُص

(١) أي رفسهم.

(٢) انظر: منهاج العابدين للغزالي ص ١٧٩، ١٨٠. تحقيق د. محمود مصطفى حلاوي. نشر مؤسسة الرسالة. بيروت، والبيت لصالح بن عبد القدوس.

عبدًا لله وحده لا لشيء غيره، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ۝ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

وكل تحرير يلزم أن يسبقه جهاد من نوعه، فمَن لم يجاهد لم يتحرَّر.

وقد بيَّن الإمام الغزالي(١) صعوبة جهاد النفس الأمَّارة بالسوء، المعادية لسعادة الإنسان، من وجهين:

الأول: أنها عدو من الداخل. واللص إذا كان من داخل الدار كان الاحتراس منه أصعب. وفي هذا يقول الشاعر الصالح:

نفسي إلى ما ضرَّني داعي ... تهيج آلامي وأوجاعي

كيف احتيالي من عدوي إذا ... كان عدوي بين أضلاعي(٢)؟!

الثاني: أنها عدو محبوب. وإذا كان المرء يحبُّ عدوه، فكيف يقاومه؟!

يقول الغزالي: والإنسان عَمٍ عن عيب محبوبه، لا يكاد يبصر عيبه، كما قال القائل:

ولستَ ترى عيبًا لذي الوُدِّ والإخَا ... ولا بعضَ ما فيه إذا كنتَ راضيًا

وعينُ الرضا عن كلِّ عيب كليلةٌ ... كما أنَّ عينَ السُّخط تُبدي المساويا(٣)

فإذن يستحسن الإنسان من نفسه كل قبيح، ولا يكاد يطلع على عيب لها، وهي في عدوانها وإضرارها، فما أوشك ما توقعه في كل فضيحة وهلاك، وهو لا يشعر، إلا أن يحفظه الله تعالى بفضله، ويعينه عليها برحمته(٤).

---

(١) انظر: منهاج العابدين للغزالي ص ١٧٩، ١٨٠.

(٢) البيتان للعباس بن الأحنف.

(٣) البيتان لعبد الله بن معاوية. انظر: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي ص ٣٢٧، وقال: هو أول من ذكر (عين الرضا) في شعره، وأرسل مثلًا.

(٤) انظر: منهاج العابدين للغزالي ص ١١٩.

وإذا وُفِّق المرء في جهاد نفسه: انتقلت من حالة إلى حالة، وارتفعت من درجة إلى درجة.

وما أجمل ما قاله الماوردي: «اعلم أنّ النّفس مجبولة على شِيَم مهملة، وأخلاق مرسلة، لا يستغني محمودها عن التّأديب، ولا يُكتفى بالمرضيّ منها عن التّهذيب؛ لأنّ لمحمودها أضدادًا مقابلة، يساعدها هوى مطاع، وشهوة غالبة، فإن أغفل تأديبها تفويضًا إلى العقل، أو توكُّلًا على أن تنقاد إلى الأحسن بالطَّبع، أعدمه التّفويض دَرَك المجتهدين، وأعقبه التّوكُّل ندم الخائبين، فصار من الأدب عاطلًا، لأنّ الأدب مكتسب بالتّجربة، أو مستحسن بالعادة، ولكلّ قوم مواضعة، وكلّ ذلك لا ينال بتوقيف العقل، ولا بالانقياد للطّبع، حتّى يكتسب بالتّجربة والمعاناة، ويستفاد بالدّربة والمعاطاة، ثمّ يكون العقل عليه قيّمًا، ولو كان العقل مغنيًا عن الأدب لكان أنبياء الله عن الأدب مستغنين وبعقولهم مكتفين»[1].

(١) أدب الدنيا والدين، للماوردي، ص ٢٦٦، نشر: بيروت، دار الريان للتراث، ط: الأولى، ١٤٠١هـ.

الفصل الأول

أدب المسلم

في التبصر وتكوين الرأي والنهج

مِن القِيم الأصيلة، والفضائلِ الكريمة، والآداب الحميدة، التي دعا إليها الإسلام، وربَّى أبناءه عليها: تحرِّي الحق، والتبصُّر في تكوين الرأي، والتثبُّت فيه، حتى لا يجرفَه الباطل، أو تتشعب به أودِيَة الضلال، فيعمى عليه الطريق، ويهلك مع الهالكين.

السبيل إلى معرفة الحق:

والسبيل إلى معرفة الحق، وتكوين الرأي السديد في أمْر مِن الأمور: أن يجرِّد المرءُ نفسه – ما استطاع – مِن كلِّ رأي سابق، وأن يستعمل عقلَه في البحث والموازنة والترجيح، مُهتديًا بما آتاه الله مِن هدًى وعلم، ومنتفعًا بتجارب الآخرين وثمرات عقولهم، من غير تقديس لأيِّ بشر غيرِ معصوم عن الخطأ، إلا ما جاء من الله ورسوله ﷺ في غير شؤون الدنيا وفنياتها، فليس له إلا أن يقول: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥]. أما ما جاء في أمور الدنيا المحضة، كما قاله الرسول الكريم في تأبير النخل، حيث نهاهم عن تأبير النخل، وظنوا هذا وحيًا من الله، فتركوا التأبير، فلم ينتج النخل في هذا العام، فقال النبي ﷺ: «إنما ظننتُ ظنًّا

فلا تؤاخذوني بالظن، أنتم أعلم بأمر دنياكم»[(1)].

الرجوع إلى الله ورسوله في أمور الدين:

والمطلوب من المسلم أن يرجع إلى الله ورسوله في كل ما يتعلق بأمر الدين، ومعرفة هداه وأحكامه الكليَّة والجزئيَّة، والأصليَّة والفرعيَّة، في العقائد والعبادات والمعاملات، والتشريع الفردي والأسري والمجتمعي العام، وكذلك الأخلاقيَّات والعقوبات الدينيَّة، فتؤخذ مما جاء به المعصوم من الكتاب والسنة، ولا يتوقف في ذلك المسلم المستقيم، ولا يتلعثم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝﴾ [النور: ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ۝﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وكل رأي في ناحية من النواحي له طُرقه ووسائله التي يُوصَل إليه مِن طريقها، فالحكم الدينيُّ له طُرقٌ معرفتِه من الكتاب والسُّنَّة، والقياس عليها، والإجماع الحقيقي المتيقَّن. ومن ذلك: علوم العقيدة والشريعة والسلوك الإسلامي. وكل علم له منهجه، وله أصوله، وله مراجعه وكتبه، وله وسائله وطرقه، وله أهله وعلماؤه.

ومن أراد أن يطلب علمًا من هذه العلوم، فليسأل أهل الذكر والخبرة فيها، وليدخُلها من بابها، وليطلُبها ممَّن يحسنها، وليصبر عليها. ولا يحسب أن العلم لُعبة يلعب بها من يريد، بل هو رسالة كبيرة، تتطلب تفرُّغًا وإرادة وتعبًا وتحصيلًا حتى تصل إلى بعض ما تريد، كما قال الشاعر:

---

(١) رواه مسلم في الفضائل (٢٣٦٣)، عن عائشة. وينظر: هذا البحث بطوله في كتابنا: «كيف نتعامل مع السنة؟» ص١٤٦ وما بعدها.

بقدر الجدِّ تكتَسب المعالي ومن طلب العلا سهر الليالي[1]

والرأي في المجال العلمي له طُرقه العلمية المعروفة من الملاحظة والتجربة، يستوي في ذلك علوم البر وعلوم البحر وعلوم الفلك. وما عُرف منها سُطِّر في كتبه، وقام عليه رجاله، وتخصص فيه المتخصصون، ونبغ فيه النابغون.

والرأي الاجتماعي والاقتصادي له طرقه التي يتوصَّل بها أهله، إلى معرفتِه باقتفائها. فكُلُّ علم يستطيع البشر أن يحصِّلوه من أهله، ويعرفوه مِن خبرائه، ومَن سار على الدرْب وصل.

عوائق في سبيل تكوين الرأي:

ولا يتمُّ لنا بيانُ معرفة الطريق الصحيح لمعرفة الحق، وتكوين الرأي الصائب في أيِّ أمر، إلا إذا عرفنا العوامل المعوِّقة، والعقبات التي تحُول بين الناس وبين الرأي الرشيد، وتضلِّلُهم عن الاهتداء إلى الحق واستبانة طريقه.

ويمكننا أن نُجْمِل هذه العوامل المعوقة في أربعة:

١- التسرُّع في تكوين الرأي بالظنِّ، والتخمين دون دليل مُقنِعٍ شافٍ.

٢- اتِّباع هوى النفس وعواطفها.

٣- التهجُّم على القول بما لا يعلمه الإنسان ولا يُحسنه غرورًا وادِّعاءً.

٤- التقليد الأعمى لأفكار الآخرين وآرائِهم بلا بصيرة ولا تمييز.

وسنتحدث عن كل عائق من هذه الأربعة:

---

(١) من شعر الإمام الشافعي.

العائق الأول: اتِّباع الظنِّ والتخمين في موضع اليقين:

هناك مسائِل صغيرة، وجزئيات يسيرة في الحياة، يكفِي الإنسان فيها أن يحكم بالظنِّ الغالب، ما دام لا يترتَّب على ذلك ضررٌ بأحد.

أمَّا الآراء الخطيرة، التي تتعلّق بمعتقدات الإنسان، واتجاهه الأساسي الفكري، وتحديد علاقته بالله وبالكون، وبالناس والحياة، فلا يكفي فيها الظنُّ والتخمين. بل لا بد مِن اليقين القائم على البُرهان العقليّ والدليل العلميّ. وهذا الذي يقوم عليه اليقين الديني.

ولهذا خاطب القرآنُ أصحابَ المعتقدات الباطلة ناعيًا عليهم الإيمان بما لا يقوم عليه دليل، ولا يسنده برهان، ولا يؤيِّده علم ولا كتاب، بمثل هذه الآيات الكريمة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ۝٨﴾ [الحج:٨]، ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝١١١﴾ [البقرة:١١١]، ﴿نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝١٤٣﴾ [الأنعام:١٤٣]، ﴿قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ۝١٤٨﴾ [الأنعام:١٤٨].

وكذلك حين ناقش القرآن المشركين أو أهل الكتاب من اليهود والنصارى في عقائدهم التي يؤمنون بها، والتي ورثوها عن آبائهم، لم يستطيعوا أن يدافعوا عنها، وألزمهم القرآن بالحُجج الدامغة، والبيِّنات البالغة، فلم يجدوا جوابًا، كما قال تعالى للمشركين: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦﴾ [الطور: ٣٥- ٣٦].

وكما قال اليهود للنصارى: لا يدخل الجنة إلا من كان يهوديًّا. وردَّ عليهم النصارى فقالوا: لن يدخل الجنة إلا مَنْ كان نصرانيًّا. فردَّ عليهم القرآن بأن الجنَّة ليست بالعناوين، ولا بالكلام، ولا بمجرَّد الأسماء. قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ

ﵟٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١١١ بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١١٢ﵞ [البقرة: ١١١ - ١١٢].

ومِن هنا لا يجوز للإنسان أن يكوِّن رأيًا في مبدإٍ أو عقيدة أو قضيَّة دينيَّة، أو علميَّة، أو اجتماعيَّة، دون مقدِّمات كافية، وأدلة شافية. أمَّا الاعتماد على الظنِّ والخرْص والتخمين: فهو ليس شأن المسلم الذي علمه القرآنُ وربَّاه، إنما هو شأن المشركين والكُفَّار المعاندين، الذين أنكر عليهم القرآنُ طريقتهم، وحَمَلَ عليهم لإلغائهم عقولهم، واتباعهم الظن في مقامٍ لا يُغني فيه إلا الجزمُ واليقين.

قال تعالى في شأن المشركين: ﵟوَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚﵞ [يونس:٣٦]، ﵟوَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا ٢٨ﵞ [النجم:٢٨].

وقال تعالى في شأن النصارى، واعتقادهم في شأن المسيح وصلبه: ﵟمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚﵞ [النساء:١٥٧].

وقال الرسول ﷺ مخاطبًا المسلمين، ومُوجِّهًا: «إيَّاكم والظنَّ؛ فإن الظنَّ أكذب الحديث»[1].

العائق الثاني: اتِّباع الهوى:

وفي القرآن أن الله تعالى قال لداود: ﵟيَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚﵞ [ص: ٢٦]. فحذَّر الله داود من اتِّباع هواه، فيبعده عن الحق، وعن طريق الله المستقيم.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في النكاح (٥١٤٣)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٦٣)، عن أبي هريرة.

ومعنى اتِّباع الهوى: أن يجعل الإنسانُ عقلَه تبَعًا لشهواتِه، وميوله الخاصَّة، ومنافعه الذاتيَّة، ومطامعه الشخصيَّة، وتطلعاته الحزبيَّة أو الطائفيَّة أو القوميَّة. فما وافق ذلك من الآراء: قَبِلَه وأسرعَ إليه، وأعلن أنه الحق والصواب. وما خالف ذلك أعرض عنه، ونأى بجانبه. هذا الهوى إذا غلب على المرء: يُعمِيه ويُصمُّه، فلا يميِّز حقًّا مِن باطلٍ، ولا يعرف هدًى من ضلال، ولا خيرًا من شر. وهذا هو الهوى الذي دفع أحد ابنيْ آدم وهو الأخ الشرير إلى قتل أخيه الطيِّب حين تقبل الله هَدْيه وقربانه، ولم يتقبَّل هَدْي الأخ الظالم الخبيث وقربانه، قال تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٢٧ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٨﴾ [المائدة: ٢٧ - ٢٨].

لهذا يحذِّر الحكماء والأدباء والمربُّون من اتِّباع هوى النفس الأمَّارة بالسوء. يقول البوصيري في بردته:

وخالف النَّفس والشَّيطان واعصهما ... وإن هما محَّضاك النّصح فاتّهمِ

ولا تطع منهما خصمًا ولا حكمًا ... فأنت تعرف كيد الخصم والحَكَمِ

وقال شاعر قديم:

نونُ الهوانِ من الهوى مسروقةٌ ... فصريع كل هوًى صريع هوان(١)

من أمارات اتِّباع الهوى:

ومن أماراتِ اتباع الهوى: أن يتحيَّز الإنسان لرأي في حادثة أو قضية أو عقيدة، ثم يحاول أن يلتمس له الأدلة والأسانيد، وإن كانت واهية، فهو يكوِّن

(١)- من شعر أبي تمام.

الرأي، ثم يبحث له عن دليل. والمنهج السديد: أن يبحث عن الدليل أولًا، ثم يكوِّن الرأي ثانيًا.

إن الهوى حجابٌ بين العقل الإنساني ورؤية الأمور على حقيقتها، فصاحب الهوى يُكوِّن الأشياء ويُكيِّفُها ويُفسِّرُها تَبَعًا لهواه، وبهذا قد يكون للشيءِ الواحد عند الإنسان الواحد عشرة ألوان، أو مائة لون ولون، وللواقعةِ الواحدة عشرة تكييفات، أو مائةُ تكْيِيف وتكْيِيف، وللنص الواحد عشرة تفسيرات، أو مائة تفسير وتفسير، تَبَعًا لأهواء الأنفس المتعدِّدة، وليس بين هذه الآراء المُتعددة رأيٌ أصلح من رأي، ولا تفسيرٌ أولى مِن تفسير؛ لأنها كلها مبنيَّة على الهوى، وليس هواي أفضل من هواك، ولا هواك بأفضل من هواي، وليس هوى زيدٍ بأفضلَ من هوى عمرٍو، فكلها أهواء طائرة في الهواء.

ومِن هنا حذَّر القرآنُ مِن اتِّباع الهوى، وذمَّهُ في آيات كثيرة، وقد ذكرنا قوله تعالى يُخاطب نبيَّه داود عليه السلام: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص:٢٦]. وقد ذكر الله ذلك لداود حين حكم بين الخصمَيْن اللذين احتكما إليه، وسارع فحكم على أحدهما بسرعة، دون أن يستمع إلى حجَّته، ويعرف ما عنده، ولا بد للقاضي أن يستمع من الطرفين، والناس يقولون في أمثالهم: إذا أتاك أحد الخصمين وعينه مقلوعة، فلا تحكم له قبل أن ترى الآخر، فلعلك ترى عينيه مقلوعتين.

وقال تعالى يُخاطب رسوله محمدًا ﷺ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص:٥٠]. وفي مقام آخر قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ

﴿ هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [الجاثية: ١٨- ٢٠]. فهذا تحذير من أهواء المشركين.

وهناك تحذير من أهواء أهل الكتاب: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وتحذير آخر من أمثالهم: ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [المائدة: ٤٩].

فهو مطالب أن يحكم بكل ما أنزل الله إليه، وليس جائزًا له أن يأخذ البعض ويترك البعض تبعًا لهواه أو أهوائهم. فالشريعة هي الخروج من الهوى البشري كله، سواء أكان هوى المرء الشخصي، أم أهواء الآخرين، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۚ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٦]، وقال تعالى يخاطب خاتم رسله: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢- ١٦٣].

ولذا قال تعالى لنبيه مُحذِّرًا: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال ﷻ في ذمِّ المنافقين: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٦].

وكما حذَّر القرآن من اتِّباع أهواء الآخرين من أعداء المسلمين الذين يضلونهم عن سبيل الله، حذَّرهم أن يتَّبعوا هوى أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٣]

وقد ذمَّ الله عَبَدَةَ الأصنامِ بجمعهم بين الخِسَّتَيْنِ: «اتِّباع الظن» و«اتِّباع الهوى»، فقال تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم:٢٣].

ووصف القرآنُ مُتَّبِعِي الهوى بأقبحِ الأوصاف وأشنعها، وجعلهم في منزلة الأنعام التي لا تفقه ولا تُميِّز: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان:٤٣- ٤٤].

وإنما كانوا أضل من الأنعام؛ لأن الأنعام لم تُؤْت ما أوتوا من العقول الهادية، والضمائر الموحية، والأديان المبصِّرة بالحق، الداعية إلى الخير، الباعثة على الرشد. ومع هذا لم تبلغ الأنعام في الشر والغي ما بلغ البشر، فهي تؤدي مهامها في الأرض. فهل رأيت بقرة تمردت على أن تحلب، أو فرسًا تمرَّد على أن يُركب؟! ولهذا كان الإنسان أضل منها سبيلًا.

العائق الثالث: التقليد الأعمى:

ومن أخطر الآفات في تكوين الرأي الصواب، والاعتقاد الحق: التقليد الأعمى. وهو الذي لا يعي ولا يبصر، ولا يميِّز.

ومعنى التقليد: ألَّا يكون الإنسان تابعًا لعقله هو، الذي وهبه اللهُ له ليفكِّرَ به، بل لعقل غيره، فيسلِّم لغيره هذا زمامَ نفسِه، يدور في فَلَكِه، ويَحْطِبُ في حبْله، ويُقدِّم أفكارَه وإن كانت فاسدة، ويقدس أقواله وإن كانت حُمْقًا وضلالًا، وقد نعَى الإسلامُ على المقلِّدين كافة، وذمَّ كل أنواع التقليد أيًّا كان: المقلَّد والمقلِّد.

أنواع التقليد المذموم:

والتقليد أنواع كثيرة عرفها الناس، واعتقدوها، وأورثوها لذريَّاتهم من بعدهم، يأخذها بعضهم من بعض، فمنها:

تقليد الآباء والأجداد:

تقليد الأبناء والأحفاد للآباء والأجداد، في اعتقاداتهم وأفكارهم وتقاليدهم، دون نظر فيها، ولا تمْيِيز بين صحيحها وسقيمها، وحقِّها وباطلها، إبقاءً لكل قديم على قدمه.

وقد كان هذا التقليد الأعمى مِن أكبر العقبات في سبيل دعوات الرسل عامَّة، والدعوة الإسلامية خاصَّة، ولهذا ذمَّ الله مشركِي العربِ بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۚ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة:١٧٠- ١٧١].

ومن قبلُ قال قومُ هودٍ له: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [الأعراف:٧٠]. وقال قومُ شعيبٍ: ﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [هود:٨٧].

وقال كل قومٌ مِن الأقوام لرسلِهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [إبراهيم:١٠].

وقرَّر القرآنُ هذه الحقيقة قاعدةً عامة، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف:٢٣].

تقليد الزعماء والكبراء:

ومنه تقليد العامة للرؤساء والكبراء، فيصبح المقلِّد ذنبًا لزعيم القبيلة أو البلد أو الحزب أو المذهب أو الأمة، يقول، فيسمعون، ويأمُر، فيُطيعون. يعمل التافة من الأمور، فيضخِّمونه، ويرتكب الخطير من الأخطاء أو الخطايا، فيهونونه، بل يُبرِّرونه. كلُّ ما يقوله صدْق، وكلُّ ما يراه حق، وكلُّ ما يفعله جميل.

هؤلاء الناس سُكارى، قد أضاعوا عقولهم، وألغوا تفكيرهم، وانقادوا انقياد الأعمى، وقدَّسوا أشخاصًا غير معصومين، فلا عجب أن حمل القرآنُ عليهم، وبين ضلالهم، وحمَّلهم أوزار انقيادهم الأعمى، وإلغاء عقولهم: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب:٦٦- ٦٨].

وقد ذكر القرآن في سورة البقرة تلاومَهم يوم القيامة، وبراءة بعضهم من بعض، ومحاولة كل فِئة إلقاء اللوم على الفئة الأخرى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة:١٦٦- ١٦٧]، وكذلك في سورة الأعراف: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأعراف:٣٨].

وفي سورة سبأ تفصيل لمواقف الرؤساء والقادة والمتبوعين، ومواقف المرؤوسين والعامة والتابعين، رد بعضهم على بعض: مَن المسؤول؟ ومن يتحمل التبعة؟ تقرأ ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم

مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سبأ: ٣١- ٣٣].

التقليد العلمي والمذهبي:

وممَّا ذمَّه الإسلامُ في هذا الباب: التقليدُ العلمي، كالتقليد في المعتقدات، كأنْ يقلد المذهبَ المعتزلي، أو مذهب المرجئة، أو الشيعة، أو المشبِّهة، أو المجسِّمة، أو غير ذلك من أصحاب المقولات الشنيعة على الإسلام، وما أكثرها!

وكالتقليد في المذاهب الفقهيَّة- لمن له أهليَّة الاجتهاد والترجيح- وهو أخفُّ من التقليدات الاعتقاديَّة، فيتَّبع هذا المذهبَ الحنفيَّ، وآخرُ المالكيَّ، وآخر الشافعي، وآخر ابنَ حنبل، أو الثوريَّ، أو الطبريَّ، أو غير ذلك، وهو يتبعه دون أن يعرِف حُجَّته، ويقتنع بصحَّتِها وتقديمها على غيرها، ولكنه مقتنع بأحقِّيَّة تقليدِه في كل ما قاله.

يقولون: هذا عندنا غيرُ جائزٍ ومَن أنتمو حتى يكون لكم «عندُ»؟[1]

وكالتقليد في طرق السلوك إلى الله، فهذا قادريٌّ، وهذا شاذليٌّ، وهذا نقشبندي، وهذا بُرهاني، وهذا أحمديٌّ، وهذا تيجاني... إلى آخر هذه الطُّرق وما يتفرَّع منها.

وقد تحدثنا عن هذا التقليد ومتى يجوز، ومتى لا يجوز في أحد كتبنا في شرح الأصول العشرين للإمام حسن البنا، وهو كتاب «كيف نتعامل مع التراث والتمذهب والاختلاف»[2]، وبيَّنَّا هناك بالشرح والأدلة: أن العاميَّ الذي لا يستطيع قراءةَ الأدلة ومعرفة أغوارها، وما فيها من أسئلة شائكة، وما تحتاج إليه

(١) من شعر ابن نباتة المصري.

(٢) ص٦٢، وما بعدها. مكتبة وهبة، الطبعة الثانية ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م.

من أوقات جمَّة، ومن إجابات صعبة، فله أن يتَّبع إمامًا مِن أئمة الدين في فروع الاعتقاد، أو في الفقه، أو في السلوك. ويَحْسُنُ به مع هذا أن يتعرَّف على أدلَّة إمامه ما استطاع، ويتعرَّف على كل إرشاد مصحوب بالدليل، إذا صحَّ عنده صدق من أرشده وقوة علمه، وأن يستكمل نقصه العلمي بالدراسة المنتظمة، في مجالات العلم على أهلها ووسائلها، إن كان من أهل النظر وطُلَّاب العلم، حتى يصل ما استطاع إلى الاستقلال.

تحذير ابن الجوزي من خطر التقليد:

ونُحَذِّرُ هنا مما حذَّرنا منه الإمامُ ابن الجوزي في كتابه النقدي القيم: «تلبيس إبليس» مِن ظلمة التقليد وخطره على العقل المسلم إذا انفرد به، قال رحمه الله: «دخل إبليس على هذه الأمة في عقائدِها من طريقين:

أحدهما: التقليدُ للآباء والأسلاف.

والثاني: الخوض فيما لا يُدْرَكُ غَوْرُه، ويَعجِز الخائض عَن الوصول إِلَى عُمْقِه. فأوقع أصحابَ هذا القسم في فنون من التخليط.

فأمَّا الطريق الأول: فإنَّ إبليس زيَّن للمقلِّدين أنَّ الأدلة قد تَشْتَبِه، والصواب قد يخفى، والتقليد سليم، وقد ضلَّ في هذا الطريق خلْقٌ كثير، وبه هلاكُ عامةُ الناس، فإنَّ اليهود والنصارى قلَّدوا آباءهم وعلماءَهم، فضلُّوا، وكذلك أهلُ الجاهلية.

واعلمْ أن العلَّة التي بها مدحوا التقليدَ بها يُذَم؛ لأنَّه إذا كانت الأدلة تشتبه، والصواب يخفَى، وجَبَ هجْرُ التقليد لئلَّا يُوقِع في ضلال، وقد ذمَّ اللهُ تعالى الواقفين مع تقليد آبائهم وأسلافهم، فقال عز وجل: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ۝٢٢ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا

وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ [الزخرف:٢٢- ٢٤]، وقد قال ﷻ: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الصافات:٦٩- ٧٠].

واعلمْ أن المقلِّد على غير ثقةٍ فيما قلَّد فيه، وفي التقليد إبطالُ منفعةِ العقل؛ لأنه إنما خُلِق للتأمُّل والتدبُّر، وقبيحٌ بمَن أُعطِي شمعةً يستضِيء بها أن يُطفِئها ويمشي في الظلمة.

واعلم أن عُموم أصحاب المذاهب يعظُم في قلوبهم الشخصُ، فيتَّبعون قوله من غير تدبُّر بما قال، وهذا عين الضلال؛ لأنَّ النظر ينبغي أن يكون إِلَى القول لا إِلَى القائل، كما قال علي ﷺ للحارث بن حوط، وقد قال له: أتظن أنَّا نظُنُّ أن طلحة والزبير كانَا على باطلٍ؟ فَقَالَ لَهُ: يا حارث، إِنَّهُ ملبوس عليك، إن الحق لا يُعرف بالرجال، اعرف الحق تعرف أهله.

وكان أحمد بن حنبل يقول: مِن ضِيق علمِ الرجل أن يقلِّد في اعتقاده رجلًا»[(١)].

ونقول هنا: يطلب من العامِّي أن يبذل جهده المستطاع والمعذور عليه في اختيار من يقلده، فالعالم المجتهد يُحسن الترجيح بين الأدلة، وعلى المقلِّد أن يحسن الاختيار بين المجتهدين، يقول الإمام القرطبي في تفسيره: «فرض العامي الذي لا يشتغل باستنباط الأحكام من أصولها لعدم أهليته فيما لا يعلمه من أمر دينه ويحتاج إليه: أن يقصد أعلم من في زمانه وبلده، فيسأله عن نازلته، فيمتثل فيها فتواه، لقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل:٤٣]، وعليه الاجتهاد في أعلم أهل وقته بالبحث عنه، حتى يقع عليه الاتفاق من الأكثر من

(١) تلبيس إبليس لابن الجوزي ص ٧٤- ٧٥ ط: دار الفكر، لبنان، ط. الأولى، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

الناس»[1].

والذي نراه أنه يكفي أن يسأل العالم الذي يحسن فهم الأدلة وتنزيلها على وقائعها، والذي شهد له أهل العلم بالإجادة والإتقان، وظهر من حاله تقوى الله وفعل الطاعات والبعد عن المحرمات.

اتباع التقاليد الفاسدة:

ومن التقليد المذموم: تقليد الشخصِ لما يسُود في المجتمع عامَّة، مِن أعراف وإنْ كانت ضالة، ومِن تقاليدَ وإن كانت فاسدة، ولا يستخدم عقلَه الذي ميَّزه اللهُ به عن سائر الحيوانات في التمييز بين الأفكار.

وقد حذَّر الرسول ﷺ من هذا اللون من التقليد والتَّبعيَّة، وذوبان الشخصية، وحثَّ المسلم على التحرُّر منه؛ ليكون مستقلَّ الفِكر، حرَّ الرأي، لا تابعًا لكُلِّ ناعق، ولا مائلًا مع كل ريح، فقال في ذلك: «لا تكونوا إمَّعة، تقولون: إن أحسن الناس أحسنَّا، وإن ظلموا ظلمنا. ولكن وطِّنوا أنفسكم، إنْ أحسن الناس أن تُحسنوا، وإن أساؤوا فلا تظلموا»[2].

العائق الرابع: الغرور وادِّعاء المعرفة:

ومما يُوقع الإنسانَ في خطأِ الرأي، وضلالِ الاعتقاد، وسوء التقليد: ادِّعاء المعرفة، والتهجُّم على ما لا يُحسنه ولا يعلمه، مع أن الواجب هنا أن يرجع إلى أهل الاختصاص في اختصاصِهم، ويستفتي أهلَ الخبرة فيما هو من شأنِهم، كما

---

(1) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٢١٢) ت: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، نشر: دار الكتب المصرية - القاهرة، ط: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

(٢) رواه الترمذي في البر والصلة (٢٠٠٧) وقال: حسن غريب، والبزار (٢٨٠٢)، وضعَّفه الألباني في ضعيف الجامع (٦٢٧١)، عن حذيفة بنْ اليمان. ولكنه يتماشى مع القواعد العامة والمبادئ الكليَّة في الإسلام.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء:٨٣]. وقال سبحانه: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝﴾ [النحل:٤٣]. وقال تعالى: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ۝﴾ [الفرقان:٥٩]. وقال ﷻ: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ۝﴾ [فاطر:١٤].

أما الذي يُنصِّب مِن نفسِه أستاذًا في كُلِّ عِلْمٍ، ومرجعًا في كلِّ فنٍّ، ومفتيًا في كل قضية، فقلَّما يصدر عنه إلا الخطأ والجهلُ والضلال، بل إنَّ أهل الاختصاص أنفسَهم لتعْرِض لهم بعضُ المسائل فيما هو من اختصاصهم، فلا يعرفونها، ولا يجدون لها جوابًا شافيًا علِموه. وأدب الإسلام حينئذٍ ألا يستحْيِي العالمُ من قول: لا أدري، وليس في العِلم كبير، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ۝﴾ [يوسف:٧٦].

وقد سُئل الإمامُ مالك ﷺ، عن عدد من مسائل الفقه، فكان جوابه عنها: لا أدري.

ولكن إذا كثر الجهل، ادَّعى كل جاهل أنه عالم، فكثر الأدعياء، وقلَّ الأصلاء، واختلط الحابل بالنابل، وحدَث ما حذَّر منه النبي ﷺ حين قال: «إنَّ الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبقِ عالمًا، اتَّخذ الناس رؤوسًا جهَّالًا، فسئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلُّوا وأضلُّوا»(١).

وقال عن ابن عباس ﷺ: «من ترَك قولَ: لا أدري. أُصيبتْ مقاتله»(٢).

وعلى العلماء في مثل هذه الظروف أن يسأل بعضهم بعضًا. فالفرد الواحد قد تخفى عليه بعض الأمور، ولكن مجموعة من الأفراد إذا نظرت في الأمر تكون أقرب رشدًا، وأوفر إلى إصابة الحق.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣)، كلاهما في العلم، عن عبد الله بن عمرو.

(٢) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (١٥٨١)، والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (٨١٣).

ومن هنا نشأت فكرة «المجامع العلميَّة» المختصة في العلوم أو الآداب أو الفنون. وظهرت المجامع الفقهيَّة في عدد من البلدان، مثل «مجمع البحوث الإسلامية» بالأزهر، ومثل «هيئة كبار العلماء» فيه. وإن كان أساس اختيار العلماء لهذه المجامع غير واضح تمامًا.

وهناك «مجمع الفقه الإسلامي الدولي» الذي تُمثَّل فيه بلاد المسلمين، كل بلد بعالم. ويُختار بعض العلماء لأهليتهم الخاصة، ومقر هذا المجمع جدة.

وهناك «مجمع الفقه الإسلامي» التابع لرابطة العالم الإسلامي، ومقره مكة المكرمة.

وهناك مجامع لبعض البلاد مثل «المجمع الفقهي الهندي»، وهو معروف، وله إصداراته وقراراته وفتاويه، وأصدر منها مجلدات.

وهناك «المجلس الأوربي للإفتاء والبحوث»، وقد تكون منذ عشرين سنة، من العلماء الذين يشتغلون بالفقه والفتوى في البلاد الأوربية المختلفة، أضيف إليهم عدد من علماء المشرق الذين يترددون على أوربا، ويعرفون أحوال أهلها من المسلمين، ومشكلاتهم التي يعانونها، وكنت من هؤلاء، وقد اختارني الإخوة بالإجماع رئيسًا لهم، جزاهم الله خيرًا، وأصدر المجلس عددًا من الفتاوى المهمة، ومن الكتب ذات الشأن، وقد حضر في بعض دوراته واجتماعاته عدد من المستشرقين والمراقبين.

وفق الله الإخوة في محاولاتهم وبحوثهم ومجامعهم، ووفر لهم الجو المناسب للإنتاج العلمي والفقهي المناسب.. آمين.

الفَصْلُ الثَّانِي

أدب المسلم

في التمسك بالحق والثبات عليه

إذا كان تحرِّي الحق، والبحث عنه، والتبصر فيه: طريقة قرآنية حكيمة، وفضيلة إسلامية كريمة، فهناك فضيلة أخرى تكمِّل هذه الفضيلة، وتشدُّ أزرها.

وتلك هي التمسك بالحق متى تبيَّنَ للمؤمن، والثبات عليه ثبات الجبال الراسيات، لا يصده عنه تعصب، ولا كبرياء، ولا هوى، ولا يرده عن طريقه خوف ولا طمع.

القرآن يمدح الثبات وأصحابه:

والقرآن الكريم يمدح الثبات على الحق لمن تبين له، وإن بذل في سبيله دمه وماله، وضحَّى من أجله بكل رخيص وغال.

يقول تعالى في وصف معركة بدر: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۝١٢﴾ [الأنفال: ١٢]. ويقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٤٥﴾ [الأنفال: ٤٥]. وفي هذه المعركة قال: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ۝١١﴾ [الأنفال: ١١].

والقرآن هو أعظم ما يثبت المؤمنين، كما يخاطب الله رسوله بقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [النحل: ١٠٢]، ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وهو يُثبت الرسول ﷺ بما يتلو عليه من قصص الرسل، وما لقوه من قومهم، وما أيدهم الله به، كما قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ﴾ [هود: ١٢٠]. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان: ٣٢].

ويقول ﷻ في تثبيت رسوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء: ٧٤، ٧٥].

ومما ذكره القرآن ونوَّه به في الثبات: تثبيت الأقدام الذي يدعو به المؤمنون، ويسألون ربهم أن يمنحهم هذا التثبيت، كما قامت القلة المؤمنة من أصحاب طالوت يدعون الله أن يثبتهم على حقهم، كما بينت سورة البقرة: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾ [البقرة: ٢٤٩، ٢٥٠].

وكما قال أنصار الأنبياء الذين كُسِروا في بعض الوقائع: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [آل عمران: ١٤٧].

ويحذر القرآن من خصال النفاق والتزييف، فتزل الأقدام بعد الثبوت: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٩٤].

ويمثل القرآن أصالة المنفقين في سبيل الله، وتثبتهم في أنفسهم بجنة غنَّاء على ربوة عالية تنالها الأمطار، فتضاعف منتجاتها كما قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

وقال تعالى في المؤمنين: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ۝٦٦﴾ [النساء: ٦٦]. وقال تبارك وتعالى في بيان أثر الكلمة الطيبة: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٢٤ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ﴾ [إبراهيم: ٢٤- ٢٥].

الرسل الكرام المثل الأعلى للتمسك بالحق:

والمثل الأعلى للتمسك بالحق والثبات عليه، هم الرسل صلوات الله عليهم وسلامه، الذين استمسكوا بعروة الحق الوثقى، وثبتوا عليها، وتحمَّلوا الأذى في سبيله، لم يثنهم عنه وعد ولا وعيد، ولا إغراء ولا تهديد، كما حكى القرآن قولهم للمشركين، وجدالهم معهم، وثباتهم في مواقفهم، برغم ما يهددهم به أهل الكفر من ألوان العذاب والتوهين، اقرأ قوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ۝٩ ۞قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن

تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [إبراهيم:٩- ١٥].

خاتم الرسل محمد رسول الله:

وقد ختم الله الرسل والنبيين الذين أرسلهم إلى عباده مبشرين ومنذرين بمحمد عليه الصلاة والسلام، الذي جعله الله أسوة للمؤمنين، في كل قول طيب، وكل علم نافع، وكل عمل صالح، وكل خلق كريم، كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١].

وحسبنا أن نذكر من مواقف رسولنا ﷺ موقفه من مشركي قريش، وقد عرضوا عليه الملك والسيادة والجاه والمال، وكل ما يتمناه الناس من عَرَض الدنيا، بشرط أن يتنازل عن دعوته، فما كان منه إلا أن تلا عليهم من القرآن ما فيه مزدجر وبلاغ بيِّن، فقرأ من سورة فصلت، حتى بلغ إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ [فصلت:١٣].

ولما يئسوا منه لجؤوا إلى عمه يطلبون إليه أن يكفَّه عنهم، متوسلين باللين تارة، والوعيد أخرى، فما كان من أبي طالب إلا أن اتَّخذ موقف المشفق الناصح من ابن أخيه، وقال له: أبقِ عليَّ وعلى نفسك. فماذا قال الرسول ﷺ؟ لقد قال

كلمته المعروفة الخالدة: «والله يا عمّ، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر ما تركته، حتى يُظهره الله، أو أهلك دونه»[(١)].

وقد ظلَّ معهم ثلاثة عشر عامًا في مكة يدعوهم إلى الجنة، ويدعونه إلى النار، يدعوهم إلى الحق والعدل، ويدعونه إلى الباطل والظلم، يخاطبهم ومعه الله، ويقاومونه وليس معهم إلا الطاغوت والأصنام.

ثم ظلَّ عشرة أعوام أخرى بعد الهجرة إلى المدينة، يدعوهم بالتي هي أحسن، فيرفضون بالتي هي أسوأ، حتى كان السيفُ بينه وبينهم، وهم الذي شهروا السيف عليه، وقاتلوه، وأذن الله له ولمن معه أن يقاتلوا: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠﴾ [الحج: ٣٩- ٤٠].

سحرة فرعون مثل للتمسك بالحق إذا ظهر للإنسان:

ومن أمثلة الثبات على الحق: ثبات سحرة فرعون في مصر، الذين جمعهم الملك المُتألِّه في الأرض من كل حدب وصوب، مساندين له، ومعاندين لموسى، ومنكرين لدعوته، حتى إذا تبين لهم ضلال ما هم فيه، وصدق ما جاء به موسى، حين ألقَوا حِبالهم وعِصيَّهم، فسحروا أعينَ الناس واسترهبوهم، وجاؤوا بسحر عظيم، حتى خُيِّل إلى موسى عليه السلام حين نظر إلى حبالهم وعصيهم من شدة سحرهم أنها تسعى، ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٦٨ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ۝٦٩﴾ [طه: ٦٧- ٦٩].

(١) رواه الطبري في تاريخه (٢/ ٣٢٦)، دار التراث - بيروت، ط الثانية - ١٣٨٧ هـ وضعفه الألباني في الضعيفة (٩٠٩)، عن يعقوب بن عتبة بن الأخنس، مع شهرته عند الناس.

وألقى موسى عصاه، فإذا هي تلْقَفُ ما يأفكون، فابتلعت كل حبالهم وعصيهم على كثرتها. فعرف السحرة: أن هذا ليس عملَ ساحرٍ، إنما هو عمل خالقِ البشر، وموجِّه القُوى والقُدَر. وسارعوا إلى الإيمان به، متبرئين من الوثنية المصرية، ضاربين عرض الحائط بتهديد فرعون بالعذاب والنكال والتقتيل والتصليب، فلا غرو أن احتفل القرآن بهم، وسجل قصتهم في أكثر من سورة، ليكونوا مثالًا للآخرين، وقدوة للمؤمنين، ولنكتفِ هنا بذكر الآيات من سورة الأعراف وسورة طه: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَاۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَاۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأعراف:١١٣- ١٢٦].

وقال تعالى في سورة طه عن فرعون: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّاۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي

نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ [طه:٥٦-٧٦].

ما الذي يبعد الناس عن التمسُّك بالحق؟

ولا يستطيع الإنسان أن يتمسك بالحق إذا تبيَّن له: إلا إذا تحرَّرت نفسه من جملة رذائل معوقة عنه، صادة عن سبيله، ولكن أهل الإيمان الأبطال لا يبالون بها، ولا بمن وراءها، وما وراءها؛ فإن الحق أبلج، والباطل لجلج، ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [يونس: ٣٢].

فمن هذه الرذائل:

أ- الكِبْر:

فإن بعض الناس يعرف الحق، وينكشف له وجهه صريحًا بيِّنًا، ولكن تأخذه العزة بالإثم، فتأنف نفسه من اتباعه، وتستكبر على الانقياد لدعائه، لهوان الداعي إليه وفقره وضعفه، في حين أن خصمه يملك من القوة المادية والمالية والبشرية ما يعجز عنه دعاة الحق. كما قال فرعون وملؤه في شأن موسى وهارون: ﴿أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المؤمنون:٤٧]. وكما قال كفار قريش: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف:٣١]. مثل الوليد بن المغيرة في مكة، وعروة بن مسعود الثقفي في الطائف.

ولذلك رأينا فرعون وقومه كذَّبوا بموسى عليه السلام وبما جاء به، كبرًا منهم عليه، واستحقارًا لشأنه، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: ١٤]. وعبر عن ذلك فرعون حين قال: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ [النمل: ٥١، ٥٢].

ب- الحسد:

ومن هذه الرذائل الحسد، فكثيرًا ما نجد منَ الناس من يتبين له الحق واضحًا كالشمس في الضحى، لا يحجبها سحاب ولا ضباب، ولكنَ الغلَّ الذي في قلبه، والحسد الذي في صدره، لمن يحمل إليه دعوة الحق، يمنعه من الإقرار له ومتابعته، فإن الحسود لا يشفي صدره إلا أن تزول النعمة عن محسوده، فيشمت به، ويتشفَّى فيه، فكيف يخضع لحق جاء على يديه وهذا موقفه منه؟! وهذا ما كان من أحبار اليهود مع النبي ﷺ، فقد كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، لِما عندهم من البشائر ببعثته، والعلامات المميزة له، ولكنهم حسدوه أن يفوز بهذه الرسالة العظمى، وهو من العرب من بني إسماعيل، لا من بني إسرائيل شعب الله المختار كما يزعمون، فحال الحسد الدفين بينهم وبين الإيمان به، كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة:١٠٩].

ج- الطمع وحب الدنيا:

ومن الرذائل المعوقة للإنسان عن أتباع الحق والتمسك به: حب الدنيا، والطمع في مغانمها وشهواتها، من مال وبنين ونساء واتباع وجاه وسلطان، فالدنيا أكبر همه، ومبلغ علمه.

إن عبيد الدنيا لا يصلحون أبدًا أن يكونوا جنودًا للحق يتمسكون به، ويدافعون عنه، ويثبتون عليه، إنما هم جنود منفعة شخصية، وعشاق مغنم مادي عاجل، يلهثون وراءه، ويتهافتون عليه تهافت الفَراش على النار، ويبيعون أنفسهم ودينهم في سبيله، وما أتعس هؤلاء وأشقاهم! كما قال رسول الله ﷺ: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القطيفة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش!»[1]. أي: إذا أصابته شوكة، فلا أُخرجت منه بالمنقاش، أي: الملقاط، دعاء من الرسول عليه. فما أشقاه!

ولهذا أمر الله رسوله بالإعراض عن هذا الصنف من الناس، إذ لا خير فيه، ولا رجاء منه: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ [النجم:٢٩- ٣٠].

ولقد وقف كثير من الأحبار والرهبان في وجه الدعوة الإسلامية قديمًا وحديثًا، يصدون أنفسهم عنها، ويعوقون طريقها، وما ذلك إلا للإبقاء على دنياهم ومطامعهم، وما لهم من جاهٍ في أنفس العامة، وما يتقاضون من رواتب وهبات وبراطيل. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة:٣٤].

وإنك لتجد الرجل يعرف – بل يعلم علم اليقين – أن فلانًا من الناس على باطل وضلال، ومع ذلك لا يقاطعه، ولا يخاصمه من أجل الحق، بل يتبعه ويناصره، فإذا جادلته في ذلك، قال: أنا في الواقع لا أتبعه، بل أتبع منفعتي الشخصية، وأدور معها حيث دارت.

وقد رأينا من كبار الناس من تبيَّن له الحق، وظهرت له أعلامه واضحة،

(١) رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٨٧)، وابن ماجه في الزهد (٤١٣٦)، عن أبي هريرة.

وأوشك أن يعلن عن اعتناقه له، ولكن حين وجد ذلك خطرًا على دنياه، وما فيها من ملك وسلطان، فإن حرصه عليها، وشغفه بها، جعله يضحي بالحق الذي عرفه، في سبيل الإبقاء على ملكه. هذا ما رأيناه بيِّنًا من هرقل ملك دولة الروم، الدولة الأولى في العالم حين بعث محمد رسول الله ﷺ، فقد أرسل النبي ﷺ إليه رسالة يدعوه فيها إلى الإسلام، فإن لم يسلم حمَّله الله إثم الذين يدينون بدينه. وبحث عن أحد العرب الذين لا يؤمنون بمحمد، فدلُّوه على أبي سفيان، وكان في ذلك الوقت في دمشق عاصمتهم في بلاد العرب، وسأله أسئلة تفصيلية مهمة، عرف منها تمامًا أن محمدًا هو النبيُّ المنتظر، وأراد الرجل أن يؤيِّد هذا، وأحضر الرهبان والأساقفة، ليحدثهم بما رآه، فهاجوا عليه، وصاحوا صيحة حُمُر الوَحْش، فخاف على ملكه، وقال لهم: إنما أردت أن أختبركم[1]. وثبت وإياهم على ما كانوا عليه، وقدَّم حبَّ المُلك على حب الحق.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (٧)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٧٣)، عن ابن عباس.

الفصل الثالث

الرجوع إلى الحق

ومن أدب الإسلام الذي يفرضه على المسلم: أن يرجع إلى الحق متى تبيَّن له، ولو كان في ذلك تخطئة لرأيٍ أو اعتقاد سابق له قد عُرف بين الناس. فإن الحق أحقُّ أن يُتَّبع، ومهما يكُنِ الإنسان كبيرًا، فالحق أكبرُ منه.

وحسبنا أن رسول الله ﷺ كان يجتهد في بعض الأمور، فيرى رأيًا، فينزل الوحي بخلاف رأيه، وتصحيح خطئه، فيذهب ليعلن ذلك على الناس قرآنًا يُتلى إلى أن تقوم الساعة، يحمل العتاب والتصويب لرأي محمد وموقفه، مثل: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤﴾ [عبس:١- ٤]. وما بعدها من آيات بيِّنات، أنزلها تبارك وتعالى، لتكون جزءًا من كتابه المبين الخالد، دفاعًا عن عبد الله بن أم مكتوم الأعمى، الذي عبس النبي ﷺ في وجهه، وتولَّى عنه، ملتفتًا إلى فئة الكبراء والأغنياء، رجال المال والأعمال والكبراء، الذين اهتم بهم في ذلك الوقت، رجاء أن يدخلوا في الإسلام، ويكونوا قوة له، بما في أيديهم من أموال، وما لِهم في الناس من أتباع وأنصار، تاركًا ابن أم مكتوم وأمثاله لإيمانهم. ولكن الله تعالى غار على قلوب عباده الصالحين، ودافع عنهم.

ومثل: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٦٧﴾ [الأنفال:٦٧].

ومثل قوله تعالى في شأن المنافقين الذين استأذنوا الرسول ﷺ في التخلف عن الغزو لأعذار باطلة، فأذن لهم: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٤٣﴾ [التوبة:٤٣].

ومثل قوله تعالى في قضيَّة زيد بن حارثةَ وزوجته زينب بنت جحش، وقد تبنَّى النبيُّ زيدًا، وسمَّاه الناس: زيدَ بن محمد. وكان لا بد مِن إبطال ما كان يعتقده الجاهليون مِن بُطلان زواجِ الرجلِ امرأةَ متبنَّاه، فأراد الله أن يُبطل هذا بزواج الرسول ﷺ من زينب، ونَزَلَ قولُ الله تعالى: ﴿وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا ۝٣٧﴾ [الأحزاب:٣٧].

فانظر كيف واجه القرآن محمدًا رسول الله بمثل هذا القول القرآني الصريح: ﴿وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾ [الأحزاب: ٣٧]. وقد أبدى الله أن زيدًا سيطلق زينب، وأن محمدًا سيتزوجها، فلماذا لا يُعلن ذلك للناس، ولماذا يخشى الناس، والله أحق أن يخشاه؟!

الصحابة يرجعون إلى الحق إذا تبيَّن لهم:

وقد رأينا الصحابة الكرام من تلاميذ المدرسة المحمدية يرجعون إلى الحق إذا اتضح لهم بأي وسيلة من الوسائل، كأن يجد آية من القرآن لم يكن يقرؤها أو يذكرها، أو حديثًا عن الرسول ﷺ لم يكن قد بلغه، أو حجة عقلية أو نقلية كان غافلًا عنها فذُكِّر بها، أو تذاكر مع بعض إخوانه في بعض القضايا، فبيَّنوا له ما لم يكن بيِّنًا فاستبصر.

وقد رأينا عمر بن الخطاب ﷺ تراجعه امرأة في المسجد وهو يخطب على المنبر، فيرجع عن رأيه إلى رأيها، معلنًا للناس: «أصابت امرأة، وأخطأ عمر»[1].

ورأينا عليَّ بن أبي طالب يراجعه واحد من الناس، فيقول له: أصبت، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ۝﴾ [يوسف:٧٦][2].

وقد قال عمر ﷺ، في رسالته إلى أبي موسى الأشعري- وهي مشهورة- وهي رسالة في أصول القضاء: لا يمنعك قضاء قضيته بالأمس راجعت فيه نفسَك، وهُديت فيه لرشدك، أن تراجع الحق، فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل[3].

ولذلك رأينا أئمة الإسلام وفقهاءه يقولون في القضية قولًا، فإذا استبان لهم الحق في غيره رجعوا عنه، وأفتوا بما يخالفه.

ومن هنا كان للإمام الشافعي قول في كثير من مسائل الفقه أداه إليه اجتهاده يوم كان بالعراق أو بالمدينة، فلما حضر إلى مصر، ورأى وسمع ما لم يكن قد رآه أو سمعه من قبل، رجع عن كثير من أقواله إلى أقوال أخرى، أُطلق عليها: «القول الجديد». كما يطلق على الأقوال المتروكة: «القول القديم». وأصبحنا نقرأ في فقه الشافعية: «قال الشافعي في القديم»، و«قال الشافعي في الجديد».

---

(١) رواه عبد الرزاق (٢٠٤٢٠)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (٥٠٦)، والبيهقي في الكبرى (٧/ ٢٣٣)، وقال منقطع، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٢٨٣): رواه أبو يعلى في الكبير وفيه مجالد بن سعيد وفيه ضعف وقد وثق، وذكره البوصيري في الإتحاف (٣٢٧٦)، بسند أبي يعلى، وجود إسناده ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٤٤)، والسخاوي في المقاصد (٨١٤).

(٢) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (٨٦٥).

(٣) رواه الدارقطني في الأقضية (٤٤٧١)، والبيهقي في آداب القاضي (١٠/ ١١٩).

وهكذا ينبغي أن نفعل مع كل تراث أئمتنا الفقهي، وهو تراث علمي عظيم، ولكنه غير معصوم، لو عاش أصحابه سنين بعد ما ألفوه، لكان لا بد لهم أن يغيِّروا شيئًا منه، يقل أو يكثر. كما غيَّر أصحاب أبي حنيفة بعض ما ذهب إليه إمامهم الأعظم، وقالوا في كثير مما غيروه: هذا اختلاف عصر وأوان، وليس اختلاف حجة وبرهان.

وهذا ما نقوله نحن في كثير من الأقوال التي قالها من قالها حسب واقع زمانهم، فإذا كنا نحب أئمة الفقه والمذاهب ونقدرهم، ونتبع ميزانهم، فيجب أن نغيِّر هذه الأحكام الجزئية وفق معايير زماننا، وحاجات بيئاتنا. والله هادينا إلى سواء السبيل.

وهذا ما فعلناه في كثير من الأحكام التي تغيَّرت بعدهم، ولم تعد مقبولة في زماننا. ولهذا كان من القواعد الفقهية التي قررها الفقهاء المتأخرون، وكانت إحدى المواد التي تبنتها مقدمة مجلة الأحكام العدلية التي ظهرت في أواخر أيام الدولة العثمانية: المادة التي تقول: «لَا يُنْكَرُ تغيُّر الأحكام بتغيُّر الأزمان» المادة (٣٩). وأصدرنا دراسة في ذلك سميناها: «موجبات تغير الفتوى في عصرنا»[(١)].

❁❁❁

(١) نشرها الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، كما نشرتها (دار الشروق بالقاهرة).

البَابُ الثَّالِثُ

أدب المسلم في الحياة اليومية

الفَصْلُ الأَوَّلُ

أدب المسلم في النوم واليقظة

النوم من الحاجات الأساسية للإنسان:

هناك كائن أعلى لا تأخذه سِنَة ولا نوم، هو الله الذي خلق السماوات والأرض، وخلق الإنسان، وجعله في الأرض خليفة، ولذا كان النوم من الحاجات الأساسية التي تفرض نفسها على الإنسان بحُكم خِلقته وتركيبه، فهو لا بدّ أن يقضيَ جزءًا يساوي ثلثَ يومه تقريبًا نائمًا، يفقد فيه بعض إحساسه، ويغمض فيه عينيه، فلا يرى شيئًا مما حوله، ولا يسمع ما يجرى من كلام الناس، ولا من أصوات الحيوانات والطيور، ولا من حركات الأشياء، وهو أكثر ما يكون حاجة إلى النوم أول ما يولد.

وقد قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾ [الفرقان:٤٧].

ومن رحمته تعالى: أنه جعل الكون مقسومًا بطبيعته الزمنيَّة ما بين نهار مشمس، يعين على اليقظة والحركة، ويظهر فيه الصباح، وتطلع فيه الشمس، والليل الذي يتنصف الكون حين تغيب عنه الشمس، قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾ [النبأ:٩- ١١]. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم

بِالَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّىۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴿٦٠﴾ [الأنعام:٦٠].

وهكذا ينقسم الناس بين نهار مشمس، تطلع شمسه، وتبدو حرارتها، ويستدفئ الناس بها، وتنمو النباتات، والزروع والأشجار والطيور والحيوانات والسباع والزواحف، والبحار والأسماك والحيتان والأحياء المائية، والخيل والبغال والحمير، والأنعام التي يحتاج الإنسان إليها ليشرب من لبنها، وبعد ذلك يأكل لحمها.

والطفل أشد الناس حاجة إلى النوم؛ لأنه لا حاجة له في يقظته إلا إلى الطعام والإخراج، يستيقظ قليلًا ثم ينام، وحين يكبر قليلًا يكون في حاجة إلى اللعب، ويؤتيه الله من وسائل القوة ما يمكنه من اللعب واللهو.

معيشة الإنسان بين الليل والنهار:

ومعروف أن معيشة الإنسان تنقسم إلى نهار وليل، والنهار يقضيه الإنسان في طلب معيشته، وطلب العلم الذي ينفعه وينفع من حوله، والتعاون على ذلك مع الناس من حوله، كما أنهم يتعاونون في كل أمر تحتاج إليه الجماعة، و«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا»[1]، ومن ذلك ما يحتاج الناس لدينهم كصلاة الجماعة والجمعة، وبناء المساجد، وإقامة الأذان والإقامة والخطابة والتدريس والتعليم.

كما أن الناس يحتاجون إلى النصف الآخر من اليوم، وهو الليل، الذي تغيب فيه الشمس، ويختفي معها الضوء والحرارة، ويأوي الناس إلى الفرش بعد قضاء حاجاتهم اليومية النهارية، وبعد أداء فرائض ربهم التي كلَّفهم سبحانه بها، وقد

(١) سبق تخريجه.

فرض عليهم في كل يوم خمس صلوات معروفة على أوقاتها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء:١٠٣]. وكما قال تعالى: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة:٢٣٨].

تنتهي صلوات كل يوم بصلاة العشاء أربع ركعات، وبعدها ركعتان سُنة مؤكدة، وبعدهما صلاة الوتر، وأقله ثلاث ركعات، وأقل الأقل: ركعة واحدة، وصلاة الوتر سُنَّة مؤكدة، وذهب أبو حنيفة إلى أنها في درجة الواجب، وذلك لنهتم بالمحافظة عليها.

وينهي الناس يومًا من حياتهم ليبدؤوا يومًا آخر جديدًا، باسم الله، وعلى بركة الله، وقد عود الرسول الكريم الأمة أن يبدؤوا يومهم من البكور، وقد دعا ربه فقال: «اللهم بارِكْ لأمَّتي في بكورها»(١).

تقسيم عمل المسلم وتنظيمه:

والمطلوب من المسلم المنظَّم الذي يبني حياته على نظام اليوم الإسلامي: أن يبدأ بترتيب يومه من البكور، ويرتب يومه بحيث لا يتأخر كثيرًا، فيفرض التأخر على حياته اليومية باستمرار.

إنما ينظم النهار من الليل، ليبدأ النهار على ما ينبغي، وهكذا ينبغي أن ينظم المسلم ما بين كل أمرين تنظيمًا بالعدل، فيأخذ كل منهما حقَّه، ويترك لصاحبه نصيبه، وهذا هو عدل الله الذي أمرنا به: أن نعطيَ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، من إنسان أو حيوان أو نباتٍ أو أيِّ شيء، صغُر أو كبر.

---

(١) رواه أحمد (١٥٤٤٣) وقال مخرجوه: حسن لغيره، وأبو داود في الجهاد (٢٦٠٦)، والترمذي في البيوع (١٢١٢) وقال: حسن، وابن ماجه في التجارات (٢٢٣٦)، وصحَّحه الألباني في صحيح أبي داود (٢٣٤٥)، عن صخر الغامدي.

تهيئة الله سبحانه أسباب المعيشة للخلق:

وما يحتاج الإنسان إليه من الأشياء هيَّأه الله من طريق هو الأقرب إليه، وهو أمه التي حملته وولدته، وهو في أول الولادة ليس له سنٌّ يقطع ولا يد تبطش، ولذلك ملأ الله صدر أمه لبنًا باردًا مقبولًا في الصيف والشتاء، ترضعه به أمه حتى يشبع، لا تستطيع أن تمسكه عنه، وكلما احتاج إلى شيء غير لبن أمه، يجب أن يُهيَّأ له من قبل أبيه ومن أسرته، فإن لم يكن له أبوان، فأقرب الناس إليه. وهكذا يتعاون المجتمع بعضه مع بعض، يعين قويه ضعيفه، ويعطف غنيه على فقيره، ويساعد المتعلِّم فيه الجاهل، وكل من عنده شيء لا يجده غيره عليه أن يمد يده لأخيه، لينفع بعضهم بعضًا.

والناس في حاجة إلى مساكن ومنازل يعيشون فيها، ويأوون إليها، وتضم ما يحتاجون إليه فيها، ثم يتعاونون في كل أمورهم الزراعية والصناعية والعلمية والمهنية والتجارية والإدارية والسياسية وغيرها، يعطي كل فرد أفضلَ ما عنده لخدمة إخوته، ويأخذ أحسن ما عندهم لما يحتاجه، وعلَّمهم الإسلام أن ينظموا أمورهم الصغيرة، ليتعلموا منها كيف تنتظم الأمور الكبيرة.

ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «إذا كنتم ثلاثة في سفر، فأمروا أحدكم»[(١)].

وهكذا ينبغي أن يبنى المجتمع الكبير، الذي تقام فيه الدولة، ويبنى نظام الحكم.

يجب أن يقوم النهار على تناول ما يحتاج إلى جهد وتعاون وعمل منظم، بحيث يوضع كل واحد في مكانه الذي تخصص فيه، يؤدي عمله تحت رئاسة من هو أبلغ منه في عمله بحكم مهارته، أو بحكم مرور الزمن والأقدمية، وينتهي الأمر

---

(١) رواه أبو داود في الجهاد (٢٦٠٩)، وقال الألباني في صحيح أبي داود (٢٣٤٨): حسن صحيح، عن أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه: إذا كان ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم.

في ترتيب الأولويات في الأمة كلها فوق ما يرشد إليه الدين والأخلاق، وما تهدي إليه كتب السماء والدين الصحيح، وما يتعلمه الناس بعضهم من بعض في سائر العلوم والآداب والفنون والثقافات.

وينبغي أن يستريح الإنسان بعد كد النهار في الليل، ويذهب إلى بيته وأهله وأولاده، ليتعشَّوْا معًا، وليُفطروا معًا، وليُقيموا في بيت واحد معًا، يتعلم فيه الصغير من الكبير، والابن من الأب، والكسلان من المُجِدّ. والجميع بعضهم من بعض، وبعد استراحة الليل، يخرج الناس إلى معترك الحياة اليومي، هادئي الأنفس، طيبي القلوب، منشرحي الصدور، داعين ربهم أن يسهل عليهم أعمالهم، وإن كان فيها بعض المشقة، وأن يوسِّع عليهم أرزاقهم، وأن يعينهم على أداء الصلوات، والبعد عن اتباع الشهوات.

في هديه ﷺ وسيرته في نومه وانتباهه:

وقد تحدث الإمام ابن القيم في كتابه المتميز في الهدي النبوي الذي سماه «زاد المعاد في هدي خير العباد» هذا الهدي الذي جعله الله قدوة للمؤمنين من عباده، ليهتدوا بها في حياتهم، تحدث عن هدي النبيﷺ في نومه، فقال ﷺ:

«كان ينام على الفراش تارة، وعلى النِّطَع تارة، وعلى الحصير تارة، وعلى الأرض تارة، وعلى السرير تارة بين رماله[(١)]، وتارة على كساء أسود. قال عبَّاد بن تميم، عن عمه: رأيت رسول الله ﷺ مستلقيًا في المسجد، واضعًا إحدى رجليه على الأخرى[(٢)]».

(١) رمال السرير: نسيجه.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الصلاة (٤٧٥)، ومسلم في اللباس والزينة (٢١٠٠).

وكان فراشه أدمًا حشوُه ليف، وكان له مِسْحٌ ينام عليه، يُثنى بثَنْيتين، وثُني له يومًا أربع ثنيات، فنهاهم عن ذلك وقال: «رُدُّوه إلى حاله الأول، فإنه منعني صلاتي الليلة»[(١)].

والمقصود أنه نام على الفراش، وتغطَّى باللحاف، وقال لنسائه: «ما أتاني جبريل وأنا في لحاف امرأة منكن غير عائشة»[(٢)].

وكانت وسادته أدمًا حشوها ليف[(٣)]، وكان إذا أوى إلى فراشه للنوم قال: باسمك اللهم أحيا وأموت[(٤)].

وكان يجمع كفيه ثم ينفث فيهما، وكان يقرأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝﴾ [الإخلاص: ١] و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝﴾ [الفلق: ١] و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝﴾ [الناس: ١]، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه، ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات[(٥)].

وكان ينام على شقه الأيمن، ويضع يده اليمنى تحت خده الأيمن، ثم يقول: «اللهم قني عذابك يوم تبعث عبادك»[(٦)]. وكان يقول إذا أوى إلى فراشه: «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا، فكم ممن لا كافي له ولا مؤوي» ذكره

(١) رواه الترمذي في الشمائل (٣٣٠)، ط المكتبة التجارية، وقال المناوي في (الفيض): رمز المصنف (السيوطي) لحسنه وليس بجيد، فقد قال الحافظ العراقي: هو منقطع (٥/ ١٧٢). وضعفه الألباني في الضعيفة (٤٢٢٣)، عن عائشة.

(٢) رواه البخاري في أصحاب النبي (٣٧٧٥)، والترمذي في المناقب (٣٨٧٩)، والنسائي في عشرة النساء (٣٩٤٩)، عن عائشة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٤٥٦)، ومسلم في اللباس (٢٠٨٢)، عن عائشة.

(٤) رواه البخاري في الدعوات (٦٣١٤)، عن حذيفة.

(٥) رواه البخاري في فضائل القرآن (٥٠١٧)، وأحمد (٢٤٨٥٣)، وأبو داود في الأدب (٥٠٥٦)، والترمذي في الدعوات (٣٤٠٢)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٧٨٨)، عن عائشة.

(٦) رواه أحمد (٢٦٤٦٢)، وقال مخرجوه: صحيح لغيره، وأبو داود في الأدب (٥٠٤٥)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٧٦٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٦٥٦)، عن حفصة.

مسلم[1]. وذكر أيضًا أنه كان يقول إذا أوى إلى فراشه: «اللهم رب السماوات والأرض، ورب العرش العظيم، ربَّنا وربَّ كل شيء، فالقَ الحب والنوى، منزلَ التوراة والإنجيل والفرقان، أعوذ بك من شر كل ذي شر أنت آخذ بناصيته، أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين وأغننا من الفقر»[2].

وكان إذا استيقظ من منامه في الليل قال: «لا إله إلا أنت سبحانك، اللهم إني أستغفرك لذنبي، وأسألك رحمتك، اللهم زدني علمًا، ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني، وهبْ لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب»[3].

وكان إذا انتبه من نومه قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور»[4]. ثم يتسوَّك، وربما قرأ العشر الآيات من آخر آل عمران من قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] إلى آخرها[5]، وقال «اللهم لك الحمد، أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت قيِّم السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد حق، والساعة حق، اللهم لك

---

(١) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧١٥)، وأحمد (١٢٥٥٢)، عن أنس.

(٢) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧١٣)، وأحمد (١٤/ ٥٢٠) ح (٨٩٦٠)، والترمذي في الدعوات (٣٤٠٠)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٧٩٠)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٧٣)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه أبو داود في الأدب (٥٠٦١)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٨٦٥)، وابن حبان في الزينة والتطييب (٥٥٣١)، والحاكم في الدعاء والتكبير (١/ ٥٤٠)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، عن عائشة.

(٤) رواه البخاري في الدعوات (٦٣١٢) عن حذيفة، ورواه مسلم في الذكر والدعاء (١٨٦٠٣) عن البراء.

(٥) متفق عليه: رواه البخاري في الوضوء (١٨٣)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٧٦٣)، عن ابن عباس.

أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدَّمتُ، وما أخَّرت، وما أسررت، وما أعلنت، أنت إلهي، لا إله إلا أنت»[(١)].

وكان ينام أولَ الليل، ويقوم آخرَه، وربما سهر أول الليل في مصالح المسلمين، وكان تنام عيناه، ولا ينام قلبه، وكان إذا نام لم يوقظوه حتى يكون هو الذي يستيقظ. وكان إذا عرَّس بليلٍ اضطجع على شقه الأيمن، وإذا عرَّس قبيل الصبح، نصب ذراعه ووضع رأسه على كفه[(٢)]. هكذا قال الترمذي.

وقال أبو حاتم في صحيحه: كان إذا عرَّس بالليل توسَّد يمينه، وإذا عرس قبيل الصبح نصب ساعده. وأظن هذا وهمًا والصواب حديث الترمذي.

وقال أبو حاتم: والتعريس إنما يكون قبيل الصبح.

وكان نومه أعدل النوم، وهو أنفع ما يكون من النوم، والأطباء يقولون: هو ثلث الليل والنهار ثمان ساعات»[(٣)].

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التهجد (١١٢٠)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٧٦٩)، عن ابن عباس.

(٢) رواه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٦٨٣)، وأحمد (٢٢٦٣٢)، والترمذي في الشمائل (٢٦١)، عن أبي قتادة.

(٣) زاد المعاد (١/ ١٥٥-١٥٩) نشر مؤسسة الرسالة، تحقيق وتخريج شعيب وعبد القادر الأرناؤوط.

الفَصْلُ الثَّانِي

أدب المسلم في طعامه وشرابه

من العقلاء الذين خلقهم الله: الملائكة، وهم مخلوقات نورانيَّة، لا يستطيع بشر أن يروهم في صورتهم الأصليَّة، بعيونهم المجرَّدة، ولا بآلاتهم المكبِّرة، ولهم وظائف كلَّفهم الله بها مع الحياة ومع الناس، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝﴾ [الانفطار:١٠-١٢]. إلى آخر ما يتعلق بالملائكة الكرام من الآيات.

وهؤلاء الملائكة خلقهم الله بحيث لا يحتاجون إلى طعام ولا إلى شراب. بخلاف البشر أبناء آدم الذين خلقهم الله وركَّبهم، بحيث يحتاجون في أصل خلقهم إلى طعام يُغذِّيهم، وإلى شراب يسقيهم، ولا يمكنهم الاستغناء عنه. كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ۝﴾ [الأنبياء:٨]؛ لأن الله خلق الإنسان الأول من طين، ثم سواه ونفخ فيه من رُوحه، وهذه الخِلقة الأصلية تُحْوجه إلى الطعام. حتى آدم الإنسان الأول وزوجه حينما أسكنهما الله الجنة، هيَّأ لهما فيها كلَّ ما يُشبعهما ويَلِذَّان به من طعام وشراب، ما عدا شجرة واحدة نُهيا عن الأكل منها.

وإنما خلقهم الله على هذه الطبيعة؛ لأنها أقرب إلى وظيفتهم التي خلقهم الله لتحقيقها في الأرض، فالله تعالى إنما خلق الإنسان لجملةِ مقاصد أرادها منه، لا يستطيع أن يؤدِّيها كلها غيره من العقلاء:

المقصد الأول: أن يقوم بعبادته وحده، ولا يشرك به ولا معه أحدًا ولا شيئًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝﴾ [الذاريات: ٥٦].

المقصد الثاني: أن يقوم بخلافة الله في أرضه، وينفذ فيها شرعه، الذي بعث به رسله. كما قال تعالى للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝﴾ [البقرة: ٣٠].

المقصد الثالث: أن يقوم بعمارة الأرض، كما قال تعالى على لسان نبيه صالح، حينما خاطب قومه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود:٦١]. ومعنى ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ﴾: أي طلب منكم أن تعمروها.

ويقتضي هذا: أن من مقاصد خلق هذا الإنسان: أن يعمل في الأرض ليُحييها فلا تموت، ويُنمِّيها فلا تذبل، ويُجَملّها فلا تقبح، ويُحَسّنها فلا تسوء، ويَعْمُرها فلا تخرب، ولذلك ركَّبه الله تركيبًا مُعَيّنًا، بحيث لا يستغني عن الأرض وعمارتها لينعم بالحياة، ويسعد بها هو وأهله وبنوه وكل من حوله، وبهذا هيّأ الله الأرض للإنسان، وهيّأ الإنسان لها، وأنزل الكتب، وأرسل الرسل، ليهدوا الناس إلى حسن الاستفادة من الأرض التي خُلقت لهم، والتمتُّع بالحلال الطيِّب من رزقها، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝﴾ [البقرة:١٦٨].

حاجة الإنسان إلى الطعام:

وحاجة الإنسان إلى الطعام دليل على ضعفه وأسره، وحاجته إلى غيره، ونعمة الطعام من أعظم النعم التي تحفظ الجنس البشري من الانقراض، فلا حياة للإنسان بلا طعام.

ومن تأمّل في كتاب الله وجد أن الطعام ذُكِرَ أكثر ما ذكر في سورتي الأنعام والنحل، والأنعام منها الألبان واللحوم، وهي أفخر الطعام، والنحل ينتج العسل، وهو أطيبُ الطعام، والسمك وهو اللحم الطري، وما ينبت من الزرع والشجر من حبوب وثمار وفواكه، وسورة النحل تسمَّى سورة النِّعَم لكثرة ما فيها من ذكر النِّعَم.

وفي هاتين السورتين ذكر الله تعالى ما يكون سببا لبقاء الطعام، والتمتع به، وازدياده، وما يكون سببا لقلته وذهابه، ووقوع الجوع والهلاك به؛ فبقاء النعم ونماؤها وزيادتها مرتهن بالشكر، وفي سورة النحل ذكر الله تعالى الخليل عليه السلام ووصفه بأنه كان ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ [النحل:١٢١]. فوصفه سبحانه بالشكر، والخليل كان يكرم الضيفان بالعجول السمان حتى كُنِّيَ من كرمه أبا الضيفان، ولم يجد قلة رغم كرمه؛ لأنه قيَّد نعم الله تعالى عليه بالشكر.

وزوال النعم مرتهن بالكفر، وقد عالجت سورة الأنعام هذه القضية مع ذكر الطعام، ففيها: ﴿كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾ [الأنعام:١٤٢].

فالنهي عن اتباع خطوات الشيطان بعد ذكر الأكل مشعرٌ بأن اتباع خطواته كفر لنعمة الأكل، والشيطان يدعو لكل سوء، ويزيِّن للعبد كل معصية. فيُزيِّن الكفر والجحود والنفاق والعصيان، ويزيِّن الإسراف في المآكل والمشارب والحفلات والولائم. وهو ما جاء النهي عنه في موضع آخر من سورة الأنعام، مقرونًا بالأكل أيضًا وبذكر الثمار والحبوب التي هي من ضرورات الأكل؛ فأغلب ما يأكل الناس الحبوب: ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الأنعام: ١٤١].

كلمات نيِّرة للإمام الغزالي:

يقول الإمام الغزالي في مقدمة «كتاب آداب الأكل» وهو الكتاب الأول من ربع «العادات» من كتاب: «إحياء علوم الدين»، بعد مقدِّمة قصيرة:

«أما بعد، فإن مقصد ذوي الألباب لقاء الله تعالى في دار الثواب، ولا طريق إلى الوصول للقاء الله إلّا بالعلم والعمل، ولا تمكن المواظبة عليهما إلا بسلامة البدن، ولا تصفو سلامة البدن إلا بالأطعمة والأقوات، والتناول منها بقدر الحاجة على تكرر الأوقات، فمن هذا الوجه قال بعض السلف الصالحين: إن الأكل من الدين. وعليه نبَّه رب العالمين بقوله، وهو أصدق القائلين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ۝﴾ [المؤمنون: ٥١]. فمن يقدم على الأكل ليستعين به على العلم والعمل، ويقوى به على التقوى، فلا ينبغي أن يترك نفسه مهملًا سُدًى، يسترسل في الأكل استرسال البهائم في المرعى، فإن ما هو ذريعة إلى الدين ووسيلة إليه ينبغي أن تظهر أنوار الدين عليه. وإنما أنوار الدين آدابه وسننه التي يُزَمّ العبد بزمامها، ويلجم المتقي بلجامها، حتى يزن بميزان الشرع شهوةَ الطعام في إقدامها وإحجامها، فيصير بسببها مدفعة للوزر، ومجلبة للأجر، وإن كان فيها أوفى حظ للنفس.

قال ﷺ: «ولست تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أُجرت بها، حتى اللقمة تجعلها في في امرأتك»[1]. وإنما ذلك إذا رفعها بالدين وللدين، مراعيًا فيه آدابه ووظائفه»[2].

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجنائز (١٢٩٥)، ومسلم في الوصية (١٦٢٨)، عن سعد بن أبي وقاص.
(٢) الإحياء (٢/ ٢).

آداب الأكل والشرب:

وللأكل- كما لكلِّ شيء في الإسلام- آداب ينبغي أن تراعَى، قبل الأكل، ومع الأكل، وبعد الفراغ منه، وهي التي تميِّز أكل الإنسان المكلَّف من الحيوان الأعجم، وهي جملة آداب:

١- الحرص على أن يكون الطعام حلالًا طيبًا:

أولها: أن يكون الطعام- بعد كونه حلالًا في نفسه- طيبًا في جهة مكسبه، موافقًا للسنة والورع، لم يكتسب بسبب مكروه في الشرع، ولا بحكم هوى ومداهنة في دين.

وقد أمر الله تعالى بأكل الطيب، وهو الحلال، وقدَّم النهي عن الأكل بالباطل على القتل، تفخيمًا لأمر الحرام، وتعظيمًا لبركة الحلال، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [النساء: ٢٩] فالأصل في الطعام كونه طيبًا، وهو من الفرائض وأصول الدين[(١)].

وللطيب معنى جميل آخر بعد الحل، وهو الذي تستطيبه الفطر السليمة، ممَّا يؤكل أو يُشرب أو يُسمع، أو يُبصر، أو يُلمس، ولذا جاء في القرآن كلمة: ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾. ولا ريب أن (طيبًا) لها معنى يزيد عن كونه مباحًا.

وقد منّ الله على المؤمنين بأنه أباح لهم الطيِّبات في الدنيا، ولم يحرمها عليهم، كما حرم بعضها على اليهود، جزاء لهم على ما صنعوه بأنفسهم وبغيرهم من ظلم وبغي، فقال: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ﴾ [النساء: ١٦٠- ١٦١].

فلا غرو أن وسَّع الله على أمة الإسلام، ولم يضيق عليهم في المباحات، قال

(١) المصدر السابق (٢/ ٣).

تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۝ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [المائدة:٨٧، ٨٨].

وفي سورة الأعراف- وهي مكية- قال ﷻ: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ۝ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف:٣١، ٣٢].

٢- البدء بالتسمية:

من المستحب في بداية الطعام: أن يبدأ الآكل طعامه باسم الله، فالأصل في كل الأعمال في الإسلام أن تستفتح باسم الله، ولهذا ابتُدئ القرآن بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝﴾ واستمر بدء كل سورة بهذه البسملة، كما تشاهدها في المصحف.

وذكر لنا القرآن الكريم أن شيخ المرسلين نوحًا عليه السلام، حينما أعدَّ السفينة التي أمره الله بإعدادها، لتكون آلته ومن معه من المؤمنين للنجاة من غرق الطوفان الذي هدَّدهم الله به، ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ۝﴾ [هود:٤١].

وذكر لنا القرآن أيضًا أنَّ نبيَّ الله سليمان حينما أرسل إلى ملكة سبأ باليمن كتابًا، كانت بدايته: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ۝﴾ [النمل:٣٠- ٣١].

لهذا كان الرسول الكريم إذا وضع يده في الطعام قال: «باسم الله». ويأمر الآكل بالبسملة، ويقول: «إذا أكل أحدكم، فليذكر اسم الله، فإن نسي اسم الله في أوله، فليقل: باسم الله في أوله وآخره»[1].

(١) رواه أحمد (٢٦٢٩٢) وقال مخرِّجوه: حسن بشواهده، وابو داود في الأطعمة (٣٧٦٧)، والترمذي في الأطعمة (١٨٥٨) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٣٢٦٤)، ثلاثتهم في الأطعمة، عن عائشة.

قال ابن القيم: «والصحيح: وجوب التسمية عند الأكل، وهو أحد الوجهين لأصحاب أحمد، وأحاديث الأمر بها صحيحة صريحة، ولا معارض لها، ولا إجماع يُسَوِّغ مخالفتها ويخرجها عن ظاهرها، وتاركها شريكه الشيطان في طعامه وشرابه»(١).

وفي رأيي: أنَّ الأحاديث الآمرة وحدها لا تكفي في الدلالة على الإيجاب، ما لم يقترن بها شيء آخر، ولكنها تؤكد السنيَّة، وشدَّة الاهتمام بالتسمية، بحيث لا ينبغي للمسلم أن يتركها عمدًا. وبهذا نفهم الأحاديث التي صحَّت في الترغيب في التسمية على الطعام، والترهيب من تركها، كما رواها الحافظ المنذري.

فعن عائشة ﵂ قالت: كان النبي ﷺ يأكل طعامه في ستة من أصحابه، فجاء أعرابيٌّ، فأكله بلقمتين، فقال رسول الله ﷺ: «أما إنه لو سمَّى، كفاكم»(٢). وفي رواية: «فإذا أكل أحدكم طعامه فليذكر اسم الله عليه، فإن نسي في أوله فليقل: باسم الله أوله وآخره»(٣).

وعن جابر ﵁ أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه، قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء. وإذا دخل فلم يذكر الله عند دخوله، قال الشيطان: أدركتم المبيت. وإذا لم يذكر الله عند طعامه، قال الشيطان: أدركتم المبيت والعشاء»(٤).

---

(١) زاد المعاد (٢/ ٣٦٢).

(٢) رواه أحمد (٢٥١٠٦) وقال مخرجوه: حديث حسن بشواهده، والترمذي (١٨٥٨) وقال: حسن صحيح.

(٣) رواه أبو داود (٣٧٦٧)، والترمذي (١٨٥٨) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٣٢٦٤)، وابن حبان (٥٢١٤) وقال الأرناؤوط: حديث صحيح، جميعهم في الأطعمة.

(٤) رواه مسلم في الأشربة (٢٠١٨)، وأبو داود في الأطعمة (٣٧٦٥)، والنسائي في الكبرى في الوليمة (٦٧٢٤)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٨٧).

وعن حذيفة بن اليمان ﷺ قال: كُنّا إذا حضرنا مع رسول الله ﷺ طعامًا، لم يضع أحدُنا يده حتى يبدأ رسول الله ﷺ، وإنّا حضرنا معه طعامًا، فجاء أعرابي كأنما يُدْفَع، فذهب ليضع يده في الطعام، فأخذ رسول الله ﷺ بيده، ثم جاءت جارية كأنما تُدْفَع، فذهبت لتضع يدها في الطعام، فأخذ رسول الله ﷺ بيدها، وقال: «إن الشيطان يستحل الطعام الذي لم يذكر اسم الله عليه، وإنه جاء بهذا الأعرابي يستحل به، فأخذت بيده، وجاء بهذه الجارية يستحلّ بها، فأخذت بيدها، فوالذي نفسي بيده، إنَّ يده لفي يدي مع أيديهما»[(١)].

٣- استحضار نيّة التعبُّد بالأكل:

ومن الآداب المهمّة في الأكل: أن يستحضر نيَّته في التعبُّد بالمباحات، لتنتقل إلى دائرة التعبُّدات، فقد عرفنا أن المسلم يستطيع بنيَّته الطيِّبة أن يُحوِّل كل مباح يعمله، حتى الأكل والشرب وجلوس الاستراحة، والنوم وركوب السيارة والسفر للفسحة والمتعة والسرور مع الأولاد، والتمتع بالزوجة، وزيارة الوالدين، وصلة الأرحام، والزراعة والصناعة والتجارة.. وغيرها من الأعمال الدنيوية إلى أن تكون عبادة وطاعة لله تعالى.

وهنا ينبغي على المسلم الراغب في الخير، المحب لله تعالى، والتقرب منه: أن ينوي بأكله وشربه التقوِّي على طاعة ربِّه، والاستقامة على طريقه، وأداء واجباته الدينيَّة والدنيويَّة، لنفسه ولأهله، ولكل من حوله، حتى يكون متعبِّدًا بأكله وطعامه، ولا يجعل كل همِّه فيما يأكل أن يملأ بطنه، ويستجيب لشهوته، ولا يكون كل ما يقصده مجرَّد التلذُّذ والتنعُّم بالأكل، وإن لم يكن ذلك حرامًا، ولكن الإمعان

(١) رواه مسلم في الأشربة (٢٠١٧)، وأحمد (٢٣٢٤٩)، وأبو داود في الأطعمة (٣٧٦٦)، والنسائي في الكبرى في الوليمة (٦٧٢١).

والتوسّع والتوغل فيه، يوصل المرء إلى حال من يكون عبدًا لبطنه وشهوته.

وقد قال إبراهيم بن شيبان: منذ ثمانين سنة ما أكلت شيئًا لشهوتي[1].

على أن أكل الحلال للشهوة ليس حرامًا، ما دام يستمتع بما أحلَّ الله له، ولكن لا ينبغي أن تكون الدنيا أكبر همِّه، ولا مبلغ علمه.

٤- الأكل باليمين والتحذير من الأكل بالشمال:

من جملة أدب الإسلام الذي يتميَّز به: البدء باليمين، فهو إذا أكل أو شرب، قائمًا يأكل بيمينه ويشرب بيمينه، كما كان النبي ﷺ يحب الفأل الحسن، وكذلك التيامن في كل شيء: في تَرَجُّله، ووضوئه، ولبسه، وكل ما يعمله؛ لأن اليمين من اليُمْن، وهو البركة، وهو عليه الصلاة والسلام يحب الفأل الحسن، ويجب أن يكون المسلم من أهل اليمين، وليس من أصحاب الشمال.

ولهذا قال لربيبه عمر بن أبي سلمة، ابن امرأته أم سلمة حين أكل معه، وهو غلام صغير، وكانت يده تطيش في الصحفة: «يا غلام، سَمِّ الله، وكُلْ بيمينك، وكُلْ مما يليك»[2]. فكانت هذه الوصيَّة النبويَّة منهجه في الأكل طوال حياته.

وكان عليه الصلاة والسلام يأمر بالأكل باليمين، وينهى عن الأكل بالشمال؛ لأن الشيطان يأكل بشماله، ويشرب بشماله.

عن ابن عمر رضي الله عنهما، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لا يأكلنَّ أحدكم بشماله، ولا يشربنَّ بها، فإن الشيطان يأكل بشماله، ويشرب بها»[3]. قال: وكان نافع يزيد فيها: «ولا يَأْخُذَ بِهَا، ولا يُعطي بها».

---

(١) ذكره الغزالي في الإحياء (٢/ ٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الأطعمة (٥٣٧٦)، ومسلم في الأشربة (٢٠٢٢).

(٣) رواه مسلم في الأشربة (٢٠٢٠)، وأحمد (٤٥٣٧)، وأبو داود (٣٧٧٦)، والترمذي (١٧٩٩)، كلاهما في الأطعمة.

وصحَّ عنه: أنه قال لرجل أكل عنده، فأكل بشماله: «كل بيمينك». قال: لا أستطيع. قال: «لا استطعت». ما منعه إلا الكِبْر، قال: فما رفعها إلى فيه[(١)]. فلو كان ذلك جائزًا، لما دعا عليه، وإن كان كِبْرُه حمله على ترك امتثال الأمر، فذلك أبلغ في العصيان واستحقاق الدعاء عليه.

وقد ذكرنا حديثين في الترهيب من الأكل والشرب بالشمال، ينبغي للمسلم المُتحرِّي أن يأخذ منهما حرمة الأكل أو الشرب بيده اليسرى من غير عذر حتى لا يتشبَّه بأهل الشمال في الآخرة، وهم أهل النار.

وعن أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال: «ليأكلْ أحدكم بيمينه، وليشربْ بيمينه، وليأخذْ بيمينه، ولْيُعْط بيمينه، فإنَّ الشيطان يأكل بشماله، ويشرب بشماله، ويعطي بشماله، ويأخذ بشماله»[(٢)].

وهناك بعض الناس – وهم قلة في العادة- منذ ولادتهم شِماليون، لا يستطيعون أن يستعملوا اليمين إلا بصعوبة وتدريب وتعويد، فهؤلاء ينبغي أن نلتمس لهم عذرهم؛ لأنهم لا يرفضون التيامن، ولكن يشق عليهم، وإن كان على كلٍّ منهم أن يحاول استخدام اليمين في الطعام والشراب ما استطاع، كما نرى الناس في بلاد الإنكليز يأكلون بالشمال، ويشربون بالشمال، كما يمشون على الشمال. فكيف استطاع الناس ذلك، والأغلبية تستعمل اليمين؟ فليفعل الشماليون المسلمون ما يفعله اليمينيون الإنجليز ومن كان على طريقتهم.

---

(١) رواه مسلم في الأشربة (٢٠٢١)، وأحمد (١٦٤٩٣)، عن سلمة بن الأكوع.

(٢) رواه أحمد (٨٣٠٦) وقال مخرجوه: حديث صحيح، وابن ماجه في الأطعمة (٣٢٦٦)، قال البوصيري في مصباح الزجاجة (١١٣٠): إسناده صحيح ورجاله ثقات.

٥- استحباب الأكل من جوانب القصعة دون أعلاها:

عود الإسلام المسلم إذا قدِّم إليه الطعام، وأراد أن يأكلَ، فينبغي أن يكون لطيفًا رفيقًا في التناول، فلا يبدأ من وسط الطعام، بل من جوانبه.

وهذا ما رواه ابن عباس ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «البركة تنزل وسَطَ الطعام، فكلوا من حافّتيه، ولا تأكلوا من وسطه»[١].

وفي رواية: قال رسول الله ﷺ: «إذا أكل أحدكم طعامًا، فلا يأكل من أعلى الصَّحْفة، ولكن ليأكل من أسفلها، فإن البركة تنزل من أعلاها»[٢].

وخُصَّ الوسط بنزول البركة؛ لأنه أعدل المواضع، وعلة النهي حتى لا يُحرَم الأكل البركة التي تحِلُّ في وسطه، وقد يلحق به ما إذا كان الآكلون جماعة، فإن المتقدم منهم إلى وسط الطعام قبل حافته قد أساء الأدب معهم، واستأثر لنفسه بالطيب دونهم، والله أعلم.

والنهي عن الأكل من أعلى الصحفة أو أوسطها إذا كان الطعام من نوع واحد، أما إذا كان الطعام أنواعًا، فلا بأس بالأكل من أعلى الصحفة وجوانبها، ويدل لذلك ما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أنس بن مالك قال: رأيت النبي ﷺ يتتبع الدباء من حَوَالَي الصحفة[٣].

٦- استحباب رفع اللقمة عند سقوطها ومسحُ ما علق بها وأكلُها:

عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سقطت لُقْمَةُ

(١) رواه الترمذي (١٨٠٥) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٣٢٧٧) كلاهما في الأطعمة، والنسائي في الكبرى في الوليمة (٦٧٢٩)، وابن حبان في الأطعمة (٥٢٤٥) وقال الأرناؤوط: حديث صحيح.
(٢) رواه أبو داود في الأطعمة (٣٧٧٢)، وقال الألباني في صحيح أبي داود (٢١٢٣): صحيح لغيره.
(٣) البخاري (٢٠٩٢)، ومسلم (٢٠٤١).

أحدكم، فَلْيُمِطْ ما بها من الأذى ولْيَأْكُلْهَا، ولا يدعْها للشيطانِ»[1] الحديث.

وفي رواية: «إن الشيطان يحضُرُ أحدكم عند كل شيء من شأنه، حتى يحضره عند طعامه، فإذا سقطت من أحدكم اللقمة، فليُمط ما كان بها من أذى، ثم ليأكلها، ولا يدعْها للشيطان، فإذا فرغ فليلعق أصابعه، فإنه لا يدري في أيِّ طعامه تكون البركة»[2]. وفي شرح النووي لصحيح مسلم قال: «واستحباب أكل اللقمة الساقطة بعد مسح أذى يصيبها، هذا إذا لم تقع على موضع نجاسة، فإن وقعت على موضع نجس تنجست ولا بد من غسلها إن أمكن، فإن تعذر أطعمها حيوانا ولا يتركها للشيطان»[3] انتهى.

٧- الأكل بالأيدي وخصوصًا لمن تعوَّده:

من الناس من تعوَّدوا الأكل بأيديهم من الطعام، كما رأينا ذلك عاديًّا عند كثير من الشعوب، كأهل الخليج وباكستان والأفغان والهند، وخصوصًا أطعمة الثريد والأرز باللحم، وهو ما يسمَّى المكبوس. ومن أهل الحضر من عاشرهم وتعلّم منهم هذه العادات، وكل امرئ على ما تعوده، المهم غسل اليدين قبل الأكل وبعده، وتعود النظافة في كل ما يتعلق بالطعام ومائدته وأدواته.

٨- حَمْد اللهِ عند الفراغ من الأكل:

وكما بدأ الأكل باسم الله، فإنه يختمه إذا فرغ منه: بحمد الله تعالى؛ فقد أتمَّ الله عليه نعمته، وأشبع جُوعته، وهيَّأ له الطعام الحلال، ورزقه من حيث لا يحتسب، سواء أكل في بيته، أم أكل في بيت غيره، فعليه أن يعلن الحمد لله تبارك وتعالى. فهو

---

(١) رواه مسلم في الأشربة (٢٠٣٣)، وأحمد في مسنده (١٤٢٢٤).

(٢) رواه مسلم في الأشربة (٢٠٣٤)، وأحمد (١٢٨١٥)، عن أنس.

(٣) شرح النووي على مسلم (١٣/ ٢٠٤).

بمجرَّد أن يشبع ويكتفي، أو يُرفع الطعام من بين يديه، يقول ما كان يقوله النبي ﷺ: «الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، غير مكْفيّ[(١)] وَلا مُودَّع[(٢)]، ولا مستغنىً عنه، ربنا»[(٣)]، أو يقول: «الحمد لله الذي أطعم وسقى، وسوغه وجعل له مخرجًا»[(٤)]. وذكر البخاري: أنه كان يقول: «الحمد لله الذي كفانا وأروانا، غير مَكفيّ ولا مكفور»[(٥)].

وذكر الترمذي عنه أنه قال: «من أكل طعامًا، ثم قال: الحمد لله الذي أطعمني هذا، ورَزَقَنيه من غير حَول مني ولا قوة؛ غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه»[(٦)].

وفي رواية: أنه كان إذا قرب إليه الطعام يقول: «باسم الله». فإذا فرغ قال: «اللهمَّ أطْعمتَ وأسقيْتَ وأقنيْتَ[(٧)] وهديْتَ وأحييْتَ، فلله الحمد على ما أعطيت»[(٨)].

قال ابن القيم: وإسناده صحيح[(٩)].

وفي السنن أيضًا: «إذا أكل أحدكم طعامًا فليقل: اللهمَّ بارك لنا فيه، وأطعمنا

(١) أي: غير محتاج إلى أحدٍ من عباده، لكنه هو الذي يطعم عباده ويكفيهم.

(٢) أي: غَير مَتْرُوك.

(٣) رواه البخاري في الأطعمة (٥٤٥٨)، عن أبي أمامة.

(٤) رواه أبو داود في الأطعمة (٣٨٥١)، عن أبي أيوب الأنصاري.

(٥) رواه البخاري في الأطعمة (٥٤٥٩)، عن أبي أمامة.

(٦) رواه أحمد (١٥٦٣٢) وقال مخرجوه: إسناده حسن، وأبو داود في اللباس (٤٠٢٣)، والترمذي في الدعوات (٣٤٥٨) وقال: حسن غريب، وحسنه ابن حجر في نتائج الأفكار (١/ ١٢٣)، عن معاذ ابن أنس.

(٧) أي: جعلت للعبد قنية يقتنيها من متاع الدنيا، مأخوذ من وأنه أغنى وأقنى.

(٨) رواه أحمد (١٦٥٩٥) وقال مخرجوه: إسناده صحيح، والنسائي في الكبرى في الأشربة المحظورة (٦٨٧١)، عن رجل خدم النبي ﷺ.

(٩) زاد المعاد (٢/ ٣٦٥).

خيرًا منه، ومن سقاه الله لبنًا فليقل: اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه. فإنه ليس شيء يجزي من الطعام والشراب إلا اللبن»[1].

وفي صحيح مسلم روى أنس بن مالك خادم رسول الله وصاحبه: أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها»[2].

وقد عوَّد الإسلام المسلم: أن يحمد الله ﷻ، كلما أسدى له نعمة من نعمه، ولا ريب أن كل ما لدينا من نِعم هو من الله تبارك وتعالى، كما قال ﷻ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل:٥٣].

ولذلك علم الله تعالى نبيَّه نوحًا عليه السلام فقال: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [المؤمنون:٢٨].

وهكذا نحمد الله تعالى إذا طلع علينا الصباح، ونحن بعافية وخير، ونقول: «أصبحنا وأصبح الملك لله، والحمد لله، لا شريك له، لا إله إلا الله وإليه النشور»[3].

وفي المساء نقول ذلك مع تغيير اللفظ من «أصبحنا» إلى «أمسينا».

وفي حديث آخر علمنا الرسول أن نقول بعد الاستيقاظ: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور»[4].

---

(١) رواه أبو داود في الأشربة (٣٧٣٠)، والترمذي في الدعوات (٣٤٥٥) وقال: حديث حسن، وابن ماجه في الأطعمة (٣٣٢٢)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٢٣٢٠)، عن ابن عباس.

(٢) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٣٤)، وأحمد (١١٩٧٣)، عن أنس بن مالك.

(٣) رواه البزار (٨٦٨٥)، وجوَّد إسناده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٦٩٩٤)، وحسن إسناده ابن حجر في مختصر زوائد البزار (٢/ ٨٢٣)، عن أبي هريرة.

(٤) رواه البخاري في الدعوات (٦٣٢٥)، عن أبي ذر. ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧١١)، عن البراء ابن عازب.

٩- غسل اليد بعد الطعام:

ذكر المنذري بابًا في الترغيب في غسل اليد قبل الطعام وبعده، والترهيب أن ينام وفي يده ريح الطعام لا يغسلها، ولكن لم يصح الخبر في غسل اليد قبل الطعام، ولهذا لم أضعه في «المنتقى في الترغيب والترهيب»، وهو الذي رواه سلمان مرفوعًا: «بركة الطعام الوضوء قبله، والوضوء بعده»[١] فالحديث ضعيف، وإن كان غسل اليد قبل الطعام وبعده أمرًا محمودًا، فهو من النظافة التي حثَّ عليها الإسلام.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من نام، وفي يده غَمَر[٢]، ولم يغسله، فأصابه شيء، فلا يلومنَّ إلا نفسه»[٣].

ولهذا يحسن بالمسلم أن يغسل يده قبل الأكل وبعده، عملًا بالتوجيه العام إلى استحباب النظافة للفرد المسلم والمجتمع المسلم، وقد اشتهر على ألسنة المسلمين: أن النظافة من الإيمان. ولم يصح حديث بهذا اللفظ، ولكن لعلَّهم استنبطوه من حديث: «الطهور شطر الإيمان». وهو في صحيح مسلم[٤]. وهو من أحاديث الأربعين النووية.

---

(١) رواه أحمد (٢٣٧٣٢) وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف، وأبو داود في الأطعمة (٣٧٦١) وقال عقبه: ضعيف، والترمذي في الأطعمة (١٨٤٦) وقال: لا نعرف هذا الحديث إلا من حديث قيس بن الربيع، وقيس بن الربيع يضعَّف في الحديث، وضعفه الألباني في الضعيفة (١٦٨)، عن سلمان الفارسي.

(٢) الغمر بفتح الغين المعجمة والميم بعدها راء: هو ريح اللحم وزهومته.

(٣) رواه أحمد (٧٥٦٩) وقال مخرجوه: إسناده صحيح، وأبو داود (٣٨٥٢)، والترمذي (١٨٦٠)، وقال: حسن غريب، وابن ماجه (٣٢٩٧)، ثلاثتهم في الأطعمة، وابن حبان في الزينة والتطيب (٥٥٢١)، وصحَّحه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٦٦٦). ورواه ابن ماجه في الأطعمة أيضًا (٣٢٩٦) عن فاطمة، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٦٦٥).

(٤) رواه مسلم في الطهارة (٢٢٣)، وأحمد (٢٢٩٠٢)، والترمذي في الدعوات (٣٥١٧)، عن أبي مالك الأشعري.

١٠- تحريم الأكل في أواني الذهب والفضة:

أباح لنا الإسلام أن نأكل كما يحلو لنا، وكما يليق بنا، حسب نوع الطعام، وحسب طريقة طهيه أو وصفه، ولكنه نهانا من استعمال أواني الذهب والفضة، مع إحلال كل ما عداهما من أواني النحاس والحديد والألمونيوم والفخار والرخام وغيرها من الأصناف والألوان.

وقد جاء في السُّنَّة تحريم هذه الأواني بأعيانها تطبيقًا لما ذمّه وشدَّد في ذمه القرآن الكريم من الترف والتبذير.

فعن أم سلمة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال: «الذي يشرب في آنية الفضة، إنما يُجَرْجِر في بطنه نار جهنم»[(١)].

وفي رواية لمسلم: «إن الذي يأكل أو يشرب في آنية الذهب والفضة، إنما يجرجر في بطنه نار جهنم»[(٢)]. وفي أخرى له: «مَن شرب في إناء من ذهب أو فضة، فإنما يجرجر في بطنه نارًا من جهنم»[(٣)].

وعن حُذيفة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تلبَسوا الحرير ولا الديباج، ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافها، فإنها لهم في الدنيا، ولكم في الآخرة»[(٤)].

هدي الرسول ﷺ في طعامه:

كان ﷺ إذا دخل على أهله رُبَّما يسألهم: «هل عندكم طعام؟» فأحيانًا

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأشربة (٥٦٣٤)، ومسلم في اللباس والزينة (٢٠٦٥).

(٢) رواه مسلم في اللباس والزينة (٢٠٦٥).

(٣) رواه مسلم في اللباس والزينة (٢٠٦٥).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في الأطعمة (٥٤٢٦)، ومسلم في اللباس والزينة (٢٠٦٧).

يقولون: نعم. وأحيانًا يقولون: لا. ومن كمال هديه ﷺ في الطعام أنه كان لا يرد موجودًا، ولا يتكلف مفقودًا، فما قُرِّب إليه شيء من الطيبات إلا أكله، إلا أن تعافه نفسه، فيتركه من غير تحريم.

وما عاب النبيُّ ﷺ طعامًا قط، إن اشتهاه أكله، وإن كرهه تركه[1]. وربما قال: «أجدني أعافه»[2].

قال الإمام ابن القيم: «وكان يمدح الطعام أحيانًا، كقوله لما سأل أهله الإدام، فقالوا: ما عندنا إلا خل. فدعا به، فجعل يأكل منه، ويقول: «نِعْم الأُدْم الخل»[3]. وليس في هذا تفضيل له على اللبن واللحم والعسل والمرق، وإنما هو مدح له في تلك الحال التي حضر فيها، ولو حضَرَ لحم أو لبن كان أولى بالمدح منه، وقال هذا جبرًا وتطييبًا لقلب من قدَّمه، لا تفضيلًا له على سائر أنواع الإدام».

أكله مع أصحابه وعند من يدعوه وهديه في ذلك:

لم يكن ﷺ يأنف من تناول الطعام مع أيِّ شخص، مهما كان عمره أو وضعه الاجتماعي، تواضعًا منه عليه الصلاة والسلام.

«وكان إذا قُرِّب إليه طعام وهو صائم قال: «إنِّي صائم».

روى البخاري من حديث أنس بن مالك: دخل النبي ﷺ، على أم سُلَيْم، فأتته بتمر وسمن، قال: «أعيدوا سمنكم في سِقائه، وتمركم في وعائه، فإني صائم». ثم قام إلى ناحية من البيت، فصلَّى غير المكتوبة، فدعا لأم سُلَيم وأهل بيتها[4].

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأطعمة (٥٤٠٩)، ومسلم في الأشربة (٢٠٦٤)، عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الأطعمة (٥٣٩١)، ومسلم في الصيد (١٩٤٦)، عن خالد بن الوليد.

(٣) رواه مسلم في الأشربة (٢٠٥٢)، وأحمد (١٤٩٢٥)، وأبو داود في الأطعمة (٣٨٢٠)، عن جابر بن عبد الله.

(٤) رواه البخاري في الصوم (١٩٨٢)، وأحمد (١٢٠٥٣).

وأمر من قُرِّبَ إليه الطعامُ، وهو صائم، أن يُصَلِّيَ، أي يدعو، لمن قدَّمه، وإن كان مفطرًا أن يأكل منه[1].

وكان إذا دُعي لطعام وتبعه أحد، أعلم به ربَّ المنزل، وقال: «إن هذا تَبِعَنا، فإن شئت أن تأذن له، وإن شئت رجع»[2].

وكان يتحدَّث على طعامه، كما تقدَّم في حديث الخل، وكما قال لربيبه عمر ابن أبي سلمة وهو يؤاكله: «سمِّ الله، وكل ممَّا يليك»[3].

وربما كان يكرِّر على أضيافه عرض الأكل عليهم مرارًا، كما يفعله أهل الكرم، كما في حديث أبي هريرة عند البخاري في قصة شرب اللبن، وقوله له مرارًا: «اشْرَب»، فما زال يقول «اشْرَب»، حتى قال: والذي بعثك بالحق لا أجد له مسلكًا[4].

دعاؤه ﷺ لمن أكل عندهم، ولمن أطعم غيره:

وكان إذا أكل عند قوم لم يخرُج حتى يدعو لهم، فدعا في منزل عبد الله بن بُسر، فقال: «اللهمَّ بارك لهم فيما رزقتهم، واغفر لهم وارحمهم»[5].

ودعا في منزل سعد بنِ عُبادة، فقال: «أفطر عندكم الصائمون، وأكل طعامَكمُ الأبرارُ، وصلَّت عليكم الملائكة»[6].

---

(١) روى أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دعي أحدكم، فليجب، فإن كان صائما، فليصل، وإن كان مفطرا، فليطعم». رواه مسلم في النكاح (١٤٣١).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في البيوع (٢٠٨١)، ومسلم في الأشربة (٢٠٣٦)، عن أبي مسعود الأنصاري.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) رواه البخاري في الرقاق (٦٤٥٢)، وأحمد (١٠٦٧٩).

(٥) رواه مسلم في الأشربة (٢٠٤٢)، وأحمد (١٧٦٧٥)، وأبو داود في الأشربة (٣٧٢٩)، عن عبد الله ابن بسر.

(٦) رواه أحمد (١٢١٧٧) وقال مخرجوه: حديث صحيح، وأبو داود في الأطعمة (٣٨٤٥)، والنسائي في الكبرى في الأشربة المحظورة (٦٨٧٤)، عن أنس بن مالك.

وصحَّ عنه ﷺ أنه دخل منزله ليلة، فالتمس طعامًا فلم يجده، فقال: «اللهم أطْعِم من أطْعَمني، واسْقِ من سقاني»[(١)].

وكان يدعو لمن يُضيِّف المساكين، ويُثني عليهم، فقال مرة: «ألا رجل يضيف هذا رحمه الله؟»[(٢)] وقال للأنصاري وامرأته اللذين آثرا بقوتهما وقوت صبيانهما ضيفهما: «لقد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة»[(٣)]»[(٤)].

هديه ﷺ في شرابه:

أما هديه ﷺ في شرابه، فقد كان يشرب باليمين[(٥)]، كما ورد ذلك في الأكل، وكان يشرب الماء على ثلاث دفعات، يتنفس بينها[(٦)]، مبْعِدًا الإناء عن فيه وعن نفسه وقاية له من التلوث.

نهيه عن التنفس في الإناء والشرب من في السقاء:

وكان ينهى عن التنفس في الإناء، وفي هذا صحَّت أحاديث الرسول الكريم التي نهت المسلم أن ينفخ أو يتنفس في الإناء، أو يشرب من فم السقاء، حرصًا على سلامته، وابتعاده عن أسباب العدوى، حتى لا يصاب بشيء، فيضر نفسه، ويعدي غيره. وقد قال عليه السلام: «فرَّ من المجذوم فرارك من الأسد»[(٧)].

---

(١) جزء من حديث طويل، رواه مسلم في الأشربة (٢٠٥٥)، وأحمد (٢٣٨٠٩)، عن المقداد بن الأسود.

(٢) رواه مسلم في الأشربة (٢٠٥٤).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٨٨٩)، ومسلم في الأشربة (٢٠٥٤)، عن أبي هريرة.

(٤) زاد المعاد (٢/ ٣٦٧- ٣٦٨)، بتصرف.

(٥) إشارة إلى حديث أم المؤمنين حفصة: كان يجعل يمينه لطعامه وشرابه وثيابه، ويجعل شماله لما سوى ذلك. رواه أحمد (٢٦٤٦١) وقال مخرجوه: صحيح لغيره، وأبو داود في الطهارة (٣٢).

(٦) متفق عليه: رواه البخاري في الأشربة (٥٦٣١)، ومسلم في الأشربة (٢٠٢٨)، عن أنس.

(٧) رواه أحمد (٩٧٢٢) وقال مخرجوه: صحيح، وهذا إسناد ضعيف، والبخاري تعليقًا (٥٧٠٧) مجزومًا به، والبيهقي في النكاح (٧/ ١٣٥)، وصححه الألباني في الصحيحة (٧٨٣)، عن أبي هريرة.

فعن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ نهى عن النفخ في الشرب، فقال رجل: القذاة أراها في الإناء؟ قال: «أهرقها». قال: فإني لا أروى من نَفَس واحد؟ قال: «فأبِن القدَح إذَن عن فيك»[١]. وإن كان الشرب بنفس واحد جائز.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنّ النبي ﷺ نهى أن يُتَنَفَّس في الإناء، أو يُنْفَخ فيه[٢].

قال الحافظ المنذري: وروى البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، النهي عن التنفُّس في الإناء من حديث أبي قتادة[٣].

قال الحافظ ابن حجر: «قال المهلَّب: النهي عن التنفس في الشرب كالنهي عن النفخ في الطعام والشراب، من أجل أنه قد يقع فيه شيء من الريق، فيعافه الشارب ويتقذَّره، إذ كان التقذُّر في مثل ذلك عادة غالبة على طباع أكثر الناس.

ومحل هذا إذا أكل وشرب مع غيره، وأما لو أكل وحده، أو مع أهله، أو من يعلم أنه لا يتقذَّر شيئًا مما يتناوله، فلا بأس. قلت: والأولى تعميم المنع؛ لأنه لا يؤمَن مع ذلك أن تفضل فضلة، أو يحصل التقذُّر من الإناء أو نحو ذلك.

وقال ابن العربي: قال علماؤنا: هو من مكارم الأخلاق، ولكن يحرم على الرجل أن يناول أخاه ما يتقذَّره، فإن فعله في خاصة نفسه ثم جاء غيره فناوله إيَّاه، فليُعلمه، فإن لم يعلمه فهو غشٌّ، والغش حرام.

وقال القرطبي: معنى النهي عن التنفُّس في الإناء؛ لئلَّا يتقذَّر به من بزاق، أو

---

(١) رواه أحمد (١١٢٧٩) وقال مخرجوه: إسناده صحيح، والترمذي في الأشربة (١٨٨٧) وقال: حسن صحيح، والحاكم في الأشربة (٤/ ١٣٩)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي.

(٢) رواه أحمد (١٩٠٧) وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط البخاري، وأبو داود (٣٧٢٨)، والترمذي (١٨٨٨) وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الوضوء (١٥٣)، ومسلم في الطهارة (١٥٣)، كما رواه الترمذي في الأشربة (١٨٨٩)، والنسائي في الطهارة (٤٧).

رائحة كريهة تتعلق بالماء»[1].

وعن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ كان يتنفَّس في الإناءِ ثلاثًا، ويقول: «هو أمرأ وأروى»[2].

قال الحافظ المنذري: وهذا محمول على أنه كان يُبِينُ القدح عن فيه كل مرة، ثم يتنفس، كما جاء في حديث أبي سعيد المتقدِّم، لا أنه كان يتنفس في الإناء[3].

النهي عن الشرب من الثُّلمة الموجودة في القَدَح ومن أفواه السقاء:

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: نهى رسول الله ﷺ عن اخْتِنَاث الأسقية- يعني أن تكسر أفواهها- فيشرب منها[4].

وعن أبي سعيد الخدري أنه قال: نهى رسول الله ﷺ عن الشرب من ثُلمة القَدَح، وأن ينفخ في الشراب[5].

فالشرب من مكان الثلمة الموجودة في القدح أو الإناء منهي عنه. والنهي نهي كراهة عند أئمة الإسلام، كما ذكر ذلك الإمام ابن عبد البر، قال الإمام الطحاوي في «شرح معاني الآثار»: وقد قال قوم: إنما نهى عن ذلك؛ لأنه الموضع الذي يقصده الهوامُّ، فنهى عن ذلك خوف أذاها[6]. وعن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله

(١) فتح الباري (١٠/ ٩٤).

(٢) رواه الترمذي في الأشربة (١٨٨٤) وقال: حديث حسن، والنسائي في الكبرى في الأشربة المحظورة (٦٨٦١)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢١١٩).

(٣) الترغيب والترهيب عقب الحديث (٣٢١٤).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٥٦٢٥)، ومسلم (٢٠٢٣)، كلاهما في الأشربة.

(٥) رواه أحمد (١١٧٦٠) وقال مخرجوه: حديث حسن، وأبو داود (٣٧٢٢)، وابن حبان (٥٣١٥)، كلاهما في الأشربة.

(٦) شرح معاني الآثار (٤/ ٢٧٦).

ﷺ نَهى أنْ يُشْرَب مِن فِي السِّقاء، فأُنبِئْتُ أنَّ رجلًا شرب مِنْ في السقاء، فخرجت حيَّة[1]. رواه البخاري مختصرًا دون قوله: «فأنبئت» إلى آخره، ورواه الحاكم بتمامه، وقال: صحيح على شرط البخاري[2].

وفي رواية: أن رسول الله ﷺ نهى أن يشرب الرجل من في السقاء، وأن يتنفس في الإناء[3].

شربه ﷺ من في القربة:

وقد ثبت عن النبي ﷺ: أنه شرب من في قربة معلقة قائمًا[4].

فيجوز الشرب من القِنِّينة، لكنَّ الأولى تركه، وصبّ ما في القنينة في كأس، ثم يشرب منها، وذلك لما ثبت عن النبي ﷺ: أنه نهى عن الشرب من فم القِرْبة.

وقد وفَّق أهل العلم بين فعله ونهيه، بحمل النهي على التنزيه، وحمل الفعل على الجواز، كذا قال النووي، ثم إن الأمر في القنينة إذا كان يرى ما بداخلها أوسع من القربة؛ لأن من حكمة النهي عن الشرب من فم القربة الخوف من دخول حشرة في فم الشارب من فم القربة وهو لا يعلم، وقيل بأنها للخوف من إنتان الماء بالشرب منه، وهذا قد لا يكون واقعًا في شأن الشارب من القنينة.

الشرب قائماً وقاعداً:

من هديه ﷺ أنه كان يشرب قاعدًا، وكان قليلًا ما يشرب قائمًا، حتى قال ﷺ:

---

(١) رواه البخاري في الأشربة (٥٦٢٨)، وأحمد (٧١٥٣).

(٢) رواه أحمد (١٠٣٢٠) وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط البخاري، والحاكم في الأشربة (٤/ ١٤٠)، وصححه على شرط البخاري، ووافقه الذهبي.

(٣) رواه ابن حبان في الأشربة (٥٣١٦) وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح.

(٤) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني.

«لا يشربنَّ أحدكم قائمًا»(١).

وأخرج مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك ﷺ: أن النبيَّ ﷺ زجر عن الشرب قائمًا(٢). فهذا الحديث الصحيح صريح في النهي عن الشرب قائمًا، ولكن ثبت أيضًا أنه ﷺ شرب قائمًا، ففي الصحيحين عن ابن عباس ﷺ: أن النبي ﷺ شرب من زمزم قائمًا(٣). وفي صحيح البخاري أن علي بن أبي طالب ﷺ أتي على باب الرحبة بماء، فشرب قائمًا، فقال: إن ناسًا يكره أحدهم أن يشرب وهو قائم، وإني رأيت رسول الله ﷺ فعل كما رأيتموني فعلت(٤).

وذكر العلماء في الجمع بين أحاديث النهي والإباحة: أن النهي محمول على كراهة التنزيه، وشربه ﷺ قائمًا بيان للجواز(٥).

حكم الشرب من إناء واحد:

والأصل جواز شرب شخصين أو أكثر من إناء واحد، وكذا اشتراك الأشخاص في الأكل من إناء واحد، فقد كان النبي ﷺ وصحابته الكرام ومن

---

(١) رواه مسلم في الأشربة (٢٠٢٦)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم في الأشربة (٢٠٢٤)، وأحمد (١٣٢٣١).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الحج (١٦٣٧)، ومسلم في الأشربة (٢٠٢٧).

(٤) رواه البخاري في الأشربة (٥٦١٥).

(٥) وأما الأكل قائما، فإنه مثل الشرب، فيجوز للحاجة، ويكره لغيرها، وقد سئل أنس رضي الله عنه - وهو رواي حديث النهي عن الشرب قائمًا - عن الأكل، فقال: ذاك أشرُّ أو أخبث. رواه مسلم في الأشربة (٢٠٢٤) وغيره. وقد روى الترمذي في الأشربة (١٨٨٠) وقال: حسن صحيح غريب، وابن ماجه في الأطعمة (٣٣٠١)، عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: كنا نأكل على عهد رسول الله ﷺ ونحن نمشي، ونشرب ونحن قيام. وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٤٢٧٥)، قال صاحب تحفة الأحوذي (٦/ ٣): وفيه دلالة على جواز الأكل ماشيًا، وحديث أنس المذكور في الباب المتقدم يدل على المنع، فيحمل حديث أنس على كراهة التنزيه، وحديث ابن عمر على الجواز مع الكراهة، جمعًا بين الحديثين.

تبعهم يشرب الواحد منهم من الإناء، ويناول من على يمينه وهكذا، ورد ذلك في أكثر من حديث صحيح[(١)].

وكان من هديه عليه الصلاة والسلام ترك التكلُّف، وقد كان يشرب من موضع شرب زوجته وهي حائض.

روى مسلم في صحيحه عن عائشة قالت: كنت أشرب وأنا حائض، ثم أناوله النبي ﷺ، فيضع فاه على موضع فيَّ فيشرب، وأتعرق العَرْق[(٢)] وأنا حائض، ثم أناوله النبي ﷺ فيضع فاه على موضع فيَّ[(٣)].

وهذا في الحالات العادية، أما إذا كان هناك مرض أو خوف من العدوى فلا ينبغي للمسلم أن يشرب من فضلة المريض أو من يخشى منه، لأن الوقاية مأمور بها، ولعل النهي الوارد في الشرع عن النفخ في الطعام والشراب من هذا القبيل، وقد جاء في الصحيحين وغيرهما: أن النبي ﷺ قال: «لا يوردن ممرض على مصح»[(٤)].

وشرع لأمته التحرُّز من الأدواء المعدية، وأرشد الأصحاء لمجانبة أهلها.

ساقي القوم آخرهم شرباً:

ومن الآداب التي سنّها رسول الله ﷺ والمتعلّقة بالشرب عند اجتماع الناس أن يكون ساقي القوم هو آخر من يشرب.

---

(١) منها حديث سهل بن سعد رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ أتي بشراب فشرب منه، وعن يمينه غلام، وعن يساره الأشياخ، فقال للغلام: «أتأذن لي أن أعطي هؤلاء؟» فقال الغلام: والله يا رسول الله، لا أوثر بنصيبي منك أحداً. قال: فتله رسول الله ﷺ في يده. رواه البخاري في الأشربة (٥٦٢٠).

(٢) العَرْق: العظم الذي عليه بقية من لحم، وتعرقت العظم: أخذت عنه اللحم بأسنانك.

(٣) رواه مسلم في الحيض (٣٠٠)، وأحمد (٢٤٣٢٨).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في الطب (٥٧٧١)، ومسلم في السلام (٢٢٢٠)، عن أبي هريرة.

فعن أبي قتادة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «إن ساقي القوم آخرهم شُربًا»[1]. وأن يكون تقديم الشراب باعتبار السنِّ والمكانة لا الجهة.

حبه ﷺ للبن والماء العذب:

وأكثر ما كان النبي ﷺ يحبُّ شربه: اللبن، حتى كان يقول في حقّه: «ليس شيء يجزئ مكان الطعام والشراب غير اللبن»[2].

وكان يخصّص له من الحمد ما ليس لغيره من الأطعمة، وقد روى ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «من أطعمه الله الطعام فليقل: اللهمَّ بارك لنا فيه، وأطعمنا خيرًا منه. ومن سقاه الله لبنًا فليقل: اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه»[3].

وكان النبي ﷺ يعجبه شرب الماء العذب البارد[4]، ويطلب أن يُحضر له من الآبار، كما ثبت في السنن[5].

النهي عن ترك الآنية مكشوفة:

إن ترك الآنية بالليل مكشوفة خلاف أمر النبي ﷺ، لما قد يترتب على ذلك من إفساد الشياطين وكيدهم، بل ثبت الأمر بتغطية الآنية وإغلاق الأبواب.. وما

---

(١) رواه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٦٨١)، وأحمد (٢٢٥٤٦)، عن أبي قتادة.

(٢) رواه أبو داود في الأشربة (٣٧٣٠)، والترمذي في الدعوات (٣٤٥٥) وقال: حديث حسن، وابن ماجه في الأطعمة (٣٣٢٢)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٢٣٢٠)، عن ابن عباس.

(٣) رواه أحمد (١٩٧٨) وقال مخرجوه: حديث حسن، أبو داود في الأشربة (٣٧٣٠)، والترمذي في الدعوات (٣٤٥٥) وقال: حديث حسن، وابن ماجه في الأطعمة (٣٣٢٢)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٢٣٢٠).

(٤) عن أنس، قال: كان رسول الله ﷺ يدخلها (بيرحاء) ويشرب من ماء فيها طيب. رواه البخاري في الأشربة (٥٦١١).

(٥) عن عائشة، أن رسول الله ﷺ كان يستقى له الماء العذب من بيوت السقيا. رواه أحمد (٢٤٦٩٣)، وقال مخرجوه: إسناده جيد كما قال الحافظ في الفتح (١٠ / ٧٤)، وأبو داود (٣٧٣٥)، وابن حبان (٥٣٣٢)، كلاهما في الأشربة، عن عائشة. وبيوت السقيا: عين بينها وبين المدينة يومان.

أشبه ذلك مع ذكر اسم الله تعالى، ففي صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال: «خمِّروا الآنية، وأوكوا الأسقية، وأجيفوا الأبواب، وكُفُّوا صبيانكم»[(١)]. وفي صحيح مسلم قال النبي ﷺ: «غطوا الإناء، وأوكوا السقاء، وأغلقوا الباب، وأطفئوا السراج، فإن الشيطان لا يحُل سقاء، ولا يفتح بابًا، ولا يكشف إناء، فإن لم يجد أحدكم إلا أن يعرُض على إنائه عودًا ويذكر اسم الله تعالى فليفعل، فإن الفُوَيْسقة تضرم على أهل البيت بيتهم»[(٢)]. قال ابن حجر في «فتح الباري»: « جميع أوامر هذا الباب من باب الإرشاد إلى المصلحة، ويحتمل أن تكون للندب، ولا سيما في حق من يفعل ذلك بنيَّةِ امتثال الأمر »[(٣)].

(١) رواه البخاري في بدء الخلق (٣٣١٦)، عن جابر.

(٢) رواه مسلم في الأشربة (٢٠١٢، عن جابر.

(٣) الفتح (٦/ ٣٥٦).

الفصل الثالث

أدب المسلم في اللباس والزينة

من نعم الله العظيمة التي امتن بها على البشر نعمة الملابس، وهي نعمة قد خص الله بها بني آدم دون غيرهم من سائر المخلوقات، يسترون بها عوراتهم، ويتقون بها الحر والبرد، ويتجملون ويتزينون، قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ [الأعراف:٢٦]، والريش: ما يحقق الزينة والجمال. وقال: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝﴾ [النحل:٥]، وقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ﴾ [النحل:٨١].

وقد قصَّ القرآن الكريم علينا قصَّة الإنسان الأول الذي خلقه الله، وخلق منه زوجته «آدم وحواء»، وأباح لهما أن يسكنا فيها، ويأكلا منها رغدًا حيث شاءا، من كل شجر الجنَّة إلا شجرة واحدة، نهاهما عن الأكل منها، ورتَّب الله على أكل آدم وحواء من الشجرة انكشاف سوآتهما، التي كانت تخبأت عنهما: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝﴾ [الأعراف: ٢٢].

وكان أكلهما من الشجرة المنهي عنها بوسوسة الشيطان، وإقسامه لهما أنه من الناصحين لهما، هو بداية انكشاف هذه العورات من الإنسان.

ومن هنا كان أمر الله تعالى إلى بني آدم أن يطيعا ما أمر الله به، ويخالفا ما جاء به الشيطان: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧﴾ [الأعراف: ٢٧].

فالإسلام يدعو الناس إلى أن يتحلَّوا بلُبس الثياب، وأن يحرصوا على ستر العورات، والتجمُّل بالملابس، ولا يكونوا كالذين يعيشون في بعض الصَّحاري والقفار والغابات، كما خلقهم الله سبحانه، رجالًا ونساء، كبارًا وصغارًا.

بل إن الإسلام يدعو المجتمع كله أن يوفِّر لكلِّ فرد- كحد أدنى- ملبسًا مناسبًا للشتاء، وملبسًا مناسبًا للصيف، وهذا ما أوجبه ابن حزم لكلِّ مسلم أو ذمِّي في ظلِّ نظام الإسلام، وأجاز له أن يقاتل للحصول عليه[(١)].

وجوب ستر العورة:

فالغرض من الملبس في نظر الإسلام أمران: ستر العورة، والزينة.

وقد أوجب الإسلام على المسلم أن يستر عورته، التي يستحيي الإنسان المتمدِّن بفطرته من كشفها، حتى يتميز عن الحيوان العاري؛ ودعاه إلى هذا التستر، وإن كان منفردًا بعيدًا عن الناس، حتى يصير الاحتشام له ديدنًا وخلقًا.

عن بهْز بن حكيم، عن أبيه، عن جده قال: قلت: يا رسول الله، عوراتنا ما نأتي منها وما نذر؟ فقال: «احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك». قلت: يا رسول الله، فإذا كان القوم بعضهم في بعض[(٢)]؟ قال: «فإن استطعت ألَّا يراها أحد فلا يرينَّها» فقلت: فإذا كان أحدنا خاليًا؟ (أي منفردًا عن الناس) قال: «فالله

(١) ينظر: المحلى (٤/ ٢٨١)، دار الفكر – بيروت.

(٢) أي في السفر ونحوه مما يختلط فيه الناس في نومهم ويقظتهم.

تبارك وتعالى أحقُّ أن يُستحيا منه»[1]. حتى لو كان وحده ينبغي أن يستر عورته عن غير امرأته.

الإسلام يدعو إلى الزينة:

وفوق هذا الحدِّ الأدنى من الملبس، الذي يستر العورة ويقي من الحر والبرد، ينبغي أن يتهيَّأ للمسلم ما يتجمَّل به في المناسبات، كالجُمَع والأعياد، وذلك مطلوب من المسلم لئلَّا يؤذي الآخرين بلباس مهنته.

قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ [الأعراف:٣١- ٣٢].

فسمَّى القرآنُ الزينةَ التي أحلها الله للإنسان «زينة الله»، وهذه الإضافة ليكرِّمها ويحلِّيها للإنسان، فالأصل الحل. وقد رأينا الله ﷻ يبيح للناس اللباسَ الساتر لما يجب ستره، الذي يقي من الحر والبرد، وكل العوامل المؤثرة في حياة الإنسان وصحّته، ولباس الزينة، والرياش ولباس التقوى.

فقد طلب الله من الناس أن يتَّخذوا الزينة عند كلِّ مسجد، حتى لا يظن الناس أن المساجد والصلاة فيها تتطلب التقشف، والبعد عن التحلي والتزيُّن. ولذا كان الحسن إذا أراد الذهاب إلى الصلاة: لبس أجمل ما عنده وأنظفه، وأروعه، ليلقى ربه، فلمّا سئل عن ذلك قال: إنَّ المرء إذا أراد أن يلقى أميرًا لبس للقائه أفضل ما عنده، فربنا أولى أن نتجمَّل له.![2]

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢٠٠٣٤)، وقال مخرجوه: إسناده حسن، وأبو داود في الحمام (٤٠١٧)، والترمذي في الأدب (٢٧٦٩)، وقال: حديث حسن، والنسائي في الكبرى: كتاب عشرة النساء (٨٩٧٢)، وابن ماجه في النكاح (١٩٢٠)، وحسنه الألباني في غاية المرام (٧٠).

(٢) تفسير الألوسي (٤/ ٣٤٩)، نشر دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

ولا يظن مسلم أن التجمُّل باللبس الحلال، والظهور بالمظهر الطيِّب، يدخل في دائرة الكِبْر أو الاختيال أو الغرور، الذي ذمَّه الله ورسوله. إن هذه خصال نفسيَّة تتعلق بنفس المسلم، ولا صلة لها بحُسن الثياب ولا جمالها، ولا حرص الإنسان على أناقتها، وتجمله فيها.

روى مسلم في صحيحه عن ابن مسعود: أن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبْر» قال رجل: إنَّ الرجل يحبُّ أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة. قال: «إنَّ الله جميل يحب الجمال، الكبْر بَطَر الحقِّ، وغمْط الناس»[1].

فالعناية برونق الإنسان، وحسن هندامه، وجمال شكله، ونظافة جسمه، وحلية صورته، لا تدخل في الكِبْر المحرَّم، إنما الكِبْر المحظور الذي يكرهه الله، ويبغض أهله هو: أن تردَّ الحقَّ ولا تقبله، إذا جاءك ممَّن تعتقد أنه دونك، وأن تغمط الناس وتحتقرهم ولا تحترمهم بدعوى أنك أزكى منهم وأطهر، أو أذكى منه وأمهر.

وهذه الأحاديث وما قبلها من آيات القرآن الكريم ممَّا أحل اللباس والتزيُّن والتجمل للرجال والنساء، مما تميَّزت به أحكام الإسلام ومُثله وقيَمه، ولكن لا يعني هذا: أن المسلم يصبح أكبر همِّه، ومبلغ علمه، أن يلبس الثوب الجميل، ويرتدي العباءة الفخمة، ويتحلَّى بالعمامة الفائقة، ويلبس من روائع اللباس ما يتبختر به في الناس، كأنه الطاووس، أو تمشي به المرأة مشية العروس، فليس هذا ما يريده الأخيار الصالحون، الذين جعلوا الدار الآخرة هي غايتهم التي إليها يسيرون، وعليها يحرصون، ومن أجلها يعملون ويتنافسون.

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (٩١)، وأحمد (٣٧٨٩)، وأبو داود في اللباس (٤٠٩١)، ابن مسعود.

يقول أبو العلاء:

وإنـي جوادٌ لـم يُحَلَّ لجـامُـه ونصـلٌ يمـانٍ أغفلـته الصيـاقـلُ

وإن كان في لُبس الفتى شرف له فما السيف إلا غمده والحمائلُ!

وينسب إلى الإمام الشافعي قوله:

فلو لبس الحمار ثيابَ خَزٍّ لقال الناس: يا لك من حمارِ!

تحريم الذهب والحرير على الرجال وإباحتهما للنساء:

وإذا كان الإسلام قد أباح الزينة؛ بل طلبها، واستنكر تحريمها: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف:٣٢]. فإنه حرَّم على الرجال نوعين من الزينة، على حين أحلهما للإناث:

أولهما: التحلي بالذهب الخالص، أو الغالب.

ثانيهما: لبس الحرير الخالص، أو الغالب.

وقد ذكر الإمام المنذري في كتابه: «الترغيب والترهيب» جملة أحاديث في تحريم الذهب والحرير على الرجال، انتقيتها منه وخرَّجتها.

فعن أبي موسى ﷺ أن النبي ﷺ قال: «أُحِلَّ الذهب والحرير للإناث من أمَّتي، وحرِّم[1] على ذكورها»[2]. رواه أحمد، والنسائي، والترمذي وصححه، مع أن فيه انقطاعًا.

وروى أبو داود وابن ماجه وغيرهما معناه من حديث علي ﷺ[3] بإسناد حسن، قال ابن المديني: هو حديث حسن، رجاله معروفون.

---

(١) كذا بالإفراد.

(٢) رواه أحمد (١٩٥٠٢) وقال مخرجوه: صحيح بشواهده، والترمذي في اللباس (١٧٢٠) وقال: حسن صحيح، والنسائي في الزينة (٥١٤٨).

(٣) رواه أحمد (٧٥٠) وقال مخرجوه: صحيح لشواهده، وأبو داود في اللباس (٤٠٥٧)، والنسائي في الزينة (٥١٤٤)، وابن ماجه في اللباس (٣٥٩٥).

عن حذيفة قال: نهى رسول الله ﷺ عن لُبس الحرير والديباج، وآنية الذهب والفضة، وقال: «هي لهم في الدنيا ولنا في الآخرة»[1].

ترهيب الرجال من الحرير والذهب:

وذكر المنذري أيضًا عدَّة أحاديث في ترهيب الرجال من لبسهم الحرير وجلوسهم عليه، والتحلِّي بالذهب.

عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تلبسوا الحرير، فإنه من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة»[2].

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من لبس الحرير في الدنيا، فلن يلبسه في الآخرة»[3].

وهذه الأحاديث التي صحَّت عن الرسول الكريم إنما أرادت تحريم الحرير – ومثله الذهب– على جنس الرجال، ولم تحرِّمه على الإناث، وهو ما صرَّح به حديث علي ﷺ الآتي.

عن علي ﷺ قال: رأيت رسول الله ﷺ أخذ حريرًا فجعله في يمينه، وذهبًا فجعله في شماله، ثم قال: «إن هذين حرام على ذكور أمتي»[4].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأطعمة (٥٤٢٦)، ومسلم في اللباس (٢٠٦٧).

(٢) رواه مسلم في اللباس والزينة (٢٠٦٧).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٥٨٣٢)، ومسلم (٢٠٧٣)، كلاهما في اللباس.

(٤) رواه أحمد (٩٣٥) وقال مخرجوه: صحيح لشواهده، وأبو داود في اللباس (٤٠٥٧)، والنسائي في الزينة (٥١٤٤)، وصحح إسناده النووي في رياض الصالحين (٨٠٦)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٤٣٩٤)، عن علي بن أبي طالب.

ورواه ابن ماجه (٣٥٩٥)، وزاد في روايته: حلٌّ لإناثهم. وروى الترمذي نحوه (١٧٢٠) وقال: هذا حديث حسن صحيح. كلاهما في اللباس.

وعن أبي هريرة ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة، ومن شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة، ومن شرب في آنية الذهب والفضة في الدنيا لم يشرب بها في الآخرة، ثم قال: لباس أهل الجنة، وشراب أهل الجنة، وآنية أهل الجنة»[(١)].

وعن عقبة بن عامر ﷺ قال: أُهدِيَ لرسول الله ﷺ فَرُّوج حرير[(٢)] فلبسه، ثم صلَّى فيه، ثم انصرف، فنزعه نزعًا شديدًا كالكاره له، ثم قال: «لا ينبغي هذا للمتقين»[(٣)].

وعن هشام بن أبي رُقَيَّة ﷺ قال: سمعت مَسلمة بن مُخَلَّد وهو على المنبر، يخطب الناس يقول: يا أيها الناس، أما لكم في العَصْب والكَتَّان ما يغنيكم عن الحرير؟ وهذا رجل يخبر عن رسول الله ﷺ، قم يا عقبة. فقام عقبة بن عامر وأنا أسمع فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كذب عليَّ متعمِّدًا، فليتبوأ مقعده من النار»، وأشهد إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من لبس الحرير في الدنيا حرَمه الله أن يلبسه في الآخرة»[(٤)].

وعن حذيفة ﷺ قال: نهانا رسول الله ﷺ أن نشرب في آنية الذهب والفضة، وأن نأكل فيها، وعن لُبس الحرير والدِّيباج، وأن نجلس عليه[(٥)].

---

(١) رواه النسائي في الكبرى في الأشربة المحظورة (٦٨٤٠)، والحاكم في الأشربة (٤/ ١٤١)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي.

(٢) المشهور في ضبطه ما ضبطناه به، وهو قباء له شق من خلفه.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الصلاة (٣٧٥)، ومسلم في اللباس (٢٠٧٥).

(٤) رواه أحمد (١٧٤٣١) وقال مخرجوه: إسناده صحيح، وابن حبان في اللباس (٥٤٣٦).

(٥) رواه البخاري في اللباس (٥٨٣٧).

وعن صفوان بن عبد الله بن صفوان قال: استأذن سعد ﷺ على ابن عامر، وتحته مرافقُ(١) من حرير، فأمر بها فرفعت، فدخل عليه وهو على مِطْرفٍ من خَزٍّ(٢)، فقال له: استأذنت وتحتي مرافق من حرير، فأمرتُ بها فرُفعت، فقال له: نِعْم الرجل أنت يا ابن عامر، إن لم تكن ممن قال الله: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأحقاف:٢٠]، والله لأن أضطجع على جمر الغضا(٣) أحب إلي من أن أضطجع عليها(٤).

وعن معاذ بن جبل ﷺ قال: رأى رسول الله ﷺ جُبَّة مجيَّبة بحرير، فقال: «طوق من نار يوم القيامة»(٥).

«مُجَيَّبة»: بضم الميم، وفتح الجيم، بعدها ياء مثناة تحت مفتوحة، ثم باء موحدة، أي: لها جَيْب- بفتح الجيم- من حرير، وهو الطَّوق.

وعن ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ رأى خاتمًا من ذهب في يد رجل، فنزعه وطرحه، وقال: «يعمد أحدكم إلى جمرة من نار، فيطرحها في يده» فقيل للرجل بعد ما ذهب رسول الله ﷺ: خذ خاتمك انتفع به، فقال: لا والله لا آخذه، وقد طرحه رسول الله ﷺ(٦).

وعن أبي سعيد ﷺ أن رجلًا قدم من نجران إلى رسول الله ﷺ، وعليه خاتم

(١) جمع مرفقة وهي المخدة التي يتكأ عليها.

(٢) المطرف: ثوب في طرفيه علمان. والخز: هو ما نُسج من صوف وحرير.

(٣) شجر ينبت في الصحراء، ويكثر في نجد، خشبه صُلب، وجمره يبقى زمانًا طويلًا لا ينطفئ، وفحمه صُلب.

(٤) رواه الحاكم في التفسير (٢/ ٤٥٥)، وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي.

(٥) رواه البزار (٢٦٥٩)، والطبراني في الأوسط (٨٠٠٠)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨٦٥٢): رواه الطبراني والبزار، ورجال البزار ثقات.

(٦) رواه مسلم في اللباس (٢٠٩٠).

من ذهب، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: «إنك جئتني وفي يدك جمرة من نار»[1].

الترغيب في لُبس الأبيض من الثياب:

والذي نلحظه ممَّا صحَّ من الأحاديث النبويَّة: الترغيب في لبس الثياب البيض للأحياء، وتكفين الأموات فيها، وقد انتقينا ممَّا رواه المنذري حديثًا واحدًا، وهو ما رواه ابن عباس ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «البَسوا من ثيابكم البياض، فإنها من خير ثيابكم، وكفِّنوا فيها موتاكم»[2].

ولا ريب أن هذا أنسب لفصل الصيف وما يقترب منه، أما فصول الشتاء الأخرى وخصوصًا في البلاد الباردة، فيناسبها الألوان الداكنة والمُدْفئة، ولذا لم يحرم الرسول الكريم اللون الأسود، بل لَبِسه في بعض الأحيان[3].

وقد اتفق الفقهاء على استحباب لُبس الأبيض من الثياب، لما تقدم في حديث ابن عباس الذي انتقيته. وروى أحمد والنسائي والترمذي وصحَّحه ابن حجر عن سمرة بن جندب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «البسوا ثياب البياض، فإنها أطهر وأطيب، وكفنوا فيها موتاكم»[4]. قال الشوكاني ﷺ: «وأما كونه أطيب، فظاهر،

---

(١) رواه النسائي الزينة (٥١٨٨)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٠٦١): صحيح لغيره.

(٢) رواه أحمد (٢٠١٥٤)، وقال مخرجوه: صحيح، والترمذي في الأدب (٢٨١٠)، وقال: حسن صحيح، والنسائي في الزينة (٥٣٢٢)، والحاكم في اللباس (٤/ ١٨٥)، وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(٣) كما في حديث عمرو بن حريث قال: كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ على المنبر، وعليه عمامة سوداء قد أرخى طرفيها بين كتفيه. رواه مسلم في الحج (١٣٥٩).

(٤) رواه أحمد (٢٢١٩) وقال مخرجوه: صحيح، وأبو داود في الطب (٣٨٧٨)، والترمذي في الجنائز (٩٩٤) وقال: حسن صحيح، وابن حبان في اللباس (٥٤٢٣)، والحاكم في الجنائز (١/ ٣٥٤)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، عن ابن عباس.

وأما كونه أطهر، فلأن أدنى شيء يقع عليه يظهر، فيُغسل إذا كان من جنس النجاسة، فيكون نقيًّا، كما ثبت عنه ﷺ في دعائه: «ونقِّني من الخطايا، كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس»[(١)] [(٢)].

الترغيب في لبس القميص (الجلابية) والترهيب من طوله وجرِّه خُيلاء:

وانتقينا أحاديث ذكرها المنذري في الترغيب في القميص، والترهيب من طوله وطول غيره مما يلبس، وجرِّه خُيَلاء، وإسباله في الصلاة وغيرها.

عن أمِّ سلَمة ﵂ قالت: كان أحبَّ الثياب إلى رسول الله ﷺ القميصُ[(٣)].

وفي رواية: لم يكن ثوبٌ أحبَّ إلى رسول الله ﷺ من القميص[(٤)]. ووجه استحبابه؛ لأنه أمكن في الستر من الرداء والإزار.

وعن أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ قال: «ما أسفل من الكعبين من الإزار ففي النار»[(٥)].

وفي رواية: «إزْرة المؤمن إلى عَضَلة ساقه، ثم إلى نصف ساقه، ثم إلى كعبه، وما تحت الكعبين من الإزار ففي النار»[(٦)].

وعن أنس ﵁- قال حُمَيْد: كأنه يعني النبي ﷺ- قال: «الإزار إلى نصف

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الدعوات (٦٣٦٨)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٨٩)، عن عائشة.

(٢) نيل الأوطار (٢/ ١١٦)، نشر دار الحديث - مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

(٣) رواه أبو داود (٤٠٢٥)، والترمذي (١٧٦٢) وقال: حسن غريب، كلاهما في اللباس، والنسائي في الكبرى في الزينة (٩٥٨٩)، وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٠٢٨).

(٤) رواه أحمد (٢٦٦٩٥) وقال مخرجوه: إسناده ضعيف، وأبو داود (٤٠٢٦)، وابن ماجه (٣٥٧٥)، كلاهما في اللباس، والحاكم (٤/ ١٩٢)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي.

(٥) رواه البخاري في اللباس (٥٧٨٧)، وأحمد (٩٩٣٤).

(٦) رواه النسائي في الكبرى في الزينة (٩٦٢٦).

الساق». فشقَّ عليهم، فقال: «أو إلى الكعبين، لا خير فيما في أسفل من ذلك»[(١)].

وعن زيد بن أسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: دخلت على النبي ﷺ، وعليَّ إزار يَتَقَعْقَع[(٢)]، فقال: «من هذا؟» فقلت: عبد الله بن عمر. قال: «إن كنت عبد الله فارفع إزارك». فرفعت إزاري إلى نصف الساقين. فلم تزل إِزْرَتَه[(٣)] حتى مات[(٤)].

وعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلِّمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم». قال: فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرات. قال أبو ذر: خابوا وخسروا، من هم يا رسول الله؟ قال: «المُسْبِل، والمنَّان، والمُنَفِّق سلعته بالحلف الكاذب». وفي رواية: «المسبل إزاره»[(٥)].

قال المنذري: المُسْبِل: هو الذي يطول ثوبه، ويرسله إلى الأرض، كأنه يفعل ذلك تجبرًا واختيالًا.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جرَّ ثوبه خُيَلاء»[(٦)].

---

(١) رواه أحمد (١٣٦٩٢) وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح، والضياء المقدسي في المختارة (٢٠٠٣)، وصحَّح إسناده.

(٢) أي يصوِّت عند التحريك، وذلك من جِدَّته، والقعقعة: حكايته أصوات السلاح والجلود اليابسة والبَكَرة والحُلِي ونحوها.

(٣) هو بكسر الهمزة، قال ابن الأثير في النهاية(١/ ٤٤): الإزرة بالكسر: الحال والهيئة، مثل الرِكبة والجِلسة.

(٤) رواه أحمد (٦٢٦٣) قال المنذري: ورواته رواة الصحيح، ونحوه قال الهيثمي (١٢٢٥)، وقال مخرجو المسند: إسناده حسن، والطبراني في الأوسط (٤٣٤٠).

(٥) رواه مسلم في الإيمان (١٠٦)، وأحمد (٢١٥٤٤)، وأبو داود في اللباس (٤٠٨٧)، والترمذي في البيوع (١٢١١)، والنسائي في الزكاة (٢٥٦٣)، وابن ماجه في التجارات (٢٢٠٨).

(٦) متفق عليه: رواه البخاري في اللباس (٥٧٨٣)، ومسلم في اللباس (٢٠٨٥)، كما رواه الترمذي في اللباس (١٧٣٠)، والنسائي في الزينة (٥٣٢٨)، وابن ماجه في اللباس (٣٥٦٩).

ما المراد بالثوب هنا؟ هل يشمل كل ثوب ولو كان القميص؟ أو المراد هو الإزار فقط؟ الحديث القادم يشير إلى المعنى المقصود.

فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جرَّ إزاره بطَرا»[١]. وفي رواية: «من جرَّ ثوبه من الخُيَلاء»[٢].

وحديث أبي هريرة عند الأئمة يفسِّر حديث ابن عمر، وهو أن المقصود بالثوب هو الإزار، فهو الذي يتحكَّم فيه اللابس، ويمكنه أن ينزله فيجرَّه، ويمكنه أن يرفعه، على حسب نيته وهواه.

وعن ابن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «من جرَّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة» فقال أبو بكر الصديق ﷺ: يا رسول الله، إنَّ إزاري يسترخي، إلا أن أتَعَاهَدَه، فقال له رسول الله ﷺ: «إنك لست ممن يفعله خيلاء»[٣].

والحديث هنا يتحدَّث عن الوعيد على من جرَّ ثوبه خيلاء، وأبو بكر يحاور الرسول الكريم في إزاره؛ وبيَّن له الرسول أنه ليس من المقصودين بهذا الحديث، لأنه ليس ممَّن يعمله خُيلاء.

ولفظ مسلم قال: سمعت رسول الله ﷺ بأُذُنَيَّ هاتين يقول: «من جرَّ إزاره لا يريد بذلك إلا المَخيلة، فإنَّ الله ﷻ لا ينظر إليه يوم القيامة»[٤].

الخُيلاء: بضم الخاء المعجمة وكسرها أيضًا، وبفتح الياء المثناة تحت ممدودًا: هو الكِبْر والعُجْب.

---

(١) رواه البخاري (٥٧٨٨)، ومسلم (٢٠٨٧)، كلاهما في اللباس.

(٢) رواه ابن ماجه في اللباس (٣٥٧١).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في اللباس (٥٧٨٤)، وأبو داود في اللباس (٤٠٨٥)، والنسائي في الزينة (٥٣٣٥).

(٤) رواه مسلم في اللباس (٢٠٨٥).

والمَخِيلة: بفتح الميم، وكسر الخاء المعجمة، من الاختيال، وهو الكِبْر، واستحقار الناس.

الوعيد على لُبس النساء الرقيق من الثياب:

وقد انتقينا حديثًا واحدًا ممَّا ذكره المنذري من الترهيب من لبس النساء الرقيق من الثياب التي تَصِفَ البَشَرَة، وهو ما رواه مسلم عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات، مميلات مائلات، رؤوسهن كأسنمة البُخت المائلة، لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا»[1].

الصنف الأول من الرجال، وهم الجلادون أعوان الطغاة في إذلال الشعوب.

والصنف الثاني من النساء اللائي، وصفهنَّ الحديث بأنهن: كاسيات عاريات؛ وكيف يكُنَّ كاسيات عاريات؟ لأنَّ ثيابَهُنَّ لا تؤدِّي وظيفة الستر المطلوبة، لأنها قصيرة، أو شفافة، أو وصَّافة، تُحدِّد مفاتن الجسد، كما صدَّق ذلك الواقع.

كما وصفهن بأنهن مائلات مُميلات، أي: مميلات لغيرهنَّ من الرجال بالإثارة، ومن النساء بتزيين التقليد لهن، مائلات في أنفسهن عن سواء السبيل. ثم أعطاهن وصفًا جديدًا، يشخصهنَّ تمام التشخيص، هو قوله: «رؤوسهن كأسنمة البُخت».

(١) رواه مسلم في اللباس (٢١٢٨). قال النووي في شرحه لمسلم (١٧/ ١٩١): وأما رؤوسهن كأسنمة البخت فمعناه يعظِّمن رؤوسهن بالخمر والعمائم وغيرها مما يلف على الرأس حتى تشبه أسنمة الإبل البخت، هذا هو المشهور في تفسيره. قال المازري: ويجوز أن يكون معناه: يطمحن إلى الرجال ولا يغضضن عنهم ولا ينكسن رؤوسهن، واختار القاضي أن المائلات تمشِّطن المشطة الميلاء، قال: وهي ضفر الغدائر وشدها إلى فوق وجمعها في وسط الرأس فتصير كأسنمة البخت اهـ.

والبُخت هي: الإبل العظيمة السنام، أيْ بما يضعن عليها من خيوط الحرير والصوف أو الشعر الصناعي، «الباروكات» ونحوها. ثم حكم عليهن بأنهنَّ: «لا يدخلن الجنة، ولا يجدْن ريحَها». مع ما وصف من قوة هذه الريح، وهذا يدل على أن عملهن من الكبائر، التي تحرّم الجنة، وتوجب النار.

والحديث من أعلام النُّبوة، فهو تصوير دقيق من وراء الغيب لنساء عصرنا، كما ربط بين الاستبداد السياسي والانحلال الأخلاقي وهو أمر واقع.

تشبُّه الرجل بالمرأة وتشبُّه المرأة بالرجل:

ومن الأشياء التي يحرص عليها الإسلام في اللباس والزينة: أن تبقى للأمور خصوصيتها التي أراد الله لها، فمن أراده الله ذكرًا يجب أن يظل ذَكرًا متميزًا عن المرأة بخصائصه، ومن أرادها الله امرأة يجب أن تظل امرأة بخصائصها، ولا يجوز أن نُغالب الفطرة، ونفرض عليها أهواءنا بالقوة، فلن نفلح في هذا، وقد جاءت أحاديث في الترهيب من تشبه الرجل بالمرأة، والمرأة بالرجل في لباس أو كلام أو حركة، أو نحو ذلك، ذكرها المنذري في «الترغيب والترهيب»، وانتقينا الصحيح والحسن منها:

عن ابن عباس ﷺ قال: لعن رسول الله ﷺ المتشبِّهين من الرجال بالنساء، والمتشبِّهات من النساء بالرجال[1].

وفي رواية للبخاري: لعن رسول الله ﷺ المخنَّثين من الرجال والمترجِّلات من النساء[2].

فجعل هذا الحديث هذا التشبُّه من الرجال بالنساء نوعًا من الخنوثة

(١) رواه البخاري في اللباس (٥٨٨٥)، وأحمد (٣١٥١)، وأبو داود في اللباس (٤٠٩٧)، والترمذي في الأدب (٢٧٨٤)، وابن ماجه في النكاح (١٩٠٤).

(٢) رواه البخاري في اللباس (٥٨٨٦).

المذمومة، كما جعل تشبُّه المرأة بالرجل نوعًا من الترجُّل المذموم، يحاول الإنسان أن يلغي شخصيَّته، ويقلد إنسانًا آخر.

والمُخَنَّث بفتح النون وكسرها: مَنْ فيه انخناث، وهو التكسُّر والتثنِّي، كما يفعله النساء، لا الذي يأتي الفاحشة الكبرى.

ومن ذلك: أن يلبس أحد الجنسَيْن، الذكر والأنثى، اللُّبسَ الخاص بالجنس الآخر.

فعن أبي هريرة ﷺ قال: لعن رسول الله ﷺ الرجل يلبس لِبْسة المرأة، والمرأة تلبس لِبسة الرجل(١).

وعن ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يدخلون الجنة: العاق لوالديه، والديوث، ورَجُلة النساء»(٢).

الدَّيُّوث بفتح الدال وتشديد الياء المثناة تحت: هو الذي يَعْلَم الفاحشة في أهله، ويقرُّهم عليها. والرَّجُلة من النساء: المترجِّلة منهنَّ التي تشبَّهُ بالرجال، ولم يخلقها الله رجلًا.

السنة ترهب من لباس الشهرة والفخر والمباهاة:

والمراد بلباس الشُّهرة، هو كل لباسٍ قَصد به لابسُه التميُّز عن عامَّةِ الناسِ في مجتمعه، ويصبح به مشهورًا يُشار إليه، سواءٌ أكان ذلك في لونِه، أم في شكلِه، أم في نوعِه، أم في نفاستِه وخسته.

---

(١) رواه أحمد (٨٣٠٩)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. وأبو داود في اللباس (٤٠٩٨)، وابن ماجه في النكاح (١٩٠٣)، والنسائي في الكبرى في عشرة النساء (٩٢٠٩)، وابن حبان في الحظر والإباحة (٥٧٥١)، والحاكم في اللباس (٤/ ١٩٤)، وصححه على شرط مسلم، وسكت عنه الذهبي.

(٢) رواه النسائي في الزكاة (٢٥٦٢)، والبزار (٦٠٥٠)، والحاكم في الإيمان (١/ ٧٢) وصحَّح إسناده، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٦٣).

ومن هنا أكثرت السنَّة النبويَّة من الترغيب في ترك الترفُّع في اللباس، تواضعًا واقتداءً بأشرف الخلق سيدنا محمد ﷺ وأصحابه، والترهيب من لباس الشهرة والفخر والمباهاة.

فعن أبي بردة ﷺ قال: دخلت على عائشة ﷺ، فأخرجت إلينا كساء ملبَّدًا من التي تسمونها الملبَّدة، وإزارًا غليظًا مما يُصنع باليمن، وأقسمت بالله: قُبض رسول الله ﷺ في هذين الثوبين[(١)]!

المُلَبَّد: المُرَقَّع، وقيل غير ذلك[(٢)].

وعن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود ﷺ، قال: كانت الأنبياء يستحبُّون أن يلبسوا الصوف، ويحتلبوا الغنم، ويركبوا الحُمُر[(٣)].

وعن عائشة ﷺ قال: خرج رسول الله ﷺ وعليه مرط مرحَّل من شعر أسود[(٤)].

المِرْط، بكسر الميم وسكون الراء: كساء يُؤْتزر به، قال أبو عبيد: وقد يكون من صوف ومن خَزّ[(٥)].

ومُرَحَّل بفتح الحاء المهملة وتشديدها: أي: فيه صور رِحال الجمال.

وعن ابن بريدة قال: قال لي أبي: لو رأيتنا ونحن مع نبينا ﷺ، وقد أصابتنا

(١) متفق عليه: رواه البخاري في فرض الخمس (٣١٠٨)، ومسلم في اللباس والزينة (٢٠٨٠).

(٢) في القاموس: تلبد الصوف ونحوه: تداخل ولزق بعضه ببعض. القاموس المحيط (١/ ٣١٦)، نشر مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الثامنة، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م.

(٣) رواه الحاكم في اللباس (٤/ ١٨٧) وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٤) رواه مسلم في اللباس (٢٠٨١)، وابو داود في اللباس (٤٠٣٢)، والترمذي في الأدب (٢٨١٣).

(٥) غريب الحديث (١/ ٢٢٧).

السماء حسبت أن ريحنا ريح الضأن[1].

ومعنى الحديث: أنه كان ثيابهم الصوف، وكان إذا أصابهم المطر يجيء من ثيابهم ريح الصوف.

ورواه الطبراني بإسناد صحيح أيضًا نحوه، وزاد آخره: إنما لباسُنا الصُّوفُ، وطعامُنا الأسودان: التمرُ والماءُ[2].

وعن أنس ﷺ قال: رأيت عمر ﷺ، وهو يومئذ أمير المؤمنين، وقد رقع بين كتفيه برقاع ثلاث، لبَّد بعضها على بعض[3].

وعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «كم من أشعث أغبر، ذي طِمْرين[4]، لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره، منهم البراء بن مالك»[5].

وعن عبد الله بن شداد بن الهاد قال: رأيت عثمان ﷺ يوم الجمعة على المنبر، عليه إزار عَدَنيّ غليظ، ثمنه أربعة دراهم أو خمسة، ورَيْطة كوفية ممشَّقة، ضرب اللحم، طويل اللحية، حسن الوجه[6].

عَدَنِيّ (بفتح العين والدال المهملتين): منسوب إلى عَدَن. والرَّيطة (بفتح الراء وسكون الياء المثناة تحت): كل مُلاءة تكون قطعة واحدة، ونَسْجًا واحدًا، ليس

---

(١) رواه أحمد (١٩٧٥٨) وقال مخرجوه: حديث صحيح، وأبو داود في اللباس (٤٠٣٣)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٧٩) وقال: حديث صحيح، وابن ماجه في اللباس (٣٥٦٢).

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (١٩٤٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨٢٩٣): رجاله رجال الصحيح.

(٣) رواه مالك في الموطا (٣٤٠٠)، ت الأعظمي.

(٤) الطمر: الثوب البالي الخلق.

(٥) رواه الترمذي في المناقب (٣٨٥٤) وقال: حسن، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح (٦٢٤٨).

(٦) رواه الطبراني (١/ ٧٥)، وحسَّن إسناده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٤٤٩٢)، وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٠٨٤).

لها لِفقانٍ. و«مُمَشَّقَة» أي: مصبوغة بالمِشْق بكسر الميم، وهو المغرة[1].

وعن محمد بن سيرين قال: كُنَّا عند أبي هريرة ﷺ، وعليه ثوبان ممشَّقان من كَتَّان، فمخط في أحدهما، ثم قال: بخٍ بخٍ، يمتخَّط أبو هريرة في الكتان، لقد رأيتني، وإني لأُجرُّ فيما بين منبر رسول الله ﷺ وحجرة عائشة ﷺ من الجوع مغشيًّا عليَّ، فيجيء الجائي، فيضع رجله على عنقي، يرى أن بي الجنون، وما هو إلا الجوع[2].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: لقد رأيت سبعين من أهل الصفة، ما منهم رجل عليه رداء: إما إزار، وإما كساء، قد ربطوا في أعناقهم، فمنها ما يبلغ نصف الساقين، ومنها ما يبلغ الكعبين، فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته[3].

وعن أبي يعفور قال: سمعت ابن عمر ﷺ يسأله رجل: ما ألبس من الثياب؟ قال: ما لا يزدريك فيه السفهاء، ولا يعيبك به الحكماء. قال: ما هو؟ قال: ما بين الخمسة دراهم إلى العشرين درهمًا[4].

والتقدير بالدراهم والدنانير لا يعنينا لتغير العملات وتغير أسمائها، وإنما الذي يعنينا المقصد، وهو التوسط في الملبس من غير إسراف ولا تقتير.

هل مطلوب من المسلم أن يهمل مظهره؟

وليس معنى هذا أن يُهمل المسلم مظهره، ولا يُحسن هندامه، ولا يهتم بثيابه، خصوصًا إذا خالط الناس في اجتماعاتهم الدينية والدنيوية، كصلوات

---

(١) المغرة طين أحمر يصبغ به.

(٢) رواه البخاري في الاعتصام (٧٣٢٤)، والترمذي في الزهد (٢٣٦٧).

(٣) رواه البخاري في الصلاة (٤٤٢).

(٤) رواه الطبراني (١٢/ ٢٦٢)، قال المنذري في الترغيب والترهيب (٣١٧٢): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح. وكذا الهيثمي في مجمع الزوائد (٨٦٠٤).

الجماعة والجمع والعيدين، وكحضور عرس، أو اجتماع يتباحث الناس فيه شأنًا من شؤونهم.. إلخ ما هنالك.

الضابط هنا الذي وضعه الإسلام بين ما يجوز وما لا يجوز، وما يحب وما يكره، هو أن يبتعد المسلم في ملبسه- بل في شأنه كله- عن الاختيال والإسراف، وقد جاء في الحديث: «كلوا واشربوا والبسوا من غير سرف ولا مَخِيلة»[1].

والإسراف: هو مجاوزة الحد في التمتع بالحلال. والاختيال أمر يتصل بالنية والقلب أكثر من اتصاله بالظاهر، فهو قصد المباهاة، والتعاظم والافتخار على الناس، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ٢٣﴾ [الحديد:٢٣]. وقال عليه الصلاة والسلام: «من جرَّ ثوبَه خيلاءَ لم ينظر الله إليه يوم القيامة»[2].

ولكي يتجنَّب المسلم مظِنَّة الاختيال نهى النبي عن ثياب الشهرة، التي من شأنها أن تثير الفخر والمكاثرة، والمباهاة بين الناس بالمظاهر الفارغة. وفي الحديث: «من لبس ثوب شهرة في الدنيا: ألبسه الله ثوب مذلَّة يوم القيامة، ثم أُلهب فيه نارًا»[3].

وقد ذكرنا قول ابن عمر لمن سأله: ماذا ألبسُ من الثياب؟ قال: ما لا يزدريك فيه السفهاء- يعني لتفاهته وسوء منظره- ولا يعيبك به الحكماء[4]. يعني لتجاوزه حد الاعتدال.

---

(١) رواه أحمد (٦٦٩٥)، وقال مخرجوه: إسناده حسن، والنسائي في الزكاة (٢٥٥٩)، وابن ماجه في اللباس (٣٦٠٥)، والحاكم في الأطعمة (٤/ ١٣٥)، وصحَّحه، ووافقه الذهبي، عن عبد الله بن عمرو.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٧٨٤)، ومسلم (٢٠٨٥)، كلاهما في اللباس، عن ابن عمر.

(٣) رواه أحمد في مسنده (٥٦٦٤)، وقال مخرجوه: حسن، وأبو داود (٤٠٢٩)، وابن ماجه (٣٦٠٧)، كلاهما في اللباس، وصححه الألباني في غاية المرام (٩١).

(٤) رواه الطبراني في الكبير (١٢/ ٢٦٢)، ورجاله رجال الصحيح كما قال الهيثمي في المجمع (٨٦٠٤)، والمنذري في الترغيب والترهيب (٣١٧٢)، وحسنه الألباني في غاية المرام (٩٢).

قال ابن الجوزي في «تلبيس إبليس»:

«وقد كان السلف يلبسون الثياب المتوسطة، لا المرتفعة، ولا الدُّون، فيتخيَّرون أجودها للجمعة والعيدين، ولقاء الإخوان، ولم يكن غير الأجود عندهم قبيحًا.

وقد أخرج مسلم في صحيحه، من حديث عمر بن الخطاب أنه رأى حُلة سِيَراء تباع عند باب المسجد، فقال لرسول ﷺ: لو اشتريتَها ليوم الجمعة، وللوفود إذا قدموا عليك؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنما يلبس هذه مَن لا خلاق له في الآخرة»[1]. فما أنكر عليه ذكر التجمُّل بها، وإنما أنكر عليه لكونها حريرًا.

وقد رُوي عن أبي العالية: كان المسلمون إذا تزاوروا تجمَّلوا[2].

وبسنده قال: كان المهاجرون والأنصار يلبسون لباسًا مرتفعًا.

وقد اشترى تميم الداري حُلَّة بألف درهم، وكان يصلِّي بأصحابه فيها، بل كان يقوم فيها بالليل إلى صلاته.

وقد كان ابن مسعود من أجود الناس ثوبًا، وأطيبهم ريحًا.

وكان الحسن البصرى يلبس الثياب الجياد، وقد خرج الحسن وعليه جُبَّة يمنية ورداء يمني، فنظر إليه فَرْقَد، فقال: يا أستاذ، لا ينبغي لمثلك أن يكون هكذا. فقال الحسن: يا ابن أم فرقد، أما علمتَ أن أصحاب النار أصحاب الأكسية[3]. أي الأكسية الغليظة.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجمعة (٨٨٦)، ومسلم في اللباس والزينة (٢٠٦٨)، عن ابن عمر.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد كتاب حسن الخلق (٣٤٨)، وابن سعد في الطبقات (٧/ ١١٥)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٢١٧).

(٣) رواه ابن سعد في الطبقات (٧/ ١٦٩).

وكان مالك بن أنس يلبس الثياب العدنية الجياد.

وكان ثوب أحمد بن حنبل يُشترى بنحو الدينار.

وقد كانوا يؤثرون البذاذة إلى حدٍّ، وربما لبسوا خُلْقان الثياب في بيوتهم، فإذا خرجوا تجمَّلوا، ولبسوا ما لا يشتهرون به من الدون، ولا من الأعلى.

قال عيسى بن حازم: كان لباس إبراهيم بن أدهم كَتانًا، قُطنًا، فروة. لم أرَ عليه ثياب صوف، ولا ثياب شهرة.

قال أبو جعفر الطبري: ولقد أخطأ مَن آثر لباس الشَّعر والصوف على لباس القطن والكتَّان، مع وجود السبيل إليه من حِلِّه، ومَن أكل البقول والعدس واختاره على خبز البُرِّ، ومَن ترك أكل اللحم خوفًا من عارض شهوة النساء.

ورأى ابن عمر على ولده ثوبًا قبيحًا دونًا، فقال: لا تلبس هذا، فإن هذا ثوب شهرة[(١)]!

وعن ابن عمر، عن رسول الله ﷺ: «مَن لبس ثوب شُهرة من الثياب ألبسه الله ثوب ذلَّة»[(٢)].

وعن سفيان: البس من الثياب ما لا يزدريك فيه السفهاء، ولا يعيبك عليه الحكماء[(٣)].

واعلم أن اللباس الذي يُزري بصاحبه، يتضمَّن إظهار الزهد، وإظهار الفقر،

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول (٦٧).

(٢) رواه أحمد (٥٦٦٤)، وقال مخرجوه: حسن وهذا إسناد ضعيف لضعف شريك وبقية رجاله ثقات، وأبو داود في اللباس (٤٠٣٠)، وابن ماجه في اللباس (٣٦٠٦)، وأبو يعلى (٥٦٩٨)، عن ابن عمر، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (٣٣٩٩).

(٣) روي مثله عن ابن عمر، رواه الطبراني (١٢/ ٢٦٢)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٣٠٢)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح (٥/ ٢٣٨)، وحسنه الألباني في غاية المرام (٩٢).

وكأنه لسان شكوى من الله ﷻ، ويوجب احتقار اللابس، وكلٌّ ذلك مكروه ومنهيٌّ عنه.

عن الأحوص، عن أبيه قال: أتيتُ النبي ﷺ، وأنا قَشِف الهيئة، فقال: «هل لك من مال؟» قلتُ: نعم. قال: «من أي المال؟» قلتُ: من كلِّ المال قد آتانا الله ﷻ؛ من الإبل والرقيق والخيل والغنم. قال: «فإذا آتاك الله ﷻ مالًا، فليُرَ عليك»(١).

وعن جابر قال: أتانا رسول الله زائرًا في منزلي، فرأى رجلًا شعثًا، فقال: «أما يجد هذا ما يسكِّن به رأسه؟» ورأى رجلًا عليه ثياب وَسِخة، فقال: «أما كان يجد هذا ما يغسل به ثيابه؟!»(٢).

عن عبد الله بن سلام قال: خطب رسول الله ﷺ في يوم جمعة فقال: «ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم جمعة، سوى ثوب مهنته؟!»(٣).

وكان لرسول الله ﷺ بُرْد يمنية، وإزار من نسْج عُمَان، فكان يلبسهما في يوم الجمعة، ويوم العيدين، ثم يُطويان»(٤).

---

(١) رواه أحمد (١٥٨٩١)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، وأبو داود في اللباس (٤٠٦٣)، والترمذي في البر والصلة (٢٠٠٦)، وقال: حسن صحيح، والنسائي في الزينة (٥٢٢٣)، عن مالك بن نضلة.

(٢) رواه أحمد (١٤٨٥٠)، وقال مخرجوه: إسناده جيد، مسكين بن بكير صدوق، وباقي رجال الإسناد ثقات رجال الشيخين، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ١٥٦)، والبيهقي في الشعب باب الملابس والزي (٦٢٢٤)، عن جابر، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٣٣٣).

(٣) رواه أبو داود في الصلاة (١٠٧٨)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٩٥)، وعبد بن حميد (٤٩٩)، والطبراني (٢٢/ ٢٨٧)، والبيهقي في الكبرى كتاب الجمعة (٣/ ٢٤٢)، عن عبد الله بن سلام، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٩٥٣).

(٤) تلبيس إبليس ص ١٧٨-١٨٤ بتصرف، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط: الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

وقد رد ابن الجوزي على شبهة المتزمّتيين من المتصوّفين الذين يقولون: إن تجويد اللباس والعناية به هوى للنفس، وقد أمرنا بمجاهدتها، وتزيُّنٌ للخلق، وقد أُمرنا أن تكون أفعالنا لله لا للخلق.

قال: «ليس كل ما تهواه النفس يُذَمُّ، ولا كلُّ التزيُّن للناس يُكره، وإنما يُنهى عن ذلك إذا كان الشرع قد نهى عنه، أو كان على وجه الرياء في باب الدين. فإن الإنسان يحب أن يُرى جميلًا، وذلك حظُّ النفس، ولا يلام فيه، ولهذا يسرِّح شعره، وينظر في المرآة، ويسوِّي عمامته، ويلبس بطانة الثوب الخشن إلى داخل، وظهارته الحسنة إلى خارج، وليس في شيء من هذا ما يكره ولا يُذمُّ.

روى مكحول، عن عائشة قالت: كان نفر من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه على الباب، فخرج يريدهم، وفي الدار رِكوة فيها ماء، فجعل ينظر في الماء ويسوِّي شعره ولحيته، فقلت: يا رسول الله: وأنت تفعل هذا؟ قال: «نعم، إذا خرج الرجل إلى إخوانه فليهيِّئ من نفسه، فإن الله جميل يحب الجمال»[(١)].

وفي رواية: خرج رسول الله ﷺ، فمرَّ بركوة لنا فيها ماء، فنظر إلى ظلِّه فيها، ثم سوَّى لحيته ورأسه، ثم مضى، فلما رجع قلت: يا رسول الله، تفعل هذا؟ قال: «وأي شيء فعلتُ؟ نظرتُ في ظلِّ الماء، فهيَّأتُ من لحيتي ورأسي، إنه لا بأس أن يفعله الرجل المسلم، إذا خرج إلى إخوانه أن يهيئ من نفسه»[(٢)].

التسمية عند لبس الثياب وخلعها:

وهناك آداب يحسن بالمسلم أن يتحلَّى بها عند لُبسه ثيابه.

فمن ذلك: التسمية، فقد كان عليه الصلاة والسلام يبدأ بها في أعماله كلها،

---

(١) رواه ابن السني في عمل اليوم والليلة ص٤٨، عن عائشة.

(٢) تلبيس إبليس ص (١٨٠، ١٨١).

وكذلك تستحب التسمية عند خلع الثياب.

البدء باليمين عند اللبس:

ومنها: البدء باليمين عند اللبس، وبالشمال عند الخلع، لما ثبت عن عائشة ﵂ أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يعجبه التيمن، في تنعله، وترجله، وطهوره، وفي شأنه كله[١]، وهو يدل على استحباب البدء باليمين في كل ما كان من باب التكريم والزينة.

ذكر الله عند لبس الثياب، والذكر المأثور في ذلك:

ومن الآداب: **الإتيان بالذِّكر المشروع عند لبس الثياب**، فقد كان ﷺ إذا لبس ثوبه أو قميصه، حَمِدَ الله تعالى قائلًا: «الحمدُ لله الذي كَساني هذا ورَزَقَنيه من غير حولٍ مني ولا قُوة»[٢].

وإذا لبس ثوبًا جديدًا دعا الله قائلًا: «اللهم لَكَ الحمدُ، أَنتَ كَسَوتَنيه، أسألك من خَيرِهِ وخَيْرِ ما صُنع له، وأعوذ بك مِنْ شرِّه وشَرِّ ما صُنِعَ لَهُ»[٣].

❁❁❁

(١) رواه البخاري (١٦٨)، ومسلم (٢٦٨).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه أحمد في المسند (١١٤٦٩)، وقال مخرجوه: حسن، وأبو داود (٤٠٢٠)، والترمذي (١٧٦٧)، وقال: حديث حسن، كلاهما في اللباس، والنسائي في الكبرى كتاب عمل اليوم والليلة (١٠٠٦٨)، عن أبي سعيد الخدري.

البَابُ الرَّابِعُ

آداب الأسرة

الباب الرابع

آداب الأسرة

الأسرة أساس المجتمع، وهي اللبنة الأولى من لبناته، التي إن صلحت صلح المجتمع كله، وإن فسدت فسد المجتمع كله، وعلى أساس قوة الأسرة وتماسكها، يقوم تماسك المجتمع وقوته؛ لذا أَوْلى الإسلام الأسرة رعايته وعنايته.

وقد جعل القرآن تكوين الأسر هو سنة الله في الخلق، قال ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [سورة النحل:٧٢].

بل جعل الله نظام الأسرة، بأن يكون لكل من الرجل والمرأة زوجٌ يأنس به ويأنس إليه، ويشعر معه بالسكن النفسي والمودة والرحمة، آية من آيات الله، قال سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [سورة الروم:٢١].

فالحياة الأسرية في الإسلام وعلاقة كل من الزوجين تجاه الآخر، ليست شركة مالية تقوم على المصالح المادية البحتة، بل هي حياة تعاونية يتكامل فيها الزوجان، ويمتزج فيها الروحان، ويتحمَّلان مسؤولية إمداد المجتمع بنسل يعيش في كنف أسرة تسودها المحبة والمودَّة، ولا يظلم أحد طرفيها الآخر، بل يدفع كل واحد منهما عن شريكه الظلم والأذى، ويحنو عليه.

وفلسفة الإسلام الاجتماعية تقوم على أن الزواج بين الرجل والمرأة هو أساس الأسرة، لذا يحث الإسلام عليه، وييسر أسبابه، ويزيل العوائق الاقتصادية من طريقه، بالتربية والتشريع معا، ويرفض التقاليد الزائفة، التي تصعبه وتؤخِّره، من غلاء مهور، ومبالغة في الهدايا والولائم وأحفال الأعراس، وإسراف في التأثيث واللباس والزينة، وكل مكاثرة يبغضها الله ورسوله في سائر النفقات.

ويحث على اختيار الدين والخلق في اختيار كلٍّ من الزوجين: «فاظفر بذات الدين تربت يداك»[1]. «إذا أتاكم من ترضون دينه وخُلُقه فزوِّجوه، إلا تفعلوه تكنْ فتنةٌ في الأرض وفساد عريض»[2].

وهو يقيم العلاقة الأسرية بين الزوجين على السكون والمودة والرحمة بينهما، وعلى تبادل الحقوق والواجبات والمعاشرة بالمعروف، ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [البقرة: ١٩]. ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾ [البقرة: ٢٢٨].

والحقيقة أنه لا يمكن أن تكون هناك حياة إنسانية بلا أسرة، وأساس الأسرة هو الزواج، هذا في الإسلام، وفي المسيحية، وفي اليهودية، وفي الأديان المختلفة، وفي الفلسفات الأخلاقية التي تقوم على المُثل العليا، ولذلك لم يعترف الإسلام

(١) متفق عليه: رواه البخاري في النكاح (٥٠٩٠)، ومسلم في الرضاع (١٤٦٦)، كما رواه أحمد (٩٥٢١)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه الترمذي (١٠٨٤) موصولا ومرسلا، (وإنما يعني بقوله: مرسلا انقطاع ما بين ابن عجلان وأبي هريرة)، وقد رجح البخاري المنقطع على المتصل، وابن ماجه (١٩٦٧)، كلاهما في النكاح، وحسَّنه الألباني في الصحيحة (١٠٢٢)، عن أبي هريرة.

ولا غيره من الأديان والفلسفات، إلا الفلسفات الإباحية والتحللية التي شاهدناها في عصرنا هذا، لم تعترف كل الفلسفات والأديان بأسرة إلا في ظل زواج، ومعنى الزواج ارتباط رجل وامرأة برباط شرعي مُعلن، تترتب عليه حقوق وواجبات متبادلة.

فنحن - المسلمين، بل أهل الأديان جميعا- حين نتحدث عن الأسرة، فنحن نتحدث فيها عن شكل واحد للأسرة، لا نعرف غيره، بل لا نعترف بغيره، هو الأسرة الطبيعية، التي تتكون من زوج ذكر، وزوجة أنثى، في زواج طبيعي.

لا نعرف الأسرة وحيدة الجنس، التي تتكون من رجلين، أو من امرأتين، ولا نعترف بها، لأنها تخالف السنة الكونية التي قام عليها الكون: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات:٤٩].

وأساس هذه الأسرة الطبيعية المعترف بها عند أهل الأديان جميعًا، هو الزواج، هذا الرباط المقدس، أو «الميثاق الغليظ» كما سمَّاه القرآن، الذي يربط بين الرجل والمرأة على أساس عقد موثق تترتب عليه حقوق وواجبات.

والأسرة في الإسلام هي الخلية الأولى لبناء المجتمع الصالح، لا يتكون مجتمع صالح إلا بأُسَرٍ صالحة، فهذا ما يحرص عليه الإسلام، والأسرة في الإسلام تبدأ بالأسرة الصغيرة الضيقة، ثم تنتهي إلى الأسرة الممتدة الموسعة، التي تشمل الإخوة والأخوات، والأعمام والعمات، والأخوال والخالات وأولادهم، وما قرب منهم من أرحام وأصهار، كما يقول القرآن: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنفال:٧٥].

فهذه نظرة الإسلام يريد أن يربط المجتمع بشبكات قوية، تبدأ بهذه الأسرة

الموسعة، بحيث لا يعيش الإنسان بمعزل هو وأولاده في بيت، ولا يهمه أمر إخوانه وأخواته وأعمامه وعماته وأخواله وخالاته وأبنائهم وبناتهم، ومن يتصل بهم من قريب أو من بعيد، لا الإسلام لا يعرف هذا.

الفصل الأول

أدب البنوة

مِن الأدب الذي يتميَّز به المسلم: أدبُ البنوة، الذي عُرِف بين المسلمين باسم: «برّ الوالدَيْن»؛ الأب والأم، وهو الذي قَرَنَه القرآنُ بتوحيد الله تعالى؛ إذ جعل حقَّ الوالدين بعد حقِّ الله ﷻ، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء:٣٦].

وهذه الآية هي التي سمَّاها العلماء: «آيةَ الحقوق العشرة»، التي بدأتْ بحق الله العليّ الكبير، فحقِّ الوالدين، فذي القُربى، وما بعده من الحقوق.

وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء:٢٣]، وقال في وصيَّة لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان:١٣، ١٤].

وهكذا نجد الطلب من الله تعالى للولد أن يشكرَ لربِّه وللوالدين بهذه الصيغة، أي: بالعطف بالواو، التي تفيد مُطلَق الجمع، ولم يقل: «أن اشكر لي ثمَّ لوالديك»، و«ثمَّ»: تفيد الترتيب والتراخي.

الإحسان إلى الوالدين والطاعة لهما:

فقد أمر الله ﷻ الأولاد ذكورًا وإناثًا بالإحسان إلى الوالدين، وإن كانا أو أحدهما على دينٍ غير التوحيد. وذلك في كلِّ الأديان السماوية، التي شرعها الله لعباده، بوساطة الرُّسل مبشرين ومنذِرين، ولذلك رأينا إبراهيم يخاطب أباه المشرك بقوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾، وبصيغة اللِّين والرفق والتكْريم، كما حكَى لنا القرآن: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ [مريم:٤١-٤٧].

ومع رفْق إبراهيم بأبيه وتلطُّفه به، أبى الأب إلا أن يُفارقه، ولذلك لم يعُد في وسْع إبراهيم إلَّا أن يقول له: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنعام:٧٤].

ولكن لا يجوز التطاول على الوالدين أو أحدهما، وإن كان مشركًا، بل يجب مصاحبتهما بالمعروف؛ اعترافًا بحق الوالديَّة، فلولاهما لَمَا كان، ولذلك يؤكِّد القرآن هذه الحقيقة، فيقول: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [لقمان:١٥]. وبهذا ظهر المنهج القرآني المتميز، الذي يجمع بين الحرص على توحيد الله تعالى، وعلى مصاحبة الأبوين بالمعروف.

ورأينا في قصَّة يوسف برَّ يوسف بأبيه يعقوب، ودعوته إياه إلى مصر، ورفْع أبويه على العرش، كما رأينا ما ذكَرَ القرآن مِن أخذ الميثاق على بني إسرائيل،

بالتوحيد، وبرِّ الوالدين، ووصل الأرحام، وغيرها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة:٨٣].

وما ذكره القرآن عن يحيى الذي آتاه اللهُ عبدَه زكريا، وقد آتاه الله الحُكْم صبيًّا: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾ [مريم:١٤].

والمسيح عيسى ابن مريم، قال الله تعالى على لسانه حين نطق في المهد صبيًّا: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ [مريم:٣٢].

كلُّ هؤلاء الرسل والأنبياء دعَوا قومَهم إلى البرِّ والإحسان بالوالدين، وأن يدعوهم إلى دين التوحيد الحق، ليعبدوا الله وحده، ولا يشركوا به شيئًا، وأن يبرُّوا آباءهم بطاعتهم، والإحسان إليهم أحياءً، وعدم الإساءة إليهم، ولو بالتأفُّف، والاستغفار لهم إذا ماتوا، كما حكى الله عن نوح قوله: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [نوح:٢٨].

وكما دعا إبراهيم ربه: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم:٤١]. وكان قد وعد أباه بأنَّه سيستغفر له ربَّه، فوفى بوعده، ثم بيَّن اللهُ أنَّ الاستغفار للمشركين لا يجوز، فتبرأ منه، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة:١١٤].

حق الوالدين في سورة الإسراء:

وقد بيَّن القرآن الحكيم في وصايا سورة الإسراء الحكيمة: حقَّ الوالدين على أولادهما، فقال ﷻ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ

﴿لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ۝ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ۝﴾ [الإسراء:٢٣- ٢٥].

فالبرُّ والإحسان المطلوب مِن الله تعالى للوالدَين في كل أعمارهما، سواء كانًا في حالة الكهولة أو الشيخوخة.

ويزداد حقُّ الوالدين على الأبناء، عند ما يبلغان أو أحدهما الكبرَ عند الأولاد، كما قال تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ۝﴾ [الإسراء:٢٣، ٢٤] وكلمة «العنديَّة» تدلُّ على أنَّ أمرهما أصبح مَوكولًا للأولاد، فهما عندهم كأنَّهما وديعة وأمانة يحفظونها، ولذا قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه أبو هريرة: «رغِم أنفُ، ثم رغِم أنفُ، ثم رغم أنفُ». قيل: من، يا رسول الله؟ قال: «مَن أدرك أبويه عند الكِبَر أو أحدهما، ثم لم يدخل الجنة»(١).

ومعنى «رغِم أنف»، أي: لصق بالرَّغام، وهو التراب.

وكما فرض الله الإحسان بالوالدين، حرَّم كذلك ما ينافيه، وهو الإساءة إليهما، وإيذاؤهما بقولٍ أو فعْل، ومن ذلك إظهار التأفُّف: بأن يقول لهما: «أفٌ»، وهو ما نَهَى عنه القرآن. والأصل أن كل ما نهى عنه القرآن نهيًا صريحًا فهو محرَّم، ولهذا قال العلماء: لو يعلم اللهُ في عقوق الوالدين شيئًا أدنى من «أفٌ» لحرَّمه، لِمَا لهذا الحق من مكانةٍ وحُرْمة عند الله تعالى، قال تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝﴾ [الإسراء:٢٣].

فهو ﷻ ينهى عن قول كلمة «أفٌ»، التي تدل على الضجر، وينهى عن نَهْرِهما،

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٥١)، وأحمد (٨٥٥٧)، والترمذي في الدعوات (٣٥٤٥)، عن أبي هريرة.

والنهر منهيٌّ عنه في القرآن لكُلِّ مَن يشعر بأنّه في حالة ضعْف، ويحتاج إلى مَن يُعينه ويرفعه، لا من يبخسه ويشعره بالهوان، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝﴾ [الضحى:٩- ١٠]. أي: لا يصدر عنك قول أو فعل يقهر اليتيم، أي: يذله ويخضعه رغم أنفه، ولا قول أو فعْلٌ ينهر السائل، أي: يهينه ويجرح شعوره.

ولما نهى القرآن الابن عن القول السيِّئ، والفعل السيِّئ، أمره بالقول الحسَن، والفعل الحسَن، فقال: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝﴾ [الإسراء:٢٣]. أي: ابدأ معاملتهما، وقل لهما كلامًا، ليِّنًا طيبًا حسَنًا، بتوقير وتعْظيم.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ۝﴾ [الإسراء:٢٤]. أمر الله الولد – ابنًا كان أو بنتًا – بالفعل الطيب، والقول الطيب مع الوالدين، وخصوصًا عند كِبَرِهما: الفعل الطيب هو خفض جناح الذل، وخفض الجناح مطلوب للمؤمنين عامّة، كما قال تعالى لرسوله: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ [الشعراء:٢١٥]. وخصوصًا جناح الذُّل، فالذلُّ مذموم من أهل الإيمان؛ لأن الله كتب لهم العزة: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨]. ولكن القرآن مدَحَ الذلَّ في موضعين:

أحدهما: الذلُّ للوالدين، وهو ما جاء في هذه الآية: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء:٢٤].

والثاني: الذلُّ لإخوانه المؤمنين، كما وصف القرآنُ الجماعة المؤمنة التي ادَّخرها الله لتقاوم الرِّدة والمرتدين، كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة:٥٤].

والقول الطيب المأمور به هاهنا هو مثل قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء:٢٤]. فالابن البارُّ بأبويه يسأل الله لهما أن يتفضَّلَ عليهما برحمته التي وسعتْ كلَّ شيء، ولا سيما المؤمنين، وخصوصًا الوالدين، اللذين ربيا ولدهما في صغره وضعفه، حين لم يكن له سنٌّ تقطع، ولا يدٌ تبطش، ولا رِجْل تمشي، ولم يزل أبواه يغذيانه وينمِّيانه، ويعملان على كسبه أفضل العادات، حتى استوى إنسانًا مكتملًا.

ثم قال تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾ [الإسراء:٢٥]. يريد الله تبارك وتعالى بهذه الآية: أن يُطمئن الأبناء والبنات بأنه لا يريد الانتقام من عباده، ولا يُخفي لهم سوءًا أو شرًّا، بِحَسْبِهم أن تكون نفوسهم صافية، وضمائرهم سليمة، وأعمالهم صالحة، وما يصدر منهم من بوادر، لا يؤاخذهم الله بها، ولا يهلكهم بسببها، ما داموا في أنفسهم صالحين أوَّابين لله تعالى، والأوَّاب: هو الكثير الأوب. أي: الرجوع إلى الله تعالى، فهو إذا وقع في معصية سرعانَ ما يتوب منها، كما جاء في الحديث: «وأتْبِعِ السيئةَ الحسنةَ تمحُها»(1). وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ﴾ [هود:١١٤]. وقال تعالى في أهل الجنَّة: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾﴾ [ق:٣٢]. وفي الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ، كان إذا رجع من سفر، قال: «آيبون تائبون عابدون، لربنا حامدون»(2).

---

(1) رواه أحمد (٢١٤٠٣) وقال مخرجوه: حسن لغيره، والترمذي في البر والصلة (١٩٨٧) وقال: حسن صحيح، والحاكم في الإيمان (١/ ٥٤) وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٩٧)، عن أبي ذر.

(2) رواه مسلم في الحج (١٣٤٢)، وأحمد (٦٣١١)، وأبو داود في الجهاد (٢٥٩٩)، والترمذي في الدعوات (٣٤٤٧)، عن ابن عمر.

الإسلام يطلب البرَّ للأبوين، ويؤكِّد حقَّ الأم،

وممَّا لا شك فيه أن الإسلام في نصوصه كلِّها قرآنيَّة ونبويَّة، يطالب بفرضية البر والإحسان للوالدَين كليهما أمًّا وأبًا، ولكنه يؤكِّد ويعظِّم حقَّ الأمِّ أكبرَ من غيرها. كما ذكر القرآن الكريم: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأحقاف:١٥].

فالآية الكريمة توصي بالوالدين إحسانًا، ولكنها تخصُّ الأمَّ بما تتحمله من الكرْب والأثقال في الحمْل والوضْع، وبعد ذلك في الإرضاع والتربية، وهو ما سمَّته الآية: «كُرْهًا»، أي: ثقلًا وشدة، وفي سورة لقمان، قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان:١٤].

ولذلك حين روى أبو هريرة، قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله! مَن أحقُّ الناس بحُسْن صحابتي؟ قال: «أمك». قال ثم من؟ قال: «أمك». قال ثم من؟ قال: «أمك» قال: ثم مَن؟ قال: «أبوك»[١].

وهو ما جعل بعضَ العلماء يقولون: إن الأمَّ لها ثلاثةُ أرْباع البرِّ؛ لأن الرسول ﷺ وصَّى بها ثلاثَ مرَّات، ووصَّى بالأب مرةً واحدة!

ومما لا ريب فيه أن الأم هي التي تعِبتْ في حمْل وليدها أكثر ممَّا تعِب الأب، فقد حملتْه في بطنها تسعة أشهر، ولقِيَتْ مِن آلام الوحَم والحمْل والثِّقل، ما لا

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٥٩٧١)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٤٨)، عن أبي هريرة.

يعرفه غيرَ الأمهات، وشهدتْ مِن أوجاع الطلْق ما شهدتْ، ثم لقِيَتْ مِن آلام الوضع- وربَّما الجراحة- ما لقيتْ، فلهذا لا يستطيع أبٌ أن يقول لها: إنِّي لقيتُ مثل ما لقيتِ!

ثم إن الأمَّ أحْوج إلى المعونة والخدمة من الأب؛ لأنه أبسط جسمًا، وأقدر على التحمُّل، وعلى ثِقَل العمل ومشاقِّه مِن الأم.

ولأن الأبناء أجْرأ على الأمهات، وعلى عصيانهن مِن عصيان الآباء، الذين لهم هيْبة ورهْبة عند الأولاد.

السُّنة ترسُم معالم تفصيليَّة لبرِّ الوالدين:

ونذكر هنا الأحاديث التي اخترناها من الصحاح والحِسان في كتابنا «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للحافظ المنذري»، وهو ما جاء في الترغيب في بر الوالدين وصلتهما، وتأكيد طاعتهما، والإحسان إليهما، وبرِّ أصدقائهما من بعدهما.

فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يجزي ولدٌ والدَه، إلَّا أن يجدَه مملوكًا، فيشتريَه فيعتقَه»(1).

وهذا في العهود التي انتشر فيها الرقُّ في أنحاء الأرض، لكثرة الحروب، واتخاذ الرقِّ أساسًا، فمَنْ وجَدَ أباه في الرقيق، واشتراه مِن سيِّده، وأعتقه: كان ذلك جزاءً عظيمًا لوالده، فقد حرَّره من العبودية، وهي نعمة عظيمة. وقد عافى الله من رقِّ الأفراد، وإن ظل في البشر- للأسف - نوع من الرق والعبودية بين الشعوب يجب أن تتحرر منه.

---

(1) رواه مسلم في العتق (1510)، وأحمد (7143)، وأبو داود في الأدب (5137). وقد عظم الحديث شأن عتق أحد الوالدين؛ لأن الرق بمثابة الموت، والعتق بمثابة الإحياء. ولهذا شرع الإسلام في كفارة القتل الخطأ: تحرير رقبة مؤمنة؛ لأن من أعتق رقبة فكأنما أحياها.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: جاء رجل إلى نبيِّ الله ﷺ، فاستأذنه في الجهاد، فقال: «أحيٌّ والداك؟». قال: نعم. قال: «ففيهما فجاهد»(١).

أي: اجعل جهادك في برهما وخدمتهما.

وفي رواية لمسلم، قال: أقبَلَ رجلٌ إلى رسول الله ﷺ، فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجرَ مِن الله، قال: «فهل مِن والديك أحدٌ حيٌّ؟». قال: نعم، بل كلاهما حيٌّ. قال: «فتبتغي الأجر من الله؟» قال: نعم. قال: «فارجعْ إلى والديك، فأحسِنْ صُحبتَهما»(٢). وذلك حين يكون الجهاد فرضَ كفاية، فلا بد من إذن الوالدين لمَن يريد الجهاد مِن أبنائهما، بخلاف ما إذا كان فرض عين، حين يحتلُّ البلدَ محتلٌّ، ويُحتاج إلى كل أهل البلد ليجاهدوا كل الجهاد بكل أنواعه، فلا حاجة إلى استئذان الأبوين؛ لأن الجهاد هنا في حق الجماعة، وهو مقدَّم على حقوق الأفراد، إذ التفريط في هذا الجهاد إضاعة للأبوين ولغيرهما، ولمن هو أهم منهما من المؤسسات والوطن.

وعنه رضي الله عنه أيضًا، قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: «جئتُ أبايعك على الهجرة، وتركتُ أبويَّ يبكيان». فقال: «ارجع إليهما، فأضحكهما كما أبكيتهما»(٣).

وعن معاوية بن جاهمة: أن جاهمة جاء إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، أردتُ أن أغزو، وقد جئتُ أستشيرك. فقال: «هل لك من أم؟» قال: نعم. قال:

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد (٣٠٠٤)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٤٩).

(٢) رواه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٤٩).

(٣) رواه أحمد (٦٨٣٣)، وقال مخرجوه: حديث حسن، وأبو داود في الجهاد (٢٥٢٨)، والنسائي في البيعة (٤١٦٣)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٨٢)، والحاكم في البر والصلة (٤/ ١٥٣)، وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه ابن الملقن في البدر المنير (٩/ ٤٠).

«فالزمها، فإن الجنة عند رجلها»[(١)].

ورواه الطبراني ولفظه: قال: أتيت النبي ﷺ أستشيره في الجهاد، فقال النبي ﷺ: «ألك والدان؟» قلتُ: نعم. قال: «الزمهما، فإن الجنة تحت أرجلهما»[(٢)].

وعن أبي الدرداء ﷺ أن رجلًا أتاه، فقال: إنَّ لي امرأةً، وإنَّ أمي تأمُرني بطلاقها. فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «الوالدُ أوسط أبواب الجنة، فإن شئت فأضِعْ هذا البابَ أو احفظه»[(٣)].

ورواه ابن حبان في صحيحه ولفظه: أنَّ رجلًا أتى أبا الدرداء، فقال: إن أبِي لم يزل بي حتى زوَّجني، وإنه الآن يأمرني بطلاقها، قال: ما أنا بالذي آمُرك أن تعُقَّ والديك، ولا بالذي آمرك أن تُطلِّق امرأتك، غيرَ أنك إن شئتَ حدَّثْتُك بما سمعتُ مِن رسول الله ﷺ، سمعتُه يقول: «الوالد أوسط أبواب الجنة، فحافظ على ذلك الباب إنْ شئتَ، أو دَعْ»[(٤)].

وعن ابن عمر ﷺ قال: كان تحتي امرأةٌ أحبُّها، وكان عمر يكرهُها، فقال لي: طلِّقْها، فأبيتُ، فأتى عمرُ رسولَ الله ﷺ، فذكَرَ ذلك له، فقال لي رسول الله ﷺ: «طلِّقها»[(٥)].

(١) رواه أحمد (١٥٥٣٨)، وقال مخرجوه: إسناده حسن، والنسائي في الجهاد (٣١٠٤)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٨١)، والحاكم في الجهاد (٢/ ١٠٤)، وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٤٨٥).

(٢) رواه الطبراني (٢/ ٢٨٩)، وجود إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٣٧٥١)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٤٨٥).

(٣) رواه أحمد (٢١٧١٧) وقال خرجوه: إسناده حسن، والترمذي في البر والصلة (١٩٠٠) وقال: حديث صحيح، وابن ماجه في الأدب (٣٦٦٣)، وصححه الألباني في الصحيحة (٩١٤).

(٤) رواه ابن حبان في البر والإحسان (٤٢٥) وقال الأرناؤوط: حديث صحيح.

(٥) رواه أحمد (٥٠١١) وقال مخرجوه: إسناده قوي، وأبو داود في الأدب (٥١٣٨)، والترمذي في الطلاق واللعان (١١٨٩) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه في الطلاق (٢٠٨٨).

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن سرَّه أن يُمَدَّ له في عُمرِه، ويُزاد في رزقه، فليبرَّ والديه، وليصِلْ رحِمَه»(١).

وعن ثوبان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الرجل ليُحرَم الرزقَ بالذنب يصيبه، ولا يردُّ القدرَ إلَّا الدعاءُ، ولا يزيد في العُمرِ إلَّا البرُّ»(٢).

وعن ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «برُّوا آباءَكم، تبرَّكُم أبناؤكم، وعِفوا تعفَّ نساؤُكم»(٣).

وفي حديثِ أصحاب الغار: فقال أحدهم: «اللهم إني كان لي أبوان شيخان كبيران، فكنت أخرج فأرعى، ثم أجيء فأحلُب، فأجيء بالحلاب، فآتي به أبويَّ، فيشربان، ثم أسقي الصبية وأهلي وامرأتي، فاحتبستُ ليلة، فجئت، فإذا هما نائمان، قال: فكرهتُ أن أوقظهما، والصبية يتضاغون عند رجليَّ، فلم يزل ذلك دأبي ودأبهما، حتى طلع الفجر. اللهم إن كنتَ تعلم أني فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك، فافرج عنا فرجة نرى منها السماء»(٤).

وعن أسماء بنت أبي بكرٍ ﷺ قالت: قدمتْ عليَّ أمِّي، وهي مشركةٌ، في عهد رسول الله ﷺ، فاستفتيتُ رسولَ الله ﷺ قلتُ: قدمتْ عليَّ أمِّي وهي راغبةٌ،

(١) رواه أحمد (١٣٨١١) وقال مخرجوه: حديث صحيح، والحديث متفق عليه بدون ذكر: بر الوالدين: رواه البخاري في البيوع (٢٠٦٧)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٥٧).

(٢) رواه أحمد (٢٢٤١٣) وقال مخرجوه حسن لغيره دون قوله: وإن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه، وابن ماجه في الفتن (٤٠٢٢)، وابن حبان في الرقائق (٨٧٢)، والحاكم في الدعاء (١/ ٤٩٣)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي.

(٣) رواه الطبراني في الأوسط (١٠٠٢)، وحسن إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٣٧٥٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٤٠٣): رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح غير شيخ الطبراني أحمد غير منسوب، والظاهر أنه من المكثرين من شيوخه، فلذلك لم ينسبه.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في البيوع (٢٢١٥)، مسلم في الرقاق (٢٧٤٣)، عن ابن عمر.

أفأصِلُ أمِّي. قال: «نعم، صلِي أمّكِ»[1].

وفي لفظ أبي داود، قالتْ: قدمتْ عليَّ أمِّي راغبةً، في عهد قريش، وهي راغِمةٌ مشركةٌ، فقلتُ: يا رسول الله، إنَّ أمِّي قدِمتْ عليَّ وهي راغمةٌ مشركة، أفأصلها؟ قال: «نعم، صِلِي أمكِ»[2].

راغبةٌ أي: طامِعةٌ فيما عندي، تسألني الإحسان إليها.

وراغِمة أي: كارهةٌ للإسلام.

ومعنى هذا: أن صِلة الولدِ المسلم لأبويه المشركين أو لأحدهما: مشروعةٌ مبرورة، ما دام لا يأخذ المال مِن ابنه ليحارب به المسلمين، قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾ [الممتحنة:٨]. وهذا أساس بر الوالدين من أهل الذمة.

وعن عبد الله بن عمرو ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «رضا الله في رضا الوالد، وسُخْط الله في سَخَط الوالد»[3].

وعن ابن عمر ﷺ قال: أتى النبيَّ ﷺ رجلٌ، فقال: إني أذنبتُ ذنبًا عظيمًا، فهل لِي مِن توبة؟ فقال: «هل لك من أمٍّ؟» قال: لا. قال: «فهل لك من خالة؟» قال: نعم. قال: «فبرَّها»[4].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الهبة (٢٦٢٠)، ومسلم في الزكاة (١٠٠٣).

(٢) رواه أبو داود في الزكاة (١٦٦٨).

(٣) رواه الترمذي في البر والصلة (١٨٩٩) مرفوعًا وموقوفًا، ورجَّح وقفه، والحاكم في البر والصلة (٤/ ١٥١)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في الصحيحة (٥١٦).

(٤) رواه أحمد (٤٦٢٤) وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، والترمذي في البر والصلة (١٩٠٤) مرفوعا ومرسلا، ورجح المرسل، وابن حبان في البر والإحسان (٤٣٥)، والحاكم في البر والصلة (٤/ ١٥٥)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٢٥٠٤).

برُّ الوالدين بعدَ وفاتِهما، وكيف يكون:

حدَّد الرسول الكريم بِرَّ الوالدين بعد موتهما في جملة حقوق يجب أن تُرْعى:

١- الصلاة عليهما، أي: صلاة الجنازة.

٢- والاستغفار لهما، كما قال نوح: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [نوح:٢٨]، وقال إبراهيم: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم:٤١]. وإن عَرَفَ إبراهيمُ بعد ذلك أنه لا يجوز الاستغفار للمشركين.

٣- وإنفاذ عهدهما، إذا عهدا- أو أحدهما- إلى أولادهما، كلِّهم أو بعضِهم بشيء من الخير والطاعات أو نحو ذلك، وقدروا عليه، فعليهم أن يُنفذوه، فهذا من العهد الذي يجب تنفيذه.

٤- وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، فالعمَّةُ لا توصل إلا بالأب، والخالة لا توصل إلا بالأم؛ ولهذا لمَّا قال بعضُ الأبناء للرسول: أذنبتُ ذنبًا، فهل لي من توبة؟ قال: «هل لك من أم؟» قال: لا. قال: «فهل لك من خالة؟» قال: نعم. قال: «فبرها»[١].

٥- وإكرام صديقهما، أي: تبرُّ أصدقاءَ والدك، وصديقات أمِّك، ففي حديث أبي أسيد مالكِ بنِ ربيعة السَّاعديِّ، قال: بينا نحنُ عندَ رسولِ الله ﷺ، إذ جاءهُ رجل من بني سَلِمة، فقال: يا رسولَ الله، هل بقي مِن بِرِّ أبوَيَّ شيء أبَرُّهما به بعدَ موتهما؟ قال: «نعم، الصلاةُ عليهما، والاستغفارُ لهما، وإنفاذُ عهدهما مِن بعدهما، وصلة الرحم التي لا توصلُ إلا بهما، وإكرام صديقهما»[٢].

---

(١) رواه أحمد (٤٦٢٤) وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، والحاكم في البر والصلة (٤/ ١٥٥)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٢) رواه أحمد (١٦٠٥٩)، وقال مخرجوه: إسناده ضعيف، وأبو داود (٥١٤٢)، وابن ماجه (٣٦٦٤)، كلاهما في الأدب، والحاكم في البر والصلة (٤/ ١٥٤)، وصحح إسناده ووافقه الذهبي.

وفي معناه حديث عبد الله بن دينار، عن عبد الله بن عمر ﷺ: أن رجلًا من الأعراب لقِيه بطريق مكّة، فسلَّم عليه عبدُ الله بن عمر، وحَمَلَه على حمار كان يركبه، وأعطاه عِمامةً كانت على رأسه، قال ابن دينار: فقلنا له: أصلحك الله! فإنَّهم الأعرابُ، وهم يرضون باليسير. فقال عبد الله بن عمر: إنَّ أبا هذا كان ودًّا لعمر بن الخطاب، وإنِّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن أبَرَّ البِرِّ صلةُ الولدِ أهلَ ودِّ أبيه»(١).

وعن أبي بردة قال: قدمتُ المدينة، فأتاني عبد الله بن عمر، فقال: أتدري لِمَ أتيتك؟ قال: قلتُ: لا. قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَن أحبَّ أن يصِلَ أباه في قبره، فليصِل إخوانَ أبيه بعده»، وإنه كان بين أبي عمرَ وبين أبيك إخاءٌ وودٌّ، فأحببْتُ أن أصِل ذاك(٢).

السنة تحذِّر بشدة مِن عقوق الوالدين:

وقد صحَّتْ جملةٌ وافرة من الأحاديث النبوية في الترهيب من عقوق الوالدين، أو الإساءة إليهما.

عن المغيرة بن شعبة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «إنَّ الله حرَّم عليكم: عقوقَ الأمهات، ووأدَ البنات، ومنعًا وهات. وكرِه لكم: قِيلَ وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»(٣).

وعن أبي بَكْرةَ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» ثلاثًا، قلنا: بلى، يا رسول الله. قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين»، وكان مُتَّكِئًا،

---

(١) رواه مسلم البر والصلة (٢٥٥٢)، وأحمد (٥٦٥٣).

(٢) رواه أبو يعلى (٥٦٦٩)، وابن حبان في البر والإحسان (٤٣٢) وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط البخاري، وصححه الألباني في الصحيحة (١٤٣٢).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الاستقراض (٢٤٠٨)، ومسلم في الأقضية (٥٩٣)، كما رواه أحمد (١٨١٤٧).

فجلس، فقال: «ألَا وقول الزور، وشهادة الزور» فما زال يكررها حتى قلنا: ليتَه سكت[1]!

فلم يكتفِ ﷺ بجعل العقوقِ من الكبائر، بل جعله مِن أكبر الكبائر.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس»[2].

وعنه أن رسول الله ﷺ قال: «من الكبائر شتم الرجل والديه». قالوا: يا رسول الله! وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: «نعم، يسبُّ أبا الرجل، فيسب أباه، ويسب أمه، فيسب أمه»[3].

أي: إنه كان سببًا في سبِّ والديه؛ لأنه سب والدَي الآخر، فردَّ عليه بمثله.

وفي روايةٍ للبخاري ومسلم: «إنَّ مِن أكبر الكبائر: أن يلعن الرجل والديه». قيل: يا رسول الله! وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: «يسبُّ أبا الرجل، فيسبَّ أباه، ويسب أمه، فيسب أمه»[4].

وعن عمرو بن مُرَّة الجُهَني رضي الله عنه قال: جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، شهدتُ ألَّا إله إلا الله، وأنك رسول الله، وصليتُ الخمس، وأدَّيتُ زكاة مالي، وصُمتُ رمضان. فقال النبي ﷺ: «مَن مات على هذا كان مع النبيين

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٥٩٧٦)، ومسلم في الإيمان (٨٧)، كما رواه أحمد (٢٠٣٨٥)، والترمذي في البر والصلة (١٩٠١).

(٢) رواه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٧٥)، وأحمد (٦٨٨٤)، والنسائي في تحريم الدم (٤٠١١).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٥٩٧٣)، ومسلم في الإيمان (٩٠)، وأبو داود في الأدب (٥١٤١)، والترمذي في البر والصلة (١٩٠٢).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٥٩٧٣)، ومسلم في الإيمان (٩٠)، عن عبد الله بن عمرو.

والصديقين والشهداء يوم القيامة هكذا- ونصب أصبعيه- ما لم يعقَّ والديه»[1].

كثرة العقوق والجفاء من الأولاد:

ولقد كثُر الجفاء والعقوق من الأبناء للآباء والأمهات، حتى عمَّت الشكوى، وتكاثر الضرر والبلوى، حتى غدَا كثيرٌ من الآباء والأمهات يتمنَّون لو لم يكن لهم أولاد، وفي هذا جاء قول الشاعر[2]:

أرى ولدَ الفتي ضررًا عليه ... لقد سعِد الذي أمْسَى عقيما
فإمَّا أن يربيه عدوًّا ... وإما أن يخلِّفه يتيمَا
وإمَّا أن يُصادِفه حِمامٌ ... فيترك حُزنَه أبدًا مُقيمَا

ومن الأبناء من يبالغ في عقوق أبيه، حتى يدع أباه شاكيًا، أو باكيًا حزينًا، وهذا ما جعل أمية ابن أبي الصلت يقول في معاتبة ابن له عاقٍّ:

غذوتك مولودًا وعُلتك يافعًا ... تُعَلُّ بما أجني إليك وتنهل
إذا ليلةٌ نالتك بالشكو لم أبت ... لشكواك إلا ساهرًا أتململ
كأني أنا المطروق دونك بالذي ... طرقت به دوني فعيني تهمل
تخاف الردى روحي عليك وإنها ... لتعلم أن الموت حتم مؤجل
فلما بلغت السن والغاية التي ... إليها مدى ما كنتُ فيك أؤمل
جعلت جزائي منك غلظة وفظاظة ... كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتك إذ لم ترعَ حقَّ أُبوَّتي ... فعلتَ كما الجار المجاور يفعل

(١) رواه أحمد (٣٩/ ٥٢٢) رقم (٨١)، من الملحق المستدرك من مسند الأنصار، وقال مخرجوه: حديث صحيح، والطبراني في مسند الشاميين (٢٩٣٩)، وابن خزيمة في الصيام (٢٢١٢)، وابن حبان في الصوم (٣٤٣٨).

(٢) هو القاضي القاسم أبو علي بن محسن التنوخي. ينظر: الكشكول لبهاء الدِّين العاملي (٢/ ٢٣٥).

الفصل الثاني

أدب الزواج والعشرة الزوجية

مِن الذين أوصتْ بهم آيةُ «الحقوق العشرة» في سورة النساء صِنْفٌ سمَّته الآية: «الصاحب بالجنب»، بعد أن أوصتْ بالجارِ ذي القُربى، والجار الجنب، فمن هو المراد بالصاحب بالجنب؟

المرأة والرجل في حال الزوجيَّة:

ذكَرَ ابنُ كثير، عن عليٍّ وابن مسعودٍ ﷺ، أنَّهما قالا: هي المرأة. وقال ابن أبي حاتم: ورُويَ عن عبد الرحمن بنِ أبي ليلى، والنخعيّ، والحسن، وسعيد بن جبير في إحدى الروايات نحوَ ذلك[1].

وعندي أنَّ المرأةَ – بمعنى الزوجة – هي أقربُ ما يُطلق عليه أنَّها: الصاحبُ بالجنب؛ فهي القرينة القريبة، وهي سَكَنُ زوجِها، وربَّة بيْته، وموضع سره، وحافظة ماله، وصائنة حرماته، وأمُّ أولاده، هي التي تُعِدّ له الطعام والشراب واللباس، وتهيِّئ له البيت والمأوى، وتبِيتُ في الليل إلى جواره، وهي التي تَسرُّ إذا نُظرتْ، وتُطيع إذا أُمِرَتْ، وتحفظ زوجها إذا غاب في نفسِها وماله، كما قال تعالى: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾ [النساء: ٣٤].

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٠٠)، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، تحقيق: سامي بن محمد سلامة.

وأرى أن الزوجيَّة بما لها من عناية وأهمية في الإسلام، توجيهًا وتشريعًا: حَريَّةٌ بأن تدخل في آية الحقوق العشرة، ولا نقول كما قال بعض المفسرين بالاكتفاء بما ذكر الله تعالى قبل آية الحقوق العشرة من آية: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ﴾ [النساء: ٣٤]؛ لأن آية الحقوق العشرة آية جامعة، ومن حقها أن تشمل الأزواج رجالًا ونساء.

ولكن لا أدري: لماذا قصر المفسرون الأولون «الصاحب بالجنب» على المرأة إذا كانت زوجة، ولم يذكروا الرجل إذا كان زوجًا، وهو رفيق دائمٌ للمرأة، يقوم بواجبه نحوها، ويحفظ لها حقوقها، كما تحفظ له حقوقه؟ مع أن لفظ (الصاحب) أقرب إلى تناول الرجل.

الصاحب بالجنب هو الزوج، بمعنى كل من الرجل والمرأة:

والذي أراه: أن يُقال هنا في تفسير «الصاحب بالجَنْب» هو: الزوج، وهذه كلمة تصلُح لكلٍّ من الرجل والمرأة، لا الرجل وحده كما هو مشهور. يقول تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾ [النساء:٢٠]. والمراد: أردتم استبدال امرأة مكان امرأة أخرى، وهو واضح في القرآن كما في قوله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ﴾ [البقرة:١٠٢].

فالمقصود بـ«الصاحب بالجنب» في الآية الكريمة: كلٌّ من الزوجَين: الرجل والمرأة، وكلٌّ منهما صاحب بالجنب، وله حقٌّ مؤكَّد على صاحبه، كما لصاحبه حقٌّ عنده.

وبهذا تكون الآيةُ الكريمةُ التي سمَّاها العلماء: «آية الحقوق العشرة »، قد شملتِ الحقوقَ الزوجيَّةَ فيها، وهي حقوق بالغة الأهمية في الحياة الإسلامية،

وهي أساس تكوين الأسرة، وبها يكون الوالدان والأولاد والأعمام والعمات والأخوال والخالات.. إلخ.

الرفيق في السفر أو العلم أو الحرفة:

على أنَّ هذا لا يمنع أنْ نذكر في معنى «الصاحب بالجنب» ما قاله عددٌ من المفسرين القُدامى، ولا عَجَبَ أن يتَّسِع اللفظ لذلك المعنى، أو لتلك المعاني.

قال ابنُ عباس وجماعة: هو الرفيق في السفر[1].

وقال سعيد بن جبير في الرواية الأخرى: هو الرفيق الصَّالح[2].

وقال زيد بن أسْلَم: هو جليسك في الحَضَر، ورفيقك في السَّفَر[3].

وقال ابنُ زيد: هو مَن يعْتريك ويلِمُّ بكَ لِتنفعَه[4].

وقال الزمخشري: هو الذي صَحِبَكَ، بأنْ حصل بجنبك، إمَّا رفيقًا في سفرٍ، وإمَّا جارًا ملاصقًا، وإمَّا شريكًا في تعلُّم عِلم أو حِرفة، وإمَّا قاعدًا إلى جنبك في مجلسٍ أو مسْجِد، أو غير ذلك مِن أدنى صُحْبة الْتَأَمَتْ بيْنكَ وبينه، فعليك أنْ تُراعي ذلك الحقَّ ولا تنساه، وتجعلَه ذريعةً للإحسان[5].

ولا شك أن الزوجيَّة مِن كلا الطرفين تدخل في هذه الصُّحبة، وإن لم يذكرها الزمخشري صراحة.

على أن أبا حيان في «البحر المحيط» ذكر في تفسير ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾: أن

---

(١) رواه الطبري في التفسير (٧/ ١١) ط. دار هجر.

(٢) رواه الطبري في تفسيره (٨/ ٣٤١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٠٧٩).

(٣) رواه ابن المنذر في تفسيره (٢/ ٧٠٣) ح (١٧٦١).

(٤) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز (٢/ ٥١)، نشر دار الكتب العلمية – بيروت، ط الأولى – ١٤٢٢هـ.

(٥) تفسير الزمخشري (١/ ٥٠٩)، دار الكتاب العربي – بيروت، ط. الثالثة – ١٤٠٧هـ.

المجاورة مراتب، بعضها ألصق من بعض، أقربها الزوجة، قال الأعشى:

أيا جارَتا بِيني فإنَّك طالِقهْ ... كَذَاكَ أُمُورُ الناسِ غادٍ وطارِقَهْ[1]

ولكنِّي أرجِّح ما قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه وابن مسعود وابن أبي ليلى وإبراهيم النخعي: الصاحب بالجنب الزوجة. وأزيد عليه أنه الزوجان معا[2].

مقاصد الزواج في الإسلام:

الذي ينظر في كتاب الله ﷻ، وهو المصدر الأول للإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقًا ومُثلًا، يجد الأهداف الأساسية للزواج واضحة جلية، وهي:

١- **المقصد الأول من الزواج**: بقاء النوع الإنساني، فالله ﷻ أراد لهذا النوع أن يستخلفه في الأرض. ولا بد من وسيلة لهذا الأمر، فركَّب الله الغريزة في الإنسان تدفعه وتسوقه إلى هذا الأمر، ويترتَّب على ذلك الإنجاب والتناسل، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [النحل:٧٢]. فعن طريق البنين والحفدة يتناسل النوع البشري، ويبقى معمرًا لهذه الأرض وقائمًا بحق الخلافة فيها.

٢- **المقصد الثاني**: هو الإشباع الفطري لهذه الغريزة التي ركَّبها الله في كلا الجنسين، حيث ركَّب الله في الرجل ميلًا إلى المرأة، وركب في المرأة ميلًا إلى الرجل، فهذا دافع فطري، والإنسان يظل متوترًا إذا لم يشبع هذا الدافع، وخصوصًا في بعض الأحوال إذا وجد مثيرات أو نحو ذلك، فالإسلام شرع النكاح لإشباع هذه الغريزة، لكن هناك بعض الأديان وبعض المذاهب الزهدية والفلسفية تقف من الغريزة الجنسية موقف الرفض، وتعتبرها رجسًا من عمل الشيطان! ولذلك

(١) البحر المحيط (٣/ ٦٣٢)، دار الفكر -بيروت، تحقيق: صدقي محمد جميل.

(٢) ينظر: تفسير ابن عطية الموضع السابق.

فالإنسان المثالي في المسيحية- مثلًا- هو الراهب الذي لا يتزوج النساء، ولا يعرفهن، وكان الرهبان في العصور الوسطى يبتعدون عن النساء، ولو كن أمهاتهم أو أخواتهم! أما الإسلام فإنه لم يشرع الرهبانية، وإنما شرع الزواج، وحينما طلب بعض الصحابة من النبي ﷺ أن يختصُوا أو يتبتَّلوا لم يأذن لهم بهذا.

٣- **المقصد الثالث**: القضية النفسية والاجتماعية، فالإنسان بحاجة نفسية إلى من يؤنسه، وإلى من يعايشه باعتبار أنه مخلوق اجتماعي، وهذا ما أشار إليه القرآن في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم:٢١]. وهذا أيضًا ركن من أركان الحياة الزوجية الأساسية ومقصد من المقاصد العليا للزواج.

٤- **المقصد الرابع**: المصاهرة وتوسيع دائرة العشيرة، فالإنسان حينما يصهر إلى آخرين، إلى أسرة أو قبيلة، فمعناها أنه ضم إلى نفسه هذه الأسرة، كما ضم نفسه إلى هذه الأسرة أو القبيلة، ولذلك كان من مقاصد زواج النبي ﷺ من القبائل المختلفة: أنه عند ما يتزوج من هؤلاء يصبحون أصهارًا، فيكسب الإسلام قوة بهذا، كزواجه من بني المصطلق. وقد قال النبي ﷺ: «استوصوا بأهل مصر خيرًا، فإن لكم فيهم رحمًا وصهرًا»[1]. فالرحم هي هاجر أم إسماعيل، والصهر هي مارية القبطية أُم إبراهيم ابن النبي، فمن أجل هذه المصاهرة لا بد أن تكون العلاقة مع هذا الشعب طيبة قوية، وقد وضع الإمام النووي في كتابه: «رياض الصالحين» هذا الحديث في باب صلة الأرحام[2].

---

(١) رواه مسلم في فضائل الصحابة (٢٥٤٣)، وأحمد (٢١٥٢٠)، كلاهما بلفظ: "ذمة ورحما أو قال: ذمة وصهرا"، عن أبي ذر.

(٢) الحديث برقم (٣٢٨).

آداب المعاشرة الزوجيَّة:

نعتمد في هذا الفصل على ما كتبه الإمام الغزالي في آداب الزوجيَّة وحقوق الزوجين، في كتاب «آداب النكاح» من «الإحياء» في الربع الثاني، الذي يشمل العادات والمعاملات، على حين يشمل الجزء الأول: العبادات، والثالث: المهلكات، والرابع: المنجيات.

وسننقل من كلام الغزالي ما نراه متَّسقًا مع الأصول الإسلاميَّة، التي جاء بها القرآن والسنة، أما ما اعتمد عليه من أحاديث ضعيفة، أو متروكة، أو مكذوبة، أو إسرائيليات أو أقوال غير معصومة، فسنتركه، وعندنا من الثابت والصحيح ما يُغنينا.

والنظر هنا فيما على الزوج وفيما على الزوجة. أما الزوج، فعليه مراعاة الاعتدال والأدب في اثني عشر أمرًا: في الوليمة، والمعاشرة، والدعابة، والسياسة، والغيرة، والنفقة، والتعليم، والقَسْم، والتأديب أو النشوز، والوقاع، والولادة، والمفارقة والطلاق.

الوليمة للعرس:

والوليمة طعام يصنعه الزوج إعلانًا عن الزواج وإظهارًا للبهجة والفرحة بالعرس، يأكل منه الأقارب والأصدقاء، وهي مستحبة.

قال أنس ﷺ: رأى رسول الله ﷺ على عبد الرحمن بن عوف ﷺ أثر صفرة، فقال: «ما هذا؟» فقال: تزوجت امرأة على وزن نواة من ذهب. فقال: «بارك الله لك، أولِم ولو بشاة»[1]. وهو أمر للاستحباب.

(١) رواه البخاري في مناقب الأنصار (٣٧٨١)، ومسلم في النكاح (١٤٢٧)، عن أنس.

وأولم رسول الله ﷺ على صفيَّة بتمر وسويق[(١)].

تهنئة الزوجين:

ويستحبُّ للحضور تهنئة الزوجين، فيقول من دخل على الزوج: «بارك الله لك، وبارك عليك، وجمع بينكما في خير».

وكان أهل الجاهلية لهم تهنئة أخرى يتداولونها بينهم، ويقولون: بالرِّفاء والبنين! يدعون للزوجين بحسن الصلة بينهما، وبأن يرفآ بالبنين لا بالبنات؛ لكراهيتهم للبنات، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾ [٥٨- ٥٩].

فغيَّر الإسلام هذه الفكرة، واعتبر أن البنت هبة من الله، كما يهب الابن، وغيَّر صيغة التهنئة التي تعودوها في الجاهلية، بهذه الصيغة الإسلامية، وهي الدعاء للعروسين، فيقال لكلٍّ منهما: «بارك الله لك، وبارك عليك، وجمع بينكما في خير»[(٢)].

إظهار النكاح:

ويستحب إظهار النكاح وعدم إخفائه أو الإسرار به، حتى يعرف الناس أن هذا البيت قام على التقوى والإيمان، وعلى العفة والإحصان. قال عليه الصلاة السلام: «فصل ما بين الحلال والحرام الدف والصوت»[(٣)].

---

(١) رواه أحمد (١٢٠٧٨) وقال مخرجوه: ١٢٠٧٨، وأبو داود في الأطعمة (٣٧٤٤)، والترمذي (١٠٩٥) وقال: حديث غريب، وابن ماجه (١٩٠٩)، كلاهما في النكاح، عن أنس.

(٢) رواه أحمد (٨٩٥٧) وقال مخرجوه: إسناده قوي، وأبو داود (٢١٣٠)، والترمذي (١٠٩١) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (١٩٠٥)، ثلاثتهم في النكاح، عن أبي هريرة.

(٣) رواه أحمد (١٥٤٥١) وقال مخرجوه: إسناده حسن، والترمذي (١٠٨٨) وقال: حسن، والنسائي (٣٣٦٩)، وابن ماجه (١٨٩٦)، ثلاثتهم في النكاح، عن محمد بن حاطب.

وعن الرُّبَيِّع بنت مُعوِّذ قالت: جاء رسول الله ﷺ، فدخل غداة بُنِيَ بي، فجلس على فراشي، وجُويريات لنا يضربن بدُفِّهنَّ، ويندبن من قتل من آبائي، إلى أن قالت إحداهنَّ: وفينا نبيٌّ يعلم ما في غد. فقال لها: «اسكتي عن هذه، وقولي الذي كنت تقولين قبلها»[(1)].

حُسن الخلق مع الزوجة واحتمال الأذى منها:

قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء:١٩].

وقال في تعظيم حقهن: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾ [النساء:٢١]، وقال: ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ [النساء:٣٦]. قيل: هي المرأة.

ووصَّى النبي ﷺ الزوج بامرأته قائلًا: «فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله»[(2)]. بل تعدَّى الأمر إلى الصبر على أذى الزوجة، وسوء طبعها حتى تتهذَّب، وعدم التسرع بفراقها حتى تتعلَّم.

فحسن الخلق معها لا يقتصر على كفِّ الأذى عنها، بل احتمال الأذى منها، والحلم عند طيشها وغضبها، اقتداء برسول الله ﷺ، فقد كان أزواجه يراجعنه الكلام، وتهجره الواحدة منهن يومًا إلى الليل، وراجعت امرأة عمر رضي الله عنه عمر في الكلام، فأنكر أن تراجعه، فقالت: ولِمَ تنكر أن أراجعك؟! فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه[(3)].

(١) رواه البخاري في النكاح (٥١٤٧)، وأحمد (٢٧٠٢١)، وأبو داود في الأدب (٤٩٢٢)، والترمذي في النكاح (١٠٩٠).

(٢) رواه مسلم (١٢١٨)، وأبو داود (١٩٠٥)، كلاهما في الحج، عن جابر.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في المظالم (٢٤٦٨)، ومسلم في الطلاق (١٤٧٩)، عن ابن عباس.

وكان ﷺ يقول لعائشة: «إني لأعلم إذا كنتِ عنِّي راضية، وإذا كنت عليَّ غضبى». قالت: فقلتُ: من أين تعرف ذلك؟ فقال: «أما إذا كنت عني راضية، فإنك تقولين: لا ورب محمد، وإذا كنت عليَّ غضبى، قلتِ: لا ورب إبراهيم». قالت: صدقتَ إنما أهجر اسمَك[(١)].

المداعبة والملاعبة:

فهي التي تطيِّب قلوب النساء، وقد كان رسول الله ﷺ يمزح معهنَّ، حتى ثبت أنه ﷺ كان يُسابق عائشة في العدْو، فسبقتْه يومًا، وسبقها في بعض الأيام، فقال عليه الصلاة والسلام: «هذه بتلك»[(٢)]. أو كما يقول الكرويُّون اليوم: تعادل.

وقالت عائشة ﵂: رأيت النبيَّ ﷺ يسترني بردائه، وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد، حتى أكون أنا التي أسأم، فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن، الحريصة على اللهو[(٣)].

وجعل النبي ﷺ تلطف الرجل مع زوجته ممَّا يرفع درجة إيمانه، لما في ذلك من تقوية روابط الأسرة التي هي اللبنة الأولى من لبنات المجتمع، فقال رسول الله ﷺ: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وألطفهم بأهله»[(٤)].

وقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»[(٥)].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في النكاح (٥٢٢٨)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٣٩)، عن عائشة.

(٢) رواه أحمد (٢٤١١٨)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وأبو داود في الجهاد (٢٥٧٨)، وابن ماجه في النكاح (١٩٧٩)، وابن حبان في السير (٤٦٩١)، صححه الألباني في الصحيحة (١٣١)، عن عائشة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في النكاح (٥٢٣٦)، ومسلم في صلاة العيدين (٨٩٢).

(٤) رواه أحمد (٢٤٦٧٧) وقال مخرجوه: حديث صحيح لغيره، والترمذي في الإيمان (٢٦١٢) وقال: صحيح، عن عائشة.

(٥) رواه الترمذي في المناقب (٣٨٩٥)، وقال: حسن صحيح، والدارمي (٢٣٠٦)، وابن حبان (٤١٧٧)، كلاهما في النكاح، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٨٥)، عن عائشة.

وقال عمر ﷺ: ينبغي للرجل أن يكون في أهله مثل الصبي، فإذا التمسوا ما عنده وجدوه رجلًا[١].

الاعتدال في الدعابة والملاطفة:

وعليه أن يكون معتدلا في دعابته وملاطفته، فلا يتبسَّط في الدعابة والموافقة باتِّباع هواها، إلى حدٍّ يفسد خلقها، ويسقط هيبته عندها، ولا يفتح باب المساعدة على المنكرات، بل إن رأى ما يخالف الشرع والمروءة تنمَّر وامتعض.

قال الحسن: والله ما أصبح رجلٌ يطيع امرأته إلا كبَّه الله في النار[٢]!

قال القرضاوي: والمعنى إطاعتها فيما تهوى مما حرَّم الله، أو يجر إلى ما حرَّم الله.

وقيل: نفس المرأة على مثال نفسك، إن أرسلتَ عِنَانها قليلًا جمحتْ بك طويلًا، وإن أرخيتَ عِذَارها فِترًا[٣]، جذبتكَ ذراعًا، وإن كبحتها وشددت يدك عليها في محلِّ الشدة ملكتها.

قال الغزالي: وعلى الجملة: فبالعدل [أي التوسط بين الإفراط والتفريط] قامت السماوات والأرض، فكل ما جاوز حده انقلب على ضده، فينبغي أن تسلك سبيل الاقتصاد في المخالفة والموافقة، وتتَّبع الحق في جميع ذلك لتسلم من شرهنَّ، فإنَّ كيدهنَّ عظيم.

فالطبيب الحاذق هو الذي يقدِّر العلاج بقدر الداء، فلينظر الرجل أولًا إلى أخلاقها بالتجربة، ثم ليعاملها بما يصلحها، كما يقتضيه حالها.

---

(١) رواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (١٠٣٨).

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٦/ ١٩٨).

(٣) الفتر: المسافة ما بين طرفي السبابة والإبهام.

الاعتدال في الغيرة معها وعليها:

وهو ألا يتغافل عن مبادئ الأمور التي تُخشى غوائلها، ولا يبالغ في إساءة الظنّ والتعنُّت، وتجسُّس البواطن.

وذلك أنه لما قدم رسول الله ﷺ من سفره، قال قبل دخول المدينة: «لا تطرُقوا النساء ليلًا». فخالفه رجلان فسبقا، فرأى كل واحد في منزله ما يكره[١].

وفي الخبر المشهور: «المرأة كالضِّلَع إن قوَّمْته كسرته، فدعه، تستمتع به على عِوَج»[٢]. وهذا في تهذيب أخلاقها.

وقال ﷺ: «إن من الغَيْرة غيرةً يبغضها الله ﷻ، وهي غيرة الرجل على أهله من غير ريبة»[٣]. لأن ذلك من سوء الظن الذي نُهينا عنه، فإن بعض الظن إثمٌ.

وقال علي ﷺ: لا تُكثر الغيرة على أهلك، فتُرمى بالسوء من أجلك[٤].

وأما الغيرة في محلها، فلا بد منها وهي محمودة. فقد قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله تعالى يغار، والمؤمن يغار، وغيرة الله تعالى أن يأتي الرجل المؤمن ما حرم الله عليه»[٥].

وقال عليه السلام: «أتعجبون من غيرة سعد؟ وأنا والله أغير منه، والله أغير مني، ولأجل غيرة الله تعالى حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن»[٦].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الحج (١٨٠١)، ومسلم في الإمارة (٧١٥)، عن جابر.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في النكاح (٥١٨٤)، ومسلم في الرضاع (١٤٦٨)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه أحمد (٢٣٧٤٧) وقال مخرجوه: حسن لغيره، وأبو داود في الجهاد (٢٦٥٩)، والنسائي في الكبرى في الزكاة (٢٣٥٠)، وصحح إسناده ابن حجر في الإصابة (١/ ٥٤٩)، عن جابر بن عتيك.

(٤) قوت القلوب (٢/ ٤١٨).

(٥) متفق عليه: رواه البخاري في النكاح (٥٢٢٣)، ومسلم في التوبة (٢٧٦١)، عن أبي هريرة.

(٦) متفق عليه: رواه البخاري في الحدود (٦٨٤٦)، ومسلم في الطلاق (١٤٩٩)، عن المغيرة بن شعبة.

وقال رسول الله ﷺ: «رأيتُ ليلةَ أُسري بي في الجنة قصرًا، وبفنائه جارية؛ فقلت: لمن هذا القصر؟ فقيل: لعمر؛ فأردت أن أنظر إليه، فذكرت غَيرتك يا عمر». فبكى عمر وقال: أعَليك أغار يا رسول الله؟(1).

قال القرضاوي: ولا تعني هذه الغيرة أن تُحْرَم المرأة من حقوقها في التعليم والتعبد والعمل، ولا ينبغي أن تَحْمِل الغيرةُ المرءَ على حرمانهن حقوقهن، لما روى ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله». فقال بعض ولده: بلى والله، لنمنعهن. فضربه، وغضب عليه، وقال: تسمعني أقول: قال رسول الله ﷺ: «لا تمنعوا»، فتقول: بلى(2).

النفقة على المرأة بلا إسراف ولا تقتير:

ومن ذلك: الاعتدال في النفقة، فلا ينبغي أن يقتِّر عليهن في الإنفاق، ولا ينبغي أن يسرف، بل يقتصد. قال تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ [الأعراف: ٣١]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء:٢٩]. وقد قال رسول الله ﷺ: «خيرُكم خيركم لأهله»(3).

وقال ﷺ: «دينارٌ أنفقتَه في سبيل الله، ودينار أنفقتَه في رقبة، ودينار تصدقتَ به على مسكين، ودينارٌ أنفقتَه على أهلك: أعظمها أجرًا الذي أنفقته على أهلك»(4).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٤٢)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٣٩٥)، عن أبي هريرة.

(٢) المرفوع متفق عليه: رواه البخاري في الجمعة (٩٠٠)، ومسلم في الصلاة (٤٤٢)، كما رواه أحمد (٥٤٦٨).

(٣) رواه الترمذي في المناقب (٣٨٩٥)، وقال: حسن صحيح، والدارمي (٢٣٠٦)، وابن حبان (٤١٧٧)، كلاهما في النكاح، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح. وصححه الألباني في الصحيحة (٢٨٥)، عن عائشة.

(٤) رواه مسلم في الزكاة (٩٩٥)، وأحمد (١٠١١٩)، عن أبي هريرة.

وأهم ما يجب عليه مراعاته في الإنفاق: أن يُطعمها من الحلال، ولا يدخُل مداخل السوء لأجلها، فإن ذلك جناية عليها لا مراعاة لها.

أن يتعلم من فقه النساء ما لا بدَّ منه:

وأن يتعلَّم المتزوِّج من علم الحيض وأحكامه ما يحترز به الاحتراز الواجب.

ويُعلِّم زوجته الصلاة، وما يُقضى منها في الحيض وما لا يقضى، فإنه أُمر بأن يقيها النار، بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم:٦]. ويُخوِّفها في الله إن تساهلت في أمر الدين، ويُعلِّمها من أحكام الحيض والاستحاضة وغيرهما ما تحتاج إليه.

العدل بين النساء إن كان للرجل أكثر من زوجة:

وإذا كان له نسوة، فينبغي أن يعدل بينهن، ولا يميل إلى بعضهن، فإن خرج إلى سفر، وأراد استصحاب واحدة، أقرع بينهن.

قال رسول الله ﷺ: «من كان له امرأتان، فمال إلى إحداهما دون الأخرى- وفي لفظ: ولم يعدل بينهما- جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل»(١).

وإنما عليه العدل في العطاء والمبيت، وأما في الحب والوقاع فذلك لا يدخل تحت الاختيار. قال الله تعالى: ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ﴾ [النساء: ١٢٩]. أي: لن تستطيعوا أن تعدلوا في شهوة القلب وميل النفس، ويتبع ذلك التفاوت في الوقاع.

وكان رسول الله ﷺ يعدل بينهنَّ في العطاء والبيتوتة في الليالي، ويقول:

(١) رواه أحمد (٧٩٣٦)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح، وأبو داود (٢١٣٣)، والترمذي (١١٤١)، والنسائي (٣٩٤٢)، وابن ماجه (١٩٦٩)، جميعهم في النكاح، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٨٥١)، عن أبي هريرة.

«اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك»(١). يعني الحب. وقد كانت عائشة ﵂ أحبَّ نسائه إليه وسائر نسائه يعرفن ذلك.

ومهما وهبت واحدة ليلتها لصاحبتها، ورضي الزوج بذلك، ثبت الحق لها، فقد كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه، فخافت سودة بنت زمعة أن يطلِّقها لما كبرت، فوهبتْ ليلتَها لعائشة، وسألته أن يُقِرَّها على الزوجية، حتى تُحشر في زمرة نسائه، فتركها، وكان لا يقسم لها، ويقسم لعائشة ليلتين، ولسائر أزواجه ليلةً ليلةً(٢).

تحكيم الشرع عند النشوز والخصام:

ومهما وقع بينهما خصام ولم يلتئم أمرهما، فإن كان من جانبهما جميعًا أو من جانب الرجل، فلا تُسلط الزوجة على زوجها، ولا يقدر على إصلاحها، فلا بد من حَكَمين: أحدهما من أهله، والآخر من أهلها، لينظرا بينهما ويصلحا أمرهما: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ [النساء: ٣٥]. وقد بعث عمر ﵁ حكمًا إلى زوجين، فعاد ولم يُصلح أمرهما، فعلاه بالدرة، وقال: إن الله تعالى يقول: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ فعاد الرجل وأحسن النية، وتلطف بهما فأصلح بينهما.

وأما إذا كان النشوز من المرأة خاصَّة، فالرجال قوامون على النساء، فله أن يؤدِّبها، ولكن ينبغي أن يتدرَّج في تأديبها: وهو أن يقدم أولًا الوعظ والتحذير

---

(١) رواه أحمد (٢٥١١١)، وقال مخرِّجوه: هذا إسناد رجاله ثقات. ورواه أبو داود (٢١٣٤)، والترمذي (١١٤٠) وقال: روي مرسلًا وهو أصح. والنسائي في عشرة النساء (٣٩٤٣)، وابن ماجه (١٩٧١)، والحاكم (٢/ ١٨٧) وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، جميعهم في النكاح، وقال الألباني في مشكاة المصابيح (٣٢٣٥): جيد، عن عائشة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الهبة (٢٥٩٣)، ومسلم في الرضاع (١٤٦٣)، عن عائشة.

والتخويف، فإن لم ينجح ولَّاها ظهره في المضجع، أو انفرد عنها بالفراش وهجرها، وهو في البيت معها، من ليلة إلى ثلاث ليال. فإن لم ينجح ذلك فيها، ضربها ضربًا غير مبرِّح بحيث يؤلمها، ولا يكسر لها عظمًا، ولا يدمي لها جسمًا، ولا يضرب وجهها، فذلك منهيٌّ عنه. وقد قيل لرسول الله ﷺ: ما حق المرأة على الرجل؟ قال: «يطعمها إذا طعم، ويكسوها إذا اكتسى، ولا يقبِّح الوجه، ولا يضرب إلا ضربًا غير مبرح، ولا يهجرها إلا في المبيت»[1].

مراعاة الحق الجنسي للمرأة والرجل:

وهو حق فطري، حتى في ليالي شهر رمضان، قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة:١٨٧]. وقال تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾ [البقرة:٢٢٣]، والفقهاء يعبِّرون عن هذه القضية بـ«آداب الجماع».

آداب الجماع:

ويستحب أن يبدأ الجماع باسم الله تعالى، وقال عليه الصلاة والسلام: «لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: اللهم جنبني الشيطان وجنِّب الشيطان ما رزقتنا. فإن كان بينهما ولد لم يضره الشيطان»[2].

ومن العلماء من استحبَّ الجماع يوم الجمعة وليلتها، تحقيقًا لأحد التأويلين

(١) رواه أحمد (٢٠٠١٣) وقال مخرجوه: إسناده حسن، وأبو داود (٢١٤٢)، وابن ماجه (١٨٥٠)، كلاهما في النكاح، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٨٥٩)، عن معاوية بن حيدة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الوضوء (١٤١)، ومسلم في النكاح (١٤٣٤)، عن ابن عباس.

من قوله ﷺ: «رحم الله من غسَّل واغتسل..»[(١)] الحديث. وليس ذلك بلازم.

ثم إذا قضى وطره، فليتمهَّل على أهله، حتى تقضي هي أيضًا نُهمتها، فإن إنزالها ربما يتأخر، فيهيج شهوتها، ثم القعود عنها إيذاء لها، والاختلاف في طبع الإنزال يوجب التنافر، مهما كان الزوج سابقًا إلى الإنزال، والتوافق في وقت الإنزال ألذ عندها، ولا يشتغل الرجل بنفسه عنها، فإنها ربما تستحي[(٢)].

فللمرأة حظٌ من زوجها كما أن الزوج له حظ منها، ولذلك ينبغي على الرجل أن يعرف هذا، ويحاول بقدر الإمكان أن يبطئ من الإنزال بطريقة أو بأخرى، ويتفاهم الزوجان على هذا، فلا ينبغي أن يكون همُّ الرجل أن يقضي شهوته وحده، دون أن يراعي زوجته، بل لا بد أن يجعل من هدفه أن تستمتع زوجته به، كما يستمتع بها، وهناك بعض الوسائل التي تجعل الرجل يؤخر القذف، وعليه إن كان سريع القذف أن يستشير طبيبا يفيده في ذلك.

أوقات الجماع:

قال الغزالي: «وينبغي أن يأتيها في كل أربع ليال مرةً، فهو أعدل، إذ عدد النساء اللاتي يجوز للرجل أن يتزوجهن أربعة، فجاز التأخير إلى هذا الحد، نعم ينبغي أن يزيد وينقص بحسب حاجتها في التحصين، فإن تحصينها واجب عليه، وإن كان لا يثبت المطالبة بالوطء، فذلك لعسر المطالبة والوفاء به»[(٣)] اهـ.

---

(١) رواه أحمد (١٦١٧٣) بلفظ: «من غسل واغتسل يوم الجمعة، وبكر وابتكر، ومشى، ولم يركب فدنا من الإمام..».

(٢) ينظر إحياء علوم الدين (٢/ ٤٥-٥٠)، بتصرف وزيادة ونقص.

(٣) المصدر السابق (٢/ ٥٠).

حكم تعري الزوجين وعدم التغطية أثناء عملية الجماع:

ولا مانع من تعرِّي الزوجين أثناء الجماع، ونظر كل منهما إلى فرج الآخر. وقد انتشر بين بعض الناس أنه لا يجوز أن يجامع زوجته إلا بغطاء يسترهما، ويستندون إلى قول السيدة عائشة ﵂: «لم ير مني الرسول، ولم أر منه»(١). وهذا حديث ضعيف جدًّا، ويعضهم قال: إنه موضوع. وهو مخالف للثابت عن الرسول ﷺ وعن أمهات المؤمنين، فقد جاء عن عائشة وعن أم سلمة وعن ميمونة ﵅ جميعًا: أنهن كنَّ يغتسلن مع رسول الله ﷺ من إناء واحد، وكان مجردًا من الإزار(٢)، وقالت ميمونة ﵂: إن النبي ﷺ أخذ من الإناء بيمينه، وصب على شماله، وغسل فرجه(٣).

وقد جاء في صحيح ابن حبان أن أحد التابعين سأل عطاء بن رباح- وهو من أئمة التابعين- : هل يجوز للمرأة أن تنظر إلى فرج زوجها؟ فقال له: سألتُ عائشة ﵂، فذكرت لي هذا الحديث.

أي قولها: كُنَّا نغتسل مع رسول الله في إناء واحد(٤).

فانظر إلى مثل هذا الإمام الجليل، كيف يسأل السيدة عائشة ﵂ عن هذا الأمر، ولا يجد فيه حرجًا! لأنه يريد أن يعرف الحكم الشرعي في هذه المسألة: أهو حلال أم حرام؟ والسيدة عائشة أجابته بقولها: كنا نغتسل مع رسول الله في إناء واحد. ولذلك قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: «هو نص في المسألة. أي: إنه

---

(١) رواه أبو الشيخ في أخلاق النبي (٧٤٠)، وقال الألباني في الضعيفة (١١٣٥): موضوع، آفته محمد بن القاسم الأسدي، هذا كذبه أحمد وقال: أحاديثه موضوعة، ليس بشيء.

(٢) انظر المحلى: (١/ ٢٦٧ و٢٨٣ و٢٨٩).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الغسل (٢٨١)، ومسلم في الحيض (٣٣٧).

(٤) رواه ابن حبان في الحظر والإباحة (٥٥٧٧)، وقال الأرنؤوط: إسناده حسن.

يجوز للرجل أن يرى فرج زوجته»[1].

وبعض العلماء في كتب الحنفية مثل كتاب «الدر المختار شرح تنوير الأبصار» قال: «ويجوز للرجل أن ينظر إلى ما ظهر وبطن من جسم امرأته». لكن جاء الشارح فقال: «والأولى ترك هذا – أي: لا ينظر إلى فرجها- لأنه يورث النسيان، وقيل: إنه يورث ضعف البصر»[2]. فعلّل بتعليلات غير شرعية، ولم يثبتها الواقع ولا العلم.

وإمام المذهب أبو حنيفة ﷺ سُئل: هل يجوز للرجل أن يمس فرج امرأته، أو هل للمرأة أن تمس فرج زوجها؟ فقال: نعم، ولعله أعظم للأجر[3].

وأظن أنه يشير بقوله هذا إلى حديث: «وفي بُضع أحدكم صدقة»[4]؛ لأن هذا الأمر إذا كان يحرك المرأة لزوجها ويستثير الزوج لزوجته فهذا هو المقصود والمطلوب؛ لأن الإنسان رجلا- كان أو امرأة- إذا شبع جنسيًّا مما أحل الله له، فإنه لا يفكر في الحرام، ولا تمتد عينه إلى الحرام.

وكذلك لم يثبت الحديث الذي رواه ابن ماجه: «إذا أراد أحدكم جماع امرأته، فلا يتجردان تجرُّد البعيرين أو العيرين»[5]. والعَير يعني الحمار.

وهذا الحديث مما انفرد به ابن ماجه عن سائر كتب السنن، قال الإمام

---

(١) فتح الباري (١/ ٣٦٤).

(٢) الدر المختار شرح تنوير الأبصار ص ٦٥٥، نشر دار الكتب العلمية، ط: الأولى ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.

(٣) رد المحتار على الدر المختار، نشر دار الفكر- بيروت، ط الثانية ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م.

(٤) رواه مسلم في الزكاة (١٠٠٦)، وأحمد (٢١٤٧٣)، وابن حبان في النكاح (٤١٦٧)، والبيهقي في الكبرى كتاب الزكاة (٤/ ١٨٨)، عن أبي ذر.

(٥) رواه ابن ماجه في النكاح (١٩٢١).

البوصيري في كتابه: «زوائد ابن ماجه»: هذا حديث ضعيف[1]. وضعفه الحافظ العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء»، وضعفه في عصرنا الشيخ الألباني في كتابه «إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل»[2]، وضعَّفه أكثر من واحد، فهو حديث ضعيف، لا يمكن أن يؤخذ منه حكم بالتحريم، حتى لو أخذنا بقول من قال: إنه حديث حسن- كمن يذهب إلى تحسين الأحاديث بأدنى شيء- فهو لا يدل إلا على الكراهة التنزيهية، والكراهة التنزيهية تزول بأدنى حاجة.

وكذلك الإمام ابن حزم- وهو إمام يأخذ بظواهر النصوص وحرفيتها- يرفض هذا كله، ويقول: هذا ليس له أصل في الشرع، ولم يصحَّ به نص، لا من قرآن، ولا من سنة، ولا من قول صاحب، وأعجب للذين يبيحون الجماع في الفرج ويحرمون النظر إليه[3]!

ومن ضمن الآداب التي شرعها الإسلام في الجماع ما جاء فيما رُوي عنه ﷺ- وإن كان فيه ضعف- : «لا يرتمي أحدكم على امرأته كما ترتمي البهيمة، اجعلوا بينكم وبين الجماع رسولًا» قالوا: وما هو يا رسول الله؟ قال: «القُبلة والكلام»[4].

فلا ينبغي للإنسان أن يأتي امرأته بدون مقدمات، فلا بد من تمهيدات حتى تستثار المرأة؛ لأنها تحتاج إلى وقت حتى تحضر شهوتها، فلا بد أن يداعبها ويكلمها حتى تكون حاضرة معه، ولا حياء في ذلك.

---

(١) مصابح الزجاجة (٢/ ١٠٩).

(٢) الإرواء (٢٠٠٩).

(٣) المحلى مسألة (١٨٧٥).

(٤) قال العراقي في تخريج الإحياء: رواه الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس وهو منكر (٢/ ٩٩٣)، وأقره الزبيدي في شرحه (٥/ ٣٧٢).

وقد ذكر القرآن الكريم في مقام آخر طريقة الأداء نفسها، فقال تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٣]، فقد كان الأنصار مجاورين لليهود، واليهود من عادتهم أن يأتي الرجل امرأته بطريقة واحدة فقط، وأما قريش فمن عادتهم أنهم يستمتعون بالنساء مقبلات ومدبرات ومستلقيات وعلى أيِّ شكل، فلما تزوج أحد المهاجرين امرأة من الأنصار، وأراد أن يجامعها كما هي عادة قريش، امتنعت المرأة عن ذلك؛ لأنها لم تعتد على هذه الطريقة، فبلغ الأمر النبي ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ﴾(١).

النهي عن الإتيان في الدبر:

أباح القرآن الكريم إتيان المرأة وهي مقبلة أو مدبرة، أو على جنب، أو مستلقية، أو على أي شكل كان، بشرط أن يكون الجماع في موضع الحرث؛ لأن الله قال: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾، والحرث هو الزرع. والمقصود مكان الزرع والإنبات، والدُّبُر ليس مكانًا للإنجاب!

وقد قال الله تعالى عن المحيض: ﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾ [البقرة:٢٢٢]، فكيف بالمكان الذي هو أصل موضع القذارة بطبيعته؟ وقد سمَّى سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما هذا الفعل باللُّوطية الصغرى(٢)؛ لأنه أشبه بعمل قوم لوط، ولذلك جاء التحريم

(١) رواه أحمد في مسنده (٢٦٦٠١)، وقال مخرجوه: إسناده حسن، والترمذي في التفسير (٢٩٧٩)، وقال: حديث حسن. والدارمي في الطهارة (١١١٩)، وقال: حسين أسد: إسناده صحيح، وصححه الألباني في غاية المرام (٢٣٥)، عن أم سلمة.

(٢) روي ذلك عنه مرفوعا وموقوفا: فرواه مرفوعا رواه أحمد (٦٧٠٦) وقال مخرجوه: إسناده حسن، وقد اختلف في رفعه ووقفه، والموقوف أصح، والنسائي في الكبرى في عشرة النساء (٨٩٤٧). ورواه موقوف ابن أبي شيبة في النكاح (١٧٠٧٢)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٤٤٢٥)، ورجح الموقوف ابن حجر في التخليص الحبير (٣/ ٣٩١).

في عدد من الأحاديث، وإن كان فيها شيء من الضعف، ولكن يقوّي بعضُها بعضًا، وبعضها ثابت بأحاديث موقوفة عن ابن عباس وعبد الله بن عمرو، والأحاديث الموقوفة في هذا لها حكم الرفع.

ومن الأحاديث التي جاءت في تحريم هذا الأمر حديث أبي هريرة مرفوعًا: «لا ينظر الله إلى من أتى امرأته في دبرها»[(1)].

«ملعون من أتى امرأته في دبرها»[(2)].

«اتق الحيضة والدبر»[(3)]. فهذه الأحاديث كلها تؤكد تحريم هذا الأمر.

الاستمتاع بالزوجة أثناء الحيض:

قال الغزالي: ولا يأتيها في المحيض، ولا بعد انقضائه وقبل الغسل، فهو محرم بنص الكتاب[(4)]، وهو يسبب كثيرًا من الأمراض الصحية.

وله أن يستمتع بجميع بدن الحائض، ولا يأتيها في غير المأتى؛ إذ حرم غشيان الحائض لأجل الأذى، والأذى في غير المأتى دائم، فهو أشد تحريمًا من إتيان

---

(1) رواه أحمد (٧٦٨٤)، وقال مخرجوه: حسن، والنسائي في الكبرى كتاب عشرة النساء (٨٩٦٢)، وابن ماجه في النكاح (١٩٢٣)، وفي الزوائد: إسناده صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٨٠٢)، عن أبي هريرة.

(2) رواه أبو داود في النكاح (٢١٦٢)، والنسائي في الكبرى في عشرة النساء (٨٩٦٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٨٨٩)، عن أبي هريرة.

(3) رواه أحمد (٢٧٠٣)، وقال مخرجوه: إسناده حسن، والترمذي في تفسير القرآن (٢٩٨٠)، وقال حسن غريب، والنسائي في الكبرى (٨٩٧٧)، باب عشرة النساء. وقال الهيثمي في المجمع (١٠٨٦٣): رجاله ثقات. وقال ابن حجر في الفتح (٨/ ١٩١): طرقها كثيرة، فمجموعها صالح للاحتجاج. وحسنه الألباني في غاية المرام (٢٣٦)، عن ابن عباس.

(4) انظر: مسألة وطء الزوجة قبل الغسل، في كتابنا فقه الطهارة ص ٢٨١ وبعدها، مكتبة وهبة، الطبعة الرابعة ١٤٢٨هـ-٢٠٠٨م.

الحائض. وقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]. أي: أيَّ وقت شئتم[1].

وقد استنبط العلماء من هذه الآية: ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ تحريم الإتيان في الدبر. أما إذا وجد الاستمتاع دون الجماع، فحكمه كحكم الاستمتاع بالمرأة في فترة الحيض. وقد قال الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾ [البقرة:٢٢٢]. وجاء تفسير هذا في قوله عليه الصلاة والسلام: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح»[2]. وقد كان من عادة اليهود أن المرأة إذا حاضت ألا يساكنوها ولا يؤاكلوها، ولا يشربوا معها، على خلاف النصارى الذين ليس عندهم أي شيء ممنوع، حتى الجماع! فجاء الإسلام ونهى عن الجماع في وقت الحيض في موضع الحيض، وهو الفرج، وأباح الاستمتاع فيما دون ذلك إلا الدبر.

فيجوز للزوج أن يستمتع بزوجته الحائض، لكن بشرط أن يجتنب الفرج فقط، وهذا ما تميَّز به الإسلام عن اليهودية وعن النصرانية.

فالنصرانية تجيز الجماع في الحيض، واليهودية تمنع أيَّ اقتراب من المرأة ولو بالأكل أو الشرب أو غير ذلك، أما الإسلام فلم يحرم إلا جماع الحائض في الفرج.

وقد قال النبي ﷺ للسيدة عائشة ﵂: «أعطني هذه الخُمْرة» أي: الغطاء. فقالت: يا رسول الله، إني حائض. فقال لها: «إن حِيضَتك ليست في يدك»[3].

وقالت السيدة عائشة: كنت أشرب من القَدَح الذي يشرب منه الرسول ﷺ،

---

(١) الإحياء (٢/ ٥٠).

(٢) رواه مسلم في الحيض (٣٠٢)، وأحمد (١٢٣٥٤)، عن أنس.

(٣) رواه مسلم في الحيض (٢٩٨)، وأحمد (٢٤١٨٤)، وأبو داود (٢٦١)، والترمذي (١٣٤)، كلاهما في الطهارة.

وكان يشرب من ورائي، وكان يضع فاه موضع فيَّ وأنا حائض[1]. أي يشرب من المكان الذي منه شربت، وهذا نوع من المؤانسة، وقد جاء في الحديث: «إن الرجل ليؤجر في كل شيء، حتى في اللقمة يضعها في فم امرأته»[2]؛ لأنه يريد أن يدخل السرور على امرأته، ويزيد الرابطة بينهما، ويوثق المودة بينهما، فهو مأجور على هذا كله.

قال الغزالي: «وله أن يستمني بيديها، وأن يستمتع بما تحت الإزار بما يشتهي، سوى الوقاع.

وينبغي أن تأتزر المرأة بإزار من حِقوها إلى ما فوق الركبة في حال الحيض، فهذا من الأدب.

وله أن يؤاكل الحائض، ويخالطها في المضاجَعة وغيرها، وليس عليه اجتنابها.

وإن أراد أن يجامع ثانيًا بعد أخرى فليغسل فرجه أولًا، وبعد الجماع في أول الليل، لا ينام على غير طهارة، فإن أراد النوم أو الأكل، فليتوضأ وضوء الصلاة، فذلك سُنَّة.

قال ابن عمر: قلت للنبي ﷺ: أينام أحدنا وهو جُنُب؟ قال: «نعم إذا توضأ»[3][4].

النهي عن إفشاء الأسرار التي تتعلق بالمعاشرة الزوجية:

جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «إن من شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته، وتفضي إليه، ثم ينشر سرَّها»[5].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الجنائز (١٢٩٥)، ومسلم في الوصية (١٦٢٨)، عن سعد بن أبي وقاص.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الغسل (٢٨٧)، ومسلم في الحيض (٣٠٦).

(٤) الإحياء (٢/ ٥٠).

(٥) رواه مسلم في النكاح (١٤٣٧)، وأحمد (١١٦٥٥)، عن أبي سعيد الخدري.

أي: يتحدث بما حصل بينهما خلال هذا اللقاء الجنسي.

ولقد سأل النبي ﷺ الصحابة، فقال: «هل مِنكُم الرجلُ إذا أتى أهله فأغلق عليه بابه، وألْقَى عليه سِتْرَه، واسْتَتَرَ بسِتْرِ الله؟» قالوا: نعم. قال: «ثم يجلس بعد ذلك، فيقول: فعلْتُ كذا، فعلتُ كذا؟» فَسَكَتوا، ثم أقبلَ على النساء، فقال: «هل مِنْكُنَّ من تُحَدِّثُ؟» فسكَتْنَ، فجثَتْ فَتاة كَعاب- أي شابة- على إحدى رُكْبَتَيْها، وتطاولت لرسولِ الله ﷺ ليراها، ويَسمعَ كلامها، فقالت: يا رسول الله، إنَّهم ليتحَدَّثون، وإنَّهُنَّ ليتحَدَّثْنه. فقال: «هل تدرون ما مَثَلُ ذلك؟ إنَّما مَثَلُ ذلك، مثَلُ شيطانة لقيَتْ شيطانا في السِّكَّةِ، فقضى منها حاجتَه، والناسُ ينظرون إليه»[(١)]. فانظر إلى هذا التشبيه كأن المرأة التي تتحدث عما حدث بينها وبين زوجها، والرجل الذي يتحدث عما حدث بينه وبين زوجته مثل الشيطان والشيطانة، والمقصود من التحدث هنا؛ هو التحدث بتفاصيل العلاقة الخاصة بين الزوجين لغير حاجة، أما إذا تحدّث لحاجة، فلا بأس، كما حَدَث أمام النبي ﷺ، عند ما جاءت المرأة تشكو إليه زوجها وعجزه، فقال الزوج: «والله يا رسول الله، إني لأنفضها نفض الأديم»[(٢)].

أي: يدافع بكلامه هذا عن رجولته. لكن في الحالة العادية لا ينبغي أن يذكر الإنسان هذا، ولا ينبغي إذا ذَكَر أن يذكر تفصيل ما جرى من حديث بينهما من أصوات أو كلام أو غير ذلك، فهذا لا يليق، ولا لأخص الأصدقاء، وهذه العلاقة الجنسية ينبغي أن تكون سرًّا بين الرجل وامرأته، والإسلام يحرم إفشاءها، ويعتبر من فعل ذلك من شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة.

---

(١) رواه أبو داود في النكاح (٢١٧٤)، وصححه الألباني في الإرواء (٢٠١١)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه البخاري في اللباس (٥٨٢٥)، عن عائشة.

حكم العزل عن المرأة:

قال الإمام الغزالي: «ومن الآداب: ألَّا يعزل، بل لا يسرِّح إلا إلى محل الحرث، وهو الرحم، فما من نسمة قدر الله كونها إلا وهي كائنة. هكذا قال رسول الله ﷺ»[1].

فإن عزل فقد اختلف العلماء في إباحته وكراهته على أربعة مذاهب: فمِن مبيح مطلقًا بكل حال، ومن محرم بكل حال، ومن قائل: يحل برضاها، ولا يحل دون رضاها. وكأن هذا القائل يُحرِّم الإيذاء دون العزل، ومن قائل: يباح في المملوكة دون الحرَّة.

قال الغزالي: والصحيح عندنا أن ذلك مباح، وليس هذا كالإجهاض والوأد؛ لأن ذلك جناية على موجود حاصل، وله أيضًا مراتب.

وأول مراتب الوجود: أن تقع النطفة في الرحم، وتختلط بماء المرأة، وتستعد لقبول الحياة وإفساد ذلك جناية، فإن صارت مضغةً وعلقةً كانت الجناية أفحش، وإن نفخ فيه الروح، واستوت الخلقة، ازدادت الجناية تفاحشًا، ومنتهى التفاحش في الجناية بعد الانفصال حيًّا.

قال الغزالي: فإن قلتَ: فإن لم يكن العزل مكروهًا من حيث إنه دفع لوجود الولد، فلا يبعد أن يكره لأجل النيَّة الباعثة عليه، إذ لا يبعث عليه إلا نيَّة فاسدة، فيها شيء من شوائب الشرك الخفي؛ فأقول: النيات الباعثة على العزل خمس:

الأولى: في السراريّ، وهو حفظ المِلْك عن الهلاك باستحقاق العِتَاق، وقصد استبقاء المِلْك بترك الإعتاق، ودفع أسبابه ليس بمنهيٍّ عنه.

الثانية: استبقاء جمال المرأة وسِمَنها، لدوام التمتع واستبقاء حياتها، خوفًا من خطر الطَّلْق، وهذا أيضًا ليس منهيًّا عنه.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في العتق (٢٥٤٢)، ومسلم في النكاح (١٤٣٨)، كما رواه أحمد (١١٦٤٧)، عن أبي سعيد.

الثالثة: الخوف من كثرة الحَرَج بسبب كثرة الأولاد، والاحتراز من الحاجة إلى التعب في الكسب، ودخول مداخل السوء، وهذا أيضًا غير منهيٍّ عنه، فإن قلة الحَرَج مُعين على الدين. نعم الكمال والفضل في التوكُّل والثقة بضمان الله، حيث قال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود: ٦]. ولا جرم فيه سقوط عن ذروة الكمال، وترك الأفضل، ولكن النظر إلى العواقب وحفظ المال وادخاره مع كونه مناقضًا للتوكل، لا نقول: إنه منهيٌّ عنه.

الرابعة: الخوف من الأولاد الإناث، لما يعتقد في تزويجهنَّ من المعرَّة، كما كانت من عادة العرب في قتلهم الإناث، فهذه نيَّة فاسدة، لو ترك بسببها أصل النكاح، أو أصل الوقاع، أثِمَ بها، لا بترك النكاح والوطء، فكذا في العزل.

والفساد في اعتقاد المعرَّة في سنة رسول الله ﷺ أشد، ويُنَزَّل منزلة امرأة تركت النكاح استنكافًا من أن يعلوها رجل، فكانت تتشبه بالرجال، ولا ترجع الكراهة إلى عين ترك النكاح.

الخامسة: أن تمتنع المرأة لتعزُّزها ومبالغتها في النظافة والتحرز من الطلق والنفاس والرضاع.

وفي المتفق عليه في الصحيحين، عن جابر أنه قال: كنا نعزل على عهد الرسول ﷺ والقرآن ينزل[(١)].

وفي لفظ: كُنَّا نعزل، فبلغ ذلك نبي الله ﷺ، فلم ينهنا[(٢)]. وفيه أيضًا عن جابر أنه قال: إن رجلًا أتى رسول الله ﷺ، فقال: إن لي جارية خادمتنا وساقيتنا في

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٢٠٨)، ومسلم (١٤٤٠) كلاهما في النكاح، كما رواه أحمد (١٤٣١٨)، والترمذي في النكاح (١١٣٧)، وابن ماجه في النكاح (١٩٢٧).

(٢) رواه مسلم في النكاح (١٤٤٠).

النخل، وأنا أطوف عليها، وأكره أن تحمل، فقال عليه الصلاة والسلام: «اعزل عنها إن شئت، فإنه سيأتيها ما قُدِّر لها». فلبث الرجل ما شاء الله، ثم أتاه، فقال: إن الجارية قد حملت، فقال: «قد قلتُ: سيأتيها ما قدر لها»[(١)]. كل ذلك في الصحيحين»[(٢)].

١ - الطلاق عند تعذر الوفاق:

قال الإمام الغزالي: «الطلاق مباح، ولكنه أبغض المباحات إلى الله تعالى، وإنما يكون مباحًا، إذا لم يكن فيه إيذاء بالباطل، ومهما طلقها فقد آذاها، ولا يباح إيذاء الغير إلا بجناية من جانبها أو بضرورة من جانبه، قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٣٤]. أي: لا تطلبوا حيلة للفراق. وإن كان الأذى من الزوج، فلها أن تفتدي ببذل مال، ويُكره للرجل أن يأخذ منها أكثر مما أعطى، فإن ذلك إجحاف بها، وتحامل عليها، لقوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

فإن سألت الطلاق بغير ما بأس فهي آثمة، قال ﷺ: «أيما امرأة سألت زوجها طلاقها من غير ما بأس، لم تُرِح رائحة الجنة»[(٣)]. وفي لفظ آخر: «فالجنة عليها حرام».

ثم ليراع الزوج في الطلاق أربعة أمور:

الأول: أن يطلقها في طُهر لم يجامعها فيه، فإن الطلاق في الحيض أو الطهر الذي جامع فيه بدْعيٌّ حرام، لما فيه من تطويل العدَّة عليها؛ فإن فعل ذلك، فليراجعها. فقد طلق ابن عمر زوجته في الحيض، فقال ﷺ لعمر: «مُرْه

(١) رواه مسلم في النكاح (١٤٣٩)، وأحمد (١٤٣٤٦)، وأبو داود في النكاح (٢١٧٣).

(٢) الإحياء (٢/ ٥١-٥٣).

(٣) رواه أحمد (٢٢٣٧٩) وقال مخرجوه: حديث صحيح، وأبو داود في الطلاق (٢٢٢٦)، والترمذي (١١٨٧) وقال: حديث حسن، وابن ماجه (٢٠٥٥)، ثلاثتهم في الطلاق، عن ثوبان.

فليراجعها، حتى تطهر، ثم تحيض، ثم تطهر، ثم إن شاء طلقها، وإن شاء أمسكها، فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء»[1]. وإنما أمره بالصبر بعد الرجعة طُهرين، لئلا يكون مقصود الرجعة الطلاق فقط.

الثاني: أن يقتصر على طلقة واحدة، فلا يجمع بين الثلاث؛ لأن الطلقة الواحدة بعد العدَّة تفيد المقصود، ويستفيد بها الرجعة، إن ندم في العدة، وتجديد النكاح إن أراد بعد العدة[2].

الثالث: أن يتلطف في التعلل بتطليقها من غير تعنيف واستخفاف، وتطييب قلبها بهدية على سبيل الإمتاع والجبر، لما فجعها به من أذى الفراق. قال تعالى: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ [البقرة:٢٣٦]. وذلك واجب مهما لم يُسَمَّ لها مهرٌ في أصل النكاح. والقصد من هذا بيان أن الطلاق مباح[3]» اهـ[4].

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٢٥١)، ومسلم (١٤٧١)، كلاهما في الطلاق.

(٢) الذي نراه أن طلاق الثلاث في لفظ واحد يقع طلقة واحدة، لحديث ابن عباس رضي الله عنهما: أن الثلاث كانت تجعل واحدة على عهد النبي ﷺ، وعهد أبي بكر رضي الله عنه، وسنتين من خلافة عمر رضي الله عنه. فقال عمر بن الخطاب: إن الناس قد استعجلوا في أمر قد كانت لهم فيه أناة، فلو أمضيناه عليهم، فأمضاه عليهم. رواه مسلم في الطلاق (١٤٧٢). ولما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن أبا ركانة طلق امرأته ثلاثًا، فردها عليه النبي ﷺ وقال: «إنها واحدة». رواه أحمد (٢٣٨٧) وقال مخرجوه: إسناده ضعيف، وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر في كتابه (نظام الطلاق ص ٣٩)، وقال ابن القيم في إعلام الموقعين (٣/ ٣١): وقد صحح الإمام أحمد هذا الإسناد وحسنه.

(٣) الأصل في الطلاق: أنه لا يجوز لغير سبب، والواجب على كل من الزوجين أن يصبر على صاحبه، ولا يجوز أن يكون الزواج لعبة عند بعض الرجال، يتزوج المرأة أشهرا- بل ربما أياما- ثم يطلقها ويستمتع بغيرها، على طريقة الذواقين والذواقات. ولذلك كان التفريق بين المرء وزوجه من كبائر الإثم.

(٤) إحياء علوم الدين (٣/ ٥٥-٥٦)، بتصرف.

المتعة للمرأة المطلقة:

وقد أوجب الله تعالى المتاع للمرأة المطلقة، فقال: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾ [البقرة:٢٤١]، ولذلك رآه بعض السلف واجبًا لكل مطلقة، وهو ما أرجِّحه، وهو ظاهر القرآن، وكلما طال بقاء المرأة مع الرجل، ولم يصدر منها شيء يدفعه لطلاقها، ازداد حقها ثبوتًا.

قال أبو حامد: «وقد وعد الله الغنى في الفراق والنكاح جميعًا فقال: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ﴾ [النور: ٣٢]، وقال ﷺ: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٠]

الرابع: ألا يفشي سرها، لا في الطلاق، ولا عند النكاح، فقد ورد في إفشاء سر النساء في الخبر الصحيح وعيد عظيم[(١)].

ويروى عن بعض الصالحين أنه أراد طلاق امرأة، فقيل له: ما الذي يريبك فيها؟ فقال: العاقل لا يهتك ستر امرأته. فلما طلقها قيل له: لِمَ طلقتها؟ فقال: ما لي ولامرأة غيري؟!

فهذا بيان ما على الزوج»[(٢)].

---

(١) إشارة إلى الحديث: «إن من أشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة، الرجل يفضي إلى امرأته، وتفضي إليه، ثم ينشر سرها»، ورواه مسلم في النكاح (١٤٣٧)، وأحمد (١١٦٥٥)، عن أبي سعيد الخدري.

(٢) إحياء علوم الدين (٣/ ٥٦).

(١)

آداب الزوجة مع الزوج

كما أن على الزوج آدابًا تجاه زوجته، حثه الإسلام على التمسك بها، فكذلك على الزوجة آداب يجب عليها أن تتمسك بها، فكل حق أمامه واجب، وكل أدب على الزوج في مقابله أدب على الزوجة، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌۗ﴾ [البقرة:٢٢٨].

١- طاعة الزوج:

يقول الغزالي: «على الزوجة طاعة الزوج مطلقًا في كل ما طلب منها في نفسها، ممَّا لا معصية فيه.

وقد ورد في تعظيم حق الزوج عليها أخبار كثيرة:

قال ﷺ: «أيُّما امرأة ماتت وزوجها عنها راضٍ دخلت الجنة»[(١)].

وقد أضاف النبي ﷺ طاعة الزوج إلى مباني الإسلام. قال ﷺ: «إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها، دخلت جنة ربها»[(٢)].

وقال ﷺ: «اطَّلعتُ في النار، فإذا أكثر أهلها النساء». فقلن: لِمَ يا رسول الله؟

---

(١) رواه الترمذي في الرضاع (١١٦١) وقال: حديث حسن غريب، وابن ماجه في النكاح (١٨٥٤)، وقال مخرجوه: حسن لغيره، عن أم سلمة.

(٢) رواه أحمد (١٦٦١) وقال مخرجوه: حسن لغيره، والطبراني في الأوسط (٨٨٠٥)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧٦٣٤): فيه ابن لهيعة، وحديثه حسن، وبقية رجاله رجال الصحيح. عن عبد الرحمن بن عوف.

قال: «يُكثرن اللعنة، ويكفرن العشير»[1]. يعني: الزوج المعاشر.

وقال ﷺ: «لو أمرت أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها»[2].

٢- الصيانة والستر، وترك المطالبة بما وراء الحاجة:

وأهم آداب المرأة مع زوجها أمران: أحدهما: الصيانة والستر. والآخر: ترك المطالبة بما وراء الحاجة، والتعفُّف عن كسبه إذا كان حرامًا.

وهكذا كانت عادة النساء في السلف، كان الرجل إذا خرج من منزله تقول له امرأته أو ابنته: إيَّاك وكسب الحرام، فإنا نصبر على الجوع والضُّر، ولا نصبر على النار.

وهمَّ رجلٌ من السلف بالسفر، فكره جيرانه سفره، فقالوا لزوجته: لم ترضَين بسفره، ولم يدع لك نفقة؟ فقالت: زوجي منذ تزوجته وعرفته، عرفته أكَّالًا وما عرفته رزاقًا، ولي رب رزَّاق، يذهب الأكَّال، ويبقى الرزاق!

٣- أن تحفظ على الزوج ماله ولا تفرط فيه:

ومن الآداب: ألا تفرط في ماله، بل تحفظه عليه.

قال رسول الله ﷺ: «لا يحل لها أن تطعم من بيته إلا بإذنه، إلا الرطب من الطعام الذي يخاف فساده، فإن أطعمت عن رضاه، كان لها مثل أجره، وإن أطعمت بغير إذنه كان له الأجر وعليها الوزر»[3].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الإيمان (٢٩)، ومسلم في العيدين (٨٨٤)، عن ابن عباس.

(٢) رواه أحمد (١٢٦١٤)، وقال مخرجوه: صحيح لغيره، وصححه الألباني لغيره في صحيح الترغيب والترهيب (١٩٣٦)، عن أنس.

(٣) رواه أبو داود الطيالسي (٩٧٠٩)، وعبد بن حميد (٨١٣)، عن ابن عمر.

من وصايا الأمهات لبناتهن عند الزواج:

روي أن أسماء بنت خارجة الفزاري قالت لابنتها عند التزويج: إنك خرجت من العش الذي فيه درجتِ، فصرتِ إلى فراش لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فكوني له أرضًا يكن لك سماء، وكوني له مهادًا يكن لك عمادًا، وكوني له أمة يكن لك عبدًا، لا تُلحفي به فيقلاك، ولا تَباعدي عنه فينساك، إن دنا منك فاقربي منه، وإن نأى فابعدي عنه، واحفظي أنفه وسمعه وعينه، فلا يشمنَّ منك إلا طيبًا، ولا يسمع إلا حسنًا، ولا ينظر إلا جميلًا.

وصية رجل لزوجته:

وقال رجل لزوجته:

خذي العفو مِنِّي تستديمي مودَّتي ... ولا تنطقي في سورتي حين أغضب
ولا تنقُريني نقرَكِ الدفَّ مرة ... فإنك لا تدرين كيف المُغيَّب
ولا تكثري الشكوى فتذهب بالهوى ... ويأباك قلبي والقلوب تَقَلَّبُ
فإني رأيت الحبَّ في القلب والأذى ... إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب(1)

٤- تقدير المرأة لزوجها وعدم التفاخر عليه:

ومن آدابها: ألا تتفاخر على الزوج بجمالها، ولا تزدري زوجها لقبحه، فقد روي أن الأصمعي قال: دخلت البادية، فإذا أنا بامرأة من أحسن الناس وجهًا، تحت رجل من أقبح الناس وجهًا، فقلت لها: يا هذه، أترضين لنفسك أن تكوني تحت مثله؟ فقالت: يا هذا اسكت، فقد أسأتَ في قولك، لعله أحسن فيما بينه وبين خالقه، فجعلني ثوابه، أو لعلِّي أسأتُ فيما بيني وبين خالقي، فجعله

(١) نسبه أبو تمام في الوحشيات ص ١٨٥ وابن قتيبة في عيون الأخبار (٣/ ١٦) لشريح القاضي.

عقوبتي، أفلا أرضى بما رضي الله لي. فأسكتتني.

وقال الأصمعي: رأيت في البادية امرأة عليها قميصٌ أحمر، وهي مختضبة، وبيدها سبحة، فقلت: ما أبعد هذا من هذا؟ فقالت:

ولله مني جانب لا أضيعه وللهو مني والبطالة جانب!

فعلمت أنها امرأة صالحة لها زوج تتزين له.

٥- **الانبساط في حضرة الزوج والانقباض في غيبته:**

ومن آداب المرأة: ملازمة الصلاح والانقباض في غيبة زوجها، والرجوع إلى اللعب والانبساط وأسباب اللذة في حضور زوجها، ولا ينبغي أن تؤذي زوجها بحال. فعن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين: لا تؤذيه قاتلك الله، فإنما هو عندك دخيل، يوشك أن يفارقك إلينا»[(١)].

القول الجامع في آداب المرأة:

أن تكون قليلة الكلام لجيرانها، لا تدخل عليهم إلا في حال يوجب الدخول، تحفظ بعلها في غَيْبته، وتطلب مسرّته في جميع أمورها، ولا تخونه في نفسها وماله، ولا تخرج من بيتها إلا بإذنه، تطلب المواضع الخالية دون الشوارع والأسواق، محترزة من أن يسمع غريب صوتها أو يعرفها بشخصها[(٢)]، همُّها صلاح شأنها،

---

(١) رواه أحمد (٢٢١٠١) وقال مخرجوه: إسناده حسن، والترمذي في الرضاع (١١٧٤) وقال: حسن غريب، وابن ماجه في النكاح (٢٠١٤)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٧٣)، عن معاذ بن جبل.

(٢) لم يعد هذا التحفظ الشديد مطلوبًا في عصرنا هذا الذي تعلمت فيه المرأة كما يتعلم الرجل، وذهبت إلى المدارس والجامعة، وسافرت إلى أقطار العالم، وشاركت في ندوات ومؤتمرات صغيرة وكبيرة، فلا بد لمن يتحدث اليوم عن المرأة أن يعرف أننا في عصر غير العصور الأولى، والأحكام لها تأثر وتغير بتغيُّر الزمان والمكان والحال.

وتدبير بيتها، مُقبلة على صلاتها وصيامها، وتكون قانعةً من زوجها بما رزق الله، وتُقدِّم حقه على حق نفسها، وحق سائر أقاربها، متنظفة في نفسها، مستعدَّة في الأحوال كلها للتمتع بها إن شاء، مشفقة على أولادها، حافظة للستر عليهم، قصيرة اللسان عن سبِّ الأولاد ومراجعة الزوج.

٦- خدمة منزل زوجها بما تقدر عليه:

ومن آدابها: أن تقوم بكل خدمة في الدار تقدر عليها، فقد رُوِيَ عن أسماء بنت أبي بكر الصديق ﵄ أنها قالت: تزوَّجَني الزبير وما له في الأرض من مال، ولا مملوك، ولا شيء، غير فرسه وناضحه، فكنتُ أعلف فرسه، وأكفيه مؤنته وأسوسه، وأدق النوى لناضحه وأعلفه، وأستقي الماء، وأخرز غرْبَه وأعجن، وكنت أنقل النوى على رأسي من ثلثي فرسخ. حتى أرسل إليّ أبو بكر بجارية، فكفتني سياسة الفرس، فكأنما أعتقني.

ولقيني رسول الله ﷺ يومًا ومعه أصحابه، والنوى على رأسي، فقال ﷺ: «أخ أخ». لينيخ ناقته، ويحملني خلفه، فاستحييت أن أسير مع الرجال، وذكرتُ الزبير وغيرته، وكان أغير الناس، فعرف رسول الله ﷺ أني قد استحييتُ. فجئتُ الزبير، فحكيت له ما جرى، فقال: والله لحملُكِ النوى على رأسك أشدُّ عليَّ من ركوبكِ معه[(١)].

٧- الحداد على الزوج:

ومما يجب عليها من حقوق النكاح إذا مات عنها زوجها: ألا تحدَّ عليه أكثر من أربعة أشهر وعشر، وتتجنب الطيب والزينة في هذه المدة، قالت زينب بنت أبي سلمة: دخلت على أم حبيبة زوج النبي ﷺ، حين توفي أبوها أبو سفيان بن حرب،

(١) متفق عليه: رواه البخاري في فرض الخمس (٣١٥١)، ومسلم في السلام (٢١٨٢)، كما رواه أحمد (٢٦٩٣٧).

فدعت بطيب فيه صفرةٌ خَلُوقٌ أو غيره، فدهنتْ به جارية، ثم مسَّت بعارضيها، ثم قالت: والله ما لي بالطيب من حاجة، غير أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحدَّ على ميت أكثر من ثلاثة أيام، إلا على زوج أربعة أشهر وعشرًا»[(١)]. ويلزمها لزوم مسكن النكاح إلى آخر العِدَّة، وليس لها الانتقال إلى أهلها، ولا الخروج إلا لضرورة»[(٢)].

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجنائز (١٢٨١، ١٢٨٢)، ومسلم في الطلاق (١٤٨٦)، كما رواه أحمد (٢٦٧٦٥)، عن أم حبيبة أم المؤمنين.

(٢) إحياء علوم الدين (٢/ ٥٦-٦٠)، بتصرف.

الفصل الثالث

أدب الأبوة والأمومة

ومن الآداب التي تدخل تحت (آداب الأسرة) أدب الأبوة، وأدب الأمومة، أو «أدب الأبوين»، كما يعبر العرب تغليبًا لمعنى الأب، أو «أدب الوالدين»، تغليبًا لمعنى الأم، فإن الأب لا يلد.

ولكن الأبوة والأمومة مطلوب منهما أن يرْعيَا البنوة، وبعضُ العلماء قال: إن الإسلام أوصَى الأولاد بالوالدين لِمَا يخشى مِن جفاء الأولاد أو عقوقهم، ولكنه لم يوصِ الوالدين بالأولاد لِما في فطرة الآباء والأمهات مِن حبِّ الأولاد، وضرورة العناية بهم، فلا يحتاجون إلى وصيَّة.

وهذا صحيح في الجملة، ولكن التنبيه مطلوبٌ، وخصوصًا عند ما تنحرف بعض الأنفُس عن الفطرة، ويدخل الشياطين بوسوساتهم في إفساد الضمائر وتخريب البصائر.

ولهذا وجدنا من التوجيهات والأوامر والنواهي ما يوصي الآباء بشؤون أولادهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام:١٥١]. ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء:٣١]. والإملاق هو الفقر.

وذكر القرآنُ ضلالاتِ العرب في الجاهلية ومآثمهم مع أولادهم، فقال: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأنعام:١٤٠].

وخصوصًا ما كان منهم بحقِّ الإناث، بحكم نظرة الجاهلية القاصرة للأنثى، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ [التكوير:٨- ٩].

مِن أدب الأبوة والأمومة:

مِن أدب الأبوة: أن يفرح الأبُ والأم بما يرزقهما الله به مِن أولاد، ذكورًا كانوا أو إناثًا، وألَّا يكونا كما كان العرب الجاهليون يتشاءَمُون من الإناث، حتى اعتبروا ولادة الأنثى عارًا لهم، أو نكْبةً عليهم.

قيل لأحد الأعراب، وقد أُخبر بولادة امرأته، فسألهم: ماذا ولدتْ؟ قالوا: أنثى. قال: ما هي بنعم الولَد. نصرُها بكاءٌ، وبِرُّها سرقةٌ!

فهو يعتبر أن ما تعطيه بنتُه له من مالِ زوجِها سرقةٌ مِن زوجها، ولا تنصرُه بركوبِ فرسٍ، أو حمْل سيفٍ، بل بالبكاء والصراخ.

وهو ما عبر عنه القرآن بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النحل:٥٨، ٥٩].

انظر إلى هذا الوصف القرآني الرائع، الذي يصف لنا هذه الصورة الكئيبة، لهذا الأب بعد ما بشَّروه بولادة امرأته بأنثى، كيف تغيَّر وجهُه، وتغيرتْ نفسُه، وتغيَّر تفكيرُه، وتغيَّر سلوكه: اسودَّ وجهُه، وكظمتْ نفسُه، وكأنَّما ارتكب جريمةً حسِّيَّة يُستحيا منها، فهو يتوارى من الناس، ويختبئ مِن مقابلتهم، ويفكِّر في هذا المخلوق الجديد، ماذا يصنع به؟ أيربيه وينميه بما معه من الذل والهوان أنه أب

لأنثى، أمْ يتخلَّص مِن هذه الفضيحة، ويدسُّ هذا المخلوق في التراب، ويدفنه كما يدفن الموتى؟ ألا ساء ما يحكمون.

وكثيرًا ما يختار بعضُ الناس الخصلةَ السيِّئة الرديئة: الدسَّ في التراب، فيقتل نفسًا بشريَّة حيَّة، لم ترتكب خطيئة، ولم تستحق قتلًا، فيقتلها؛ لأنه يخاف أن تزحمه في طعامه وشرابه وخبزه، وهو الأبُ الذي يُفترَض أن يحميَها بنفْسه، ويجوعَ لتشبع، وليتَه يقتلها بضربة سيفٍ تُريحها، بل يدفنها وهي حيَّة في التراب، وبئس هذا النوع من الموت! ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾ [التكوير:٨- ٩].

وقد كان كثير من العرب يكرهون البنات، أو يتشاءمون منهنَّ، ويخافون أن يجلبْن عليهم العار في المستقبل، فكان منهم مَن يقول: دفن البنات من المكرمات! وموت الحرة، أمان من المعرَّة!

تهوى حياتي، وأهوى موتَها شفقًا والموتُ أكرمُ نزَّال على الحُرَم (١)

ولهذا كانوا يهنِّئون من تزوج بقولهم: بالرِّفَاء والبنين. يدعون له بالوفاق مع زوجته، وأن يُرزق البنين لا البنات، ولو حصل ذلك لتوقفتْ عَجَلة الحياة؛ لأن الحياة لا تمضي إلا بالبنين والبنات معًا، وهذا ما تقوله الحدوته المصرية: وعاشوا في تباتٍ ونبات، وخلَّفوا صبيانًا وبنات.

ولذلك غيَّر النبي ﷺ تهنئتهم المتوارثة مِن الجاهلية، بتهنئة إسلامية أخرى، وهي أن تقول للمتزوج: «بارك الله لكَ، وبارك عليكَ، وجمع بينكما في خير» (٢).

وما أجمل هذا الدعاء الذي فيه البركة له وعليه، والجمع بينهما في خير.

---

(١) من شعر إسحاق بن خلف.

(٢) رواه أحمد (٨٩٥٧) وقال مخرجوه: إسناده قوي، وأبو داود في النكاح (٢١٣٠)، والترمذي (١٠٩١)، وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه (١٩٠٥)، ثلاثتهم في النكاح، عن أبي هريرة.

البناتُ كالأبناء نعمةٌ مِن الله:

ولذلك رأينا القرآن الحكيم يؤكد: أن كلًّا مِن البنينَ والبنات نعمةٌ من الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى:٤٩، ٥٠].

ومن اللطائف اللفظية في الآية أنها بدأتْ بهبَةِ اللهِ للإناث أولًا، ولهذا قال نساء المسلمين: خيرُهن مَن بكَّرتْ بأنثى.

وقد ذكَر اللهُ لنا في سورة آل عمران، قصة امرأة عمران، وولادتها لمريم أُمِّ المسيح عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران:٣٥- ٣٧].

فانظرْ إلى هذه القصة الجميلة لآل عمران، الذين اصطفاهم الله تعالى، كما اصطفى آل إبراهيم، وكما اصطفى آدمَ ونوحًا، ويبدأ القصة بامرأة عمران، وعمران زوجها الذي لا نعرف له غير اسمه، الذي تنسب إليه الأسرة، وتنسب إليه سورة آل عمران، والذي نذَرَتْ امرأته ما في بطنها ليخدُم المعبد أو المسجد، فهي ظنَّته ولدًا ذكرًا، ولكن قدَّر الله أن تكون أنثى، فلمَّا وضعتْها سمَّتْها: مريم، وأعاذتها وذرِّيَتها بالله من الشيطان الرجيم، وهيَّأتْ لها التربية المثمرة في رعاية نبي الله زكريا عليه السلام...

وكانت هذه المولودة المباركة مريم الصديقة أم المسيح، التي قالت لها الملائكة: ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عمران:٤٢-٤٣].

تربية البنات وتثقيفهن فيه الأجر الكبير:

وقد أكَّد الإسلامُ: أن من يرزقه اللهُ البنات، فلا ينبغي أن يضيق بذلك، كما كان يفعل كثير من الجاهليين، بل يجب أن يعتقد أن له في ذلك أجرًا كبيرًا عند الله تبارك وتعالى.

عن عائشة رضي الله عنها، قالت: دخلتْ امرأةٌ معها ابنتان لها تسأل، فلم تجد عندي شيئًا غيرَ تمرةٍ، فأعطيتُها إياها، فقسمتْها بين ابنتيها، ولم تأكل منها، ثم قامتْ فخرجتْ، فدخل النبي ﷺ علينا، فأخبرتُه فقال: «مَن ابتُلِي من هذه البنات بشيء، كنَّ له سترًا من النار»[1].

وعن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن عالَ جاريتين حتى تبلغَا، جاء يوم القيامة أنا وهو هكذا». وضمَّ أصابعه[2].

وفي رواية الترمذي: «دخلتُ أنا وهو الجنة كهاتين». وأشار بأصبعيه.

وفي رواية أحمد: «مَن عال ابنتين أو ثلاث بنات، أو أختين، أو ثلاث أخوات، حتى يبِنَّ، أو يموتَ عنهنَّ، كنتُ أنا وهو كهاتين». وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى[3].

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الزكاة (١٤١٨)، ومسلم في البر والصلة (٢٦٢٩).

(٢) رواه مسلم (٢٦٣١)، والترمذي (١٩١٤)، كلاهما في البر والصلة، وأحمد (١٢٤٩٨).

(٣) رواه أحمد (١٢٤٩٨)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وابن حبان في البر والإحسان (٤٤٧).

وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «مَن كان له ثلاث بنات، فصبرَ على لأوائِهنَّ، وضرَّائِهنَّ، وسرَّائهنَّ، أدخله الله الجنة بفضْل رحْمتِه إياهن» فقال رجل: أو ثنتان يا رسول الله؟ قال: «أو اثنتان» فقال رجل: أو واحدة يا رسول الله؟ قال: «أو واحدة»[1].

وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن كان له ثلاث بنات، يُؤويهنَّ، ويَكْفِيهنَّ، ويرحمهن، فقد وجبتْ له الجنةُ البتة». فقال رجل من بعض القوم: وثنتين، يا رسول الله؟ قال: «وثنتين»[2].

وعن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن كان له ثلاث بنات، فصبر عليهن، وأطعمهن، وسقاهن، وكساهن مِن جِدَتِهِ: كُنَّ له حجابًا من النار يوم القيامة»[3].

ما صنعه الإسلام بالآباء بالنسبة للبنات:

إذا كنَّا رأينا الجاهلية تضيق ذرعًا بولادة البنات، وتفكر في التخلُّص منهن بالوأد والقتل، أو يُمسَكْنَ على هُون ومذلَّة، فإن الإسلام بتعاليمه وأحكامه في القرآن والسنة هيَّأ رجالًا يفتدون بناتِهم بأرواحِهم وأموالهم، وكلِّ ما ملكتْ أيديهم، ولا يفرِّط واحدٌ منهم في ظُفرِ واحدٍ لبنتٍ من بناته، كما نقرأ ذلك بوضوح وحيوية في أشعارهم التي أُثرتْ عنهم، وكما قرأنا في الأحاديث التي تثبت فضلَ مَن رزق البنات وصبر عليهن، وأحسن تأديبهن وتعليمهن، حتى يبلغن ما بلغن.

---

(١) رواه أحمد (٨٤٢٥) وقال مخرجوه: حسن لغيره، والحاكم في البر والصلة (٤/ ١٧٦) وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (٧٨)، وحسنه الألباني في الصحيحة (١٠٢٧).

(٣) رواه أحمد (١٧٤٠٣) وقال مخرجوه: إسناده صحيح، وابن ماجه في الأدب (٣٦٦٩)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٦).

من ذلك ما قاله أبٌ مسلم شاعر[1]، رزقه اللهُ بجملة من البنات:

لقـد زادَ الحَيـاةَ إلـيَّ حُبًّا ... بنـاتِي إنَّهُنَّ مـن الضِّعافِ
مخافَةَ أن يَذُقْنَ البُؤسَ بَعدِي ... وأن يَشْرَبْنَ رَنْقًا بعد صافِ

وكان الضعْف هو الغالب على النساء في تلك الأزمنة، فقد كان بعض الذكور يتعلَّم، وأكثرُ النساء لا يتعلَّمْنَ، ويتعرَّضْنَ في الحروب للسَّبْي، كما قد يتعرضنَ للخطف والإيذاء.

وقال شاعرٌ آخر من أجل ابنته أميمة[2]:

لولا أُميمةُ لم أَجْزع مـن العدمِ ... ولم أُقاسِ الدُّجَى في حِندس الظُّلَمِ
وزادني رغبةً في العيش معرفتي ... ذلَّ اليتيـمة يجفـوها ذوو الـرَّحِـم
أُحـاذر الـفقر يـومًا أن يُلِمَّ بها ... في هتك السِّتر عن لحم على وَضَمِ[3]
أَخْشَى فظاظة عَمٍّ، أو جفاءَ أخٍ ... وكنتُ أُبْقي عليها من أذَى الْكَـلِمِ

وقَالَ حطَّان بن الْمُعَلَّى:

لَـولَا بنيـاتٌ كـزُغْب القَـطَا ... رُدِدْنَ مِـن بعـضٍ إلـى بـعـضِ
لَكَـانَ لي مُضْطَـرَبٌ واسـع ... فِي الأَرْض ذَاتِ الطول والْعَرْضِ
وإنَّـمَـا أولَادنَـا بَيْنَنَـا ... أكـبـادُنـا تـمـشي عـلـى الأرْض
لو هبَّت الريح على بعضهم ... لامتنـعـت عيـني مـن الـغمـض

وهذه المشاعر الحيَّة، والعواطف الحارَّة نحو البنات من آبائهن، دليلٌ على ما جاء به الإسلام من محبَّةٍ للبنات، جعلتِ الأب المسلم يحبُّهنَّ حبًّا صادقًا، ربما

(١) هو عيسى بن فاتك الخارجيّ. ينظر: الوحشيات ص ٩٠.

(٢) الشاعر هو إسْحَاق بن خلف. ينظر: الحماسة البصرية (١/ ٢٧٤)، نشر عالم الكتب- بيروت.

(٣) الوضم ما يقطع عليه اللحم ويجزر.

يزيد في بعض الأحيان على حبِّ الذكور، وقد رأينا الرسول الأكرم ﷺ يُظهر مِن حُبِّ فاطمة ما يبدو لنا أنَّه أقوى مِن حبِّ كثيرٍ مِن الآباء لأبنائهم، على أن في بعض البنات من المكارم والنجابة والتفوق ما يفضُل البنين، كما قال الشاعر[1]:

ولو كل النساء كمن فقدْنا لفُضِّلتِ النساءُ على الرجال
وما التأنيث لاسم الشمس عيبٌ ولا التذكيرُ فخرٌ للهلال

وولدتْ أعرابيةٌ بُنيَّةً، فقالتْ وهي تُدلِّلها:

وما عليَّ أن تكونَ الجاريهْ تكنس بيتي وتردُّ العاريهْ
تمشِّط رأسي وتكونُ الفاليهْ وترفعُ الساقط مِن خِماريهْ
حتَّى إذا ما بلغتْ ثمانيهْ ردَّيتها ببُردةٍ يمَانيهْ
زوجتُها مروانَ أو معاويهْ أصهارَ صدقٍ للمهور غاليهْ[2]

وقال آخر:

بنيّتي ريحانة أشَمُّها فديتُ بنتي، وفدتني أمّها![3]

وكان لمعن بن أوس ثماني بنات، وكان يقول: ما أُحبُّ أن يكون لي بهنَّ رجالٌ، وفيهنَّ قال[4]:

رأيتُ رجالًا يكرهون بناتِهم وفيهنّ- لا تكذبْ- نساءٌ صوالحُ
وفيهنّ والأيام يعثرنَ بالفتى عوائدُ لا يمْلَلْنَهُ ونَوائحُ

ومِن الآباء مَن يجور على امرأته حين تلد له عِدة بنات، ويحمِّل المرأةَ

---

(١) هو المتنبي.
(٢) ينظر: محاضرات الأدباء (١/ ٣٩٦، ٣٩٧).
(٣) المصدر السابق (١/ ٣٩٧).
(٤) ينظر: اللطائف والظرائف ص١٧٩، نشر دار المناهل- بيروت.

مسؤولية المجيء بالبنات! والعادةُ والعِلمُ والواقعُ، كلها تقول: إن الرجل هو المسؤول عن قضية التذكير والتأنيث، وهو ما يقرره الطب المتعلِّق بالأرحام والإنجاب، وهو ما قالته أعرابية قديمة، حين شكتْ مِن قسوة زوجها أبي حمزة الضبي، وهجْره لها ولبناتها، واستمراره عند ضرتها، وكانت قد سمت ابنتُها: حمزة، فقالت وهي ترقِّصها[1]:

ما لأبي حمزة لا يأتينا
يظل في البيت الذي يلينا
غضبانَ ألَّا نلد البنينا
تالله ما ذلك في أيدينا
وإنما نأخذ ما أُعطينا
ونحن كالأرض لزارعينا
ننبت ما قد زرعوه فينا

وسمعها زوجُها فرجع إلى منزلها وصالحها، وطابت نفسه بها.

وقال أبٌ في أولاده الصِّبية الصغار مِن بنينَ وبناتٍ، وهو يتحمَّل العناء من أجْلهم:

والله لولا صبيةٌ صغار
وجوههمْ كأنَّها أقمار
لما رآني ملكٌ جبَّار
ببابهِ ما سطع النَّهار

(١) البيان والتبيان (١/ ١٦٥)، نشر دار ومكتبة الهلال- بيروت، عام النشر: ١٤٢٣هـ.

آداب الولادة:

ذكر الإمام الغزالي في «إحيائه»[1] عدة آداب تتصل بالولادة:

الأول: ألَّا يُكثر فرحه بالذكر وحزنه بالأنثى، فإنه لا يدري الخيرة في أيهما، فكم من صاحب ابنٍ يتمنَّى ألَّا يكون له، أو يتمنَّى أن يكون بنتًا، بل السلامة منهن أكثر، والثواب فيهن أجزل.

الأدب الثاني: أن يؤذَّن في أُذن الولد، روى رافع عن أبيه قال: رأيتُ النبي ﷺ قد أذَّن في أُذن الحسين، حين ولدته فاطمة ﵂[2]. ويستحبُّ أن يلقِّنوه أول انطلاق لسانه: لا إله إلا الله، ليكون أول حديثه.

الأدب الثالث: أن تسمِّيه اسمًا حسنًا، فذلك من حق الولد، قال ﷺ: «أحب الأسماء إلى الله: عبد الله، وعبد الرحمن»[3]. وقال: «سمُّوا باسمي، ولا تكنَّوا بكنيتي»[4]. فلا يجمع بين اسمه وكنيته. وقيل: إن هذا كان في حياته.

وقال ﷺ: «إنكم تُدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم، فأحسنوا أسماءكم»[5].

---

(١) الإحياء (٢/ ٥٣، وما بعدها).

(٢) رواه أحمد (٢٣٨٦٩)، وقال مخرجوه: إسناده ضعيف، وأبو داود في الأدب (٥١٠٥)، والترمذي في الأحكام والفوائد (١٥١٤): وقال: حسن صحيح، والحاكم في معرفة الصحابة (٣/ ١٧٩) وصحح إسناده، وقال الذهبي: عاصم بن عبيد الله – أحد رواته – ضعيف. وقال الألباني في الإرواء (١١٧٣): حسن إن شاء الله. عن أبي رافع.

(٣) رواه مسلم في الأدب (٢١٣٢)، وأحمد (٦١٢٢)، وأبو داود (٤٩٤٩)، والترمذي (٢٨٣٣)، كلاهما في الأدب، عن ابن عمر.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في البيوع (٢١٢٠)، ومسلم في الآداب (٢١٣١)، عن أنس.

(٥) رواه أحمد (٢١٦٩٣) وقال مخرجوه: إسناده ضعيف لانقطاعه، وأبو داود في الأدب (٤٩٤٨)، وقال عقبه: عبد الله بن أبي زكريا لم يدرك أبا الدرداء، وقال ابن القيم ص ١١١: إسناده حسن، وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١٠/ ٥٧٧): رجاله ثقات، إلا أن في سنده انقطاعًا. عن أبي الدرداء.

ومن كان له اسمٌ يُكره، يستحبُّ تبديله، فقد أبدل رسول الله ﷺ اسم العاص بعبد الله، وكان اسم زينب بَرَّة، فقال ﷺ: «تزكي نفسها!» فسمَّاها زينب[(١)].

وإن من الناس من يسمِّي أبناءه بأسماء قبيحة، وقد يسمِّيه اسمًا عُرِف عند النصارى، ونحو ذلك.

وقد يُسمِّيه باسم يعاب ويتندَّر به، مما يضايق الولد أو الفتاة عند ما يصبح في سن الشباب، والواجب تبديل ذلك رعاية لخواطر الأبناء.

الرابع: العقيقة عن الذَّكَر بشاتين، وعن الأنثى بشاة ذكرًا كانت أو أنثى. وروت عائشة ﵂: أن رسول الله ﷺ أمر في الغلام أن يُعَقَّ بشاتين مكافئتين، وفي الجارية بشاة[(٢)]. وقال ﷺ: «مع الغلام عقيقته، فأهريقوا عنه دمًا، وأميطوا عنه الأذى»[(٣)].

الخامس: أن يُحنكه بتمرة أو حلاوة. وروي عن أسماء بنت أبي بكر ﵄ قالت: ولدت عبد الله بن الزبير بقباء، ثم أتيتُ به رسول الله ﷺ، فوضعته في حجره، ثم دعا بتمرة فمضغها، ثم تفل في فيه[(٤)]. اهـ بتصرف من كلام الغزالي.

وجوب الرعاية والعناية:

وللولد على أبيه وأمه حق الرعاية والتربية ، وعلى أبيه في حياته حق النفقة، فلا يجوز إهماله أو إضاعته، حتى يصبح قادرا على الكسب بنفسه.

---

(١) رواه مسلم في الآداب (٢١٣٦)، وأحمد (٢٠١٣٨)، عن سمرة بن جندب.

(٢) رواه أحمد (٢٤٠٢٨) وقال مخرجوه: صحيح لغيره، والترمذي (١٥١٣)، وقال: حسن صحيح، وابن ماجه في الذبائح (٣١٦٣).

(٣) رواه البخاري في العقيقة (٥٤٧١)، وأحمد (١٦٢٢٩)، وأبو داود في الضحايا (٢٨٣٩)، عن سلمان ابن عامر الضبي.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في مناقب الأنصار (٣٩٠٩)، ومسلم في الآداب (٢١٤٦).

قال رسول الله ﷺ: «كلُّكم راعٍ ومسؤول عن رعيَّته، فالإمام راعٍ وهو مسؤول عن رعيته، والرجل في أهله راعٍ وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسؤولة عن رعيتها، والخادم في مال سيده راعٍ وهو مسؤول عن رعيته»(١). وقال: «كفى بالمرء إثمًا أن يُضيِّع من يقوت»(٢). وقال: «إن الله سائلٌ كلَّ راعٍ عمَّا استرعاه، حفظ أم ضيَّع، حتى يسأل الرجل عن أهل بيته»(٣).

من الرعاية الواجبة: الرضاعة والحضانة:

ومن الرعاية الواجبة التي أوجبها الله على الوالدين رضاع الصغير.

وقد ذكر القرآن قضية إرضاع الأمهات للأولاد، وخصوصًا في حالة الفراق بين الزوجين، فقد تحاول الأم أن تكايد زوجها ومطلِّقها، فتهمل ولدها منه، لهذا جاء القرآن في سياق آيات الطلاق ليقول: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ﴾ [البقرة:٢٣٣]، وهذا خبرٌ في معنى الأمر، فهن مأمورات بإرضاع أولادهن.

كثير من الأمهات في عالم اليوم وفي عصرنا هذا يؤثرن أنفسهن على أطفالهن، تريد المرأة أن تبقى رشيقة البدن كالغزال، بدل أن يتهدل ثديها وصدرها، فتحرم طفلها من هذا الغذاء الرباني المعقَّم، الذي أنزله الله من صدرها يجري رزقًا صافيًا سائغًا لهذا الطفل الضعيف.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأحكام (٧١٣٨)، ومسلم في الإمارة (١٨٢٩)، عن ابن عمر.

(٢) رواه أحمد في مسنده (٦٨٤٣)، وقال محققوه: صحيح، وأبو داود في الزكاة (١٦٩٢)، والنسائي في الكبرى (٩١٧٧)، في عشرة النساء، عن عبد الله بن عمرو، وقال النووي: حديث صحيح، كما في رياض الصالحين (٢٩٤)، ورواه مسلم بمعناه (٩٩٦)، وفيه: أن يحبس عمن يملك قوته.

(٣) رواه النسائي في الكبرى في عشرة النساء (٩١٧٤)، وابن حبان في السير (٤٤٩٣)، ورجح البخاري الإرسال، كما في سنن الترمذي (١٧٠٥)، وصححه الألباني في غاية المرام (٢٧١).

تحرم الطفل من لبنها ليتغذَّى على لبن صناعي، وهيهات أن يسد اللبن الصناعي مسد اللبن الطبيعي الرباني.

والرضاعة ليست لبنًا فقط، إنه إلصاق الأم طفلها إلى صدرها. إنه لا يرضع لبنًا فقط، إنه يرضع حنانًا وحُنُوًّا وعاطفة. هذا الضم هو الذي يعطي الأمومة معناها، وهذا هو الذي يعطي للمرأة حق الحضانة دون الرجل.

روى عبد الله بن عمرو بن العاص أن امرأة قالت: يا رسول الله، إن ابني هذا كان بطني له وعاء، وثديي له سقاء، وحجري له حِواء، وإن أباه طلَّقني، وأراد أن ينزعه مني، فقال رسول الله ﷺ: «أنتِ أحقُّ به ما لم تَنْكحي»[1]. أي: تتزوجي.

وحينما تنازع عمر بن الخطاب وزوجه أم عاصم، ابنه في عهد أبي بكر ﷺ، وأراد عمر أن ينتزع ابنه من أمه المطلَّقة، فاختصما إلى أبي بكر، فقال أبو بكر: ريحها وفراشها وحجرها خير له منك! وقال أيضًا: الأم ألطف وأعطف، وأرحم وأحنى وأرأف. فلهذا قضى للأم بالحضانة ما لم تتزوج[2].

وأوجب الله نفقة المرأة الحاضنة وعلاجها ورعايتها، طوال مدة الحمل والنفاس، على أبي الطفل أو وليه في حالة موته أو غيابه؛ لأنها تغذيه من دمها، فلا بد أن تعوَّض عما تفقد، وقد قال تعالى في شأن المطلقات: ﴿وَإِن كُنَّ أُولَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٖۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ٦﴾ [الطلاق:٦]. وقال في شأن المرضعات: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾ يعني: الأب. ثم قال: ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَۗ﴾ [البقرة:٢٣٣].

---

(١) رواه أحمد (٦٧٠٧)، وقال مخرجوه: حسن. وأبو داود (٢٢٧٦)، والحاكم (٢٨٣٠) كلاهما في الطلاق. وصححه الحاكم، وأقره الذهبي، وابن الملقن في البدر المنير (٨/ ٣١٧).

(٢) رواه عبد الرزاق في الطلاق (١٢٦٠١).

ثم بعد الأم: قرابة الأم مفضلة على قرابة الأب؛ لأنها أحنى وأرحم، كل هذا عناية بهذا الطفل الضعيف.

قال تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾ [البقرة:٢٣٣].

فالقرآن لم يدع الأمر لأحد الأبوين هُنا، فربما ملَّت المرأة من الإرضاع، وربما مل الأب من دفع الأجرة والنفقة، فلم يُترك لهما الأمر لأحدهما، بل لا بد أن يتراضيا ويتَّفقا معًا، ومع التراضي لا بد من التشاور، أي يتشاورا معًا، ويشاور أهل المعرفة وأرباب التجربة في هذا الأمر: هل يحسن بالطفل أن يفطم قبل الحولين أو لا يحسن؟ قد يقولون: يحسن لأن صحته جيدة ونموه طيب، وقد يقولون: مثله يحتاج إلى رضاع أكثر. كل هذا عناية من الله بالطفل.

يقول الإمام الفخر الرازي في تفسيره: «إنه تعالى كما وصَّى الأم برعاية جانب الطفل في قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ﴾ [البقرة: ٢٣٣] وصَّى الأب برعاية جانب الأم حتى تكون قادرةً على رعاية مصلحة الطفل، فأمر برزقها وكسوتها بالمعروف»(١). وهذا لونٌ من تكافل الأمومة والأبوة في رعاية الطفولة.

ثم ذكر الرازي مسألةً أخرى هنا مهمة: «أنه تعالى وصَّى الأم برعاية الطفل أولًا، ثم وصَّى الأب برعايته ثانيًا، وهذا يدل على أن احتياج الطفل إلى رعاية الأم أشد من حاجته إلى رعاية الأب؛ لأنه ليس بين الطفل وبين رعاية الأم واسطة البتة،

---

(١) التفسير الكبير (٦/ ١٢٨).

أما رعاية الأب فتصل إلى الطفل بواسطة، فإنه يستأجر المرأة على إرضاعه وحضانته بالنفقة والكسوة، وذلك يدل على أن حق الأم أكثر من حق الأب، والأخبار المطابقة لهذا المعنى كثيرة ومشهورة».

ومسألة ثالثة ذكرها الرازي هنا، فقال: «دلّت الآية على أن الفطام في أقل من حَوْلين لا يجوز إلا عند رضا الوالدين، وعند المشاورة مع أرباب التجارب؛ وذلك لأنَّ الأم قد تمَلُّ من الرَّضَاع، فتحاول الفطام، والأب أيضًا قد يملُّ من إعطاء الأجرة على الإرضاع، فقد يحاول الفطام دفعًا لذلك، لكنّهما قلّما يتوافقان على الإضرار بالولد لغرض النفْس، ثم بتقدير توافقهما اعتبر المشاورة مع غيرهما، وعند ذلك يبعد أن تحصل موافقة الكل على ما يكون فيه إضرار بالولد، فعند اتفاق الكل يدل على أن الفطام قبل الحولين لا يضره البتة، فانظر إلى إحسان الله تعالى بهذا الطفل الصغير: كم شرط في جواز إفطامه من الشرائط دفعًا للمضارّ عنه، ثم عند اجتماع كل هذه الشرائط لم يصرح بالإذن، بل قال: ﴿لَاجُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ﴾، وهذا يدل على أن الإنسان كلما كان أكثر ضعفًا كانت رحمة الله معه أكثر، وعنايته به أشد»[1] اهـ.

ويجب رعاية الأطفال ماديًّا بحسن التغذية، وصحيًّا بمراعاة ما تطلبه الصحة العامة، وما يطلبه الطب الوقائي في عصرنا، فقد أصبح في عصرنا هناك أمور كثيرة ينبغي أن تراعى لحفظ صحة الطفل مثل: التطعيمات التي تطلب في مواعيد محددة.

والواجب الشرعي يحتم على الآباء والأمهات ألا يهملوا ذلك، فقد تهمل

(١) المصدر السابق (٦/ ١٣٢).

طفلك فيترتب عليه أن يصاب بشلل الأطفال طول عمره- مثلًا- فتكون قد جنيت عليه جناية كبرى، كان يمكنك بمقتضى قانون الأسباب والمسببات أن تمنع ذلك، بأن تذهب به إلى دار رعاية الطفل أو المستشفى أو المؤسسة أو المركز الصحي، ليتناول هذا الشيء البسيط في صغره، لتمنعه من أمراض معضلة في كبره.

كل هذه حقوق للطفل: الرعاية الصحية، والرعاية المادية، والرعاية العاطفية.

فالأطفال- كما قلنا- ثروة بشرية، ينبغي أن نحافظ على هذه الثروة، ولا نبددها. والأطفال كذلك نعمة من الله تعالى، فينبغي أن نشكر ربنا على هذه النعمة.

ومن الآداب الواجبة على الوالدين: تربية الأبناء وتأديبهم:

وتربية الطفل وتأديبه مطلوب من الوالدين أن يتعاونا عليهما من يوم أن يعقل، حتى سنِّ البلوغ، وعلى الوالدين أن يجهدا جهدهما في تنشئة الطفل على طاعة الله وعبادته، وفي هذا يقول رسول الله ﷺ في شأن الصلاة: «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر»[(1)].

وفي حديث آخر: «علموا الصبي الصلاة ابن سبع سنين، واضربوه عليها ابن عشر»[(2)].

وذلك أن الخير عادة، والشر عادة، والمرء يشيب على ما شب عليه، والتربية

---

(1) رواه أحمد (٦٧٥٦)، وقال مخرجوه: إسناده حسن، وأبو داود (٤٩٥)، والدارقطني (١/ ٢٣٠)، والبيهقي (٢/ ٢٢٩) ثلاثتهم في الصلاة، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٢٩٨)، عن عبد الله بن عمرو.

(2) رواه أحمد (١٥٣٣٩) وقال مخرجوه: إسناده حسن، وأبو داود (٤٩٤)، والترمذي (٤٠٧) وقال: حديث حسن، وابن خزيمة (١٠٠٢) والحاكم (١/ ٢٥٨)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، والبيهقي (٢/ ١٤)، جميعهم في الصلاة، عن سبرة بن معبد الجهني.

في الصغر كالنقش على الحجر، والشاعر يقول:

وينشأ ناشئ الفتيان منا ... على ما كان عوده أبوه

وما دان الفتى بحجى ولكن ... يعوده التدين أقربوه[1]

والحديث هنا جعل للتعلم والتأديب مرحلتين: مرحلة الأمر والتعليم والترغيب، وذلك بعد السابعة. ومرحلة الضرب والتأديب والترهيب، وذلك بعد العاشرة.

أي أن الضرب لم يشرع إلا بعد إعطاء الابن فرصة ثلاث سنوات يدعى ويرغب ويثاب. وبعدها يكون الحزم والشدة والعقاب المناسب طبعًا، إشعارًا بالجدية، وأن الأمر موضع اهتمام الأب، وليس مجرد كلمة تقال، وليس بعدها حساب ولا ثواب ولا عقاب.

والضرب هنا وسيلة تمليها الضرورة، والضرورة تقدَّر بقدرها، فلا يكون بسوط ولا بخشبة، بل ضرب يؤلم ولا يجرح، وخيار الآباء لا يحتاجون إلى ضرب أولادهم، بل يربون بالأسوة والكلمة والموعظة الحسنة، اقتداء برسول الله ﷺ الذي لم يضرب بيده شيئًا قط، لا امرأة، ولا خادمًا[2]، ولا ولدًا، ولا حتى دابة.

وقد كان الصحابة يُصوِّمون صبيانهم وهم صغار، حتى كانوا يأتون لهم باللعب من العِهْن (أي الصوف) يُلَهُّونهم بها حتى يأتي وقت الإفطار[3].

وليس من المطلوب أن يصوم الطفل الشهر مرة واحدة، فليس هذا بمقدور، ولا منطقي، وإنما يصوم في أول سنة يومين أو ثلاثة مثلًا، والتي بعدها يصوم

(١) البيتان لأبي العلاء المعري.

(٢) رواه مسلم في الفضائل (٢٣٢٨)، وأحمد (٢٤٠٣٤)، وأبو داود في الأدب (٤٧٨٦)، عن عائشة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (١٩٦٠)، ومسلم (١١٣٦)، كلاهما في الصيام، عن الربيع بنت معوذ.

أسبوعًا ثم أسبوعين، حتى يمكنه بعد ذلك صوم الشهر كله بهذا التدرج.

ومن الخطأ الذي يتحمل تبعته الآباء، والأمهات، إهمال الصغار حتى يبلغوا دون أن يدربوا على أداء الفرائض والطاعات. فإذا أمروا بها بعد البلوغ كانت أثقل من الجبال على كواهلهم. وما أصدق ما قال الشاعر[1]:

وينفع الأدب الأولاد في صغر ... وليس ينفع عند الشّيبة الأدب

إن الغصون إذا قوَّمتها اعتدلت ... ولـن تلين إذا قومتـها الخُشُب

وعلى الآباء والأمهات أن يعودوا بنـاتهن الحجـاب إذا شـارفت الفتـاة عـلى المحيض.

ونقصد بالحجاب: أن تلبس الفتاة ما يغطي جسمها كله إلا وجههـا وكفيهـا تغطية ساترة، وأضاف الإمام أبو حنيفة القدمين، وهو ما نراه مناسبًا لعصرنا وكثرة حركة المرأة وخروجها فيه.

وتربية الأولاد ليست مجرَّد أوامر عسكرية تُفرض، ولا محفوظات معرفيـة تُلقَّن، ولكنها علم وفن، وأدب وذوق، ومصاحبة ومعايشة، وقلب محبٌّ، وصـدر حنون، وحضن دافئ، وعاطفة فيَّاضة، وملاحظة دائبة، وصبر ومصـابرة، ويقظـة للحركة والسكنة، وانتباه للضحكة والآهة.

إن التربية الصحيحة قد يقوم بها الأب الأُمِي بالفطرة، وقد يفشل فيهـا الأب المتعلِّم؛ لأن التربية تحتاج إلى عقل يلاحظ ويـدرك، وإلى قلـب يحـبُّ ويعطـف، وإلى إرادة قوية تحسم عند الحاجة إلى الحسم.

إن التربيـة قـد تكـون بالبسـمة الناعمـة، وبالكلمـة الحُلـوة، وبالقبلـة عـلى

---

(١) صالح بن عبد القدوس.

الخدين، وبالضمة والمعانقة، وبالمكافأة على الفعل الجميل، والسلوك الطيب، وبالثناء والتشجيع، كما تكون بالنظرة الغاضبة عند اللزوم، وبالكلمة الحسنة عند الضرورة، وباللوم المناسب عند الخطأ المقصود.

إن بعض الآباء والأمهات كثيرًا ما يخطئون، فيضعون اللين موضع الشدَّة، أو الشدَّة موضع اللين، فيفسدون من حيث يريدون أن يصلحوا، وقد قال أبو الطيب:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا ... مُضرٌّ كوضع السيف في موضع الندى

إن كثيرًا من الآباء والأمهات يضعون أولادهم بين إفراط القسوة، وتفريط التدليل، والتربية المنشودة بين هذه الطرفين، وخير الأمور الوسط.

التربية الإسلامية أوسع من التربية الدينية:

وأحبُّ أن أبيِّن أن (التربية الإسلامية) التي ننشدها، ونطلب من الأبوين أن يربيا النشء عليها: هي أكبر وأوسع أفقًا من مجرَّد (التربية الدينية) التي قد يتصوَّرها بعض الناس، إن التربية الدينية شعبة من التربية الإسلامية.

التربية الإسلامية تشمل: التربية العقلية، والتربية الخُلُقية، والتربية البدنية، والتربية العلمية، والتربية الأدبية، والتربية المهنية، والتربية الاجتماعية، والتربية الفنية (الجمالية)، والتربية الجنسية، والتربية العسكرية، وغيرها من شُعَب التربية، إلى جوار التربية الدينية أو الرُّوحية.. وهذه الجوانب جميعها وإن أشرنا لبعضها فلن نستطيع الحديث عنها جميعا في كتابنا هذا، لكن على كل أب وأم أن يتنبها إلى أن الغاية من التربية أن يخرجا للأمة شخصيات متكاملة متوازنة، قدر استعداد الولد لذلك.

وتربية الإنسان المسلم تمتاز بأنها تعدُّ الإنسان ليكون صالحا في الدنيا، سعيدا

في الآخرة، محمودا عند الناس، مرضيًّا عند الله، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم:٦].

فليس المطلوب أن توفِّر لولدك احتياجاته الدنيوية، وتهيِّئ له من التعليم ما يبوِّئه أرقى المناصب، دون أن يتعلَّم واجبه نحو ربِّه، ونحو آخرته وحياته الباقية، فيكون مصيره إلى النار، ومَن ذا الذي يرضى أن يكون مصير ولده وفلذة كبده النار؟!

التربية الإسلامية والتربية القومية:

والتربية الإسلامية التي ننشدها لأبنائنا وبناتنا، والتي نطالب بها الآباء والأمهات، والمعلمين والمعلمات، والمربين والمربيات: هي أعمق وأوسع كثيرًا من التربية القومية، فالتربية القومية- عندنا نحن العرب- غير كافية وحدها، ولا تقوم مقام التربية الإسلامية.

فالتربية القومية العربية إذا نُحِّي عنها الإسلام تربط الطفل بالعرب وجاهليتهم، ولا تهتم بإسلامهم، ولا تجعل الإسلام هو الموجه الأول في الفكر، لكننا نريد مع هذه التربية القومية: التربية الإسلامية الإيمانية التي تقرر في أنْفُس أبنائنا التوحيد لله تعالى، مدبر الأمر، المستحق وحده للعبادة والتعظيم والإجلال والإكرام، وتربطه بمحمد ﷺ وصحابته ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

والحق أن الإسلام جعل العرب وأيامهم ولغتهم محل اهتمام لكل مسلم، حتى وجدنا كثيرا من كبار النحويين واللغويين والأدباء ممن أصولهم غير عربية.

لهذا كانت التربية الإسلامية ضرورة لازمة، وحتمية بارزة، تجعل عالم المسلم هو الأرض كلها، والعالم كله، لأن الله في عقيدته رب العالمين، ومحمدًا أرسله الله رحمة للعالمين.

وعلى الأبوين أن يربيا أولادهما على الاعتزاز باللغة العربية، فالعربية لغة

الإسلام، والثقافة العربية القائمة على القرآن والسنة ثقافة الإسلام، ولذا ينبغي للأبوين وعلى كل من يقوم على التربية الإسلامية أن يكمل هذه التربية بتعلم العربية، إن لم يكن من أهلها، فمن تكلم العربية فهو عربي، وأن يهتم بإتقان أولاده لها إن كان عربيًا، وهذا هو مدخل العلوم الإسلامية من علوم القرآن والحديث والعقيدة والفقه والسلوك وغيرها.

وقومية العرب ليس أهم ما فيها النسب، بل أهم ما فيها الفكر والأدب، فمن كان عربيًا بالانتساب أو بالتعلم، فليتعلم الأدب العربي، وليستمتع به، ويدع الفخر بآباء الجاهلية، وشيوخ الكبرياء الذين قال الله في أضرابهم: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ۝﴾ [هود:١٠١]. وعلى الآباء أن يُحَفِّظوا أولادهم شيئًا من الأدب العربي المليء بالقيم والحكم، سواء كان أدبا جاهليا أو إسلاميا، ومن ذلك قول الشاعر(١):

ومـا بقيـت مـن اللـذات إلا ... محـاورة الرجـال ذوي العقـولِ
وقـد كـانوا إذا عُـدُّوا قليـلًا ... فقـد صـاروا أقـلَّ مـن القليـل

وقول آخر(٢):

يُعـدُّ رفيـع القـوم مـن كـان عـاقلًا ... وإن لم يكـن في قومـه بحسـيب
إذا حـل أرضًـا عـاش فيهـا بعقلـه ... ومـا عاقـل في بلـدة بغريـب

(١) ينسب للخليل بن أحمد الفراهيدي.

(٢) ذكرهما النويري في نهاية الأرب (٢/ ٢٣٥)، دار الكتب والوثائق القومية – القاهرة، ط: الأولى، ١٤٢٣هـ.

وقول شاعر حكيم[1]:

خيـــر الكـــــلام قليــــلُ   عـــــلى كثيــــرٍ دليـــلُ

والعِــــيّ معنًـــى قصــــير   يحويـــــه لفــــظٌ طويــــل

وقال عامر بن الطفيل العامري:

إني وإن كنــتُ ابــنَ ســيِّدِ عــامر   وفارسَها المندوبَ في كـل موكـب

فمــا ســوَّدتْني عــامر عــن وراثــة   أبــى الله أن أســمو بــأمٍّ ولا أبِ

ولكننــي أحمــي حماهــا وأتقــي   أذاها وأرْمِي مَنْ رماهـا بمنكـب

وقال آخر[2]:

مـــالي عقـــلي وهمتـــي حســـبي   مــا أنــا مــولًى ومــا أنــا عربــي[3]

إذا انتمــــى منـــتمٍ إلى أحــــد   فـــإنني منـــتمٍ إلى أدبـــي

فينبغي لكل أب وأم أن يعلما أولادهما شيئًا من علوم العربية نحوها وصرفها، وشيئًا من الأدب العربي وأيام العرب وتاريخهم، فالعرب هم حملة الإسلام الأول، والعربية هي وعاء الإسلام وعلومه. أو على الأقل ينميان في أولادهما الاعتزاز بالعربية، ويهيئان لأولاهما من يقوم بهذا التعليم.

---

(١) هو أحمد بن إسماعيل الكاتب، انظر: أدب الكتاب، للصولي ص ٢٣٠، المطبعة السلفية - بمصر، ١٣٤١هـ.

(٢) ذكرهما ابن عبد ربه في العقد الفريد (٣/ ٣٥٩) غير منسوبين، دار الكتب العلمية - بيروت، ط: الأولى، ١٤٠٤هـ.

(٣) عدم نصب (عربي) على لغة تميم التي تعمل (ما) عمل ليس، أما لغة أهل الحجاز فإعمالها، لذا سميت (ما الحجازية).

تربية الأبناء التربية البدنية والرياضية:

ومما يجب على الآباء والأمهات تربية الأبناء والبنات تربية بدنية ورياضية سليمة، لينشؤوا على النشاط والجدية وقوة الأبدان، وليس على التباطؤ والتكاسل والترهل، وقد كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ إلى أهل الشام: علِّموا أولادكم السباحة والرماية والفروسية[(١)].

وقال: اخشوشنوا، واقطعوا الركب، وثِبوا على الخيل وثبًا[(٢)].

ومعنى اقطعوا الركب: أي لا تعتادوا الاعتماد عليها.

وقد روي في بعض الآثار: «حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتابة، والسباحة، والرماية»[(٣)].

وقال النبي ﷺ لأصحابه رضوان الله عليهم: «ارموا واركبوا، وأن ترموا أحب إليّ من أن تركبوا»[(٤)]. وقال: «من علم الرمي، ثم تركه، فليس منا» أو «قد عصى»[(٥)].

فعلى الأب أن يهتم بهذا النوع من التربية، وهو التربية الرياضية والبدنية، وحبذا لو استطاع إشراك ولده - وبخاصة الصبيان- في ناد رياضي يتعلم فيه بعض الرياضات، التي تنفع الولد وتنمي شخصيته وثقته بنفسه - كما يقول أهل التربية - وتبعده عن كثير من الانحرافات الناتجة عن الفراغ.

---

(١) رواه أبو يعقوب القراب في فضائل الرمي في سبيل الله (١٥). بلفظ «كتب إلى أهل الشام: أن علموا أولادكم السباحة والرمي والفروسية».

(٢) تفسير القرطبي (٤/ ٣٦).

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٨٢٩٨) وقال عقبه: عيسى بن إبراهيم هذا يروي ما لا يتابع عليه.

(٤) رواه أحمد (١٧٣٢١) وقال مخرجوه: حديث حسن بمجموع طرقه وشواهده، وأبو داود في الجهاد (٢٥١٣)، والنسائي في الخيل (٣٥٧٨)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨١١)، عن عقبة بن عامر.

(٥) رواه مسلم في الإمارة (١٩١٩)، عن عقبة بن عامر.

وكذلك يختار لابنته الرياضات التي تتفق مع طبيعتها الأنثوية، لتنشأ صحيحة البدن.

إعداد الأبناء للمستقبل:

ومن حسن تربية الآباء والأمهات للأبناء: أن يحسنوا إعدادهم للمستقبل.

فالبنت ستكون في المستقبل زوجة مسؤولة عن بيت وأبناء، يجب أن تعد لذلك، لا أن تعامل في بيت أبيها على أنها تأمر فتطاع، ليس عليها أي تكليفات، ثم بين ليلة وضحاها، تجد نفسها وقد صارت امرأة في بيت زوجها، وأما لأبنائه وبناته، تشارك زوجها أعباء الحياة، وتقلباتها!

والابن سيكون في مستقبل أيامه مسؤولًا عن زوجة لها عليه حقوق مادية ومعنوية، وأبناء سيكون مسؤولا عن تربيتهم وتأديبهم والإنفاق عليهم.. إلخ ما هناك.

ومن إعداد الأبناء للمستقبل، ألّا نجعلهم نسخًا كربونية منا، في معارفهم وتصرفاتهم وأفكارهم، بل نعدهم لزمانهم هم بما يتطلبه، لا زماننا نحن بما تطلَّبه، وتعجبني مقولة تنسب للإمام علي بن أبي طالب ﷺ: لا تقسروا أولادكم على آدابكم فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم[1]. يعني لا تفرض على أولادك زمنك أنت، ولكن أعدَّهم للمستقبل.

ومن آداب الأبوة والأمومة: التسوية بين الأبناء في العطاء

ومن الآداب الواجبة على الأب أن يسوِّي بين أولاده في العطية، حتى يكونوا له في البر سواء، ويحرم عليه أن يُؤْثر بعضهم بمنحة أو عطاء، بغير مسوِّغ ولا

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي حديد (٢٠/ ٢٦٧) تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، نشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه.

حاجة، فيوغر صدور الآخرين، ويوقد بينهم نار العداوة والبغضاء. والأم كالأب في ذلك.

قال ﷺ: «اعدلوا بين أبنائكم، اعدلوا بين أبنائكم، اعدلوا بين أبنائكم»[(١)].

وقصة هذا الحديث أن امرأة بشير بن سعد الأنصاري، طلبت إليه أن يخص ولدها النعمان بن بشير بمنحة مالية، وأرادت توثيق هذه الهِبة، فطلبت منه أن يُشهد على ذلك رسول الله ﷺ، فذهب إليه فقال: يا رسول الله، إن ابنة فلان- زوجته- سألتني أن أنحل ابنها غلامي (عبدي). فقال ﷺ: «أله إخوة؟» قال: نعم. قال: «فكلهم أعطيتَ مثل ما أعطيتَه؟» قال: لا. قال: «فليس يصلح هذا، وإنني لا أشهد إلا على حق»[(٢)]. «لا تشهدني على جور، إن لبنيك عليك من الحق أن تعدل بينهم، كما لك عليهم من الحق أن يبروك»[(٣)]. «اتقوا الله واعدلوا في أولادكم»[(٤)].

وعن الإمام أحمد: أن التفاضل يجوز إن كان له سبب، كأن يحتاج الولد؛ لزمانة (عاهة) به، أو نحو ذلك دون الباقين[(٥)].

---

(١) رواه أحمد في مسنده (١٨٤٥٢)، واللفظ له، وقال مخرجوه: حديث صحيح، وأبو داود في الإجارة (٣٥٤٤)، والنسائي في النحل (٣٦٨٧)، وصححه الألباني في غاية المرام (٢٧٢)، عن النعمان بن بشير.

(٢) رواه مسلم في الهبات (١٦٢٤)، عن جابر.

(٣) رواه أحمد في مسنده (١٨٣٧٨)، وقال مخرجوه: صحيح، وأبو داود في الإجارة (٣٥٤٢)، والطبراني في الكبير (٨٤٥)، عن النعمان بن بشير. وقال ابن حجر في الفتح (٥/ ٢١٤): اختلاف الألفاظ في هذه القصة الواحدة يرجع إلى معنى واحد. وضعفه الألباني في غاية المرام (٢٧٤)، وقال في الصحيحة: معناه صحيح، يشهد له مجموع روايات الحديث.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في الهبة وفضلها (٢٥٨٧)، ومسلم في الهبات (١٦٢٣)، عن النعمان بن بشير.

(٥) قال في المغني (٥/ ٦٠٥): فإن خص بعضهم لمعنًى يقتضي تخصيصه، مثل اختصاصه بحاجة أو زمانة، أو عمى أو كثرة عائلة، أو اشتغاله بالعلم، أو نحوه من الفضائل، أو صرف عطيته عن بعض

وهذا معقول شرعًا، فإن كان بعض الأولاد بـه قصـور خِلْقـي، فلـيس هـذا ذنبه، ويمكن أن يعوض بما يلحقه بإخوته، ومثل أن يكونوا أكملوا تعليمهم، وهـو ما زال صغيرًا، أو تزوجوا بإعانة الأب وهو لم يتزوج.

الوقوف في الميراث عند حدود الله:

ومثل ذلك الميراث، فلا يحل لوالد أن يحرم بعض أولاده من الميـراث: لا يحل له أن يحرم الإناث، أو يحرم أولاد زوجة غير محظية عنده، أو يعطـيهم دون حقهم.

كما لا يحل لقريب أن يحرم قريبه المستحق من الميراث بحيلة يصطنعها، فإن الميراث نظام قرره الله بعلمه وعدله وحكمته، وأعطى به كل ذي حق حقه، وأمر الناس أن يقفوا فيه عند ما حدده وشرعه. فمن خالف هذا النظام في تقسيمه وتحديده فقد اتهم ربه ﷻ.

وقد ذكر الله شؤون الميراث في ثلاث آيات من القرآن، قال في ختام الآية الأولى: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾ [النساء:١١].

وقال في ختام الآية الثانية: ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ

=

ولده لفسقه أو بدعته، أو لكونه يستعين بما يأخذه على معصية الله أو ينفقه فيها، فقد روي عن أحمد ما دل على جواز ذلك، لقوله في تخصيص بعضهم بالوقف: لا بأس به إذا كان لحاجة، وأكرهه على سبيل الأثرة. والعطية في معناه.

وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء:١٢-١٤].

وقال تعالى في ختام الآية الأخيرة من الميراث: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾ [النساء:١٧٦].

فمن خالف عما شرع الله في الميراث، فقد ضل عن الحق الذي بينه الله، وتعدى حدود الله ﷻ، فلينتظر وعيد الله ﴿نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء:١٤].

الفَصْلُ الرَّابعُ

أدب المسلم مع أولي القُربى

مِن أدب المسلم الأساسي الذي جاء به القرآن، وأكّدتُه السُّنَّة، وأصّله علماءُ الإسلام: صِلةُ الرَّحِم، أو إيتاءُ ذي القُربى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النحل:٩٠]، وقال تعالى في آية الحقوق العشرة: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [النساء:٣٦].

وهو أمرٌ اتّفقتْ عليه كلُّ الرسالات السماويّة التي بعَثَ الله بها النبيين مُبشِّرين ومنذِرين، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة:٨٣].

ونلاحظ أنه قال في ميثاق بني إسرائيل: ﴿وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وفي آية الحقوق العشرة: ﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ بزيادة حرف الباء، وهي زيادة تدل على التأكيد، وهو ما نشعر به من قوة النصوص وكثرتها، وما فيها من أمر ونهي، ووعد ووعيد، وترغيب وترهيب.

تأكيد القرآن لحقِّ القرابة:

وأولُ ما نلحظ هنا تأكيدَ القرآن لحق القرابة في كثرة النصوص القطعيَّة التي جاءتْ توصي بحقِّ الأقارب، أو الأقربين، أو ذوي القُربى، كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ

﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢١٥]. فجعل أول مَن له حق النفقة في المال– وهو ما عبَّر عنه بالخير– هم الوالدان والأقربون. والمراد بالأقربين أو ذوي القربى هنا: القرب في النسب لا في المكان والسكن.

وكذلك جعل لهم الحقَّ في الوصية، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة:١٨٠]. وقوله سبحانه: ﴿تَرَكَ خَيْرًا﴾، أي: مالًا فيه وفرةٌ، بحيث يمثِّل ﴿خَيْرًا﴾، فالمال القليلُ لا يُعتبر في نظر الناس خيرًا، وإنما الوصية في المال الكثير، وهنا تجب الوصيةُ للوالدين والأقربين، الذين لا نصيب لهم في ميراث الميت؛ لأنهم حجبوا بغيرهم، وأما الوالدين في الآية، فأن تكون أمُّه أو أبوه على غير الإسلام، فهذه الوصية واجبة بالمعروف، حقًّا على المتقين، وهذا ما ذهب إليه ابن حزم[1]، وهو ما نختاره.

الوصية الواجبة لأولاد الأبناء المتوفين:

وفي ظاهر هذه الآية ما يدلِّل لاجتهاد فقهاء مصر المُحدَثين، ومَن وافقهم في البلاد العربية من أنه يجب على الأجداد والجدات أن يوصوا لأحفادهم بنينَ أو بنات من أبنائهم أو من بناتهم، إذا مات أبوهم أو أمهم في حياةِ الجد أو الجدة، فحجب الأعمامُ والأخوال الأحفاد عن الميراث؛ وفق قواعد الحجب في الميراث.

وقد حدَّدوا هذه الوصية الواجبة بنصيب الأب المُتوفَّى أو الأم المتوفاة، بما لا يزيد على الثُّلث، الذي لا تتجاوزه الوصيةُ، لقول الرسول الكريم ﷺ لسعد بن

(١) ينظر: مسألة الوصية للأقارب من كتاب المحلى (٨/ ٣٥٣).

أبي وقاص: «الثلث والثلث كثير»[1]. حتى لا يجتمع على هؤلاء الأحفاد الذين مات آباؤهم في حياة أجدادهم: اليتم والحرمان.

واستدلوا أيضًا بقول الله تعالى في قِسْمة التَّركات التي خلَّفها الموتى لمَن وراءهم: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾﴾ [النساء:٨]. وفي هذه الآية تأكيدٌ لحقِّ هؤلاء الأحفاد الذين ذكرْناهم في وصية الأجداد؛ لأنهم من أقرب أولي القربى.

حق ذوي القربى في المال:

وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾ [البقرة:١٧٧]. فجعل إيتاءَ ذوي القربى حقَّهم أو حقوقَهم في المال، وهي غير الزكاة المذكورة في الآية الكريمة نفسها: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

وفي سورة الإسراء قال تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الآية:٢٦]، وفي سورة الروم: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الآية:٣٨].

وفي سورة النور نزل قوله تعالى يردُّ على أبي بكر الصديق، الذي حَلَفَ ألَّا يُعطي مِسْطحًا قريبَه، بعد أن خاضَ مع مَن خاض في حديث الإفك، في حق ابنته عائشة أم المؤمنين ﷺ. فقال ﷻ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الآية:٢٢].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٧٤٢)، ومسلم (١٦٢٨)، كلاهما في الوصايا، عن سعد بن أبي وقاص.

العدل ولو على ذوي القربى:

على أن على المسلمين أن يُعطوا أولي القربى حقَّهم، ولكن لا يجوز لهم أن يُعطوهم ما يجور على حق غيرهم، ولا ينبغي للمسلم أن يكون مع قريبه في العدل والظلم، والبر والفجور، بل يكون معه في العدل والخير، والحق والبر، لا يتعداها إلى ضدها، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام:١٥٢]، ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [المائدة:١٠٦]. فالحقُّ والعدلُ فوق القَرابة، وفوق كل عصبيَّة.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝﴾ [سورة النساء:١٣٥].

صلة الأرحام:

وقد يُعبِّر القرآنُ عن القرابة وعن حقِّها باسم آخر، وعنوانٍ آخر، وهو: صِلةُ الأرحام، وهو ما أوصى الله تعالى به، ونهى عن قطعه أو إهداره، قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝﴾ [النساء:١].

والأرحام: جمع رَحِم، ويُعبَّر به عن القرابة، فهو يأمرنا أن نتَّقي الله الذي نتساءل به، وأن نتَّقي الأرحام أن نقطعها.

وهذه الأرحام لها مكانةٌ ولها حقوق، كما قال تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝﴾ [الأنفال:٧٥]. وفي سورة الأحزاب قال ﷻ: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا ۚ﴾ [الآية:٦].

وقال تعالى في وصف الفاسقين، الذين يستحقون أن يضّلهم الله: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٢٧﴾ [البقرة:٢٧]. وصَفَهم القرآن بثلاث رذائل من أسوأ الصفات:

إحداها: نقض العهد، وهو ما ذكره الله تعالى بقوله: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٠ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦١﴾ [يس:٦٠- ٦١]. والعهد الآخر، ما أخذه على بني إسرائيل: أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئًا، وينفّذوا الأوامر الإلهية، كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ٨٣﴾ [البقرة:٨٣].

والرذيلة الثانية: قطْع ما أمر الله به أن يوصل، مثل قطْعهم الأرحام، والتنصل من موالاة المؤمنين.

والرذيلة الثالثة: الإفساد في الأرض، والله لا يحب الفساد، ولا يحب المفسدين. وقد جعل عمارة الأرض وإصلاحها من مقاصده تعالى في خلْقه، كما قال على لسان صالح الذي قال لقومه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ [هود:٦١]. أي: طَلَبَ إليكم أن تعمروها ولا تخرّبوها، أو تسمحوا أن يتسرب إليها الخراب.

وهو ما ذكره القرآن في سورة الرعد، حين قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ٢٥﴾ [الآية:٢٥].

ومما ذكره القرآنُ حول صِلة الرحِم وتقطيعها: ما جاء في سورة محمد، في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ٢٢ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ٢٣﴾ [الآيتان:٢٢، ٢٣].

وقال إبراهيم النخعي: لا تقطع أخاك، ولا تهجره عند الذنب يذنبه، فإنه يرتكبه اليوم، ويتركه غدًا. وقال أيضًا: لا تحدِّثوا الناس بزلة العالِم، فإن العالم يزل الزلة ثم يتركها[1].

وفي حديث عمر، وقد سأل عن أخ كان آخاه، فخرج إلى الشام، فسأل عنه بعض من قدم عليه، وقال: ما فعل أخي؟ قال: ذلك أخو الشيطان. قال: مَهْ. قال: إنه قارف الكبائر حتى وقع في الخمر. قال: إذا أردت الخروج، فآذني. فكتب عند خروجه إليه: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ [الغافر: ١-٣]. ثم عاتبه تحت ذلك وعذله. فلما قرأ الكتاب بكى وقال: صدق الله ونصح لي عمر. فتاب ورجع[2].

وكذلك حُكي عن أخوين من السلف، انقلب أحدهما عن الاستقامة، فقيل لأخيه: ألا تقطعه وتهجره؟ فقال: أحوج ما كان إليّ في هذا الوقت، لما وقع في عثرته: أن آخذ بيده، وأتلطف له في المعاتبة، وأدعو له بالعود إلى ما كان عليه[3].

الصداقة لُحمة كلُحْمة النسب:

الصداقة لُحمة كلحمة النسب، والقريب لا يجوز أن يُهْجَر بالمعصية، ولذلك قال الله تعالى لنبيِّه ﷺ في عشيرته: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢١٦﴾ [الشعراء: ٢١٦]. ولم يقل: إني بريء منكم، مراعاة لحق القرابة ولُحمة النسب.

وإلى هذا أشار أبو الدرداء لما قيل له: ألا تبغض أخاك وقد فعل كذا؟ فقال:

(١) ذكر هذه الآثار أبو طالب المكي في قوت القلوب (٢/ ٣٦٧).

(٢) رواها أبو نعيم في حلية الأولياء (٤/ ٩٧).

(٣) المصدر السابق (٢/ ٢٧٥).

إنما أبغض عمله، وإلا فهو أخي[1].

وأخوة الدين أوكد من أخوة القرابة، ولذلك قيل لحكيم: أيما أحب إليك أخوك أو صديقك؟ فقال: إنما أحب أخي إذا كان صديقًا لي[2].

وكان الحسن يقول: كم من أخ لك لم تلده أمك؟ ولذلك قيل: القرابة تحتاج إلى مودة، والمودة لا تحتاج إلى قرابة[3].

وقال جعفر الصادق ﷺ: مودَّة يومٍ صلة، ومودَّة شهر قرابة، ومودَّة سنة رحم ماسَّة، من قطعها قطعه الله[4].

وقال ﷺ: «شرار عباد الله المشَّاؤون بالنميمة، المُفرِّقون بين الأحبَّة»[5].

لا تكونوا عونا للشيطان على أخيكم:

وقال بعض السلف في سَتْر زلَّات الإخوان: ودَّ الشيطان أن يلقي على أخيكم مثل هذا، حتى تهجروه وتقطعوه، فماذا اتَّقيتم من محبَّة عدوكم؟ وهذا لأن التفريق بين الأحباب من محابِّ الشيطان، كما أن مقارفة العصيان من محابِّه؛ فإذا حصل للشيطان أحد غرضيه، فلا ينبغي أن يضاف إليه الثاني.

وإلى هذا أشار ﷺ في الذي شتم الرجل الذي أتى فاحشة، إذ قال: «مَه». وزجره، وقال: «لا تكونوا عونًا للشيطان على أخيكم»[6].

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٢٦٦).

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٢٢٥).

(٣) رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق (٩٠٥).

(٤) آداب الصحبة، أبو عبد الرحمن السلمي (١٦٩).

(٥) رواه أحمد (١٧٩٩٨)، وقال مخرجوه: حسن بشواهده. وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٤٧٠٠)، عن عبد الرحمن بن غنم الأشعري.

(٦) رواه البخاري في الحدود (٦٧٨١)، وأحمد (٧٩٨٥)، وأبو داود في الحدود (٤٤٧٧)، عن أبي هريرة.

موسى وأخوه هارون عليهما السلام:

وعاش موسى في قصْر فرعون الذي سيزول مُلكُه على يديه، ثمَّ ذهب إلى مدْيَنَ وتزوج منها، وعاد بعد عشْر سنوات إلى أهله، وناداه ربُّه بالوادي المقدس طُوى، وأرسله إلى فرعون إنَّه طغَى، فسأل ربَّه أن يجعل له وزيرًا مِن أهله، هارون أخاه، فقال: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝ هَٰرُونَ أَخِي ۝ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ۝ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ۝﴾ [طه:٢٩- ٣٢]. وأجابه الله إلى كل ما سأل، وسار الأَخَوانِ معًا، على السَّراء والضرَّاء، حتى انتصرا على فرعون، ثمَّ لقِيا مِن بني إسرائيل ما لَقِيَا، حتى ذهب موسى للقاء ربِّه أربعين يومًا، وفي هذه المُدَّة عَبَدَ بنو إسرائيل العِجْلَ الذي صنعه لهم السامري، وجاء موسى ورأى هذه الفتنة الهائلة التي سَقَطَ فيها قومُه، وغضِبَ موسى غضبًا شديدًا، وأخَذَ موسى برأس أخيه يجرُّه إليه: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ۝﴾ [طه:٩٤]. ثم قال بعد أن بين له هارون ما قام به نحو بني إسرائيل: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝﴾ [الأعراف:١٥١].

السنة ترغب في صلة الرحم وترهب من قطيعتها:

ويحسُن بي هنا أنْ أضعَ المزيدَ من أحاديث الترغيب في صلة الرحم وإن قُطعتْ، والترهيب مِن قطْعها مما انتقيناه من كتاب «الترغيب والترهيب» للإمام المنذري.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر: فليُكرِمْ ضيْفه، ومَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر: فليصِلْ رحِمَه، ومَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر: فلْيقلْ خيرًا أو ليَصْمُتْ»[(١)].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠١٨)، ومسلم في الإيمان (٤٧)، كما رواه أحمد (٧٦٢٦)، أبو داود في الأدب (٥١٥٤)، والترمذي في صفة القيامة (٢٥٠٠) عن أبي هريرة.

وعن أنس ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «من أحبَّ أنْ يُبسط له في رزقه، ويُنسأ له في أثره: فليصِلْ رحِمَه»(١).

يُنسأ بضم الياء وتشديد السين المهملة مهموزًا، أي: يُؤَخَّر له في أجله.

وعن علي بن أبي طالب ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «من سره أن يمد له في عمره، ويوسع له في رزقه، ويدفع عنه ميتة السُّوء: فليتَّقِ الله، وليصِلْ رحِمه»(٢).

وعن رجلٍ مِن خثعم قال: أتيتُ النبي ﷺ وهو في نفر من أصحابه، فقلتُ: أنتَ الذي تزعم أنك رسول الله؟ قال: «نعم». قال: قلتُ: يا رسول الله، أيُّ الأعمال أحبُّ إلى الله؟ قال: «الإيمان بالله». قال: قلتُ: يا رسول الله، ثمَّ مَهْ؟ قال: «ثمَّ صِلة الرَّحم». قال: قلتُ: يا رسول الله، ثمَّ مَهْ؟ قال: «ثمَّ الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر». قال: قلتُ: يا رسول الله، أيُّ الأعمال أبْغضُ إلى الله؟ قال: «الإشراك بالله». قال: قلتُ: يا رسول الله، ثمَّ مَهْ؟ قال: «ثمَّ قطيعة الرَّحِم». قال: قلتُ: يا رسول الله، ثمَّ مَهْ؟ قال: «ثمَّ الأمرُ بالمنكر، والنهي عن المعروف»(٣).

وعن أبي أيوب ﷺ: أنَّ أعرابيًّا عَرَضَ لرسول الله ﷺ وهو في سفر، فأخذ

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٥٩٨٦)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٥٧)، كما رواه أحمد (١٣٥٨٥).

(٢) رواه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند (١٢١٣) وقال: إسناده قوي. والبزار (٦٩٣) وقال عقبه: لا أحسب ابن جريج سمع هذا الحديث من حبيب بن أبي ثابت، والطبراني في الأوسط (٣٠١٤)، والحاكم في البر والصلة (٤/ ١٦٠)، وسكت عنه هو والذهبي، والضياء في المختارة (٥٣٨) وصحح إسناده، وجود إسناد البزار المنذري في الترغيب والترهيب (٣٧٩٣)، والهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٤٦٥).

(٣) رواه أبو يعلى (٦٨٣٩)، وجود إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٣٧٩٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٤٥٤): رجاله رجال الصحيح غير نافع بن خالد الطاحي وهو ثقة، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٦٦).

بخِطَام ناقتِه أو بزِمَامِها، ثمَّ قال: يا رسول الله- أو يا محمد- أخبرني بما يقرِّبُني مِن الجنَّة، ويباعدني من النار. قال: فكفَّ النبي ﷺ، ثم نظر في أصحابه، ثم قال: «لقد وفِّقَ» أو «لقد هُدِيَ» قال: «كيف قلتَ؟» قال: فأعادها، فقال النبي ﷺ: «تعبد الله، ولا تشرك به شيئًا، وتُقيم الصلاةَ، وتُؤتي الزكاة، وتَصِل الرحم، دَعِ الناقةَ». وفي رواية: «وتصل ذا رحمك». فلمَّا أدبر، قال رسول الله ﷺ: «إن تمسَّكَ بما أمرتُه به، دَخَلَ الجنَّةَ»(١).

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: أوصاني خليلي ﷺ بخصال من الخير: أوصاني ألا أنظُرَ إلى مَنْ هو فوقي، وأن أنظرَ إلى مَن هو دوني، وأوصاني بحبِّ المساكين، والدنو منهم، وأوصاني أن أصِل رَحِمِي وإن أدْبَرَتْ، وأوصاني ألَّا أخاف في الله لَومةَ لائم، وأوصاني أن أقولَ الحقَّ وإنْ كان مرًّا، وأوصاني أن أُكثِرَ مِن: لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنها كنز من كنوز الجنة»(٢).

وعن ميمونة رضي الله عنها، أنَّها أعتقتْ وليدةً لها، ولم تستأذن النبي ﷺ، فلمَّا كان يومُها الذي يدور عليها فيه، قالتْ: أشعرتَ يا رسول الله أنِّي أعتقتُ وليدتي؟ قال: «أوفعلتِ؟» قالت: نعم. قال: «أمَا أنَّكِ لو أعطيتِها أخْوالَكِ كان أعظمَ لأجرِكِ»(٣).

وعن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ قال: «الرَّحِم متعلِّقةٌ بالعرش، تقول: مَن وصلني وصله الله، ومَن قطعني قطعه الله»(٤).

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الزكاة (١٣٩٦)، ومسلم في الإيمان (١٣).

(٢) رواه أحمد (٢١٤١٥) وقال مخرجوه: حديث صحيح، وابن حبان في البر والإحسان (٤٤٩)، والطبراني (٢/ ١٥٦)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢١٦٦).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الهبة (٢٥٩٢)، ومسلم في الزكاة (٩٩٩)، كما رواه أحمد (٢٦٨١٧)، وأبو داود في الزكاة (١٦٩٠)، والنسائي في العتق (٤٩١٠).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٥٩٨٩)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٥٥)، كما رواه أحمد (٢٤٣٣٦).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله تعالى خَلَقَ الخَلْقَ، حتى إذا فرغ منهم، قامتِ الرَّحِمُ، فقالت: هذا مقام العائذ بكَ مِن القطيعةِ. قال: نعم، أمَا ترضَيْنَ أنْ أصلَ مَن وصلكِ، وأقطعَ مَن قطعكِ؟ قالت: بلى. قال: فذاكَ لكِ». ثمَّ قال رسول الله ﷺ: «اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمد: ٢٢- ٢٣]»[1].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الرَّحِمَ شِجْنَةٌ مِن الرحمن، تقول: يا رب! إنِّي قُطِعْتُ يا رب! إنِّي أُسِيءَ إليَّ يا رب! إنِّي ظُلمتُ يا رب! فيجيبها: ألَا تَرْضَيْنَ أنْ أصِلَ مَنْ وصَلَكِ، وأقطعَ مَن قَطَعَكِ؟»[2].

وعن أنسٍ ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن للرَّحِمِ حُجْنَةً متماسكة بالعرش، تَكَلَّمُ بلسانٍ ذُلَقٍ: اللهمَّ صِلْ مَن وصلني، واقطَعْ من قَطعني. فيقول الله تبارك وتعالى: أنا الرحمن الرحيم، وإنِّي شققتُ للرحِم مِن اسمِي، فمَن وصلها وصلتُه، ومَن بتكَها بتَكْتُه»[3].

الحُجْنة: هي صُنَّارة المِغْزَل، وهي الحديدةُ العَقْفاء التي يُعلَّق بها الخيط، ثمَّ يُفتلُ الغَزْل.

وقوله: «مَن بتكها بتَكْتُه» أي: من قطعها قطعتُه.

وعن سعيد بن زيد ﷺ، عن النبي ﷺ، أنه قال: «إن مِن أرْبى الرِّبا:

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٨٣٠)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٥٤)، كما رواه أحمد (٨٣٦٧).

(٢) رواه أحمد (٨٩٧٥) وقال مخرجوه: حديث صحيح، وابن حبان في البر والصلة (٤٤١).

(٣) رواه البزار (٦٤٩٤)، وحسَّن إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٣٨٠٩)، والهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٤٤٨).

الاستطالةُ في عِرْض المسلم بغير حقٍّ، وإنَّ هذه الرَّحم شُجْنة مِن الرحمن ﷻ، فمَن قطعَها حرَّم اللهُ عليه الجنَّة»(١).

قوله: «شُجْنَة من الرحمن»، قال أبو عبيد: يعني: قرابة مشتبكة كاشتباك العروق، وفيها لغتان شِجْنة بكسر الشين وبضمِّها، وإسكان الجيم.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ﵄، عن النبي ﷺ قال: «ليس الواصل بالمُكافِئ، ولكنَّ الواصِلَ الذي إذا قُطعتْ رحِمُه وصَلَها»(٢).

المكافئ هو الذي يصل الإحسان بمثله.

وعَنْ أَبِي هريرةَ ﷺ أنَّ رجلًا قال: يا رسول الله، إنَّ لي قرابةً أصلُهم ويقطعوني، وأُحسِن إليهم ويُسيئون إليَّ، وأحلُم عليهم ويَجْهلون عليَّ. فقال: «إنْ كنتَ كَمَا قلتَ: فكأنَّما تُسِفُّهم المَلَّ، ولا يزال معك من الله ظَهيرٌ عليهم ما دُمتَ على ذلك»(٣).

المَلُّ بفتح الميم وتشديد اللام: هو الرَّمادُ الحارُّ.

وعن أمِّ كلثوم بنت عقبة ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «أفضل الصدقة الصدقة على ذي الرحم الكاشِح»(٤).

ومعنى الكاشح: الذي يُضمِر عَداوتَه في كَشْحِه، وهو خَصْرُه.

---

(١) رواه أحمد (١٦٥١) وقال مخرجوه: إسناده صحيح. والبزار (١٢٦٥)، ووثق رجال أحمد المنذري في الترغيب والترهيب (٣٨١٠).

(٢) رواه البخاري في الأدب (٥٩٩١)، وأحمد (٦٥٢٤)، وأبو داود في الزكاة (١٦٩٧)، والترمذي في البر والصلة (١٩٠٨).

(٣) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٥٨)، وأحمد (٧٩٩٢).

(٤) رواه ابن خزيمة في الزكاة (٢٣٨٦)، والطبراني (٢٥/ ٨٠)، والحاكم في الزكاة (١/ ٤٠٦)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٨٩٤).

يعني: أنَّ أفضلَ الصدقةِ الصدقةُ على ذي الرحم المُضمِرِ العداوةَ في باطنه، وهو في معنى قوله ﷺ: «وتصِلُ مَن قطعك».

وعن عقبة بن عامر ﷺ قال: لقيتُ رسول الله ﷺ، فأخذتُ بيده، فقلتُ يا رسول الله، أخبرني بفواضل الأعمال. فقال: «يا عقبة، صِلْ مَن قطعك، وأعْطِ من حرمك، وأعرض عمَّن ظلمك». وفي رواية: «واعفُ عمَّن ظلمك». وزاد الحاكم في المستدرك: «ألا ومَن أراد أن يُمَدَّ في عُمره، ويُبسط في رزقه: فليصِلْ رَحِمَه»(1).

وعن أبي بكرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِن ذنبٍ أجدر أنْ يعجِّلَ اللهُ لصاحبه العقوبةَ في الدنيا، مع ما يدَّخِرُ له في الآخرة: مِن البغْي، وقطيعة الرحم»(2).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ أعمالَ بني آدم تُعرَضُ كلَّ خميسٍ ليلةَ الجمعة، فلا يُقبَل عملُ قاطعِ رحِمٍ»(3).

وعن جُبَيْر بن مُطعِم ﷺ، أنه سمع النبي ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة قاطع».

(٢) رواه أحمد (١٧٣٣٤) وقال مخرجوه: حديث حسن، والحاكم في البر والصلة (٤/ ١٦١)، وسكت عنه هو والذهبي، وصححه الألباني في الصحيحة (٨٩١).

(٢) رواه أبو داود في الأدب (٤٩٠٢)، والترمذي في صفة القيامة (٢٥١١) وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه في الزهد (٤٢١١)، والحاكم في التفسير (٢/ ٣٥٦)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، ورواه الطبراني فقال فيه: "من قطيعة الرحم والخيانة والكذب، وإن أعجل البر ثوابًا لَصلة الرحم، حتى إن أهل البيت ليكونون فجرة، فتنمو أموالهم ويكثر عددهم، إذا تواصلوا". ورواه ابن حبان في صحيحه في البر والإحسان (٤٥٥، ٤٥٦)، ففرقه في موضعين، ولم يذكر الخيانة والكذب، وزاد في آخره: "وما من أهل بيت يتواصلون فيحتاجون".

(٣) رواه أحمد (١٠٢٧٢) وقال مخرجوه: إسناده حسن، والبخاري في الأدب المفرد (٦١)، ووثق رواته المنذري في الترغيب والترهيب (٣٨٢٤)، والهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٤٥٠)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٥٣٨).

قال سفيان: يعني قاطعَ رحِم[1].

انتشار قطيعة الرحم:

ومِمَّا يؤسف له: انتشارُ قطيعةِ الرحِم بين الناس بعضِهم وبعض، فترى التنافسَ والتَّصارُعَ والتَّحاسُد أكثرَ ما يكون بين الأقارب بعضهم وبعض، حتى أمسى مِن الشائع بين الناس ما يُقال: «الأخ فخ»، و«الولد كمد»، و«العم غم»، و«الخال وبال»، و«الأقارب عقارب».

وأصبح الناسُ يأخذون بما شاع في المجتمعات الغربيَّة، من تفاقُم الأنانيَّة، وشيوعِ الرُّوح الفرديَّة، التي تجعل كلَّ فردٍ لا يُعنى إلا بنفسه، ولا يأبَهُ إلا لمصلحته الخاصة.

وهذا ما يجب على أهل الفقه والدعوة، والثقافة والتربية: أن يواجهوه بصراحةٍ وبقوة، ولا يستسلموا لتياره الجارف، الذي لا يُبقي ولا يذر، وينبغي أن يقووا في الناس الحرصَ على القرابة والأُسَرِ المتَّسعة، والقبائل والعشائر، ولا يقبلوا التفريقَ أبدًا.

وجوبُ صبْر الأقاربِ بعضِهم على بعض:

وإنَّ مِمَّا أوجَبَه الإسلامُ على الأقارب والأرحام بعضهم مع بعض: أن يتواصلوا ولا يتقاطعوا، ويتقاربوا ولا يتباعدوا، ويصطلحوا ولا يتخاصموا، وأن يعفو بعضُهم عن بعض، ويسعَ بعضُهم بعضًا، ولا يضيق بعضُهم ببعض.

وعليهم ألَّا يستجيبوا لوساوس الشيطان، الذي يحرِّش بينهم، وينفخ في الشرارة الصغيرة، حتى تستحيل نارًا مُستعِرةً، ثمَّ لا يزال يصبُّ عليها من زيته، ويغذي أوارها بحطبه، حتى لا تنطفئ أبدًا، وهذا ما يكرهه الله ورسوله والمؤمنون.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٥٩٨٤)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٥٦).

وقد رأينا في الجاهلية الحروبَ بين قبائل العرب لأدنى شيء، وربما لغير شيء، بدافع العصبية الجاهلية، كما قال الشاعر:

وأحيانًا على بكْرٍ أخِينا ... إذا ما لمْ نجدْ إلا أخانا[1]

وقد رأينا الحرب تستمرُّ أربعينَ عامًا بين بكْرٍ وتغْلبَ، حصدتْ منهما ما حصدتْ، وهم أبناء عُمومة، من أجل ناقة في الأصل.

وكان مِن العرب عقلاءُ حكماءُ كثيرًا ما يُغلِّبون عقولَهم على أهوائِهم، وينصرون ملائكتَهم على شياطينِهم. رأينا الشاعرَ الذي قتل قومُه أخاه، فهل ينساق وراء قضية الثأر، ويقتصُّ مِن قَتَلَةِ أخيه، ليقتصُّوا هم منه بطريقة من الطرق، أم يعالج الأمر بالحكمة، التي توازن بين الحاضر والمستقبل، والجزئيِّ والكُلي، والفردِ والمجتمع؟ هذا ما قاله الشاعرُ الحكيم:

قَومي هُمُو قَتَلوا أُمَيْمَ أخِي ... فإذا رميتُ يُصيبني سَهْمِي

فَلَئِن عفوتُ لأعفونْ جَلَلًا ... ولَئِن رميتُ لأوهِنَنْ عَظْمِي[2]

وقال آخر في أخٍ له قَتَلَ ولدَه خطأً:

أقولُ لِلنفْسِ تَأسَاءً وتَعْزِيةً ... إحْدى يَدَيَّ أصابتْني ولم تُردِ

كِلاهُما خَلَفٌ عن فَقْدِ صاحبه ... هذا أخي حينَ أدْعُوهُ، وذا ولَدِي[3]

ويقول الآخر يردُّ على ما اتَّهمَهُ به أقاربُه مِن تبذيرٍ، وتضييعِ ماله في الديون:

يُعاتبُني في الدَّيْنِ قومي، وإنَّما ... دِيُوني في أشياءَ تُكسِبهم حَمْدَا

---

(١) من شعر عمير بن شييم، الملقب بالقُطامي.

(٢) من شعر حارث بن وعلة.

(٣) من شعر العريان بن سهلة النبهاني.

وإنَّ الـذي بيني وبيْن بني أبِي ... وبـين بنـي عمّـي لَمختلـفٌ جـدًّا
إذا أكَلُوا لحمي وفرْتُ لحومَهم ... وإنْ هـدمُوا مجـدي بنيتُ لهـم مجْـدًا
وإنْ زجروا طيْرا بنحْسٍ تمرُّ بـي ... زجـرتُ لهـم طيـرًا تمـرُّ بهـم سـعْدًا
ولا أحمِلُ الحِقـدَ القـديمَ عليهمـو ... وليس رئيسَ القومِ مَن يحمِلُ الحِقدَا(١)

الحلم على القريب الحقُود:

وقد يجدُ الإنسانُ في أقاربه الأقربين مَن يُضمِر له الشرَّ، ويحمِل له الحقدَ، الذي غرسه الشيطانُ في نفسه، وظلَّ يُمِدُّه بسيئ الظنون، وبأقاويل أصحاب السوء، ويغذيه بالأضاليل، حتى استفحل، ولكن المؤمنَ الصادق لا يُقابل هذا الضِّغْن بمثله، بل ينبغي أن يُصفِّيَ قلبَه مِن كلِّ حقْد وحسَد وضغِينة، وأنْ يفتح قلبَه لقريبه بكلِّ مودَّة وصفاء، حتى يستأصل حقده مِن أعماق قلبه، كما قال معن بن أوس في قريب له:

وذي رحـم قلَّمـتُ أظْفـارَ ضِـغْنِه ... بِحِلْمِـيَ عَنْـهُ، وهْـو لـيسَ لـه حِلْـمُ
يُحـاولُ رَغْمـي، لا يُحـاولُ غيـرَه ... وكالموتِ عندي أنْ يَحُلَّ بـهِ الـرَّغْمُ
صـبرتُ علـى مـا كـان بينـي وبينـهُ ... وما تستوي حَرْبُ الأقاربِ والسِّلْمُ
لِأَسْتلَّ منه الضِّـغْنَ حتـى اسْـتَلَلْتُه ... وقد كان ذا ضِغْنٍ يَضيقُ بـه الحَـزْمُ

والشعرُ العربي يقوي ما جاء به الإسلام من مودَّة أولي القربى وصلة الأرحام، وخصوصًا ما يرعاه من تغذية العواطف، وتوثيق الأواصر، بين الإخوة وأولاد العم، حتى جعل لهم في الإرث مكانًا، بحَسَب نظام الإرث وتقسيمه.

---

(١) من شعر المقنَّع الكندي.

كما أنَّ على المسلم الرعايةَ لأقاربه حين يحتاجون إلى سدِّ لُقمة الخبز، وما يفتقر إليه القريبُ من قريبه، حتى إن المحاكم الشرعية لتقضي على القريب الموسر بحق قريبه المعسر في النفقة، توكيدًا لما جاء في القرآن والسنة من صلة الرحم، وحق أولي القربى.

يقول الشاعر:

أخــاكَ، أخــاكَ؛ إنَّ مَــن لا أخَــا لــه　　كســاعٍ إلى الهيجــا بغيــر ســلاحِ!
وإنَّ ابنَ عمِّ المَرْءِ- فاعْلَمْ- جَناحُـه　　وهلْ ينهَضُ البازِي بغيـر جَنـاحِ؟(١)

وقال عامر بن الطفيل:

ولا يرهــبُ ابــنُ العــمِّ منِّـي صَـولةً　　ولا أختَبِــي مِــن صَــولةِ المُتَهــدِّدِ
وإنِّـــي إذا أوعدْتُــــهُ أو وعَدْتُـــهُ　　لمُخلـفُ إيعـادي ومنجِـزُ مَوعِـدِي

وذلك أن العرب تعدُّ الرجوعَ عن الوعد لُؤمًا، على حين ترى الرجوعَ عن الإيعاد كرمًا.

وقال ابن كناسة:

ولا أدفعُ ابنَ العمِّ يمشـي علـى شـفًا　　ولــو بلغتْنِــي مِــن أذاهُ الجَنــادِعُ(٢)
ولكــنْ أُواســيهِ وأنســى ذُنوبَــهُ　　لتَرْجِعُــهُ يومًــا إليَّ الرَّواجِــعُ(٣)

---

(١) من شعر مسكين الدارمي.

(٢) الجنادع: الأحناش والثعابين.

(٣) الرواجع: الرياح.

وحسْبُكَ مِـنْ جهْـلٍ وسـوءِ صنيعةٍ ... معاداةُ ذي القربى وإنْ قيـلَ: قـاطِعُ

وقال آخر[1]:

مهـلًا بنـي عمّنـا، مهـلًا موالينـا ... لا تنبشـوا بيننـا مـا كـان مـدفونا

لا تطمعـوا أن تهينونـا ونكـرمكم ... وأن نكـفّ الأذى عـنكم وتؤذونـا

(١) هو الفضل بن العباس. ينظر: الكامل في اللغة (٤/ ٣٩).

الباب الخامس

أدب المسلم في مجتمعه

الباب الخامس

أدب المسلم مع مجتمعه

الإسلام دين اجتماعي، لا يتصور الفردَ المسلم إنسانًا منعزلًا في خلوة، أو راهبًا في صومعة، بل يتصوَّره دائمًا في جماعة، حتى عبادته لربه، فقد دعاه إلى أن تكون في صورة جماعية، ومن هنا نشأت المساجد في الإسلام وتأكدت أهميتها.

ولو تخلَّف المسلم عن الجماعة وصلَّى وحده، فإن رُوح الجماعة تظلُّ متمثلة في ضميره، جارية على لسانه حين يناجي ربه، قارئًا داعيًا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝﴾ [الفاتحة: ٥- ٦]. فهو يناجي ربه ويدعوه بصيغة الجماعة (نعبد – نستعين – اهدنا).

والقرآن يخاطب المكلَّفين بصيغة الجماعة فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ١٠٤، وسور أخرى كثيرة]، ليشعرهم بأنهم متضامنون في تنفيذ الأوامر، واجتناب النواهي، وأداء التكاليف.

والرسول يرغِّب دائمًا في الجماعة، وينفِّر من الشذوذ والانفراد، ويقول: «يد الله مع الجماعة، فمن شذَّ شذ في النار»(١) و«إنما يأكل الذئب من الغنم

(١) رواه الترمذي في الفتن (٢١٦٧)، وقال: غريب من هذا الوجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٨٤٨)، دون قوله: «ومَن شذ شذ في النار»، وضعفه النووي في شرح مسلم (١٣/ ٦٧)، ورواه الحاكم في العلم (١/ ١١٥)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٣٧)، وقال: غريب من حديث سليمان عن عبدالله بن دينار، لم نكتبه إلا من هذا الوجه، وقال المناوي في فيض القدير (٢/ ٣٤٤): قال ابن حجر رحمه الله: في تخريج المختصر، حديث غريب خرجه أبو نعيم في الحلية

القاصية»[1].

ومن روائع ما ورد عنه قوله: «لا صلاة لمنفرد خلف الصف»[2] حتى أمر مَن صلّى خلف الصف أن يعيد صلاته، كراهية للشذوذ والانفراد، ولو في الصورة والمظهر.

ويدعو الرسول بأبلغ الأساليب إلى كل عمل ينفع المجتمع، ويجعله أرجح عند الله، من نوافل العبادات، فاعتبر إصلاح ذات البَيْن أفضل من الصلاة والصيام والصدقة؛ لأن فساد البين هي الحالقة، ومثلها الحسد والبغضاء، إنها لا تحلق الشعر، بل تحلق الدين[3].

= والللالكائي في السنة، ورجاله رجال الصحيح لكنه معلول، فقد قال الحاكم: لو كان محفوظًا حكمت بصحته على شرط الصحيح، لكن اختلف فيه على معتمر بن سليمان على سبعة أقوال، فذكرها وذلك مقتضى للاضطراب والمضطرب من أقسام الضعيف، وقال السخاوي في المقاصد ص٧١٦: بالجملة فهو حديث مشهور المتن ذو أسانيد كثيرة وشواهد متعددة في المرفوع وغيره.

(١) رواه أحمد (٢١٧١٠) وقال مخرجوه: إسناده حسن، وأبو داود في الصلاة (٥٤٧)، والحاكم في التفسير (٢/ ٤٨٢) وصححه، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (٥٥٦)، عن أبي الدرداء.

(٢) رواه أحمد (١٨٠٠٥) وقال مخرجوه: حديث صحيح، وأبو داود (٦٨٢)، والترمذي (٢٣٠)، وقال: حسن، وابن ماجه (١٠٠٤)، ثلاثتهم في الصلاة، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (١١٠٥).

(٣) إشارة إلى حديث: «ألا أدلكم على أفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «إصلاح ذات البين، فإن فساد البين هي الحالقة..». رواه أحمد (٢٧٥٠٨) وقال مخرجوه: إسناده صحيح، وأبو داود في الأدب (٤٩١٩)، والترمذي في صفة القيامة (٢٥٠٩) وقال: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في تخريج الحلال والحرام (٤١٤)، عن أبي الدرداء.

ويفرض على كل مسلم، بل على كل عظم في بدنه «صدقة» يومية، يؤديها خدمة للمجتمع، ولو كانت إماطة للأذى عن الطريق، أو كلمة طيبة، أو تبسُّم الإنسان في وجه أخيه[(١)].

فقد عُني الإسلام بالمجتمع عنايته بالفرد، فكلٌّ منهما يتأثَّر بالآخر ويؤثِّر فيه. وهل المجتمع إلا مجموعة من الأفراد ربطت بينهم روابط معيَّنة؟ فكان صلاح الفرد لازمًا لصلاح المجتمع، فالفرد أشبه باللبنة في البنيان، ولا صلاح للبنيان إذا كانت لبناته ضعيفة.

كما لا صلاح للفرد إلا في مجتمع يساعده على النمو السليم، والتكيُّف الصحيح، والسلوك القويم. فالمجتمع هو التربة التي تنبت فيها بذرة الفرد، وتنمو وتترعرع في مناخها، والانتفاع بسمائها وهوائها وشمسها.

وما كانت الهجرة النبوية إلى المدينة، إلا سعيًا إلى مجتمع مستقلٍّ، تتجسَّد فيه عقائد الإسلام وقِيَمه، وشعائره وشرائعه.

وقد عني الإسلام بالآداب التي ينبغي أن يلتزمها المسلم في تعامله مع مجتمعه الذي يحيا فيه، وهي موضوع حديثنا في هذه الباب الذي قسمناه إلى عدة فصول، وكان أول فصل عن الأدب مع ضعفاء المجتمع من اليتامى والمساكين وابن السبيل وما ملكت الأيمان، الذين إنما ننصر ونرزق بهم، كما في الحديث

---

(١) إشارة إلى الحديث المتفق عليه: «كل سلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس، يعدل بين الاثنين صدقة، ويعين الرجل على دابته فيحمل عليها، أو يرفع عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة يخطوها إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة»، رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٩١، ٢٩٨٩)، ومسلم في الزكاة (١٠٠٩)، عن أبي هريرة.

الشريف[1]. وأتبعنا ذلك بالأدب مع الجار ومع الأصحاب والأصدقاء، وأدب المسلم في السلام والتَّحِيَّة، وأدبه في الزيارة، وفي المجالس ومع الجلساء، وأدب الحديث والكلام مع الناس، وأفردنا أدب التحدث في الهاتف بفصل وحده، وفصلنا في كل ذلك ما يبرز روح الجماعة في ديننا، وما تميز به من تراحم ورقي لم تعهده المجتمعات البشرية قبل الرسالة الإسلامية.

(١) إشارة إلى قول النبي لسعد بن أبي وقاص: «هل تُنصرون وتُرزقون إلا بضعفائكم؟» رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٩٦)، عن مصعب بن سعد، قال الحافظ ابن حجر في الفتح معلّقا على قول الدارقطني إنه مرسل: صورته صورة المرسل إلا أنه موصول في الأصل، معروف من رواية مصعب بن سعد عن أبيه، وقد اعتمد البخاري كثيرا من أمثال هذا السياق، فأخرجه على أنه موصول، إذا كان الراوي معروفا بالرواية عمّن ذكره (١/ ٣٦٢)، وجعله الحافظ المزي في تحفة الأشراف في أحاديث سعد بن أبي وقاص.

الفصل الأول

أدب المسلم مع اليتامى والمساكين وابن السبيل وما ملكت الأيمان

عُني الإسلام أشدَّ العناية بالإنسان؛ لأنه مخلوق الله المكرَّم، المستخلف من الله في الأرض، يهديه ربه سبحانه، ولا يدعه وحده في أي مرحلة من حياته، فهو يرعاه في حياته التكوينية في بطن أمه، حين يكون علقة، فمضغة مخلقة وغير مخلقة، ثم يكوِّنه الله عظاما، فيكسوها لحما، ثم ينشئه خلقا آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين.

والإنسان في الإسلام صنع الله الذي أتقن كل شيء، لذا فهو لا يجيز لأحد أن يعتدي على هذا الخلق، فيجهضه ويتلفه، حسب هواه، أو أهواء البشرية المنحرفة.

ومن هنا اهتم الإسلام بالكائن الآدمي، حتى قبل أن يولد، وفرض على أمه أن تصونه وتحافظ عليه، وهو حمل في بطنها، ورخص لها ألا تصوم شهر الفريضة إذا كان الصيام يضر بحملها، بل يجب عليها الفطر إن تيقنت أن في الصيام ضررا عليها أو على جنينها.

وحينما يولد، حض الإسلام على آداب تراعى من قبل والديه وإخوته وأعمامه وأخواله وأقاربه وكل من يحيط به، حتى ينشأ نشأة سوية بعيدة عما حرفه، أو يؤثِّر في حسن نمائه.

ومن ذلك أن الإسلام لم يعترف بالاتصال بين الجنسين إلا من خلال زواج رجل بمرأة، وشرط لذلك شروطًا مسطورة في كتب الفقه[1]، حتى ينشأ الطفل في

(١) ينظر: أركان الزواج وشروطه، من كتابنا فقه الأسرة وقضايا المرأة، نشر: الدار الشامية.

هذه المِظَلَّة الشرعية، والمؤسسة الإسلامية، التي ينشأ في ظلالها الطفل، فتحافظ عليه بمقتضى الفطرة الوالدية، وترضعه أمه حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة.

ومن اهتمام الإسلام بهذه النفس الإنسانية والحفاظ عليها، وجدنا في الفقه الإسلامي بابًا يسمى «باب اللقيط»، وهو الطفل الذي تلقيه أمه عند باب أحد المساجد أو في السوق أو في الطريق، حيث ولدته بعيدًا عن أهلها ومحارمها، وخافت أن ينكشف أمرها، فلفته وغطته، ووضعته في مكان يمكن أن يراه الناس، ليلتقطوه، فيأخذوه ويربوه، أو يسلِّموه إلى الجهة التي تتولى كفالته ورعايته، مثل قاضي البلدة، أو الجهة الإدارية الشرعية المخولة برعاية هؤلاء.

وللقيط أحكام معروفة مسجلة في كتب الفقه الشرعي، على اختلاف مذاهبه، والدولة المسلمة هي المسؤولة الأولى عن رعاية هؤلاء الأطفال، وتكليف من يقوم بشؤونهم والشفقة عليهم، وتولي جميع أمورهم، والوفاء بكل حاجاتهم من المأكل والمشرب، والملبس والنوم، والغطاء والدواء، والصحة والتعليم والتربية، حسب المتبع في البلد، وعلى الدولة توفير كل ما يلزم لذلك من مال، وقد يعتبره بعض مفسري القرآن داخلًا فيمن سمَّاهم القرآن «ابن السبيل».

الطفولة مرحلة الضعف:

وهذا كله جزء من عناية الإسلام بـ «الطفولة» وهي المرحلة الأولى في تكوين الإنسان، ضمن المراحل الثلاث، التي حدثنا عنها القرآن حيث قال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [الروم: ٥٤].

فهذه المرحلة الأولى هي مرحلة الضعف البشري التي يبدأ بها الإنسان، ثم تُثنّي مرحلة القوة، وهي الشباب، أوسط المراحل، ثم تنتهي بمرحلة الهرم والشيخوخة.

وقد طلب الإسلام منا أن نُعنى بالإنسان عناية خاصة في مرحلتي ضعفه: طفولته وشيخوخته، وأن نرحم هذا الضعف، ونراعي ما يتطلبه منا من عناية ورعاية، فقد قال رسول الله ﷺ: «ليس منَّا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا»[1].

وعن أبي موسى ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «إن من إجلال الله: إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط»[2].

وعن كعب بن عُجْرَة قال: مرَّ على النبي ﷺ رجل فرأى أصحاب رسول الله ﷺ من جَلَده ونشاطه، فقالوا: يا رسول الله، لو كان هذا في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن كان خرج يسعى على ولده صغارًا فهو سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان يسعى على نفسه يعفُّها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان»[3].

---

(١) رواه أحمد (٦٧٣٣) وقال مخرِّجوه: حديث صحيح، وأبو داود في الأدب (٤٩٤٣)، والترمذي في البر والصلة (١٩٢٠)، عن عبد الله بن عمرو.

(٢) رواه أبو داود في الأدب (٤٨٤٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٥٧)، وحسّن إسناده النووي في رياض الصالحين (٣٥٤)، والعراقي في تخريج الإحياء (١٨٧٦)، وابن حجر في التلخيص الحبير (٢٤٦٠)، وحسَّنه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٢٧٤).

(٣) رواه الطبراني في الصغير (٢/ ١٤٨)، والأوسط (٧/ ٥٦)، والكبير (١٩/ ١٢٩)، عن كعب بن عُجْرة، وقال المنذري في الترغيب: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح (٢/ ٣٣٥). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٥٩٦): رواه الطبراني في الثلاثة (أي معاجمه الثلاثة) ورجال الكبير رجال الصحيح.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝١٧﴾ [البلد: ١٧]. وعلى الإنسان المسلم أن يتخلَّق بخُلُق الله الرحمن الرحيم، الذي يتجلَّى برحمته على عباده جميعًا، مؤمنهم وكافرهم، برِّهم وفاجرهم، فهو يُطلع شمسه على الجميع، ويظهر قمره ونجومه للجميع، ويخرج زرعه للجميع، ويسقي بمائه الجميع، ولذا جاء في الحديث الصحيح: «الرَّاحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السَّماء»(١).

أ- الأدب مع اليتيم:

الرحمة باليتيم:

ومن هنا كانت العناية بشأن اليتيم، والرحمة التي وجهها الإسلام إلى هذا الصنف من الناس، الذي عرفوا بهذا الاسم «اليتامى».

واليتيم هو: كل من مات أبوه، وهو صغير. وحد الصغر: ما قبل البلوغ.

والبلوغ الشرعي له علامة يعرف بها عند الذكور وعند الإناث، فأما عند الذكور، فيعرف بإنزال المنيّ، وذلك يعرف بالاحتلام. وأما الأنثى، فيعرف بلوغها بنزول دم الحيض منها، وهو ما يعرف باسم الدورة الشهرية للمرأة. ويبقى في العادة ثلاثة أيام أو أكثر أو أقل، ثم تطهر.

وإن لم يكن احتلام ولا حيض، فهناك علامة أخرى للجنسين من الذكور والإناث، وهي البلوغ بالسن، وهو خمسة عشر عامًا. وقيل أكثر من ذلك.

---

(١) رواه أحمد (٦٤٩٤) وقال مخرجوه: صحيح لغيره، وأبو داود في الأدب (٤٩٤١)، والترمذي في البر والصلة (١٩٢٤) وقال: حسن صحيح، والحاكم في البر والصلة (٤/ ١٥٩) وقال: بعد أن ذكره مع أحاديث عدة في الباب: وهذه الأحاديث كلها صحيحة، ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في الصحيحة (٩٢٥)، عن عبد الله بن عمرو.

فمن مات أبوه قبل البلوغ، أي قبل خمسة عشر عامًا في الغالب، فهو يتيم، أما إذا مات بعد البلوغ فلا يعد يتيمًا شرعًا.

وقد ولد نبينا محمد يتيمًا، فقد مات أبوه، وهو في بطن أمه. قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۞﴾ [الضحى:٦].

وقد شاء الله أن يموت أبي وأنا في الثانية من عمري، لأعيش يتيمًا، ويكفلني عمي أحمد، فكان هو وزوجته وأولاده بمثابة أبوة جديدة، رحم الله الجميع.

يتامى وآباؤهم أحياء:

على أن من الحكماء من رأوا أن هناك يتامى في الواقع، يشعرون شعورَ اليتامى، ويفكرون تفكير اليتامى، ولهم آباء وأمهات أحياء يرزقون، ولكنهم للأسف مشغولون عن أولادهم بأنفسهم وأهوائهم ومصالحهم، الأب مشغول بعمله وماله وأصدقائه- وربما صديقاته- والأم مشغولة بزينتها وأنوثتها وصديقاتها وأهوائها، أما أولادهم فهيهات أن يفكِّروا في أمورهم، أو يُعْنَوا بشأنهم، أو بحلِّ مشكلاتهم، وهؤلاء هم الذين قال عنهم أمير شعراء العرب أحمد شوقي:

ليس اليتيم من انتهى أبواه من	هم الحياة وخلفاه ذليلا
فأصاب بالدنيا الحكيمة منهما	وبحسن تربية الزمان بديلا
إن اليتيم هو الذى تلقى له	أمًّا تخلت أو أبًا مشغولا!

إكرام اليتيم:

ومن هنا جاءت آية الحقوق العشرة بإكرام اليتامى والإحسان إليهم، والعطف عليهم، وتوفير كل ما يحتاجونه من الحاجات المادية والمعنوية، حسب أعمارهم، وحسب حاجات أجسادهم، وحسب مقتضيات عقولهم، وما تفرضه

بيتهم ومجتمعهم، كما نهى عن قهر اليتيم ودعّه. قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩﴾ [الضحى:٩]. والقهر عملية تؤثّر في النفس والشخصية، والمقصود من ذلك: الحفاظ على نفسية اليتيم، واستقامتها وتوازنها، وسلامة عواطفه من الانحراف.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ۝٢﴾ [الماعون: ١ - ٢]. الذي يدُعّ اليتيم هو: الذي يدفعه بعنف وقسوة، ولا يعامله برفق الأبوة، وحنان الوالدية، كأن القرآن يقول: هل تريد أن تعرف الكافر الذي يجحد يوم القيامة والحساب؟ ذلك هو صاحب القلب القاسي على الناس، الذي تتمثّل قسوته حين يدعّ اليتيم، ويدفعه بشدة وصلافة، غير مبالٍ بما ينال من إنسانيته ورقته.

ويصف القرآن المجتمع الجاهلي وأهله، فيقول لهم: ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ۝١٨﴾. [الفجر: ١٧ - ١٨]. فإن ظاهر الجاهلية الجهلاء، والضلالة العمياء؛ أنهم لا يكرمون اليتيم، بل يحس اليتيم فيهم أنه مهان، كذلك المسكين بينهم ضائع جائع، لا يهتم بطعامه ولا بشأنه أحد.

حفظ مال اليتيم:

ولقد نظرنا في آيات القرآن التي تناولت أمر اليتامى والعناية بهم، فوجدناها عنيت بأمرين أساسيين يتعلقان بهم:

الأول: يتعلق بشخصيتهم، وأحوالهم النفسية والعاطفية والأخلاقية، وهو ما لحظناه فيما نهى عنه القرآن من قهر اليتيم، ودع اليتيم، وعدم إكرام اليتيم.

الثاني: الأمر بحفظ مال اليتيم، إن كان له مال موروث، فلا يجوز بحال أن يفرَّط في ماله، أو يُضيَّع ويُهمل ولا يثمَّر كما يُثمَّر كلُّ مال له أصحابه، وكذلك لا

يجوز إهمال إعداد اليتيم وتهيئته لأن يحسن استخدام هذا المال، ويحسن تثميره في المستقبل.

ومن هنا جاءت أوامر القرآن تأمر بالمحافظة على مال اليتيم، وبوجوب تثميره وتنميته بأحسن طرق التثمير والتنمية، كما قال تعالى في سورة الأنعام، في الآيات التي سمّاها العلماء «الوصايا العشر»، لأن الله تعالى ختم آياتها بما يدل على ذلك، كقوله ﷻ: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝﴾ [الأنعام:١٥١]، ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝﴾ [الأنعام: ١٥٢]، ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝﴾ [الأنعام: ١٥٣]، قال ﷻ في سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وقال في سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الإسراء:٣٤].

وفي كل من الآيتين نهى الله أولياء اليتامى - والمجتمع كله من ورائهم - أن يقتربوا مجرد اقتراب من أموال اليتامى، إلا بالطريقة التي هي أحسن الطرق للتثمير والتنمية. ومعنى هذا: إذا كان لمال اليتيم هذه القيمة والأهمية، فلا بد له من دراسة، لمعرفة ما هي أحسن الطرق وأولاها لاستغلال هذه الأموال: أهي الزراعة أم الصناعة أم التجارة؟ وأيّ الزراعات أهم؟ وأي الصناعات أولى: الصناعات الثقيلة أم الخفيفة؟ وأي التجارات أولى: التجارة الداخلية أم التجارة الخارجية؟.. إلخ ما هناك.

المهم هنا: أنه لا يجوز أن نلقي هذه الأموال في الأسواق المعرضة للأخطار الشديدة، بل يجب أن تستثمر فيما يدر الربح على اليتيم، وينفع الناس، مع الحفاظ عليها من أخطار السوق وتقلباته.

ويولي القرآن المدني اهتمامًا بالغًا بمال اليتيم، يقول تعالى في سورة النساء: ﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝٢﴾ [النساء: ٢]. ويقول تعالى: ﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ۝٦﴾ [النساء: ٦].

ويأمر الأقارب بل المجتمع بأسره أن يكونوا دائمي التذكر للأيتام الذين حرموا حنان الأب ورعايته وعونه، قال: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ﴾ أي قسمة الميراث ﴿أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ﴾ غير الوارثين ﴿فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٨ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝١٠﴾ [النساء:٨- ١٠].

وفي سورة البقرة يقول تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٢٠﴾ [البقرة: ٢٢٠].

وكل هذه الآيات القرآنية استمرار في النهج الإلهي الكريم، الذي يُولي هؤلاء اليتامى الرعاية التامة لأنفسهم وأموالهم، وأن تُصلح أموالهم على أفضل وجه ممكن، كما يصلح الإنسان ماله وينميه بنفسه بالتي هي أحسن.

وفي هذه الآية يذكر الله تعالى من يقوم على أمر اليتيم بأنه سبحانه يعلم المفسد من المُصلح، ولو شاء سبحانه لكلّفكم من التشريعات والأوامر في التطبيق ما يشق عليكم، ولكنه بكم رؤوف رحيم، يريد بكم اليسر، ولا يريد بكم العسر، فحافظوا على تشريعه، وأطيعوه فيما أمركم به، يكن ذلك خيرًا لكم في ظاهركم وباطنكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

لقد أغفل المسلمون للأسف هذه التعليمات والتوجيهات الربانية، والتي تحفظ على اليتيم تنشئة طيبة صافية، وشخصية رائعة فائقة، وتحفظ عليه أمواله، لئلا يُسرق شيء منها، أو يُقامر بها، أو تدخل في مغامرات الحمقى، بل ينبغي أن تُنمّى، بحيث تُحفظ أصولها، وتنمّى فروعها، وترجى ثمارها، ولا يطمع فيها الطامعون، الذين يسيل لعابهم إلى أموال اليتامى، وتمتد إليها أيديهم بالإثم والعدوان، ليأكلوها سُحتًا، ويتناولوها ظلمًا، فيأكلوا في بطونهم نارًا، وسيصلون في الآخرة سعيرًا.

حقوق اليتامى في الأموال العامة:

وقد بين القرآن الكريم أن الله جعل لليتامى حقًّا في الأموال العامة، التي تتدفق على خزانة المسلمين، كما كان في الدولة الإسلامية الأولى من الأموال التي تأتي من الحروب التي ينتصر فيها المسلمون على المشركين، ويغنمون من أموالهم ما أباح الله لهم، قال تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٤١﴾ [الأنفال:٤١].

وقال تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٧﴾ [الحشر: ٧].

وليس غريبًا من القرآن الكريم أن يضمن لليتامى حقوقهم في أموال الدولة من الغنائم الحربية، ومن أموال الفيء، وبخاصة التي لم تجئ بخيل ولا ركاب، ومن الموارد الأخرى لدولة الإسلام، وخصوصًا أن معظم هؤلاء اليتامى في عصر النبوة وفي عصور الخلفاء الراشدين ومن بعدهم؛ كانوا من أبناء المجاهدين،

الذين بذلوا أموالهم وأنفسهم في سبيل الله، فضحَّوْا بأرواحهم من أجل دعوتهم وعقيدتهم، لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة أعداء الله هي السفلى، فلا يجوز أن يُهمل المجتمع أزواجهم وذريتهم من بعدهم، بل يجب أن يكونوا محل العناية والرعاية والتكريم، وهو ما جاء به الإسلام في قرآنه وسُنة رسوله، وما طبقه الصحابة ومن سار على هديهم من القرون الأولى.

السنة تُعنى بأمور اليتامى:

وممَّا يجب التنبيه عليه: ما جاءت به السنة النبويَّة من عناية باليتامى، فينقل العلماء ما صحَّت به الأحاديث أو حسنت، مما انتقيناه في كتابنا: «المنتقى من الترغيب والترهيب» في فصل: الترغيب في كفالة اليتيم ورحمته، والنفقة عليه، والسعي على الأرملة والمسكين.

من ذلك ما صحَّ عن سهل بن سعد، قال: رسول الله ﷺ: «أنا وكافل اليتيم[١] في الجنة هكذا» وأشار بالسبابة والوسطى، وفرج بينهما[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كافل اليتيم له أو لغيره[٣] أنا وهو كهاتين في الجنة» وأشار مالك بالسبابة والوسطى[٤].

وعن زُرارة بن أبي أوفى عن رجل من قومه يقال له: مالك- أو ابن مالك- سمع النبي ﷺ يقول: «من ضمَّ يتيمًا بين مسلِمَين في طعامه وشرابه حتى يستغني

---

(١) كافل اليتيم: هو القائم بشؤونه الماديَّة والأدبيَّة. واليتيم: من مات أبو قبل أن يبلغ الحلم من ذكر أو أنثى.

(٢) رواه البخاري في الأدب (٦٠٠٥)، وأبو داود في الأدب (٥١٥٠)، والترمذي في البر والصلة (١٩١٨).

(٣) معنى «له أو لغيره»: قريبه، أو أجنبي منه. القريب كأن يكفل ابن أخيه أو ابن ابنه أو ابن أخيه أو ابن عمه أو غيرهم من قرابته. والأجنبي: من لم تكن له به قرابة.

(٤) رواه مسلم في الزهد (٢٩٨٣)، وأحمد (٨٨٨١).

عنه، وجبت له الجنة البتة، ومن أدرك والديه أو أحدهما، ثم لم يبرّهما، دخل النار، فأبعده الله، وأيما مسلم أعتق رقبة مسلمة كانت فكاكه من النار»[1].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول من يفتح باب الجنة، إلا أني أرى امرأة تبادرني، فأقول لها ما لك؟ ومن أنت؟! فتقول: أنا امرأة قعدت على أيتام لي»[2].

وعنه ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله». وأحسبه قال: «وكالقائم لا يفتُر، وكالصائم لا يُفطر»[3].

وفي رواية: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، وكالذي يقوم الليل ويصوم النهار»[4].

ب- أدب التعامل مع المساكين وابن السبيل وما ملكت الأيمان:

تحدثت آية الحقوق العشرة[5]، عن الحق الأول، وهو حق الله تبارك وتعالى، الخالق الرازق، المنعم بالنعم الكبرى، وعن حق الوالدين، وذوي القربى، وعن حق اليتامى، وأتمت الحديث عن باقي هؤلاء الأربعة من المستضعفين، وهم: المساكين وأبناء السبيل وما ملكت الأيمان.

---

(١) رواه أبو يعلى (٩٢٦)، والطبراني (١٩/ ٣٠٠)، وأحمد (١٩٠٢٥) مختصرا، وقال مخرجوه: حديث صحيح لغيره، وحسَّن إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٣٨٣٧)، والهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٥١٦).

(٢) رواه أبو يعلى (٦٦٥١)، وحسن إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٣٨٤٢)، وقال ابن حجر في فتح الباري (١٠/ ٤٣٦): رواته لا بأس بهم، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٥١٩): فيه عبد السلام بن عجلان، وثّقه أبو حاتم وابن حبان، وقال: يخطئ ويخالف، وبقية رجاله ثقات.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠٠٧)، ومسلم في الزهد (٢٩٨٢).

(٤) رواه ابن ماجه في التجارات (٢١٤٠).

(٥) الآية ٣٦ من سورة النساء.

وهم الذين أصابهم الضعف في ناحية من النواحي المهمة في الحياة، فقدوا فيها ركنًا من الأركان، التي لا بد منها للناس، لكي يحيوا حياة طيبة. فمنهم من كان ضعفه بسبب فقد الأب الكافل للأسرة، والمعيل لها، وفق سنن الله، وهو اليتيم الذي تحدثنا عنه قبلُ.

المسكين من فئة الضعفاء الذين يستحقون العناية:

ومنهم: المسكين، الذي كان ضعفه بسبب فقد المال، فلا هو غنيٌّ، ولا هو ذو مِرَّة سويٌّ، بحيث يكون قادرًا على الكسب، على أنه ليس كل من ادعى المسكنة أو تظاهر بالفقر يكون مسكينًا، فكم رأينا من المتسوِّلين من يملكون أرصدة في البنوك، ولكنهم احترفوا السؤال وهم أغنياء. لذلك وجب التحرِّي عند بذل الزكوات والصدقات، ولهذا نبَّه النبي ﷺ على ذلك، فقال: «ليس المسكين الذي يطوف على الناس ترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنًى يُغنيه، ولا يُفطن به، فيُتَصَدَّق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس. اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣]»(١). وفي رواية: «إنما المسكين المتعفِّف»(٢).

فليس هذا تفسيرًا لغويًّا لمعنى المسكين. فالمعنى اللغوي معروف لديهم، وإنما هو من باب: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»(٣).

ولهذا قال الإمام الخطابي: «في الحديث دليل على أن المسكين في الظاهر عندهم والمتعارف لديهم هو السائل الطواف. وإنما نفى ﷺ عنه اسم المسكين؛

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٧٩)، ومسلم (١٠٣٩)، كلاهما في الزكاة، عن أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم في الزكاة (١٠٣٩).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦١١٤)، ومسلم في البر والصلة (٢٦٠٩)، عن أبي هريرة.

لأنه بمسألته تأتيه الكفاية، وقد تأتيه الزيادة عليها، فتزول حاجته، ويسقط عنه اسم المسكنة، وإنما تدوم الحاجة والمسكنة بمن لا يسأل؛ ولا يُفطن له فيعطى»(١).

عناية القرآن بالمساكين:

وقد جاءت الآيات والأحاديث في الحضِّ على إطعام المسكين: قال تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الإسراء: ٢٦]، وقال: ﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ۝ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ۝ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝﴾ [المدثر: ٣٩- ٤٤]، وقال: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝﴾ [الماعون: ١- ٣]، وقال سبحانه في وصف الكافر: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝﴾ [الحاقة: ٣٣- ٣٤]، وقال في ذم المجتمع الجاهلي: ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝﴾ [الفجر:١٨]. أي: لا يحض بعضكم بعضًا على طعام المسكين، وهذا بخلاف مجتمع المؤمنين المتكافلين، الذين يتحاضُّون على طعام المسكين. وهذا من دلائل مشروعية الجمعيات الخيرية، التي تعمل على رعاية ذوي الحاجات، كما أشار لذلك الإمام محمد عبده رحمه الله(٢).

عناية السنة بالفقراء والمساكين وأبناء السبيل:

وقد اهتمت سنة النبي ﷺ بهذه الفئات الضعيفة، فعن أبي سعيد الخدري، أن النبي ﷺ قال: «إن هذا المال خضرة حلوة، فنعم صاحب المسلم ما أعطى منه

(١) معالم السنن (٢/ ٦١).

(٢) ينظر: تفسير جزء عم لمحمد عبده، تفسير سورة الماعون، ص ١٦٢، الجمعية الخيرية الإسلامية، ط: الثالثة، ١٣٤١هـ.

المسكين واليتيم وابن السبيل»[(١)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ بعث معاذًا رضي الله عنه إلى اليمن، فقال: «ادعُهم إلى شهادة ألَّا إله إلا الله، وأني رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك، فأعلِمْهم أن الله قد افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك، فأعلِمْهم أن الله افترض عليهم صدقةً في أموالهم، تؤخذ من أغنيائهم، وترد على فقرائهم»[(٢)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصبح منكم اليوم صائما؟» قال أبو بكر: أنا. قال: «فمن تبع منكم اليوم جنازة؟» قال أبو بكر: أنا. قال: «فمن أطعم منكم اليوم مسكينا؟» قال أبو بكر: أنا. قال: «فمن عاد منكم اليوم مريضًا؟» قال أبو بكر: أنا. فقال رسول الله ﷺ: «ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة»[(٣)].

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «جاءتني مسكينةٌ تحمل ابنتين لها، فأطعمتُها ثلاث تمرات، فأعطتْ كلَّ واحدة منهما تمرة، ورفعت إلى فيها تمرة لتأكلها، فاستطعمتها ابنتاها، فشقَّت التمرة، التي كانت تريد أن تأكلها بينهما، فأعجبني شأنها، فذكرت الذي صنعت لرسول الله ﷺ، فقال: «إن الله قد أوجب لها بها الجنة، أو أعتقها بها من النار»[(٤)].

لا يُعطى من سهم الفقراء والمساكين غنيٌّ:

والمتفق عليه بين الفقهاء: أنه لا يصرف في الزكاة من سهم الفقراء والمساكين إلى غني؛ لأن الله تعالى جعلها للفقراء والمساكين، والغني غير داخل فيهم، وأخبر

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٤٢)، ومسلم في الزكاة (١٠٥٢).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الزكاة (١٣٩٥)، ومسلم في الإيمان (١٩).

(٣) رواه مسلم في الزكاة (١٠٢٨)، والنسائي في الكبرى في مناقب الصحابة (٨٠٥٣).

(٤) رواه مسلم في البر والصلة (٢٦٣٠)، وأحمد (٢٤٦١١).

النبي ﷺ أنها «تؤخذ من أغنيائهم لترد على فقرائهم»[1]. وقال: «لا تحل الصدقة لغني»[2].

ولأن أخذ الغني منها يمنع وصولها إلى أهلها، ويخلُّ بحكمة وجوبها وهو إغناء الفقراء بها[3].

وحدُّ الغِنَى هو ما يحصل به الكفاية، فإذا لم يكن محتاجًا حرُمت عليه الصدقة، وإن لم يملك شيئًا، وإن كان محتاجًا حلّت له الصدقة، وإن ملك نصابًا.

الفقير القادر على الكسب:

وإذا كان مدار الاستحقاق هو حاجة الفرد إلى كفاية نفسه ومن يعوله، فهل يعطى المحتاج وإن كان متبطلًا يعيش عالة على المجتمع، ويحيا على الصدقات والإعانات، وهو مع ذلك قوي البنيان، قادر على الكسب وإغناء نفسه بكسبه وعمله؟!

إن الذي أرجِّحه في ذلك هو ما ذهب إليه الشافعية والحنابلة حيث قالوا: لا يجوز صرف الزكاة إلى غني من سهم الفقراء والمساكين، ولا إلى قادر على كسبٍ يليق به، يحصل له منه كفايته، وكفاية عياله[4].

ابن السبيل:

ومن هؤلاء الضعفاء الذين اعتنى بهم الإسلام: ابن السبيل، الذي لا يجد له منزلًا في الناس يؤويه، وينتمي إليه، ولذلك ينتمي وينتسب إلى السبيل، وهو

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الزكاة (١٤٩٦)، ومسلم في الإيمان (١٩)، عن ابن عباس.

(٢) رواه أحمد (٦٥٣٠) وقال مخرجوه: إسناده قوي، وأبو داود في الزكاة (١٦٣٤)، والترمذي في الزكاة (٦٥٢) وقال: حسن، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٤٤٤)، عن عبد الله بن عمرو.

(٣) المغني لابن قدامة (٢/ ٤٩٣).

(٤) المجموع: (٦/ ٢٢٨).

الطريق، فهو نسبه وحسبه، كأن الطريق أمه وأبوه! وقال ابن زيد: «ابن السبيل المسافر، غنيًّا كان أو فقيرًا، إذا أصيبت نفقته أو فقدت، أو أصابها شيء، أو لم يكن معه شيء، فحقه واجب»[1].

وقد يكون له منزل، ولكن طرد منه، وأخرج من داره بغير حق، إلا أن يقول: ربي الله. أخرج وأبعد عن داره، وربما عن وطنه كله، كما رأينا كثيرًا من أبناء فلسطين، ومن بلاد إسلامية شتى، مطرودين ومشردين في أنحاء العالم.

عناية القرآن بابن السبيل:

وقد ذكر القرآن الكريم هذا اللفظ «ابن السبيل» في معرض العطف عليه والإحسان إليه ثماني مرات، ففي القرآن المكي يقول الله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝٢٦﴾ [الإسراء: ٢٦].

وفي سورة الروم: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٣٨﴾ [الروم: ٣٨].

وفي القرآن المدني يجعله الله تعالى من مصارف الإنفاق- فرضًا كان أو تطوعًا- قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ﴾ [البقرة: ٢١٥].

ويأمر بالإحسان إليه في آية الحقوق العشرة: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ﴾ [النساء ٣٦].

ويجعل له حظًّا في بيت مال المسلمين من خمس الغنائم: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم

(١) رواه الطبري في تفسيره (١٤/ ٣٢١).

مِن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١].

كما يجعل له حظًّا من الفيء: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝﴾ [الحشر: ٧].

ويجعل له سهمًا من الزكاة، كما تدل عليه آية: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ﴾ [التوبة: ٦٠].

وحظًّا آخر بعد الزكاة في مال الأفراد، ويجعل ذلك من عناصر البر والتقوى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ١٧٧]. فهو حق بعد الزكاة، وفي المال حق سوى الزكاة، كما أثبتنا ذلك في كتابنا: «فقه الزكاة»[1].

إن عناية الإسلام بالمسافرين الغرباء والمنقطعين لَهي عناية فذَّة، لم يُعرف لها نظير في نظام من الأنظمة، أو شريعة من الشرائع. وهي لون من ألوان التكافل الاجتماعي فريد في بابه. فلم يكتفِ النظام الإسلامي بسدِّ الحاجات الدائمة للمواطنين في دولته، بل زاد على ذلك برعاية الحاجات الطارئة التي تعرض للناس لأسباب وظروف شتى كالسياحة والضرب في الأرض. وخصوصًا في عصور لم تكن في طرق المسافرين بها فنادق أو مطاعم أو محطات مُعَدة للاستراحة كما في عصرنا.

---

(١) ينظر كتابنا: فقه الزكاة ص ٩٧١ - ١٠٠٢، مكتبة وهبة، الطبعة الخامسة والعشرون، سنة ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.

وفي الواقع العملي نجد ابن سعد يروي لنا: أن عمر بن الخطاب ﷺ اتخذ في عهده دارًا خاصة أطلق عليها «دار الدقيق»، وذلك أنه جعل فيها الدقيق والسويق والتمر والزبيب وما يُحتاج إليه، يعين به المنقطع به، والضيف ينزل بعمر. ووضع عمر في طريق السبل ما بين مكة والمدينة ما يصلح من ينقطع به، ويحمله من ماء إلى ماء[(١)].

وفي عهد خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز يحدثنا أبو عبيد في كتابه «الأموال»: أنه أمر الإمام ابن شهاب الزهري أن يكتب له السُنَّة في مواضع الصدقة. أي ما يحفظه من سُنَّة الرسول أو سُنَّة الراشدين في المواضع التي تُصرف فيها الصدقة، فكتب له كتابًا مطوَّلًا، قسَّمها فيه سهمًا سهمًا. ومما جاء في الكتاب عن ابن السبيل قوله: وسهم ابن السبيل يُقسم لكل طريق على قدر مَن يسلكها ويمرُّ بها من الناس، لكل رجل من ابن السبيل، ليس له مأوًى ولا أهل يأوي إليهم، فيطعم حتى يجد منزلًا، أو يقضي حاجته. ويجعل في منازل معلومة على أيدي أمناء، لا يمر بهم ابن سبيل له حاجة، إلا آووه وأطعموه، وعلفوا دابته، حتى ينفد ما بأيديهم، إن شاء الله[(٢)].

ويرى العلامة الشيخ رشيد رضا أنه يدخل في أبناء السبيل الأطفال الذين يُلْقَون في الطرق، وعند أبواب المساجد، ليتلقَّاهم المسلمون، ويعملوا على تربيتهم التربية المنشودة لأبناء المسلمين، فإنَّ هذا الطفل لا ذنب عليه، ولا تزر وازرة وزر أخرى، وكفالته في عنق المجتمع المسلم[(٣)].

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/ ٢١٤)، ط العلمية.

(٢) رواه أبو عبيد في الأموال (١٨٥٠).

(٣) تفسير المنار (٥/ ٧٦).

ما ملكت الأيمان:

ويبقى آخر أصحاب الحقوق العشرة، وهو ما ملكت الأيمان، ويعبِّر به القرآن عن «الرقيق»، الذين كان وجودهم كثيفًا في الأزمنة قبل الإسلام، حيث كان للرق أسباب كثيرة، منها: أن يبيع الإنسان ولده قسرًا، أو بنته، أو زوجته، أو نفسه، في دَيْن عليه، لا يستطيع أن يرده لمن يستحقه. أو يرتكب جريمة السرقة، فيسترق جزاء سرقته، كما قصَّ لنا القرآن في قصة يوسف، حين ثبتت السرقة على بنيامين أخيه، إذ سرق صُواع الملك: ﴿قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [يوسف:٧٤-٧٥].

وكذلك كان يُسْتَرَقُّ من يؤْسر في أي حرب بين فئتين أو قبيلتين أو دولتين، شرعية أو غير شرعية، بل مَن يخطفه الخاطفون من اللصوص وقطاع الطريق، أو يلتقطونه كما التقط السيارة سيدنا يوسف، فباعوه بثمن بخس دراهم معدودة، وكانوا فيه من الزاهدين.

كل هذه وغيرها كانت أسبابًا للرق، فلما جاء الإسلام ضيَّق أبوابه، بل أغلقها كلها، ولم يُبق إلا بابًا واحدًا، هو مَنْ يؤسر في حرب مشروعة، ولا يستطيع أن يفدي نفسه، ولا يجد من يدفع الفدية عنه، فهنا يسترقه آسره، ليستخدمه لنفسه، أو يبيعه لغيره، وخصوصًا إذا كان الخصوم يعملون ذلك في أسرانا، فهو معاملة بالمثل.

وقد فتح الإسلام أبواب تحرير الرقيق بطرق شتى مفروضة ومندوبة، ورغَّب في تحرير الرقاب، حتى جعل في مال الزكاة السنوي مصرفًا دائمًا لتحرير الرقيق (وفي الرقاب)، فإذا عمَّ الرخاء، وقلَّ الفقراء، كما حدث في عهد عمر بن عبد العزيز، اتُّخذت أموال الزكاة كلها لتحرير الرقيق، حين استغنى الناس في دار الإسلام، فاتجهوا بالزكاة لتحرير الرقيق.

سبب العناية بما ملكت الأيمان:

قال العلامة الحافظ ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾: «وصية بالأرقاء؛ لأن الرقيق ضعيف الحيلة، أسير في أيدي الناس، ولهذا ثبت أن رسول الله ﷺ جعل يوصي أمته في مرض الموت، يقول: «الصلاة الصلاة، وما ملكت أيمانكم». فجعل يُرَدِّدُها حتى ما يُفيض[1] بها لسانه[2].

وروى الإمام أحمد عن المقدام بن معديكرب، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أطعمتَ نفسك، فهو لك صدقة، وما أطعمتَ ولدك، فهو لك صدقة، وما أطعمتَ زوجتك، فهو لك صدقة، وما أطعمتَ خادمك، فهو لك صدقة»[3].

وعن عبد الله بن عمرو أنه قال لقهرمان له: أعطيت الرقيق قُوتهم؟ قال: لا. قال: فانطلق فأعطهم، قال رسول الله ﷺ: «كفى بالمرء إثما أن يحبس عمن يملك قوته»[4].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «للمملوك طعامه وكسوته، ولا يكلف من العمل إلا ما يُطيق»[5]. يعني لا يكلفه فوق طاقته.

وعنه عن النبي ﷺ قال: «إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه، فإن لم يجلسه معه،

(١) معنى: حتى ما يفيض بها لسانه: أي ما يجري ولا يسيل بهذه الكلمة لسانه من فاض الماء إذا سال وجرى حتى لم يقدر على الإفصاح بهذه الكلمة.

(٢) رواه أحمد (٢٦٦٨٤) وقال مخرجوه: صحيح لغيره، وابن ماجه في الجنائز (١٦٢٥)، والنسائي في الكبري في وفاة النبي (٧٠٦١)، عن أم سلمة.

(٣) رواه أحمد (١٧١٨٠) وقال مخرجوه: حديث حسن، والنسائي في الكبرى في عشرة النساء (٩١٤١)، والبخاري في الأدب المفرد (٨٢)، وصحح إسناده ابن كثير في التفسير (٢/ ٣٠١).

(٤) رواه مسلم في الزكاة (٩٩٦).

(٥) رواه مسلم في الأيمان (١٦٦٢)، وأحمد (٧٣٦٤).

فليناوله لُقمة أو لقمتين، أو أُكلة أو أُكلتين، فإنه وَلِيَ علاجه»[1].

وعن أبي ذر ﷺ، عن النبي ﷺ، قال: «إخوانكم خولُكم[2]، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده، فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلِّفوهم ما يغلبهم، فإن كلَّفتموهم فأعينوهم»[3].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ۝﴾ [النساء:٣٦] أي: مختالًا في نفسه، معجبًا متكبِّرًا، فخورًا على الناس، يرى أنه خير منهم، فهو في نفسه كبير، وهو عند الله حقير، وعند الناس بغيض»[4].

وقال الإمام الرازي في تفسير الآية نفسها: «واعلم أن الإحسان إلى المماليك طاعة عظيمة، روى عمر بن الخطاب ﷺ أن النبي ﷺ قال: «من ابتاع شيئًا من الخدم، فلم توافق شيمته شيمته، فليبع، وليشتر حتى توافق شيمته شيمته، فإن للناس شيمًا، ولا تعذِّبوا عباد الله»[5].

وروي أنه عليه الصلاة والسلام كان آخر كلامه: «الصلاةَ، وما ملكت أيمانكم»[6]. وروي أنه كان رجل بالمدينة يضرب عبده، فيقول العبد: أعوذ بالله. ويستمعه الرسول عليه السلام، والسيد كان يزيده ضربًا، فطلع الرسول ﷺ فقال: أعوذ برسول الله. فتركه، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله كان أحق أن يُجار عائذه». قال:

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في العتق (٢٥٥٧)، ومسلم في الأيمان (١٦٦٣). ومعنى ولي علاجه: أي تحمل مشقة حرّه ودخانه عند الطبخ وشقّت به نفسه وشم رائحته.

(٢) الخول بفتح الخاء المعجمة والواو: حشم الرجل وأتباعه. وهو مأخوذ من (التخويل): التمليك. وقيل: من الرعاية. قاله ابن الأثير.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٣٠)، ومسلم (١٦٦١) كلاهما في الإيمان.

(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٦٤)، ط العلمية.

(٥) رواه الطبراني في مسند الشاميين (١٥٠٠).

(٦) سبق تخريجه .

يا رسول الله، فإنه حرٌّ لوجه الله. فقال النبي عليه الصلاة والسلام : «والذي نفس محمد بيده لو لم تقلها لدافع وجهك سفع النار»[1].

واعلم أن الإحسان إليهم من وجوه:

أحدها: ألَّا يكلفهم ما لا طاقة لهم به.

وثانيها: ألَّا يؤذيهم بالكلام الخشن، بل يعاشرهم معاشرة حسنة. وثالثها: أن يعطيهم من الطعام والكسوة ما يحتاجون إليه.

وكانوا في الجاهلية يسيئون إلى المملوك، فيكلِّفون الإماء البغاء، وهو الكسب بفروجهن وبضوعهن.

وقال بعضهم: كل حيوان فهو مملوك، والإحسان إلى الكل بما يليق به طاعة عظيمة.

واعلم أن ذكر اليمين تأكيد، وهو كما يقال: مشت رجلُك، وأخذت يدُك. قال عليه الصلاة والسلام: «على اليد ما أخذت»[2]. وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا﴾ [يس: ٧١].

القرآن ينهى عن الفخر والاختيال على الضعفاء من اليتامى والمساكين وأبناء السبيل وما ملكت الأيمان:

ولما ذكر تعالى هذه الأصناف قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ۝﴾ [النساء: ٣٦] . والمختال ذو الخيلاء والكبر. قال ابن عباس: يريد بالمختال: العظيم في نفسه الذي لا يقوم بحقوق أحد.

(١) رواه عبد الرزاق في العقول (١٧٩٥٧)، عن الحسن البصري.

(٢) رواه أحمد (٢٠٠٨٦) وقال مخرجوه: حسن لغيره، وأبو داود في الإجارة (٣٥٦١)، والترمذي في البيوع (١٢٦٦) وقال: حديث حسن، عن سمرة بن جندب.

قال الزجّاج: وإنما ذكر الاختيال هاهنا؛ لأن المختال يأنف من أقاربه إذا كانوا فقراء، ومن جيرانه إذا كانوا ضعفاء، فلا يحسن عشرتهم[(١)] . . .

ومعنى الفخر: التطاول، والفَخُور الذي يعدد مناقبه كِبْرًا وتطاولًا.

قال ابن عباس: هو الذي يفخر على عباد الله بما أعطاه الله من أنواع نعمه[(٢)].

وإنما خص الله تعالى هذين الوصفين بالذم في هذا الموضع؛ لأن المختال هو المتكبِّر، وكل من كان متكبِّرًا، فإنه قلَّما يقوم برعاية الحقوق، ثم أضاف إليه ذم الفخور، لئلا يُقدِم على رعاية هذه الحقوق لأجل الرياء والسمعة، بل لمحض أمر الله تعالى»[(٣)].

وقال الإمام أبو حيان في «البحر المحيط»:

«﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ۝٣٦﴾، نفى تعالى محبته عمن اتصف بهاتين الصفتين: الاختيال وهو التكبر. والفخر: هو عدُّ المناقب على سبيل التطاول بها، والتعاظم على الناس؛ لأن من اتصف بهاتين الصفتين حملتاه على الإخلال بمن ذكر في الآية، ممن يكون لهم حاجة إليه.

وقال أبو رجاء الهروي: لا تجد سيئ المَلْكة[(٤)] إلا وجدته مختالًا فخورًا، ولا عاقًّا إلا وجدته جبارًا شقيًّا.

قال الزمخشري: و«المختال»: التيَّاه الجهول الذي يتكبَّر عن إكرام أقاربه

---

(١) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٢/ ٥١)، عالم الكتب - بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي.

(٢) ذكره الواحدي في التفسير البسيط (٦/ ٥٠٨)، نشر عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام محمد بن سعود، ط الأولى، ١٤٣٠ هـ

(٣) تفسير الرازي (١٠/ ٧٧- ٧٨)، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ

(٤) أي: الذي يسيء لمن يملكهم من الأرقَّاء.

وأصحابه ومماليكه، فلا يحتفي بهم، ولا يلتفت إليهم[1].

وقال غيره: ذكر تعالى الاختيال؛ لأن المختال يأنف من ذوي قرابته إذا كانوا فقراء، ومن جيرانه إذا كانوا ضعفاء، ومن الأيتام لاستضعافهم، ومن المساكين لاحتقارهم، ومن ابن السبيل لبعده عن أهله وماله، ومن مماليكه لأسرهم في يده. انتهى.

وتضافرت النقول على أن ذكر هاتين الصفتين (الاختيال والفخر) في آخر الآية إنما جاء تنبيهًا على أن من اتصف بالخيلاء والفخر يأنف من الإحسان للأصناف المذكورين، وأن الحامل له على ذلك اتصافه بتينك الصفتين»[2].

(١) تفسير الزمخشري (١/ ٥٠٩)، نشر دار الكتاب العربي - بيروت، ط الثالثة - ١٤٠٧هـ

(٢) البحر المحيط، لأبي حيان (٣/ ٦٣٣ - ٦٣٤)، دار الفكر - بيروت.

الفصل الثاني

أدب المسلم مع الجار

علاقةُ الجِوار لها منزلةٌ وأهميَّة:

من العلاقات الإنسانيَّة الأساسيَّة التي يهتمُّ الإسلامُ بها: علاقةُ الجِوار بين الناس الذين تجمعهم المساكنُ العائلية، في حارة واحدة أو حيٍّ واحد، يلاصق بعضهم بعضًا، ويحيط بعضُهم ببعض، ويعرِف بعضُهم بعضًا، معرفةَ معاشرةٍ ومداومة، ليستْ معرفةَ شهرٍ أو شهرين، أو سَنَة أو سنتين، بل هي معرفة العُمر كلِّه.

لذلك تجد أهلَ الحارات والأحياء الصغيرة، يعرف بعضُهم بعضًا، صغارُهم وكبارهم، ورجالُهم ونساؤهم، ومثقفوهم وأمِّيُّوهم، يُوقِّر الصغيرُ الكبيرَ، ويرحم الكبيرُ الصغير، ويعلِّم العالمُ الجاهلَ، ويساعد القويُّ الضعيفَ، ويتعاونون على البر والتقوى، ولا يتعاونون على الإثم والعدوان.

ولهذا وجدْنا الأمثال السائرة تقول: «الجارَ قبل الدار، والرفيق قبل الطريق». ولهذا ذكر القرآنُ أن امرأةَ فرعون التي ضربها الله مثلًا للذين آمنوا قالتْ: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾ [التحريم:١١]. قدمت في دعائها قولها: ﴿عِندَكَ﴾. على قولها: ﴿فِي ٱلْجَنَّةِ﴾؛ لأنها تطلب الجار قبل الدار، ولذا قال العرب: حُسْن الجِوار عِمارة الديار. وقالوا: مَن آذى جاره، أورثه اللهُ ديارَه.

ولا عجبَ أنْ وجدنا القرآن الكريم يوصي كلَّ التوصية بالجار ذي القربى، والجار الجُنُب، أي: البعيد، كما في «آية الحقوق العشرة» من سورة النساء، وهي قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ۝﴾ [النساء:٣٦].

الجار شريك في الوصية بالإحسان مع الوالدين وذوي القربى وبقية الأصناف:

وكل جارٍ له على جاره حقُّ الإكرام والإحسان، الذي طلبه القرآن للوالدين وذوي القربى واليتامى والمساكين في آية الحقوق العشرة. وقد جمَعَ الله فيها أربعة أنواع من أصحاب الحقوق.

أولها: الحق الأعظم، وهو حق الله تعالى، الرب الأعلى، الذي خلق فسوّى، والذي قدَّر فهدى، والذي أنعم على الإنسان بالنعم الكبرى: نعمة الوجود، ونعمة الحياة، ونعمة العقل، ونعمة الهداية، ونعمة خلق النعم الكبرى في السموات والأرض، وتسخيرها لمنفعة الإنسان، من النباتات والأنعام والطيور والأسماك، وكل ما في الكون، ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ﴾ [إبراهيم:٣٤].

ثانيها: حق مَن بينه وبين الإنسان قرابةٌ، وخصَّ منهم الوالدين بالذكر، لامتيازهما عن سائر الأقارب؛ فهما السبب في وجود الولد، وهما من قدَّم تربيته وتأديبه وغير ذلك، وقَرَنَ بالوالدين ذوي القربى.

الثالث: حق مَن هو ضعيف محتاج إلى الإحسان، وهو نوعان: مَن هو محتاج لضعف بدنه، وهو اليتيم، ومَن هو محتاج لقلّة ماله أصلًا، وهو المسكين، أو لسببٍ طارئ، وهو ابنُ السبيل، وأضعف هؤلاء ما ملكتْ الأيمان.

والرابع: مَن له حقُّ القُرْب والمخالطة.

وجعلهم ثلاثةَ أنواع: الجار ذا القربى، والجار الجنب، والصاحب بالجنب.

معنى: الجار ذي القربي والجار الجنب:

فالجارُ ذو القربى: هو الذي بيْنه وبين جاره نوعٌ مِن القرابة مِن أولي الأرحام، كأنْ يكون جارًا وأبًا أو جدًّا، أو ابنًا أو ابن ابنٍ، أو عمًّا أو خالًا، أو عمَّةً أو خالة، أو ابنَ عمٍ أو ابن عمة، أو خالًا أو خالةً، أو مِن الأصْهار، كأنْ يكون أبًا زوجِك أو أمَّها، أو ابنَها أو بنتها، أو أخاها أو أختَها، وما شابه ذلك. فهذا كلُّه يدخل في الجار ذي القربى، وكُلَّما اشتدتْ قرابتُه، زادتْ لُحْمته، وازداد حقُّه، وتضاعف استحقاقه، وضوعفت له المعونة.

ومِن العلماء مَن قال: الجارُ ذو القربى: هو القريب الجِوار الملاصق. والجار الجنب: البعيد الجِوار. وهذا لأن القُرْبَ المكاني والملاصقة لها حقوقُها من غير شك، وفي صحيح البخاري عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله، إني لي جارَيْن، فإلى أيِّهما أُهدي؟ قال: «إلى أقربِهما مِنكِ بابًا»[1].

وقال بعض العلماء: أهل القرية الواحدة كلُّهم جيران بعضُهم لبعض، واستدلَّ بقوله تعالى عن المرجفين في المدينة: ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٠﴾ [الأحزاب:٦٠]. وقال في «الفتح» في حدِّ جِوار المسجد: «عن علي ﷺ: من سمع النداء فهو جار»[2].

وقيل: من صلى معك صلاة الصبح في المسجد، فهو جار.

---

(١) رواه البخاري في الشفعة (٢٢٥٩)، وأحمد (٢٥٤٢٣).

(٢) فتح الباري (١٠/ ٤٤٧).

والمعنى أن من سمع أذان المسجد، بالصوت الطبيعي من غير مُكَبِّر، فهو جار المسجد.

وعن عائشة: حدُّ الجِوار أربعون دارًا من كل جانب.

وعن الأوزاعي مثله، وروى البخاري في الأدب المفرد مثله عن الحسن[1]»[2].

وهو ما قالتْ به طائفة من السلف: حدُّ الجِوار أربعون دارًا، وفُسرت بأنه: مِن كل جانب.

والجار الجُنُب: هو الجار البعيد عن جاره من ناحية النَّسَب والقُربَى، أي: الأجنبيُّ، وإنَّما كلُّ الذي يربطه بصاحبه هو حقُّ الجِوار الخالص، الذي وثَّق عروته الإسلامُ، ومَن قال: الجار ذو القربى هو الجار الملاصق. قال: الجار الجنب هو الجار البعيد.

خيار أهل الجاهلية كانوا يرعَوْنَ حقَّ الجِوار:

ولا شك أنَّ للجيران حقوقًا رعاها العرب، وخصوصًا الخيِّرِينَ منهم، حتى في جاهليتهم، انظرْ إلى أحدهم، وهو الشاعر والفارس العربي المعروف بنخوته وشهامته ومروءته قبل الإسلام، عنترة العبسيُّ، الذي قال مفتخرا:

أَغشى فَتاةَ الحَيِّ عِندَ حَليلِها ... وإِذا غَزا في الجَيشِ لا أَغشاها

وأَغَضُّ طَرفي ما بَدَت لي جارَتي ... حَتّى يُواريَ جارَتي مَأواها

فلمَّا جاء الإسلام، أعلى من هذا الأمر، ووسَّع حقوقَ الجار، وأطال الحديث عنها، كما يعرف ذلك كل من طالع ما جاء في القرآن والسنة، وكُتب التفسير والحديث، والفقه والآداب الإسلامية.

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (١٠٩)، وحسن إسناده الألباني في صحيح الأدب المفرد (٨٠).
(٢) فتح الباري (١٠/ ٤٤٧).

إكرام الجار واجب:

لقد اهتم الإسلام بالجار، وأدب الجِوار، وبالجيران الذين حول الإنسان مِن كل ناحية، سواء أكانوا أقارب أم أباعد، مسلمين أم غير مسلمين، فحتى لو كانوا مِن غير المسلمين ممَّن يسميهم الفقهاءُ: أهلَ الذِّمَّة أو معاهدين، فلا بد من الإحسان إليهم، وإيفائهم حقوقَهم، فهذا ما يدعو إليه الإسلام، وما تؤكِّده وصاياه، وقد قال تعالى في المُسالِمِينَ مِن غير المسلمين: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ [الممتحنة:٨].

وقال ﷺ: «مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليكرمْ جارَه»[(١)]. متفق عليه.

وفي بعض ألفاظ الحديث: «فلا يؤذِ جاره»[(٢)].

وهذه الرواية فيها معنى الشرح لبعض الإكرام؛ إذ معناه: أن توسِّع له، ولا تضيِّق عليه، وأن تتعامل معه ببَسْطِ الوجه، وحُسْن الخُلُق، وابتسام الثغر، والمعاونة عند الحاجة، والتيسير في ساعة العُسْرة، والتفريج عند وقوع الكُرْبة، والمساهلة عند إلمام الشدة، فهذا كلُّه مِن معنى كلمة الإكرام، فمعنى إكرامه: أن توفِّر له الكرامة في نفسه وأهله ومَن يهمُّه.

وكلُّ جارٍ يعتبر أمينًا على جاره، وحارسًا له، ومِعْوانًا له على كل خير ينشُده، ومرصادًا لردِّ كلِّ شرٍّ عنه، ومِن هنا جعل الشرع للجار حقًّا في شراء بيت جاره، إذا أراد بيعه، فهو مقدَّم على غيره، حتى لا يدخل على الجيران مَن لا يعرفونه ولا

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠١٩)، ومسلم في الإيمان (٤٨)، كما رواه أحمد (١٦٣٧٤)، عن أبي شريح العدوي.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠١٨)، ومسلم في الإيمان (٤٧)، كما رواه أحمد (٧٦٢٦)، وأبو داود في الأدب (٥١٥٤)، عن أبي هريرة.

يألفونه، ولا يضمنون ماذا يأتي منه، وهو ما يسميه الفقهاء: الشفعة، والناس يقولون: الجار أولى بالشفعة. وهو نص حديث الرسول الكريم ﷺ: «الجار أحق بشُفعة جاره»[(١)]. وقال: «جار الدار أحق بالدار»[(٢)]. ومثل الدار: الأرض.

ويُعتبر الجارُ أولى من الغريب، ما دام يدفع فيها الثمن المطلوب، قال ﷺ: «الشُّفعة في كل رَبْعَةٍ أو حائط، لا يصلح له أن يبيعَ حتى يعرِض على صاحبه، فإن شاء أخذ، وإن شاء ترك»[(٣)]. وعن سمرة، عن النبي ﷺ قال: «جارُ الدار أحقُّ بدار الجارِ أو الأرض»[(٤)].

ومِن المطلوب للجار مِن ألوان البرِّ والإحسان: أن يواسيه بكلِّ ما يحتاج إليه في شؤون الحياة والمعاش، فيواسيه به، ولا يبخل به عنه، فالمؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضًا، ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة:٧١].

إجارة الجار:

ومِن إكرام الجار: إجارتُه إذا استجار، وقد كان هذا مِن شِيَم العرب وفضائلهم التي كانوا يتمادحون ويتفاخرون بها، كما قال الشاعر:

---

(١) رواه أحمد (١٤٢٥٣) وقال مخرجوه: رجاله ثقات، وأبو داود في الإجارة (٣٥١٨)، والترمذي في الأحكام (١٣٦٩) وقال: حديث حسن غريب، وابن ماجه الشفعة (٢٤٩٤)، والنسائي في الكبرى البيوع (٦٢٦٤)، وصححه ابن عبد الهادي في المحرر في الحديث (٩٢٤)، عن جابر بن عبد الله.

(٢) رواه أحمد (١٩٤٥٩) وقال مخرجوه: حديث صحيح، والنسائي في البيوع (٤٧٠٣)، وابن ماجه في الشفعة (٢٤٩٦)، عن الشريد بن سويد.

(٣) رواه مسلم في المساقاة (١٦٠٨)، وأحمد (١٤٣٣٩)، وأبو داود في الإجارة (٣٥١٣)، والنسائي في البيوع (٤٦٤٦)، وابن حبان في الشفعة (٥١٧٨)، عن جابر.

(٤) رواه أحمد (٢٠١٤٧) وقال مخرجوه: صحيح لغيره، وأبو داود في الإجارة (٣٥١٧)، والترمذي في الأحكام (١٣٦٨) وقال: حسن صحيح.

هُمُ يمنعون الجارَ حتى كأنّما لجارِهِمُ بينَ السِّماكَيْنِ منزِلُ[1]

وقال الآخر:

ومستلـــحمٍ قد أنقذَتْهُ رماحُنا وقدْ كانَ منهُ الموتُ أقربَ من شبْرِ

وجارٍ منعناهُ من الضَّيمِ والعدا وجيرانُ أقوامٍ بمدْرَجةِ الدَّهْرِ[2]

وقال ثالث:

وجارٍ مَنعناهُ، فقرَّ جنابُهُ ونامَ، وما جارُ الذليلِ بنائمِ[3]

وهكذا كان يعتزُّ العربُ ويتباهَون بأن جارَهم يعيش في عزِّهم، لا يستطيع عدو أن يناله بضيمٍ أو سوء في نفسٍ أو مال، كما قال الشاعر:

وما ضرَّنا أنا قليل، وجارنا عزيز وجار الأكثرين ذليل[4]

الدور تَغلُو وترْخُصُ بجيرانِها:

ومِن هنا صار لبعض الدور قيمةٌ تكبُر وتغلُو بفضل جيرانها، فمِن الناس من يقول: أنا والله لا أبيع داري بكذا وكذا من الألوف أو عشرات الألوف من الدراهم أو الدنانير؛ لأن لي جارًا لا يمكن أن أعوضه وإن دفعوا لي الملايين.

ولهذا قال الشاعر الذي باع داره بأرخص سعر، تخلُّصًا من أذى جاره:

يلومُونني أن بعتُ بِالرُّخص منزِلي ولم يعلموا جارًا هـناك ينغِّصُ

فقلتُ لهم: كفُّـوا المـــلامَ، فإنَّما بجيرانها تغلو الديارُ وترخُصُ

وهم ينسبون هذا الشعر إلى القاضي عبد الوهاب الفقيه المالكي الشهير.

---

(١) من شعر مروان بن أبي حفصة.

(٢) من شعر نهشل.

(٣) من شعر عروة بن أذينة.

(٤) من شعر السموءل بن عادياء.

إيذاء الجار محرَّم:

وكما أنَّ إكرامَ الجار واجبٌ، فإنَّ إيذاءَ الجار بالقول أو بالفعْل، سرًّا أو علنًا، حرامٌ لا شك في تحريمه، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ۝﴾ [الأحزاب:٥٨].

قال العلامةُ الحافظ ابن رجب في شرح بعض أحاديث «جامع العلوم والحكم»: «فإن الأذى بغير حقٍّ مُحرَّم لكلِّ أحدٍ، ولكن في حق الجار هو أشدُّ تحريمًا، وفي الصحيحين، عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ أنه سئل: أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك» قيل: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولَدَكَ مخافةَ أن يَطْعَمَ معك» قيل: ثم أي؟ قال: «أن تزاني حَلِيلَةَ جارِك»[(١)].

وفي صحيح البخاري، عن أبي شريح، عن النبي ﷺ قال: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن» قيل: مَن يا رسول الله؟ قال: «مَن لا يأمَنُ جارُه بوائقَه»[(٢)]. وخرَّجه الإمام أحمد وغيره من حديث أبي هريرة[(٣)].

وفي صحيح مسلم، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة مَن لا يأمن جارُه بوائقَه»[(٤)]. وبوائق الجار: ظلمه وشرُّه.

وخرج الإمام أحمد، والحاكم، من حديث أبي هريرة أيضًا قال: قيل: يا رسول الله، إن فلانةَ تصلي بالليل، وتصوم النهار، وفي لسانها شيء يؤذي جيرانها سليطة.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٧٦١)، ومسلم في الإيمان (٨٦)، كما رواه أحمد (٤١٠٢)، وأبو داود في الطلاق (٢٣١٠)، والترمذي في التفسير (٣١٨٢)، والنسائي في تحريم الدم (٤٠١٣).

(٢) رواه البخاري في الأدب (٦٠١٦)، وأحمد (٧٨٧٨).

(٣) رواه أحمد (٧٨٧٨) وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، والبزار (٨٥١٣)، والحاكم في الإيمان (١/ ١٠)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٤) رواه مسلم في الإيمان (٤٦)، وأحمد (٨٨٥٥).

قال: «لا خير فيها، هي في النار». وقيل له: إن فلانة تصلي المكتوبة، وتصوم رمضان، وتتصدق بالأثوار[(١)]، وليس لها شيء غيره، ولا تؤذي أحدًا. قال: «هي في الجنة»[(٢)].

ولفظ الإمام أحمد: «ولا تؤذي بلسانها جيرانها»[(٣)].

إنَّ إيذاءَ الجيران داءٌ خطير، وإثمٌ عظيم، لا تُغني معه صلاةٌ ولا صيام.

وعن فَضَالة بن عُبيدٍ ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة من الفَواقِر[(٤)]: إمامٌ إنْ أحسنتَ لم يشكُرْ وإن أسأتَ لم يغفر، وجارُ سوءٍ إن رأى خيرًا دفنَه وإن رأى شرًّا أذاعه، وامرأةٌ إن حَضَرْتَ آذتكَ وإن غِبْتَ عنها خانتكَ»[(٥)].

وعن أنس بن مالك ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما آمَنَ بي مَنْ باتَ شبعانًا، وجارُه جائعٌ إلى جَنْبِه، وهو يعلم»[(٦)].

وعن ابن عباس ﷺ، أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس المؤمن الذي يشبع وجارُه جائعٌ»[(٧)].

---

(١) الأثوار: قطع صغيرة من الجبن.

(٢) رواه أحمد (٩٦٧٥) وقال مخرجوه: إسناده حسن، والبخاري في الأدب المفرد (١١٩)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٩٠)، والحاكم في البر والصلة (٤/ ١٦٦) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، عن أبي هريرة.

(٣) جامع العلوم والحكم (١/ ٣٤٣)، نشر مؤسسة الرسالة – بيروت، ط السابعة، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م.

(٤) الفواقر: جمع فاقرة، وهي المصيبة.

(٥) رواه الطبراني (١٨/ ٣١٨)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٣٨٧٣): رواه الطبراني بإسناد لا بأس به، والهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٥٦٠): فيه محمد بن عصام بن يزيد، ذكره ابن أبي حاتم ولم يجرحه ولم يوثقه، وبقية رجاله وثقوا.

(٦) رواه البزار (٧٤٢٩)، والطبراني (١/ ٢٥٩)، وحسن إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٣٨٧٤)، والهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٥٥٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٥٠٥).

(٧) رواه البخاري في الأدب المفرد (١١٢)، وأبو يعلى (٢٦٩٩)، والطبراني (١٢/ ١٥٤)، والحاكم في البر والصلة (٤/ ١٦٧)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في الصحيحة (١٤٩).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «خيرُ الأصحاب عند الله خيرُهم لصاحبِه، وخيرُ الجيرانِ عند الله خيرُهم لجارِه»(١).

عناية السنة بحق الجار:

ولقد رأينا السُّنة النبوية تُعنَى أبلغ العناية بحق الجار، والوصية به، والتفصيل فيما ينبغي له، ما لم نَرَه في دين آخر، ولا فلسفةٍ أخرى، حسبُنا أن نسجِّل هذه الأحاديث هنا:

ففي مسند الإمام أحمد، عن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما تقولون في الزنى؟» قالوا: حرام حرَّمه الله ورسوله، فهو حرام إلى يوم القيامة. فقال رسول الله ﷺ: «لأنْ يزني الرجلُ بعشرِ نسوة أيْسَرُ عليه مِن أنْ يزني بامرأةِ جاره» قال: «فما تقولون في السرقة؟» قالوا: حرام حرَّمها الله ورسوله، فهي حرام. قال: «لأنْ يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من جاره»(٢).

ومن هنا نرى الشارع يُغلِّظ في إثم الجريمة إذا وقعت من جارٍ لجاره؛ لِما له من عظيم الحق عليه، فلهذا عظَّم الله إثمَ عملِه إذا كان مِن جاره.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله

(١) رواه أحمد (٦٥٦٦)، وقال مخرجوه: إسناده قوي، والترمذي في البر والصلة (١٩٤٤) وقال: حسن غريب، والبخاري في الأدب المفرد (١١٥)، والحاكم في الصوم (١/ ٤٤٣)، وصحَّحه على شرطهما، ووافقه الذهبي.

(٢) رواه أحمد (٢٣٨٥٤) وقال مخرجوه: إسناده جيد، والبخاري في الأدب المفرد (١٠٣)، والبزار (٢١١٥)، والطبراني (٢٠/ ٢٥٦)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٧٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٣٠٨): رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط ورجاله ثقات.

لا يؤمن». قيل: مَنْ يا رسول الله؟ قال: «من لا يأمن جاره بوائقه»[1]. رواه أحمد والبخاري ومسلم، وزاد أحمد قالوا: يا رسول الله! وما بوائقه؟ قال: «شرُّه».

كل هذه الأحاديث الصحاح تعظم حقَّ الجار، وتنفي وتُكرِّر نفْيَ الإيمان عمَّن لا يأمن جارُه بوائقَه.

وعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده: لا يؤمن عبدٌ حتى يحبَّ لجارِه - أو قال: لأخيه - ما يحبُّ لنفسِه»[2].

وهذا قَسَمٌ مِن رسول الله، وهو الصادق المصدوق: ينفي الإيمانَ عمَّنْ لا يحبُّ لجارِه أو لأخيه، ما يحبُّ لنفسه، وكلُّ جارٍ إنَّما هو أخٌ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

الاستعاذة من جار السوء:

ولهذا كان مِن الشرور التي يُستعاذ منها: أن يُبتلى الإنسان بجار سوء، لا يستر لك عورة، ولا يحفظ لك غَيْبة، لا يحميك حاضرًا، ولا يحرسك غائبًا، وهذا ما رواه أبو هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ، أنه كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من جار السوء في دار المُقامة، فإن جار البادية يتحوَّل»[3].

ومَنْ لم يُسامحْ جارَه في الدنيا ويحاول إصلاح ما بينه وبينه، فما أسرع ما يختصمان يوم القيامة، فعن عقبة بن عامر ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «أول

(١) رواه مسلم في الإيمان (٤٦)، وعلقه البخاري عقب حديث (٦٠١٦)، مجزوما به، وأحمد (٧٨٧٨).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥)، كلاهما في الإيمان، كما رواه أحمد (١٢٨٠١)، والترمذي في صفة القيامة (٢٥١٥).

(٣) رواه النسائي في الاستعاذة (٥٥٠٢)، والبخاري في الأدب المفرد (١١٧)، والحاكم في الدعاء (١/ ٥٣٢) وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٢٩٠).

خَصْمين يوم القيامة: جاران»[1].

شكوى الجار المؤذي للناس:

ومن آذى جاره في الدنيا، فقد أذِنَ الرسولُ لمن أُوذِيَ أن يشكوه إلى المجتمع من حوله، فيُخرِج متاعَ بيته إلى الطريق في هيْئة مَن يُغادِر المكان، فعن أبي هريرة ﷺ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يشكو جاره، فقال له: «اذهب فاصبر». فأتاه مرتين أو ثلاثًا، فقال: «اذهب فاطرح متاعك في الطريق». ففعل، فجعل الناس يمرون ويسألونه، فيخبرهم خبر جاره، فجعلوا يلعنونه: فعل الله به وفعل، وبعضهم يدعو عليه، فجاء إليه جاره، فقال: ارجعْ، فإنك لن ترى مني شيئًا تكرهه[2].

وإذا كان الرسول الكريم اقترح لنا هذا النموذج في الشكوى من أذى الجيران، فنحن إذا فكَّرنا وتشاورنا، فلن نعجز عن نماذج أخرى، فربما لم يعد يصلح النموذج الذي اقترحه الرسول على الرجل في عصرنا هذا.

الصبر على أذى الجار:

وعن مُطرِّف- يعني: ابنَ عبد الله- قال: كان يبلغني عن أبي ذر حديث، وكنتُ أشتهي لقاءه، فلقِيتُه، فقلتُ: يا أبا ذر، كان يبلغني عنك حديث، وكنت أشتهي لقاءك. قال: لله أبوك! قد لقيتَني، فهاتِ. قال: حديث بلغني أن رسول الله

---

(١) رواه أحمد (١٧٣٧٢) وقال مخرجوه: حديث حسن، والطبراني (١٧/ ٣٠٣)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٣٨٦٦): رواه أحمد والطبراني بإسنادين أحدهما جيد، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٥٧٢): رواه أحمد والطبراني بنحوه وأحد إسنادي الطبراني رجاله رجال الصحيح غير أبي عشانة وهو ثقة. وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٦٣).

(٢) رواه أبو داود في الأدب (٥١٥٣)، وابن حبان البر والإحسان (٢/ ٢٧٨) وقال الأرناؤوط: إسناده قوي، والحاكم (٤/ ١٦٦)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وقال الألباني في صحيح أبي داود (٤٢٩٢): حسن صحيح.

ﷺ حدَّثك. قال: «إن الله ﷻ يحبُّ ثلاثةً ويبغض ثلاثةً». قال: فما إخالُني أكذب على رسول الله ﷺ. فقلتُ: فمَن هؤلاء الثلاثة الذين يحبُّهم الله ﷻ؟ قال: «رجلٌ غزا في سبيل الله صابرًا محتسبًا، فقاتل حتى قُتِل». وأنتم تجدونه عندكم في كتاب الله ﷻ، ثم تلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾ [الصف:٤]. قلتُ: ومَن؟ قال: «رجلٌ كان له جارُ سوءٍ يؤذيه، فيصبر على أذاه، حتى يكفيه اللهُ إياه بحياةٍ أو موتٍ...»(١). فذكر الحديث.

الوصية بالجار:

وعن ابن عمرَ(٢) وعائشةَ(٣) رضي الله عنهما، قالا: قال رسول الله ﷺ: «ما زال جبريل عليه السلام يوصيني بالجار حتى ظننتُ أنَّه سيُورِّثُه».

وعن رجُلٍ من الأنصار قال: خرجتُ مع أهلي أريدُ النبيَّ ﷺ، وإذا به قائم، وإذا رجل مُقبِلٌ عليه، فظننتُ أنَّ له حاجةً، فجلستُ، فوالله لقد قام رسول الله ﷺ، حتى جعلتُ أرْثي له مِن طول القيام. ثم انصرفَ، فقمتُ إليه، فقلتُ: يا رسول الله، لقد قام بِكَ هذا الرجل حتى جعلتُ أرثي لك من طول القيام! قال: «أتدري مَن هذا؟» قلتُ: لا. قال: «جبريل ﷺ، ما زال يوصيني بالجار، حتى ظننتُ أنه سيورِّثه، أَمَا إنَّك لو سلمت عليه لردَّ عليك السلامَ»(٤).

وعن أبي أُمامة رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ وهو على ناقته الجدعاء في

(١) رواه أحمد (٢١٥٣٠) وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، وأبو داود الطيالسي (٤٧٠)، والطبراني (٢/ ١٥٢)، والحاكم في الجهاد (٢/ ٨٨)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري الأدب (٦٠١٥)، ومسلم في البر والصلة (٢٦٢٥).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري الأدب (٦٠١٤)، ومسلم في البر والصلة (٢٦٢٤).

(٤) رواه أحمد (٢٣٠٩٣) وقال مخرجوه: إسناده صحيح، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٣٨٨٤): رواته رواة الصحيح. وكذا قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٥٣٨).

حجَّة الوداع يقول: «أوصيكم بالجار» حتى أكثرَ، فقلتُ: إنه يورثه[(١)].

وعن مُجاهد، أنَّ عبد الله بن عمرو ، ذُبِحَتْ له شاةٌ في أهله، فلمَّا جاء قال: أهديتُم لجارنا اليهودي؟ أهديتم لجارنا اليهودي؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننتُ أنه سيورِّثه»[(٢)].

من سعادة المرء: الجار الصالح:

وعن نافع بن الحارث قال: قال رسول الله ﷺ: «مِن سعادة المرء: الجارُ الصالح، والمركب الهنيء، والمسكنُ الواسع»[(٣)].

وعن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله ﷺ: «أرْبَعٌ مِن السعادة: المرأةُ الصالحة، والمسكنُ الواسع، والجار الصالح، والمركب الهنيء. وأربع من الشقاء: الجارُ السوء، والمرأة السوء، والمركب السوء، والمسكن الضيق»[(٤)].

لا يمنع الجار مِن وضعِ خَشَبَةٍ في جدار داره ما لم يضره:

وممَّا هو مُقرَّر شرْعًا في حقوق الجيرانِ بعضهم مع بعض: أنه يجوز للجار أن يضع خشبة يحتاج إليها البِنَاءُ في جدارِ جاره، ما دام ذلك لا يضرُّه. ففي الصحيحين، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لا يمنعَنَّ أحدُكم جارَه أن يغرز

---

(١) رواه أحمد (٢٢٢٩٨) وقال مخرجوه: صحيح لغيره، والطبراني (٨/ ١١١)، وجود إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٣٨٨٥)، والهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٥٤٤).

(٢) رواه أحمد (٦٤٩٦) وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، وأبو داود في الأدب (٥١٥٢)، والترمذي في البر والصلة (١٩٤٣) وقال: حسن غريب.

(٣) رواه أحمد (١٥٣٧٢) وقال مخرجوه: حديث صحيح لغيره، والبخاري في الأدب المفرد (١١٦)، والحاكم في البر والصلة (٤/ ١٦٦)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي.

(٤) رواه ابن حبان في النكاح (٤٠٣٢)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط البخاري، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٨٢).

خشبةً في جداره». ثم يقول أبو هريرة: ما لي أراكم عنها معرضين، والله لأرمِيَنَّ بها بَيْن أكتافِكم»[1].

قال الحافظ ابن رجب: «ومذهبُ الإمام أحمد: أنَّ الجارَ يلزمُه أن يمكِّن جارَه مِن وضْع خشبةٍ على جداره، إذا احتاج الجارُ إلى ذلك، ولم يضُرَّ بجداره، لهذا الحديث الصحيح.

وظاهرُ كلامه: أنه يجب عليه أن يواسيه مِن فضْل ما عنده، بما لا يضرُّ به إذا علم حاجته.

قال المروزي: قلتُ لأبي عبد الله: إني أسمع السائل في الطريق يقول: إني جائع. فقال: قد يصدُق وقد يكذِب. قلتُ: فإذا كان لِي جارٌ أعلم أنه يجوع؟ قال: تواسيه. قلتُ: إذا كان قوتي رغيفين؟ قال: تطعمه شيئًا، ثم قال: الذي جاء في الحديث إنما هو الجار.

وقال المروزي: قلتُ لأبي عبد الله: الأغنياءُ يجب عليهم المواساة؟ قال: إذا كان قومٌ يضعون شيئًا على شيء، كيف لا يجب عليهم؟! قلتُ: إذا كان للرجل قميصان- أو قلتُ: جُبَّتانِ- يجب عليه المواساة؟ قال: إذا كان يحتاج إلى أن يكون فضلًا.

وهذا نصٌّ منه في وجوب المواساة مِن الفاضل، ولم يخصَّه بالجار، ونصُّه الأول يقتضي اختصاصه بالجار.

وقال في رواية ابن هانئ في السُّؤال يكذبون: أحبُّ إلينا لو صدقوا، ما وسِعَنا إلا مواساتُهم. وهذا يدل على وجوب مواساة الجائع من الجيران، وغيرهم.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في المظالم (٢٤٦٣)، ومسلم في المساقاة (١٦٠٩)، كما رواه أحمد (٧٢٧٨)، عن أبي هريرة.

وفي الصحيح، عن أبي موسى، عن النبي ﷺ، قال: «أطعموا الجائع، وعُودوا المريض، وفكُّوا العانِي»[1].

وفي المسند وصحيح الحاكم، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ، قال: «أيُّما أهل عَرْصَة أصبح فيهم امرؤٌ جائع، فقد برِئَتْ منهم ذمَّةُ الله ﷻ»[2].

ومذهب أحمد ومالك: أنه يُمنع الجارُ أن يتصرَّف في خاصِّ ملكِهِ بما يُضِرُّ بجاره، فيجب عندهما كفُّ الأذى عن الجار بمنْع إحداث الانتفاع المُضرِّ به، ولو كان المنتفع إنما ينتفع بخاصِّ ملكه. ويجب عند أحمد أن يبذل لجاره ما يحتاج إليه، ولا ضرر عليه في بذله، وأعلى مِن هذين أن يصبر على أذَى جارِه، ولا يقابله بالأذى. قال الحسن: ليس حُسْنُ الجِوار كفَّ الأذى، ولكنَّ حسْنَ الجِوار احتمالُ الأذى»[3].

(١) رواه البخاري في الأطعمة (٥٣٧٣)، وأحمد (١٩٥١٧)، وأبو داود في الجنائز (٣١٠٥).

(٢) رواه أحمد (٤٨٨٠)، وقال مخرجوه: إسناده ضعيف، وأبو يعلى (٥٧٤٦)، والحاكم في البيوع (٢/ ١١) وذكره ضمن عدة أحاديث، وقال: هذه الأحاديث الستة طلبتها وخرجتها في موضعها من هذا الكتاب، احتسابا لما فيه الناس من الضيق، والله يكشفها، وإن لم يكن من شرط هذا الكتاب. وقال الذهبي: عمرو بن الحصين العقيلي تركوه، وأصبغ بن زيد الجهني فيه لين. عن ابن عمر.

(٣) جامع العلوم والحكم (١/ ٣٥٢، ٣٥٣).

الفصل الثالث

أدب المسلم مع الأصحاب والأصدقاء

قال علماؤنا من قديم: الإنسان مدنيٌّ بطبعه. بمعنى أنه لا يستطيع بحكم الفطرة أن يعيش وحده، بل يحتاج إلى غيره في قضاء حاجاته، وتهيئة مطالبه، وتحقيق مقاصده، ولهذا كانت طفولة الإنسان- بالنسبة لغيره من الحيوانات والوحوش والطيور- أطول الطفولات؛ لحاجته إلى ملازمة الأبوين، ليتعلم منهما، ويتغذى من أمه أولًا بالرضاع، ثم من أبيه عن طريق الكسب.

ويقول العلماء المُحْدَثون: إنَّ الإنسان حيوان اجتماعي. ولهذا اعتُبر السجن الانفرادي من أشدِّ العقوبات على الإنسان. وكانت حاجة الناس إلى الاجتماع البشري، والمعيشة في مجتمع مدنيٍّ حاجة أساسية.

ومن هنا كانت حاجة كل إنسان إلى صاحب وفيٍّ له، أو صديق مخلص، يوفيه حقه، ويُودعه سرَّه، ويكاشفه بما عنده، ويعاونه في قضاء مأربه، ومن هنا كان الخليل من خليله كأنه جزء من نفسه، ولذلك يُعرف الناس بأصدقائهم وأخلائهم في الدنيا وفي الآخرة.

الأخلاء والأصدقاء الذين يضرون في الآخرة:

يقول الله تعالى مُبيِّنًا الأخلَّاء الذين لا ينفعون في الآخرة، حين يتبرأ كلٌّ منهم من صاحبه الذي كان صديقه في الدنيا: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي

ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ﴿٢٨﴾ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان:٢٥- ٢٩].

فهذا خليل لا تنفع خلته ولا صداقته، لأنها لم تُبْنَ على أسس متينة، بل بُنيت على شهوات الدنيا ومصالحها، فحين انتفت، انتفى ما بُني عليها. كما قال تعالى في شأن قوم: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت:٢٥]. ولهذا حذَّر القرآن في الدنيا من أخلاء وأصدقاء السوء الذين لا تنفع خلتهم يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧].

الأخلاء الذين ينفعون في الآخرة:

وفي مقابل هؤلاء الأصدقاء الذين لا يُرْجَى منهم أدنى نفع لإخوانهم وأخلائهم في الآخرة، نجد الآخرين الذين أثنى الله تعالى وهم المتقون، الذين استثناهم الله من هذا الحكم العام الذي يعم كل الأخلاء.

فكل الأخلاء والأصدقاء في الدنيا، الذين كانت صداقتهم على موائد الخمر، والليالي السود، والغرائز البهيميَّة، تتحول إلى عداوات يوم القيامة، حيث يكفر بعضهم ببعض، ويقول كلُّ واحد لصديقه: أنت الذي أضللتني، وأنت الذي أبعدتني عن الحق، وعن الخير، ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ﴿٢٨﴾﴾ [الفرقان: ٢٨].

الخِل التقي هو الصديق الصدوق، الذي لا يكذب إذا حدَّث، ولا يخلف إذا وعد، ولا يخون إذا اؤْتُمن، ولا يغدر إذا عاهد، ولا يفجر إذا خاصم، ويذكِّر خله بالله إذا نسي، ويعينه على طاعته وعبادته إذا ذكر، ومن وجد مثل هذا الخل فليستمسك به، فإنه أندر من الكبريت الأحمر، وأغلى من الذهب الأصفر، وقد عدَّه

بعض الشعراء من المستحيلات التي لا يمكن أن تطلب، قال:

أيقنتُ أنّ المستحيلَ ثلاثة ... الغُولُ والعَنقاءُ والخِلّ الوفي[1]

مبالغات الشعر في التحذير من الأصدقاء:

وأنا في الواقع لا أوافق على قول الشاعر المشهور[2]:

احـذر عـدوك مـــرة ... واحذر صديقك ألف مرة

فلربما انقلب الصديـ ... ـق فكان أعــلم بالمضرة

فإن الصديق الحقيقي، الذي يصْطفيه الإنسان الخيِّر من بين المؤمنين الخيِّرين، ويكون اختياره له على أُسس صحيحة، إيمانيَّة وأخلاقيَّة وفكريَّة، وتقوم العلاقة بينهما على رعاية الحقوق، وأداء الواجبات لكل منهما، هذا الصديق لا يغدر، وإن ساءت العلاقة بينه وبين صديقه يومًا ما، لا يمكن أن يكون هذا الصديق بمثابة العدو الأصلي، فضلًا عن أن يكون أشد خطرًا منه ألف مرة!

فلا ينبغي أن نأخذ هذه «المبالغة الشعرية» على أنها تمثل الحِكَم الخالدة، أو الحقائق الواقعة، فهذا ظلم للحقيقة، وظلم للناس.

قد يصدق هذا في أصدقاء الشهوة، وأصدقاء المصلحة، وأصدقاء الباطل، وأصدقاء الظلام، أما أصدقاء الحق والنور، فمهما اختلفوا مع أصدقائهم، فلا يمكِن أن يكونوا مع الغادرين، الذين ينقضون الميثاق، ولا يوفون بعهد الله.

البحث عن الصحبة الصالحة:

ولهذا سعى موسى عليه السلام مع فتاهُ- كما ذكر لنا القرآن- في رحلة طويلة لِقيا

---

(١) من شعر صفي الدين الحلي.

(٢) هو علي بن عيسى. ينظر: محاضرات الأدباء (٢/ ٢٣).

فيها نصبًا، أي: تعبًا وجهدًا، لكي يلقى موسى وفتاه رجلًا صالحًا عالمًا يصحبه موسى ويتعلم منه، يقول الله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ۝٦٥﴾ [الكهف:٦٥].

وكانت فرحة موسى غامرة بلقاء هذا المعلم الذي ينشده، والذي وعده الله به، ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ۝٦٦ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ۝٦٧ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ۝٦٨﴾ [الكهف:٦٦- ٦٨].

وفي هذه القصة التي لخصها القرآن في سورة الكهف، نجد أن موسى عليه السلام، وهو من الرسل الكبار، ومن أولي العزم من الرسل- وهم خمسة: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد - طلب من هذا المعلِّم، الذي لم يذكر لنا القرآن اسمه، وذكرته السنة باسم الخضر(١): أن يصطحبه متَّبعًا له، قال له: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ۝٦٦﴾ وعرَّفه المعلم أن ما عنده قد يفاجئه في أول الأمر بأنه غير ما عندك، فلذلك قال له: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ۝٦٧﴾ مبينًا أنه معذور في عدم الصبر، ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ۝٦٨﴾، ولكن موسى أصرَّ على صحبة الرجل، وقال: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ۝٦٩﴾.

ويتبين لنا من سياق الأحداث أن موسى لم يطُل صبره على هذا الرجل، وما بدا منه من غرائب خفيت عليه في أول الأمر، ثم بدأ يشرحها له واحدة تلو الأخرى، وفي النهاية قال له: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [الكهف: ٨٢] أيْ أنه لم يتصرف كيف أراد، بل تصرَّف كما أمره الله، فليس هناك شريعة تقابلها حقيقة تخالفها، بل الكل ينطلق ممَّا شرعه الله وأمر به.

ولا يزال الخير في أمة محمد، التي لم تخل من الأخلَّاء والأصدقاء الصادقين

(١) من ذلك حديث البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٠٠) عن ابن عباس.

والأصحاب الصالحين، وإن أنكر ذلك المتشائمون.

وهؤلاء الأخلاء والأصحاب المتقون، يجب علينا جميعًا أن نبحث عنهم، ونعض عليهم بالنواجذ.

وهؤلاء المتقون سيجدون الصداقة الحقَّة، والخلَّة الصادقة يوم القيامة تظلهم وتجمعهم، كما جاء في الأحاديث الصحاح.

السنة تؤكد على التماس الخلة الصالحة، وفضل الحب في الله:

وقد انتقينا من كتاب المنذري في «الترغيب والترهيب» جملة من الأحاديث الصحيحة والحسنة، مُرغِّبة في الحبِّ في الله تعالى، ومُرهِّبة من حبِّ الأشرار وأهل البِدَع؛ لأنَّ المرء مع من يُحب.

فعن أنس ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «ثلاث من كنَّ فيه وجد بهنَّ حلاوة الإيمان: مَن كان اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إليه ممَّا سواهما، ومن أحب عبدًا لا يحبه إلا لله، ومن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار»[(١)].

وفي رواية: «ثلاث من كُنَّ فيه وجَدَ حلاوة الإيمان وطعمه: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه ممَّا سواهما، وأن يحب في الله ويبغض في الله، وأن توقد نار عظيمة فيقع فيها أحب إليه من أن يشرك بالله شيئًا»[(٢)].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابُّون بجلالي؟ اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلِّي»[(٣)].

---

(١) رواه البخاري في الإيمان (٢١).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣)، كما رواه الترمذي (٢٦٢٤)، والنسائي (٤٩٨٧)، جميعهم في الإيمان.

(٣) رواه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٦٦)، وأحمد (٧٢٣١).

وعنه ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «من سرَّه أن يجد حلاوة الإيمان، فليحب المرء لا يحبُّه إلا لله»[1].

وعنه أيضًا: «سبعة يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله. . . ورجلان تحابَّا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه . . .» الحديث[2].

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما تحابَّ رجلان في الله إلا كان أحبَّهما إلى الله ﷻ، أشدُّهما حبًّا لصاحبه»[3]. وفي رواية: «كان أفضلَهما أشدُّهما حبًّا لصاحبه»[4].

وعن أبي الدرداء ﷺ يرفعه قال: «ما من رجلين تحابَّا في الله بظهر الغيب، إلا كان أحبَّهما إلى الله أشدُّهما حبًّا لصاحبه»[5].

وعن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ: أنَّ رجلًا زَارَ أخًا له في قرية أخرى، فأَرْصَد الله على مَدْرَجَتِهِ ملَكًا، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخًا لي في هذه القرية. قال: هل لك عليه من نعمة تَرُبُّها؟ قال: لا، غير أني أُحِبُّه في الله. قال:

---

(١) رواه الحاكم في الإيمان (١/ ٣)، وقال: قد احتجا جميعًا بعمرو بن ميمون، عن أبي هريرة، واحتج مسلم بأبي بلج، وهو حديث صحيح لا يُحفظ له علة، وقال الذهبي: لم يحتج به- يعني أبا بلج- وقد وثق. وقال البخاري: فيه نظر.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٦٦٠)، ومسلم في الزكاة (١٠٣١)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه أبو يعلى (٣٤١٩)، وابن حبان في البر والإحسان (٥٦٦)، والطبراني في الأوسط (٢٨٩٩)، والحاكم في البر والصلة (٤/ ١٧١)، وصحَّح إسناده، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٤٥٠).

(٤) رواه البخاري في الأدب المفرد (٥٤٤)، وقال الألباني في الصحيحة (٤٥٠): حسن صحيح.

(٥) رواه الطبراني في الأوسط (٥٢٧٩)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٤٥٧١): إسناده جيد قوي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٩٩٥): رجاله رجال الصحيح غير المعافى بن سليمان، وهو ثقة. رجاله رجال الصحيح غير المعافى بن سليمان، وهو ثقة، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٢٧٣).

فإني رسول الله إليك، إن الله قد أحبك كما أحببته فيه[(١)].

وعن أبي إدريس الخَولَانِيِّ قال: دخلت مسجد دمشق، فإذا فَتًى بَرَّاق الثَّنايا، وإذا الناس معه، فإذا اختلفوا في شيء أسندوه إليه، وصدَرُوا عن رأيه، فسألت عنه، فقيل: هذا معاذ بن جبل. فلما كان من الغدِ هجَّرْتُ[(٢)]، فوجدته قد سبقني بالتَّهْجير، ووجدتُه يُصلي، فانتظرته حتى قضى صلاته، ثم جِئْتُه من قِبَلِ وجهه، فسلمتُ عليه، ثم قلتُ له: والله إني لأُحِبكُ لله. فقال: آلله؟ فقلتُ: آلله. فقال: آلله؟ فقلتُ: آلله. فأخذ بحُبْوة رِدَائي، فجذبني إليه، فقال: أبشر، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تبارك وتعالى: وجَبَتْ مَحبَّتي للمتحابِّين فِيَّ، وللمتجالِسين فِيَّ، وللمتباذِلين فِيَّ»[(٣)].

عن أبي مسلمٍ الخَوْلاني أيضًا قال: قلتُ لمعاذِ بن جبل: والله إني لأُحِبُّك لغير دُنيا أرجو أن أُصيبَها منكَ، ولا قَرَابةٍ بيني وبينك. قال: فلأي شيء؟ قلتُ: لله. قال: فجذب حُبْوتي. ثم قال: أبشر إن كنتَ صادقًا، فإني سمعتُ رسول الله ﷺ، يقول: «المتحابُّون في الله في ظلِّ العرش يوم لا ظل إلا ظله، يَغْبِطهم بمكانهم النبيُّون والشُّهداء». قال: لَقِيتُ عبادةَ بن الصامت، فحدَّثْته بحديث معاذ، فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول عن ربه تبارك وتعالى: «حقَّت محبَّتي على المتحابِّين فِيَّ، وحقَّت محبتي على المتناصحين فِيَّ، وحقت محبتي على المتزاورين فِيَّ، وحقَّت محبتي على المتباذلين فِيَّ. وهم على منابر من نور، يغبطهم النبيون

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٧)، وأحمد (٩٢٩١). والمَدْرَجَة بفتح الميم والراء: هي الطريق. وقوله: تَرُبُّها أي: تقوم بها، وتسعى في صلاحها.

(٢) أي بكَّرت وذهبت وقت الهاجرة، وهو وقت انتصاف النهار واشتداد الحر.

(٣) رواه مالك في الموطأ (٢/ ٩٥٣)، وأحمد (٢٢٠٣٠) وقال مخرجوه: حديث صحيح، وصحح إسناده في رياض الصالحين (٣٨٢).

والشهداء والصديقون»[1].

وعن عبادة بن الصامت ﷺ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يأثُرُ عن ربه تبارك وتعالى يقول: «حقَّت محبتي للمتحابِّين فِيَّ، وحقَّت محبتي للمتواصلين فِيَّ، وحقَّت محبتي للمتزاورين فِيَّ، وحقَّت محبَّتي للمتباذلين فِيَّ»[2].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ من عباد الله عبادًا ليسوا بأنبياء، يغبطهم[3] الأنبياء والشهداء». قيل: من هم لعلنا نحبُّهم؟ قال: هم قوم تحابُّوا بنور الله من غير أرحام ولا أنساب، وجوههم نور، على منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس». ثم قرأ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢﴾ [يونس:٦٢]»[4].

وعن أبي أمامة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «من أحبَّ لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان»[5].

وعن البراء بن عازب ﷺ قال: كنا جلوسًا عند النبيِّ ﷺ، فقال: «أيُّ عُرى الإسلام أوثق؟» قالوا: الصلاة. قال: «حسنةٌ، وما هي بها» قالوا: صيام رمضان. قال: «حسنٌ وما هو به» قالوا: الجهاد. قال: «حسن، وما هو به» قال: «إن أوثق

---

(١) رواه أحمد (٢٢٧٨٢) وفيه قصة، وقال مخرجوه: إسناده صحيح، وابن حبان في البر والصلة (٥٧٧)، وصحح إسناده الضياء في المختارة (٣٧٥).

(٢) رواه أحمد (٢٢٧٨٣) وقال مخرجوه: حديث صحيح.

(٣) "يَغْبِطُهم الأنبياء والشهداء": أي يتمنون أن يكون لهم مزيتهم. والمزية لا تقتضي الأفضلية، كما هو معلوم.

(٤) رواه النسائي في الكبرى في التفسير (١١١٧٢)، وابن حبان في البر والإحسان (٥٧٣) وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٠٢٣): صحيح لغيره.

(٥) رواه أبو داود في السنة (٤٦٨١)، والطبراني (٨/ ١٣٤)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٠٢٩): حسن صحيح.

عرى الإيمان أن تحبَّ في الله، وتبغض في الله»[(١)].

وعن أنس ﷺ، أنَّ رجلًا سأل رسول الله ﷺ: متى الساعة؟ قال: «وما أعددت لها؟» قال: لا شيء، إلا أني أحبُّ الله ورسوله. قال: «أنت مع من أحببت».

قال أنس: فما فرِحْنا بشيء فَرَحَنا بقول النبي ﷺ: «أنت مع من أحببت». فأنا أحب النبيَّ ﷺ وأبا بكر وعمر، وأرجو أن أكون معهم بِحُبِّي إيَّاهم[(٢)].

وعن ابن مسعود ﷺ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، كيف ترى في رجل أحب قومًا ولم يلحق بهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «المرء مع من أحب»[(٣)].

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ، أنه سمع النبي ﷺ يقول: «لا تُصاحِبْ إلا مؤمنًا، ولا يأكل طعامك إلا تقيٌّ»[(٤)].

حسن اختيار الأخ والصديق:

وأول ما يوصي به الإسلامُ المسلمَ: أن يُحسن اختيار صديقه، فليس كل إنسان يصلح أن تتَّخذه صديقًا أو خليلًا لك، وإنما يجب عليك أن تبحث عن الخليل الذي سمَّاه الشعراء: الخلّ الوفيّ. والذي اعتبروه من ثالث المستحيلات في الدنيا، وإن كان ذلك لا يخلو من مبالغات الشعراء.

ولكن الأوفياء في الدنيا موجودون، ولكنهم عادة قليلون، وفي بعض المجتمعات، وبعض الأحيان تكون قلتهم أظهر، ومن قديم شكا الناس من قلة الأخيار، وكثرة الأشرار، ومن شعر الجاهلية العربية:

(١) رواه أحمد (١٨٥٢٤) وقال مخرجوه: حديث حسن بشواهده، وأبو داود الطيالسي (٧٨٣).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في أصحاب النبي (٣٦٨٨)، ومسلم في البر والصلة (٢٦٣٩).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦١٦٩)، ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٦٤٠).

(٤) رواه أبو داود في الأدب (٤٨٣٢)، وابن حبان في البر والإحسان (٥٥٤)، وقال الأرناؤوط: إسناده حسن، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح (٥٠١٨).

تُعيِّرنا أنا قليل عديدنا فقلت لها: إن الكرام قليل
وما ضرَّنا أنا قليل، وجارنا عزيز، وجار الأكثرين ذليل[(١)]

والقرآن الكريم يشير إلى كثرة أهل الشر والفساد، وقلة أهل الخير والصلاح، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام:١١٦]، ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف:١٠٣]، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾ [٢٤٣، يوسف: ٣٨، غافر: ٦١]، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾ [هود: ١٧، الرعد: ١]، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الأعراف: ١٨٧، ويوسف:٢١، والنحل: ٣٨، والروم: ٦، وسبأ: ٢٨، وغافر:٥٧، والجاثية:٢٦]، ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩] على حين قال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣]، وقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص:٢٤].

ومن هنا كان الصديقان أو الخليلان أو الأخوان في الله، اللذان يختار كل منهما الآخر ليكون في صحبته، أحدهما لصاحبه أشدَّ قربًا من الشقيق لشقيقه، فهذا الشقيق أقرب قرابة، وهذا الأخ في الله أقرب قربًا، وكل واحد منهما يفدي صاحبه بروحه، ويبذل له ماله وما عنده، ويؤثره عند الشدائد على نفسه، كما وصف القرآن مجتمع الأنصار في المدينة بعد هجرة الرسول والصحابة إليها، فقال: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:٩].

وهو الذي جعل بعض الناس يصفون مجتمع الأنصار بأنهم: يكثرون عند الفزع، ويقلون عند الطمع[(٢)].

---

(١) من شعر السموءل بن عادياء.

(٢) ذكره الخطابي في غريب الحديث (١/ ٦٨٢) وقال: يرويه الواقدي عن ابن أبي حبيبة عن داود بن الحصين عن محمود بن لبيد.

ولذلك كان على المسلم الملتزم الحريص على دينه وعلى مستقبله، وعلى حياته في أولاه وأخراه: أن يحسن اختيار أصحابه وأصدقائه، الذين يصيرون كأنهم أسرته الأخرى، بل ربما تفوق العلاقة بين بعضهم وبعض أشد العلاقات الأسرية الحميمة.

ومن هنا يُعرف المرء بأصدقائه من حوله، فمن الناس من يكون أصدقاؤه من أهل العلم، وأهل الإيمان، وأهل الأخلاق، وأهل النجدة، وأهل الدعوة، وأهل الجهاد، وأهل الخير.. إلى غير ذلك من المكارم، فمن كان ينسب إلى هؤلاء فقد عُرف اتجاهه، وعُرفت طبيعته، وعُرفت أخلاقه، ولذلك قال الشاعر العربي:

عن المرء لا تسأل وسَل عن قرينه ... فكل قرين بالمقارن يقتدي[1]

وقال الآخر:

واختر صديقك واصْطحبه تفاخرًا ... إنَّ القَرين إلى المقارِنِ يُنسب

واحذر مصاحبة اللئام فإنها ... تُعدي كما يُعدي الصحيحَ الأجرب

إن القلوبَ إذا تنافر ودها ... مثل الزجاجة كسرها لا يُشعب

وقد قيل: أخبرني من تصادق؛ أخبرك: من أنت.

الصاحب لا يضيع صاحبه:

ومن العناصر المهمة في شأن الصحبة والصداقة: أن يحرص الصديق على صديقه، ولا يفرط يومًا في صداقته، ويتحمَّل منه الأذى، ولا يحاسبه على كل عثرة، فمن شأن كل لسان أن يَزل، ومن شأن كل عقل أن يضلّ، ولكل إنسان هفوة، ولكل جواد كبوة، ولكل سيف نبْوة، وليس صديقُك نبيًّا معصومًا، ولا ملكًا

---

(١) من شعر عدي بن زيد.

مُطهَّرًا، فلا تبالغ في تعاملك مع إخوانك، فتستكثر القليل، وتكبِّر الصغير، وتعظِّم الأمر الحقير، فما هكذا تدوم المودَّات، وما هكذا تستمر الصداقات. وهذا ما نبَّه عليه الحكماء، ونادى به الشعراء.

يقول النابغة الذبياني:

ولستَ بمستبْقٍ أخًا لا تلُمُّه   على شعث، أي الرجال المهذَّب؟

أيْ لا يوجد رجل مهذَّب، بمعنى الكامل الذي لا عيب فيه، ولا هفوة له.

ويقول بشار بن برد:

إذا كنت في كل الأمور معاتبًا   صديقَك لم تلق الذي لا تعاتبه

فعش واحدًا، أو صِلْ أخاك، فإنه   مُقارفُ ذنبٍ تارةً ومجانبُه

إذا أنت لم تشرب مرارًا على القذى   ظمئتَ، وأيُّ الناس تصفو مشاربه؟

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها؟   كفى المرء نبلًا أن تعد معايبه!

الصديق الحقيقي يعرف في النائبات:

وهذا إنما يكون في شأن الصديق الحقيقي الأصيل، الذي يظل المرء يترقبه ويبحث عنه، ويتمنى أن يلقاه، حتى يجده، كما قال الشاعر لصديقه:

حسبي من الدنيا صديق صادق   فردٌ، فكُنْه، ولا احتياج لثانِ!

وليس من النوع الذي ورد فيه الشعر المنسوب إلى سيدنا علي:

ولا خير في ودِّ امرئ متلون   إذا الريح مالت مال حيث تميل

جوادٌ إذا استغنيتَ عن أخذ ماله   وعند زوال المال عنك بخيل

وما أكثر الإخوان حين تعدهم   ولكنهم في النائبات قليل

والإخوان والأصدقاء حقيقة هم الذين تجدهم في النائبات التي تنوبك، وتضربك عن يمين وشمال، فيتفرق الأصحاب، ويتباعد الأقرباء، ويتبرَّأ الزائفون، ويتلون الحرباويُّون، ولا يبقى إلا هؤلاء القليلون، الذين يكون الواحد منهم بجماعة، أو كما قال الحكيم: فرد ذو همَّة يُحيي أمة.

وقد روى الإمام مسلم في صحيحه، عن ابن عمر ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «تجدون الناس كإبلٍ مائةٍ، لا يجد الرجل فيها راحلة»[(١)].

فما أكثر الإبل حين تعدُّها، ولكن كم منها يصلح أن يكون راحلة يركبها المرء في أسفاره الطويلة، وفي حاجاته المهمَّة، وفي مطالبه الكبيرة؟ لا تكاد تجد في المائة إلا واحدة.

هؤلاء هم الذين قال عناهم الشاعر من قديم، حين يقول:

إن أخاك الحق مَن كان معك ... ومَن يضر نفسَه لينفعك

ومَن إذا ريب الزمان صدعك ... شتَّت فيك شملَه ليجمعك[(٢)]

جوامع العشرة الصادقة للأصحاب والإخوان:

وللعشرة الصادقة مع الأصحاب والإخوان والأصدقاء الأصفياء: جوامع معرفيَّة، وأخلاقيَّة، تُبرز محاسنهم، وتثمر بها شجرتهم كلَّ حين بإذن ربها، تحدث عنها العلامة بدر الدين الغزّي في رسالته عن «الصحبة»، فقال: «ومن جوامعها:

---

(١) رواه مسلم في فضائل الصحابة (٢٥٤٧)، وأحمد (٥٦١٩).

(٢) من شعر أبي العتاهية. ينظر: أنس المسجون وراحة المحزون (ص١٧٢)، نشر دار صادر- بيروت، ط الأولى، ١٩٩٧م.

قول أبي الحسين الورّاق[1]، وقد سأل أبا عثمان[2] عن الصحبة، قال: هي مع الله بالأدب، ومع الرسول ﷺ بملازمة العلم واتباع السنة، ومع الأولياء[3] بالاحترام والخدمة، ومع الإخوان بالبِشْر والانبساط، وترك وجوه الإنكار عليهم، ما لم يكن خرْق شريعة أو هتْك حرمة. قال الله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝﴾ [الأعراف:١٩٩].

والصحبة مع الجهال بالنظر إليهم بعين الرحمة، ورؤية نعمة الله عليك إذ لم يجعلك مثلهم، والدعاء لله أن يعافيك من بلاء الجهل».

المصاحبة على الوفاء والدِّين وترك المداهنة:

ومنها: أن تصاحب الإخوان على الوفاء والدِّين، دون الرغبة والرهبة والطمع.

قال الحريري: تعامل القَرنُ الأولُ فيما بينهم بالدين زمانًا طويلًا، حتى رقَّ الدينُ، ثم تعامل القرن الثاني بالوفاء، حتى ذهب الوفاء، ثم تعامل القرن الثالث بالمروءة، حتى ذهبت المروءة، ثم تعامل القرن الرابع بالحياء، حتى ذهب الحياء، ثم صار الناس يتعاملون بالرغبة والرهبة[4].

(١) أبو الحسين محمد بن سعد الورّاق النيسابوري، أحد أعلام التصوف السني في القرن الرابع الهجري، قال عنه أبو عبد الرحمن السلمي: من جلّة مشايخ نيسابور، كان عالمًا بعلوم الظاهر، ويتكلم في دقائق علوم المعاملات وعيوب الأفعال. توفي قبل ٣٢٠هـ رحمه الله تعالى. ينظر ترجمته في: طبقات الصوفية للسلمي ص٢٢٩، ت ٥١.

(٢) أبو عثمان سعيد بن إسماعيل بن سعيد بن منصور الحيري النيسابوري، أحد أعلام التصوف السني في القرن الثالث الهجري، توفي سنة ٢٩٨ عن ٦٨ عامًا رحمه الله تعالى. ينظر ترجمته في المصدر السابق ص١٤٠ ت: ٢٣، طبعة دار الكتب العلمية.

(٣) هم أهل العلم والتقوى، المذكورون في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝﴾ [يونس:٦٢، ٦٣].

(٤) ذكره أبو عبد الرحمن السلمي في آداب الصحبة (ص٨١).

ومنها: تركُ المداهنة في الدين مع منْ يعاشره.

قال سهل بن عبد الله التُّستري: لا يشمُّ رائحةَ الصدق من داهن نفسه أو غيره[1].

المسامحة عند الخطأ وعدم المحاسبة والتدقيق:

ومن حقوق الصحبة والصداقة على أهلها: أن يسامح بعضهم بعضًا، وأن يسع بعضهم بعضًا، ولا يعامل كلٌّ منهما أخاه معاملة المحاسِب المدقِّق، الذي لا يتساهل في كبيرة ولا صغيرة، بل ينبغي أن يعلم أنَّ الحياة تحتمل الصبر على الأخطاء والعثرات التي تقع من الإنسان، فمهما يكن صاحبك فهو إنسان لا مَلَك، وهو إنسان عادي، ليس نبيًّا معصومًا، فهو يمكن أن يُخطئ كما يمكن أن يصيب، ولا بد للصديقين أن يتحمَّل كلٌّ منهما أخاه، يقول العلامة الحريري في «مقاماته»:

سامِحْ أخاكَ إذا خلَطْ ... منهُ الإصابةَ بالغلَطْ

وتجافَ عنْ تعنيفِه ... إنْ زاغَ يومًا أو قسَطْ

واحفظ صنيعك عنده ... شُكَر الصنيعة أم غمَطْ

وأطعه إن عاصى، وهُن ... إن عزَّ وادنُ إذا شحط[2]

واقْنَ الوفاء ولو أخـ ... ـلَّ بما اشترطتَ وما شرطْ

واعلم بأنك إن طلبـ ... ـتَ مهذَّبًا رُمْتَ الشَّطَط

من ذا الذي ما ساء قـ ... ـطّ ومن له الحسنى فقط[3]

(١) المصدر السابق ص٨٣. وانظر: آداب العشرة للغزي ص٢٩.

(٢) أي: بعُد.

(٣) مقامات الحريري ص ٢٢٩، ٢٣٠، نشر مطبعة المعارف - بيروت، عام النشر: ١٨٧٣م.

قبول العذر ممَّن أساء إليك:

ومن المسامحة المحمودة: أن تتقبَّل العذر ممَّن أساء إليك، وأذنب في حقك، فكل بني آدم خطَّاء، فمن أخطأ وشعر بخطئه، وحاول أن يعتذر عنه، فلا بد أن تُعينه على ذلك، ولا تَسُدَّ الباب في وجهه، فقد أمرنا الإسلام بالعفو والصفح عمَّن أساؤوا إلينا، وعلينا أن نفتح لهم صفحة جديدة، وأن نعفُو عنهم، كما يعفو الله تعالى عن المقصِّرين والمسرفين من عباده، وهذا ما جاء في القرآن الكريم في العفو عن غير المسلمين من اليهود والنصارى، أو من المشركين، إذا حاولوا أن يعتذروا إلى المسلمين.

قال تعالى في بعض أهل الكتاب: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٣﴾ [المائدة: ١٣].

وقال في شأن المشركين: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٨٩﴾ [الزخرف:٨٩].

وقال تعالى في شأن المسلمين بعضهم مع بعض: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢٢﴾ [النور: ٢٢]. وهذه نزلت في شأن أبي بكر ﷺ، وقد حلف ألا يعطي قريبه مِسْطحًا ما كان يعطيه من قبل، بعد ما شارك في حديث الإفك، وقال في ابنته عائشة ﷺ ما قال، فقال أبو بكر: بلى، أحب أن يغفر الله لي[1].

وهذا في المسلم العادي، فكيف إذا كان هذا المسلم صديقًا لك، وخليلًا لك، هنا يكون حقه أوكد، وسبيله أوسع، ولذا قال عمر ﷺ: لا تلُمْ أخاك على ما يكون العذر في مثله. وقال الحسن بن علي: لو أنَّ رجلًا شتمني في أذني اليمنى، واعتذر إليَّ في أذني الأخرى، لقبلتُ عذره.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٧٥٠)، ومسلم في التوبة (٢٧٧٠)، عن عائشة.

وفي مثل ذلك يقول الشاعر:

قيل لي: قد بغى عليك فلان   وقعود الفتى على الذل عار
قلت: قد جاءنا فأحدث عذرًا   دية الذنب عندنا الاعتذار[1]

وقال الأحنف: إذا اعتذر إليك معتذر، فلتلقه بالبِشْر[2].

وقال صالح بن عبد القدوس:

يلومني النّاس فيما لو أخبّرهم   بالعذر مني فيه لم يلوموني

وقال الإمام الشافعي:

اقبل معاذيرَ من يأتيكَ مُعتَذِرَا   إن بَرَّ عندك فيما قال أو فجرا
لقد أطاعك من يُرضيكَ ظاهِره   وَقَد أجَلَّك مَن يَعصيكَ مُستَتِرا

الصفح عن عثرات الإخوان وموافقتهم:

ومنها: ما ذكره العلامة الغزي، من الصفح عن عثرات الإخوان، وترك تأنيبهم عليها.

قال الفضيل بن عياض: الفُتوة: الصفح عن عثرات الإخوان[3]؛ فكما يجب على العبد الأدب مع سيده، يجب عليه معاشرة من يُعينُه عليه.

وقال ابن الأعرابي: تناسَ مساوئ الإخوان، يدُمْ لك ودُّهُم.

والعفو عن الهفوات والهَنَات التي تصدر عن الأصدقاء، وقلما يخلو منها الناس، وذلك في النفس والمال، دون أمور الدين والسنة، لقوله تعالى: ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْ﴾ [النور: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

---

(١) البيتان ذكرهما الثعالبي في المنتحل دون أن ينسبهما لأحد (١/ ٩٦).

(٢) ذكر هذه الآثار ابن مفلح في الآداب الشرعية (١/ ٣٠٢).

(٣) رواه القشيري في رسالته (٢/ ٣٨٠).

وقال تعالى في وصف أهل الحق والخير: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ۝٣٧﴾ [الشورى:٣٧]. فلم يفترض فيهم الخلو من الصغائر والهَنات، بل اجتناب كبائر الإثم والفواحش، كما جعل ذلك في سورة أخرى من صفات أهل الإحسان: ﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ۝٣١ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم:٣١- ٣٢]، ثم أضاف إليهم مكرمة أخرى، وهي: أنهم يغفرون إذا غضبوا.

ومن ذلك: **قلة الخلاف للإخوان والأصحاب**، وتحرّي موافقتهم فيما يريدون فيما يبيحه العلم والشريعة، ويجيزه الكتاب والسنة.

قال أبو عثمان: موافقة الإخوان خير من الشفقة عليهم[(١)].

وقال جويرية: دعوت الله أربعين سنة أن يجيرني من مخالفة الإخوان[(٢)].

وليس معنى العفو والصفح عن الإخوان والأصحاب: ألا يغضب المسلم أبدًا، وإن ظهرت موادُّ الغضب وتكررت واستمرت، فإن هذا فوق طاقة الإنسان المعتاد، ولا بد للمرء أن يغضب إذا استُغْضِب، ولهذا قالوا: من استُغضب ولم يغضب فهو حمار، ومن استُرضِيَ، ولم يرضَ فهو جبَّار؛ ولهذا قال النابغة الجعدي الشاعر أمام النبي ﷺ:

ولا خير في حلم إذا لم يكن له ... بوادر تحمي صفوه أن يكدرا

ولا خير في ود إذا لم يكن له ... حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

فدعا له النبي ﷺ[(٣)].

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٠/ ٢٤٤).

(٢) رواه أبو عبد الرحمن السلمي في آداب الصحبة (٨٤).

(٣) رواه أبو طاهر في المخلصيات (١٠٦٩)، والبزار كما في كشف الأستار (٢١٠٤)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٣٣٨): فيه يعلى بن الأشدق وهو ضعيف.

ويقول الشاعر:

لـئن كنـت محتاجًـا إلى الحلـم إنـني ... إلى الجهل في بعض الأحايين أحوج

ولي فـرس للحلـم بـالحلم ملجـم ... ولي فرس للجهـل بالجهـل مسـرج

فمـن رام تقـويمي فـإني مقـوم ... ومـن رام تعـويجي فـإني معـوج

وما كنت أرضى الجهل خدنًا صاحبًا ... ولكنني أرضى بـه حين أحـرج[1]

الذَّبُّ عن الأصحاب والإخوان:

ومنها: القيام بأعذارهم، والذبُّ عنهم، والانتصار لهم، كما قال الجنيد رحمه الله، وقيل له: ما بال أصحابك أكلُهم كثير؟ قال: لأنهم لا يشربون الخمر، فيكون جوعهم أكثر. وقيل له: ما بالهم لهم قوة شهوةٍ؟ قال: لأنهم لا يزنون، ولا يدخلون تحت محظورٍ. قيل: فما بالهم لا يطربون إذا سمعوا القرآن؟ قال: لأنه كلام الحق، ما فيه ما يوجب الطرب، نزل بأمر ونهيٍ، ووعدٍ ووعيدٍ، فهو يقهر. قيل: فما بالهم يطربون عند القصائد؟ قال: لأنها ممَّا عملت أيديهم. قيل: فما بالهم يطربون عند الرباعيات من الشعر؟ قال: لأنها كلام المحبين والعشاق[2]. يعني رحمه الله: أنهم لم يخرجوا عن طبيعة البشر، فلا يزالون يتأثرون بما يتأثر به الناس.

احتمال الأذى:

ومن أصول المعاشرة الحميدة، التي تقوم عليها الصحبة والأخوة: احتمال الأذى، إذا جاء من صديق، فمن الفرائض المهمة في الصحبة الحقة: ألا يمس غيره بأذى بحال، ولكن هذا وحده لا يكفي، بل لا بد أن يصبر على الأذى ويتحمله إذا جاء من صديقه.

---

(١) من شعر صالح بن عبد القدوس.

(٢) رواه أبو عبد الرحمن السلمي في آداب الصحبة (٨٥).

وهذا معناه أن يوطِّن نفسه على احتمال الأذى منه، وقلة الغضب، والشفقة، والبسط، والرحمة، لما روى جارية بن قدامة: أن النبي ﷺ قال للرجل الذي قال له: عِظْني، وأوجِز. قال: «لا تغضب»[1].

حفظ المودة القديمة والأخوة الثابتة:

ومن جوامع العِشْرة المهمة، التي نبَّه عليها العلماء الربَّانيون، ودعا إليها المربُّون الصادقون: ما دعا إليه الشيخ بدر الدين الغزي رحمه الله، وهو ما سمَّاه: حفظُ المودة القديمة والأخوَّة الثابتة، لحديث: دخلت امرأةٌ على رسول الله ﷺ فأدناها، فقيل له في ذلك؟ فقال: «إنها كانت تأتينا أيام خديجة، وإنَّ حسنَ العهد من الإيمان»[2].

وقال محمد المَغَازِلي رحمه الله: من أحبَّ أن تدوم له المودة، فليحفظ مودَّة إخوانه القدماء[3].

ولبعضهم:

ما ذاقَتِ النَفسُ على شَهوةٍ — أَلَذَّ مِن حُبِّ صَديقٍ أَمين
من فـاتَهُ وِدُّ أَخٍ صـالِحٍ — فَذَلِكَ المَغبونُ حَقَّ اليَقين

ولبعض الحكماء من السلف: عاشِروا الناس، فإن عشتم حَنُّوا إليكم، وإن مِتُّم بكَوا عليكم»[4].

(١) رواه أحمد (٢٠٣٥٧) وقال مخرجوه: إسناده صحيح، وابن حبان في الحظر والإباحة (٥٦٨٩).

(٢) رواه الحاكم في الإيمان (١/ ١٥)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، فقد اتفقا على الاحتجاج برواته في أحاديث كثيرة، وليس له علة. ووافقه الذهبي.

(٣) رواه أبو عبد الرحمن السلمي في آداب الصحبة (٦٣).

(٤) آداب العشرة للغزي ص ٤٥.. بتصرف وزيادة.

حقوق الأخوة والصحبة عند الإمام الغزالي:

وستتحدث عن هذه الحقوق التي وفاها الإمام الغزالي حقها، حاذفين من تفاصيلها ما اعتمد على حديث ضعيف أو منكر، وحاذفين من الأقوال ما فيه خلل عندنا، معتمدين في الأساس على تخريجنا، ومستندين إلى تخريجات الإمام العراقي.

قال الإمام الغزالي في «الإحياء» في كتاب آداب الألفة والأخوة والصحبة: «اعلم أنَّ عقد الأخوة رابطة بين الشخصين كعقد النكاح بين الزوجين، وكما يقتضي النكاح حقوقًا يجب الوفاء بها قيامًا بحقِّ النكاح، فكذا عقد الأخوة، فلأخيك عليك حقٌّ في المال والنفس، وفي اللسان والقلب، بالعفو والدعاء، وبالإخلاص والوفاء، وبالتخفيف، وترك التكلُّف والتكليف، وذلك يجمعه ثمانية حقوق.

الحق الأول: في المال:

لما جاء عن سيدنا سلمان في قوله: مثل الأخوين مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى[1]. وإنما شبَّههما باليدين، لا باليد والرِّجْل؛ لأنهما يتعاونان على غرض واحد، فكذا الأخوان إنما تتمُّ أخوتهما، إذا ترافقا في مقصد واحد، فهما من وجه كالشخص الواحد، وهذا يقتضي المساهمة في السرَّاء والضرَّاء، والمشاركة في المآل والحال، وارتفاع الاختصاص والاستئثار.

والمواساة بالمال مع الإخوة على ثلاث مراتب:

أدناها: أن تنزله منزلة خادمك، فتقوم بحاجته من فضْلة مالك، فإذا سنحت له حاجة، وكانت عندك فضلة عن حاجتك، أعطيته ابتداء، ولم تحوجه إلى السؤال، فإن أحوجته إلى السؤال، فهو غاية التقصير في حق الأخوة.

(١) رواه ابن وهب في جامعه (٢٠١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٢٨٨).

الثانية: أن تنزله منزلة نفسك، وترضى بمشاركته إيَّاك في مالك، ونزوله منزلتك، حتى تسمح بمشاطرته في المال. قال الحسن: كان أحدهم يشق إزاره بينه وبين أخيه.

الثالثة، وهي العليا: أن تؤْثره على نفسك، وتُقدِّم حاجته على حاجتك، وهذه رتبة الصدِّيقين، ومنتهى درجات المتحابِّين.

فإن لم تصادف نفسك في رتبة من هذه الرتب مع أخيك، فاعلم أن عقد الأخوة لم ينعقد بعد في الباطن، وإنما الجاري بينكما مخالطة رسميَّة، لا وقع لها في العقل والدين، فقد قال ميمون بن مهران: من رضي من الإخوان بترك الإفضال، فليؤاخ أهل القبور[(١)].

وأما الدرجة الدنيا، فليست أيضًا مرضيَّة عند ذوي الدين، رُوِيَ أن عُتبة الغلام جاء إلى منزل رجل كان قد آخاه، فقال: أحتاج من مالك إلى أربعة آلاف، فقال: خذ ألفين. فأعرض عنه، وقال: آثرت الدنيا على الله؟ أما استحييت أن تدَّعي الأخوة في الله، وتقول هذا[(٢)]؟

ومن كان في الدرجة الدنيا من الأخوة ينبغي ألَّا تعامله في الدنيا.

قال أبو حازم: إذا كان لك أخ في الله، فلا تعامله في أمور دنياك. وإنما أراد به من كان في هذه الرتبة.

وأما الرتبة العليا: فهي التي وصف الله تعالى المؤمنين بها في قوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨]. أي: كانوا خلطاء في الأموال، لا يميز بعضهم رحله عن بعض.

(١) رواه ابن المقرئ في معجمه ص٣٠.
(٢) قوت القلوب لأبي طالب المكي (٢/ ٣٧٣- ٣٧٤).

وجاء فتح الموصلي إلى منزل لأخ له، وكان غائبًا، فأمر أهله، فأخرجت صندوقه، ففتحه، وأخذ حاجته، فأخبرت الجارية مولاها، فقال: إن صدقتِ فأنت حرة لوجه الله. سرورًا بما فعل.

وجاء رجل إلى أبي هريرة ﵁ وقال: إني أريد أن أؤاخيك في الله، فقال: أتدري ما حقُّ الإخاء؟ قال: عرِّفني. قال: ألا تكون أحقَّ بدينارك ودرهمك مني. قال: لم أبلغ هذه المنزلة بعد؟ قال: فاذهب عني.

وقال علي بن الحسين ﵄ لرجل: هل يدخل أحدُكم يده في كمِّ أخيه أو كيسه، فيأخذ منه ما يريد بغير إذنه؟ قال: لا. قال: فلستم بإخوان.

ودخل قوم على الحسن البصري ﵀، فقالوا: يا أبا سعيد، أصليت؟ قال: نعم. قالوا: فإن أهل السوق لم يُصلُّوا بعد. قال: ومن يأخذ دِينَه من أهل السوق؟ بلغني أن أحدهم يمنع أخاه الدرهم! قاله كالمتعجب منه.

وجاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم ﵀، وهو يريد بيت المقدس، فقال: إني أريد أن أرافقك، فقال له إبراهيم: على أن أكون أملك لشيئك منكَ؟ قال: لا. قال: أعجبني صدقُك.

وأعطى مرة حمارًا كان لرفيقه- بغير إذنه- رجلًا رآه راجلًا، فلما جاء رفيقه سكت، ولم يكره ذلك[(١)].

قال ابن عمر ﵄: أُهْدِيَ لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ رأسُ شاة، فقال: أخي فلان أحوج مني إليه. فبعث به إليه، فبعث ذلك الإنسان إلى آخر، فلم يزل يبعث به من واحد إلى آخر، حتى رجع إلى الأول، بعد أن تداوله سبعة[(٢)].

(١) ذكرها جميعا أبو طالب المكي في قوت القلوب (٢/ ٣٧٤).

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٣٢٠٤).

ورُوِيَ أن مسروقًا ادَّان دَيْنًا ثقيلًا، وكان على أخيه خيثمة دَيْن، قال: فذهب مسروق فقضى دَيْن خيثمة، وهو لا يعلم، وذهب خيثمة فقضى دين مسروق وهو لا يعلم[١].

ولما آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، آثره سعد بالمال والنفس، فقال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك[٢]، فآثره بما آثره به، وكأنه قَبِله ثم آثره به، وذلك مساواة، والبداية إيثار، والإيثار أفضل من المساواة.

وقال أبو سليمان الداراني: لو أن الدنيا كلها لي، فجعلتها في فم أخ من إخواني لاستقللتها له.

وقال أيضًا: إني لألقم اللقمة أخًا من إخواني فأجد طعمها في حلقي.

ولما كان الإنفاق على الإخوان أفضل من الصدقات على الفقراء، قال علي ﷺ: لَعشرون درهمًا أعطيها أخي في الله أحبُّ إليَّ من أن أتصدق بمائة درهم على المساكين[٣].

وقال أيضًا: لأن أصنع صاعًا من طعام، وأجمع عليه إخواني في الله، أحبُّ إليَّ من أن أعتق رقبة[٤].

واقتداء الكل في الإيثار برسول الله ﷺ.

وقال ﷺ: «ما اصطحب اثنان قط، إلا كان أحبهما إلى الله أرفقهما بصاحبه»[٥].

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٣٦٦).

(٢) رواه البخاري في مناقب الأنصار (٣٧٨٠)، عن عبد الرحمن بن عوف أنس.

(٣) قوت القلوب (٢/ ٣٧٦).

(٤) رواه البخاري في الأدب المفرد (٥٦٦).

(٥) رواه الطبراني في الأوسط (٥٢٧٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٩٩٥): رجاله رجال الصحيح غير المعافى بن سليمان، وهو ثقة، عن أبي الدرداء.

ورُوِيَ أن مالك بن دينار ومحمد بن واسع دخلا منزل الحسن، وكان غائبًا، فأخرج محمد بن واسع سلةً فيها طعام من تحت سرير الحسن، فجعل يأكل، فقال له مالك: كُفَّ يدك حتى يجيء صاحب البيت. فلم يلتفت محمد إلى قوله، وأقبل على الأكل، وكان مالك أبسط منه، وأحسن خلقًا، فدخل الحسن، وقال: يا مُوَيْلك، هكذا كنا، لا يحتشم بعضنا بعضًا، حتى ظهرت أنت وأصحابك!

وأشار بهذا إلى أن الانبساط في بيوت الإخوان من الصفاء في الأخوة، كيف وقد قال الله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ [النور:٦١]؟ إذ كان الأخ يدفع مفاتيح بيته إلى أخيه ويفوض له التصرف كما يريد، وكان أخوه يتحرج عن الأكل بحكم التقوى، حتى أنزل الله تعالى هذه الآية، وأذن لهم في الانبساط في طعام الإخوان والأصدقاء.

الحق الثاني: في الإعانة بالنفس في قضاء الحاجات والقيام بها قبل السؤال وتقديمها على الحاجات الخاصة:

وهذه أيضًا لها درجات، كما للمواساة بالمال، فأدناها: القيام بالحاجة عند السؤال والقدرة، ولكن مع البشاشة والاستبشار، وإظهار الفرح، وقبول المنَّة.

وقال بعضهم: إذا استقضيتَ أخاك حاجة فلم يقضها، فذكِّره ثانية، فلعله أن يكون قد نسي، فإن لم يقضها فكبِّر عليه، واقرأ هذه الآية: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام:٣٦].

وقضى ابن شُبرمة حاجة لبعض إخوانه كبيرة، فجاء بهدية، فقال: ما هذا؟ قال: لِمَا أسْدَيْتَه إليّ؛ فقال: خذ مالك عافاك الله، إذا سألت أخاك حاجة فلم يجهد نفسه في قضائها، فتوضأ للصلاة، وكبِّر عليه أربع تكبيرات، وعدَّه في الموتى[1].

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٣٧٤).

قال جعفر بن محمد: إني لأتسارع إلى قضاء حوائج أعدائي، مخافة أن أردهم فيستغنوا عني، هذا في الأعداء، فكيف في الأصدقاء؟

وكان في السلف مَن يتفقد عيال أخيه وأولاده بعد موته أربعين سنة، يقوم بحاجتهم، ويتردَّد كل يوم إليهم، ويمونهم من ماله، فكانوا لا يفتقدون من أبيهم إلا عينه، بل كانوا يرون منه ما لم يروا من أبيهم في حياته. وكان الواحد منهم يتردد إلى باب دار أخيه، ويسأل ويقول: هل لكم زيت؟ هل لكم ملح؟ هل لكم حاجة؟ وكان يقوم بها من حيث لا يعرفه أخوه.

وبهذا تظهر الشفقة والأخوة، فإذا لم تثمر الشفقة حتى يشفق على أخيه، كما يشفق على نفسه، فلا خير فيها.

قال ميمون بن مهران: من لم تنتفع بصداقته، لم تضرك عداوته.

وقال ﷺ: «ألا وإنَّ لله أواني في أرضه، وهي القلوب. فأحبُّ الأواني إلى الله تعالى: أصفاها وأصلبها وأرقها. أصفاها من الذنوب، وأصلبها في الدين، وأرقها على الإخوان»(١).

وبالجملة، فينبغي أن تكون حاجة أخيك مثل حاجتك، أو أهم من حاجتك، وأن تكون متفقِّدًا لأوقات الحاجة غير غافل عن أحواله، كما لا تغفل عن أحوال نفسك، وتغنيه عن السؤال، وإظهار الحاجة إلى الاستعانة، بل تقوم بحاجته كأنك لا تدري أنك قمت بها، ولا ترى لنفسك حقًّا بسبب قيامك بها، بل تتقلَّد منة بقبوله سعيك في حقه، وقيامك بأمره.

ولا ينبغي أن تقتصر على قضاء الحاجة، بل تجتهد في البداية بالإكرام في

---

(١) رواه الطبراني في مسند الشاميين (٨٤٠)، من حديث أبي عتبة الخولاني إلا أنه قال: «ألينها وأرقها». وإسناده جيد كما قال العراقي في تخريج الإحياء، وقال الألباني في الصحيحة (١٦٩١): إسناده قوي.

الزيادة والإيثار، والتقديم على الأقارب والولد.

كان الحسن يقول: إخواننا أحبُّ إلينا من أهلنا وأولادنا؛ لأن أهلنا يُذكِّروننا بالدنيا، وإخواننا يُذكِّروننا بالآخرة[(١)].

وقال عطاء: تفقَّدوا إخوانكم بعد ثلاث، فإن كانوا مرضى فعودوهم، أو مشاغيل فأعينوهم، أو كانوا نسوا فذكِّروهم[(٢)].

وقال سعيد بن العاص: لِجليسي عليَّ ثلاث: إذا دنا رحَّبت به، وإذا حدَّث أقبلت عليه، وإذا جلس أوسعت له[(٣)].

وقد قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ﴾ [الفتح:٢٩]. إشارة إلى الشفقة والإكرام.

ومن تمام الشفقة: ألَّا ينفرد بطعام لذيذ، أو بحضور في مسرَّة دونه، بل يتنغَّص لفراقه ويستوحش بانفراده عن أخيه».

الحق الثالث: في اللسان بالسكوت مرة وبالنطق أخرى:

أما السكوت عند الغزالي، فهو «أن يسكت عن ذكر عيوبه في غيبته وحضرته، بل يتجاهل عنه، ويسكت عن الرد عليه فيما يتكلم به، ولا يماريه ولا يناقشه.

وأن يسكت عن التجسس، والسؤال عن أحواله، وإذا رآه في طريق أو حاجة، لم يفاتحه بذكر غرضه من مصدره ومورده، ولا يسأله عنه، فربما يثقل عليه ذكره، أو يحتاج إلى أن يكذب فيه.

وليسكت عن أسراره التي بثَّها إليه، ولا يبثُّها إلى غيره البتة، ولا إلى أخص

(١) قوت القلوب (٢/ ٣٦٧).

(٢) قوت القلوب (٢/ ٣٦٨).

(٣) ذكرها أبو طالب المكي في قوت القلوب (٢/ ٣٦٨).

أصدقائه، ولا يكشف شيئًا منها، ولو بعد القطيعة والوحشة، فإن ذلك من لؤم الطبع، وخبث الباطن، وأن يسكت عن القدح في أحبابه وأهله وولده، وأن يسكت عن حكاية قَدْحِ غيره فيه، فإن الذي سبَّك من بلَّغك.

والتأذِّي يحصل أولًا من المبلِّغ، ثم من القائل، نعم لا ينبغي أن يخفي ما يسمع من الثناء عليه، فإن السرور به أولًا يحصل من المبلغ للمدح، ثم من القائل، وإخفاء ذلك من الحسد.

وبالجملة فليسكت عن كل كلام يكرهه جملةً وتفصيلًا، إلا إذا وجب عليه النطق في أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، ولم يجد رخصة في السكوت، فإذا ذاك لا يبالي بكراهته، فإن ذلك إحسان إليه في التحقيق، وإن كان يظن أنها إساءة في الظاهر.

أما ذكر مساويه وعيوبه ومساوي أهله، فهو من الغيبة، وذلك حرام في حق كل مسلم.

قال ابن المبارك: المؤمن يطلب المعاذير، والمنافق يطلب العثرات.

وقال الفضيل: الفتوة: العفو عن زلات الإخوان[(١)].

وما من شخص إلا ويمكن تحسين حاله بخصال فيه ويمكن تقبيحه أيضًا.

قال الشافعي رحمه الله: ما أحد من المسلمين يطيع الله ولا يعصيه، ولا أحد يعصي الله ولا يطيعه، فمن كانت طاعته أغلب من معاصيه فهو عدل[(٢)].

وإذا جعل مثل هذا عدلًا في حقِّ الله، فبأن تراه عدْلًا في حقِّ نفسك، ومقتضى أُخوَّتك أولى.

---

(١) رواه أبو عبد الرحمن السلمي آداب الصحبة (١٥).

(٢) قوت القلوب (٢/ ٣٧٢).

الحذر من إساءة الظن:

وكما يجب عليك السكوت بلسانك عن مسأوئه، يجب عليك السكوت بقلبك، وذلك بترك إساءة الظن، فسوء الظن غِيبة بالقلب، وهو منهيٌّ عنه أيضًا.

وحدّه: ألَّا تحمل فعله على وجه فاسد ما أمكن أن تحمله على وجه حسن. فأما ما انكشف بيقين ومشاهدة، فلا يمكنك ألَّا تعلمه، وعليك أن تحمل ما تشاهد على سهو ونسيان إن أمكن.

وهذا الظن ينقسم إلى ما يسمَّى تفرُّسًا، وهو الذي يستند إلى علامة، فإن ذلك يُحرِّك الظن تحريكًا ضروريًّا لا يقدر على دفعه، وإلى ما منشؤه سوء اعتقادك فيه، حتى يصدر منه فعل له وجهان، فيحملك سوء الاعتقاد فيه على أن تنزله على الوجه الأردأ من غير علامة تخصُّه به، وذلك جناية عليه بالباطن، وذلك حرام في حق كل مؤمن. إذ قال ﷺ: «إيَّاكم والظنَّ، فإنَّ الظنَّ أكذب الحديث»(1).

وسوء **الظن يدعُو إلى التَّجسُّس والتَّحسُّس**، وقد قال ﷺ: «لا تحسَّسوا، ولا تجسَّسوا، ولا تقاطعوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا»(2).

والتجسُّس في تطلع الأخبار، والتحسُّس بالمراقبة بالعين. فستر العيوب والتجاهل والتغافل عنها شيمة أهل الدين.

الستر والسكوت على المساوئ والعيوب:

ويكفيك تنبيهًا على كمال الرتبة في ستر القبيح وإظهار الجميل: أن الله تعالى

(1) متفق عليه: رواه البخاري في الفرائض (٦٧٢٤)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٦٣)، عن أبي هريرة.

(2) متفق عليه: متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠٦٤)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٦٣ (٢٨)، عن أبي هريرة.

وُصِفَ به في الدعاء، فقيل: يا من أظهر الجميل، وستر القبيح[1].

والمرضيُّ عند الله من تخلَّق بأخلاقه، فإنه ستَّار العيوب، وغفَّار الذنوب، ومتجاوز عن العبيد، فكيف لا تتجاوز أنت عمَّن هو مثلك أو فوقك، وما هو بكل حال عبدك ولا مخلوقك؟ وقد قال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ للحواريين: كيف تصنعون إذا رأيتم أخاكم نائمًا، وقد كشفت الريح ثوبه عنه؟ قالوا: نستره ونغطيه. قال: بل تكشفون عورته. قالوا: سبحان الله! من يفعل هذا؟ فقال: أحدكم يسمع بالكلمة في أخيه، فيزيد عليها ويشيعها بأعظم منها![2]

أقل درجات الأخوة:

واعلم أنه لا يتم إيمان المرء ما لم يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وأقل درجات الأخوة: أن يعامل أخاه بما يحب أن يعامله به، ولا شك أنه ينتظر منه ستر العورة، والسكوت على المساوئ والعيوب، ولو ظهر له منه نقيض ما ينتظره، اشتدَّ عليه غيظه وغضبه، فما أبعده إذا كان ينتظر منه ما لا يضمره له، ولا يعزم عليه لأجله! وويل له في نص كتاب الله تعالى حيث قال: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝﴾ [المطففين:١-٣]، وكل من يلتمس من الإنصاف أكثر مما تسمح به نفسه، فهو داخل تحت مقتضى هذه الآية.

كتمان السر:

ومن ذلك: أن يسكت عن إفشاء سره الذي استودعه، وله أن ينكره، وإن كان كاذبًا، فليس الصدق واجبًا في كل مقام، فإنه كما يجوز للرجل أن يخفي عيوب نفسه وأسراره، وإن احتاج إلى الكذب، فله أن يفعل ذلك في حقِّ أخيه، فإن أخاه

(١) رواه الحاكم في الدعاء والتكبير (١/ ٥٤٤)، والبيهقي في الدعوات الكبير (٢٣٨)، عن عبد الله بن عمرو.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في الصمت (٦٤١) عن خالد الربعي.

نازل منزلته، وهما كشخص واحد، لا يختلفان إلا بالبدن. هذه حقيقة الأخوة.

وكذلك لا يكون بالعمل بين يديْ (أخيه) مرائيًا وخارجًا عن أعمال السر، إلى أعمال العلانية، فإن معرفة أخيه بعمله، كمعرفته بنفسه من غير فرق.

وقد قال عليه السلام: «من ستر عورة أخيه ستره الله تعالى يوم القيامة»(١).

وفي حديث آخر: «من ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة»(٢).

وفي حديث آخر: «من ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة»(٣).

وقال عليه السلام: «إذا حدّث الرجل بحديث ثم التفت فهو أمانة»(٤).

قيل لبعض الأدباء: كيف حفظك للسر؟ قال: أنا قبره.

وقد قيل: صدور الأحرار قبور الأسرار.

وقيل: إن قلب الأحمق في فيه، ولسان العاقل في قلبه.

أي لا يستطيع الأحمق إخفاء ما في نفسه، فيبديه من حيث لا يدري به، فلذلك يجب مقاطعة الحمقى والتوقّي عن صحبتهم، بل عن مشاهدتهم.

وقد قيل لآخر: كيف تحفظ السر؟ قال: أجحد المُخْبِر، وأحلف للمستخبِر.

وقال آخر: أستره، وأستر أني أستره.

وعبر عنه ابن المعتز فقال:

ومستودعي سرًّا تبوأت كتمه فأودعته صدري، فصار له قبرا

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٥٤٦)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٣٣٨): صحيح لغيره، عن ابن عباس.

(٢) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٦٩٩)، وأحمد (٧٤٢٧)، عن أبي هريرة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في المظالم والغصب (٢٤٤٢)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٠)، عن ابن عمر.

(٤) رواه أحمد (١٤٤٧٤) وقال مخرجوه: حسن لغيره، وأبو داود في الأدب (٤٨٦٨)، والترمذي في البر والصلة (١٩٥٩) وقال: حسن. وحسنه الألباني في الصحيحة (١٠٩٠)، عن جابر بن عبد الله.

وقال آخر وأراد الزيادة عليه:

وما السر في صدري كثاوٍ بقبره ... لأني أرى المقبور ينتظر النشرا

ولكنني أنساه حتى كأنني ... بما كان منه لم أحط ساعة خُبرا

ولو جاز كتمُ السرِّ بيني وبينه ... عن السر والأحشاء لم تعلم السِّرَّا

وأفشى بعضهم سرًّا له إلى أخيه، ثم قال له: حفظتَ؟ فقال: بل نسيتُ.

وكان أبو سعيد الثوري يقول: إذا أردتَ أن تؤاخي رجلًا، فأغضِبْه، ثم دُسَّ عليه من يسأله عنك وعن أسرارك، فإن قال خيرًا وكتم سرَّك، فاصحبه.

وقيل لأبي يزيد: من تصحب من الناس؟ قال: من يعلم منك ما يعلم الله، ثم يستر عليك كما يستره الله.

وقال ذو النون: لا خير في صحبة من لا يحب أن يراك إلا معصومًا[(١)].

ومن أفشى السر عند الغضب، فهو اللئيم؛ لأن إخفاءه عند الرضا تقتضيه الطباع السليمة كلها.

وقد قال بعض الحكماء: لا تصحب من يتغيَّر عليك عند أربع: عند غضبه ورضاه، وعند طمعه وهواه. بل ينبغي أن يكون صدق الأخوة ثابتًا على اختلاف هذه الأحوال، ولذلك قيل:

وترى الكريم إذا تصرَّم وصله ... يخفي القبيح ويُظهر الإحسانا

وترى اللئيم إذا تقضَّى وصله ... يُخفي الجميل ويُظهر البهتانا

وقال العباس لابنه عبد الله: إني أرى هذا الرجل- يعني عمر ﷺ- يُقدِّمك على الأشياخ، فاحفظ عني خمسًا: لا تفشينَّ له سرًّا، ولا تغتابنَّ عنده أحدًا، ولا

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٣٧٨).

تجرينَّ عليه كذبًا، ولا تعصينَّ له أمرًا، ولا يطلعنَّ منك على خيانة. فقال الشعبي: كل كلمة من هذه الخمس خير من ألف[(١)].

السكوت عن المماراة:

ومن ذلك: السكوت عن المماراة والمدافعة في كل ما يتكلم به أخوك.

قال ابن عباس: لا تمار سفيهًا فيؤذيك، ولا حليمًا فيقليك[(٢)]. أي: يبغضك.

وقد قال ﷺ: «من ترك المراء وهو مبطل، بني له بيت في رَبَض الجنة، ومن ترك المراء وهو محق، بُنِي له بيت في أعلى الجنة»[(٣)].

هذا مع أن تركه مبطلًا واجب، وقد جعل ثواب النفل أعظم؛ لأن السكوت عن الحق أشد على النفس من السكوت على الباطل، وإنما الأجر على قدر النصب، وأشدُّ الأسباب لإثارة نار الحقد بين الإخوان: المماراة والمنافسة، فإنها عين التدابر والتقاطع، فإن التقاطع يقع أولًا بالآراء، ثم بالأقوال، ثم بالأبدان.

وقال عليه السلام: «لا تدابروا، ولا تباغضوا، ولا تقاطعوا، وكونوا عباد الله إخوانًا، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه ولا يخذله، بحسب المرء من الشر أن يحقر أخاه المسلم»[(٤)].

وأشد الاحتقار: المماراة، فإن من ردَّ على غيره كلامه، فقد نسبه إلى الجهل والحُمق، أو إلى الغفلة والسهو عن فهم الشيء على ما هو عليه، وكل ذلك استحقار وإيغار للصدر وإيحاش.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه في الأدب (٢٦٠٤٠).

(٢) ذكره أبو طالب المكي في قوت القلوب (١/ ١٣٨).

(٣) رواه أبو داود في الأدب (٤٨٠٠)، والبيهقي في الشهادات (١٠/ ٢٤٩)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٦٤٨)، عن أبي أمامة.

(٤) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٤)، وأحمد في مسنده (٧٧١٣)، عن أبي هريرة.

والمماراة مضادَّة لحسن الخلق. وقد انتهى السلف في الحذر عن المماراة، والحض على المساعدة، إلى حدٍّ لم يروا السؤال أصلًا، وقالوا: إذا قلت لأخيك: قم. فقال: إلى أين؟ فلا تصحبه. بل قالوا: ينبغي أن يقوم ولا يسأل.

وقال أبو سليمان الداراني: كان لي أخ بالعراق، فكنتُ أجيئه في النوائب، فأقول: أعطني من مالك شيئًا، فكان يلقي إليَّ كيسه، فآخذ منه ما أريد، فجئته ذات يوم. فقلت: أحتاج إلى شيء. فقال: كم تريد؟ فخرجتْ حلاوة إخائه من قلبي.

وقال آخر: إذا طلبتَ من أخيك مالًا، فقال: ماذا تصنع به؟ فقد ترك حق الإخاء.

واعلم أن قوام الأخوة بالموافقة في الكلام والفعل والشفقة.

قال أبو عثمان الحيري: موافقة الإخوان خير من الشفقة عليهم[(١)]. وهو كما قال»[(٢)].

الحق الرابع: على اللسان بالنطق:

قال الغزالي: «فإن الأخوة كما تقتضي السكوت عن المكاره، تقتضي أيضًا النطق بالمحابّ، بل هو أخصُّ بالأخوة؛ لأن من قنع بالسكوت صحب أهل القبور، وإنما تراد الإخوان ليستفاد منهم، لا ليتخلص عن أذاهم، والسكوت معناه كف الأذى.

فعليه أن يتودَّد إليه بلسانه، ويتفقده في أحواله التي يجب أن يُتفقَّد فيها، كالسؤال عن عارض إن عرض وإظهار شغل القلب بسببه، واستبطاء العافية عنه، وكذا جملة أحواله التي يكرهها ينبغي أن يظهر بلسانه وأفعاله كراهتها، وجملة أحواله التي يسر بها ينبغي أن يظهر بلسانه مشاركته له في السرور بها. فمعنى الأخوة: المساهمة في السرَّاء والضرَّاء.

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٠/ ٢٤٤).

(٢) إحياء علوم الدين (٢/ ١٧٣-١٨٠) بتصرف.

وقد قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إذا أحب أحدكم أخاه فليُعلمه»[1]. وإنما أمر بالإخبار؛ لأن ذلك يوجب زيادة حب، فإن عرف أنك تحبه أحبَّك بالطبع لا محالة، فإذا عرفت أنه أيضًا يحبك، زاد حبك لا محالة، فلا يزال الحب يتزايد من الجانبين ويتضاعف.

والتحابّ بين المؤمنين مطلوب في الشرع، ومحبوب في الدين، ولذلك علَّم النبي ﷺ فيه الطريق فقال: «تهادوا تحابوا»[2].

ومن ذلك: أن تدعوه بأحب أسمائه إليه في غيابه وحضوره.

قال عمر ﷺ: ثلاث يُصفِّين لك وُد أخيك: أن تسلم عليه إذا لقيته أولًا، وتوسِّع له في المجلس، وتدعوه بأحب أسمائه إليه[3].

ومن ذلك: أن تُثني عليه بما تعرف من محاسن أحواله عند من يؤثر هو الثناء عنده، فإن ذلك من أعظم الأسباب في جلب المحبة، وكذلك الثناء على أولاده وأهله وصنعته وفعله، حتى على عقله وخلقه وهيئته وخطه وشعره وتصنيفه وجميع ما يفرح به، وذلك من غير كذب وإفراط، ولكن تحسين ما يقبل التحسين لا بد منه، وآكد من ذلك أن تبلِّغه ثناء من أثنى عليه مع إظهار الفرح، فإن إخفاء ذلك محض الحسد.

ومن ذلك: أن تشكره على صنيعه في حقك، بل على نيَّته، وإن لم يتم ذلك.

قال علي ﷺ: من لم يحمد أخاه على حُسن النيَّة، لم يحمده على حُسن الصنيعة[4].

---

(١) رواه أحمد (١٧١٧١) وقال مخرجوه: إسناده صحيح، وأبو داود في الأدب (٥١٢٤)، والترمذي في الزهد (٢٣٩٢ وقال: حسن صحيح غريب، والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (٩٩٦٣)، عن المقدام بن معديكرب.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (٥٩٤)، وأبو يعلى (٦١٤٨)، وحسن إسناده ابن حجر في بلوغ المرام (٩٤٢)، وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٤٦٣)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٨٣٩٨).

(٤) أبو عبد الرحمن السلمي في آداب الصحبة (١٨).

وأعظم من ذلك تأثيرًا في جلب المحبة: الذبُّ عنه في غيبته، مهما قُصد بسوء أو تُعرِّض لعرضه بكلام صريح أو تعريض، فحق الأخوة: التشمير في الحماية والنصرة، وتبكيت المتعنِّت وتغليظ القول عليه. والسكوت عن ذلك موغر للصدر، ومنفِّر للقلب، وتقصير في حق الأخوة. وإنما شبَّه سلمان ﷺ(1) الأخوين: باليدين تغسل إحداهما الأخرى، لينصر أحدهما الآخر، وينوب عنه، وقد قال رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يسلمه»(2).

وهذا من الانثلام والخذلان، فإن إهماله لتمزيق عرضه كإهماله لتمزيق لحمه. فأخسس بأخٍ يراك والكلاب تفترسك وتمزق لحومك، وهو ساكت، لا تحركه الشفقة والحمية للدفع عنك!

وتمزيق الأعراض أشد على النفوس من تمزيق اللحوم، ولذلك شبهه الله تعالى بأكل لحوم الميتة، فقال: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ [الحجرات: ١٢]. فإذن حماية الأخوة بدفع ذمّ الأعداء وتعنت المتعنتين واجب في عقد الأخوة.

وقد قال مجاهد: لا تذكر أخاك في غيبته، إلا كما تحب أن يذكرك في غيبتك»(3).

معياران في التقدير

قال الغزالي: «فإذن لك فيه معياران:

أحدهما: أن تقدِّر أن الذي قيل فيه لو قيل فيك، وكان أخوك حاضرًا ما الذي كنت تحب أن يقوله أخوك فيك؟ فينبغي أن تعامل المتعرض لعرضه به.

---

(١) في الأصل: رسول الله ﷺ، والصحيح أن القائل سلمان، وسبق تخريج الأثر.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) إحياء علوم الدين (٢/ ١٨٠، ١٨١) بتصرف.

والثاني: أن تقدِّر أنه حاضر من وراء جدار يسمع قولك، ويظن أنك لا تعرف حضوره؛ فما كان يتحرك في قلبك من النصرة له بمسمع منه ومرأى، فينبغي أن يكون في مغيبه كذلك، فقد قال بعضهم: ما ذُكر أخ لي بغيب إلا تصورته جالسًا، فقلت فيه ما يحب أن يسمعه لو حضر.

وقال آخر: ما ذُكر أخ لي إلا تصورت نفسي في صورته، فقلت فيه مثل ما أحب أن يقال فيَّ.

وهذا من صدق الإسلام، وهو ألا يرى لأخيه إلا ما يراه لنفسه.

وقد نظر أبو الدرداء إلى ثورين يحرثان في فدان، فوقف أحدهما يحك جسمه، فوقف الآخر، فبكى وقال: هكذا الأخوان في الله يعملان لله، فإذا وقف أحدهما وافقه الآخر.

وبالموافقة يتم الإخلاص، ومن لم يكن مخلصًا في إخائه فهو منافق. والإخلاص استواء الغيب والشهادة، واللسان والقلب، والسر والعلانية، والجماعة والخلوة.

والاختلاف والتفاوت في شيء من ذلك مماذقة[1] في المودة، وهو دَخَل في الدين، ووليجة في طريق المؤمنين، ومن لا يقدر من نفسه على هذا، فالانقطاع والعزلة أولى به من المؤاخاة والمصاحبة، فإن حق الصُّحبة ثقيل، لا يطيقه إلا محقِّق، فلا جرم أجره جزيل، لا يناله إلا موفَّق.

إحسان الصحبة من الإيمان:

ولذلك قال ﷺ: «يا أبا هريرة، أحسن مجاورة من جاورك تكن مسلمًا،

(١) أي: تخليط.

وأحسِن مصاحبة صاحبك تكن مؤمنًا»[١]. فانظر كيف جعل الإيمان جزاء الصحبة، والإسلام جزاء الجوار؟ فالفرق بين فضل الإيمان وفضل الإسلام، على حد الفرق بين المشقة في القيام بحق الجوار، والقيام بحق الصحبة. فإن الصحبة تقتضي حقوقًا كثيرة في أحوال متقاربة مترادفة على الدوام، والجوار لا يقتضي إلا حقوقًا قريبة في أوقات متباعدة لا تدوم.

المواساة بالتعليم وبالنصيحة في السر:

ومن ذلك: التعليم والنصيحة، فليس حاجة أخيك إلى العلم بأقل من حاجته إلى المال: فإن كنتَ غنيًّا بالعلم، فعليك مؤاساته من فضلك، وإرشاده إلى كل ما ينفع في الدين والدنيا، فإن علمته وأرشدته، ولم يعمل بمقتضى العلم، فعليك النصيحة. وذلك بأن تذكر آفات ذلك الفعل، وفوائد تركه، وتخوفه بما يكرهه في الدنيا والآخرة، لينزجر عنه، وتنبِّهه على عيوبه، وتقبِّح القبيح في عينه، وتُحسِّن الحسن، ولكن ينبغي أن يكون ذلك في سر لا يطَّلع عليه أحد. فما كان على الملأ فهو توبيخ وفضيحة، وما كان في السر فهو شفقة ونصيحة. إذ قال ﷺ: «المؤمن مرآة المؤمن»[٢]، أي: يرى منه ما لا يرى من نفسه، فيستفيد المرء بأخيه معرفة عيوب نفسه، ولو انفرد لم يستفد، كما يستفيد بالمرآة الوقوف على عيوب صورته الظاهرة.

وقال الشافعي ﷺ: من وعظ أخاه سرًّا، فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية، فقد فضحه وشانه[٣].

---

(١) رواه ابن ماجه في الزهد (٤٢١٧)، وأبو يعلى (٥٨٦٥)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٣٩٨).

(٢) رواه أبو داود في الأدب (٤٩١٨)، وابن وهب في جامعه (٢٣٧)، والبزار (٨١٠٩)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٩٢٦)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٩/ ١٤٠).

وقيل لمسعر: أتحب من يخبرك بعيوبك؟ فقال: إنْ نصحني فيما بيني وبينه فنعم، وإنْ قرّعني بين الملأ، فلا.

وقد صدق، فإن النصح على الملأ فضيحة، والله تعالى يعاتب المؤمن يوم القيامة تحت كَنَفه، في ظل ستره، فيُوقفه على ذنوبه سرًّا، وقد يدفع كتاب عمله مختومًا إلى الملائكة الذين يحفُّون به إلى الجنة، فإذا قاربوا باب الجنة أعطوه الكتاب مختومًا ليقرأه، وأما أهل المقت، فينادون على رؤوس الأشهاد، وتستنطق جوارحهم بفضائحهم، فيزدادون بذلك خزْيًا وافتضاحًا، ونعوذ بالله من الخزي يوم العرض الأكبر.

فالفرق بين التوبيخ والنصيحة بالإسرار والإعلان، كما أن الفرق بين المداراة والمداهنة بالغرض الباعث على الإغضاء، فإن أغضيْت لسلامة دينك، ولما ترى من إصلاح أخيك بالإغضاء، فأنت مدارٍ، وإن أغضيْت لحظِّ نفسك، واجتلاب شهواتك، وسلامة جاهك، فأنت مداهن.

وقال ذو النون: لا تصحب مع الله إلا بالموافقة، ولا مع الخلق إلا بالمناصحة، ولا مع النفس إلا بالمخالفة، ولا مع الشيطان إلا بالعداوة.

فإن قلت: فإذا كان في النصح ذكر العيوب، ففيه إيحاشٌ للقلب، فكيف يكون ذلك من حق الأُخُوة؟

فاعلم أن الإيحاش: إنما يحصل بذكر عيب يعلمه أخوك من نفسه؛ فأما تنبيهه على ما لا يعلمه فهو عين الشفقة، وهو استمالة القلوب، أعني قلوب العقلاء، وأما الحمقى فلا يُلتفت إليهم، فإن من ينبِّهك على فعل مذموم تعاطيتَه أو صفة مذمومة اتَّصفت بها، لتزكِّي نفسك عنها، كان كمن ينبِّهك على حيَّة أو عقرب تحت ذَيْلك، وقد همَّت بإهلاكك، فإن كنت تكره ذلك فما أشد حمقك! والصفات

الذميمة عقارب وحيات، وهي في الآخرة مُهلكات، فإنها تلدغ القلوب والأرواح، وألمها أشد مما يلدغ الظواهر والأجساد، وهي مخلوقة من نار الله الموقدة، ولذلك كان عمر ﷺ يستهدي ذلك من إخوانه ويقول: رحم الله امرأً أهدى إلى أخيه عيوبه[(1)].

اكشف عن رأسك قناع الغافلين، وانتبه عن رقدة الموتى، واعلم أن من قرأ القرآن، ولم يستغنِ، وآثر الدنيا، لم آمَنْ أن يكون بآيات الله من المستهزئين، وقد وصف الله تعالى الكاذبين ببغضهم للناصحين، إذ قال: ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩].

وهذا في عيبٍ هو غافل عنه، فأما ما علمتَ أنه يعلمه من نفسه، فإنما هو مقهورٌ عليه من طبعه، فلا ينبغي أن يكشف فيه ستره إن كان يُخفيه، وإن كان يظهره، فلا بد من التلطف في النصح بالتعريض مرة، وبالتصريح أخرى، إلى حدٍّ لا يؤدي إلى الإيحاش.

فإن علمت أن النصح غير مؤثِّر فيه، وأنه مضطرٌ من طبعه إلى الإصرار عليه، فالسكوت عنه أولى.

وهذا كله فيما يتعلق بمصالح أخيك في دينه أو دنياه، أما ما يتعلق بتقصيره في حقك، فالواجب فيه الاحتمال والعفو والصفح والتعامي عنه، والتعرض لذلك، ليس من النصح في شيء، نعم إن كان بحيث يؤدِّي استمراره عليه إلى القطيعة، فالعتاب في السر خير من القطيعة، والتعريض به خير من التصريح، والمكاتبة خير من المشافهة، والاحتمال خير من الكُل، إذ ينبغي أن يكون قصدك من أخيك

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة، للراغب الأصفهاني ص٢١٧.

إصلاح نفسك، بمراعاتك إياه، وقيامك بحقه، واحتمالك تقصيره، لا الاستعانة به، والاسترفاق منه.

وقال أبو علي الرباطي: صحبتُ عبد الله الرازي، وكان يدخل البادية، فقال: على أن تكون أنت الأمير، أو أنا؟ فقلت: بل أنت. فقال: وعليك الطاعة. فقلت: نعم، فأخذ مخلاة، ووضع فيها الزاد، وحملها على ظهره. فإذا قلت له: أعطني (أي: أعطني المخلاة أحملها عنك). قال: ألست قلت: أنت الأمير؟ فعليك الطاعة. فأخذنا المطر ليلة، فوقف على رأسي إلى الصباح، وعليه كساء، وأنا جالس يمنع عني المطر، فكنت أقول مع نفسي: ليتني مت ولم أقل: أنت الأمير[1]»[2].

الحق الخامس: العفو عن الزلات والهفوات:

قال الغزالي: «وهفوة الصديق لا تخلو: إما أن تكون في دينه، بارتكاب معصية، أو في حقِّك بتقصيره في الأخوة.

أما ما يكون في الدين من ارتكاب معصية والإصرار عليها، فعليك التلطف في نصحه، بما يُقوِّم أوده، ويجمع شمله، ويعيد إلى الصلاح والورع حاله. فإن لم تقدر، وبقي مُصِرًّا، فقد اختلفت طرق الصحابة والتابعين في إدامة حق مودَّته أو مقاطعته.

فذهب أبو ذر ﷺ إلى الانقطاع، وقال: إذا انقلب أخوك عمَّا كان عليه، فأبغضه من حيث أحببته. ورأى ذلك من مقتضى الحب في الله، والبغض في الله.

وأما أبو الدرداء وجماعة من الصحابة، فذهبوا إلى خلافه؛ فقال أبو الدرداء: إذا تغيَّر أخوك، وحال عمَّا كان عليه، فلا تدعْه لأجل ذلك، فإن أخاك يعوَجَّ مرة، ويستقيم أخرى.

---

(١) الرسالة القشيرية (٢/ ٤٥٣).

(٢) الإحياء (٢/ ١٨١-١٨٣) بتصرف.

وقال إبراهيم النخعي: لا تقطع أخاك، ولا تهجره عند الذنب يذنبه، فإنه يرتكبه اليوم، ويتركه غدًا. وقال أيضًا: لا تحدِّثوا الناس بزلة العالِم، فإن العالم يزل الزلة ثم يتركها[1].

وفي حديث عمر، وقد سأل عن أخ كان آخاه، فخرج إلى الشام، فسأل عنه بعض من قدم عليه، وقال: ما فعل أخي؟ قال: ذلك أخو الشيطان. قال: مَهْ. قال: إنه قارف الكبائر حتى وقع في الخمر. قال: إذا أردت الخروج، فآذني. فكتب عند خروجه إليه: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ [الغافر: ١-٣]. ثم عاتبه تحت ذلك وعذله. فلما قرأ الكتاب بكى وقال: صدق الله ونصح لي عمر. فتاب ورجع[2].

وكذلك حُكي عن أخوين من السلف، انقلب أحدهما عن الاستقامة، فقيل لأخيه: ألا تقطعه وتهجره؟ فقال: أحوج ما كان إليّ في هذا الوقت، لما وقع في عثرته: أن آخذ بيده، وأتلطف له في المعاتبة، وأدعو له بالعود إلى ما كان عليه[3].

الصداقة لُحمة كلُحمة النسب:

الصداقة لُحمة كلحمة النسب، والقريب لا يجوز أن يُهْجَر بالمعصية، ولذلك قال الله تعالى لنبيِّه ﷺ في عشيرته: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝﴾ [الشعراء: ٢١٦]. ولم يقل: إني بريء منكم، مراعاة لحق القرابة ولُحمة النسب.

وإلى هذا أشار أبو الدرداء لما قيل له: ألا تبغض أخاك وقد فعل كذا؟ فقال:

(١) ذكر هذه الآثار أبو طالب المكي في قوت القلوب (٢/ ٣٦٧).

(٢) رواها أبو نعيم في حلية الأولياء (٤/ ٩٧).

(٣) المصدر السابق (٢/ ٢٧٥).

إنما أبغض عمله، وإلا فهو أخي[1].

وأخوة الدين أوكد من أخوة القرابة، ولذلك قيل لحكيم: أيما أحب إليك أخوك أو صديقك؟ فقال: إنما أحب أخي إذا كان صديقًا لي[2].

وكان الحسن يقول: كم من أخ لك لم تلده أمك؟ ولذلك قيل: القرابة تحتاج إلى مودة، والمودة لا تحتاج إلى قرابة[3].

وقال جعفر الصادق ﷺ: مودَّة يومٍ صلة، ومودَّة شهر قرابة، ومودَّة سنة رحم ماسَّة، من قطعها قطعه الله[4].

وقال ﷺ: «شرار عباد الله المشَّاؤون بالنميمة، المُفرِّقون بين الأحبَّة»[5].

لا تكونوا عونا للشيطان على أخيكم:

وقال بعض السلف في سَتْر زلَّات الإخوان: ودَّ الشيطان أن يلقي على أخيكم مثل هذا، حتى تهجروه وتقطعوه، فماذا اتَّقيتم من محبَّة عدوكم؟ وهذا لأن التفريق بين الأحباب من محابِّ الشيطان، كما أن مقارفة العصيان من محابِّه؛ فإذا حصل للشيطان أحد غرضيه، فلا ينبغي أن يضاف إليه الثاني.

وإلى هذا أشار عليه السلام في الذي شتم الرجل الذي أتى فاحشة، إذ قال: «مَه». وزجره، وقال: «لا تكونوا عونًا للشيطان على أخيكم»[6].

(١) المصدر السابق (٢/ ٢٦٦).

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٢٢٥).

(٣) رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق (٩٠٥).

(٤) آداب الصحبة، أبو عبد الرحمن السلمي (١٦٩).

(٥) رواه أحمد (١٧٩٩٨)، وقال مخرجوه: حسن بشواهده. وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٤٧٠٠)، عن عبد الرحمن بن غنم الأشعري.

(٦) رواه البخاري في الحدود (٦٧٨١)، وأحمد (٧٩٨٥)، وأبو داود في الحدود (٤٤٧٧)، عن أبي هريرة.

أما زلته في حقه بما يوجب إيحاشه، فلا خلاف في أن الأولى العفو والاحتمال، بل كل ما يحتمل تنزيله على وجْه حسن، ويتصور تمهيد عذر فيه قريب أو بعيد، فهو واجب بحق الأخوة.

فقد قيل: ينبغي أن تستنبط لزلة أخيك سبعين عذرًا؛ فإن لم يقبله قلبك، فرُد اللوم على نفسك، فتقول لقلبك: ما أقساك! يعتذر إليك أخوك سبعين عذرًا فلا تقبله. فأنت المعيب لا أخوك!

فإن ظهر بحيث لم يقبل التحسين، فينبغي ألا تغضب إن قدرت، ولكن ذلك لا يمكن، وقد قال الشافعي رحمه الله: من استُغْضِب فلم يغضب، فهو حمار، ومن استُرضي فلم يرض فهو شيطان[(١)].

فلا تكن حمارًا ولا شيطانًا، واسترضِ قلبك بنفسك نيابة عن أخيك، واحترز أن تكون شيطانًا إن لم تقبل.

قال الأحنف: حقُّ الصديق أن تحتمل منه ثلاثًا: ظلم الغضب، وظلم الدالَّة، وظلم الهفوة[(٢)].

وقال آخر: ما شتمتُ أحدًا قط؛ لأنه إن شتمني كريم، فأنا أحق من غفرها له، أو لئيم، فلا أجعل عرضي له غَرَضًا، ثم تمثَّل وقال:

وأغفر عوراء الكريم ادخاره ... وأعرض عن شتم اللئيم تكرما[(٣)]!

وقد قيل:

خذ من خليلك ما صفا ... ودع الذي فيه الكدر
فالعمر أقصر من معا ... تبة الخليل على الغِيَر

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٩/ ١٤٣).
(٢) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٤/ ٣٤٢).
(٣) من شعر حاتم الطائي.

ومهما اعتذر إليك أخوك كاذبًا كان أم صادقًا، فاقبل عذره. قال الله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ [آل عمران:١٣٤]. ولم يقل: والفاقدين الغيظ، وهذا لأن العادة لا تنتهي إلى أن يُجرح الإنسان فلا يتألَّم، بل تنتهي إلى أن يصبر عليه ويحتمل، وكما أن التألم بالجرح مقتضى طبع البدن، فالتألُّم بأسباب الغضب طبع القلب، ولا يمكن قلعه، ولكن يمكن ضبطه وكظمه، والعمل بخلاف مقتضاه، فإنه يقتضي التشفي والانتقام والمكافأة، وترك العمل بمقتضاه ممكن، وقد قال الشاعر:

ولست بمستبقٍ أخًا لا تلُمّه على شعث، أيّ الرجال المهذَّبُ؟[1]

قال أبو سليمان الداراني لأحمد بن أبي الحواري: إذا واخيت أحدًا في هذا الزمان فلا تعاتبه على ما تكرهه، فإنك لا تأمن من أن ترى في جوابك ما هو شر من الأول. قال: فجرَّبته، فوجدته كذلك.

وقال بعضهم: الصبر على مضض الأخ، خير من معاتبته، والمعاتبة خير من القطيعة، والقطيعة خير من الوقيعة.

وينبغي ألا يبالغ في البغضة عند الوقيعة. قال تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ [الممتحنة: ٧].

وقال ﷺ: «أحبب حبيبك هونًا ما، عسى أن يكون بغيضك يومًا ما: وأبغض بغيضك هونًا ما، عسى أن يكون حبيبك يومًا ما»[2].

---

(١) من شعر النابغة.

(٢) رواه الترمذي في البر والصلة (١٩٩٧) وقال: هذا حديث غريب، والصحيح عن علي موقوف قوله، والطبراني في الأوسط (٣٣٩٥)، قال العراقي في تخريج الإحياء: صـ٦٤٣: رجاله ثقات رجال مسلم، لكن الراوي تردد في رفعه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٧٨)، عن أبي هريرة.

وقال عمر رضي الله عنه: لا يكن حبُّك كَلَفًا، ولا بُغضك تَلَفًا[1].

وهو أن تحب تَلَف صاحبك مع هلاكك»[2].

الحق السادس: الدعاء للأخ في حياته وبعد مماته:

قال الإمام الغزالي: «الدعاء للأخ في حياته وبعد مماته بكل ما يحبُّه لنفسه ولأهله وكلِّ متعلِّق به، فتدعو له كما تدعو لنفسك، ولا تفرِّق بين نفسك وبينه، فإن دعاءك له دعاء لنفسك على التحقيق، فقد قال ﷺ: «إذا دعا الرجل لأخيه بظهر الغيب، قال الملَك: ولك مثل ذلك»[3].

وفي الحديث: «دعوة الرجل لأخيه في ظهر الغيب مستجابة»[4].

وكان أبو الدرداء يقول: إني لأدعو لسبعين من إخواني في سجودي أسمِّيهم بأسمائهم[5].

وكان محمد بن يوسف الأصفهاني يقول: وأين مثل الأخ الصالح؟ أهلك يقتسمون ميراثك، ويتنعَّمون بما خلَّفت، وهو منفرد بحزنك، مهتمٌّ بما قدَّمت، وما صرتَ إليه، يدعو لك في ظُلمة الليل، وأنت تحت أطباق الثرى[6]»[7].

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (١٣٢٢)، وصحح إسناده الألباني في صحيح الأدب المفرد (٩٩٨).

(٢) الإحياء (٢/ ١٨٣-١٨٦) بتصرف.

(٣) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٣٢)، وأبو داود في الصلاة (١٥٣٤)، عن أبي الدرداء.

(٤) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٣٣)، عن أبي الدرداء.

(٥) رواه ابن المنذر في الأوسط (١٥٧٩).

(٦) قوت القلوب (٢/ ٣٨٢).

(٧) الإحياء (٢/ ١٨٦) بتصرف.

الحق السابع: الوفاء والإخلاص:

قال الإمام الغزالي: «ومعنى الوفاء: الثبات على الحب وإدامته إلى الموت معه، وبعد الموت مع أولاده وأصدقائه، فإن الحب إنما يراد للآخرة، فإن انقطع قبل الموت حبط العمل، وضاع السعي، ولذلك قال عليه السلام في السبعة الذين يظلهم الله في ظله: «ورجلان تحابّا في الله، اجتمعا على ذلك، وتفرَّقا عليه»(١).

وقال بعضهم: قليل الوفاء بعد الوفاة خير من كثيره في حال الحياة، ولذلك ثبت أنه ﷺ أكرم عجوزًا دخلت عليه، فقيل له في ذلك، فقال: «إنها كانت تأتينا أيام خديجة، وإن حُسْن العهد من الإيمان»(٢).

فمن الوفاء للأخ: مراعاة جميع أصدقائه وأقاربه والمتعلقين به، ومراعاتهم أوقع في قلب الصديق من مراعاة الأخ في نفسه، فإن فرحه بتفقُّد من يتعلق به أكثرُ، إذ لا يدل على قوة الشفقة والحب إلا تعدِّيهما من المحبوب إلى كل من يتعلَّق به، حتى الكلب الذي على باب داره، ينبغي أن يميَّز في القلب عن سائر الكلاب.

ومهما انقطع الوفاء بدوام المحبة، شمت به الشيطان، فإنه لا يحسد متعاونيْن على بر، كما يحسد متواخييْن في الله، ومتحابَّين فيه، فإنه يجهد نفسه لإفساد ما بينهما، قال الله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥٣]، وقال مخبرًا عن يوسف: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ [يوسف: ١٠٠]. ويقال: «ما تواخى اثنان في الله، فيفرَّق بينهما إلا بذنب يرتكبه أحدهما»(٣).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٦٦٠)، ومسلم في الكسوف (١٠٣١)، عن أبي هريرة.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) ولهذا المعنى حديث مرفوع: "ما توادَّ اثنان في الله جل وعز أو في الإسلام، فيفرق بينهما إلا بذنب يحدثه أحدهما". رواه أحمد (٥٣٥٧)، وقال مخرجوه: حديث صحيح، عن ابن عمر.

وكان بِشر يقول: إذا قصَّر العبد في طاعة الله، سلبه الله من يُؤْنسه[١]. وذلك لأن الإخوان مَسْلاة للهموم، وعَون على الدين. ولذلك قال ابن المبارك: ألذ الأشياء مجالسة الإخوان، والانقلاب إلى كفاية.

والمودَّة الدائمة هي التي تكون في الله، وما يكون لغرض يزول بزوال ذلك الغرض.

ومن ثمرات المودة في الله: ألا تكون مع حسد في دين ودنيا، وكيف يحسده، وكل ما هو لأخيه فإليه ترجع فائدته؟ وبه وصف الله تعالى المحبِّين في الله تعالى، فقال: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ﴾ [الحشر: ٩]. ووجود الحاجة هو الحسد.

ومن الوفاء: ألا يتغيَّر حاله في التواضع مع أخيه، وإن ارتفع شأنه، واتَّسعت ولايته، وعظم جاهه، فالترفع على الإخوان بما يتجدَّد من الأحوال لؤم.

قال الشاعر:

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا   من كان يألفهم في المنزل الخَشِن[٢]

أوصى بعض السلف ابنه فقال: يا بُنيَّ، لا تصحبْ من الناس إلا من إذا افتقرت إليه قرَّب منك، وإن استغنيتَ عنه لم يطمع فيك، وإن علت مرتبتُه لم يرتفَّع عليك.

وقال بعض الحكماء: إذا ولي أخوك ولاية، فثبت على نصف مودته لك، فهو كثير.

وليس من الوفاء موافقة الأخ فيما يخالف الحق في أمر يتعلق بالدين، بل من الوفاء المخالفة، فقد كان الشافعي رضي الله عنه آخى محمد بن عبد الحكم، وكان يقرِّبه، ويُقبل عليه، ويقول: ما يقيمني بمصر غيره، فاعتل محمد فعاده الشافعي رحمه الله

(١) رواه أبو سعد الهروي في الأربعين في شيوخ الصوفية ص١٥٨.

(٢) من شعر أبي تمام.

فقال:

مرض الحبيب فعُدتُّه فمرضتُ من حذري عليه

وأتى الحبيب يعودني فبرئتُ من نظـري إلــيه

وظن الناس لصدق مودَّتهما أنه يفوِّض أمر حلقته إليه بعد وفاته، فقيل للشافعي في علته التي مات فيها ﷺ: إلى من نجلس بعدك يا أبا عبد الله؟ فاستشرف له محمد بن عبد الحكم وهو عند رأسه ليومئ إليه؛ فقال الشافعي: سبحان الله! أيُشَك في هذا؟ أبو يعقوب البويطي. فانكسر لها محمد، ومال أصحابه إلى البويطي[1]. مع أنَّ محمدًا كان قد حمل عنه مذهبه كله، لكن كان البويطي أفضل وأقرب إلى الزهد والورع. فنصح الشافعي لله وللمسلمين، وترك المداهنة، ولم يُؤْثِر رضا الخلق على رضا الله تعالى.

فلما توفي انقلب محمد بن عبد الحكم عن مذهبه، ورجع إلى مذهب أبيه، ودرس كتب مالك ﷺ، وهو من كبار أصحاب مالك ﷺ. وآثر البويطي الزهد والخمول، ولم يُعجبه الجمع والجلوس في الحلقة، واشتغل بالعبادة وصنَّف «كتاب الأم» الذي ينسب الآن إلى الربيع بن سليمان، ولم يعرف به، وإنما صنَّفه البويطي، ولكن لم يذكر نفسه فيه، ولم ينسبه إلى نفسه، فزاد الربيع فيه، وتصرَّف وأظهره.

والمقصود: أن الوفاء بالمحبة من تمامها النصح لله.

قال الأحنف: الإخاء جوهرة رقيقة، إن لم تحرسها كانت معرَّضة للآفات، فاحرسها بالكظم، حتى تعتذر إلى من ظلمك، وبالرضا حتى لا تستكثر من نفسك الفضل، ولا من أخيك التقصير.

(١) رواها ابن عساكر في تاريخ دمشق (٥٣/ ٣٥٩).

ومن آثار الصدق والإخلاص وتمام الوفاء: أن تكون شديدَ الجزع من المفارقة، نفور الطبع عن أسبابها، كما قيل:

وجَدْتُ مصيباتِ الزمان جميعها ... سوى فرقة الأحباب هينة الخطب[1]

وأنشد ابن عيينة هذا البيت، وقال: لقد عهدت أقوامًا فارقتهم منذ ثلاثين سنة، ما يخيَّل إليَّ أن حسرتهم ذهبت من قلبي[2].

ومن الوفاء: ألَّا يسمع بلاغات الناس على صديقه، لا سيما مَن يظهر أولًا أنه محب لصديقه- كيلا يُتَّهم- ثم يلقي الكلام عرضًا، وينقل عن الصديق ما يوغر القلب، فذلك من دقائق الحيل في التضريب، ومن لم يحترز منه لم تدم مودته أصلًا.

قال واحد لحكيم: قد جئتك خاطبًا لمودتك، قال: إن جعلت مهرها ثلاثًا فعلت. قال: وما هي؟ قال: لا تسمع عليَّ بلاغة، ولا تخالفني في أمر، ولا توطئني عشوة[3].

ومن الوفاء: ألا يصادق عدو صديقه. قال الشافعي رحمه الله: إذا أطاع صديقك عدوك فقد اشتركا في عداوتك»[4].

الحق الثامن: التخفيف وترك التكلف والتكليف:

قال الإمام الغزالي: «وذلك بألَّا يُكلف أخاه ما يشق عليه، بل يروح سره من مهماته وحاجاته، ويرفِّهه عن أن يُحمِّله شيئًا من أعبائه، فلا يستمد منه من جاه ومال، ولا يكلفه التواضع له، والتفقد لأحواله، والقيام بحقوقه، بل لا يقصد

(١) من شعر السموءل. ينظر: شرح شواهد المغني (٢/ ٥٣٨)، نشر لجنة التراث العربي، طبعة عام ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦م.

(٢) قوت القلوب (٢/ ٣٧٥).

(٣) العشوة: ركوب الأمر على غير بيان. وأوطأني عشوة (مثلثة العين): لبس عليَّ، والمعنى أنه حمله على أن يركب أمرًا غير مستبين الرشد، فربما كان فيه عطبة.

(٤) الإحياء (٢/ ١٨٧، ١٨٨) بتصرف.

بمحبَّته إلا الله تعالى، تبرُّكًا بدعائه، واستئناسًا بلقائه، واستعانة به على دينه، وتقربًا إلى الله تعالى بالقيام بحقوقه، وتحمل مؤنته.

قال بعضهم: من اقتضى من إخوانه ما لا يقضونه فقد ظلمهم، ومن اقتضى منهم مثل ما يقتضونه فقد أتعبهم، ومن لم يقتض فهو المتفضِّل عليهم.

وقال بعض الحكماء: من جعل نفسه عند الإخوان فوق قدره أَثِم وأثموا، ومن جعل نفسه في قدره تعب وأتعبهم، ومن جعلها دون قدره سلم وسلموا.

وتمام التخفيف بِطَيِّ بساط التكلُّف، حتى لا يستحي منه فيما لا يستحي من نفسه.

وقال علي ﷺ: شرُّ الأصدقاء مَنْ تكلَّف لك، ومَنْ أحوجك إلى مداراة، وألجأك إلى اعتذار[1].

وقال الفضيل: إنما تقاطع الناس بالتكلُّف، يزور أحدهم أخاه فيتكلف له، فيقطعه ذلك عنه[2].

وقالت عائشة ﷺ: المؤمن أخو المؤمن لا يغتنمه ولا يحتشمه[3].

وقال الجنيد: صحبت أربع طبقات من هذه الطائفة، كل طبقة ثلاثون رجلًا: حارثًا المحاسبي وطبقته، وحسنًا المسوحي وطبقته، وسريًّا السقطي وطبقته، وابن الكريبي وطبقته، فما تواخى اثنان في الله واحتشم أحدهما من صاحبه أو استوحش، إلا لعلة في أحدهما.

وقيل لبعضهم: من نصحب؟ قال: مَنْ يرفع عنك ثقل التكلُّف، وتسقط بينك وبينه مؤنة التحفُّظ.

---

(١) رواه أبو طالب المكي في قوت القلوب (٢/ ٣٧٧).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في قرى الضيف (٦٠).

(٣) قوت القلوب (٢/ ٣٧٧).

وكان جعفر بن محمد الصادق ﷺ يقول: أثقل إخواني عليّ من يتكلَّف لي وأتحفَّظ منه، وأخفُّهم على قلبي من أكون معه كما أكون وحدي[(١)].

وقال بعض الصوفية: لا تعاشر من الناس إلا من لا تزيد عنده ببر، ولا تنقص عنده بإثم، يكون ذلك لك وعليك، وأنت عنده سواء.

وإنما قال هذا؛ لأنّ به يتخلص عن التكلُّف والتحفظ، وإلا فالطبع يحمله على أن يتحفَّظ منه إذا علم أن ذلك ينقصه عنده.

وقال بعضهم: كن مع أبناء الدنيا بالأدب، ومع أبناء الآخرة بالعلم، ومع العارفين كيف شئتَ!

وقال آخر: لا تصحب إلا من يتوب عنك إذا أذنبت، ويعتذر عليك إذا أسأت، ويحمل عنك مُؤْنة نفسك، ويكفيك مؤنة نفسه.

وقائلُ هذا قد ضيَّق طريق الأُخوة على الناس، وليس الأمر كذلك، بل ينبغي أن يؤاخي كل متديِّن عاقل، ويعزم على أن يقوم بهذه الشرائط، ولا يكلف غيره هذه الشروط، حتى تكثر إخوانه، إذ به يكون مؤاخيًا في الله، وإلا كانت مؤاخاته لحظوظ نفسه فقط.

ولذلك قال رجل للجنيد: قد عزَّ الإخوان في هذا الزمان! أين أخ لي في الله؟ فأعرض الجنيد، حتى أعاده ثلاثًا، فلما أكثر قال له الجنيد: إن أردت أخًا يكفيك مؤنتك، ويتحمَّل أذاك، فهذا لعمري قليل، وإن أردت أخًا في الله تحمل أنت مؤنته، وتصبر على أذاه، فعندي جماعة أعرفهم لك. فسكت الرجل.

واعلم أن الناس ثلاثة: رجل تنتفع بصحبته، ورجل تقدر على أن تنفعه ولا تتضرر به، ولكن لا تنتفع به، ورجل لا تقدر أيضًا على أن تنفعه، وتتضرر به، وهو

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٣٧٨).

الأحمق أو السيئ الخلق، فهذا الثالث ينبغي أن تتجنبه، فأما الثاني، فلا تجتنبه؛ لأنك تنتفع في الآخرة بشفاعته وبدعائه وبثوابك على القيام به.

وقد قال بعضهم: صحبت الناس خمسين سنة، فما وقع بيني وبينهم خلاف، فإني كنت معهم على نفسي، ومن كانت هذه شيمته كثر إخوانه.

ومن التخفيف وترك التكلف: ألَّا يعترض في نوافل العبادات.

كان طائفة من الصوفية يصطحبون على شرط المساواة بين أربع معان: إن أكل أحدهم النهار كله، لم يقل له صاحبه: صم. وإن صام الدهر كله، لم يقل له: أفطر. وإن نام الليل كله، لم يقل له: قم. وإن صلى الليل كله، لم يقل له: نم. وتستوي حالاته عنده بلا مزيد ولا نقصان؛ لأن ذلك إن تفاوت حرّك الطبع إلى الرياء والتحفظ لا محالة.

وقد قيل: مَن سقطت كلفته دامت ألفته، ومن خفَّت مؤنته دامت مودته.

ولا يتمُّ التخفيف وترك التكلف إلا بأن يرى نفسه دون إخوانه، ويُحسن الظن بهم، ويسيء الظن بنفسه، فعند ذلك يكون هو خيرًا منهم.

وقال أبو معاوية الأسود: إخواني كلهم خير مني، قيل: وكيف ذلك؟ قال: كلهم يرى لي الفضل عليه، ومَن فضَّلني على نفسه، فهو خير مني[1].

فهذه أقل الدرجات، وهو النظر بعين المساواة، والكمال في رؤية الفضل للأخ. ولذلك قال سفيان: إذا قيل لك يا شرَّ الناس، فغضبت، فأنت شر الناس.

أي: ينبغي أن تكون معتقدًا ذلك في نفسك أبدًا.

وقد قيل في معنى التواضع ورؤية الفضل للإخوان أبيات:

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٨/ ٢٧٢).

تـذلَّل لـمن إن تـذلَّلت لَـهْ يـرى ذاك للفضـل لا للبَلَـهْ
وجانب صداقة من لا يزال على الأصدقاء يرى الفضل له[1]

وقال آخر:

كم صديق عرَّفته بصديق صار أحظى من الصديق العتيق
ورفيـق رأيتـه فـي طريـق صار بعد الطريق خير صديـق[2]

ومهما رأى الفضل لنفسه، فقد احتقر أخاه، وهذا في عموم المسلمين مذموم. قال ﷺ: «بحسب المؤمن من الشر أن يحقر أخاه المسلم»[3].

ومن تتمة الانبساط، وترك التكلف: أن يشاور إخوانه في كل ما يقصده، ويقبل إشاراتهم، فقد قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وينبغي ألَّا يُخفي عنهم شيئًا من أسراره، كما روي أنَّ يعقوب ابن أخي معروف قال: جاء أسود بن سالم إلى عمي معروف، وكان مؤاخيًا له، فقال: إنَّ بشر بن الحارث يحب مؤاخاتك، وهو يستحي أن يشافهك بذلك، وقد أرسلني إليك يسألك أن تعقد له فيما بينك وبينه أخوة يحتسبها ويعتدُّ بها، إلا أنه يشترط فيها شروطًا: لا يحب أن يشتهر بذلك، ولا يكون بينك وبينه مزاورة ولا ملاقاة، فإنه يكره كثرة الالتقاء. فقال معروف: أما أنا لو آخيت أحدًا لم أحب مفارقته ليلًا ولا نهارًا، ولزرته في كل وقت، وآثرته على نفسي في كل حال. وأنا أشهدك أني قد عقدت له أخوة بيني وبينه، وعقدت إخاءه في الله لرسالتك ولمسألته، على ألَّا يزورني إن كره ذلك، ولكني أزوره متى أحببت، ومُره أن يلقاني في مواضع نلتقي بها، ومره ألَّا يخفي عليَّ

(١) من شعر ابن الفتى.
(٢) من شعر داود بن الحسين المخرمي.
(٣) سبق تخريجه.

شيئًا من شأنه، وأن يطلعني على جميع أحواله، فأخبر ابن سالم بِشرًا بذلك، فرضي وسُرّ به»[1].

تقييد حقوق الإخوان بجميع الجوارح:

وختم الإمام الغزالي هذه الحقوق بقوله: «فهذا جامع حقوق الصحبة، وقد أجملناه مرة وفصّلناه أخرى، ولا يتمُّ ذلك إلا بأن تكون على نفسك للإخوان، ولا تكون لنفسك عليهم، وأن تنزل نفسك منزلة الخادم لهم، فتقيِّد بحقوقهم جميع جوارحك.

أما البصر، فبأن تنظر إليهم نظر مودة يعرفونها منك، وتنظر إلى محاسنهم، وتتعامى عن عيوبهم، ولا تصرف بصرك عنهم في وقت إقبالهم عليك وكلامهم معك.

وأما السمع، فبأن تسمع كلامهم متلذِّذًا بسماعه، ومصدِّقًا به، ومظهرًا للاستبشار به، ولا تقطع حديثهم عليهم بمرادَّة ولا منازعة ومداخلة واعتراض، فإن أرهقك عارض اعتذرت إليهم، وتحرس سمعك عن سماع ما يكرهون.

وأما اللسان، فقد ذكرنا حقوقه، فإن القول فيه يطول، ومن ذلك: ألَّا يرفع صوته عليهم، ولا يخاطبهم إلا بما يفقهون.

وأما اليدان، فألَّا يقبضهما عن معاونتهم في كل ما يُتعاطى باليد.

وأما الرجلان، فأن يمشي بهما وراءهم مشي الأتباع لا مشي المتبوعين، ولا يتقدمهم إلا بقدر ما يقدمونه، ولا يقرب منهم إلا بقدر ما يقرِّبونه، ويقوم لهم إذا أقبلوا، ولا يقعد إلا بقعودهم، ويقعد متواضعًا حيث يقعد.

---

(١) الإحياء (٢/ ١٨٨، ١٩١) بتصرف.

ومهما تمَّ الاتحاد خفَّ حِمْله من هذه الحقوق، مثل القيام والاعتذار والثناء، فإنها من حقوق الصحبة، وفي ضمنها نوع من الأجنبية [معاملة الأجانب والأغراب] والتكلف، فإذا تمَّ الاتحاد انطوى بساط التكلف بالكليَّة، فلا يسلك به إلا مسلك نفسه؛ لأن هذه الآداب الظاهرة عنوان آداب الباطن، وصفاء القلب.

ومهما صفت القلوب استُغني عن تكلف إظهار ما فيها، ومن كان نظره إلى صحبة الخلق، فتارة يعوج، وتارة يستقيم، ومن كان نظره إلى الخالق، لزم الاستقامة ظاهرًا وباطنًا، وزيَّن باطنه بالحب لله ولخلقه، وزيَّن ظاهره بالعبادة لله والخدمة لعباده، فإنها أعلى أنواع الخدمة لله، إذ لا وصول إليها إلا بحسن الخلق، ويدرك العبد بحسن خلقه درجة القائم الصائم وزيادة»[(١)].

---

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ١٩١) بتصرف.

الفَصْلُ الرَّابِعُ

أدب المسلم في السلام والتحيَّة

تحيَّةُ الإنسان لصاحبه إذا لقيه: عادةٌ حسَنة، وتقليدٌ عريق في الاجتماع البشري، لِما فيه من إيناس المرء لمَن يُحيِّيه، وإشعارِه بالأمان والمودَّة وحُسن العشرة.

وهي عادة قديمة، توارثها الناس في مجتمعاتهم من قديم، وجاءت الأديان السماويَّة تدعو إليها وتؤكِّدُها.

وقد صحَّ في الحديث: «إن الله تعالى لمَّا خلق آدم، أمَرَه أن يذهب إلى نفَرٍ من الملائكة فيُحيِّيهم. فذهبَ وسلَّم عليهم، فردُّوا التحيةَ بأحسنَ منها»(1).

ومعنى هذا: أن التحيَّة وُلدتْ مع ميلاد الإنسان الأول، واستمرَّتْ في ذُرِّيَّتِه مِن بعده، وإن تفرَّقتْ بهم الأقطار، واختلفت منهم الألسنةُ والألوان. فأصل التحيَّة يكاد يكون متَّفَقًا عليه بين البشر قاطبةً، وإن اختلفتْ عاداتهم في صورة التحيَّة وطريقتها، باختلاف الشعوب والبيئات والأزمان، وما يعتنق الناسُ فيها مِن عقائدَ وأفكارٍ، تلوِّن غالبًا تقاليدَهم الاجتماعية، وتنْضَحُ عليها.

عرفَتْ بعضُ الأمم التحيةَ بالسجود أو الانحناء، كما ذكر القرآن الكريم في قصة يوسف، حين جاء أبواه وإخوتُه إلى مصر، وقال لهم: ﴿ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [يوسف:٩٩]. قال تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ ﴾

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الاستئذان (٦٢٢٧)، ومسلم في الجنة وصفتها (٢٨٤١)، عن أبي هريرة.

[يوسف:١٠٠]. ذكر المفسِّرون أن المراد بالسجود هنا: الانحناء، كما في قوله تعالى في قصة بني إسرائيل: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾ [البقرة:٥٨]. وكان في بعض بلاد العرب من يُحيِّي الأمراءَ والملوك بالسجود، كما شاهد ذلك معاذُ بن جبل في اليمن، حين بعثه الرسول إليها، وكان في بعض الشعوب من يُحيِّي الملوك والحكامَ بتقبيل الأرض بين أيديهم.

فلمَّا جاء الإسلام أبْطَلَ كلَّ تحيةٍ فيها إشعار بالذل والخضوع من إنسانٍ لغيره، فإن الناسَ كلَّهم سواسيةٌ، قد كرَّمهم الله، واستخلفهم في الأرض، فلا ينبغي لواحد منهم أن يَخضَع ويَذِلَّ إلا لخالِقِه، فلا سجودَ لمخلوق ولا انحناء، ولا تخشُّع ولا استخذاء، ولا تقبيل للأرض بين يدي عظيم من العظماء.

تحية الإسلام: السلام في الدنيا والآخرة:

والتحية في الإسلام هي «السلام»: وهي علامة للمحبَّة والمودَّة، وشعار للإخوة والترابط بين المسلمين، وهي فوق ذلك أدب اجتماعيٌّ عامٌّ لكل من أقلَّته أرض الإسلام، بل هي تحيَّة الأنبياء، وأول تحيَّة للبشر، علمها اللهُ آدمَ منذ خلقه، وهي تحيَّة أهل الجنَّة بعد انقضاء الحياة الدنيا.

قال تعالى عن أهل الجنة: ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾ [يونس:٩- ١٠].

وقال ﷻ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ۝٢٤﴾ [الرعد:٢٣- ٢٤].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٣٢﴾ [النحل:٣٢].

وقال عز من قائل: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا ۝٤٤﴾ [الأحزاب:٤٤].

وقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ۝٧٥﴾ [الفرقان:٧٥].

وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ۝٧٣﴾ [الزمر:٧٣].

السلام تحيَّة الله لأنبيائه:

وهي تحيَّة الله لأنبيائه: قال سبحانه في حقِّ يحيى بن زكريا عليهما السلام: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ۝١٥﴾ [مريم:١٥].

وقال تعالى على لسان عيسى ابن مريم، الذي أنطقه الله في المهد صبيًّا: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ۝٣٣﴾ [مريم:٣٣].

وقال ﷻ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٧٩﴾ [الصافات:٧٩]. وقال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ۝١٠٩﴾ [الصافات:١٠٩]. وقال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١٢٠﴾ [الصافات:١٢٠]. وقال سبحانه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ۝١٣٠﴾ [الصافات:١٣٠]. وقال جل شأنه في ختام السورة: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٨١﴾ [الصافات:١٨٠، ١٨١].

السلام تحية الأنبياء جميعاً:

وقد عرفنا من قبل أن السلام: أول تحيَّة للبشر تعلَّمها آدم يومَ خلقه الله، ففي الصحيحين عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «خلق الله آدم على صورته، طوله ستون ذراعًا، فلما خلقه قال: اذهب فسلِّمْ على أولئك النفر، وهم نفر من الملائكة جلوس، فاستمع ما يحيُّونك، فإنها تحيتُك وتحيةُ ذريتِك، فقال: السلام عليكم. فقالوا: السلام عليك ورحمة الله. فزادوه: ورحمة الله»[1].

(١) سبق تخريجه.

ولم تثبت الحفريات التي اهتم بها الجيولجيون والمؤرخون أنهم وجدوا صورة بهذا الحجم وذلك الطول (ستون ذراعًا)!

وهي تحية الأنبياء من بعد آدم، قال تعالى عن إبراهيم وضيفه: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾﴾ [هود:٦٩].

وقال ﷻ عن إبراهيم وأبيه: ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ۖ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ [مريم:٤٧].

وقال سبحانه عن موسى وهارون: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾﴾ [طه:٤٧].

وقال تعالى مخاطبًا نبيَّه محمدًا ﷺ: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤].

تحية المؤمنين:

وهي تحيَّة المؤمنين، وعباد الرحمن الصالحين، قال ﷻ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصص:٥٥].

وقال سبحانه: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان:٦٣].

وفي الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابُّوا، أولَا أدلُّكم على شيء إذا فعلتموه تحاببْتم؟ أفشوا السلام بينكم»[1].

(١) رواه مسلم في الإيمان (٥٤)، وأحمد (٩٧٠٩)، وأبو داود في الأدب (٥١٩٣)، عن أبي هريرة.

وفي المُتَّفق عليه: عن عبد الله بن عمرو، أن رجلًا سأل رسولَ الله ﷺ: أيُّ الإسلام خير؟ قال: «تُطْعِم الطعام، وتقرأ السلامَ على مَن عرفتَ ومَن لم تعرِف»[(١)].

قواعد في أدب التحيّة:

ومن أدب الإسلام الذي علّمه للناس: أن يبدأ الراكبُ بالسلام على الماشي، والماشي على الواقف والقاعد، والقليل على الكثير، والصغير على الكبير، لحديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يُسلِّم الراكبُ على الماشي، والماشي على القاعد، والقليل على الكثير»[(٢)]. وفي رواية البخاري: «والصغير على الكبير»[(٣)].

في التحيّة والتسليم يكفي البعض على الكل:

عن علي بن أبي طالب ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «ويجزئ عن الجماعة إذا مرُّوا أن يُسلِّم أحدُهم، ويُجزئ عن الجلوس أن يردَّ أحدُهم»[(٤)].

التسليم على الصِّبيان:

ومِن هَدْي النبي ﷺ: التسليم على الصبيان؛ لِما فيه من إيناسهم، وإدخال السرور على قلوبهم، وإشعارهم بشخصيتهم، وتدريبهم على آداب الشريعة من الصِّغر.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٢)، ومسلم (٣٩) كلاهما في الإيمان، كما رواه أحمد (٦٥٨١)، وأبو داود في الأدب (٥١٩٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الاستئذان (٦٢٣٢)، ومسلم في السلام (٢١٦٠)، كما رواه أحمد (٨٣١١)، وأبو داود في الأدب (٥١٩٩).

(٣) رواه البخاري في الاستئذان (٦٢٣١)، وأحمد (٨١٦١).

(٤) رواه أبو داود في الأدب (٥٢١٠)، والبزار (٥٣٤)، والبيهقي في السير (٩/ ٤٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨٠٢٣). قال الحافظ في الفتح: أخرجه أبو داود والبزار، وفي سنده ضعف، لكن له شواهد من حديث الحسن بن عليٍّ عند الطبراني (٣/ ٨٢)، وفي سنده مقال، وآخر مُرسل في الموطَّأ (٢/ ٩٥٩)، عن زيد بن أسلم. وقال الألباني في تخريج الكلم الطيب (ص١٩٩): حديث حسن، وفيه ضعف، لكن له شواهد يتقوى بها.

كما أنه يدل على تواضع الكبير، وعطفه على الصغير، ولِين جانبه، واطِّراحِه رداءَ الكبر والفظاظة وغلظة القلب، فهو مِن مكارم الأخلاق.

روى البخاريُّ ومسلم عن أنس بن مالك ﷺ: أنه مرَّ على صِبْيانٍ، فسلَّم عليهم، وقال: كان رسول الله ﷺ يفعلُه(١).

وروى البخاري في الأدب المفرد عنه قال: انتهى إلينا النبيُّ ﷺ ونحن صِبيان، فسلَّم علينا، وأرسلني في حاجة، وجلس في الطريق ينتظرني حتى رجعتُ(٢).

وروى النسائي عنه قال: كان رسول الله ﷺ يزور الأنصار، فيسلِّم على صِبيانهم، ويمسح رؤوسَهم، ويدعو لهم(٣).

وينبغي لوليِّ الصبيِّ أن يأمره بردِّ السلام، ويُعوِّدَه عليه، حتى يشبَّ على ذلك، ويتأدَّبَ بأدبِ الإسلام.

التسليم على الجنس الآخر:

وأعني بالتسليم على الجنس الآخر: تسليم الرجال على النساء، والنساء على الرجال. هل يجوز ذلك أو لا يجوز؟

جاء في سنن أبي داود والترمذي وابن ماجَهْ، عن أسماء بنت يزيد قالت: مرَّ علينا رسول الله ﷺ في نسوة، فسلَّم علينا(٤).

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الاستئذان (٦٢٤٧)، ومسلم في السلام (٢١٦٨)، كما رواه أحمد (١٢٣٣٧)، والترمذي في الاستئذان والآداب (٢٦٩٦).

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (١١٣٩)، وصحَّحه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٨٧٢).

(٣) رواه النسائي في عمل اليوم والليلة (٣٢٩)، وابن حبان في البر والإحسان (٤٥٩) وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح.

(٤) رواه أحمد (٢٧٥٨٩) وقال مخرِّجوه: حديث حسن، وأبو داود في الأدب (٥٢٠٤)، والترمذي في الاستئذان (٢٦٩٧) وقال: حديث حسن، وابن ماجه في الأدب (٣٧٠١).

عن أم هانئ بنت أبي طالب قالت: أتيتُ النبيَّ ﷺ يوم الفتح وهو يغتسل وفاطمة تستره، فسلَّمتُ عليه، فقال: «من هذه؟» قلتُ: أمُّ هانئ بنت أبي طالب. فقال: «مرحبًا بأم هانئ» فلمَّا فرغ من غُسله قام فصلَّى[1].

وكما ثبت عند مسلم، أن أبا بكر وعمر ﷺ زارا أمَّ أيمن، وسلَّما عليها بعد وفاة النبي ﷺ[2].

التحيَّة في مكالمة الهاتف:

وعلى المتصل بالهاتف أن يبدأ بالتحيَّة، ويقول: السلام عليكم، إذ هو الطالب، ويعرف أنه متَّصل بفلان بن فلان من الناس، وسيرد عليه، أو إنسان آخر من طرفه. فعليه أن يبدأ بالتحيَّة الإسلامية.

ولا ينبغي للمسلم أن يبدأ كلامه بكلمة (آلو)، فإن بداية كلام المؤمنين هي السلام. وعلى من سمع السلام أن يردَّ ويقول: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. أو على الأقل: وعليكم السلام. ولو كان كل واحد منهما في قارة، كأن تكلم إنسانًا في أوربا، أو أمريكا أو أستراليا، أو في أقاصي آسيا أو أفريقيا. فقد قرَّبت هذه الآلات الحديثة المسافات بين الناس، وبلغت مبلغًا عظيمًا في ذلك، وخصوصًا هذه الأيام، الذي أصبح للإنسان أن يكلِّم صاحبه وأن يسمعه، وأن يراه هو وأهله وأولاده.

وهذا من فضل الله على الناس، ولكن أكثر الناس لا يشكرون. وسبحان من علم الإنسان ما لم يعلم.

ابتداء غير المسلم بالتحيَّة:

وإذا كان إفشاء السلام من أدب الإسلام، وخُلُق المسلم. فهل يدخل في ذلك

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الصلاة (٣٥٧)، ومسلم في الحيض (٣٣٦)، كما رواه أحمد (٢٦٩٠٧).

(٢) رواه مسلم في فضائل الصحابة (٢٤٥٤)، عن أنس.

ابتداءُ غير المسلم بالسلام؟

هكذا فهم أبو أمامة ﷺ من الصحابة، فقد أخرج الطبري عنه: أنه كان لا يمرُّ بمسلمٍ ولا نصرانيٍّ، ولا صغير ولا كبير، إلا سلَّم عليه، فقيل له، فقال إنَّا أُمِرْنا بإفشاء السلام[(١)].

وروى البيهقي عنه، أنه كان يُسلِّم على كل مَن لقيه، فسُئل عن ذلك، فقال: إن الله جعل السلام تحيةً لأمَّتنا، وأمانًا لأهل ذِمَّتِنا[(٢)].

وروى ابن أبي شيبة، أن عون بن عبد الله سأل محمد بن كعب عن ابتداء أهل الذِّمَّة بالسلام، فقال: ما أرى بأسًا أن نبدأهم. قال له: لِمَ؟ قال: لقول الله تعالى: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾ [الزخرف:٨٩][(٣)]. وهذا في شأن المشركين، فكيف بأهل الكتاب؟!

وروى الطبري عن سفيان بن عُيَيْنة، أنه قال: يجوز ابتداء الكافر بالسلام، لقوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾ [الممتحنة:٨]. ولا شك أن السلام عليهم هو لون من البر لهم. وقول إبراهيم لأبيه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ۝٤٧﴾ [مريم:٤٧]. وقد كان أبوه مشركًا[(٤)].

وقال ابن وهب: يجوز ابتداء السلام على كل أحد، ولو كان كافرًا، واحتجَّ بقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة:٨٣][(٥)].

---

(١) عزاه الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١١/ ٤١): إلى الطبري، وجوَّد إسناده.

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٨٤١٩).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه في الأدب (٢٥٧٥٠).

(٤) تفسير القرطبي (١١/ ١١١، ١١٢).

(٥) فتح الباري، لابن حجر (١١/ ٤٠).

ومنَعَ ذلك آخرون، فقالوا: لا يجوز ابتداءُ الكافر بالسلام، مستندين إلى ما رواه أبو هريرة، عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام، واضطروهم إلى أضيق الطريق»[1].

ومعنى الجملة الثانية – كما قال القرطبي-: «لا تتنحَّوْا لهم عن الطريق الضيِّق، إكرامًا لهم واحترامًا... وليس المعنى: إذا لقيتموهم في طريق واسع فألجئوهم إلى حرفه حتى يضيق عليهم؛ لأن ذلك أذًى لهم، وقد نُهينا عن أذاهم بغير سبب»[2].

رأي السيد محمد رشيد رضا في السلام على غير المسلمين:

يرى الشيخ رشيد رضا رحمه الله أن الحديث بُني على سببٍ خاص، وواقعة معيَّنة، فلا ينبغي أن يُعمَّم على جميع اليهود والنصارى[3]، قال رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾ [النساء:٨٦]:

«من آداب الإسلام التي كانت فاشية في عهد النبوة: إفشاء السلام إلا مع المحاربين؛ لأن من سلَّم على أحد فقد أمَّنه، فإذا فتك به بعد ذلك كان خائنًا ناكثا للعهد، وكان اليهود يسلِّمُون على النبي ﷺ، فيرد عليه السلام، حتى كان من بعض سفهائهم تحريف السلام بلفظ: «السام» أي الموت، فكان النبي ﷺ يجيبهم بقوله: «وعليكم»، وسمعت عائشة واحدًا منهم يقول له: «السام عليكم»، فقالت

(١) رواه مسلم في السلام (٢١٦٧)، وأحمد (٧٦١٧)، والترمذي في الأدب (٥٢٠٥)، والبخاري في الأدب المفرد (١١٠٣)، عن أبي هريرة.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم للقرطبي (٥/ ٤٩٠)، دار ابن كثير دمشق، ط. الأولى ١٤٧١هـ ١٩٩٦م.

(٣) تفسير المنار (٥/ ٢٥٦).

له: وعليك السام واللعنة[1]. فانتهرها النبي عليه الصلاة والسلام مبينًا لها أن المسلم لا يكون فاحشًا ولا سبَّابًا، وأن الموت علينا وعليهم، وروي عن بعض الصحابة كابن عباس أنهم كانوا يقولون للذمي: السلام عليك[2]. وعن الشعبي من أئمة السلف أنه قال لنصراني سلَّم عليه: وعليك السلام ورحمة الله تعالى. فقيل له في ذلك، فقال: أليس في رحمة الله يعيش[3].

وفي حديث البخاري الأمر بالسلام على من تعرف ومن لا تعرف[4].

وروى ابن المنذر عن الحسن أنه قال: ﴿فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ﴾ للمسلمين ﴿أَوْ رُدُّوهَآ﴾ لأهل الكتاب[5].

وعليه يقال للكتابي في رد السلام عين ما يقوله، وإن كان فيه ذكر الرحمة.

هذه لمعة مما رُوِيَ عن السلف، ثم جاء الخلف، فاختلفوا في السلام على غير المسلم، فقال كثيرون: إنهم لا يبدؤون بالسلام، لحديث ورد في ذلك، وحملوا ما روي عن ابن عباس ﷺ على الحاجة، أي: لا يسلم عليهم ابتداء إلا لحاجة.

وأما الرد فقال بعض الفقهاء: إنه واجب كرد سلام المسلم، وقال بعضهم: إنه سنة، وفي (الخانية) من كتب الحنفية: ولو سلَّم يهودي أو نصراني أو مجوسي فلا بأس بالرد.

وهذا يدل على أنه مباح عند هذا القائل لا واجب ولا مسنون، مع أن السنة وردت به في الصحيح.

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري في الأدب (٦٠٢٤)، ومسلم في السلام (٢١٦٥).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في الأدب من مصنفه (٢٦٢٦٢).

(٣) المنتقى شرح الموطأ للباجي (٧/ ٢٨١).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (١٢)، ومسلم (٣٩)، كلاهما في الإيمان، عن عبد الله بن عمرو.

(٥) رواه ابن المنذر في التفسير (٢٠٧٥).

أما ما ورد من حق المسلم على المسلم، فلا ينافي حق غيره، فالسلام حق عام ويراد به أمران: مطلق التحية، وتأمين من تسلم عليه من الغدر والإيذاء وكل ما يسيء.

وقد روى الطبراني والبيهقي من حديث أبي أمامة: إن الله تعالى جعل السلام تحية لأمتنا، وأمانا لأهل ذمتنا[1].

وأكثر الأحاديث التي وردت في السلام عامة، وذكر في بعضها «المسلم»، كما ذكر في بعضها غيره، كحديث الطبراني المذكور آنفًا.

أما جعل تحية الإسلام عامة فعندي أن ذلك مطلوب، وقد ورد في الأحاديث الصحيحة أن اليهود كانوا يسلِّمون على المسلمين فيردون عليهم، فكان من تحريفهم ما كان سببًا لأمر النبي ﷺ بأمر المسلمين أن يردوا عليهم بلفظ: «وعليكم» حتى لا يكونوا مخدوعين للمحرِّفين.

ومن مقتضى القواعد أن الشيء يزول بزوال سببه، ولم يرد أن أحدًا من الصحابة نهى اليهود عن السلام؛ لأنهم لم يكونوا ليحظروا على الناس آداب الإسلام، ولكن خلف من بعدهم خلف أرادوا أن يمنعوا غير المسلم من كل شيء يعمله المسلم حتى من النظر في القرآن وقراءة الكتب المشتملة على آياته، وظنوا أن هذا تعظيم للدين، وصون له عن المخالفين، وكلما زادوا بعدًا عن حقيقة الإسلام زادوا إيغالًا في هذا الضرب من التعظيم، وإنهم ليشاهدون النصارى في هذا العصر يجتهدون بنشر دينهم ويوزعون كثيرا من كتبه على الناس مجانًا، ويعلمون أولاد المخالفين لهم في مدارسهم ليقربوهم من دينهم، ويجتهدون في تحويل الناس إلى عاداتهم وشعائرهم ليقربوا من دينهم، حتى إن الأوربيين فرحوا

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٨٤١٩).

فرحًا شديدًا عندما وافقهم خديوي مصر «إسماعيل باشا» على استبدال التاريخ المسيحي بالتاريخ الهجري، وعدوا هذا من آيات الفتح، وترى القوم الآن يسعون في جعل يوم الأحد عيدا أسبوعيًّا للمسلمين يشاركون فيه النصارى بالبطالة، ومع هذا كله نرى المسلمين لا يزالون يحبون منع غيرهم من الأخذ بآدابهم وعاداتهم، ويزعمون أن هذا تعظيم للدين، وكأن هذا التعظيم لا نهاية له إلا حجب هذا الدين عن العالمين، إن هذا لهو البلاء المبين، وسيرجعون عنه بعد حين اهـ.

هذا ما أفتينا به منذ بضع سنين، وحديث عائشة المشار إليه في الفتوى رواه الشيخان في صحيحيهما، والرد على أهل الكتاب بلفظ: «وعليكم» رواه الشيخان أيضًا عن أنس، ورويا عن أبي هريرة عدم ابتدائنا إياهم بالسلام، ولعل ذلك كان لأسباب خاصة اقتضاها ما كان بينهم وبين المسلمين من الحروب وكانوا هم المعتدين فيها، روى أحمد عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «إني راكب غدًا إلى يهود فلا تبدؤوهم بالسلام وإذا سلموا عليكم فقولوا وعليكم»[(١)]، فيظهر هنا أنه نهاهم أن يبدؤوهم لأن السلام تأمين، وما كان يحب أن يؤمِّنهم وهو غير آمِن منهم، لما تكرر من غدرهم ونكثهم للعهد معه؛ فكان ترك السلام عليهم تخويفًا لهم ليكونوا أقرب إلى المواتاة.

وقد نقل النووي في (شرح مسلم) جواز ابتدائهم بالسلام عن ابن عباس وأبي أمامة وابن محيريز ﷺ قال: وهو وجهٌ لأصحابنا[(٢)]. اهـ

وعندي أن الحاجة إلى معرفة سبب الأحاديث لأجل فهم المراد منها أشد

(١) رواه أحمد (١٧٢٩٥)، وقال مخرّجوه: حديث صحيح، وابن ماجه في الأدب (٣٦٩٩)، والطبراني (٢٢/ ٢٩٠) عن عبد الرحمن الجهني.
(٢) شرح النووي على مسلم (١٤/ ١٤٥).

من الحاجة إلى معرفة سبب نزول القرآن؛ لأن القرآن كله هداية عامة للناس يجب تبليغها، وفي الأحاديث ما ليس فيه، من الأمور الخاصة، والرأي الذي لم يقصد به أن يكون دينًا ولا هداية عامة، ولا أن يبلَّغ للناس، فتوقف فهمها على معرفة أسبابها أظهر.

والذي عليه جماهير المسلمين في البلاد التي نعرفها: أنهم يبدؤون أهل الكتاب بغير السلام من أنواع التحية المعروفة.

بعد كتابة هذا راجعت (زاد المعاد) فإذا هو يقول في حديث النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام:

قيل: إن هذا كان في قضية خاصة لما ساروا إلى بني قريظة.

وتردد في كونه حكمًا عامًّا لأهل الذمة، أو خاصًّا بمن كانت حاله مثل حالهم، وذكر خلاف السلف في المسألة بعد حديث مسلم المطلق في النهي عن الابتداء[1].

هذا وإن ابتداء السلام سنة مؤكدة عند الجمهور، وقيل: واجب، وأما رده فالجمهور على وجوبه، وظاهر الآية أن رد كل تحية واجب، وليس الوجوب خاصا بتحية السلام، ويكفي أن يسلم بعض الجماعة، وأن يرد بعض من يلقى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأن الجماعة لتضامنها واتحادها يقوم فيها الواحد مقام الجميع»[2].

التضييق في التحية بلفظ السلام أما بغيره فلا:

والذي أحبُّ أن أنبِّه عليه هنا:

١- أن الخلاف المذكور هنا، إنما هو في إفشاء السلام، الذي هو تحيَّة

---

(١) زاد المعاد (٢/ ٣٨٨- ٣٨٩).

(٢) تفسير المنار (٥/ ٢٥٥ - ٢٥٧).

المسلمين فيما بينهم، أما التحيَّة بغير السلام، فليستْ داخلةً في المنع، كأن يقول له: «صباح الخير»، أو «مساء الخير»، أو «نهارك سعيد»، ونحو ذلك، فلا بأس به. كما أنه لو سلَّم عليه بلفظ يقتضي خروجَه مِن السلام، كأن يقول له: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين». فهو جائز، أو يقول: «السلام على من اتَّبع الهدى». كما أوصى الله موسى وهارون حين أرسلهما إلى فرعون وقال لهما: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾﴾ [طه:٤٧]. كما كَتَبَ النبيُّ ﷺ إلى هِرَقل وغيره من الملوك والأمراء: «سلام على من اتبع الهدى»(١).

الملاحدة والمحاربون والمرتدون المجاهرون بالعداء للإسلام لا نُسلِّم عليهم:

٢- أن الكافر الذي يُحارِب المسلمين، ويناصبُهم العداءَ، سواء كانت حربًا عسكريةً مادية، أو حربًا معنوية دينيَّة وفكريَّة بالطعن في الدين، والتآمر على المسلمين؛ فلا يجوز إلقاء السلام عليهم؛ لأنه يدخل في المودَّة لمَن حادَّ الله ورسوله، ويدخل في موالاة أعداء الإسلام الذين نهى اللهُ عن تولِّيهم، إذ قال: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الممتحنة:٩]، وقال تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [النساء: ١٣٨، ١٣٩] ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ [آل عمران: ٢٨].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (٧)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٧٣)، عن ابن عباس.

ومثلُ هؤلاء: الملحدون، الذين لا يؤمنون بإلهٍ، ولا رسولٍ، ولا كتاب، ولا جنةٍ، ولا نار، وخصوصًا إذا كانوا في الأصل مسلمين مَرَقُوا مِن دينهم، وارتدُّوا عن عقيدتِهم، وآمنوا بالطاغوت، وكفروا بالله، فهؤلاء المرتدُّون، ومثلهم الملحدون والمحاربون، لا يُحيَّون بسلام ولا غيره بالإجماع.

وإنما وقع الخلافُ في شأن أهل الذمَّة، الذين أُمرْنا بحُسْن معاملتِهم، وأصبح لهم ما لنا، وعليهم ما علينا، إلا فيما استُثني.

اختيار ما رجحه الطبري:

٣- أن الذي أختارُه هنا هو ما رجَّحه الإمام الطبريُّ: وهو أن حديث أبي هريرة في المنع من ابتدائهم بالسلام، إنما هو فيما إذا كان الابتداء لغير سبب، ولغير حاجة، من حقِّ صحبةٍ، أو مجاورة، أو مكافأة، أو نحو ذلك.

وأيَّد الطبريُّ ترجيحَه هذا بما رواه بسندٍ صحيح، عن علقمة، قال: كنتُ رِدْفًا لابن مسعودٍ، فصحِبَنَا دهقانٌ[1]، فلمَّا انشعبتْ له الطريقُ، أخذ فيها، فأتبعه عبدُ الله بصرَه، فقال: السلام عليكم. فقلتُ: ألستَ تكره أن يُبدَؤُوا بالسلام؟ قال: نعم، ولكن حقُّ الصحبة[2].

يعني: أنَّ الصُّحبةَ في الطريق لها حقٌّ، وعلى هذا، فلا حرَج على الموظف، أو على الطالب المسلم: أن يُلقي السلام على زميله المسيحي. ولا على الجار المسلم: أن يُلقي السلام على جاره المسيحي أيضًا، وكذلك كل مَن له حقُّ رُفقة في سفر أو حضَر، وكل من يُرجَى بالتسليم عليه ترغيبُه في الإسلام، وكسْبُه في صفِّ المسلمين.

---

(١) كلمة فارسية، معناها: رئيس فلاحي العجم، أو رئيس البلدة والإقليم.

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٨٥١٩). وينظر: تفسير القرطبي (١١/ ١١٢)، وفتح الباري (١١/ ٤١).

الرد على غير المسلم:

أما الردُّ على غير المسلم، فليس فيه من الخلاف مثلُ ما في ابتداء السلام عليهم، فالردُّ واجب لا محالة؛ لأن عدم الردِّ فيه إيحاش وإيذاء وسوء خُلق، وقد نُهينا عنه.

غايةُ ما في الأمر: أنَّ مِن العلماء مَن أوجب الردَّ بغير السلام، باعتباره خاصًّا بالمسلمين، وشعارًا لهم، كأن يقول له: مرحبًا وأهلًا، ونحو ذلك، ولكن الآية الكريمة تقول: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ [النساء:٨٦]. فهي: تدلُّ على أن الردَّ يكون وَفْق الابتداء، إن لم يكن أحسنَ منه، وهي عامة تشمل كلَّ مَن حيَّانا، مسلمًا كان أو كافرًا.

وثبتَ عن ابن عباس أنه قال: من سلَّم عليك، فرُدَّ عليه، ولو كان مجوسيًّا[(١)].

ومما يدل على وجوب الردِّ بمثل ما قالوا: ما روتْه عائشةُ ﵂ قالت: دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ، فقالوا: السام عليك. ففهمتُها، فقلت: عليكم السام واللعنة. فقال رسول الله ﷺ: «مهلًا يا عائشة، فإن الله يحبُّ الرفقَ في الأمر كلِّه». فقلتُ: يا رسول الله! أولم تسمع ما قالوا؟! قال رسول الله ﷺ: «فقد قُلتُ: وعليكم»[(٢)].

كان هؤلاء اليهود يَلْوون ألسنتَهم، فيحرِّفون كلمةَ: «السلام» إلى «السام»، بمعنى: الموت والهلاك. أو مخفَّفة من «السأم»، أي: «تسأمون دينكم». كما ورد

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٩/ ٣٨).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري في الأدب (٦٠٢٤)، ومسلم في السلام (٢١٦٥)، كما رواه أحمد (٢٥٦٣٢)، والترمذي في الاستئذان (٢٧٠١)، عن عائشة.

عن قتادة[1]. فغضبتْ عائشةُ حين فطنتْ إلى تحريفهم، وأغلظتْ لهم القولَ، فأمرها النبيُّ ﷺ بالحِلم والرِّفْق، ولو مع هؤلاء الشِّرْذمة ممَّن ساء خُلقُهم وقولُهم. وإنه فهِم ما قالوا، واكتفى بقوله: «عليكم» أو «وعليكم».

وقد أرشد ﷺ أصحابَه إلى أن يقتدوا به في ذلك، فعن ابن عمر أنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إذا سَلَّم عليكم اليهودُ، فإنما يقول أحدُهم: السام عليك. فقُل: وعليك»[2].

وعن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سلَّم عليكم أهلُ الكتاب، فقولوا: وعليكم»[3].

والمراد بأهل الكتاب هنا: اليهود، كما روى البزار عن أنس: مرَّ يهودي بالنبي ﷺ وأصحابه، فسلَّم عليهم، فردَّ عليه أصحابُ النبي ﷺ، فقال: «هل تدرون ما قال؟» قالوا: نعم. سلَّم علينا. قال: «إنه قال: السام عليكم - أي: تسأمون دينكم - رُدُّوه عليَّ». فردُّوه، فقال: «كيف قلتَ؟» قال: قلتُ: السام عليكم. فقال: «إذا سلَّم عليكم أهلُ الكتاب، فقولوا: عليكم ما قلتم»[4].

فهذه الأحاديث تدلُّ على أن قضيَّة الردِّ على التحيَّة بمثلها مفروغ منها، وأن الرسول وأصحابه كانوا يردُّون على مَن سلَّم عليهم بمثل ما قاله، فإذا استوثق المسلم أن الذمِّيَّ لا يحرِّف لسانَه بمثل ما كان يفعل هؤلاء اليهود، فالأصل أن يردَّ التحية بمثلها، أو بأحسن منها.

(١) رواه البزار (٧٠٩٧)، وابن حبان في البر والإحسان (٥٠٣)، وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وصححه الألباني في الإرواء (١٢٧٦)، عن قتادة، عن أنس.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الاستئذان (٦٢٥٧)، ومسلم في السلام (٢١٦٤).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الاستئذان (٦٢٥٨)، ومسلم في السلام (٢١٦٣).

(٤) رواه البزار (٧٠٩٧)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٧٩٤): رجاله رجال الصحيح.

لا سلام على ظالم وفاجر ومبتدع:

وإذا جاز لمسلم أن يسلِّم على أهل الذمَّة، فلا يجوز له أن يسلم على مسلمٍ ظالمٍ معروفٍ ظلمُه، أو فاجرٍ مجاهرٍ بفسقه، أو مبتدعٍ في الإسلام ما لم يأذن به الله ورسولُه، وما لم يكن عليه سلف الأمة من البدع البيِّنة الواضحة.

وذلك أن للذمِّيّ عهدَ الله، وعهدَ رسوله، وعهدَ المسلمين: أن يبقى على دينه، وأن يُبرَّ ويُقسَط إليه؛ لأنه في كنف الإسلام وحمايته.

أمَّا الظالمُ والفاسق والمبتدع، فقد التزموا الإسلامَ، فواجبُهم أن يحافظوا عليه، ولا يتعدَّوا حدودَه.

فمَن زلتْ قدمُه إلى معصية فاستتر بها، ولم يُجاهر بفعلِها، فيُرجى أن يعافيَه الله منها، فأمَّا أن يُجاهر بفسوقه وعصيانه وظلمه، فهو اجتراءٌ على الله، وتَحَدٍّ لمشاعر المجتمع المسلم، ينبغي أن يقاوم ولا يُسْكَت عليه.

ومِن وسائل المقاومة ما فرضه الإسلام على الفَسَقَة مِن حصار أدبيٍّ، ومقاطعة اجتماعيَّة، وهي - على بساطتها - مِن أقوى وأخطر أسلحة الحرب النفسيَّة والاجتماعيَّة.

وبهذه الطريقة يُحصَر الشرُّ في أضيق نطاق، كما يُحاصر رجالُ الإطفاء الحريقَ، فلا يتطاير شررُه، وكما يُحاصر رجالُ الصحة الوباء، فلا يتفاقم خطرُه، فالحريق إذا تُرِك: أكل الأخضرَ واليابس. والوباءُ إذا أُهمِل وشأنَه: حَصَدَ الكبارَ والصغار. وكذلك المعصية إذا تُركتْ وأُهملتْ، وعامل الناسُ صاحبَها معاملةً وديَّة عاديَّة، لم تقف المعصيةُ عند صاحبها، بل امتدَّتْ إلى آخرين غيرِه، عن طريق العدوى، وما أسرعَها!

على أن العاصي نفسَه، إذا وجد نفسه في عُزلة عن المجتمع، ووجد الأعين تنظر إليه شَزَرًا، والقلوبَ تُضمِر له بُغضًا، ورأى المجتمع قد حذف اسمَه من

سجل الشرفاء الأطهار، فهو لا يُزار، ولا يُجالس، ولا يُسلَّم عليه، فإن ذلك مِن وسائل تنفيره من التظاهر بالمعصية والانحراف، وإغرائه بالتوبة والاستقامة، وكلُّ من تراوده نفسُه بالفسق سيفكر مرةً بعدَ مرة قَبْل أن يُقدِم عليه، حتى لا يُحرم مودةَ المجتمع وعطفَه، ومما لا ريب فيه: أن المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه.

حصار الثلاثة الذين خلفوا:

وقد أدَّب النبي ﷺ جماعة مِن أصحابه بطريق المقاطعة؛ لأنهم تخلَّفوا عن الجهاد معه في غزوة «تبوك» بغير عُذرٍ، وكانوا ثلاثة، فنهى النبي ﷺ أصحابَه عن مكالمتهم، حتى يتوب الله عليهم.

وكان من الثلاثة «كعب بن مالك» الذي قصَّ علينا قصتهم، وكيف تمَّتْ مقاطعتُهم خمسين ليلة، وكيف كان يمشي في الطريق، أو في السوق، فلا يُكلِّمه أحدٌ، ولا يسلِّم عليه حتى قريبه وصاحبه أبو طلحة.

قال كعب: وكنتُ آتي رسول الله ﷺ، فأسلِّم عليه، فأقول في نفسي: هل حرَّك شفتيه بردِّ السلام أم لا؟(١)

وهكذا ضُرب عليهم هذا الحصار الموجع، الذي هو أشد على النفس من دخول السجن، وضرْب السياط، حتى بلغتْ حالُهم النفسيَّة ما صورهُ الله تعالى في القرآن أن ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ [التوبة:١١٨]. ونزل الوحي أخيرًا بقبول توبتهم: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [التوبة:١١٨]. وليس هناك أجلى ولا أبلغ من تصوير القرآن.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في المغازي (٤٤١٨)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٩)، عن كعب بن مالك.

السلف ومقاطعة المجاهرين بالفسق والظلم والابتداع :

فهذا هو المجتمع المؤمن، وتلك هي طريقته مع المنحرفين مِن أبنائه؛ ولهذا اشتدَّ سلفُ هذه الأمة من الصحابة ومَن تبعهم بإحسان في مقاطعة الفَسَقة والظَلَمَة والمنحرفين ومجافاتهم.

روى البخاري في الأدب المفرد، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: لا تسلِّموا على شُرَّاب الخمر، ولا تعُودُوهم إذا مرضوا[1].

وروى مثله الطبريُّ عن عليِّ بن أبي طالب، كما يُروى ذلك عن عبد الله بن عمر[2] رضي الله عنهم جميعًا.

وقال المُهلَّب: تركُ السلام على أهل المعاصي سنَّةٌ ماضية[3]. وبه قال كثيرٌ من أهل العلم في أهل البدع.

ويعنون بأهل البدع: الذين أحْدثوا في الدين آراء ومقولاتٍ ما أنزل الله بها من سلطان، وحرَّفوا الكلم عن مواضعه، اتباعًا للهوى، أو تأثُّرًا بأفكار أجنبيَّة عن الإسلام، أو خدمةً للسلطان[4] وابتغاءَ ما عنده، ونحو ذلك.

وقد جاء عن مالك: أنه لا يسلِّم على هؤلاء، ويكون ذلك على سبيل التأديب لهم، والبراءةِ مِن أفكارهم وطريقتهم.

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (٥٢٩، ١٠١٧)، وضعفه الألباني في ضعيف الأدب المفرد (٧٨، ١٥٨).

(٢) قال في الفتح (١١/ ٤١): أخرجه سعيد بن منصور بسند ضعيف، وفي بعض نسخ البخاري: قال عبد الله بن عمر: لا تسلموا على شَرَبة الخمر، وأكثرها بإثبات الواو: (ابن عمرو).

(٣) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٩/ ٣٦)، نشر مكتبة الرشد- الرياض، ط الثانية، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م

(٤) كهؤلاء الذين ينتسبون لعلم الدين، ويُصدرون الفتاوى تأييدًا لملوكٍ ورؤساءَ لم يحكموا بما أنزل الله، ومنهم من يُحرِّف كلماتِ الله ليبرِّرَ بها أوضاعًا فاسدة، ومنهم مَن يجعل كلمةَ البشر فوق كلمة الله، فالدين يجب أن يُحوَّرَ ويُعدَّل حتى يوافقَ الحضارة الغربية، وإلا فهو تخلُّف ورجعيَّة.

وهذا كله فيمَن ابتدع وهو لم يزل في إطار الدين، فكيف بمن رفَض الدينَ كلَّه، وعدَّه مِن مخلَّفات عصور الانحطاط، وسَخِرَ مِن كل مؤمنٍ بالغيب، أو مقيمٍ للصلاة؟!!

إن السلام على الفَسَقة والظَّلَمة والمبتدعين لا يجوز إلا في حالة الضرورة، فإن للضرورة حكمُها، وهي تقدَّر بقدرها.

قال النووي: «فإنِ اضطُرَّ إلى السلام، بأن خاف مِن ترتُّبِ مفسدةٍ في دين أو دنيا إن لم يسلِّم: سلَّمَ»[1].

وكذا قال ابن العربيِّ، وزاد أن ينوي: أن السلام اسمٌ من أسماء الله تعالى، فكأنه قال: الله رقيب عليك[2].

(١) شرح مسلم للنووي (١٥/ ٢١١).

(٢) فتح الباري، لابن حجر (١١/ ٤٠).

الفَصْلُ الخَامِسُ

أدب المسلم في الزيارة وحق الضيف

حثَّ الإسلامُ أبناءه على التواصل والتَّزاور، توكيدًا للروابط الاجتماعيَّة، وتوثيقًا لعُرَى الإخاء والمحبَّة، وتقويةً لتماسك بناء المجتمع، ولهذا قيل: المودَّة جِسم رُوحُها الزيارة.

ولما كان منهج الإسلام منهجًا شاملًا، يستوعب شؤون الحياة كلها، ويُوجِّهها وفقًا لأهدافه ومبادئه وقيمه: لم يدعْ هذا الأمر دون أن يضع له مجموعة من الوصايا والأحكام والآداب، تُقيمه على أَحْكَم القواعد، وأقوى الأُسس.

من تزور؟

ولعل أول هذه الوصايا: أن يُحدِّد المسلم أي نوع يزوره من الناس؟ فليس كل إنسان تُباح زيارته، فضلًا عن أن تُستحَب، وقد تجب زيارة بعض الناس في بعض الأحيان.

إنَّ زيارة إنسانٍ تحمل معنى المودَّة له، والحرص على صِلته، والوقوف في صفِّه، فهل يجوز للمسلم أن يمنح مودَّته وولاءه وتأييده المعنويّ لكلِّ امرئ من الناس، وإن كان مُلحدًا يَجْحَد بآيات الله ورسالاته، أو فاجرًا ينتهك مَحارمَ الله جَهْرةً، أو ظالمًا يأكل حقوقَ الناس بالباطل، أو مُجرمًا يَعِيثُ في الأرض فسادًا، أو سُلطانًا يحكم بغير ما أنزل الله من الكتاب والميزان، ويجور على حقوق الناس، أو مُبتدعًا يُحْدِث في الدين ما لم يأذنْ به الله.

كلا، إن المسلم لا يوادُّ مَنْ خالف الله ورسوله، متمردًا على كتابه وسنته، فإن الإيمان بالله، وموادَّة من عادى الله ورسوله لا يجتمعان في قلبٍ أبدًا، يقول تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة:٢٢].

كان الإمام مالك يستدلُّ بهذه الآية على معاداة المبتدعة في زمنه، وترك مجالستهم. قال القرطبي: وفي معناهم جميع أهل الظلم والعدوان[(١)].

وعن الثوري أنه قال: كانوا يرون أنها نزلتْ فيمَن كان يصحب السُّلطان[(٢)].

ومعنى نزولها في ذلك أن حكمها يشمله فيما يشمل، وفي الحديث: «إن أوثق عُرى الإيمان: الحبُّ في الله، والبغضُ في الله»[(٣)]. فكيف يبغِضُ في الله مَن يزور الظلمة أو الفسقة أو الملحدين بدعوى أن هذه علاقات شخصية، لا شأن لها بفساد العقائد، أو انحراف السلوك؟!

وهذا وهْمٌ وضلال، ومِن مِثل هذا دخل الفسادُ على بني إسرائيل، وحقَّتْ عليهم لعنة الله وغضبه.

فعن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما دخل النقصُ على بني إسرائيل: أنه كان الرجلُ يلقى الرجلَ، فيقول: يا هذا! اتَّقِ الله ودعْ ما تصنع، فإنه لا يحلُّ لك. ثم يلقاه من الغد، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكِيلَه وشريبَه وقعيدَه،

---

(١) تفسير القرطبي (١٧/٣٠٨).

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) رواه أحمد (١٨٥٢٤) وقال مخرجوه: حسن بشواهده، والطيالسي (٧٨٣)، وابن أبي شيبة في الزهد (٣٥٤٧٩)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٠٣٠): حسن بمجموع طرقه، عن البراء بن عازب.

فلمَّا فعلوا ذلك ضرب اللهُ قلوبَ بعضهم ببعض. كلا والله، لتأمُرُنَّ بالمعروف، ولتنْهونَّ عن المنكر، ولتأخذُنَّ على يد الظالم، ولتأطُرُنَّه على الحق أطرًا، أو ليضْربَنَّ اللهُ بقلوب بعضكم على بعض، ثم يلعنكم كما لعنهم»[1].

وعلى المسلم إذن أن يجعل زيارته للأخيار الصالحين، فإن لم يكونوا من الأخيار الصالحين، فليكونوا على الأقل من عامَّة المسلمين، الذين لم يشتهروا بفسق أو ظلم أو بدعة.

لماذا تزور؟:

وإذا عرف المسلم مَن تُشرع زيارته من الناس، بقي عليه أن يسأل نفسه: لماذا يزور هذا الرجلَ أو ذاك؟

فبعض الزيارات لا يبعث عليها إلا الملق والنفاق، وترى أحدَهم يسبُّ الرجلَ في الصباح مِن وراء ظهره، ثم تراه في المساء يزوره في بيته. فعلى المسلم أن يُصَحِّحَ نيَّته في زيارته، وكلما كانت الزيارة لله: كانت أرجحَ وأثقلَ في ميزان الإسلام.

والزيارة لله: هي التي يكون الباعث عليها دينيًّا أخرويًّا، لا ماديًّا دنيويًّا. كأن تزور أخًا لك أحبَبْته في الله، أو رجلًا صالحًا، تُذكِّرك بالله حالُه، ويُذكِّرك بالآخرة عملُه، أو عالمًا تستفتيه أو تسترشده في أمور دينك، فيفتيك ويرشدك إلى التي هي أقوم، أو قريبًا لك تصل رحمه امتثالًا لما أمر الله به أن يُوصَل، فهذا ونحوه ممَّا يشمله معنى الزيارة في الله، أو مريضًا تعوده لله، تشرح صدره، وتُبَسِّم ثغره، وتدعو له، وتتمنى له الشفاء العاجل أو القريب.

وفي الحديث: «ما زار رجلٌ رجلًا في الله شوقًا إليه ورغبة في لقائه، إلا ناداه

---

(١) رواه أبو داود في الملاحم (٤٣٣٦)، والترمذي في الدعوات (٣٠٤٧) وقال: حديث حسن غريب.

ملك من خلفه: طبْتَ وطاب ممشاكَ، وتبوأت من الجنة منزلًا»[1].

وبهذا تعلم أن الزيارة في الله قُربة مِن القُربات، وطاعة من الطاعات.

ومن الزيارات ما يدخل في دائرة المباح المشروع، وإن لم يدخل في دائرة القُربة، كزيارات الزملاء والأصدقاء والأقارب والجيران بعضهم لبعض، إذا لم يُلحظ فيها غرض ديني، وزيارة الحدائق والمتنزهات ونحوها إذا لم تعطلك عن واجب مطلوب منك، فهذه الزيارات مشروعة محمودة بوجهٍ عام، وبينها وبين القُربة والعبادة خيط دقيق، هو النيَّة.

فمِن الناس مَن يزور جاره تقويةً للرابطة بين المسلمين، وتنفيذًا لما أوصى الله ورسوله به من الإحسان إلى الجار، فيكون ذلك له قُربة. ومنهم من يؤدِّي الزيارة نفسها غافلًا عن هذه المعاني؛ لأنها بعيدة عن محور تفكيره، وبُؤرة شعوره.

ومِن الناس مَن يدور سلوكُه وتصرفاتُه كلُّها حول ذاته، ومصلحتِه الماديَّة والشخصيَّة، فلا يزور إنسانًا إلا إذا كان له مِن ورائه منفعةٌ دنيويَّة حاضرة أو مُرتقَبة، وعلى قدر ما يتوقَّع من المنفعة يكون عدد الزيارات، فإذا قُضيتِ المنفعة، أو خاب الرجاء في المَزُور، أو فَقَد المزورُ السلطان الذي كان به يضرُّ وينفع، لم يعرف هذا له دارًا، ولم يطرق له بابًا. فهذا النوع من الزيارات مذمومٌ مبغوض، وقلَّما يخلو من مظاهر التملُّق وعبارات النفاق.

ومن هنا ينبغي للمسلم أن يُحرِّر نيَّته قبل الزيارة، ويحاول أن يجعلها لله، فإن لم يستطع، فعلى الأقل لا يجعلها للشيطان.

---

(١) رواه الترمذي في البر والصلة (٢٠٠٨) وقال: حديث غريب، وابن ماجه في الجنائز (١٤٤٣)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٦٣٨٧)، عن أبي هريرة.

متى تزور؟:

وإذا عرف المسلم: مَن يزور؟ وعرف: لماذا يزور؟ وجب أن يعرف: متى يزور؟

أعني: أن يعرف الوقت المناسب للزيارة، والوقت المناسب هو الذي يوافق رغبةَ المَزُور، وليس الذي يتّبع هوى الزائر.

قال الإمام النووي ﷺ، في كتابه «الأذكار» في أواخر «باب في مسائل تتفرع على السلام»: «يُستحبُّ للمسلم استحبابًا مؤكّدًا: زيارةُ الصالحين، والإخوان، والجيران، والأصدقاء، والأقارب، وإكرامهم، وبرُّهم، وصلتُهم.

وضبط ذلك يختلف باختلاف أحوالهم ومراتبهم وفراغهم، وينبغي أن تكون زيارته لهم على وجهٍ لا يكرهونه، وفي وقت يرتضونه. والأحاديث والآثار في هذا كثيرة مشهورة»[(١)].

إن لكل امرئ ظروفَه ومشكلاتِه وأعذارَه الخاصَّة، التي تجعله أحيانًا يحب أن ينفرد بنفسه، أو يخلو إلى أهله، أو يفرغ لإنجاز حاجة يضرُّها التسويفُ، وبعض الناس واجباتُهم أكثر مِن أوقاتهم، كالعلماء الباحثين، والدعاة المهمومين، والرؤساء والمسؤولين، ورجال الأعمال المشغولين، وغيرهم ممَّن لكل دقيقة عنده ثمنُها.

فكيف يجوز أن يفجأ الإنسانُ واحدًا مِن هؤلاء في وقت عمله، أو وقت راحته، بلا موعدٍ سابقٍ، ولا تحسُّسٍ للظروف، فتكون زيارته في تلك الحال كأنها «مصيبة على غفلة»، فهي تُحتَمَل على مَضَضٍ، كما يُحتمَل البلاء، ولا تُتقبَّل بسرورٍ كما تُتقبل المسرات.

---

(١) الأذكار ص ٤٣٩، ط ابن حزم، ط الأولى ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

والناس يتزاورون لتتوثَّق صلاتُهم، وتتأكَّد مودَّتُهم، فإذا كانت زيارتهم في الوقت الذي يكرهون، أثمرتِ الضيقَ والتبرُّم بالزائر، فإذا تكرَّر ذلك كانتِ النتيجة نفورًا، فجفوةً، فقطيعةً.

لهذا كلِّه أمر القرآنُ الكريم بالاستئناس قبل الزيارة، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [النور:٢٧].

وربما فسَّر بعضُهم الاستئناس بالاستئذان، والحق أنه شيء أخصُّ وأعمق من الاستئذان وأسبق(١). ومعنى الآية: حتى تستعلموا وتستكشفوا الحال: هل يرغب أهل البيت في زيارتكم أم لا؟

فالذي يزور الناس في وقت الظهيرة، أو في وقت متأخرٍ بعد العشاء، أو في وقت الطعام، حيث ترتبك بعضُ الأسر إذا جاءها زائر في مثل هذه الحال.. إلى آخره. الذي يفعل ذلك لم يستأنس لزيارته، وإن استأذن عند وقوفه بالباب وأُذِن له.

والذي يزور أصحاب المشاغل الكثيرة من غير موعد سابق، أو ضرورةٍ ملحَّة، لم يقُم بالاستئناس المطلوب.

كم تزور؟:

ويعِنُّ هنا سؤالٌ آخر: ما عدد المرات المناسبة للزيارة؟

والجواب: أنَّ هذا شيءٌ لا يمكن ضبطه وتحديده، فصِلات الناس بعضِهم

(١) الاستئناس هو الاستعلام والاستكشاف، مأخوذٌ من قولهم: أنَسَ الشيءَ، إذا أبصره وعلمه ظاهرًا مكشوفًا، يقال: أنستُ منه كذا، أي: علمتُ منه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ [النساء:٦]. ومنه قولُهم: استأنِسْ: هل ترى أحدًا؟ ينظر: تفسير الفخر الرازي (٢٣/ ٣٥٦)، وابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٢٨٨).

ببعض تختلف قوةً وضعفًا، وقُربًا وبُعدًا، فليستْ زيارة الأرحام كزيارة غيرهم، وليستْ زيارة الأصدقاء والمُقرَّبين كزيارة غيرهم من الزملاء.

مِن الناس مَن تكفيه الزيارة في المناسبات العامة كالأعياد، والخاصَّة كالتهنئة بقدوم غائب، أو نجاح طالب، أو ولادة مولود، أو النجاة من مكروه، ومثل ذلك المواساة لضرٍّ نزل به، أو حادث وقع له، أو مرضٍ ألمَّ به، أو بأحد أسرته إلى غير ذلك من المناسبات التي يضبطها العُرْف، ويحكمُها الذوق.

وآخرون لا يكفيهم هذا، وإنما يُودُّون أن يُزاروا بين الحين والحين، حتى قال أحد الشعراء لأحدِ زواره:

إذا حققـــت مـــن خـــل ودادًا ... فـــزره ولا تخـــف منـــه مـــلالا

وكُـنْ كالشـمس تطلـع كـلَّ يـوم ... ولا تـــكُ في زيارتـــه هـــلالًا[1]

والقاعدة العامة هي كما قالوا: زر غِبًّا، تزدد حبًّا[2].

وهذا شيء أدركه الناس بالتجارب، قال الشاعر:

عليـــك بـــإقلال الزيـــارة إنَّهـــا ... إذا كثُرتْ صارتْ إلى الهجر مسْلكًا

ألم تـــر أن الغيْـــث يُســـأم دائمًـــا ... ويُطلب بالأيدي إذا هو أمْسكا؟[3]

كيف تزور؟

عرفنا: مَن تزور؟ ولِمَ تزور؟ ومتى تزور؟ وكم تزور؟ وهنا ينبغي أن نعرف كيف تزور؟ وقد عرفنا وجوب الاستئناس في الزيارة، وهنا نعرف وجوب الاستئذان.

---

(١) من شعر البهاء السنجاري.

(٢) رواه ابن حبان في الرقائق (٦٢٠) وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم، عن عائشة.

(٣) من شعر الثعالبي.

ضرورةُ الاستئذان وحكمتُه:

فلا يجوز لمسلم أن يقتحم بيتَ غيره بدون إذنه، كما كان يفعل أهل الجاهلية، يهجم أحدُهم على بيت الآخر، فيقول: عِمْتُم صباحًا، أو عِمْتم مساءً. قد دخلتُ. وربما وجَدَ الرجلَ مع أهله، فيشقُّ ذلك على صاحب البيت، فغيَّر اللهُ ذلك كله في سِتر وعفَّة، وعلمهم الأحسن والأجمل، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ [النور:٢٧- ٢٨].

ومهما بلغ المرءُ من قوة الصِّلة أو الصداقة لصاحبه، فلا يجوز أن يكون ذلك مسوِّغًا لإزالة الحواجز، ودخول أحدهم بيتَ الآخر متى شاء، وكيف شاء، بلا إذن ولا استئذان، فإنه لا يأمن – كما قال الإمام الرازي(١) – أن يهجمَ على ما لا يحلُّ له أن ينظر إليه من عورة، أو على ما لا يحب القومُ أن يعرفه غيرُهم من الأحوال.

وفي كلام الرازي ما يدل على أنَّ المحظور في الدخول بغير إذن أمران: النظر إلى العورات المحرَّمة، والاطلاع على الأسرار والأحوال الخاصة لكل إنسان في بيته، التي لا يحب أن يعرفها الناس عنه.

والذين خَبَرُوا الحياةَ والناسَ يعلمون كم مِن نظراتٍ خاطفة، ولقاءاتٍ عابرة، وقَعتْ في أول الأمر عفوًا– خطأً أو تساهلًا أو تفريطًا– أفْضَتْ بعد ذلك إلى علاقاتٍ آثمة، وصلاتٍ مُحَرَّمة، فإن لم تُؤدِّ إلى ذلك، أدَّتْ إلى انشغال القلب، وبلبلة الخاطر، وتوتُّر الأعصاب، وقديمًا قال الشاعر:

(١) في التفسير (٢٣/ ٣٥٧).

وكنتَ متى أرسلتَ طرفَك رائدًا ... لقلبك يومًا أسلمتْكَ المناظِرُ
رأيتَ الذي لا كُلُّه أنتَ قادرٌ ... عليه، ولا عن بعضِه أنتَ صابرُ(١)

هذا إذا قصَرْنا العوراتِ على المعنى الحسيِّ المتداول، وقد يمكننا توسيع معناها، وتعميقه بحيث يشمل المعنى الثاني الذي ذكره الرازي.

قال الشهيد سيد قطب في «الظلال»: «إنها ليست عورات البدن وحدها، إنها تضاف إليها عورات الطعام، وعورات اللباس، وعورات الأثاث، التي قد لا يحب أهلُها أن يفاجئهم عليها الناس دون تهيئة وتجميل وإعداد، وهي عورات المشاعر والحالات النفسيَّة، فكم منا يحب أن يراه الناس وهو في حالة ضعف، يبكي لانفعال مؤثِّر، أو يغضب لشأن مثير، أو يتوجَّع لألمٍ يُخفيه عن الغرباء؟

إن الله جعل البيت سَكَنًا وحَرَمًا لصاحبه، فيه يشعر المرء بالراحة، ويشعر بالاطمئنان، ويشعر بالحرية، ويشعر بالاستقلال، ولن يتمَّ للإنسانِ راحتُه واطمئنانُه، أو حريته واستقلاله: إذا جاز لكل من هبَّ ودبَّ أن يلج بيته بغير إذن منه، لهذا كان الاستئذان واجبًا، والإذن ضروريًّا لكل زائر»(٢).

حتى إنَّ أصحاب البيت لو كانوا خارجَ البيت، وكان البيت مفتوحًا: لم يجُزْ للزائر دخولُه بغير إذنهم؛ لأنَّ في بيوت الناس أسرارًا لا يحبُّون أن يطَّلع عليها أحدٌ في غَيبتهم، وقد يكون البيت غيرَ مُرتَّب، والأثاثُ غيرَ منظَّم، وغرفُ الاستقبال غيرَ مُهيَّأة للضيوف، وهم يتأذَّون إذا دخلتَ بيوتهم بغير تهيئة واستعداد، وقد يكون هناك موانع نفسيَّة أو اجتماعيَّة أخرى لا مجال لذكرها.

---

(١) رواه الخرائطي في اعتلال القلوب ص ١٣٨ تحقيق حمدي الدمرداش، ط. الثانية ٢٠٠٠م.
(٢) في ظلال القرآن (٤/ ٢٥٠٨، ٢٥٠٩).

فلا عجب أن جاءت آيات القرآن الكريم تُنظِّم ذلك بصراحة ووضوح، مُتَّخذةً صيغةَ الأمر الصريح، والنهي الحاسم.

يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [النور:٢٧- ٢٨].

الاستئذان على المحارم:

ومن المعروف أن بيتَ الإنسانِ مكانُ مَبِيته، أي غرفتُه الخاصَّة. فإذا كانت عائلة كبيرة، مكوَّنة من مجموعة من الإخوة والأخوات، يسكنون دارًا واحدة كبيرة، تضمُّ عددًا من الحُجرات، لكلٍّ منهم حجرته، فإذا أراد أحدُهم أن يزورَ أخاه أو أخته في حجرته الخاصة، فلا بد أن يستأنس ويستأذن قبل الدخول؛ لأنه بيتٌ غير بيته.

وقد رَوَوا في سبب نزول هذه الآية: أن امرأة من الأنصار قالت: يا رسول الله، إني أكون في منزلي على الحال التي لا أحب أن يراني أحدٌ عليها، لا والد ولا ولد، وإنه لا يزال يدخل عليَّ رجل من أهلي، وأنا على تلك الحال، فنزلتِ الآية[1].

روى الإمام مالك في الموطأ، عن عطاء بن يسار مرسلًا: أن رجلًا سأل رسول الله ﷺ، فقال: أستأذن على أمي؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم». فقال الرجل: إني معها في البيت. فقال رسول الله ﷺ: «استأذنْ عليها». فقال الرجل: إني خادمها. فقال رسول الله ﷺ: «استأذنْ عليها، أتحب أن تراها عُريانة؟!» قال: لا. قال:

(١) رواه الطبري في تفسيره (١٩/ ١٤٧).

«فاستأذن عليها»(١).

وجاء رجل إلى عبد الله بن مسعود ﷺ، فقال له: أستأذن على أمي؟ فقال له: ما على كل أحيانها تُحبُّ أن تراها(٢).

وسأل رجل حذيفة بن اليمان ﷺ، فقال: أستأذن على أمِّي؟ قال: نعم، إن لم تستأذن عليها رأيت ما تكره(٣).

وقال نافع مولى عبد الله بن عمر ﷺ: كان ابن عمر إذا بلغ بعضُ ولده الحُلُمَ، عزله، فلم يدخل على ابن عمر إلا بإذن(٤).

وحكى ابن جُرَيج، عن عطاء بن أبي رباح قال: سألت ابن عباس ﷺ: أستأذن على أُختيَّ؟ قال: نعم. قلتُ: إنهما في حِجري - يعني: في بيتي وعهدتي - وأنا أمُونُهما وأُنفق عليهما؟ قال: أتحب أن تراهما عريانتَيْنِ؟! ثم قرأ: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور:٥٩]. قال ابن عباس: فالإذن - أي: الاستئذان - واجب على الناس كلهم(٥).

وقال ابن مسعود: يَستأذن الرجل على أبيه وأمِّه، وأخيه وأخته(٦).

روى أكثر هذه الآثار البخاريُّ في كتابه «الأدب المفرد»، وابن أبي شيبة في «مصنفه».

وقد رووا عن عدد من الصحابة والتابعين وجوب الاستئذان على المحارم:

(١) رواه مالك في الاستئذان (٣٥٣٨) ت الأعظمي، وقال ابن عبد البر في الاستذكار (٨/ ٤٧٣): لا أعلم هذا الحديث يتصل بهذا اللفظ مسندًا بوجه من الوجوه وهو من صحاح المراسيل.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في النكاح (١٧٨٩٣)، والبخاري في الأدب المفرد (١٠٥٩)، والمعنى أن لها حالات وأوقات لا تحب أن تراها عليها، كأن تكون عريانة، أو متخففة من ثيابها أو ما شابه.

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد (١٠٦٠)، وحسن إسناده الألباني في صحيح الأدب المفرد (٨١٤).

(٤) رواه البخاري في الأدب المفرد (١٠٥٨)، وصحح إسناده الألباني في صحيح الأدب المفرد (٨١٢).

(٥) رواه البخاري في الأدب المفرد (١٠٦٣)، وصحح إسناده الألباني في صحيح الأدب المفرد (٨١٥).

(٦) رواه ابن أبي شيبة في النكاح (١٧٨٩٧).

قال ابن مسعود: عليكم أن تستأذنوا على أمهاتكم وأخواتكم[1].

وقال عطاء: قلتُ لابن عباس: أستأذن على أخواتي أيتام في حجري معي في بيت واحد؟ قال: نعم. فردَدْتُ عليه ليرخِّص لي فأبَى، وقال: أتحبُّ أن تراها عُريانةً؟! قلت: لا. قال: فاستأذن. قال: فراجعته أيضًا. فقال: أتحب أن تطيع الله؟ قلت: نعم. قال: فاستأذن[2].

وكان طاوس يشدِّد في ذلك، ويقول: ما من امرأة أكره إليَّ أن أرى عورتها من ذات محْرَم[3].

على أن الاستئذان ليس لتجنب الاطلاع على العورات فقط، بل ربما كان مشغولًا بأمر يكره اطِّلاعَ غيرِه عليه، وهذا من حقِّه.

عدم مفاجأة الزوجة:

ولهذا استحبَّ ابنُ مسعود وغيرُه أن يستأذن الزوجُ على زوجته.

قال ابن كثير: «الأولى أن يُعلِمَها بدخوله، ولا يفاجِئها به، لاحتمال أن تكون على هيئة لا تحبُّ أن يراها عليها»[4].

وعن زينب امرأة ابن مسعود قالت: كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق، كراهة أن يهجم مِنَّا على أمر يكرهه[5].

وورد عنه: أنه كان إذا دخل الدار، استأنس، أي: تكلَّم ورفع صوته[6].

---

(١) رواه ابن أبي شيبة (١٧٨٩٦)، والطبري في تفسيره (١٩/ ١٤٧).

(٢) رواه الطبري في تفسيره (١٩/ ١٤٨).

(٣) رواه الطبري في تفسيره (١٩/ ١٤٨).

(٤) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٩).

(٥) رواه الطبري في تفسيره (١٩/ ١٤٨)، وصحح إسناده ابن كثير في التفسير (٦/ ٣٩).

(٦) رواه ابن أبي حاتم (١٤٣٤٣).

وقال الإمام أحمد: إذا دخل الرجل بيته استُحِبَّ له أن يتنحنح، أو يحرِّك نعليه[1].

ولهذا جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه نهى أن يَطْرُقَ الرجل أهله طروقًا[2]. وفي رواية: ليلًا، يتخوَّنهم[3].

وهذه قِمَّةٌ سامقة في رعاية مشاعر الزوجة، وتقدير حريتها، ويتحدَّثون اليوم عن أدب الرجال في أوربا مع زوجاتهم، كيف لا يسمح الرجلُ لنفسه أن يفتح رسائل زوجته، احترامًا لحريتها، وقد سبقهم الإسلام بقرون وقرون.

فإذا كان هذا أدب الإسلام في الاستئذان على الأمهات والأخوات، بل الزوجات، فما بالك بالاستئذان على الأجانب والأجنبيات؟

الاستئذان من أجل البصر:

عندما تستأذن على بيتٍ غيرك لتدخلَ إليه، حافظ على بصرك من أن يقع على داخل الدار أو عورةٍ فيها، فإن ذلك عيْبٌ وإساءة، روى أبو داود والطبراني، عن سعد بن عبادة ﷺ قال: جاء رجل فقام على باب النبي ﷺ يستأذن مستقبلَ البابِ، فقال له النبي ﷺ: «هكذا عنك». يعني: نحَّاه وأمره بالتباعد قليلًا عن مواجهة فتحة الباب، ثم قال له: «فإنما الاستئذان من أجل النظر»[4].

وروى البخاري في «الأدب المفرد»، عن ثوبان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٤٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في النكاح (٥٢٤٣)، ومسلم في الإمارة (٧١٥)، عن جابر بن عبد الله.

(٣) رواه مسلم في الإمارة (٧١٥).

(٤) رواه أبو داود في الأدب (٥١٧٤)، والضياء في المختارة (١٠٧٥)، وصحح إسناده، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٤٣١٠).

«لا يحل لامرئ أن ينظر إلى جوف بيتٍ حتى يستأذن، فإن فعل فقد دَخَل»[1]. أي: إن نظر قبل أن يستأذن، صار في حكم الداخل بلا استئذان، وهو مُحرَّمٌ عليه.

وروى البخاري ومسلم وغيرهما، عن سهل بن سعد ﷺ قال: اطَّلع رجل من حُجَر النبي ﷺ، ومع النبي ﷺ مِدْرًى يحكُّ به رأسه[2]، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «لو أعلم أنك تنظر، لطعنتُ به عينك! إنما جُعل الاستئذان من أجل البصر»[3].

كم مرة يستأذن؟:

والاستئذان لا يصحُّ أن يزيد على ثلاث مرات، سواء أكان بالكلام أم بدق الجرس، أم بطرق الباب.

جاء في الصحيح، أن أبا موسى استأذن على عمر ثلاثًا، فلم يُؤذن له، فانصرف، ثم قال عمر: ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس؟- وهو أبو موسى- ائذنوا له. فطلبوه، فوجدوه قد ذهب، فلما جاء بعد ذلك، قال: ما صرفك؟ قال: إني استأذنتُ ثلاثًا فلم يُؤذَن لي، وإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إذا استأذن أحدكم ثلاثًا فلم يُؤذن له، فلْينصرفْ». فقال عمر: لتأتيَنّي على هذا ببيِّنةٍ وإلا أوجعتُك ضربًا. فذهب إلى ملأٍ من الأنصار، فذكر لهم ما قال عمر، فقالوا: لا يشهد لك إلا أصغرنا. فقام معه أبو سعيد الخدري، فأخبر عمر بذلك، فقال:

(١) رواه أحمد (٢٢٤١٥) وقال مخرجوه: صحيح، وأبو داود في الطهارة (٩٠)، والترمذي في الصلاة (٣٥٧) وحسنه، والبخاري في الأدب المفرد (١٠٩٣)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٨٣٥).

(٢) المِدْرَى: عودٌ من خشب أو حديد، يُعمل على شكل سن من أسنان المشط وأطول منه، يسوَّى به الشعر الكثير المتلبِّد، ويستعمله من لا مشط له بدلًا عن المشط.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الاستئذان (٦٢٤١)، ومسلم في الآداب (٢١٥٦).

ألهاني عنه الصَّفْق بالأسواق[1]. يعني الاشتغال بالتجارة.

واستأذن النبيُّ ﷺ على سعد بن عُبادة، فقال: «السلام عليك ورحمة الله» فقال سعد: وعليك السلام ورحمة الله. ولم يسمع النبي ﷺ حتى سلَّم ثلاثًا، وردَّ عليه سعد ثلاثًا، ولم يسمعه، فرجع النبي ﷺ، فاتبعه سعد، فقال: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، ما سلمتَ تسليمة إلا وهي بأذني، ولقد رددتُ عليك، ولم أُسْمِعْكَ، وأردتُ أن أستكثر من سلامك، ومن البركة[2].

وقال قتادة: الاستئذان ثلاثًا، فمَن لم يُؤذن له منهم فليرجعْ، أما الأولى: فلِيُسمع الحي. وأما الثانية: فلِيأخذوا حذرهم. وأما الثالثة: فإن شاؤوا أذنوا، وإن شاؤوا ردُّوا. ولا تقفنَّ على باب قوم ردُّوك عن بابهم، فإن للناس حاجات، ولهم أشغال، والله أولى بالعذر[3]. وما أبلغها من كلمات!

حكى أستاذنا البهي الخولي رحمه الله، عن الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله: أن جماعة زاروه في بيته وهو منهمك بأمر هام جدًّا، في غرفة أخرى مع بعض أهله، فأمر أن تُعدَّ لهم القهوة، ومكث حتى شربوها دون أن يخرج إليهم، ثم خرج إليهم، وجلس يُقدِّم عُذره بأنه لا يستطيع أن يجلس معهم كثيرًا، لاضطراره إلى استئناف النظر في أمر هام مع آخرين، فغضبوا- وكانوا من الأصدقاء لا من الإخوان- واعتبروا ذلك إهانة. فقال لهم: نحتكم إلى كتاب الله، لقد أمر الإسلام بالاستئناس، وأنتم لم تستأنسوا، فقد تأخرت عنكم، وأخرجت لكم القهوة بدون

(١) متفق عليه: رواه البخاري في البيوع (٢٠٦٢)، ومسلم في الآداب (٢١٥٣).

(٢) رواه أحمد (١٢٤٠٦) وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، والبيهقي في الصداق (٧/ ٢٨٧)، عن أنس.

(٣) تفسير ابن كثير (٦/ ٤٠).

حضوري، وذلك موجب للانصراف لدى بصائر المستأنسين. هذه واحدة.

أما الأخرى، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ﴾ [النور: ٢٨]. وأنا لم أقل: ارجعوا، بل قدمتُ القهوة، وجئتُ أعتذر، فإن كنتم تغضبون لما فعلتُ، فكيف يكونُ غضبكم لو أني أمرتكم بما هو أزكى لكم، فقلت: ارجعوا كما أمر الله ﷻ؟

قال ﷺ: وكانوا من أهل الفقه، فسُرُّوا بذلك كثيرًا، وانصرفوا شاكرين[(١)].

دق الباب برفق:

وينبغي للمسلم إذا طرق باب غيره مستئذنًا أن يكون ذلك برفق، لئلا يزعج أهل البيت، ويكون بالقدر الذي ينبه من في البيت أن هناك من يطرق الباب، ويكون ذلك ثلاث مرات بينها فترة من الزمن كافية، يقول الشيخ عبد الفتاح أبو غدة:

«وإذا طرق المسلم باب أخيه أو صديقِه أو بعضِ معارفه، أو أحدٍ يقصده، فليدقَّ الباب دقًا رفيقًا يُعرِّفُه وجودَ طارق بالباب، ولا يدقُّه بعنف وشدة كدقِّ الظلمة والزبانية، فيروعه ويُخل بالأدب.

جاءت امرأة إلى الإمام أحمد بن حنبل ﷺ، لتسأله عن شيء من أمور الدين، ودقتْ عليه الباب دقًا فيه بعض العنف، فخرج وهو يقول: هذا دقُّ الشُرَط.

وقد كان الصحابة يقرعون باب رسول الله ﷺ بالأظافير[(٢)]. أدبًا منهم مع رسول الله ﷺ.

وهذا الدقُّ اللطيف الرفيق مطلوب فيمن كان جلوسه قريبًا من بابه، وأما من

(١) مجلة المسلمون، العدد الثاني ص ١٢٢ ربيع الثاني ١٣٧٣هـ ديسمبر ١٩٥٣م.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (١٠٨٠)، والبيهقي في الشعب (١٤٣٧)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٨٢٨)، عن أنس.

بعُد عن الباب فيُقرع عليه قرعًا يسمعه في مكانه من غير عنف، وفي الحديث الشريف: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يُنزع من شيء إلا شانه»[1].

وقال أيضًا عليه الصلاة والسلام: «مَن يُحرم الرفقَ، يُحرم الخيرَ كله»[2].

فأما أن يضع الزائر يدَه على زرِّ الجرس ليدقَّ ويدق، مرارًا وتكرارًا، أو يُديم طرْق الباب مرة بعد مرة، فيوقظ النائم، ويُشوِّش المصلِّي، ويُقلق المستريح، ويُعجِّل المشغول، ويُزعج المريض، وكأنما هو مُصمِّم على ألَّا ينصرف حتى يفتحوا له، ويفرض زيارته على القوم بإلحاحٍ وصلابة وجهٍ، فهذا ليس من أدب الإسلام في شيء.

والواجب في المرات الثلاث ألَّا تتوالى وتتتابع، بحيث يُزعج أهل البيت. وإنما يكون بينها فاصل زمني ملائم، وينبغي أن يجعل الزائر بين الدقَّتَيْنِ زمنًا غير قليل، ليفرغ المتوضِّئ من وضوئه في مهل، ولينتهي المصلي من صلاته في مهل، وليفرغ الآكل من لقمته في مهل، وقدَّر بعض العلماء الانتظار بين الدقَّتين بمقدار صلاة أربع ركعات، إذ قد يكون في بدء طرقك للباب قد بدأ هو في صلاته»[3].

وأرى أن في هذا تطويلًا غير ملائم، بل ينتظر وقتًا ملائمًا بين الدقتين يجهز من في الدار نفسه لإجابته والرد عليه.

ويقول الفخر الرازي في «تفسيره»: «يجب في الاستئذان ثلاثًا ألَّا يكون متَّصلًا، بل يكون بين كل واحدة والأخرى وقت. فأمَّا قرْع الباب بعُنف، والصياح

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٩٤)، وأحمد (٢٤٩٣٨).

(٢) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٩٢)، وأحمد (١٩٢٠٨)، وأبو داود في الأدب (٤٨٠٩)، عن جرير ابن عبد الله البجلي.

(٣) من أدب الإسلام ص١١، ١٢، للشيخ عبد الفتاح أبو غدة، نشر مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب، ط: الأولى، ١٩٩٢م.

بصاحب الدار، فذلك حرام؛ لأنه يتضمن الإيذاء والإيحاش»[1].

نقول: ويشهد لما قاله الرازي قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤﴾ [الحجرات:٤].

رجوع المستأذن عن طيب نفس إذا لم يُؤذن له:

وعلى المسلم أن يوطِّن نفسه أن يرجع طيبَ النفس إذا لم يؤذن له، «فإنَّ للناس حاجاتٍ، ولهم أشغالٌ، والله أولى بالعذر» كما قال قتادة[2].

وقد رتَّب الله تعالى على الرجوع في مثل هذه الحال زكاة النفس وطهارتها، فقال: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ﴾ [النور:٢٨]. قال بعض المهاجرين: لقد طلبتُ عمري كلَّه هذه الآيةَ، فما أدركتُها: أن أستأذن على بعض إخواني فيقول لي: ارجع. فأرجع وأنا مغتبط[3].

«وفي هذا الأدب القرآني العظيم مندوحة عما يقع فيه بعضهم، حين يُحرَج بزيارة من لا يرغب في لقائه، فيضطر إلى الإخبار بعدم وجوده في البيت، ويكون هو فيه، فيقع منه الكذب، ويتعلَّم صغارُه منه ذلك الخُلُق المكروه أيضًا، وقد ينجُم عن سلوكه هذا العداوةُ والإحَنُ في الصدور.

والهدي القرآني الكريم جنَّبنا الوقوع في ذلك كله؛ إذ جعل بوسع المَزُور أن يتلطَّف بالاعتذار لأخيه، وطلب من أخيه أن يقبل عذره: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ﴾ [النور:٢٨].

(١) تفسير الرازي (٢٣/ ٣٥٧).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٤٣٤٣).

(٣) رواه الطبري في تفسيره (١٩/ ١٥٠).

وكان الإمام مالك يقول: ليس كل الناس يقدِر أن يتكلم بعذره[1]. ولذا كان من أدب السلف عند زيارتهم، أن يقول الزائر للمزور: «لعله بدا لك مانع»، تمهيدًا لبسط العذر من المزور فيما لو اعتذر»[2].

هذا هو خُلُق السلف، وذلك هو نهجهم، فمن منَّا يقبل اليوم أن يعتذر إليه صاحبُه بكثرة مشاغله، أو سوء صحته، أو ضيق صدره، أو غير ذلك، مما يشغل الناسَ بأنفسِهم عن استقبال زوارٍ، والاشتغال بإكرامهم وحسن ضيافتهم؟!

إن الاعتذار بلُطف ورفق لا يقبله الناس للأسف، ولا يستسيغه العُرف السائد، فكيف لو قيل لهم: ﴿ٱرۡجِعُواْ﴾ بصريح العبارة؟!

فأولى بالمسلم الزائر في عصرنا: ألا يُلجئ المزور إلى مثل هذه المواقف المؤلمة، والأولى من هذا الاتفاق على الزيارة قبل موعدها بأيام، عن طريق الاتصال الهاتفي، بل كثيرًا ما يرتب الناس مواعيد زياراتهم خلال الشهر كله، وبذلك يتفادون التضييق على الإخوة المزورين، أو على الزائرين أنفسهم، عن طريق المفاجأة، إلا أن يكون هناك عذر مفاجئ، فهو ضرورة لها حكمها.

صيغة الاستئذان وكيفيته:

وكيفية الاستئذان أن يقف إلى جانب الباب، ولا يستقبله بوجهه، خشيةَ أن تقع عينُه على ما لا يحل، ثم يُلقي السلام، ويطلب الإذن، فإن سُئل: من هو؟ ذكر اسمه الصريح.

فعن عبد الله بن بُسر قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب مِن تلقاء وجهه، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر، ويقول: «السلام عليكم،

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (١/ ٤٤٢).

(٢) من أدب الإسلام، للشيخ عبد الفتاح أبو غدة ص ١٤. مكتبة المطبوعات الإسلامية بحلب.

السلام عليكم». وذلك أن الدّور لم يكن يومئذ عليها ستور[١]. فكان الذي يواجه الباب، يكشف من في داخل البيت.

وعن ربعيٍّ قال: أتى رجل من بني عامر، فاستأذن على النبي ﷺ وهو في بيته، فقال: أألجُ؟ فقال النبي ﷺ لخادمه: «اخرجْ إلى هذا فعلِّمْه الاستئذان، فقُلْ له: قُل: السلام عليكم. أأدخل؟». فسمعها الرجل، فقال: السلام عليكم، أأدخل؟ فأذن له النبي ﷺ، فدخلَ[٢].

«وإذا طرقتَ بابَ أحدٍ من إخوانك، فقيل لك: من هذا؟ فقل: «فلان» باسمك الصريح الذي تُعرَفُ به، ولا تقلْ: «واحد»، أو «أنا»، أو «شخص». فإن هذه الألفاظ لا تفيد السائل من خلف الباب معرفةً بالشخص الطارق، ولا يصحُّ لك أن تعتمد على أن صوتك معروف عند من تطرق عليه، فإن الأصوات تلتبس وتشتبه، وإن النغمة تشبه النغمة، وليس كل من في الدار التي تطرق بابها يعرف صوتك وحِسَّك أو يميِّزه، والسمع في تمييزه الأصواتَ يُخطئ ويُصيب، وقد كَرِهَ النبي ﷺ قولَ الطارقِ: «أنا»؛ لأنها لا تفيد شيئًا»[٣].

عن جابر قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ في دَيْنٍ كان على أبي، فدققتُ الباب، فقال: «من ذا؟» فقلتُ: أنا. فقال: «أنا أنا» كأنه كرهه[٤].

(١) رواه أحمد (١٧٦٩٢) وقال مخرجوه: إسناده حسن، وأبو داود في الأدب (٥١٨٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٨٤٣٧).

(٢) رواه أحمد (٢٣١٢٧) وقال مخرجوه: صحيح لغيره، وأبو داود في الأدب (٥١٧٧)، والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (١٠٠٧٥).

(٣) من أدب الإسلام ص١٢.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في الاستئذان (٦٢٥٠)، ومسلم في الآداب (٢١٥٥).

ومن طرائف الوقائع ما جاء في (تهذيب الكمال) للمِزِّي، و(سير أعلام النبلاء) للذهبي، في ترجمة الإمام المحدث أبي نُعيم الفضل بن دُكين، الكوفي، المولود سنة ١٣٠هـ والمتوفى سنة ٢١٩هـ رحمه الله

وكان الإمام مالك يقول: ليس كل الناس يقدِر أن يتكلم بعذره[1]. ولذا كان من أدب السلف عند زيارتهم، أن يقول الزائر للمزور: «لعله بدا لك مانع»، تمهيدًا لبسط العذر من المزور فيما لو اعتذر»[2].

هذا هو خُلُق السلف، وذلك هو نهْجهم، فمن منَّا يقبل اليوم أن يعتذر إليه صاحبُه بكثرة مشاغله، أو سوء صحته، أو ضيق صدره، أو غير ذلك، مما يشغل الناسَ بأنفسِهم عن استقبال زوارٍ، والاشتغال بإكرامهم وحسن ضيافتهم؟!

إن الاعتذار بلُطف ورفق لا يقبله الناس للأسف، ولا يستسيغه العُرف السائد، فكيف لو قيل لهم: ﴿ٱرۡجِعُواْ﴾ بصريح العبارة؟!

فأولى بالمسلم الزائر في عصرنا: ألا يُلجئ المزور إلى مثل هذه المواقف المؤلمة، والأولى من هذا الاتفاق على الزيارة قبل موعدها بأيام، عن طريق الاتصال الهاتفي، بل كثيرًا ما يرتب الناس مواعيد زياراتهم خلال الشهر كله، وبذلك يتفادون التضييق على الإخوة المزورين، أو على الزائرين أنفسهم، عن طريق المفاجأة، إلا أن يكون هناك عذر مفاجئ، فهو ضرورة لها حكمها.

صيغة الاستئذان وكيفيته:

وكيفية الاستئذان أن يقف إلى جانب الباب، ولا يستقبله بوجهه، خشيةَ أن تقع عينُه على ما لا يحل، ثم يُلقي السلام، ويطلب الإذن، فإن سُئل: من هو؟ ذكر اسمه الصريح.

فعن عبد الله بن بُسر قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب مِن تلقاء وجهه، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر، ويقول: «السلام عليكم،

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (١/ ٤٤٢).

(٢) من أدب الإسلام، للشيخ عبد الفتاح أبو غدة ص ١٤. مكتبة المطبوعات الإسلامية بحلب.

السلام عليكم». وذلك أن الدّور لم يكن يومئذ عليها ستور[1]. فكان الذي يواجه الباب، يكشف من في داخل البيت.

وعن ربعيٍّ قال: أتى رجل من بني عامر، فاستأذن على النبي ﷺ وهو في بيته، فقال: أألجُ؟ فقال النبي ﷺ لخادمه: «اخرجْ إلى هذا فعلِّمْه الاستئذان، فقُلْ له: قُل: السلام عليكم. أأدخل؟». فسمعها الرجل، فقال: السلام عليكم، أأدخل؟ فأذن له النبي ﷺ، فدخلَ[2].

«وإذا طرقتَ بابَ أحدٍ من إخوانك، فقيل لك: من هذا؟ فقل: «فلان» باسمك الصريح الذي تُعرَفُ به، ولا تقلْ: «واحد»، أو «أنا»، أو «شخص». فإن هذه الألفاظ لا تفيد السائل من خلف الباب معرفةً بالشخص الطارق، ولا يصحُّ لك أن تعتمد على أن صوتك معروف عند من تطرق عليه، فإن الأصوات تلتبس وتشتبه، وإن النغمة تشبه النغمة، وليس كل من في الدار التي تطرق بابها يعرف صوتك وجِسَّك أو يميِّزه، والسمع في تمييزه الأصواتَ يُخطئ ويُصيب، وقد كَرِهَ النبي ﷺ قولَ الطارقِ: «أنا»؛ لأنها لا تفيد شيئًا»[3].

عن جابر قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ في دَيْنٍ كان على أبي، فدققتُ الباب، فقال: «من ذا؟» فقلتُ: أنا. فقال: «أنا أنا» كأنه كرهه[4].

---

(١) رواه أحمد (١٧٦٩٢) وقال مخرجوه: إسناده حسن، وأبو داود في الأدب (٥١٨٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٨٤٣٧).

(٢) رواه أحمد (٢٣١٢٧) وقال مخرجوه: صحيح لغيره، وأبو داود في الأدب (٥١٧٧)، والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (١٠٠٧٥).

(٣) من أدب الإسلام ص١٢.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في الاستئذان (٦٢٥٠)، ومسلم في الآداب (٢١٥٥).

ومن طرائف الوقائع ما جاء في (تهذيب الكمال) للمِزّي، و(سير أعلام النبلاء) للذهبي، في ترجمة الإمام المحدث أبي نُعيم الفضل بن دُكين، الكوفي، المولود سنة ١٣٠هـ والمتوفى سنة ٢١٩هـ رحمه الله

وإنما كره ذلك؛ لأن هذه اللفظة لا يُعرف صاحبُها حتى يُفصح باسمِه أو كنيته التي هو مشهور بها، وإلا فكل أحد يعبِّر عن نفسه بـ«أنا»، فلا يحصل المقصود من الاستئذان.

ولهذا كان الصحابة ﷺ يُسمُّون أنفسهم إذا قيل لهم: من هذا؟

روى البخاري ومسلم، عن أبي ذر ﷺ قال: خرجت ليلة من الليالي، فإذا رسول الله ﷺ يمشي وحده، فجعلت أمشي في ظل القمر، فالتفتُّ، فرآني، فقال: «من هذا؟» فقلت: أبو ذر[1].

وروى البخاري ومسلم أيضًا، عن أم هانئ بنت أبي طالب ﷺ قالت: أتيت النبي ﷺ وهو يغتسل، وفاطمة تستره، فقال: «من هذه؟» فقلت: أنا أم هانئ[2].

من أدب الإسلام في الزيارة:

قال صديقنا العلامة المحدِّث الشيخ عبد الفتاح أبو غدة في رسالته المختصرة النافعة (من أدب الإسلام): «عندما تزور بيت أخيك، أو تدخل بيتك، كن لطيفًا في مدخلك ومخرجك، غاضًا طرفك وصوتك، واخلع حذاءك في محله، وصُفَّ نعليك أثناء خلعهما، ولا تدعهما هكذا وهكذا.

تعالى: كان أبو نُعيم ذا دُعابة، فروى عليُّ بن العباس المقانعي، سمعتُ الحسين بن عمرو العنقري يقول: دقَّ رجلٌ على أبي نُعيم البابَ، فقال من ذا؟ قال: أنا، قال: من أنا؟ قال رجل من ولد آدم، فخرج إليه أبو نعيم وقبَّلَهُ، وقال: مرحبًا وأهلًا، ما ظننتُ أنه بقي من هذا النسل أحد. تهذيب الكمال (٢٣/ ٢١٦)، نشر مؤسسة الرسالة - بيروت، ط الأولى، ١٤٠٠ - ١٩٨٠، وسير أعلام النبلاء (١٠/ ١٥٤)، ط الرسالة، ط الثالثة، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥م.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٤٤٣)، ومسلم في الزكاة (٩٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الغسل (٢٨٠)، ومسلم في الحيض (٣٣٦).

ولا تنسَ أدب لبس الحذاء وخلعه: تلبس اليمنى أولًا، وتخلع اليسرى أولًا، قال سيدنا رسول الله ﷺ: «إذا انتعل أحدكم فليبدأ باليمنى، وإذا انتزع فليبدأ بالشِّمال، ولتكن اليمنى أولهما تُنعل، وآخرهما تُنزع»[1].

وقبل الدخول إلى بيتك أو بيت أخيك انظر في نعليك، فإذا رأيتَ فيهما شيئًا من آثار الطريق، فأمطه عنهما، وادلكهما في الأرض لينزاح عنهما ما علِق بهما، فإن الإسلام دين النظافة واللطافة.

لا تُنازع مضيفك أو أخاك في المكان الذي يُجلِسك فيه من منزله، بل لا تجلس إلا حيث يُجلسكَ، فلعلك- إن جلستَ كما تريد- تجلس إلى مكان فيه إطلال على عورة من عورات الدار، أو فيه إحراج لساكنيه، فعليك بامتثال ما يأمرك به مضيفك، واقبل ما يُكرمكَ به أيضًا، ففي خبر إسلام الصحابي الجليل عدي بن حاتم الطائي ﷺ: أنه قدم على النبي ﷺ، فأكرمه بالجلوس على وسادة، وجلس رسول الله ﷺ على الأرض.

قال عدي: ثم مضى بي رسول الله ﷺ، حتى إذا دخل بيته، تناول وسادة من أدمٍ محشوة ليفًا، فقذفها إليّ فقال: «اجلس على هذه» قلت: بل أنت، فاجلس عليها. قال: «بل أنت» فجلستُ عليها، وجلس رسول الله ﷺ بالأرض[2].

ودخل خارجة بن زيد على ابن سيرين زائرًا له، فوجد ابنَ سيرين جالسًا على الأرض إلى وسادة، فأراد أن يجلس معه وقال له: قد رضيتُ لنفسي ما رضيتَ لنفسك، فقال ابن سيرين: إني لا أرضى لك في بيتي بما أرضى به لنفسي، فاجلس

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٨٥٥)، ومسلم (٢٠٩٧)، كلاهما في اللباس، عن أبي هريرة.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/ ١١٤).

حيث تُؤمر»[1].

ولا تجلسْ في مكان صاحب المنزل إلا إذا دعاك للجلوس فيه، فقد قال سيدنا رسول الله ﷺ: «لا يَؤُمَّنَّ الرجلُ الرجلَ في سلطانه - أي منزله ومكان سلطته - ولا يقعد في بيته على تكرمته إلا بإذنه»[2].

والتكرمة: الموضع الخاص لجلوس صاحب البيت من فراش أو سرير أو نحوهما.

إذا دخلتَ بيتَ أخيك أو صديقك، وأقعدكَ فيه، أو أنامك فيه، فلا تتفقَّدْه ببصرك تفقُّدَ الفاحص الممحِّص، بل غضَّ بصرك في أثناء قعودك أو منامك فيه، قاصرًا نظرك على ما تحتاج إليه فحسب، ولا تفتح مغلقًا من خزانة، أو صندوق، أو محفظة، أو صُرَّة ملفوفة، أو شيء مستور، فإن هذا خلاف أدب الإسلام والأمانة التي خولك بها أخوك أو محبُّك دخولَ بيته والمُقام عنده، فاعرفْ لزيارتكَ آدابها، واسلكْ لحسن العشرة أبوابها، تزْدَدْ عند مضيفك حبًّا وأدبًا، والله تعالى يرعاك ويتولاك»[3].

«وإذا دخلتَ مكانًا فيه نيام - بالليل أو النهار - فراعهم، وتلطَّف في حركتك وصوتك عندهم، ولا تكن ثقيلًا في ضجيجك أو دخولك أو خروجك، بل كن رفيقًا لطيفًا، فقد سمعتَ قول رسول الله ﷺ: «من يُحرم الرفقَ يُحرم الخيرَ كلَّه»[4].

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٥٨٩٣).

(٢) رواه مسلم في المساجد (٦٧٣)، وأبو داود في الصلاة (٥٨٢)، والنسائي في الإمامة (٧٨٣).

(٣) من أدب الإسلام ص١٥-١٧.

(٤) سبق تخريجه.

وقال المقدادُ بن الأسود الصحابيُّ الجليل ﷺ: كنا نرفع لرسول الله ﷺ نصيبه من اللبن، فيجيء من الليل، فيُسلم تسليمًا لا يوقظ النائم، ويُسمع اليقظان[1]. وكان ﷺ إذا قام يتهجد بالليل، قرأ بصوت يؤنس اليقظان، ولا يوقظ الوسنان»[2].

كم يمكث الزائر؟

وليس للزيارة مدَّة محدودة، بحيث لا يزاد عليها ولا ينقص منها، فمثل هذه الأمور متروكة لأذواق الناس، وحُسْن تقديرهم لظروف الآخرين.

فبعض الناس يحب ألا تزيد زيارتُه عن دقائق معدودة، نظرًا لانشغال وقته أو فكره أو نفسه، بهموم أخرى غير لقاء الناس.

وبعض الناس عندهم من الفراغ، وبينهم وبين الزائر من المودَّة، ما يجعلهم يستحبُّون طول الزيارة، وخصوصًا إذا جاءهم الزائر من مكان بعيد، وكان لا يأتيهم إلا على فترات مُتباعِدة.

والفيصل في هذا وذاك هو سلامة تقدير الزائر، ورهافة حِسِّه، فقد يسمع كلمة، أو يرى حركةً، يفهم منها وجوبَ تقصير الزيارة، والتعجيل بالانصراف، وقد يقرأ ذلك في الوجوه، وإن لم يسمع ولم يرَ شيئًا.

وليكن شأن المسلم في الزيارة شأن الظل اللطيف الخفيف المحبَّب، لا إثقال ولا إملال، ولا فضول ولا تطويل، وإنما هي زيارة صلة، وسُقيا صداقة أو قرابة، فتُحبُّ الصلةُ إذا كانت قصيرةً لطيفة، وتُستثقَل إذا كانت طويلة مُملة، وتنتقل فيها الأحاديث والمسامرة من الغالي للرخيص.

قال التابعي الجليل محمد بن شهاب الزهري: إذا طال المجلسُ كان

(١) رواه مسلم في الأشربة (٢٠٥٥)، وأحمد (٢٣٨١٢)، والترمذي في الاستئذان (٢٧١٩).

(٢) من أدب الإسلام ص٣٩.

للشيطان فيه نصيب[1].

وليكن حديث الزائر في زيارته كلِّه - أو جله - فيما ينفع أو يفيد، بعيدًا عن الغِيبة والنميمة واللغو والهُراء، فما يتسع الوقت عند المسلم العاقل لذلك. وينبغي أن يدخر الوقت لما هو أعلى وأنفع، فالوقت هو الحياة.

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٣/ ٣٦٦).

حق الضيف

كما جعل الإسلام آدابًا على المسلم التحلِّي بها في زيارته لأخيه، فصَّلناها وبيَّنَّاها فيما سبق، جعل الإسلام للضيف حقًّا على المضيف، خاصة إذا كان الضيف قد أتى من بلد بعيد.

والضيف ذلك الذي ينزل عند الإنسان، دُعيَ أو لم يُدع، وخصوصًا إذا كان غريبًا مسافرًا، ليس له أهل ولا دار إقامة بهذا البلد، ونزل على المسلم، فإن حقَّه أن يُكرم، وأن يُحسن إليه.

هذا حق واجب، حتى إن النبي ﷺ أباح له أن يطالب بهذا الحق، بل أباح له أن يأخذه قهرًا، بل أباح له أن يقاتل من أجله.

ذهب أبو هريرة إلى أرض فاستضافهم، فلم يُضيفوه، فتنحَّى ونزل، فدعاهم إلى طعامه، فلم يُجيبوه، فقال لهم: لا تُنزلون الضيف، ولا تجيبون الدعوة، ما أنتم من الإسلام على شيء! فعرفه رجل منهم، فقال له: انزل عافاك الله. قال: هذا شرٌّ وشرٌّ، لا تنزلون إلا من تعرفون[1].

والإكرام الذي أمر به الإسلام أن يكرم الإنسان من يعرف ومن لا يعرف، بل من لا يعرف أولى، فإن هذا المجهول لا يجد له دار قرار، ولا يجد له معينًا، فهو أولى أن يعان.

(١) انظر: «جامع العلوم والحكم» (١/ ٣٥٦)، ت الأرنؤوط.

هذا هو (ابن السبيل) الذي أكد القرآن على حقه، وجعل له حقًّا في الزكاة، وحقًّا فيما بعد الزكاة، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ [البقرة:١٧٧].

حق الضيف وصّى به رسول الله ﷺ وحرص عليه أصحابه من بعده، حتى إن عبد الله بن عمرو يقول: من لم يضيِّف فليس على سنة محمد ﷺ، ولا على سنة إبراهيم [١].

فكلاهما كان مكرمًا لضيفانه، وإبراهيم عليه السلام كان يُسمَّى أبا الضِّيفان [٢]؛ لأنه في كل يوم يبحث عن ضيف، ويسير ميلًا أو ميلين يبحث عن ضيف، فإذا وجد انشرح صدره واطمأنَّ قلبه، وإذا لم يجد يومًا ضيفًا بات ليلته آسيًا حزينًا.

وقد ذكر الله لنا قصة من كرمه وإكرامه لضيفانه، فقال: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝﴾ [الذاريات:٢٤، ٢٥]. رأى وجوها غريبة، وكانت وجوه الملائكة الذين ذهبوا ليبشروه بغلام حليم، وذهبوا لإهلاك قوم لوط الذين شاعت فيهم الفاحشة، وكانوا يأتون الذُّكْران من العالمين، ويذرون ما خلق لهم ربهم من أزواجهم. ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۝﴾ [الذاريات:٢٦]. رغم أنه لم يكن يعرف أحدًا من ضيوفه، بل إنه أنكر صورتهم، ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝﴾ [الذاريات:٢٧].

وهذا شأن الرجل الكريم مع ضيوفه، إذ يحثهم على الطعام ويدعوهم إليه، ويأتي إليهم بطعامه وجائزته في غير جَلَبة ولا ضوضاء.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) رواه هناد بن السري في الزهد (١/ ٣٤٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٣٣٥)، عن عكرمة.

ولكن ضيوف إبراهيم لم يأكلوا، ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ۝٢٨﴾ [الذاريات:٢٨].

هذا هو شأن إبراهيم عليه السلام، وشأن محمد ﷺ، وشأن أصحابه الذين كانوا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

جاء ضيف إلى رسول الله ﷺ، فأرسل إلى بعض نسائه فقالت: والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء، ثم أرسل إلى أخرى، فقالت: مثل ذلك، حتى قُلن كلهن مثل ذلك: لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء(١).

ليس في أبيات محمد ﷺ إلا الماء، وهو أكرم الخلق وأقربهم إلى الله، ولكنه مع ذلك لم يشبع من خبز الشعير، والذي كان يمضي الهلال ثم الهلال ثم الهلال، ثلاثة أهلة بشهرين، لا يوقد في بيت رسول الله ﷺ نار، ولم يُطْهَ له طعام، ولم يصنع له ما يقتات به مدة شهرين، كما تروي السيدة عائشة رضي الله عنها(٢).

فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: من يُضيف هذا الليلة رحمه الله، فقام رجل من الأنصار، فقال: أنا يا رسول الله، فانطلق به إلى رحله، فقال لامرأته: هل عندك شيء؟ قالت: لا، إلا قوت صبياني. قال: فعلّليهم بشيء، فإذا دخل ضيفنا فأطفئي السراج، وأريه أنّا نأكل، فإذا أهوى ليأكل، فقومي إلى السراج حتى تُطفئيه، قال: فقعدوا وأكل الضيف، فلما أصبح غدًا على النبي ﷺ، فقال: «لقد عجب ربكما من صنيعكما الليلة». وأنزل الله تعالى قوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر:٩](٣).

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٨٨٩)، مسلم في الأشربة (٢٠٥٤)، عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الهبة (٢٥٦٧)، ومسلم في الزهد (٢٩٧٢).

(٣) وهو تكملة الحديث قبل السابق.

هذا هو هدي الإسلام .. ألَّا يشعر غريب مسلم أنه بدار هوان، أو بأرض مَضْيَعة حيثما نزل في ديار الإسلام.

بل أوجب بعض العلماء حق القِرى وحق الضيافة للمسلم والكافر، وإن كان حق المسلم أوكد.

حق الضيف: الليلة الأولى واجبة. وبعدها يومان، فيكمل له ثلاثة أيام.

وما زاد بعد ذلك فهو صدقة، كما قال النبي ﷺ.

وقال عليه الصلاة والسلام: «ولا يحل له أن يثوي عنده حتى يحرجه»(١). أي حتى يضيق صدره.

وفي رواية لمسلم: «ولا يحل لرجل مسلم أن يُقيم عند أخيه حتى يُؤثمه»، قالوا: يا رسول الله وكيف يؤثمه؟ قال: «يقيم عنده ولا شيء له يُقريه به»(٢). وقد فسَّر الخطابي الحديث فقال: «يتكلف له في اليوم الأول ما اتسع له من بر وألطاف، ويقدم له في اليوم الثاني ما كان بحضرته، ولا يزيد على عادته، فما جاوز الثلاث فهو معروف وصدقة إن شاء فعل وإن شاء ترك»(٣).

بعد الثلاث، لا حق للضيف. بل لصاحب الدار أن يطلب إليه النزوح.

ولم يأمر الإسلام بإكرام الضيف بالتكلف، بل يقدّم الإنسان ما استطاع، في أول ليلة عليه أن يكرمه ويتحفه، ولهذا سماها النبي ﷺ: جائزته، في قوله: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته» قالوا: وما جائزته؟ قال: «يوم وليلة،

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦١٣٥)، ومسلم في اللقطة (٤٨)، عن أبي شريح الخزاعي.

(٢) رواه مسلم في اللقطة (٤٨).

(٣) معالم السنن (٤/ ٢٣٨).

وما زاد بعد ثلاثة أيام فهو صدقة»[١]. ثم بعد ذلك يطعمه من طعام أهله ويسقيه من شراب أهله.

وقال سلمان ﷺ: نهينا أن نتكلَّف للضيف[٢].

إن المسألة ليست فيما يقدم من طعام وشراب، وليس الأمر بالكَمِّ، ولا بالحجم، فحسن اللقاء، أحسن عند الإنسان من زخم الغذاء. وقد قال بعض الصحابة: البر شيء هين: وجه طلق، وكلام ليِّن[٣].

بهذا أمر الإسلام أهله أن يعاملوا الناس، ليكون المسلم سمحًا كريمًا، في كل علاقاته الإنسانية، يريد للمسلم أن يكون في حياته سخي النفس، مبسوط اليد، متعاونا مع الغير، مع القريب، مع الجار، مع الغريب، ومع سائر الناس .. على البر والتقوى.

إذا علم الناس هذا العلم، وتأدبوا هذا الأدب، وتخلقوا بهذا الخلق، كانوا جديرين بأن يكونوا من أكمل أهل الإيمان، قال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذِ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرمْ ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقلْ خيرًا أو ليصمت»[٤].

حكم الضيافة:

وقد اختلف الفقهاء في حكم الضيافة، وعلى من تجب، فقد ذهب الجمهور إلى

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠١٩)، ومسلم في اللقطة (٤٨)، عن أبي شريح.

(٢) رواه البزار (٢٥١٤)، والطبراني (٦/ ٢٣٥)، والحاكم في الأطعمة (٤/ ١٢٣) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي: سنده لين، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٣٩٢).

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٨٠٥٩)، من كلام ابن عمر.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠١٨)، ومسلم في الإيمان (٤٧)، عن أبي هريرة.

أن الضيافة سُنَّة، ومدتها ثلاثة أيام، قال النووي: «الضيافة سنة، فإذا استضاف مسلم لا اضطرار به مسلمًا؛ استحبَّ له ضيافته، ولا تجب.

هذا مذهبنا، ومذهب الجمهور، وهو مذهب مالك، وأبي حنيفة.

وقال الليث بن سعد وأحمد بن حنبل: هي واجبة يومًا وليلة.

قال أحمد: هي واجبة يوما وليلة على أهل البادية وأهل القرى، دون أهل المدن»[(١)].

وقال ابن عبد البر رحمه الله: «وقد روى الربيع عن الشافعي أنه قال: الضيافة على أهل البادية والحاضرة حق واجب في مكارم الأخلاق، وقال مالك: ليس على أهل الحضر ضيافة.

وقال سحنون: إنما الضيافة على أهل القرى، وأما الحضر فالفندق ينزل فيه المسافر»[(٢)].

والذي نراه أن الضيافة لا تجب على كل مسلم لكل مسلم؛ لأن الأصل أن الناس قد أخذ كل واحد منهم حقه، واستقر في بيته، وتهيأت له الفنادق المناسبة إن سافر من مكان إلى آخر، خاصة في الحواضر والمدن، ويبقى أهل البادية الصحراويون الذين لهم ظروف خاصة، فينبغي عليهم أن يسع بعضهم بعضا بكل ما ذكرنا، ولا يضيق بعضهم ببعض، وما قلناه قريب مما ذهب إليه المالكية من أن حق الضيافة = وهو سنة عندهم- على أهل القرى، وعدم إيجابها على أهل الحضر، ونقول: في زمننا هذا قربت وسائل المواصلات المسافات وأصبح زائر القرية يستطيع أن يصل إلى أقرب مكان فيه فندق أو نُزُل للإقامة.

---

(١) المجموع (٩/ ٥٧).

(٢) «الاستذكار» (٨/ ٣٦٨)، نشر دار الكتب العلمية بيروت، ط الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م.

وفي بعض القرى يتعاون أهل القرية ببناء (مضيفة) أو كما يسميها البعض مندرة، تستقبل القادمين إلى القرية في المآتم والأفراح وما شابه، ويخصص بعض البيوتات حجرات خاصة للضيوف، الذين يأتون من بعيد.

آداب الضيافة:

وقد ذكر الإمام أبو حامد في إحيائه من آداب المضيف والضيف ما يغني هنا، ننقله عنه مختصرًا، مع الالتزام بمنهجنا من ترك الأحاديث الضعيفة والمبالغات، يقول: «ومظانٌّ الآداب فيها ستةٌ: الدعوة أولًا، ثم الإجابة، ثم الحضور، ثم تقديم الطعام، ثم الأكل، ثم الانصراف».

آداب الدعوة:

ثم قال: «أما الدعوة، فينبغي للداعي:

١- أن يعمد بدعوته الأتقياء دون الفساق:

قال ﷺ: «أكل طعامك الأبرار»[(١)]. في دعائه لبعض من دعا له.

وقال ﷺ: «لا تأكل إلا طعام تقي، ولا يأكل طعامك إلا تقي»[(٢)].

٢- ويقصد الفقراء دون الأغنياء على الخصوص:

قال ﷺ: «شر الطعام طعام الوليمة يدعى إليها الأغنياء دون الفقراء»[(٣)].

(١) رواه أحمد (١٢١٧٧) وقال مخرجوه: حديث صحيح، أبو داود في الأطعمة (٣٨٤٥)، والنسائي في الكبرى في الأشربة المحظورة (٦٨٧٤)، عن أنس بن مالك.

(٢) رواه أحمد (١١٣٣٧) وقال مخرجوه: إسناده حسن، وأبو داود في الأدب (٤٨٣٢)، والترمذي في الزهد (٢٣٩٥) وقال: حسن، والحاكم في الأطعمة (٤/ ١٢٨)، وصححه، ووافقه الذهبي، كلهم بلفظ: «لا تصحب إلا مؤمنا، ولا يأكل طعامك إلا تقي»، عن أبي سعيد الخدري.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٥١٧٧)، ومسلم (١٤٣٢) كلاهما في النكاح، عن أبي هريرة.

٣- وينبغي ألَّا يهمل أقاربه في ضيافته: فإن إهمالهم إيحاش وقطع رحم، وكذلك يراعي الترتيب في أصدقائه ومعارفه، فإن في تخصيص البعض إيحاشًا لقلوب الباقين.

٤- وينبغي ألَّا يقصد بدعوته المباهاة والتفاخر، بل استمالة قلوب الإخوان، والتسنُّن بسنة رسول الله ﷺ في إطعام الطعام وإدخال السرور على قلوب المؤمنين.

٥- وينبغي ألَّا يدعو من يعلم أنه يشق عليه الإجابة، وإذا حضر تأذى بالحاضرين بسبب من الأسباب.

٦- وينبغي ألَّا يدعو إلا من يحب إجابته.

قال سفيان: من دعا أحدًا إلى طعام وهو يكره الإجابة، فعليه خطيئة، فإن أجاب المدعو فعليه خطيئتان؛ لأنه حمله على الأكل مع كراهة، ولو علم ذلك لما كان يأكله.

وإطعام التقي إعانة على الطاعة، وإطعام الفاسق تقوية على الفسق.

قال رجل خياط لابن المبارك: أنا أخيط ثياب السلاطين فهل تخاف أن أكون من أعوان الظلمة؟ قال: لا، إنما أعوان الظلمة من يبيع منك الخيط والإبرة، أما أنت فمن الظلمة نفسهم[(١)].

إجابة الدعوة وآدابها:

وأما الإجابة، فهي سنة مؤكدة، وقد قيل بوجوبها في بعض المواضع.

قال ﷺ: «لو دعيت إلى كراع لأجبت، ولو أهدي إلي ذراع لقبلت»[(٢)].

---

(١) قوت القلوب لأبو طالب المكي (٢/ ٣٢١).

(٢) رواه البخاري في النكاح (٥١٧٨)، عن أبي هريرة.

وللإجابة خمسة آداب:

١- الأول: ألَّا يميِّز الغني بالإجابة عن الفقير، فذلك هو التكبر المنهي عنه، ولأجل ذلك امتنع بعضهم عن أصل الإجابة، وقال: انتظار المرقة ذل. وقال آخر: إذا وضعتُ يدي في قصعة غيري فقد ذلَّت له رقبتي.

ومن المتكبرين من يجيب الأغنياء دون الفقراء، وهو خلاف السُّنة، كان رسول الله ﷺ يجيب دعوة العبد ودعوة المسكين(١)، ومر الحسن بن علي رضي الله عنهما بقوم من المساكين الذين يسألون الناس على الطريق، وقد نشروا كِسَرًا على الأرض في الرمل، وهم يأكلون، وهو على بغلته، فسلم عليهم، فقالوا له: هلمَّ إلى الغداء يا ابن بنت رسول الله ﷺ. فقال: نعم، إن الله لا يحب المستكبرين. فنزل وقعد معهم على الأرض، وأكل، ثم سلَّم عليهم، وركب وقال: قد أجبتكم فأجيبوني. قالوا: نعم. فوعدهم وقتًا معلومًا، فحضروا، فقدَّم إليهم فاخر الطعام، وجلس يأكل معهم(٢).

وأما قول القائل: إن من وضعت يدي في قصعته فقد ذلت له رقبتي؛ فقد قال بعضهم: هذا خلاف السنة، وليس كذلك، فإنه ذل إذا كان الداعي لا يفرح بالإجابة، ولا يتقلَّد مِنَّة، وكان يرى ذلك يدًا له على المدعو، ورسول الله ﷺ كان يحضر لعلمه أن الداعي له يتقلَّد منة، ويرى ذلك شرفًا وذُخْرًا لنفسه في الدنيا والآخرة، فهذا يختلف باختلاف الحال، فمن ظنَّ به أنه يستثقل الإطعام، وإنما يفعل ذلك مباهاةً أو تكلُّفًا، فليس من السنة إجابته، بل الأولى التعلل.

---

(١) رواه الترمذي في الجنائز (١٠١٧)، وقال: ضعيف إسناده، وابن ماجه في التجارات (٢٢٩٦)، والحاكم في التفسير (٢/ ٤٦٦) وصححه، ووافقه الذهبي، كلاهما بلفظ: «دعوة المملوك» دون ذكر المسكين، عن أنس بن مالك.

(٢) قوت القلوب، لأبي طالب المكي (٢/ ٣١٢).

٣- وينبغي ألَّا يهمل أقاربه في ضيافته: فإن إهمالهم إيحاش وقطع رحم، وكذلك يراعي الترتيب في أصدقائه ومعارفه، فإن في تخصيص البعض إيحاشًا لقلوب الباقين.

٤- وينبغي ألَّا يقصد بدعوته المباهاة والتفاخر، بل استمالة قلوب الإخوان، والتسنُّن بسنة رسول الله ﷺ في إطعام الطعام وإدخال السرور على قلوب المؤمنين.

٥- وينبغي ألَّا يدعو من يعلم أنه يشق عليه الإجابة، وإذا حضر تأذى بالحاضرين بسبب من الأسباب.

٦- وينبغي ألَّا يدعو إلا من يحب إجابته.

قال سفيان: من دعا أحدًا إلى طعام وهو يكره الإجابة، فعليه خطيئة، فإن أجاب المدعو فعليه خطيئتان؛ لأنه حمله على الأكل مع كراهة، ولو علم ذلك لما كان يأكله.

وإطعام التقي إعانة على الطاعة، وإطعام الفاسق تقوية على الفسق.

قال رجل خياط لابن المبارك: أنا أخيط ثياب السلاطين فهل تخاف أن أكون من أعوان الظلمة؟ قال: لا، إنما أعوان الظلمة من يبيع منك الخيط والإبرة، أما أنت فمن الظلمة نفسهم[(١)].

إجابة الدعوة وآدابها:

وأما الإجابة، فهي سنة مؤكدة، وقد قيل بوجوبها في بعض المواضع.

قال ﷺ: «لو دعيت إلى كراع لأجبت، ولو أهدي إلي ذراع لقبلت»[(٢)].

(١) قوت القلوب لأبو طالب المكي (٢/ ٣٢١).

(٢) رواه البخاري في النكاح (٥١٧٨)، عن أبي هريرة.

وللإجابة خمسة آداب:

١- الأول: ألَّا يميِّز الغني بالإجابة عن الفقير، فذلك هو التكبر المنهي عنه، ولأجل ذلك امتنع بعضهم عن أصل الإجابة، وقال: انتظار المرقة ذل. وقال آخر: إذا وضعتُ يدي في قصعة غيري فقد ذلَّت له رقبتي.

ومن المتكبرين من يجيب الأغنياء دون الفقراء، وهو خلاف السُّنة، كان رسول الله ﷺ يجيب دعوة العبد ودعوة المسكين[(١)]، ومر الحسن بن علي رضي الله عنهما بقوم من المساكين الذين يسألون الناس على الطريق، وقد نشروا كِسَرًا على الأرض في الرمل، وهم يأكلون، وهو على بغلته، فسلم عليهم، فقالوا له: هلمَّ إلى الغداء يا ابن بنت رسول الله ﷺ. فقال: نعم، إن الله لا يحب المستكبرين. فنزل وقعد معهم على الأرض، وأكل، ثم سلَّم عليهم، وركب وقال: قد أجبتكم فأجيبوني. قالوا: نعم. فوعدهم وقتًا معلومًا، فحضروا، فقدَّم إليهم فاخر الطعام، وجلس يأكل معهم[(٢)].

وأما قول القائل: إن من وضعت يدي في قصعته فقد ذلت له رقبتي؛ فقد قال بعضهم: هذا خلاف السنة، وليس كذلك، فإنه ذل إذا كان الداعي لا يفرح بالإجابة، ولا يتقلَّد مِنَّة، وكان يرى ذلك يدًا له على المدعو، ورسول الله ﷺ كان يحضر لعلمه أن الداعي له يتقلَّد منة، ويرى ذلك شرفًا وذُخْرًا لنفسه في الدنيا والآخرة، فهذا يختلف باختلاف الحال، فمن ظنَّ به أنه يستثقل الإطعام، وإنما يفعل ذلك مباهاةً أو تكلُّفًا، فليس من السنة إجابته، بل الأولى التعلل.

(١) رواه الترمذي في الجنائز (١٠١٧)، وقال: ضعيف إسناده، وابن ماجه في التجارات (٢٢٩٦)، والحاكم في التفسير (٢/ ٤٦٦) وصححه، ووافقه الذهبي، كلاهما بلفظ: «دعوة المملوك»، دون ذكر المسكين، عن أنس بن مالك.

(٢) قوت القلوب، لأبي طالب المكي (٢/ ٣١٢).

ولذلك قال بعض الصوفية: لا تُجب إلا دعوة من يرى أنك أكلتَ رزقك، وأنه سلم إليك وديعة كانت لك عنده، ويرى لك الفضل عليه في قبول تلك الوديعة منه.

وقال سري السقطي رحمه الله: آه على لقمة ليس على الله فيها تبعة، ولا لمخلوق فيها منة[1].

فإذا علم المدعوُّ أنه لا مِنَّة في ذلك، فلا ينبغي أن يرد.

وقال أبو تراب النخشي رحمة الله عليه: عرض عليَّ طعام، فامتنعتُ، فابتليتُ بالجوع أربعة عشر يومًا، فعلمت أنه عقوبته.

وقيل لمعروف الكرخي رضي الله عنه: كل من دعاك تمر إليه! فقال: أنا ضيف أنزل حيث أنزلوني.

٢- أنه لا ينبغي أن يمتنع عن الإجابة لبعد المسافة، كما لا يمتنع لفقر الداعي وعدم جاهه، بل كل مسافة يمكن احتمالها في العادة لا ينبغي أن يمتنع لأجل ذلك.

يقال في التوراة، أو بعض الكتب: سِرْ ميلًا عُدْ مريضًا، سر ميلين شيِّع جنازة، سر ثلاثة أميال أجبْ دعوةً، سر أربعة أميال زُر أخًا في الله.

وإنما قدَّم إجابة الدعوة والزيارة؛ لأن فيه قضاء حق الحي، فهو أولى من الميت.

وقال ﷺ: «لو دُعيتُ إلى كراع بالغميم لأجبت»[2].

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٠/ ١١٦).

(٢) سبق تخريجه. دون ذكر «الغميم»، وقال الحافظ في «الفتح»: لا أصل لهذه الزيادة (٩/ ٢٤٦).

وهو موضع على أميال من المدينة، أفطر فيه رسول الله ﷺ في رمضان لمَّا بلغه[1].

٣- الثالث: ألَّا يمتنع لكونه صائمًا، بل يحضر، فإن كان يسُرُّ أخاه إفطاره فليفطر، وليحتسب في إفطاره بنية إدخال السرور على قلب أخيه ما يحتسب في الصوم وأفضل، وذلك في صوم التطوع، وإن لم يتحقق سرور قلبه، فليصدقه بالظاهر وليفطر، وإن تحقق أنه متكلِّف فليتعلل.

وقد قال ﷺ لمن امتنع بعذر الصوم: «تكلَّف لك أخوك وتقول إني صائم»[2].

وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: من أفضل الحسنات إكرام الجلساء بالإفطار.

فالإفطار عبادة بهذه النية، وحسن خلق، فثوابه فوق ثواب الصوم.

ومهما لم يفطر، فضيافته الطِّيب والمجمرة، والحديث الطيِّب.

وقد قيل: الكحل والدهن أحد القِرَاءين.

٤- الرابع: أن يمتنع من الإجابة إن كان الطعام طعام شبهة، أو الموضع أو البساط المفروش من غير حلال، أو كان يقام في الموضع منكَرٍ، من فرش ديباجٍ، أو إناء فضة، أو تصوير حيوان على سقف أو حائط، أو سماع شيء من المزامير والملاهي، أو التشاغل بنوع من اللهو والعزف والهزل واللعب، واستماع الغيبة

---

(١) رواه مسلم (١١١٤)، والترمذي (٧١٠)، والنسائي (٢٢٦٣)، ثلاثتهم في الصيام، عن جابر.

(٢) رواه الطيالسي (٢٣١٧)، والطبراني في الأوسط (٣٢٤٠)، والدارقطني في الصيام (٢٢٣٩) وقال: هذا مرسل، والبيهقي في الصوم (٤/ ٢٧٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦١٦٠): فيه حماد بن أبي حميد، وهو ضعيف، وبقية رجاله ثقات، وحسن إسناد البيهقي ابن حجر في فتح الباري (٤/ ٢١٠)، وقال في موضع آخر (٩/ ٢٤٨): أخرجه الطيالسي والطبراني في الأوسط، في إسناده راوٍ ضعيف لكنه توبع، عن أبي سعيد الخدري.

والنميمة والزور والبهتان والكذب.. وشبه ذلك، مما يمنع الإجابة واستحبابها، ويوجب تحريمها أو كراهيتها.

وكذلك إذا كان الداعي ظالمًا أو مبتدعًا أو فاسقًا أو شريرًا أو متكلِّفًا طلبًا للمباهاة والفخر.

النية من إجابة الدعوة:

٥- الخامس: ألا يقصد بالإجابة قضاء شهوة البطن، فيكون عاملًا في أبواب الدنيا، بل يحسن نيَّته، ليصير بالإجابة عاملًا للآخرة، وذلك بأن تكون نيته الاقتداء بسنة رسول الله ﷺ في قوله: «لو دعيت إلى كراع لأجبت»(١).

وينوي الحذر من معصية الله تعالى، لقوله ﷺ: «من لم يجب الداعي فقد عصى الله ورسوله»(٢).

وينوي إكرام أخيه المؤمن.. وينوي إدخال السرور على قلبه، وينوي مع ذلك زيارته ليكون من المتحابين في الله إذ شرط رسول الله ﷺ فيه التزاور والتباذل لله(٣).

وقد حصل البذل من أحد الجانبين، فتحصل الزيارة من جانبه أيضًا.

وينوي صيانة نفسه عن أن يساء به الظن في امتناعه، ويطلق اللسان فيه بأن يُحمل على تكبر أو سوء خلق أو استحقار أخ مسلم، أو ما يجري مجراه.

فهذه ست نيات تلحق إجابته بالقربات آحادها، فكيف مجموعها؟

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه مسلم في النكاح (١٤٣٢)، وأحمد (٧٦٢٤)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه أحمد (٢٢٧٨٣) وقال مخرجوه: إسناده صحيح، وابن حبان في البر والصلة (٥٧٧)، عن عبادة بن الصامت.

وكان بعض السلف يقول: أنا أحب أن يكون لي في كل عمل نية، حتى في الطعام والشراب.

وفي مثل هذا قال ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»[(١)].

والنية إنما تؤثر في المباحات والطاعات، أما المنهيات، فلا، فإنه لو نوى أن يسر إخوانه بمساعدتهم على شرب الخمر أو حرام آخر؛ لم تنفع النية، ولم يجُز أن يقال: (الأعمال بالنيات).

بل لو قصد بالغزو- الذي هو طاعة- المباهاة وطلب المال انصرف عن جهة الطاعة.

وكذلك المباح المتردد بين وجوه الخيرات وغيرها، يلتحق بوجوه الخيرات بالنية، فتؤثر النية في هذين القسمين، لا في القسم الثالث.

أدب حضور الدعوة:

وأما الحضور، فأدبه أن يدخل الدار ولا يتصدر، فيأخذ أحسن الأماكن، بل يتواضع، ولا يطوِّل الانتظار عليهم، ولا يعجل بحيث يفاجئهم قبل تمام الاستعداد، ولا يضيق المكان على الحاضرين بالزحمة، بل إن أشار إليه صاحب المكان بموضع لا يخالفه البتة، فإنه قد يكون رتَّب في نفسه موضع كل واحد، فمخالفته تشوِّش عليه.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (١)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٧)، عن عمر بن الخطاب.

والنميمة والزور والبهتان والكذب.. وشبه ذلك، مما يمنع الإجابة واستحبابها، ويوجب تحريمها أو كراهيتها.

وكذلك إذا كان الداعي ظالمًا أو مبتدعًا أو فاسقًا أو شريرًا أو متكلِّفًا طلبَ للمباهاة والفخر.

النية من إجابة الدعوة:

٥- الخامس: ألا يقصد بالإجابة قضاء شهوة البطن، فيكون عاملًا في أبواب الدنيا، بل يحسن نيَّته، ليصير بالإجابة عاملًا للآخرة، وذلك بأن تكون نيته الاقتداء بسنة رسول الله ﷺ في قوله: «لو دعيت إلى كراع لأجبت»(١).

وينوي الحذر من معصية الله تعالى، لقوله ﷺ: «من لم يجب الداعي فقد عصى الله ورسوله»(٢).

وينوي إكرام أخيه المؤمن.. وينوي إدخال السرور على قلبه، وينوي مع ذلك زيارته ليكون من المتاحبين في الله إذ شرط رسول الله ﷺ فيه التزاور والتباذل لله(٣).

وقد حصل البذل من أحد الجانبين، فتحصل الزيارة من جانبه أيضًا.

وينوي صيانة نفسه عن أن يساء به الظن في امتناعه، ويطلق اللسان فيه بأن يُحمل على تكبر أو سوء خلق أو استحقار أخ مسلم، أو ما يجري مجراه.

فهذه ست نيات تلحق إجابته بالقربات آحادها، فكيف مجموعها؟

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه مسلم في النكاح (١٤٣٢)، وأحمد (٧٦٢٤)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه أحمد (٢٢٧٨٣) وقال مخرجوه: إسناده صحيح، وابن حبان في البر والصلة (٥٧٧)، عن عبادة بن الصامت.

وكان بعض السلف يقول: أنا أحب أن يكون لي في كل عمل نية، حتى في الطعام والشراب.

وفي مثل هذا قال ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»(١).

والنية إنما تؤثر في المباحات والطاعات، أما المنهيات، فلا، فإنه لو نوى أن يسر إخوانه بمساعدتهم على شرب الخمر أو حرام آخر؛ لم تنفع النية، ولم يجُز أن يقال: (الأعمال بالنيات).

بل لو قصد بالغزو- الذي هو طاعة- المباهاة وطلب المال انصرف عن جهة الطاعة.

وكذلك المباح المتردد بين وجوه الخيرات وغيرها، يلتحق بوجوه الخيرات بالنية، فتؤثر النية في هذين القسمين، لا في القسم الثالث.

أدب حضور الدعوة:

وأما الحضور، فأدبه أن يدخل الدار ولا يتصدر، فيأخذ أحسن الأماكن، بل يتواضع، ولا يطوِّل الانتظار عليهم، ولا يعجل بحيث يفاجئهم قبل تمام الاستعداد، ولا يضيق المكان على الحاضرين بالزحمة، بل إن أشار إليه صاحب المكان بموضع لا يخالفه البتة، فإنه قد يكون رتَّب في نفسه موضع كل واحد، فمخالفته تشوِّش عليه.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (١)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٧)، عن عمر بن الخطاب.

وإن أشار إليه بعض الضِّيفان بالارتفاع إكرامًا، فليتواضع، قال ﷺ: «إن من التواضع لله الرضا بالدون من المجلس»[(١)].

ولا ينبغي أن يجلس في مقابلة باب الحجرة التي للنساء وسِتْرهم، ولا يكثر النظر إلى الموضع الذي يخرج منه الطعام، فإنه دليل على الشره، ويخص بالتحية والسؤال من يقرب منه إذا جلس.

من آداب المضيف للضيف والضيف للمضيف:

وإذا دخل ضيف للمبيت، فليعرفه صاحب المنزل عند الدخول القبلة، وبيت الماء، وموضع الوضوء، كذلك فعل مالك بالشافعي رضي الله عنهما، وغسل مالك يده قبل الطعام قبل القوم، وقال: الغسل قبل الطعام لرب البيت أول؛ لأنه يدعو الناس إلى كرمه، فحكمه أن يتقدم بالغسل، وفي آخر الطعام يتأخر بالغسل، لينتظر أن يدخل من يأكل فيأكل معه.

وإذا دخل فرأى منكرا غيَّره إن قدر، وإلا أنكر بلسانه وانصرف . . .

آداب إحضار الطعام:

وأما إحضار الطعام فله آداب خمسة:

١ - الأول: تعجيل الطعام، فذلك من إكرام الضيف، وقد قال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليكرم ضيفه»[(٢)].

ومهما حضر الأكثرون وغاب واحد أو اثنان وتأخروا عن الوقت الموعود، فحق الحاضر في التعجيل أولى من حق أولئك في التأخير، إلا أن يكون المتأخِّر

---

(١) رواه الطبراني (١/ ١١٤)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٩٢٠): رواه الطبراني، وفيه أيوب ابن سليمان بن عبد الله بن حدلم ولم أعرفه ولا والده، وبقية رجاله ثقات، عن طلحة بن عبيد الله.

(٢) سبق تخريجه.

فقيرًا، أو ينكسر قلبه بذلك، فلا بأس في التأخير، وأحد المعنيين في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات:٢٤]: أنهم أكرموا بتعجيل الطعام إليهم، دل عليه قوله تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود:٦٩]، وقوله: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات:٢٦]، والروغان: الذهاب بسرعة. وقيل: في خفية. وقيل: جاء بفخذ من لحم، وإنما سمي عجلًا؛ لأنه عجّله ولم يلبث.

قال حاتم الأصم: العجلة من الشيطان، إلا في خمسة، فإنها من سنة رسول الله ﷺ: إطعام الضيف، وتجهيز الميت، وتزويج البكر، وقضاء الدين، والتوبة من الذنب إذا أذنب[(١)].

٢- الثاني: ترتيب الأطعمة، بتقديم الفاكهة أولًا إن كانت، فذلك أوفق في الطب، فإنها أسرع استحالة، فينبغي أن تقع في أسفل المعدة.

وفي القرآن تنبيه على تقديم الفاكهة، في قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ [الواقعة:٢٠] ثم قال: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة:٢١].

ثم أفضل ما يقدم بعد الفاكهة اللحم والثريد . . . فإن جمع إليه حلاوة بعده فقد جمع الطيبات، ودل على حصول الإكرام باللحم، قوله تعالى في ضيف إبراهيم، إذ أحضر العجل الحنيذ، أي المحنوذ، وهو الذي أجيد نضجه، وهو أحد معنى الإكرام، أعني: تقديم اللحم.

وقال تعالى في وصف الطيبات: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ [البقرة:٥٧]، المن: العسل، والسلوى: اللحم، سمي سلوى؛ لأنه يُتسلَّى به عن جميع الإدام، ولا يقوم غيره مقامه . . .

ثم قال بعد ذكر المن والسلوى: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة:٥٧]

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٨/ ٧٨).

فاللحم والحلاوة من الطيبات، قال أبو سليمان الداراني ﷺ: أكل الطيبات يورث الرضا عن الله.

وتتم هذه الطيبات بشرب الماء البارد، وصب الماء الفاتر على اليد عند الغسل، قال المأمون: شرب الماء بثلج يخلِص الشكر. . .

وقال بعضهم: الحلاوة بعد الطعام خير من كثرة الألوان، والتمكن على المائدة خير من زيادة لونين. . . »[(١)].

وقد ذكر أبو حامد آدابا أخرى لإحضار الطعام منها:

٣- أن يقدم جميع الألوان الحاضرة.

٤- ألَّا يبادر إلى رفعها، بل يمكنهم من الاستيفاء حتى يرفعوا أيديهم.

٥- الخامس: أن يقدم من الطعام قدر الكفاية، فإن التقليل من الكفاية نقص في المروءة والزيادة عليه تصنع مراءاة.

قال ابن مسعود ﷺ نهينا أن نجيب دعوة من يباهي بطعامه وكره جماعة من الصحابة أكل طعام المباهاة[(٢)].

ومن ذلك كان لا يُرفع من بين يدي صحابة رسول الله ﷺ فضلة طعام قط؛ لأنهم كانوا لا يقدِّمون إلا قدر الحاجة، ولا يأكلون تمام الشبع.

٧- وينبغي أن يعزل لأهل البيت نصيبهم قبل تقديم الطعام[(٣)].

---

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ١٢-١٦)، بتصرف.

(٢) ذكره أبو طالب المكي في قوت القلوب (٢/ ٣٠٦) بصيغة التمريض.

(٣) انظر: الإحياء (٢/ ١٧، ١٨).

آداب الانصراف وتوديع الضيف:

قال أبو حامد محمد بن محمد الغزالي:

«فأما الانصراف، فله ثلاثة آداب:

١- الأول: أن يخرج مع الضيف إلى باب الدار.

وهو سنة، وذلك من إكرام الضيف، وقد أمر بإكرامه، قال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»[(١)] . . .

وتمام الإكرام طلاقة الوجه، وطيب الحديث عند الدخول والخروج، وعلى المائدة.

قيل للأوزاعي ﷺ: ما كرامة الضيف؟ قال: طلاقة الوجه وطيب الحديث.

وقال يزيد بن أبي زياد: ما دخلت على عبد الرحمن بن أبي ليلى إلا حدَّثنا حديثًا حسنًا، وأطعمنا طعامًا حسنًا[(٢)].

٢- الثاني: أن ينصرف الضيف طيِّبَ النفس، وإن جرى في حقه تقصير، فذلك من حُسن الخلق والتواضع، قال ﷺ: «إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم»[(٣)].

حكي أن أستاذ أبي القاسم الجنيد دعاه صبي إلى دعوة أبيه أربع مرات، فردَّه الأب في المرات الأربع، وهو يرجع في كل مرة تطييبًا لقلب الصبي بالحضور، ولقلب الأب بالانصراف.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) إحياء علوم الدين (٢/ ١٨).

(٣) رواه أحمد (٢٥٠١٣)، وقال مخرِّجوه: حديث صحيح لغيره، وأبو داود في الأدب (٤٧٩٨)، وابن حبان في البر والإحسان (٤٨٠)، عن عائشة.

فهذه نفوس قد ذُلِّلت بالتواضع لله تعالى، واطمأنت بالتوحيد، وصارت تشاهد في كل رد وقبول عِبرة فيما بينها وبين ربها، فلا تنكسر بما يجري من العباد من الإذلال، كما لا تستبشر بما يجري منهم من الإكرام، بل يرون الكل من الواحد القهار.

ولذلك قال بعضهم: أنا لا أجيب الدعوة، إلا لأني أتذكر بها طعام الجنة. أي هو طعام طيب يُحمل عنا كده ومؤنته وحسابه.

٣- الثالث: ألَّا يخرج إلا برضا صاحب المنزل وإذنه، ويراعي قلبه في قدر الإقامة، وإذا نزل ضيفا فلا يزيد على ثلاثة أيام، فربما يتبرَّم به ويحتاج إلى إخراجه، قال ﷺ: «الضيافة ثلاثة أيام، فما زاد فصدقة»(١).

نعم لو ألَحَّ ربُّ البيت عليه عن خلوص قلب، فله المقام إذ ذاك.

ويستحبُّ أن يكون عنده فراش للضيف النازل، قال رسول الله ﷺ: «فراش للرجل، وفراش للمرأة، وفراش للضيف، والرابع للشيطان»(٢)»(٣).

---

(١) سبق تخريجه. متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠١٩)، ومسلم في اللقطة (٤٨)، عن أبي شريح خويلد بن عمرو العدوي.

(٢) رواه مسلم في اللباس والزينة (٢٠٨٤)، وأحمد (١٤١٢٤)، عن جابر بن عبد الله.

(٣) إحياء علوم الدين (٢/١٨).

الفصل السادس

أدب المسلم في المجالس ومع الجلساء

لا بد للناس أن يجلس بعضُهم إلى بعض، ليتشاوروا، أو يتسامروا، أو يتدارسوا ما ينفعهم في دينهم ودنياهم، فمن الناس من يجلسون للذكر والعلم، ومنهم من يجلسون للصلاة والعبادة، ومنهم من يجلسون للهو والسَّمَر، ومنهم من يجلسون للتشاور والتدبُّر.. إلى غير ذلك من الأغراض والمقاصد التي لا غنى للناس عنها.

ذلك أن الإنسان اجتماعيٌّ بفطرته، أو مدنيٌّ بطبعه، لا يستطيع أن يعيش منفردًا، وأن يقضيَ مآربه وحده، وبخاصَّة أنَّ الإسلام يدعو إلى الاجتماع والتعاون، ويكره الانفراديَّة والعزلة عن المجتمع، فلا مفرَّ إذن من جلوس الناس بعضِهم إلى بعض.

ومِن هنا جاءت الحاجة إلى جُملة من الآداب، يضعها الدين نبراسًا للمتجالسين، تُنظِّم صِلة بعضهم ببعض، وتبنيها على قواعد المحبَّة والسماحة والتواضع، وتقدير مشاعر الآخرين، وتوقير الكبير، ورحمة الصغير، إلى غير ذلك من مكارم الأخلاق.

النهي عن الجلوس في الطرقات:

أول هذه الآداب أن يختار الجالسُ موضعَ جلوسه، بحيث لا يؤذي أحدًا، ولا يعطِّل سائرًا، ولا يُشوش على جارٍ، ولا ينتهِك فيه حرمةَ إنسان، ولهذا جاء النهي من النبي ﷺ عن الجلوس في الطرقات، خشيةَ أن يتأذَّى أحدٌ من الجلوس فيها،

فلمَّا شكا الصحابةُ حاجتَهم إلى الجلوس فيها، وعدم استغنائهم عنها، رخَّص لهم أن يجلسوا فيها بقيود وشروط[1].

روى البخاري، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والجلوس على الطرقات». قالوا: يا رسول الله، لا بد لنا من مجالسنا، نتحدث فيها، فقال: «إن أبيتُم فأعطوا الطريق حقَّه» قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: «غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر»[2].

فهذه آداب خمسة طلبها الرسول الكريم من كل من يجلس في الطريق، تحفظ للناس حقوقهم، ولا تحرمهم من ممارسة حياتهم التي اعتادوها، فأما من جلس في الطريق، وترك بصره يلْتَهِم كلَّ غاديةٍ ورائحة، أو ترك لسانَه يسْخر من هذا وذاك، ويتناول أعراض خلق الله، أو أهْمَلَ ردَّ السلام على مَن يسلِّم عليه، مع أن ردَّه فرض كفاية[3]، أو رأى ما يجب التنبيه عليه من معروف يُترك، أو منكرٍ يُرتكب، فوقف موقفًا سلبيًّا، لا يأمر ولا ينهى؛ فمثل هذا قد ضيَّع حقَّ الطريق، وأولى به أن يأوي إلى منزله، حتى لا يُعرِّض نفسه للإثم.

اختيار الجليس الصالح:

وعلى المسلم أن يختار جليسه من فضلاء الناس وخيارهم، وبخاصة من يُكثر الجلوس معه، فإن الطبعَ يسرق من الطبع، وسوء الخُلُق يُعدي كما يُعدي الأجربُ السليمَ.

كما أن السُّمعة الطيِّبة للجليس الصالح تفوح على جليسه شذًا طيبًا، وعطرًا ذاكيًا، والسمعة الخبيثة للجليس الطالح كالجيفة القذرة، تنشر على جلسائه النَّتن

(١) من هذا أخذ العلماء المحققون أن ما حُرِّم لسد الذريعة يباح للحاجة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في المظالم والغصب (٢٤٦٥)، ومسلم في اللباس (٢١٢١).

(٣) يتحول إلى فرض عين إذا لم يردَّ على المسلِّم أحد، أو كان السلام عليه وحده.

وكريهَ الرائحة؛ ولهذا قال السلف: الوحدة - أي: العزلة - خير من جليس السوء.

وما أصْدَقَ وأروع تصوير الرسول ﷺ لأثر الجليس في جليسه حين قال: «مثل الجليس الصالح والجليس السوء، كمثل حامل المسك، ونافخ الكير، فحامل المسك: إمَّا أنْ يُحذيَك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة. ونافخ الكير: إمَّا أنْ يحرق ثيابَك، وإمَّا أن تجد ريحًا خبيثة»(١).

تحرِّي مجالس الخير:

وممَّا يُتمِّم الأدب السابق- وهو اختيار الجليس- تحرِّي أنفعَ المجالس، وأحراها بالخير، وأبعدها عن اللغو والباطل.

وأفضل المجالس ولا ريب: هي مجالس العلم والذكر، ففيها يتعلَّم الجاهل، ويتنبَّه الغافل، وتستيقظ الضمائرُ النائمة، وتحيا القلوبُ الميِّتة.

وقد رُوي عن لقمان الحكيم، أنه قال لابنه: يا بني، جالسِ العلماء وزاحمهم بركبتيك؛ فإن القلوب تحيا بكلامهم، كما تحيا الأرض الميتة بوابل المطر(٢).

وليس المراد بمجالس الذكر: مجالس المُكاء والتصدية، أو التصايح المبتدع بأسماء الله بعد مطِّها مطًّا يخرجها عن معناها، إنما هي المجالس التي يُتلى فيها القرآن، أو تقرأ فيها السُّنَن والسِّيرة، أو يُتعلم فيها الحلال والحرام والفقه، أو تُرقَّق فيها القلوب بالتذكير بالله، والترغيب في الجنة، والتخويف من النار.

روى أحمد بسند حسن، عن عبد الله بن عمرو قال: قلت يا رسول الله، ما غنيمة

(١) متفق عليه: رواه البخاري في البيوع (٢١٠١)، ومسلم في البر والصلة (٢٦٢٨)، كما رواه أحمد (١٩٦٦٠)، وأبو داود في الفتن والملاحم (٤٢٥٩)، عن أبي موسى الأشعري.

(٢) موطأ مالك (٢/ ١٠٠٢)، ط. محمد فؤاد عبد الباقي.

مجالس الذكر؟ قال: «غنيمةُ مجالس الذكر: الجنةُ»[1].

وروى البخاري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة يطوفون في الطُّرق، يلتمسون أهلَ الذكر، فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله تنادَوْا: هلمُّوا إلى حاجتكم. قال: فيحفُّونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا. قال: فيسألهم ربهم- وهو أعلم منهم-: ما يقول عبادي؟ قالوا: يقولون: يُسبِّحونك، ويُكبِّرونك، ويحْمَدونك، ويُمجِّدونك. قال: فيقول: هل رأوني؟ قال: فيقولون: لا والله ما رأوك. قال: فيقول: وكيف لو رأوني؟ قال: يقولون: لو رأوك كانوا أشدَّ لك عبادة، وأشدَّ لك تمجيدًا، وأكثر لك تسبيحًا.

قال: يقول: فما يسألونني؟ قال: يسألونك الجنة. قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله يا رب ما رأوها. قال: يقول: فكيف لو أنهم رأوْها؟ قال: يقولون: لو أنهم رأوها، كانوا أشدَّ عليها حرصًا، وأشد لها طلبًا، وأعظم فيها رغبةً.

قال: فمِمَّ يتعوذون؟ قال: يقولون: من النار. قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله ما رأوها. قال: يقول: فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فرارًا، وأشد لها مخافةً. قال: فيقول: فأُشهِدكم أني قد غفرتُ لهم. قال: يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان، ليس منهم إنما جاء لحاجة. قال: هم الجلساء، لا يشقى بهم جليسهم»[2].

---

(١) رواه أحمد (٦٦٥١) وقال مخرجوه: إسناده ضعيف، وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر في تخريج المسند، والطبراني (١٣/ ٢١)، وحسن إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٢٣٢٤)، والهيثمي في مجمع الزوائد (١٦٧٧٣)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٥٠٧): حسن لغيره.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الدعوات (٦٤٠٨)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٦٨٩)، كما رواه أحمد (٧٤٢٤)، عن أبي هريرة.

البُعد عن مجالس الريبة:

كما يجب على المسلم أن ينأى بنفسه عن مجالس السوء، ومواضع الرِّيبة، وإن لم يتخذ فيها جلساء وأصحابًا.

فإذا مرَّ المُسلم بمجلس يُشرب فيه الخمر، أو يُرتكب فيه المنكر، أو يُغتاب فيه الناس وتُنهش أعراضهم، أو يُستهزأ فيه بالدين وأهله، أو يُوقَّر فيه ظالم، ويُكرَّم مُلحِد أو فاسق أو مبتدع، أو ما شابه ذلك من مجالس السوء، فالواجب على المسلم ألَّا يجلس فيها، ولا يقعد مع أهلها.

ولو جلس فيها خطأً أو سهوًا، أو كانت خالية من المنكر، ثم شرعوا فيه؛ فعليه أن ينصرف فورًا، ولا يمكث، فيتطاير إليه الشرر المُحرق، والشرُّ المستطير.

وهذا أمر عُني به القرآن الكريم، وأنزل فيه آيات تُتلى، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٦٨﴾ [الأنعام:٦٨].

جاء هذا التحذير في سورة الأنعام المكيَّة، التي عُنيت بتقويم العقائد، وأصول الدين الصحيح، وفي المدينة جاءت سورةُ النساء لتوكيد هذا النهي، والتحذير منه مرة أخرى، حيث يقول تعالى في سورة النساء: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ۝١٤٠﴾ [النساء:١٤٠]. فانظر إلى قوله تعالى صراحة: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ﴾. يقرر أن المستمع شريك المبتدئ.

وجاء في سورة الفرقان، في أوصاف عباد الرحمن: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ۝٧٢﴾ [الفرقان:٧٢]. ومعنى ﴿لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾: لا يحضرونه، فهو من الشُّهود لا من الشَّهادة، وقد فُسِّر الزور بأنه أعياد المشركين،

وفسر بأنه مجالس اللهو والخنا، أو مجالس الشر، أو موائد الخمر وصالات القمار، كما في الحديث: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار فيها الخمر»[1].

وممَّا رُوِي عن الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز، أنه كان يجلد شاربي الخمر، ومن شهد مجالسهم، وإن لم يشرب معهم، فقد رووا أنه رُفع إليه قوم شربوا الخمر، فأمر بجلدهم، فقيل له: إنَّ فيهم فلانًا، وقد كان صائمًا! فقال: به ابدؤوا، أما سمعتم قول الله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء: ١٤٠][2]؟

اجلس حيث ينتهي بك المجلس:

ومن آداب المجالس: أن يجلس المرء حيث ينتهي به المجلس، ولا يتخطَّى الرقاب، أو يزاحم مَن سبقه مِن الحضور، ليجلس في الصدر، ما لم يُقدِّمه الجلوس برضا أنفسهم، لسنِّه أو لعلمه أو لدينه أو لمنزلته بين قومه، أو نحو ذلك من الاعتبارات الصحيحة.

إنَّ الرجل الذي يحضر متأخِّرًا عن غيره، ثم يأبَى إلا أن يتصدَّر المجلس، وأن يفرض نفسه على مَن سبق إلى المكان؛ تنقبضُ منه الصدور، وتنفِر منه القلوب.

والإسلام حريصٌ على تجنُّب كل ما يؤدِّي إلى نفور الناس بعضهم من بعض، ولو كان في أبسط الأمور، فإن الصغير يَجُرُّ إلى الكبيرِ، ومعظم النار من مستصغر الشرر.

---

(١) رواه أحمد (١٤٦٥١) وقال مخرجوه: حسن لغيره، والترمذي (٢٨٠١) وقال: حديث حسن غريب، والحاكم (٤/ ٢٨٨) وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، كلاهما في الأدب.

(٢) رواه الطبري في التفسير (٩/ ٣٢١).

لهذا جاء هذا التوجيه النبوي في موضعه من أدب الإسلام العام، فالمروي في السنن: أن رسول الله ﷺ كان يجلس حيث ينتهي به المجلس(١).

تقديم أهل الفضل والصلاح:

وإذا كان القادم يجلس حيث انتهى به المجلس، فإن على الجالسين عامَّة، ورئيس المجلس خاصَّة، أن يُقدِّم ذوي العلم والفضل والصلاح.

وقد كان النبي ﷺ يجلس حيث انتهى به المجلس، ولكنه حيث جلس يكون صدر ذلك المجلس، ويجلس الصحابة منه على مراتبهم، فأبو بكر يجلس عن يمينه، وعمر عن يساره، وبين يديه غالبًا عثمان وعلي؛ لأنهما كانا من كُتَّاب الوحي، ومن الصحابة المقرَّبين.

وقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه كان يقول في صلاة الجماعة: «لِيَلِنِي منكم أولو الأحلام والنُّهى، ثم الذين يَلُونَهم، ثم الذين يلونهم»(٢).

والصلاة هي صورة للحياة الإسلامية، فما يجري فيها يجري في غيرها؛ ولهذا قال ابن كثير رحمه الله: وإذا كان هذا أمره لهم في الصلاة أن يليه العقلاء منهم والعلماء، فبطريق أولى أن يكون ذلك في غير الصلاة(٣).

التواضع للفقراء والضعفاء:

وينبغي للجالس مهما كان مركزه الاجتماعي: أن يتواضع لإخوانه، ولا ينظر إلى نفسه نظرة التفرُّد والاستكبار، وإلى غيره من الناس نظرة الازدراء والاحتقار،

(١) رواه أبو داود الطيالسي (٨١٧)، والبيهقي في الجمعة (٣/ ٢٣١)، وصحح إسناده النووي في خلاصة الأحكام (٢٧٥٧)، عن جابر بن سمرة بلفظ: كنا إذا أتينا رسول الله ﷺ جلسنا حيث نتهي.

(٢) رواه مسلم في الصلاة (٤٣٢)، وأحمد (٤٣٧٢)، وأبو داود في الصلاة (٦٧٤)، عن أبي مسعود البدري.

(٣) تفسير ابن كثير (٨/ ٤٧)، دار: طيبة، ط. الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، تحقيق: سامي محمد سلامة.

وبخاصة الفقراء والضعفاء، الذين لا يرتدون الملابس الفاخرة، ولا تحوطُهم المظاهرُ البرَّاقة، فإن الناس لا يُقاسون بصورهم ومظاهرهم، بل بقلوبهم وأعمالهم، وأكرم الناس عند الله أتقاهم، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات:١٣]. وفي الحديث الصحيح: «رُبَّ أشعث أغبر، مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبرَّه»(١).

وقد قيل: إن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ [المجادلة:١١]. نزلتْ في بعض أهل الغِنى، كانوا يكرهون أن يزاحمهم من يلبس الثياب الخشنة، فلا يُوسِعون لهم إذا أقبلوا(٢).

وقد ورد أنَّ النبي ﷺ رأى رجلًا من الأغنياء، يقبض ثوبه نفورًا من بعض الفقراء، أراد أن يجلس إليه، فقال: «أخشيت يا فلان أن يعدو غناك عليه، وأن يعدو فقره عليك؟!»(٣). وهو تنبيه لاذع، يكفي أن يسمعه المسلم فيرتدع عن مسلك المستكبرين.

ولقد عرض بعض سادة المشركين أن يدخلوا في الإسلام، على أن يجعل لهم النبي مجلسًا خاصًّا، غير مجلس الفقراء، وربما خطر ببال النبي ﷺ أن يستجيب لاقتراحهم، لمصلحة الدعوة، فأنزل الله وحيه بقوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ۝٢٨﴾ [الكهف:٢٨]. فانظر كيف دافع

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٦٢٢)، عن أبي هريرة.

(٢) تفسير القرطبي (١٧/ ٢٩٩).

(٣) رواه الإمام أحمد في الزهد (٢٠٧).

الوحي الإلهي عن المستضعفين من الناس، ولم يبالِ بالكبراء الذين يملكون زينة الحياة الدنيا، وتتطلع إليهم الأعين، وتشرئب إليهم الأعناق.

ويومَ أعْرَضَ عليه الصلاة والسلام في مجلسه عن عبد الله بن أم مكتوم الأعمى، حيث كان مشغولاً ببعض كبار قريش، طامعًا في إسلامهم، بينما وكَلَ ابنَ أم مكتوم إلى إيمانه، نزل وحيُ الله يُعاتبه على ذلك عتابًا مُرًّا، ويترك لنا هذا النموذج القرآني الفريد في غضبة الحق لفقير أعمى، لم يتعمَّد النبي ﷺ أن يُسيء إليه، أو يَمَسَّ مشاعره بأذًى، ورغم القصد الشريف، والنيَّة الطيبة من الرسول ﷺ، نزلت الآيات الخالدة تلوم وتعاتب بأسلوبها المعجز الفذِّ؛ ليكون فيها درس وعبرة، لكلِّ من يؤذي إحساس فقير أو ضعيف، ولو بغير تعمُّد، بل ولو بقصد شريف: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢﴾ [عبس:١-١٢].

لا تقوموا كما يقوم الأعاجم:

ومن أدب المجالس: ألا يقوم الجلوس لكلِّ قادم، ففي ذلك كثير مشقَّة على الحاضرين، وفي بعض المجالس الكبيرة يدخل كثير من الناس فُرادى، لحظةً بعد أخرى، فتراهم بين قِيامٍ وقعود، لا يفترون.

وقد جاء في السنن: أنه لم يكن شخصٌ أحبَّ إليهم من رسول الله ﷺ، وكان إذا جاء لا يقومون له، لما يعلمونه من كراهيته لذلك[1].

---

(١) رواه أحمد (١٢٣٤٥) وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، والترمذي في الأدب (٢٧٥٤) وقال: حسن صحيح، والبخاري في الأدب المفرد (٩٤٦)، وصححه الألباني في صحيحة (٣٥٨)، عن أنس.

ولكن إذا كان القادم عائدًا من سفر أو غَيْبة، أو كان ضيفًا غريبًا، فهذا لا بأس بالقيام له تحيةً للعائد، وإكرامًا للضيف، ومثل ذلك الحاكم أو القاضي إذا حضر مجلس حكمه أو قضائه، كما تدل عليه قصة سعد بن معاذ، فإنه لما استقدمه النبي ﷺ حاكمًا في بني قريظة، فرآه مقبلًا، قال للمسلمين: «قوموا لسيدكم»[(١)]. وما ذاك إلا ليكون أنفذ لحكمه، كما قال ابن كثير رحمه الله[(٢)].

ومن الناس من رخَّص في القيام لكل قادم، آخذًا من قوله ﷺ: «قوموا لسيدكم». والأولَى أن يُحمل على ما ذكرناه، لتتفق الأحاديث ولا تتعارض، فأمَّا اتخاذ القيام دَيْدَنًا فهو من شعار الأعاجم.

وإذا كان في الناس من رخَّص في القيام للقادم، فإن الذي لا يُرخِّص فيه أحد، أن يعلق المسلم همَّه بقيام الناس له في المجالس والطرقات، فقد قال رسول الله ﷺ: «من سرَّه أن يَمثُل له الرجال قيامًا، فليتبوأ مقعده من النار»[(٣)].

من جلس في موضع فهو أحق به:

ومن الأحكام والضوابط التي وضعها النبي ﷺ للمجالس: أن من جلس في موضع فهو أحق به، تبعًا للقاعدة العامة: من سبق إلى مباح لم يتعلَّق به حق غيره، فهو أحق به، ولا يجوز انتزاعه منه.

فإذا قام الجالس من مكانه لحاجة عارضة ثم عاد، فهو أحقُّ بمكانه، وفي ذلك

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٠٤٣)، ومسلم (١٧٦٨)، كلاهما في الجهاد والسير، كما رواه أحمد (١١١٦٨)، وأبو داود في الأدب (٥٢١٥)، عن أبي سعيد الخدري.

(٢) في تفسيره (٦/ ٣٩٨).

(٣) رواه أحمد (١٦٩١٨) وقال مخرجوه: إسناده صحيح، وأبو داود (٥٢٢٩)، والترمذي (٢٧٥٥) وقال: حديث حسن، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٥٧)، عن معاوية بن أبي سفيان.

روى مسلم عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال: «إذا قام أحدُكم مِن مجلسه ثم رجع إليه، فهو أحق به»[1].

قال القرطبي: «قال علماؤنا: هذا يدل على صحَّة القول بوجوب اختصاص الجالس بموضعه إلى أن يقوم منه؛ لأنه إذا كان أولى به بعد قيامه، فقبله أولى به وأحرى، وقد قيل: إن ذلك على الندب؛ لأنه موضع غير متملك لأحد، لا قبل الجلوس ولا بعده. قال: وهذا فيه نظر، وهو أن يقال: سلمنا أنه غير متملك، لكنه يختص به إلى أن يفرغ منه، فصار كأنه يملك منفعته؛ إذ قد منع غيره من أن يزاحمه عليه، والله أعلم»[2].

افسحوا يفسح الله لكم:

ومع أحقِّيَّة الجالس بموضعه، فإن من واجب الجالسين أن يفسحوا للقادم، ولا تضيق به صدورُهم مهما ضاق المكان، فإن المكان لا يضيق إلا إذا ضاقت الأنفس، وضاقت القلوب والصدور بالأنانية وحُبِّ الذات، أو العداوة والبغضاء؛ ولهذا يقول المصلحون العامة في مصر: جحر ديب، يسع مائة حبيب. وسمعت العامة في الشام يقولون: بيت ضيق، يسع ألف صديق.

قال الشاعر من قديم:

سمُّ الخياط مع الأحبابِ ميدانُ![3]

---

(١) رواه مسلم في السلام (٢١٧٩)، وأحمد (٧٨١٠)، عن أبي هريرة.

(٢) تفسير القرطبي (١٧/ ٢٩٨).

(٣) من شعر ينسب إلى إبراهيم الغزي.

وقال آخر:

لعَمْرُكَ ما ضاقتْ بلادٌ بأهلِها ولكنَّ أخلاقَ الرجالِ تَضِيقُ [(١)]

وهذا إشارة إلى أن سَعَة النفس يتَّسع بها المكانُ الضيِّق.

ولقد جاء القرآن الكريم يُوصي بهذا الأدب، ويُعلِّله بما يشرح الصدور، ويفتح القلوب، وهنا يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المجادلة:١١].

وهو وعد من الله لمن فسح لأخيه أن يَفسح الله له في صدره، وفي عيشه، وفي قبره، وفي دنياه، وفي آخرته، والجزاء من جنس العمل، فمن وسَّعَ، وسَّعَ اللهُ عليه، ومن يسَّر، يسر الله له، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه.

لا يُقِمِ الرجلُ الرجلَ من مجلسه ليجلس فيه:

وإذا كان التفسُّح في المجالس مطلوبًا ومحمودًا، فليس مطلوبًا من الرجل أن يقوم مِن مجلسه ليُجلس فيه غيره، فإن السابق إلى المكان أحقُّ به كما ذكرنا. وفي الحديث: «لا يقوم الرجلُ للرجلِ مِن مجلسه، ولكن أفسحوا يفسحِ الله لكم» [(٢)].

فإذا قام الجالس من مكانه برضاه واختياره لغيره، احترامًا وتوقيرًا لسِنِّه أو علمه أو فضله أو دينه، فهو صاحب الحق، وقد تنازل عنه، وإن كان عبد الله بن عمر ﷺ يكره أن يقوم الرجل من مجلسه ثم يجلس مكانه [(٣)]. وهذا من شِدَّة ورعه ﷺ؛ لأنه قد روى عن النبي ﷺ، أنه قال: «لا يُقِمِ الرجلُ الرجلَ من

---

(١) من شعر عَمْرو بن الأهتم.

(٢) رواه أحمد (٨٤٦٢) وقال مخرجوه: صحيح لغيره، وابن أبي شيبة في مصنفه في الأدب (٢٥٥٧٩)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه البخاري في الاستئذان (٦٢٧٠).

مجلسه، فيجلس فيه، ولكن تفسَّحوا أو توسَّعوا»[1].

غير أن لفظ هذا الحديث هو النهي أن يُقيم الرجلُ أخاه من مجلسه، كما قد يفعل بعض الرجال المتغطرسين والمتسلطين مع ضعفاء الناس. فأمَّا أن يقوم المرءُ لصاحبه بإرادته، فأمر آخر غير ما في الحديث.

كما أن مِن حقِّ رئيس المجلس إذا كثُر القادمون، وضاق بهم المكان، وخصوصًا في مثل عصرنا الذي يجلس فيه أكثر الناس على مقاعد مفردة، لا تتَّسع إلا لجالس واحد: من حقه أن يشير بأدب ورفق إلى بعض الحاضرين: كأقاربه وجيرانه وتلاميذه وصغار السن ونحو ذلك، أن يتركوا أماكنهم ليتَّسع المكان لغيرهم، ولا سيما من أطال منهم الجلوس من قبل، ولعل هذا يدخل ضمن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾ [المجادلة:١١]. فهو نشوز جزئي ينبغي أن يُطاع، ولا غضاضة فيه، ولا يدخل هذا في النهي الوارد في حديث: «لا يُقم الرجلُ الرجلَ»؛ لأن النهيَ منْصبٌّ على من يُقيمه ليجلس في مكانه، أما هنا فهو يقيمه ليُجلِس فيه قادمًا أحق به.

لا يفرق بين اثنين إلا بإذنهما:

ومن أدب المجالس الذي نبَّه عليه النبي ﷺ: ألَّا يُفرِّقَ الداخلُ بين اثنين، إلا أن يستأذنهما فيأذنا له، فإن مِن الناس مَن يحب أن يجلس إلى جوار فلان، ولا يحب أن يجاور فلانًا آخر. فإذا اختار رجلان أن يتجاورا في مجلس بدافع من صداقةٍ أو قرابة أو زمالةٍ أو ابتغاء مصلحة أو نحو ذلك، فهما وما اختارا، فلا ينبغي لمن دخل عليهما أن يفصل بينهما إلا بإذن أو ضرورة.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الاستئذان (٦٢٦٩)، ومسلم في السلام (٢١٧٧)، كما رواه أحمد (٤٦٥٩).

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو ﭬ، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحِلُّ لرجل أن يُفرِّق بين اثنين إلا بإذنهما»[1].

ويستحب لمن جلس بين اثنين إذا فسحَا له وأكرماه بذلك: أن يجمع نفسَه ولا يتربَّع. قال ابن الأعرابي: قال بعض الحكماء: اثنان ظالمان: رجلٌ أُهديتْ له نصيحةٌ، فاتخذها ذنبًا! ورجلٌ وسّع له في مكان ضيِّق فقَعَدَ متربِّعًا[2].

وإذا جلستَ إليهما فلا تُلقِ بسمعك إلى حديثهما، إلا إذا كان غيرَ سرٍّ ولا خاصٍّ بهما، فإن تطلُّعك إلى ذلك عيبٌ في أخلاقك، وسيِّئة ترتكبها، قال سيدنا رسول الله ﷺ: «مَن استمع إلى حديث قومٍ وهم له كارهون، صُبَّ في أذنيه الآنُك يوم القيامة»[3]. أي: الرصاص المُذاب.

لا يتناجى اثنان دون الثالث:

ومن جميل الأدب في المجالس: ألا يتناجى اثنان، ويتسارَّا الحديثَ بينهما، ومعهما ثالث، لا يباليان به، فإن ذلك يُوحِش صدره، ويجْرح شعوره، ويُحزن نفسه، وهو مدخل من مداخل الشيطان ليزعزع الثقة، ويُوقع في الشك، ويُشيع الوساوس والهواجس بين الناس.

من أجل ذلك نفى رسول الله ﷺ هذا الخلق عن المسلمين نفيًا، فقد روى أحمد والشيخان، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى

(١) رواه أحمد (٦٩٩٩) وقال مخرجوه: إسناده حسن، وأبو داود في الأدب (٤٨٤٥)، والترمذي في الأدب (٢٧٥٢) وقال: حديث حسن، والبخاري في الأدب (١١٤٢)، وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٨٧٥)، عن عبد الله بن عمرو.

(٢) من كتاب أدب الإملاء والاستملاء، للسمعاني ص ١٣٢.

(٣) رواه البخاري في التعبير (٧٠٤٢)، ورواه أحمد (١٨٦٦)، عن ابن عباس.

اثنان دون صاحبهما، فإن ذلك يحزنه»[1].

وفي رواية أحمد: «فلا يتناجى اثنان دون الثالث إلا بإذنه»[2].

ولم يقُلْ ﷺ: «لا يتناجَ» بصيغة النهي[3]، وإنما قال: «لا يتناجى» بصيغة النفي والخبر، إيذانًا منه بأنَّ هذا الخطأ غيرُ متصور، أو غير لائق أن يقع من المسلم حتى يُنهَى عنه، لأنه خطأ يُدرَك بالفطرة، كما قال صديقنا العلامة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة[4] رحمه الله.

والمسلم مأمور أن يُدخِل السرورَ على قلب أخيه، لا أن يسوق إليه ما يُحزنه، فقد يظن في نفسه أنهما يتحدَّثان عنه بما يكره، أو لم يرياه أهلًا لأن يُشركاه في الحديث... إلى غير ذلك من أحاديث النفس، وأُلقِيات الشيطان، وإنما حصل ذلك من كونه وحده، فإذا كان معه غيره أمِن ذلك.

وعلى هذا يستوي في ذلك كلُّ الأعداد، فلا يتناجَ أربعة دون واحد، ولا عشرة دون واحد؛ لأن سبب النهي قائم، بل وجوده في العدد الكثير أمكن وأوقع – كما قال القرطبي[5] – فيكون بالمنع أولى. وإنما خُصَّ الثلاثة بالذكر؛ لأنه أولُ عددٍ يتأتّى ذلك المعنى فيه، والانفراد فيه أقرب.

تشميتُ العاطس:

ومن المجاملات الرقيقة المتصلة بأدب الزيارة والمجالس التي جاء بها الإسلام: تشميت من عطس في المجلس، حتى جعله حقًا للمسلم على المسلم، لا

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الاستئذان (٦٢٩٠)، ومسلم في السلام (٢١٨٤).

(٢) رواه أحمد (٦٣٣٨).

(٣) نعني هذه الرواية، وإلا فهناك روايات جاءت بالجزم (فلا يتناج).

(٤) من أدب الإسلام ص ١٩.

(٥) في التفسير (١٧/ ٢٩٥).

ينبغي التفريط فيه، وفي الصحيح: «حقُّ المسلم على المسلم ستٌّ»، وذكر منها: «إذا عطس فشمِّتْه»[1].

والتشميت هو الدعاء للعاطس بالرحمة، بأن يقول له: يرحمك الله. وذلك بشرط أن يبدأ العاطس بحمد الله، ففي الحديث الصحيح: «إذا عطس أحدكم فحمد الله فشمتوه، فإن لم يحمد الله فلا تشمتوه»[2].

وفي الحديث: «إنَّ الله يحب العُطاس، ويكره التثاؤب، فإذا عطس أحدُكم وحَمِدَ اللهَ، كان حقًّا على كل مسلم سمعه أن يقول: يرحمك الله. وأما التثاؤب فهو من الشيطان، فإذا تثاءب أحدكم، فليرده ما استطاع، فإن أحدكم إذا تثاءب ضحك منه الشيطان»[3].

وإنما نُسب التثاؤب إلى الشيطان؛ لأنه من مظاهر الكسل والوخَم، ومن أسبابه: الإسراف في الشبع، كما أن مظهر المتثائب ليس ممَّا يُستحبُّ، والتثاؤب في العادة يُعدي، فإذا بدا رجل يتثاءب في مجلس، وخصوصًا إذا تكرر منه. فسرعان ما ترى جيرانه عن يمين وشمال يتثاءبون، كما قال الشاعر:

تثاءب عمرٌو إذْ تثاءبَ خالد ... بعدوى فما أعدتني الثؤباء[4]

ولهذا كان الأولى أن يردَّه ما استطاع، بخلاف العُطاس، فإن فيه راحة.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجنائز (١٢٤٠)، ومسلم في السلام (٢١٦٢)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٩٢)، وأحمد (١٩٦٩٦)، عن أبي موسى.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٢٢٣)، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٩٤)، كما رواه أبو داود (٥٠٢٨)، والترمذي (٢٧٤٧)، كلاهما في الأدب.

(٤) من شعر أبي العلاء المعري.

آداب العاطس ومَن سمعه:

فأول ما يُشرع للعاطس: أن يحمدَ الله تعالى، فيقول: «الحمد لله»، أو «الحمد لله على كل حال»، أو «الحمد لله رب العالمين»، كما جاءت بذلك الأحاديث، وهو ما اتُّفِق على استحبابه، كما قال النووي[(١)].

ويجب على العاطس بعد تشميته أن يردَّ قائلًا: «يَهديكم الله ويصلحُ بالكم»[(٢)].

روى البخاري، عن أبي هريرة مرفوعًا: «إذا عطس أحدكم فليقل: الحمد لله. وليقل له أخوه أو صاحبه: يرحمك الله. فإذا قال: له يرحمك الله، فليقل: يهَديكم الله ويُصلِحُ بالكم»[(٣)]. وبهذه الكلمات الطيبة المتبادلة، يشيع جو من المودَّة والحب، كما يشيع جو من الربَّانية بحمد الله وذكره ودعائه.

استحباب خفض العاطس صوته ما استطاع:

ومن آداب العاطس: أن يخفِضَ بالعطاس صوتَه، لئلَّا يُزعج أعضاءه، ولا يزعج جلساءه، وأن يرفعه بالحمد، ليسمع مَن حوله، وأن يغطِّي وجهه؛ لئلَّا يبدو من فيه أو أنفه ما يؤذي جلساءه، فعن أبي هريرة ﷺ قال: كان النبي ﷺ إذا عطس، وضع يده على فيه، وخفض صوته[(٤)].

وفي عصرنا تيسَّر لكل الناس وجود المناديل الورقية الناعمة، التي يستطيع كل إنسان أن يستخدمها في حالة العطاس بدل استعمال يده، التي قد يلوِّثها العطاس.

---

(١) رياض الصالحين ص ٢٨٠ ط الرسالة.

(٢) رواه البخاري في الأدب (٦٢٢٤)، وأحمد (٨٦٣١)، وأبو داود في الأدب (٥٠٣٣)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه البخاري في الأدب (٦٢٢٤)، وأحمد (٨٦٣١)، وأبو داود في الأدب (٥٠٣٣)، عن أبي هريرة.

(٤) رواه أحمد (٩٦٦٢) وقال مخرجوه: إسناده قوي، وأبو داود (٥٠٢٩)، والترمذي (٢٧٤٥) وقال: حسن صحيح، والحاكم (٤/ ٢٩٣)، وصحح إسناده ووافقه الذهبي، ثلاثتهم في الأدب.

حكم تشميت العاطس:

ثم يجب على مَن سمِعَ العاطس يحمدُ اللهَ تعالى: أن يشمِّته، أي: يدعو له بقوله: «يرحمك الله». كما في حديث عائشة عند أحمد وأبي يعلى: «إذا عطس أحدكم فليقل: «الحمد لله»، وليقل مَن عنده: «يرحمك الله»»[1].

وهذا من حقِّ المسلم على المسلم، والظاهر أنه واجب عليه، كما أكَّدتْ ذلك عِدة أحاديث، بعضُها جاء بلفظ الوجوب الصريح: «خمس تجب للمسلم على المسلم»[2]. وبعضُها بلفظ «الحق» الدال عليه: «حق المسلم على المسلم ستٌّ»[3]. وبلفظ «على» الظاهر فيه، وبصيغة الأمر التي هي حقيقةٌ فيه عند الجمهور، وبقول الصحابي: «أمرنا رسول الله ﷺ». ولا ريب أن الفقهاء- كما قال ابن القيم- أثبتوا وجوبَ أشياءَ كثيرةٍ بدون مجموع هذه الأشياء

وقد قال جمهور أهل الظاهر وجماعة من العلماء بوجوب تشميت العاطس.

وذهبت جماعة إلى أن التشميت: فرض كفاية، إذا قام به البعض سقط عن الباقين، ورجَّحه ابنُ رشد، وابن العربي من المالكية، وقال به الحنفية وجمهور الحنابلة.

وذهب جماعة من المالكية إلى أنه مُستحبٌّ، ويجزئ الواحد عن الجماعة، وهو قول الشافعية.

---

(١) رواه أحمد (٢٤٤٩٦) وقال مخرجوه: حديث حسن بشواهده، وأبو يعلى (٤٩٤٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٩٠٣): فيه أبو معشر نجيح، وهو لين الحديث، وبقية رجاله ثقات.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الجنائز (١٢٤٠)، ومسلم في السلام (٢١٦٢) (٤)، كما رواه أحمد (٨٣٩٧)، وأبو داود في الأدب (٥٠٣٠)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه مسلم في السلام (٢١٦٢)، وأحمد (٨٨٤٥)، عن أبي هريرة.

والراجح من حيث الدليل القول الثاني، كما قال ابن حجر، وأمَّا الأحاديث الصحيحة الدالة على الوجوب، فلا تنافي كونه على الكفاية؛ فإن الأمر بتشميت العاطس، وإن ورد في عموم المكلفين، ففرضُ الكفاية يُخاطب به الجميع على الأصحِّ، ويسقطُ بفعل البعض[1].

من يُستثنى من عموم الأمر بالتشميت:

ويستثنى من عموم تشميت العاطس عدة أصناف، وهي:

- مَن لمْ يحمدِ الله بعد العطاس، فشرط التشميت الحمدُ، وقد روى البخاري عن أنس قال: عطس رجلان عند النبي ﷺ، فشمَّت أحدهما، ولم يشمِّت الآخر، فقيل له، فقال: «هذا حمد الله، وهذا لم يحمد الله»[2]. وهذا حكم مُجْمع عليه.

- المزكوم إذا تكرر منه العطاس فزاد على ثلاث مرات، وذلك أن المزكوم قد يتكرر منه العطاس مرات كثيرة، فيشُقُّ على جليسه أن يشمته في كل مرة.

وإذا لم يدع له بالدعاء المشروع للعاطس، فلا بأس أن يدعو له بدعاء يلائمه، كأن يدعو له بالعافية والشفاء، وما هو من هذا القبيل.

- الكافر، فعن أبي موسى الأشعري قال: كانت اليهود يتعاطسون عند النبي ﷺ رجاء أن يقول: يرحمكم الله. فكان يقول: «يهديكم الله ويصلح بالكم»[3]. وهذا يعني أن لهم تشميتًا مخصوصًا، وليسوا مستثنين من مطلق التشميت.

---

(١) انظر: فتح الباري (١٠/ ٢٢٢-٢٣٧)، ط. الحلبي.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٢٢١)، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٩١)، كما رواه أحمد (١٢١٦٧)، عن أنس بن مالك.

(٣) رواه أحمد (١٩٥٨٦) وقال مخرجوه: إسناده صحيح، وأبو داود (٥٠٣٨)، والترمذي (٢٧٣٩) وقال: حسن صحيح، كلاهما في الأدب، عن أبي موسى الأشعري.

- من عطس والإمام يخطب يوم الجمعة: لِمَا ورد مِن منْع الكلام والإمام يخطب، وإمكان تدارك التشميت بعد فراغ الخطيب.

وجوب رد العاطس على من شمته:

ويجب على العاطس أن يردَّ على من شمَّته فدعا له بالرحمة، أن يدعو له بالهداية وصلاح البال، كما جاء في حديث أبي هريرة، عند البخاري وغيره: «إذا عطس أحدكم، فليقل: الحمد لله. وليقل له أخوه أو صاحبه: يرحمك الله. فإذا قال له: يرحمك الله، فليقل: يهديكم الله ويصلح بالكم»(١). أو يدعو له ولنفسه بالمغفرة، كما في حديث ابن مسعود: «يغفر الله لنا ولكم»(٢).

وأجاز بعض العلماء الجمع بين الصيغتين، وقد أخرج مالك في الموطَّأ عن نافع عن ابن عمر أنه كان إذا عطس، فقيل له: يرحمك الله، قال: يرحمنا الله وإياكم، ويغفر الله لنا ولكم(٣).

وجه الحكمة في حمد العاطس وتشميته:

لا يشرع الإسلام شيئًا إلا لحكمة، قد تظهر لبعض الناس، وقد تخفى على آخرين، وقد تخفى على الجميع؛ امتحانًا من الله لعباده.

ولا حرَج على المسلم أن يلتمس حكمةَ ما شرَعه الله تعالى عند أهل الذكر

---

(١) رواه البخاري في الأدب (٦٢٢٤)، وأحمد (٨٦٣١)، وأبو داود في الأدب (٥٠٣٣).

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (٩٣٤)، والحاكم في الأدب (٤/ ٢٦٦) وقال: هذا المحفوظ من كلام عبد الله إذا لم يسنده من يعتمد روايته، والبيهقي في شعب الإيمان (٨٩٠٣) وقال عقبه: هذا موقوف، وهو الصحيح، وروي مرفوعًا.

(٣) رواه مالك (٢/ ٩٦٥)، ط. عبدالباقي. وقال الأرنؤوط في تخريج الأذكار ص٢٧١: إسناده صحيح.

وأولي العلم، إذا لم يعلمها هو، ولنا أن نستجليَ وجْه الحكمة والمصلحة في ذلك، وهي في الواقع تتجلى في ثلاثة أمور:

أولًا: ربط المسلم بربه في كل أمور حياته:

إن اتِّجاه الإسلام في آدابه عامَّةً ربطُ المسلم بالله في كل أحيانه، وعلى كافَّة أحواله، وهو ينتهز لذلك الفُرص الطبيعيَّة، والمناسبات العاديَّة، التي من شأنها أن تحدث وتتكرَّر كل يوم مرة أو مرات، ليذكُر المسلمَ بربه، ويصِلَه بحبله، فيذْكُره تعالى مسبِّحًا أو مهلِّلًا أو مكبِّرًا أو حامدًا أو داعيًا.

وقال ابن أبي جمرة في شرح حديث العطاس: «وفيه إشارة إلى عظيم فضل الله على عبده، فإنه أذهب عنه الضرر بنعمة العطاس، ثم شرع له الحمد الذي يُثاب عليه، ثم الدعاء بالخير بعد الدعاء بالخير، وشرع هذه النعم المتواليات في زمن يسير، فضلا منه وإحسانًا»[(١)].

ثانيًا: ربط المسلم بإخوانه في المجتمع:

كما تحرص الآدابُ الإسلاميَّة على ربط المسلم بربِّه الذي خلقه فسوَّاه، تحرص من جهة أخرى على ربط المسلم بإخوانه المسلمين، فلا عجب أن جاء أدب العُطاس في هذا الخطِّ، ليُقرَّ لونًا من ألوان المجاملة الاجتماعيَّة الطيِّبة، التي تُنافي الجفْوة والتقاطع والهجران، وتثبت معاني التواصل والمودَّة والرحمة.

قال ابن دقيق العيد: «ومِن فوائد التشميت: تحصيل المودَّة، والتأليف بين المسلمين، وتأديب العاطس بكسر النَّفْس عن الكبر، والحمْل على التواضع، لما في ذكر الرحمة من الإشعار بالذنب الذي لا يَعْرَى عنه أكثر المكلَّفين»[(٢)].

(١) فتح الباري (١٠/ ٦٠٩، ٦١٠).

(٢) المصدر السابق (١٠/ ٦٠٢).

وكلها معانٍ إنسانيَّة جميلة.

ثالثا: إبطال اعتقادات الجاهلية:

إن الإسلام قد جاء في هذا الأدب بما أبطل اعتقادات الجاهلية، التي لم تقُم على أساس مِن عقل أو نقل، وما نشأ عن هذه الاعتقادات من عادات مستقبحة في الفطرة، ضارة بالحياة، فقد ذكر العلامة ابن القيم: أن أهل الجاهلية كانوا يتطيَّرون به، ويتشاءمون منه، كما يتشاءمون بالبوارح والسوانح، قال رؤبة بن العجاج يصف فَلَاةً:

قطعتُها ولا أهابُ العطاسا!

وقال امرؤ القيس:

وقد أغتدِي قبل العُطاس بهيكل ... شديد مشكِّ الجنب فَعِمَ المُنَطَّق

أراد أنه كان ينتبه للصيد قبل أن ينتبه الناسُ مِن نومهم، لئلَّا يسمع عاطسًا، فيتشاءم بعُطاسه.

وكانوا إذا عَطَس مَن يحبونه، قالوا له: عُمْرًا وشبابًا. وإذا عطس مَن يبغضونه، قالوا له: وَرْيًا وقُحابًا، والورْي- كالرمْي[1] - داءٌ يُصيب الكبد فيفسدها. والقُحاب: كالسُّعال وزنًا ومعنى. وكان الرجل إذا سمع عطاسًا يتشاءم به، يقول: بك لا بي! أي: إني أسأل الله أن يجعل شؤمَ عطاسِك بك لا بي، وكان تشاؤمهم بالعطسة الشديدة أشدَّ.

فلما جاء الله سبحانه بالإسلام، وأبطل برسوله ﷺ ما كان عليه الجاهلية من الضلالة، نهى أمَّته عن التشاؤم والتطيُّر، وشرَعَ لهم أن يجعلوا مكان الدعاء على العاطس بالمكروه الدعاء له بالرحمة.

(١) أي: في الوزن والضبط، يعني بفتح الحرف الأول وسكون الحرف الأوسط.

ولما كان الدعاء على العاطس نوعًا مِن الظُّلم والبغْي، جعل الدعاء له بلفظ «الرحمة» المنافي للظلم، وأمَرَ العاطس أن يدعو لمشمِّته بالمغفرة والهداية وإصلاح البال. فيقول: يغفر الله لنا ولكم، أو يهديكم الله ويصلح بالكم، فأمَّا الدعاء بالهداية: فلمّا أن اهتدى إلى طاعة الرسول، ورغِبَ عمَّا كان عليه أهل الجاهلية، فدعا له أن يثبِّته الله عليها، ويهديه إليها، وكذلك الدعاء بإصلاح البال، وهي حكمة جامعة لصلاح شأنه كله، وهي مِن باب الجزاء على دعائه لأخيه بالرحمة، فناسب أن يجازيَه بالدعاء له بإصلاح البال، وأما الدعاء بالمغفرة: فجاء بلفظ يشمل العاطس والمشمِّت: «يغفر الله لنا ولكم»، ليستحصل مِن مجموع دعوتَي العاطس والمشمِّت له: المغفرة والرحمة لهما معا»[1].

ومن اللطيف هنا: أن هذا الدعاء الجميل، مقتبس من القرآن الكريم، مما جزى الله به الشهداء، الذين قُتلوا في سبيل الله، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝﴾ [محمد: ٤-٥]. فأخذ الرسول الكريم هذه العبارة من هذه الآية، وما أعظم أن ينال المشمّت دعاءَ أن يَمُنَّ الله عليه ببعض ما يجزي به الشهداء[2]!

- **الحديث بما يناسب المقام:**

ومن أدب المجلس: «إذا تحدَّثتَ عند مَن تزوره، فلا تتحدَّث إلا بما يناسب المقام مع الإيجاز، وإذا كنتَ صغيرَ القوم في المجلس، فلا تتكلَّم إلا إجابةً عن سؤال يُوجَّه إليك من أحد الجالسين، إلا إذا علمتَ أن حديثك وكلامكَ سيقع منهم في موقعه، ويسرُّهم ويرضيهم، ولا تُسهبْ في الحديث، ولا تغفُلْ عن أدب

(١) انظر: مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٧٦-٢٧٧).

(٢) ينظر: فتاوى معاصرة (١/ ٥٦٧، ٥٦٨).

المقام في هيئة جلوسِكَ وأسلوب كلامك وخطابك»[1].

- لا يؤذي الجلوس بما يكرهون:

ومن أدب المجالس: ألا يؤذي المرءُ الجالسين بشيء يكرهونه مِن منظرٍ تنأى عنه الأبصار، أو كلامٍ تستهجنه الأسماع، أو رائحة تنبو عنها الأنوف، أو تصرُّف تشمئز منه النفوس.

ومن هنا لا ينبغي أن يذهب المرء إلى المجالس بثياب مهنته القذرة باسم التواضع، فقد أمر النبي ﷺ المسلم أن يتخذ لصلاة الجمعة وما شابهها ثوبًا غير ثوب مهنته[2]، وجاء في كتاب الله هذا الأدب الإلهي الإنساني العام: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف:٣١]. ويقاس على المساجد كل المجالس العامة التي يتجالس فيها الناس.

كما لا ينبغي أن يأكل الثومَ أو البصل، أو الفجلَ أو الكُرَّاث، وما شابه ذلك من ذوات الروائح الكريهة، ثم يمضي ليجلس في صُرَّة المجلس ولا يبالي، فقد أمر النبي ﷺ من أكل شيئًا من ذلك أن يعتزل المسجد، وحرمه من شهود الجماعة، حتى لا يؤذي جيرانه من المصلين[3]، إلا أن يزيل هذه الرائحة بغسل الأسنان ونحو ذلك.

ومن ذلك التجشُّؤ، فقد روى أبو جُحَيْفة قال: أكلتُ ثريدًا، وأتيتُ النَّبيَّ ﷺ،

(١) من أدب الإسلام ص١٧، ١٨.

(٢) إشارة إلى حديث: "ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة، سوى ثوب مهنته". رواه أبو داود في الصلاة (١٠٧٨)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٩٥)، وعبد بن حميد (٤٩٩)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٩٥٣)، عن عبد الله بن سلام.

(٣) إشارة إلى الحديث المتفق عليه: "من أكل من هذه الشجرة - يعني الثُّوم - فلا يقربن مسجدنا". رواه البخاري في الأذان (٨٥٣)، ومسلم في المساجد (٥٦١)، عن ابن عمر.

فتجشَّأْتُ عنده، فقال: «يا أبا جحيفة، إنَّ أطول الناس جوعًا يوم القيامة أكثَرهم شِبَعًا في الدنيا»[(١)].

- حفْظ سرِّ الجليس:

ومن أدب المجالس: أن يحفظ الرجلُ سرَّ جليسه، فلا يبوح به لأيِّ امرئٍ مهما كان ثقةً عنده، إذا استكتمه صاحبُه ذلك بصريح القول، أو بدلالة الحال.

جاء في الحديث: «إنما يتجالس المتجالسان بالأمانة، فلا يحلُّ لأحد أن يفشيَ على صاحبه ما يكره»[(٢)]. فإن علم أنه لا يكره ذلك جاز الإفشاء، كما هو مفهوم الحديث.

وفي حديث آخر: «إذا حدث الرجل بالحديث ثم التفتَ، فهي أمانة»[(٣)].

فالتفاته يَمْنَةً ويَسرةً يدل على احترازه من مشاركة غيرِه معرفةَ هذا السرِّ.

وهذا ما لم يكن هذا السر متعلِّقًا بحقِّ فردٍ آخر، أو حق جماعةٍ من الناس، وكان كتمان هذا السرِّ يعرِّض هذا الغير لضرر في النفس أو العرض أو المال، أو نحوها، فالواجب هنا إفشاء السرِّ لمن يهمُّه الأمر، ويقدر على تلافي المنكر، أو إزالته، أو العقوبة عليه.

فمن علم بتدبير جريمة، أو اتفاق سريٍّ على عدوان، ولم يبلِّغ عنه، حفظًا لسرِّ جليس استكتمه، فهو شريك له في إثم الجريمة والعدوان، ولو بلَّغ لكان خيرًا للمعتدَى عليه والمعتدي معًا.

---

(١) رواه البزار (٤٢٣٦، ٤٢٣٧)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨٢٨١): رواه البزار بإسنادين، ورجال أحدهما ثقات.

(٢) رواه عبد الرزاق في جامع معمر (١٩٧٩١)، والبيهقي في الآداب (١٠٦) وقال: هذا مرسل حسن في هذا المعنى، عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم.

(٣) رواه أحمد (١٥٠٦٢) وقال مخرجوه: حسن لغيره، وأبو داود في الأدب (٤٨٦٨)، والترمذي في البر والصلة (١٩٥٩) وقال: حديث حسن، وحسنه الألباني في الصحيحة (١٠٩٠)، عن جابر بن عبد الله.

ومن السر ما يجب كتمانه ولو بعد موت صاحبه، كأن يكون فيه غضاضة على بعض الأحياء، ونحو ذلك من الاعتبارات.

روى الشيخان، عن أنس بن مالك أنه قال: أسرَّ إليَّ النبيُّ ﷺ سرًّا، فما أخبرت به أحدًا بعده، ولقد سألتني أمُّ سُلَيم- يعني أمَّه- فما أخبرتُها به. وقد قال أنس لثابت البناني تلميذِه وصاحبِه: والله لو حدَّثتُ به أحدًا لحدَّثتُك يا ثابت[1].

ومن السرِّ ما يجوز إفشاؤه بعد موت مُسرِّه، إذا لم يكن فيه غضاضة عليه، ولا مضرَّة على أحد.

فمن الأول: ما روى البخاري في صحيحه، عن عائشة أم المؤمنين، قالت: كنا أزواج النبي ﷺ عنده جميعًا، لم تُغادر منَّا واحدة، فأقبلتْ فاطمة عليها السلام تمشي، ولا والله لا تخفَى مِشيتُها مِن مِشية رسول الله ﷺ، فلمَّا رآها رحَّب، وقال: «مرحبًا يا ابنتي» ثم أجْلسها عن يمينه، أو عن شماله، ثم سارَّها، فبكتْ بكاءً شديدًا، فلمَّا رأى حُزنها سارَّها الثانية، فإذا هي تضحك، فقلتُ لها أنا من بين نسائه: خصَّك رسول الله ﷺ بالسر من بيننا، ثم أنت تبكين! فلما قام رسول الله ﷺ، سألتُها عما سارَّك؟ قالت: ما كنت لأفشي على رسول الله ﷺ سرَّه، فلمَّا تُوفِّي قلتُ لها: عزمتُ عليك، بما لي عليك من الحق، لَمَا أخبرتِني. قالت: أمَّا الآن، فنعم. فأخبرتني، قالت: أمَّا حين سارَّني في الأمر الأول، فإنه أخبرني أن جبريل كان يعارضه بالقرآن كل سنة مرة، وإنه قد عارضني به العام مرتين، ولا أرى الأجل إلا قد اقترب، فاتَّقِي الله واصبري، فإني نعْم السَّلف أنا لكِ.

قالتْ: فبكيت بكائي الذي رأيتِ، فلمَّا رأى جزعي سارَّني الثانية، قال: «يا

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الاستئذان (٦٢٨٩)، ومسلم في الفضائل (٢٤٨٢).

فاطمة، ألا ترضَيْنَ أن تكوني سيدةَ نساء المؤمنين» أو "سيدةَ نساء هذه الأمة»[١].

فهذا من السرِّ الذي يجوز بعد الموت ذكرُه؛ إذ لا غضاضة ولا ضرر فيه على أحد.

ومن السر ما يُستحبُّ ذكره بعد الموت، ولو كرهه صاحب السر في حياته، كأن يكون فيه تزكية له، مِن منقبة أو كرامة أو نحو ذلك، بل قد يجب ذكره كما قال الحافظ ابن حجر، كحقٍّ عليه كان يُعذر بترك القيام به، فيُرجَى بعدَه إذا ذُكر لمَن يقومُ به عنه أن يفعل ذلك[٢].

- إلقاء السلام عند الحضور والانصراف:

«ومن أدب المسلم إذا دخل إلى مجلسٍ أن يبدأ بالسلام على مَن فيه جميعًا، وإذا أراد المصافحة لمن فيه، فليبدأ بالأفضل، أو الأعلم، أو الأتقى، أو الأكبر، أو نحو هذا من الصفات المكرَّمة شرعًا، ولا يبدأ بأول مَن يراه في أول الصفِّ، ولو كان من جهة اليمين إذا كان مفضولًا، ويدع الفاضل أو الأفضل، فإنما يُبدأ بصاحب وصفٍ يفضُل به الحاضرين، فإن لم يعرف فيه أفضلَهم، أو تساووا في الفضل، فليبدأْ بأكبرهم، فإن هذا لا يخفى شأنه غالبًا، وقد قال رسول الله ﷺ: «كبِّر كبِّر»[٣]. وفي رواية: «كبِّر الكُبْرَ في السن»[٤]. وقال أيضًا عليه الصلاة والسلام: «وابدؤوا بالكبراء» أو قال: «بالأكابر»[٥][٦].

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الاستئذان (٦٢٨٥)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٥٠).

(٢) فتح الباري (١١/ ٨٠).

كأن يكون ينفق على بعض الفقراء في السر أو ما شابه.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الجزية (٣١٧٣)، ومسلم في القسامة (١٦٦٩)، عن سهل بن أبي حثمة.

(٤) رواه مسلم (١٦٦٩)، والنسائي (٤٧١٢)، كلاهما في القسامة.

(٥) رواه أبو يعلى (٢٤٢٥)، والطبراني في الأوسط (٣٧٨٦)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨٢٦٣): رواه أبو يعلى والطبراني في الأوسط، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح، عن ابن عباس.

(٦) من أدب الإسلام ص١٨، للشيخ عبد الفتاح أبي غدة.

ومِن أدب المسلم: أن يلقي السلام على الجالسين عند حضوره، وكذلك يودِّعهم بالسلام عند انصرافه، ولا يتسلَّل من المجلس دون التسليم، كما يفعل بعض الناس.

روى الترمذي، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليُسلِّم، فإن بَدا له أن يجلس فليجلس، ثم إذا قام فليسلِّم، فليست الأولى بأحقَّ من الأخرى»[1].

أما الجالسون، فيكفي أن يرد واحد منهم، وإلا أثموا جميعًا.

روى أبو داود، عن علي رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «يجزئ عن الجماعة إذا مروا أن يسلم أحدهم، ويجزئ عن الجلوس أن يرد أحدهم»[2].

الانصراف إذا رغب صاحب المجلس:

«وينبغي للمسلم أن يكون يقظَ الشعورِ، مُرهَف الحسِّ، خفيف الظلِّ، فلا يجلس حتى يَمَلَّه صاحبُ المجلس ويستثقله، وقد تكون له حاجة مع أهله أو خاصته، ولكنه يظلُّ في حرج من هذا الجالس الثقيل البليد، وقد قال أبو هريرة: نزلتْ مِن كتاب الله آية في الثقلاء، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ۚ﴾ [الأحزاب:٥٣].

فإذا رغب صاحب المجلس أن يفضَّ المجلس لغرض من الأغراض، كأن حضر وقت الصلاة، أو كان مرتبطًا بموعد سابق، أو حان وقت الراحة، أو أراد

---

(١) رواه أحمد (٩٦٦٤) وقال مخرِّجوه: إسناده قوي، وأبو داود في الأدب (٥٢٠٨)، والترمذي في الاستئذان (٢٧٠٦) وقال: حديث حسن، والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (١٠١٠٢)، عن أبي هريرة.

(٢) راوه أبو داود في الأدب (٥٢١٠)، والبزار (٥٣٤)، وأبو يعلى (٤٤١)، قال ابن حجر في فتح الباري (١١/ ٧): في سنده ضعف، وصححه الألباني في تخريج الكلم الطيب (٢٠٠).

الخلوة بأهل مشورته وخاصته، أو غير ذلك، فمن واجب الجلوس أن يبادروا بالاستجابة وينصرفوا، وليس من حقهم أن يغضبوا أو يحتجُّوا.

وفي هذا جاء قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [المجادلة:١١].

ومعنى الآية: إذا قيل لكم: انهضوا أو ارتفعوا من المجلس، فانهضوا ولا تباطؤوا، ولا تعتقدوا أن في هذا مساسًا بكرامتكم، أو نقصًا في حقكم، فإن هذا يرفع درجاتكم عند الله، فإن مَن تواضع لله رفعه. وهذه الآية أشبه بقوله تعالى في أدب الزيارة: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [النور:٢٨].

ختام المجلس:

وممَّا أوصى به النبي ﷺ أهل المجلس: أن يجعلوا ختامهم ذكرَ الله تعالى، فربَّما طالَ حديثُهم، وذكروا منه ما ذكروا ممَّا لا يليق، وربَّما ممَّا لا يحلُّ، وما تخفُّ به الموازينُ يوم القيامة. فالأولى بالعاقل الذي يرجِّح الباقيَ على الفاني، والدائمَ على الذاهب، والآخرةَ على الأولى: أن يجعل ختامَه في هذا المجلس مِن ذكر الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب:٤١- ٤٢]. ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال:٤٥].

والإسلام حريص على أن يرطِّبَ المسلم لسانَه دائمًا بذكر الله تعالى، كما جاء عن عبد الله بن بُسْر، أن رجلًا قال: يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثُرت عليَّ، فأخبرني بشيء أتشبث به، قال: «لا يزال لسانك رطْبًا مِن ذكر الله»[1].

(١) رواه أحمد (١٧٦٨٠) وقال مخرجوه: إسناده صحيح، والترمذي في الدعوات (٣٣٧٥) وقال: حسن

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ، ذكرته في ملإٍ خيرٍ منهم، وإن تقرَّب إليَّ بشبر، تقربتُ إليه ذراعًا، وإن تقرَّب إليَّ ذراعًا، تقرَّبتُ إليه باعًا، وإن أتاني يمشي، أتيتُه هرولة»[(١)].

وعن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: «مَثَلُ الذي يذكر ربَّه والذي لا يذكر ربَّه، مَثَلُ الحيِّ والميِّت»[(٢)]. إلا أن مسلمًا روى: «مَثَلُ البيتِ الذي يذكر الله فيه، والبيت الذي لا يذكر الله فيه، مثل الحي والميت»[(٣)].

وعن أبي هريرة وأبي سعيد أنهما شَهِدَا على رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يقعد قومٌ يذكرون الله، إلا حفَّتْهم الملائكةُ، وغشيتهم الرحمة، وتنزَّلتْ عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده»[(٤)].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما قعد قوم مقعدًا لم يذكروا الله ﷻ فيه، ويصلوا على النبي ﷺ، إلا كان عليهم حسرةً يوم القيامة وإن دخلوا الجنة، للثواب»[(٥)].

ومن السنة أن يُختَم المجلسُ بكفارة المجلس، فإن كان قد شابه لغو، أو لَغَط، أو دخله شيءٌ ممَّا لا ينبغي الخوض فيه، كان هذا الختام طهورًا وكفارة،

غريب، وابن ماجه في الأدب (٣٧٩٣)، وصححه الألباني في الكلم الطيب (٣).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التوحيد (٧٤٠٥)، ومسلم في التوبة (٢٦٧٥)، عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الدعوات (٦٤٠٧)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٧٩).

(٣) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٦٩٩)، وأحمد (٧٤٢٧)، عن أبي هريرة.

(٤) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٠٠)، وأحمد (١١٤٦٣)، والترمذي في الدعوات (٣٣٧٨).

(٥) رواه أحمد (٩٩٦٥) وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وابن حبان في البر والصلة (٥٩١).

وإلا كان تأكيدًا وتصديقًا لما فيه من الخير.

روى الترمذي، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن جلس في مجلسٍ كثُر فيه لغطُه، فقال قبل أن يقوم مِن مجلسه ذلك: سبحان الله وبحمده، أشهد ألَّا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك. إلا كفَّر اللهُ له ما كان في مجلسه ذلك»[1].

وفي حديث آخر: أنه- أي: الدعاء المذكور- إذا كان في مجلسِ خيرٍ، كان كالطابَع له، وإن كان في مجلسِ تخليطٍ، كان كفَّارةً له[2].

والطابع: الخاتم، أي: كان هذا الذكر كخاتم الدولة الذي يعتمد الأوراق والرسائل ويصدِّقُها.

إنَّ منهج الإسلام هو ربط المسلم بالله في كلِّ شؤونه، وفي كل أوقاته وأحواله، فلا ينفصل المسلم عن ربَّانيته، مهما دارت به عجلة الحياة هنا وهناك، فإذا ضمَّه مع إخوانه مجلسٌ، ودار الحديث منه حول الدنيا ومشاغلها، وما فيها من مرح ومزاح، لم ينسَ أن يختمه بما يردُّه إلى الله، ويذكِّره بمولاه، فيعود إلى فطرته، ويُحيي خصائصَ إنسانيته.

وما أشقى قومًا يجلسون ثم ينفضُّون، دون أن يربطوا قلوبهم وألسنتهم بذكر الله تعالى، ولو في ختام مجلسهم! إن مجلسًا كهذا خرِبٌ مِن ذكر الله؛ خسارة لأصحابه في الدنيا، وحسرةٌ عليهم يوم القيامة.

---

(١) رواه أحمد (١٠٤١٥) وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، والترمذي في الدعوات (٣٤٣٣) وقال: حسن صحيح غريب، والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (١٠١٥٧)، وابن حبان في البر والإحسان (٥٩٤)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه النسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (١٠١٨٥)، والحاكم في الدعاء (١/ ٥٣٧)، وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٨١)، عن جبير بن مطعم.

وفي الحديث: «ما من قوم يقومون من مجلسٍ لا يذكرون الله تعالى فيه، إلا قاموا عن مثل جيفةِ حمارٍ، وكان عليهم حسرةً»[1].

أرأيتَ أنتَنَ وأكْرَه إلى النفس والحسِّ من جيفة الحمار؟! كذلك كل مجلس يبدأ وينتهي ولا يُذكر الله فيه.

(١) رواه أحمد (١٠٦٨٠) وقال: إسناده صحيح على شرط مسلم، وأبو داود في الأدب (٤٨٥٥)، وصحح إسناده النووي في رياض الصالحين (٨٣٥)، والحاكم في الدعاء (١/ ٤٩٢)، وصحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصحح إسناده النووي في رياض الصالحين (١٥٤٥)، والألباني كما في الصحيحة (٧٧)، عن أبي هريرة.

الفَصْلُ السَّابِعُ

أدب المسلم في الحديث والكلام مع الناس

ممَّا ميَّز اللهُ به الإنسانَ: أنْ جعله ناطقًا مبينًا، فهو يفكِّر ثم يتكلم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝﴾ [البلد:٨- ٩]. وقال سبحانه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝﴾ [الرحمن:١- ٤].

وقد علَّمه تعالى البيان النُّطقيَّ، وأداته اللسان، والبيان الخَطِّيَّ، وأداته القلم، فقال سبحانه في أول آيات نزلت على رسوله من القرآن: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝﴾ [العلق:٣- ٤]، وقال ﷻ في أوائل القرآن المكِّي: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝﴾ [القلم:١]. فأقسم سبحانه بهذا القلم، وما يسْطُره الناسُ به مِن قرآنٍ وغيره، وما يقسم الله به من الأشياء، فذلك ليدلنا على فائدته وأهميته.

أهمية أدب الكلام:

ولِما للحديثِ والكلام مِن منزلة وفائدة وأهمية كبيرة في حياة البشر، وكذلك ما له من خطر كبير، وأثر سيئ على حياة الناس، وعلى الآخرين: كان تحذيرُ القرآن ممَّا سمَّاه العلماء «آفات اللسان»، وقد بلَّغها العلامةُ عبد الغني النابلسي الحنفي إلى (٧٢) اثنتين وسبعين آفة، وبلَّغها الإمام الغزالي في إحيائه إلى (٢٠) عشرين آفة.

قال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝﴾ [ق:١٨]. وقال: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ۝﴾ [الزخرف:٨٠].

ولهذا عُني الإسلامُ وعُني علماؤه بأدب الحديث بين المسلم وبين الناس، لكونه حديثًا معبرًا عن شخصيَّة المسلم وعقيدته التوحيديَّة، وأخلاقه القرآنيَّة، وآدابه المحمديَّة، وشريعته الوسطيَّة، ومعاملاته الإنسانيَّة، ولم يترك الإسلام حديث المرء لأهوائه وشهواته، ونعراته وعصبيَّاته؛ يحب أن يسكت الناسُ إذا نطق، وإذا سَكَتَ خَفَتُوا، وإذا تكلَّموا في حضرته، لم يتكلموا إلا بما يرضيه، ولم يُفصحوا عمَّا يريدون، ولم يتكلَّموا بما يحبُّون، ولم يجيبوا عمَّا يُسألون، فحُرِّيَّتُهم منقوصة، وكرامتهم مهِيضَة، وحقوقهم الشخصيَّة غيرُ مُعترفٍ بها.

مسؤولية الكلمة:

إن الكلمة لها قيمتُها في الحياة، وفي عُرف الناس، وفي ميزان الدين، وفي مقاييس الدنيا، لا يجوز لأحدٍ أن يستهين بها أو بأثرها، فرُبَّ حربٍ شبَّت مِن كلمة، ورُبَّ نارٍ أخمدت بكلمة، وربَّما فُرِّقتْ قبيلةٌ أو وطنٌ أو أكثرُ من جراء كلمة.

مما ابتلينا به في زماننا التافهون يتحدثون في أمر العامة:

وممَّا ابتُلينا به في هذا الزمان: أن نجدَ أناسًا تافهين، لا وزن لهم في علم نافع، ولا في عمل صالح، ولا في خُلُق فاضل، ولا في دين سابغ، ولكنهم في أنفسهم منتفخون من غير شيء ينتفع به الناسُ مِن وجودهم، إلا ما يتشدَّقون به ممَّا يفاخرون به الآخرين، ولكنه لا يفاخر بأدبه، بل يفاخر بنسبه، وممَّا لا يدَ له في اكتسابه، كما قال الشاعر:

كن ابن من شئت واكتسب أدبا ... يغنيك محمودُه عن النسبِ
إن الفتى مَن يقول: ها أنا ذا ... ليس الفتى من يقول: كان أبي(١)

(١) ينسب لسيدنا علي بن أبي طالب.

وقال الآخر:

لقد فخرتَ بآباءٍ ذوي حسبٍ　　　لقد صدقتَ، ولكن بئس ما ولدوا[(١)]

هذا المفاخر المتطاول على خلق الله، هو الذي سمَّاه الرسول الكريم في حديثه: «الرويبضة».

قال ﷺ: «إنها ستأتي على الناس سُنونَ خدَّاعة، يُصدَّق فيها الكاذبُ، ويُكذَّب فيها الصادق، ويؤتمَن فيها الخائن، ويخوَّن فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة» قيل: وما الرُّوَيْبِضة يا رسول الله؟ قال: «السفيهُ يتكلَّم في أمرِ العامة»[(٢)].

يعني: في مصالح جماهير الناس وشؤونهم العامة، كما نرى أناسًا تافهين، من الجاهلين والحمقى، أتيح لهم أن يتحدثوا في حاضر الأمة، وما يتوقع من أخطار في مستقبلها، في أيديهم صحف سيارة، وقنوات شهيرة، ويعمل تحت أيديهم مئات- وربما آلاف- من الرجال من الكُتَّاب والمُذِيعِين، والإخباريين والمراسلين والمصورين، وألوان من الرجال، أو مَن يحسبون من الرجال، وبينهم وبين الرجولة بون شاسع.

تحذير المصلحين والحكماء والأدباء من تأثير الكلمة:

ولهذا حذَّر الأنبياء والحكماء والعلماء والأدباء والشعراء، وكل من له خبرة وتجربة في الحياة، من تأثير الكلمة، ومن آفات اللسان.

يقول الشاعر:

احفظ لسانك أيها الإنسانُ　　　لا يلـدغنَّـك إنـه ثعبـانُ

(١) من شعر لابن الرومي.

(٢) رواه أحمد (٧٩١٢)، وقال مخرجوه: حسن، وابن ماجه في الفتن (٤٠٣٦)، والحاكم في الفتن (٤/ ٥١٢)، وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في الصحيحة (١٨٨٧)، عن أبي هريرة.

كم في المقابر من قتيل لسانه | كانت تهاب لقاءه الشجعانُ[1]

وقال زهيرُ بن أبي سلمى:

وكَائِنْ ترى من صامتٍ لك مُعجِبٍ | زيادته أو نقصه في التَّكلُّمِ
لسان الفتى نصْف ونصْف فؤاده | فلم يبقَ إلَّا صورةُ اللحم والدَّمِ

وقال ثالث:

يموت الفتى مِن عثرةٍ بلسانِه | وليس يموتُ المرءُ مِن عثرة الرِّجلِ
فعثرته مِن فيه ترمي برأسِه | وعثرتُه بالرِّجل تشفى على مَهَلِ[2]

وقال الحكماء: المرء تحت طَيِّ لسانِه، لا تحت طَيْلَسانِه.

اللسان صغيرُ الجِرْمِ، كبير الجُرْم. تقع الحربُ بكلمة، وينعقدُ السِّلم بكلمة. ينعقد البيع والشراءُ بكلمة، ويُفسَخ العقد والشركة بكلمة. ينعقد الزواج بكلمة، ويقع الطلاق بكلمة، وتحدث الرَّجْعة بكلمة. وكم مِن حدودٍ وجبتْ على الناس بكلمة، وكم مِن حقوق وجبتْ للناس بكلمة. وكم وُصِلتْ أرحامٌ بكلمة، وكم قُطعتْ أرحام بكلمة.

يدخل المرءُ في الإسلام بكلمة، ويخرج من الإسلام بكلمة، ولذا قال بعضهم: الإسلام كلمة، والكفر كلمة.

التحذير من الكلمة السيئة:

ولهذا حرَّم الله قول الكلمة السَّيِّئة، والاستماع إليها، والمشاركة في مجلس تروج فيه، قال تعالى في سورة الأنعام المكِّيَّة: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ

---

(١) من شعر الإمام الشافعي.
(٢) من شعر جعفر الصادق.

عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام:٦٨].

وفي سورة النساء المدنيَّة: ﴿وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء:١٤٠].

وقال الله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٖ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ [٢٤- ٢٧].

- **آفات اللسان وحصائد الألسنة:**

وأول ما نذكره في أدب المحادثة هو التحذير من بعض آفات اللسان التي تقذف بالناس في نار جهنم، بما تحصده ألسنتهم. وإنما بدأنا بالآفات؛ لأن التخلية قبل التحلية.

١- الكذب:

من أخطر آفات اللسان: الكذب. ومن أهم آداب المتحدِّث: أن يتحرَّى الصدق في قوله، وأن يتجنَّب الكذب، الذي لا يليق بمؤمن، فإنما الكذبُ مِن شأن غير المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [النحل:١٠٥].

فالكذب هو شأن الكفار، أو المنافقين، الذين قالوا: آمنا بألسنتهم، ولم تؤمن قلوبُهم، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [البقرة:٨].

وقال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ①﴾ [المنافقون:١]. وكذبهم هنا: أن قلوبهم لا تصدِّق ألسنتهم؛ لأنهم يقولون الحق بألسنتهم، ولكنهم في أنفسهم يكذبون.

وقال ﷺ: «عليكم بالصدق، فإنَّ الصدقَ يهدي إلى البرِّ، وإن البرَّ يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجُلُ يصدُقُ ويتحرَّى الصدْقَ حتى يُكتَب عند الله صدِّيقًا، وإيَّاكم والكذبَ، فإنَّ الكذبَ يهدي إلى الفجور، وإن الفجورَ يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرَّى الكذبَ حتى يُكتَبَ عند الله كذَّابًا»(١).

ولذلك يوصي الإسلام كل مسلم ويحثُّه ويربِّيه على التزام الصدق، ولو فقد فيه ما فقد من نفس أو جسم أو مال. قال الشاعر(٢):

لـي حيلـة فيمـن ينـمُّ ... وليس في الكذَّاب حيلة

من كان يخلق ما يقـو ... ل فـحيلتـي فيــه قليلـة

والكذب كلُّه حرام؛ أبيضُه وأسودُه وملونه، فلا يوجد كذب مُرخَّصٌ فيه، إلا ما روتْه أمُّ كلثوم بنت عقبةَ عن رسول الله ﷺ، فقد استثنى ثلاثةَ ألوان من الكذب، هي: الكذب في إصلاح ذات البين، والكذب في الحرب، فإنها خدعة، وكذب الرجل على امرأته أو المرأة على زوجها، لإرضائها أو إرضائه، وفي هذا جاء الحديث: ليس الكذَّاب الذي يُصلِح بين الناس، فيُخبِر خيرًا، أو يقول خيرًا، وما كان رسول الله ﷺ يرخِّص في شيء ممَّا يقول الناسُ أنّه كذب إلا في ثلاث:

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠٩٤)، ومسلم في البر والصلة (٢٦٠٧)، كما رواه أحمد (٣٨٩٦)، وأبو داود في الأدب (٤٩٨٩)، والترمذي في البر والصلة (١٩٧١)، عن ابن مسعود.

(٢) هو محمود بن مروان بن أبي الجنوب. ينظر: الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ص ٤٣٣، ومعجم الشعراء ص ٥٠٢، كلاهما للمرزباني.

الحربُ، والإصلاحُ بين الناس، ومحادثة الرجل امرأته ومحادثة المرأة زوجها»[1].

ومثل ذلك لو كان في الكذب إنجاءُ رجل من الهلاك، حين يظلمه ظالم لو عرف أنه عندك لقتلَه قطعًا، فالكذب لإنقاذه مطلوب.

وشرُّ الكذب: أن يكذب على الله تعالى، أو يكذب على رسوله الكريم، أو يُرِي عينيه ما لم ترَيَا، بادّعاء الرُّؤَى للكبراء أو الأمراء أو الأغنياء، وكلُّها من كبائر المحرَّمات.

الكذب في اليمين:

ومن شرِّ أنواع الكذب: الكذب في اليمين، فيحلف بالله، وهو يعلم أنه كاذب في حَلِفِه وقَسَمِه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝﴾ [القلم:١٠].

وقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝﴾ [آل عمران:٧٧].

وهذه من شرِّ الأيمان التي يُحلَف بها كذِبًا، وهي ما يُسمَّى: «اليمين الغموس»، وهي التي تغمِس صاحبَها في نار جهنم، وهي التي تذَرُ الديارَ بلاقعَ، وهي التي يحلِف بها الحالفُ وهو مُوقِن أنه كاذب، يبيع دينَه بعرضٍ يسير من الدنيا.

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص ﵄، عن النبي ﷺ قال: «الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، واليمين الغموس»[2].

وفي رواية: أنَّ أعرابيًّا جاء إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا رسول الله، ما الكبائر؟ قال:

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الصلح (٢٦٩٢)، ومسلم البر والصلة (٢٦٠٥)، كما رواه أحمد (٢٧٢٧٢)، والنسائي في الكبرى في عشرة النساء (٩٠٧٤)، عن أم كلثوم بنت عقبة.

ولم يذكر البخاري: وما كان رسول الله ﷺ يرخِّص... فهي مما روى مسلم.

(٢) رواه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٧٥)، وأحمد (٦٨٨٤)، والترمذي في التفسير (٣٠٢١)، والنسائي في تحريم الدم (٤٠١١)، عن عبد الله بن عمرو.

«الإشراك بالله» قال: ثم ماذا؟ قال: «ثم عقوق الوالدين» قال: ثم ماذا؟ قال: «اليمين الغموس» قال: وما اليمين الغموس؟ قال: «الذي يقتطع مالَ امرىء مسلم- يعني- بيمين هو فيها كاذب»[1].

وعن عبد الله بن أُنيس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من أكبر الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، واليمين الغموس. والذي نفسي بيده لا يحلف رجلٌ على مثل جناح بعوضة إلا كانت كيًّا في قلبه يوم القيامة»[2].

وعن ابن مسعود ﷺ قال: كنا نعُدُّ من الذنب الذي ليس له كفارة: اليمين الغموس[3].

البعد عن الحلف بالله:

بل ينبغي للمسلم الناصح لنفسه أن يبتعد عن اليمين بالله تعالى، ولو كان صادقًا، إلَّا ليبرئ نفسه أو غيره، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٢٤].

وهناك **اليمين المنعقدة**، هي التي يحلف فيها المسلم على أمر في المستقبل، على ألا يفعل كذا، لا يدخل دار فلان، أو لا يكلم فلانًا، ثم يفعل ما حلف على عدم فعله. فهذا يسمونه «اليمين المنعقدة».

وهذه لا كذب فيها، ولكن فيها عزم على أمر قوّاه باليمين، ثم إذا وقع فيما

---

(١) رواه البخاري في استتابة المرتدين (٦٩٢٠).

(٢) رواه الترمذي في التفسير (٣٠٢٠) وقال: حسن غريب، وابن حبان في الحظر والإباحة (٥٥٦٣)، والحاكم في الأيمان والنذور (٤/ ٢٩٦)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٢١٣).

(٣) رواه الحاكم في الأيمان والنذور (٤/ ٢٩٦)، وصحّحه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

حلف على عدمه، فقد حنث في يمينه، وعليه كفارة الحنث، وهي كما ذكرها القرآن: ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المائدة:٨٩].

ويمكن إعطاء العشرة مساكين قيمة الطعام المتوسط، ليس من أكل المطاعم الفاخرة، ولا من بقايا الأطعمة ورديئها، وإن صنع لهم بنفسه طعامًا فهو أولى.

الابتعاد عن الحلف بغير الله مطلقًا:

وممَّا يجب على المسلم أن ينتبَّه له، وأن يحذَّر منه، ويبتعدَ عن الوقوع فيه: الحلف بغير الله، فلا ينبغي للمسلم أن يورِّط نفسه في الحلِف بغير الله، كأن يحلف بأبيه أو بشيخه أو بنبيٍّ من الأنبياء، أو بالرسول الكريم، أو بأحدِ الأولياء المشهورين، أو بالوطن وترابه، أو بالشرف أو العرض أو الأمانة، أو بنحو ذلك، فهذا ما لا ينبغي أن يتورط فيه مؤمنٌ يوقن بالله واليوم الآخر.

وفي الحديث الشريف: «من حلف بغير الله فقد أشرك»(١).

وعنه ﷺ: «إنَّ الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم»(٢)، و«من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليذَرْ»(٣).

لكن قد يجري على اللسان صيغة الحلف ولا يقصد به المتكلم الحلف، كأن يقول لصاحبه: «لا وأبيك»، «لا وحياتك». وهو لا يقصد القسم قطعًا، كما جاء في

---

(١) رواه أحمد (٥٥٩٣)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف لجهالة الرجل الكندي، وأبو داود (٣٢٥١)، والترمذي (١٥٣٥) وقال: حديث حسن، والحاكم (٤/ ٢٩٧) وصحَّحه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، ثلاثتهم في الأيمان والنذور، وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٩٥٢)، عن ابن عمر.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦١٠٨)، ومسلم في الأيمان (١٦٤٦)، عن ابن عمر.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٦٦٤٦)، ومسلم (١٦٤٦)، كلاهما في الأيمان، عن ابن عمر.

بعض الأحاديث قول النبي ﷺ: «أفلح وأبيه إن صدق»[1]. وفي الصحيح، عن عائشة: «أجل- لعمري- لقد استيقنوا بذلك»[2].

ونحو ذلك مما يخرج مخرج التوكيد لا القسم، وجَرتْ به عادة الناس في حديثهم من غير قصد للحلف.

الحلف بالطلاق:

ومن ذلك: الحلِف بالطلاق، الذي شاعَ- للأسف- في بعض بلاد المسلمين في بعض الفترات، وجرَّ على الناس مصائب كثيرة في حياتهم الأسريَّة والاجتماعيَّة.

وقد أوقع بعضُ العلماء هذه الطلاقاتِ، وتفرَّقت الأسرُ بعضُها عن بعض، وتفرَّقتِ المرأة عن زوجها، وتفرَّق الرجل عن أولاده، أو المرأة عن أبنائها، وكان ما كان من البلاء؛ نتيجةَ الجهل بدين الله، وعدم الوقوف عند حدوده ﷻ[3].

٢- الوعد الكاذب:

ومن آفات اللسان، التي ذكرها الإمام الغزالي وغيره، وجعلها الآفة الثالثة عشرة من آفات اللسان العشرين[4]، وهي: الوعد الكاذب.

ومن المهم هنا أن نبيِّن حرمة هذا الوعد، فقد ثار نقاش طويل من علماء الفقه الاقتصادي، حتى كاد بعضهم يجعل إخلاف الوعد مُجرَّد رذيلة غير محرمة.

وأكثر ما أثير من كلام كان حول عنصر الوعد والإلزام به، لهذا كان في حاجة إلى مزيد من التجلية والإيضاح لحقيقته، فأقول:

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (١١)، وأبو داود في الصلاة (٣٩٢)، عن طلحة بن عبيد الله.

(٢) رواه البخاري في التفسير (٤٦٩٥).

(٣) ينظر رأينا في الحلف بالطلاق وهل يقع أم لا في كتابنا (فقه الأسرة وقضايا المرأة) ص٣١٤.

(٤) الإحياء (٣/١٠٨).

إنَّ الذي أرجِّحه أن الوفاء بالوعد واجب ديانة، فهذا هو الظاهر من نصوص القرآن والسنة، وإن خالف في ذلك المخالفون.

ففي القرآن يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف:٢، ٣]. والوعد إذ أُخلف قول لم يُفعل، فيلزم أن يكون كذبًا محرمًا. وأن يحرم إخلاف الوعد مطلقا. بل إن عبارة الآية الكريمة: ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾ تدل على أنه كبيرة، وليس مجرد حرام.

وقد ذمَّ الله بعض المنافقين بقوله: ﴿فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ۝٧٧﴾ [التوبة:٧٧]. والآية تفيد أن نفاقهم بسبب إخلافهم وعدهم مع الله. ومثل ذلك: إخلاف الوعد مع الناس، إذ لا فرق في أصل الحرمة بين الأمرين. كما أن نكث العهد محرم، سواء أكان مع الله أم مع الناس.

وقد أنكر القرآن بشدَّة استغفار المؤمنين للمشركين مهما تكن قرابتهم، فقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ۝١١٣﴾ [التوبة:١١٣].

وهنا تلوح للمؤمن قصة استغفار إبراهيم لأبيه حين قال في دعائه: ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٨٦﴾ [الشعراء:٨٦]. كيف يتفق هذا مع هذا الإنكار الشديد؟ هنا يقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ۝١١٤﴾ [التوبة:١١٤].

فكان عذر إبراهيم وعده السابق لأبيه: ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ۝٤٧﴾ [مريم:٤٧].

فلو كان الوفاء بالوعد مجرَّد أمر مستحبٌّ، ما ارتكب من أجله الاستغفار لمشرك ضالٍّ من أصحاب الجحيم.

ولا يقال: لعل الوفاء بالوعد كان واجبًا في شرع إبراهيم، وشرع من قبلنا ليس شرعًا لنا. ونقول: الصحيح أنَّ شرع من قبلنا شرع لنا ما لم ينسخه شرعنا، وبخاصة أن الله تعالى قال لرسوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل:١٢٣].

يؤكد هذا ما ذكره الله عن الشيطان حين يجمعه بمن اتبعه من الغاوين في النار حيث يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ [إبراهيم:٢٢].

وهذا ذكر في معرض الذم للشيطان وحزبه. فلو كان إخلاف الوعد لا يعدو أن يكون مكروهًا، أو خلاف الأولى، لم يكن لذمِّ الشيطان به معنًى.

وفي الحديث الصحيح المتفق عليه، من رواية أبي هريرة: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»[(١)]. وفي بعض روايات مسلم: «آية المنافق ثلاث . . . وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم»[(٢)].

وفي الحديث الصحيح الآخر، من رواية عبد الله بن عمر: «أربع من كُنَّ فيه كان منافقا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خَصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»[(٣)].

وذكر البخاري في كتاب (الاستقراض) حديث عائشة، أن النبيَّ ﷺ كان يستعيذ في صلاته كثيرًا من المأثم- أي: الإثم- والمغرم- أي: الدَّين- فقيل له: يا

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩) (١٠٧)، كلاهما في الإيمان.

(٢) رواه مسلم (١٠٩).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨)، كلاهما في الإيمان.

رسول الله، ما أكثر ما تستعيذ من المغرم؟! فقال: «إن الرجل إذا غرم – أي: استدان- حدَّث فكذب، ووعد فأخلف»[1]. ومعنى هذا: أن الاستدانة تجره إلى المعصية بالكذب في الحديث، والخُلف في الوعد.

وهناك أدلة أخرى سنذكرها فيما ننقله عن الغزالي والبخاري وابن القيم.

والظاهر من هذه الأدلة أن الوعد سواء أكان بصلة وبرٍّ، أم بغير ذلك، واجب الوفاء به. إذ لم تفرق النصوص بين وعد ووعد. وهذا ما رُوِي عن ابن شبرمة فيما نقله عنه ابن حزم حيث قال: الوعد كله لازم، ويُقضى به على الواعد، ويُجبر[2].

وإذا كان كل هذا التحذير من إخلاف الوعد حتى عُدَّ من علامات النفاق، وإحدى خصاله الأساسية، فهذا من أظهر الأدلة على حرمته، ولهذا جعله الإمام الغزالي في «إحيائه» من آفات اللسان، وهي إحدى «المهلكات».

رأي الإمام الغزالي:

قال حجة الإسلام أبو حامد الغزالي وهو يعدِّد آفات اللسان: الآفة الثالثة عشر: «الوعد الكاذب، فإن اللسان سبَّاق إلى الوعد، ثم النفس ربما لا تسمح بالوفاء، فيصير الوعد خلفا، وذلك من أمارات النفاق . . . قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة:١].

وقد أثنى الله تعالى على نبيِّه إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ في كتابه العزيز، فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾ [مريم:٥٤].

ولما حضرت عبد الله بن عمر الوفاةُ قال: إنه كان خطب إليَّ ابنتي رجل من

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٨٣٢)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٨٩)، عن عائشة.

(٢) المحلى لابن حزم (٦/ ٢٧٨).

قريش، وكان إليه مني شبه الوعد، فوالله لا ألقى الله بثُلث النفاق. أشهدكم أني قد زوَّجته ابنتي[1].

وكان ابن مسعود لا يعد وعدًا إلا ويقول: إن شاء الله، وهو الأولى[2].

ثم إذا فهم مع ذلك الجزم في الوعد، فلا بد من الوفاء، إلا أن يتعذَّر، فإن كان عند الوعد عازمًا على ألَّا يفي، فهذا هو النفاق.

وهذا ينزل على عزم الخُلْف، أو ترك الوفاء من غير عذر، فأما من عزم على الوفاء فَعَنَّ له عذر منعه من الوفاء، لم يكن منافقًا، وإن جرى عليه ما هو صورة النفاق، ولكن ينبغي أن يحترز من صورة النفاق أيضًا، كما يحترز من حقيقته، ولا ينبغي أن يجعل نفسه معذورًا من غير ضرورة حاجزة»[3].

رأي جماعة من السلف في وجوب الوفاء بالوعد:

وذكر الإمام البخاري في صحيحه رأي جملة من السلف ممن يرى وجوب إنجاز الوعد، فقد ترجم في كتاب «الشهادات» من الصحيح «باب من أمر بإنجاز الوعد»: قال: وفعله الحسن. يعني البصري، أي: أمر به. وذكر الآية الكريمة: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ [مريم: ٥٤].

قال: وقضى ابن الأشوع[4] بالوعد، وذَكَرَ ذلك عن سَمُرة بن جُندَب.

قال أبو عبد الله البخاري: رأيت إسحاق بن إبراهيم- هو ابن راهويه- يحتج

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في الصمت (٤٥٦).

(٢) المصدر السابق (٤٦٤).

(٣) إحياء علوم الدين (٣/ ١٣٢، ١٣٣)، بتصرف.

(٤) وهو سعيد بن عمرو بن الأشوع، قاضي الكوفة في زمان إمارة خالد القسري على العراق، وذلك بعد المائة.

بحديث ابن أشوع، أي الذي ذكره عن سمرة[(١)].

وذكر البخاري في الباب أربعة أحاديث للدلالة على وجوب الإنجاز، منها: حديث «آية المنافق ثلاث...»[(٢)]، وحديث جابر: لما مات النبي ﷺ، جاء أبا بكر مالٌ من قِبَل العلاء بن الحضرمي، فقال أبو بكر: من كان له على النبي ﷺ دَيْن أو كانت له قِبَله عِدَة فليأتِنا[(٣)].

ونقل الحافظ في «الفتح» قول المهلَّب: «إنجاز الوعد مأمور به مندوب إليه عند الجميع، وليس بفرض، لاتفاقهم على أن الموعود لا يضارب بما وعد به مع الغرماء».

قال الحافظ: «ونقْل الإجماع في ذلك مردود، فإن الخلاف مشهور، لكن القائل به قليل»[(٤)].

وقال ابن عبد البر وابن العربي: أجلّ من قال به عمر بن عبد العزيز.

وعن بعض المالكية: إن ارتبط الوعد بسبب، وجب الوفاء به، وإلا فلا، ومن قال لآخر: تزوج، ولك كذا، فتزوج بذلك، وجب الوفاء به.

وخرّج بعضهم الخلاف على أن الهبة هل تملك بالقبض أو قبله؟

قال الحافظ: وقرأت بخط أبي رحمه الله، في إشكالات على الأذكار للنووي: ولم يذكر جوابًا عن الآية - يعني قوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف:٣] - وحديث: «آية المنافق». قال: والدلالة للوجوب منها

(١) صحيح البخاري (٣/ ١٨٠)، نشر دار طوق النجاة، ط: الأولى، ١٤٢٢هـ

(٢) سبق تخريجه.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الشهادات (٢٦٨٣)، ومسلم في الفضائل (٢٣١٤).

(٤) أي القائل بوجوب الإيفاء بالوعد.

قوية، فكيف حملوه على كراهة التنزيه مع الوعيد الشديد؟!»[(١)].

أدلة ابن القيم في وجوب الوفاء بالوعد:

وصنيع المحقق ابن القيم في كتابه «أعلام الموقعين» يدل على أنه ممن يرى وجوب الوفاء بالوعد، فقد نظم العقود والعهود والشروط والوعود الواجب الوفاء بها كلها في سلك واحد، وسرد النصوص الدالة على لزوم الوفاء بالوعد، مع النصوص الدالة على وجوب الوفاء بالعقد وبالعهد وبالشرط، كلها سواء. فذكر قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢﴾ [الصف:٢]، وذكر صحاح الأحاديث في علامات المنافق وخصاله.. وأحاديث أخرى، وزاد على ذلك أحاديث أخرى تتعلق بالوعد خاصة.

مثل ما في «سنن أبي داود»، عن عبد الله بن عامر قال: دعتني أمي يومًا ورسول الله ﷺ قاعد في بيتها، فقالت: تعالَ أعطِك. فقال لها رسول الله ﷺ: «ما أردتِ أن تعطيه؟». فقالت: أعطيه تمرًا. فقال لها رسول الله ﷺ: «أما أنك لو لم تعطِه شيئًا، كتبت عليك كَذْبة»[(٢)].

وعن زيد بن أسلم، أن رسول الله ﷺ قال: «وأْيُ[(٣)] المؤمن واجب»[(٤)].

قال ابن وهب: وأخبرني إسماعيل بن عياش، عن أبي إسحاق، أن رسول الله ﷺ

---

(١) فتح الباري (٥/ ٢٩٠).

(٢) رواه أحمد (١٥٧٠٢)، وقال مخرجوه: حسن لغيره، وأبو داود في الأدب (٤٩٩١)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٧٤٨)، عن عبد الله بن عامر.

(٣) الوأي: الوعد.

(٤) رواه أبو داود السجستاني في المراسيل (٥٢٣)، بلفظ: "وأي المؤمن حق واجب".
والمعنى: وعده لغيره بمنزلة الحق الواجب عليه في تأكد الوفاء به.

كان يقول: «ولا تعد أخاك عدة وتخلفه، فإن ذلك يورث بينك وبينه عداوة»[1].

وعن أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال: «من قال لصبي: تعال هذا لك، ثم لم يعطه شيئًا، فهي كذبة»[2]. وفي السنن عن عمرو بن عوف يرفعه: «المؤمنون عند شروطهم»[3]. وله شاهد من حديث ابن عمر يرفعه: «الناس على شروطهم ما وافق الحق»[4]. وليست العمدة على هذين الحديثين بل على ما تقدم».

وأجاب ابن القيم عما في بعض هذه الأحاديث من ضعف من جهة السند، فقال: «أما ضعف بعضها من جهة السند، فلا يقدح في سائرها، ولا يُمنع من الاستشهاد بالضعيف إن لم يكن عمدة»[5].

نقل العلامة الزبيدي:

وقال العلامة الزَّبيدي في «تاج العروس شرح القاموس» في مادة «وعد»: اختلف في حكم الوفاء بالوعد: هل هو واجب أو سنة؟ أقوال.

---

(١) رواه ابن وهب في الجامع (٢٠٨)، دار ابن الجوزي – الرياض، ط: الأولى ١٤١٦هـ – ١٩٩٥م.

(٢) رواه ابن وهب في الجامع (٥١٤).

(٣) رواه الترمذي في الأحكام (١٣٥٢) وقال: حسن صحيح، بلفظ: "المسلمون على شروطهم". وقال ابن الملقن في خلاصة البدر المنير (١٥٨٨) بعد أن ذكر تصحيح الترمذي: في هذا نظر؛ فكثير (ابن عبد الله) أجمعوا على ضعفه. وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٤/ ٤٥١): وكثير بن عبد الله ضعيف عند الأكثر، لكن البخاري ومن تبعه كالترمذي وابن خزيمة يقوون أمره. وقال في بلوغ المرام (٨٧٦) بعد أن ذكر كلام الترمذي: وأنكروا عليه؛ لأن راويه كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف ضعيف، وكأنه اعتبره بكثرة طرقه. وقال الألباني في الإرواء (١٣٠٣): صحيح لغيره.

(٤) رواه البزار (٥٤٠٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٣٩٢): فيه محمد بن عبد الرحمن بن البيلماني، وهو ضعيف جدًّا.

(٥) إعلام الموقعين (١/ ٢٦٠ – ٢٦٢).

قال شيخنا[1]: وأكثر العلماء على وجوب الوفاء بالوعد، وتحريم الخُلْف فيه، وكانت العرب تستعيبه وتستقبحه، وقالوا: إخلاف الوعد من أخلاق الوغْد. وقيل: الوفاء سُنَّة، والإخلاف مكروه، واستشكله بعض العلماء.

وقال القاضي أبو بكر بن العربي بعد سرد كلام: وخُلف الوعد كذب ونفاق، وإن قل فهو معصية.

وقد ألف الحافظ السخاوي في ذلك رسالة مستقلة سماها: «التماس السعد في الوفاء بالوعد» جمع فيها فأوعى. اهـ كلام الزبيدي.

رأينا في حكم الوفاء بالوعد:

وإذا كان وجوب الوعد والأمر بإنجازه قال به مثل عبد الله بن عمر (الذي زوج ابنته لمن صدر منه شبه وعد له، حتى لا يلقى الله بثلث النفاق!)، ومثل سمرة ابن جندب من الصحابة، ومثل عمر بن عبد العزيز من التابعين، وهو معدود من الخلفاء الراشدين المهديين الذين يعض على سنتهم بالنواجذ، والحسن البصري الإمام المشهور. ومن بعدهم: ابن الأشوع الذي اعتدَّ البخاري بذكره في صحيحه، وذكره ابن حبان في «الثقات»[2]. وقال ابن معين: مشهور يعرفه الناس، كما في «عمدة القاري»[3].. وابن شُبْرمة الفقيه الثقة العابد، وإسحاق بن راهويه شيخ البخاري، وأحد أئمة الحديث والفقه، وأمير المؤمنين في الحديث: محمد بن

(١) هو الشيخ الإمام المحدِّث المسند اللغوي العلامة، محمد بن الطيب بن محمد الفاسي المالكي الشهير بابن الطيب الشرقي، توفي سنة ١١٧٠هـ. تنظر ترجمته في تاج العروس (١/ ٣)، (٣/ ٢٩١)، وسلك الدرر (٤/ ١٠٨-١١٢).

(٢) الثقات (٨١٤٢).

(٣) عمدة القاري، للعيني (١٣/ ٢٥٨).

إسماعيل البخاري، كما يبدو من ترجمته للباب وعدم ذكره الرأي الآخر.. بالإضافة إلى ما نقلناه عن الإمام الغزالي في «إحيائه»، وعن العلامة ابن القيم، وما هو معروف من مذهب الإمام مالك وبعض أصحابه، وخصوصًا فيما كان له سبب، ودخل الموعود من أجله في نفقة وكلفة.. فليس القائل به- إذن- قليلًا، كما قال الحافظ رحمه الله، بل لعل الصحيح ما نقله الزبيدي عن شيخه: إن أكثر العلماء على وجوب الوفاء بالوعد، وتحريم الخُلْف فيه.

وبهذا نرى أن نسبة القول بالإلزام بالوعد إلى بعض المالكيَّة أو إلى ابن شبرمة فقط فيه تقصير كبير في الاستقصاء.

٤- مدح نفسه والمبالغة في مدح الآخرين بغير حق:

نهى القرآن عن تزكية النفس، بمعنى مدحها وتضخيمها، وتعظيم محاسنها، والإغضاء عن سيئاتها ونقاط ضعفها، ما عرفه الناس عنها، وما لم يعرفوه، مما يعرفه الشخص عن نفسه. وهذا كما زكَّى اليهود أنفسهم، فقد زعموا أنهم وحدهم «شعب الله المختار»، وردَّ الله ذلك عليهم في القرآن، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾﴾ [النساء:٤٩- ٥٠].

ولذلك نهى القرآن المسلمين أن يزكوا أنفسهم، قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم:٣٢]. ولذا يستنكر الناس مدحَ المرءِ نفسَه، وقالوا: لا يشكر نفسَه إلا إبليس. وذلك أنَّ إبليس حين امتنع عن السجود لآدم، وصفه الله بالاستكبار والكفر. قال إبليس: أنا خير منه؛ خلقتني من نار وخلقته من طين.

وقيل لأحد الحكماء: ما الصدق القبيح؟ قال: ثناء المرء على نفسه.

هذا وهو صادق فيما يحدث عن نفسه، فكيف بهذا الكذَّاب الذي يظل يكذب

على الناس، بما يتحدث عن نفسه من الكذب والسفه؟

على المادح أن يتحرَّى عدة أمور:

والواجب على المسلم إذا مدح إنسانًا في وجهه أن يتحرَّى عدة أمور:

أن يمدحه بما هو فيه:

١- أن يمدحه بما يتيقَّن أنه فيه، مما هو ظاهر عليه ومشهود له به، فلا يجوز لمسلم أن يمدح الظالم، أو المتجبِّر في الأرض، أو المفسد بين الناس، ففي مدحه ركون إليه، والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود:١١٣].

وقال السَّلف: من دعا لظالم بطول البقاء فقد أحبَّ أن يُعصى الله في أرضه![1]

بل الواجب عليه أن يردَع الظالم عن ظلمه بما يقدر عليه.

وفي الحديث: «إذا رأيت أمتي لا يقولون للظالم منهم: أنت ظالم. فقد تُودِّع منهم»[2].

وفي الحديث الآخر: «لا تقولوا للمنافق: سيِّد! فإنه إن يك سيدًا، فقد أسخطتم ربكم ﷻ»[3].

وخصوصًا مدح الزعماء والحكام المفسدين، بأن يصفهم بما ليس فيهم، ويُلبِسهم من الأخلاق والأوصاف ما لم يُعرفوا به، فهذا من أخطر أنواع المدح

(١) ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين (٣/ ١٦٠).

(٢) رواه أحمد (٦٧٨٤) وقال مخرجوه: إسناده ضعيف لانقطاعه. والحاكم في الأحكام (٤/ ٩٦) وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، والبزار (٢٣٧٥)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢١١٠): رواه أحمد والبزار بإسنادين، ورجال أحد إسنادي البزار رجال الصحيح، وكذلك رجال أحمد.

(٣) رواه أحمد (٢٢٩٣٩) وقال مخرجوه: رجاله ثقات رجال الشيخين. وأبو داود في الأدب (٤٩٧٧)، عن بريدة الأسلمي.

الكاذب، وهو ما حذَّر منه الرسول الكريم، الذي قال لكعب بن عجرة: «أجارك الله يا كعب بن عجرة من إمارة السفهاء». قال: وما إمارة السفهاء؟ قال: «أمراء يكونون بعدي، لا يهدون بهديي، ولا يستنُّون بسُنَّتي، فمن صدَّقهم بكذبهم، وأعانهم على ظلمهم، فأولئك ليسوا مني، ولست منهم، ولا يَرِدُون عليَّ حوضي»[1].

أن يمدحه بصيغة غير مبالغ فيها:

٢- أن يكون واقعيًا فيما يمدح به الناس، فلا يطلق الألفاظ كالصواريخ، بل يقولها بصيغة تنبئ بالصدق والواقعية، لا بالسرف والمبالغة. ولذلك أنكر الرسول على من رآه يمدح أصحابه بلا تحفُّظ، وقال له: «ويلَك، قطعتَ عنقَ صاحبِك، قطعت عنق صاحبك». مرارًا، ثم قال: «من كان منكم مادحًا أخاه لا محالة، فليقل: أحسب فلانًا والله حسيبه، ولا أزكي على الله أحدا، أحسبه كذا وكذا. إن كان يعلم ذلك منه»[2].

ألا يكثر من المدح:

٣- ألا يكثر من المدح، ولا يجعله أكبر همِّه، بحيث يعرف عند الناس بأنَّه: مدَّاح، فكثرة المدح من بعض الناس تجعله مظِنَّة النقد، وموضع القيل والقال. وخصوصًا مدح الحكام، ولا سيما من عرفوا بالبطش بالناس.

---

(١) رواه أحمد (١٤٤٤١) وقال مخرجوه: إسناده قوي على شرط مسلم. والترمذي في السفر (٦١٤) وقال: حسن غريب. وابن حبان في الصلاة (١٧٢٣)، والحاكم في الفتن والملاحم (٤/ ٤٢٢)، وصحح إسناده ووافقه الذهبي، عن جابر.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الشهادات (٢٦٦٢)، ومسلم في الزهد والرقاق (٣٠٠٠)، عن أبي بكرة.

وقد عُرف الشعراء قديمًا والإعلاميون حديثًا، بالإكثار من الثناء على الحكام، وهو مكان تنزلق فيه الأقدام، ويسقط فيه الرجال، فليحذر المؤمن على نفسه. ولذلك قال الرسول الكريم: «احثُوا في وجوه المدَّاحين التراب»[(١)].

وكلمة «مدّاح» صيغة مبالغة تعني الكثير المدح، أو الذي اتَّخَذ المدح حرفة، أو الذي يتوسَّع فيه ولا يتورَّع. وبعضهم هؤلاء يخرج بمدحه عن حدود الدين، وحدود الحق، وحدود الواقع، كما قال أحدهم[(٢)] في المعز لدين الله الفاطمي:

ما شئتَ لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار!

موقف الممدوح:

والواجب على مَن مدحه الناسُ، ولو بالحق: ألا يغترَّ بذلك، بل ينبغي أن يعلم أنّ الأمر كله لله، فهو الذي يقضي للإنسان أو عليه، وكم من أناس يمدحون شخصًا لظاهره الطيب، وباطنه مملوء خُبثًا، والعبرة ليست بالظواهر، بل بالبواطن، كما قال رسول الله ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت، صلح الجسد كله، وإذا فسدت، فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[(٣)]. وقال: «إن الله ﷻ لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[(٤)].

مدح كثير من الصحابة النبي ﷺ في وجهه، وهو أهلٌ لكل مدح، ولكنه قال: «لا تُطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، ولكن قولوا: عبد الله ورسوله»[(٥)].

---

(١) رواه مسلم في الزهد والرقائق (٣٠٠٢)، وأحمد (٢٣٨٢٤)، عن المقداد.

(٢) من شعر ابن هانئ الأندلسي.

(٣) متفق عليه: البخاري في الإيمان (٥٢)، ومسلم في المساقاة (١٥٩٩)، عن النعمان بن بشير.

(٤) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٤)، وابن ماجه الزهد (٤١٤٣)، عن أبي هريرة.

(٥) رواه البخاري في كتاب الأنبياء (٣٤٤٥)، وأحمد (١٥٤)، عن عمر.

ولذلك قال البُوصيري في بردته:

دع ما ادعته النصارى في نبيهمو   واحكم بما شئت مدحًا فيه واحتكم

وانسب إلى ذاته ما شئتَ من شرف   وانسب إلى قدره ما شئت من عِظَمِ

ولما قال بعض الصحابة فيه: يا رسول الله، أنت سيدنا. قال: «السيد الله». قالوا: وأفضلنا فضلًا، وأعظمنا طَوْلًا. فقال: «قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يَسْتَجْرِيَنَّكُم الشيطان»(١).

وقال له بعض الناس: ما شاء الله وشئت. فقال: «أجعلتني لله ندًّا؟! قل: ما شاء الله وحده»(٢).

فهو لا يريد من الصحابة أن يتعودوا هذه الكلمات، التي قد يُكبِّرها بعض الناس، ويتجاوزون ما يراد بها، فيخرجون ذات الرسول من البشرية إلى الألوهية، وهو ما يرفضه دين التوحيد.

وكان الصحابة يتمادحون فيما بينهم، ولكنهم كانوا يحذرون من ذلك، كما قال بعضهم حين مُدِح: اللهم لا تؤاخذني بما يقولون، واجعلني خيرًا ممَّا يظنُّون، واغفر لي ما لا يعلمون(٣).

وقال ابن عطاء الله السكندري في حِكَمه: «الناس يمدحونك لما يظنونه فيك، فكن أنت ذامًّا لنفسك لما تعلمه منها. أجهل الناس من يترك يقين ما عنده لظنٍّ ما

(١) رواه أحمد (١٣٥٩٦)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، وصححه الألباني في الصحيحة (١٠٩٧)، عن أنس.

(٢) رواه أحمد (١٨٣٩) وقال مخرجوه: صحيح لغيره، وابن ماجه في الكفارات (٢١١٧)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٨٣)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٣٩)، عن ابن عباس.

(٣) رواه ابن أبي شيبة في زهد الصحابة (٣٦٨٥٣)، والبخاري في الأدب المفرد باب ما يقول الرجل إذا زكي (٧٦١)، وصحح إسناده الألباني في الأدب المفرد (٥٨٩)، عن عدي بن أرطاة.

عند الناس»[1].

موقف المسلم الحق من المدح:

وينبغي أن يكون المسلم قوَّالًا بالحق، مقاومًا للباطل، لا يمدح الناسَ لِما يُسْدون إليه من مال، أو يتملَّقُهم ليقلِّدوه منصبًا، أو لينالَ منهم منفعة، فكم من الناس يُنشِئُون القصائد، ويصنعون الخُطب، ويكيلون المدائح، لأفراد لا ينتفع المجتمع منهم بإيمان صادق، ولا بعلم نافع، ولا بعمل صالح، ولا بدعوة هادية، ولا بإصلاحٍ لفاسد، أو تقويمٍ لمُعْوَج.

وآخرون يُرحِّبون بمَن يمدحهم ويثني عليهم، ويذكر لهم من المفاخر والمآثر والمناقب ما لا يعلمه أحد غيره، وغير أمثاله من الكَذَبَة المنافقين، الذين ملؤوا آفاق الدنيا بالكذب.

بل المؤمن الحق، ينبغي أن يكون على حذَرٍ وتخَوف مِن مدح الناس له.

وقد حذَّر النبيُّ ﷺ مِن المدَّاحين، الذين كل همِّهم أن يملؤوا الدنيا بالثناء الهائل، والمدائح الكبرى لفلان باشا، أو فلان بيه، أو غير ذلك من الناس المتفخين بالباطل، المستكبرين في الأرض بغير الحق.

قال ﷺ: «إذا رأيتم المدَّاحين فاحثوا في وجوههم التراب»[2].

ومن أخطر الناس على المجتمع: هؤلاء الناس الذين يُروجون للشخصيات المصنوعة، التي تظهر في المجتمع، وتبرز في شاشاته، بغير كفاية علمية، ولا كفاية عملية، ولا كفاية أخلاقيَّة، ولا كفاية دينيَّة، ولا كفاية اقتصاديَّة أو سياسيَّة. ولكن هكذا تصنع الأصنام!

---

(١) حكم ابن عطاء (١٤٢، ١٤٤).

(٢) رواه مسلم في الزهد (٣٠٠٢)، وأحمد (٢٣٨٢٣)، وأبو داود في الأدب (٤٨٠٤).

كصانعٍ صنمًا يومًا ليعبده   وبعد ذلك يرجوه ويخشاه![1]

ومن أراذل الخصال: مدح الآخرين بغير الحق، حتى مدح الإنسان بالحق في وجهه، فإن على المادح أن يخشى الله في كل كلمة يقولها، خوفًا ممَّا يترتَّب عليها. وقد قال النبيُّ ﷺ، لمَن مدح رجلًا في وجهه: «ويلك قطعت عنق صاحبك، قطعت عنق صاحبك» مرارًا، ثم قال: «من كان منكم مادحًا أخاه لا محالة، فليقل: أحسب فلانًا، والله حسيبه، ولا أزكِّي على الله أحدًا إن كان يعلم ذلك منه»[2].

وعن أبي موسى ﷺ قال: سمع النبيُّ ﷺ رجلًا يُثني على رجلٍ ويُطريه في المِدْحَةِ، فقال: «أهلكتم أو قطعتم ظهر الرجل»[3]. وهذا محمول على المدح الذي فيه مبالغة وتجاوز للحد.

وليس معنى هذا: أن نُغلق أفواهنا، ونغمط الناسَ حقَّهم، ولا نعترف بالإحسان لمن أحسن، ولا نمدح من استحق المدح، بل نمدح مَن استحق شيئًا مِن ذلك، بشرط أن نُمَحِّص ذلك ونُحقِّقه، ولا نُطلقه بغير حُجَّة ولا بيِّنة، وأن يكون ذلك عن يقين، وأن يصدر بميزان عادل، لا يعرف غير الحق.

قال الحافظ ابن حجر: «والضابط ألَّا يكون في المدح مجازفة، ويُؤمَن على الممدوح الإعجاب والفتنة»[4].

وقد مدح النبي ﷺ كثيرًا مِن الصحابة مثل: أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وأبي عبيدة، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وبقية العشرة المبشرين

---

(١) من شعر محمد توفيق بن علي بن محمد البكري الصِّدِّيقي.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الشهادات (٢٦٦٢)، ومسلم في الزهد والرقاق (٣٠٠٠)، عن أبي بكرة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الشهادات (٢٦٦٣)، ومسلم في الزهد والرقائق (٣٠٠١).

(٤) فتح الباري (١٠/ ٤٧٨، ٤٧٩).

بالجنة، وزيد بن حارثة، وعبد الله بن رواحة، وأبي بن كعب، ومدَحَ الحسَنَ والحسين، ومدح سعد بن معاذ، وسعد بن الربيع، ومعاذ بن جبل، وأنس بن مالك، وخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وكثيرًا من المهاجرين والأنصار، وكثيرًا من الصحابة، ومدَحَ أمهاتِ المؤمنين مثل: خديجة وعائشة وأم سلمة وزينب بنت جحش، وغيرهن.

كما ذمَّ كثيرًا مِن المشركين والمنافقين، أمثال: أبي لهب، وأبي جهل، والوليد ابن المغيرة، وأمية بن خلف، وغيرهم؛ تحذيرًا منهم، ونهيًا للناس أن يسلكوا مسلكهم.

مدح الله لبعض عباده:

وقد مدح الله تعالى في خاتم كتبه (القرآن) كثيرًا من عباده، من الأنبياء والمرسلين، وأولي العزم من الرسل، مدحهم على صبرهم على أداء رسالتهم، وعلى ما جرَّتهم عليهم من بأساء وضراء وزلزلة، حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه: متى نصر الله؟ ألا إنّ نصْر الله قريب.

ومدح المرسلين على ما ابتُلوا به في أنفسهم وأهليهم، قال تعالى في أيوب: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء:٨٣، ٨٤]. وقال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص:٤٤].

وذكر القرآن كثيرًا من الصالحين والصالحات، والمؤمنين والمؤمنات، مثل أهل الكهف، وصاحب موسى في سورة الكهف، ومؤمن سورة يس، ومؤمن آل فرعون، وامرأة فرعون، وأم موسى، وأمهات المؤمنين، وغيرهم وغيرهن.

ومدح القرآن صحابة رسول الله من المهاجرين والأنصار، فما ازدادوا إلا

اطمئنانًا وثقة بفضل الله تعالى ورحمته، ولم يُغيِّرْهم ذلك، أو يعُقهم عن الاستمرار في طريق العمل والدعوة والجهاد في سبيل الله.

وكذلك وجدنا الصحابة ﷺ أثنى بعضهم على بعض بالحق، وردَّ بعضهم على بعض، ويجب أن نأخذ منهم أحسن ما عملوا، ونتجنب عنهم أسوأ ما عملوا، على أنَّ معظم عملهم هو نصرة الحق، ونشر الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٣٣﴾ [فصلت:٣٣].

مدح الإنسان نفسه وقومه (الفخر):

وممَّا يدخل في المدح من أبواب الشعر: شعر «الفخر»، وهو باب واسع من أبواب الشعر العربي، تناوله العرب، وتنافسوا فيه، وأجاد فيه بعضهم، حين مدح قومه وجلَّى فضائلهم على غيرهم، دون أن يُقْذِع في ذَمِّ الآخرين.

ومن الشعراء من يمدح نفسه أو يفتخر بما قد يُقْبَل بعضه، ولا يُقْبَل كله، كما قال المتنبي:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي ... وأسمعت كلماتي من به صَمَمُ

أنام ملءَ جفوني عن شواردها ... ويسهر الخلق جرَّاها ويختصم

وقال- وهو البيت الذي قتل بسببه-:

الخيل واللَّيل والبيداء تعرفني ... والسيف والرمح والقِرطاس والقلمُ

وقال الإمام الشافعي من الفخر المحمود:

أنا إن عشتُ لستُ أعدَم قوتًا ... وإذا مِتُّ لستُ أعدم قبرًا

هِمَّتي همَّة الملوك، ونفسي ... نفس حُرٍّ ترى المذلَّة كفرًا

وإذا ما قنعت بالقوت عُمْري ... فلماذا أخاف زيدًا وعمْرًا؟

وقال طَرَفة بن العبد في معلَّقته:

إذا القوم قالوا: من فتًى؟ خِلْتُ أنني ... عنيت فلم أكسل ولم أتبلَّدِ

ومن الفخر المحمود ما جاء عن البارودي:

سواي بتَحنانِ الأغاريد يطربُ ... وغيري باللذاتِ يلهو ويلعبُ
وما أنا ممن تأسر الخمرُ لُبَّه ... ويملك سمعَيْه اليَراعُ المثقَّبُ
ولكنْ أخو هَمٍّ إذا ما ترجَّحت ... به سَوْرةٌ نحو العُلا راح يدأَبُ
إذا أنا لم أُعطِ المكارمَ حقَّها ... فلا عزَّني خالٌ ولا ضمَّني أبُ
ومن تكنِ العلياءُ همةَ نفسِه ... فكل الذي يلقاه فيها محبَّبُ

وقال ابن سناء المُلْك في اعتزاز بالغ:

سوايَ يهاب الموتَ أو يرهبُ الرَّدَى ... وغيري يَهوى أن يعيش مخلَّدَا
ولكنني لا أرهبُ الدهر إن سطا ... ولا أحذر الموت الزُّؤَام إذا عَدَا
وإنَّك عبدي يا زمانُ وإنني ... على الرغم مني أن أُرى لك سيِّدَا

ولكن من الفخر ما يعاب، حين يدخل في مغالبة الآخرين بالباطل، وادعاء مكارم لا حقيقة لها، والتطاول على سائر الناس.

حق كل قبيلة أن تدعي أنها تُقرِي الضيفَ، وتحمل الكَلَّ، وتُعين البائس، وتُغيث الملهوف، وتأخذ بيد المظلوم. وأن يقول قائلهم(١):

ونحن أناسٌ لا توسطَ عندنا ... لنا الصدرُ دون العالمين أو القبر!
تَهونُ علينا في المعالي نفوسُنا ... ومن خطب الحسناء لم يغله المهرُ!

ولكن لا يجوز له في سبيل أن يُعلِي من شأن قبيلته: أن يحطَّ من شأن الآخرين، كما فعل عمرو بن كلثوم في معلقته حين قال:

---

(١) من شعر أبي فراس الحمداني.

لنا الدنيا ومن أمسى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا
بغاةٌ ظالمين وما ظلمنا ولكنَّا سنبدأ ظالمينا
إذا بلغ الفطامَ لنا رضيع تخرُّ له الجبابرُ ساجدينا

فهذا فخر فيه استعلاء على الناس، وبغي عليهم، مبالغة في تعظيم قومه، حتى إن الجبابرة تخر ساجدين لأطفالهم الرضع.

وقال في القصيدة نفسها:

ونشربُ إن وردنا الماء صفوًا ويشربُ غيرُنا كدرًا وطينًا

والفخر بهذه الروح فخر إبليس، الذي فخر على آدم بأنه خير منه، وهو كاذب.

واللهُ قد ذمَّ الشعراء في القرآن بأنهم يقولون ما لا يفعلون، وأنهم في كل واد يهيمون، وبيَّن سبحانه أنه لا يقبل إلا أهل الإيمان والعمل الصالح، الذاكرين الله كثيرًا، لا الأقوام والأجناس والفصائل، والذين ينتصرون بالحق لمن يُظْلَمُ من قومهم، قال تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٢٤- ٢٢٧].

فإذا كان بعض الناس يقولون قديمًا: أعذب الشعر أكذبه!

فإنا نقول كما قال الشاعر الجاهلي:

وإن أحسن بيت أنت قائله بيت يقال إذا ما قلته: صَدَقَا[(١)]

(١) من شعر زهير، انظر: العقد الفريد (٦/ ١٧٤).

أفاضل الخلفاء والأمراء العرب من الأمويين والعباسيين يحبون المديح المعتدل:

وقد حكت لنا كتب الأدب والشعر مواقف كثير من فضلاء الخلفاء والأمراء من الأمويين والعباسيين وغيرهم، الذين رفضوا مبالغات الشعراء في إطرائهم ومدحهم، وأحبوا المدح بالإيجابيات والخصال الأصيلة والوقائع العملية.

فهذا الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، لا يستريح لمدح ابن قيس الرُّقَيَّات بقوله:

يتألق التاج فوق مفرقه ... على جبين كأنه الذهبُ

وقال له: يا ابن قيس، تمدحني بالتاج، كأني من العجم، وتقول في مصعب ابن الزبير:

إنما مصعبٌ شهابٌ من الله ... تجلّت عن نوره الظلماء!

ملكـهُ مـلكُ قوةٍ ليس فيـه ... جبروتٌ منه ولا كبرياءُ![1]

الخليفة لم يعجبه وصف الشاعر له؛ فقد عدل في وصفه عن الفضائل النفسية، التي هي العقل والعفة والعدل والشجاعة، وما جانس ذلك، إلى وصفه بما لا يليق به من أوصاف الجسم في البهاء والزينة، وهو أشبه بتغزل العاشق في معشوقته.

ومدح الخليفةَ المأمون بن هارون الرشيد: عبدُ الله بن أبي السمط، فقال فيما قال فيه:

أضحى خليفتنا المأمون مشتغلًا ... بالدين والناس بالدنيا مشاغيل

فلم يعجبه ذلك، وخرج الشاعر فلقيه عمارة بن عقيل فقال له: ما زدته على أن

(١) انظر: الفرج بعد الشدة للتنوخي (٤/ ٢٨٤)، نشر دار صادر- بيروت، عام النشر: ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م.

جعلته عجوزًا في محرابها في يدها سبحة، فمن يقوم بأمر الدنيا إذا كان مشغولًا عنها، وهو المطوَّق بها؟ ألا قلت كما قال جرير لعبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك:

فلا هو في الدنيا مُضِيعٌ نصيبَهُ ... ولا عَرَضُ الدنيا عن الدينِ شاغله![1]

وقال شراحيل بن معن بن زائدة:

حج هارون الرشيد، وأبو يوسف القاضي، وكنتُ كثيرًا ما أُسايره، إذ عَرض له أعرابيٌّ من بني أَسَدٍ، فأنشده شِعْرًا مدحه فيه وأَفْرط، فقال له هارون: ألم أَنْهكَ عن مثل هذا في مَدْحك يا أخا بني أسد؟ إذا قلتَ فينا، فقل كقول القائل في أبي هذا:

بنو مَطَرٍ يـوم اللقـاء كـأنـهـمه ... أسودٌ لها في غِيل خَفَّان أشْبُلُ
همو يمنعون الجار حتّى كأنّما ... لِجارهمو بين السِّمَاكَيْن منزلُ
بَهاليلُ في الإسلام سادُوا ولم يكُن ... كـأَولِهم فـي الجـاهليّـة أولُ
وما يستطيع الفاعلون فعالَهم ... وإن أحسنوا في النائبات وأجْمَلوا
همُ القوم إن قالوا أصابوا، وإن دُعُوا ... أجابوا، وإن أَعْطَوا أطابوا وأجْزَلوا[2]

٤- الهجاء بغير حق:

ويقابل المدح: الذم، أو الهجاء، الذي عُرف في الشعر العربي، فهناك شعراء عُرفوا بالمدح للملوك والأمراء، وآخرون في مقابلهم عرفوا بالهجاء، خصوصًا هجاء بعضهم لبعض، وهذا الهجاء يتناول السيرة الشخصية، ويتناول الأسرة والقبيلة، كما في نقائض جرير والفرزدق.

ومما قاله جرير في الهجاء:

---

(١) العقد الفريد (٦/ ٢١٤)، والصناعتين: الكتابة والشعر ص١١٩، نشر المكتبة العنصرية – بيروت، عام النشر: ١٤١٩هـ.

(٢) العقد الفريد (١/ ٢٥٩، ٢٦٠).

فغُضَّ الطرف إنك من نمير فلا كعبًا بلغت ولا كلابًا

وقال حسان في هجاء قبيلة:

لا بأس بالقوم من طول ومن قصر جسم البغال وأحلام العصافير[(١)]

وقال آخر في هجاء قبيلة أخرى:

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهمُو قالوا لأمِّهمُو: بولي على النار![(٢)]

يقال: إنه أهجى بيت قالته العرب؛ لأنه قد جمع فيه ضروبًا من الهجاء: فنسبهم إلى البخل بوقود النار، لئلا يهتدي بها الضِّيفان، ثم البخل بإيقادها إلى السائرين والسابلة، ورماهم بالبخل بالحطب، وأخبر عن قلتها، وأن بولة تطفئها، وجعلها بولة عجوز، وهي أقل من بولة الشابة، ووصفهم بامتهان أمهم وابتذالها في مثل هذه الحال، يدل بذلك على العقوق والاستخفاف، وعلى أن لا خادم لهم، وأخبر في أضعاف ذلك ببخلهم بالماء[(٣)].

ولا شك أنّ هذا النوع من الهجاء اللاذع الذي يشمل بالذم كل القبيلة، ليس مقبولًا شرعًا. فالفرد لا يسأل عن كل ما في القبيلة، ولا يحاسب عليها، ولا يحاسب إلا على ما يخصّه منها. وكل فرد في القبيلة أو في الجماعة مسؤول عن نفسه. و﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝﴾ [المدثر:٣٨]، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام:١٦٤، الإسراء:١٥، فاطر:١٨، الزمر:٧]. فالمسؤوليَّة في أساسها فرديَّة، وهي تقوم على أساس الإرادة الإنسانية الفردية الحرة، وكلٌّ يختار العمل الذي يُسأل عنه.

---

(١) في ديوان شعر حسان بن ثابت.

(٢) من شعر الأخطل في هجاء بني يربوع قوم جرير.

(٣) العمدة في محاسن الشعر وآدابه لابن رشيق القيرواني (٢/ ١٧٥)، ت: المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط: الخامسة، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م.

٥- السخرية والاستهزاء:

من آفات اللسان أيضًا: السخرية بالناس والاستهزاء بهم، وقد ذكرها القرآن في سورة الحُجُرات، التي عَلَّم فيها القرآن المسلمين كيف يتأدَّب بعضهم مع بعض، وكيف يرعى كل منهم حرمة أخيه، ويحفظ له حق أخوته، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠﴾ [الحجرات:١٠]، وذكر بعدها الآيات التي تحرم كل ما ينال من قدسيَّة هذه الأخوة، ويضعف من شأنها، ويخفِّف من حرمتها.

وأول هذه الأشياء: **السخرية من الناس**. فلا يحل لمؤمن يخشى الله، ويرجو الدار الآخرة أن يسخر من أحد من الناس، أو يجعل من بعض الأشخاص موضع هزئه وسخريته، وتندره ونكاته، ففي هذا كِبر خفي، وغرور مُقَنَّع، واحتقار للآخرين، وجهل بموازين الخيرية عند الله. ولذا قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات:١١].

إنَّ الخيريَّة عند الله تقوم على الإيمان والإخلاص، وحُسن الصلة بالله تعالى، لا على الصور والأجسام، ولا على الجاه والمال. وفي الحديث: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[(١)].

فهل يجوز أن يسخر إنسان من إنسان، رجل أو امرأة، لعاهة في بدنه، أو آفة في خِلْقته، أو فقر في ماله؟

وقد ثبت أن عبد الله بن مسعود انكشفت ساقه، وكانت دقيقة هزيلة، فضحك منها بعض الحاضرين، فقال النبي ﷺ: «أتضحكون من دقَّة ساقيه، والذي نفسي

(١) سبق تخريجه.

بيده، لهما أثقل في الميزان من جبل أُحُد»[1].

وقد حكى القرآن عن مجرمي المشركين كيف كانوا يسخرون بالمؤمنين الأخيار، ولا سيما المستضعفين منهم، كبِلالٍ وعمار، وكيف ستنقلب الموازين يوم الحساب، فيصبح الساخرون موضع السخرية والاستهزاء، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ۝٣١ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ۝٣٢ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ۝٣٣ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ۝٣٤﴾ [المطففين:٢٩- ٣٤].

وقد نصَّت الآية بصريح العبارة على النهي عن سخرية النساء، مع أنها تُفهم ضمنًا، وتدخل تبعًا، وذلك لأن سخرية النساء بعضهن من بعض، من الأخلاق الشائعة بينهن.

٦- اللمز والتنابز بالألقاب:

ومن هذه المُحرَّمات التي تضعف الأخوة وتنال منها والتي ذُكرت في سورة الحجرات: اللَّمز.

واللمز معناه في اللغة: الوخْز والطعن، ومعناه هنا الطعن في الناس والعيب فيهم، إما أمامهم أو من وراء ظهورهم، إما بالكلام، وإما بالإشارة.

فكأن من يعيب الناس، إنما يوجِّه إليهم وخزة بسيف أو طعنة برمح. وهذا حق، بل ربما كانت وخزة اللسان أشد وأنكى، وقد قيل:

جراحات السنان لها التئام ... ولا يَلْتَامُ ما جرح اللسانُ[2]

---

(١) رواه أحمد (٣٩٩١)، وقال مخرجوه: صحيح لغيره. والطبراني (٨٤٥٢)، والبزار (٣٣٠٥)، وابن حبان في مناقب الصحابة (٧٠٦٩)، وقال الأرناؤوط: إسناده حسن، وحسَّنه الألباني في غاية المرام (٤١٦)، عن ابن مسعود.

(٢) ينسب إلى علي بن أبي طالب.

ولصيغة النهي في الآية إيحاء جميل، فهي تقول: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات:١١]. والمراد: لا يلمز بعضكم بعضًا، ولكن القرآن يعبِّر عن جماعة المؤمنين كأنهم نفس واحدة؛ لأنهم جميعًا متعاونون متكافلون، فمن لمز أخاه فإنما يلمز نفسه في الحقيقة، لأنه منه وبه.

ومن اللمز المحرَّم: التنابز بالألقاب، وهو التنادي بما يسوء منها ويكره، ممَّا يحمل سخرية ولمزًا، ولا ينبغي لإنسان أن يسوء أخاه، فيناديه بلقب يكرهه ويتأذى منه، فهذا مدعاة لتغير النفوس، وعدوان على الأخوة، ومنافاة للأدب والذوق الرفيع. قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ [الحجرات:١١] أي: لا تتنابزوا بألقاب السوء، التي يكره الإنسان أن يُنادى بها، لا تقل لرجل: يا أعور، إذا كان يكره أن يقال له ذلك، أو يا أعرج، إذا كان يكره أن يقال له ذلك، وناده بأحب الأسماء إليه.

وقد كان النبي ﷺ ينادي أصحابه بأحب الأسماء إليهم، بل كان يُغيِّر الأسماء الرديئة إلى أسماء حسنة وطيبة؛ ففي صحيح مسلم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ غيّر اسم عاصية، وقال: «أنت جميلة»[(١)]. وقال لرجل ما اسمك؟ قال: حَزَن، فقال: «أنت سهل»[(٢)]. وحزن أي: صعب، والعرب كانوا يحبون الخشونة في الأسماء لأولادهم، لكن الإسلام لا يستحب ذلك.

وقد اعتاد العرب أن ينادي بعضهم بعضًا بكنيته، مثل: يا أبا حفص، أو يا أبا الحسن، أو يا أبا ذر.

وقال عمر ﷺ: ثلاث يُصفِّين لك ودُّ أخيك: أن تسلم عليه إذا لقيته، وتوسع

(١) رواه مسلم في الآداب (٢١٣٩)، وأحمد (٤٦٨٢)، وأبو داود في الأدب (٤٩٥٢).

(٢) رواه البخاري في الأدب (٦١٩٠)، والبيهقي في الكبرى (٩/ ٥١٦)، عن سعيد بن المسيب عن أبيه عن جده.

له في المجلس، وتدعوه بأحب أسمائه إليه[(١)].

٨- الغيبة:

ومما نهت عنه سورة الحجرات الغيبة، قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات:١٢].

إن القرآن يصور المغتاب بصورة منفرة، تتقزز منها النفوس، وتنبو عنها الأذواق فالإنسان يأنف أن يأكل لحم أي إنسان، فكيف إذا كان لحم أخيه؟! وكيف إذا كان ميتًا؟!

وقد ظل النبي ﷺ يؤكِّد هذا التصوير القرآني في الأذهان، ويُثَبِّته في القلوب، كلما لاحت فرصة لهذا التأكيد والتثبيت.

قال ابن مسعود: كنا عند النبي ﷺ فقام رجل، فوقع فيه رجل مِنْ بعده، فقال النبي لهذا الرجل: «تخلَّل» فقال: مِمَّ أتخلل؟ ما أكلت لحمًا! قال: «إنك أكلتَ لحم أخيك»[(٢)].

وعن جابر قال: كنا عند النبي ﷺ، فهبَّت ريح منتنة، فقال الرسول ﷺ: «أتدرون ما هذه الريح؟ هذه ريح الذين يغتابون المؤمنين»[(٣)].

وقد حدد الرسول ﷺ مفهوم الغيبة لأصحابه على طريقته في التعليم بالسؤال

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٨٣٩٨).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (١٠٠٩٢)، وقال الهيثمي في المجمع (١٣١٤٥): رجاله رجال الصحيح. وصححه الألباني في غاية المرام (٤٢٨).

(٣) رواه أحمد في مسنده (١٤٧٨٤)، وقال مخرجوه: إسناده حسن. والبخاري في الأدب المفرد في الأذكار (٧٣٢)، وقال المنذري في الترغيب (٤٢٩٩)، والهيثمي في المجمع (١٣١٢١): رواة أحمد ثقات. وحسَّنه الألباني في غاية المرام (٤٢٩).

والجواب، فقال لهم: «أتدرون ما الغيبة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «ذكرك أخاك بما يكره» قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتّه»(١). أي: ارتكبتَ بُهتانًا في حقِّه.

وما يكرهه الإنسان يتناول خَلقه وخُلقه ونسبه، وعلمه وعمله، وأهله وأقاربه، وزملاءه وأصدقاءه، وكل ما يخصُّه.

عن عائشة قالت: قلت للنبيِّ ﷺ: حسبك من صفيَّة- زوج النبي وضرتها- كذا وكذا. تعني أنها قصيرة. فقال النبي ﷺ: «لقد قلتِ كلمة لو مُزجت بماء البحر لمزجتْه»(٢).

إن الغِيبة هي شهوة الهدم للآخرين، هي شهوة النهش في أعراض الناس وكراماتهم وحرماتهم، وهم غائبون. إنها دليل على الخِسَّة والجُبْن؛ لأنها طعن من الخلف، وهي مظهر من مظاهر السلبيَّة، فإن الاغتياب- كما قال المتنبي(٣)- جهد من لا جُهد له، وهي مِعول من معاول الهدم؛ لأن هواة الغيبة، قَلَّما يسلم من ألسنتهم أحد بغير طعن ولا تجريح.

وأولى بالإنسان أن يشتغل بعيبه عن عيوب الناس، وأن يبحث عن الشيء الجميل في غيره بدل البحث عن عيوبه.

كان المسيح عليه السلام مع حوارييه، فوجدوا خنزيرا ميتًا، فنظروا فيه، فقال أحدهم:

---

(١) رواه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٩)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد (٢٥٥٦٠)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. وأبـو داود في الأدب (٤٨٧٥)، والترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع (٢٥٠٢)، وصحَّحه الألباني في غاية المرام (٤٢٧).

(٣) قال المتنبي:

وأُكبِرُ نفسي عن جزاءٍ بغيبةٍ ... وكلُّ اغتيابٍ جهدُ مَنْ لا له جهدُ

ينظر: الأمثال السائرة من شعر المتنبي ص ٣٢، نشر مكتبة النهضة- بغداد، ط الأولى، ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥م.

ما أقبح وجهه! وقال آخر: ما أنتن ريحه! وقال ثالث: ما أغلظ شعره! وقال المسيح عليه السلام: ما أحسن بياض أسنانه! إذا ذكرتم الشيء فاذكروه بأحسن ما فيه[(١)].

حدود الرخصة في الغيبة:

كل هذه النصوص تدلنا على قداسة الحرمة الشخصيَّة للفرد في الإسلام.

ولكن هناك صور استثناها علماء الإسلام من الغيبة المحرمة، وهي استثناء يجب الاقتصار فيه على قدر الضرورة.

ومن ذلك: **المظلوم الذي يشكو ظالمه**، ويتظلَّم منه فيذكره بما يسوؤه، ممَّا هو فيه حقًّا، فقد رُخِّص له في التظلم والشكوى، قال الله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾﴾ [النساء:١٤٨].

وقد يسأل سائل عن شخص معين ليشاركه في تجارة، أو يزوجه ابنته، أو يوليه من قِبَله عملًا مهمًّا، وهنا تعارض واجب النصيحة في الدين وواجب صيانة عِرض الغائب، ولكن الواجب الأول أهم وأقدس فقُدِّم على غيره.

وقد رأينا النبي ﷺ حين استشارته فاطمة بنت قيس في أمر زواجها، وقد أبدى الرغبة فيها رجلان: معاوية وأبو جهم، فقال لها: «أما معاوية فصعلوك لا مال له، وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه!»[(٢)]. يعني: أنه كثير الضرب للنساء.

ومن ذلك: **الاستفتاء والاستعانة على تغيير المنكر**، كما بيَّنت هند بنت عتبة للنبي ﷺ: أن زوجها أبا سفيان رجل شحيح، فهل يصح أن تأخذ من ماله بغير إذنه؟ فقال لها: «خذي من ماله ما يكفيك وولدك بالمعروف»[(٣)].

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في الصمت (٢٩٥)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٨٢).

(٢) رواه مسلم في الطلاق (١٤٨٠).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في النفقات (٥٣٦٤)، ومسلم في الأقضية (١٧١٤)، عن عائشة.

ومن ذلك: أن يكون للشخص اسم أو لقب، أو وصف يكرهه، ولكنه لم يشتهر إلا به، كالأعرج والأعمش وابن فلانة.

ومن ذلك: تجريح الشهود، ورواة الأحاديث والأخبار، وبهذا قام علم الجرح والتعديل، فلولا هذا لقال مَن شاء ما شاء.

الضابط العام هنا:

والضابط العام في إباحة هذه الصور أمران:

١ - الحاجة:

فما لم تكن هناك حاجة ماسَّة إلى ذكر غائب بما يكره، فليس له أن يقتحم هذا الحِمَى المحرَّم، وإذا كانت الحاجة تزول بالتلميح، فلا ينبغي أن يلجأ إلى التصريح، أو بالتعميم فلا يذهب إلى التخصيص.

فالمستفتي مثلًا إذا أمكن أن يقول: ما قولكَ في رجل يصنع كذا وكذا؟ فلا ينبغي أن يقول: ما قولك في فلان بن فلان؟ وكل هذا بشرط ألا يذكر شيئًا غير ما فيه، وإلا كان بُهتانًا حرامًا.

٢ - النية:

والنيَّة وراء هذا كله فيصل حاسم، والإنسان أدرى بحقيقة بواعثه من ذكر غيره، النية هي التي تفصل بين التظلم والتشفِّي، بين الاستفتاء والتشنيع، بين الغِيبة والنقد، بين النصيحة والتشهير. والمؤمن- كما قيل- أشدُّ حسابًا لنفسه من سلطان غاشم، ومن شريك شحيح [(١)].

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٦١/ ٣٥٣)، من قول ميمون بن مهران.

السامع شريك المغتاب:

ومن المقرَّر في الإسلام: أن السامع شريك المغتاب، وأن عليه أن ينصر أخاه في غَيْبته ويرد عنه، وفي الحديث: «من ذَبَّ عن عرض أخيه الغِيبة، كان حقًّا على الله أن يعتقه من النار»(١). و«من ردَّ عن عِرض أخيه في الدنيا ردَّ الله عن وجهه النار يوم القيامة»(٢).

فمن لم تكن له هذه الهِمَّة، ولم يستطع رد هذه الألسنة المفترسة عن عرض أخيه، فأقل ما يجب عليه أن يعتزل هذا المجلس، ويُعرض عن القوم حتى يخوضوا في حديث غيره، وإلا فما أجدره بقول الله: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء:١٤٠]!

٩- النميمة:

وإذا ذكرت الغيبة في الإسلام ذُكرت بجوارها خصلة تقترن بها، حرمها الإسلام كذلك أشد الحرمة، تلك هي النميمة.

والنميمة نقل ما يسمعه الإنسان عن شخص إلى ذلك الشخص على وجه يوقع العداوة بين الناس، ويكدر صفو العلائق بينهم، أو يزيدها كدرًا.

وقد نزل القرآن بذمِّ هذه الرذيلة منذ أوائل العهد المكي، إذ قال: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ۝﴾ [القلم:١٠، ١١].

---

(١) رواه أحمد (٢٧٦٠٩)، وقال مخرجوه: إسناده ضعيف، والطبراني (٢٤/ ١٧٦). وقال المنذري في الترغيب (٤٣١٢)، والهيثمي في المجمع (١٣١٥٠)، والبوصيري في إتحاف الخيرة (٥/ ٥٣٥٩): إسناد أحمد حسن. وصحَّحه الألباني في غاية المرام (٤٣١)، عن أسماء بنت يزيد.

(٢) رواه أحمد (٢٧٥٤٣)، وقال مخرجوه: حسن لغيره، والترمذي في البر والصلة (١٩٣١)، وحسنه الألباني في غاية المرام (٤٣٢)، عن أبي الدرداء.

وقال ﷺ: «لا يدخل الجنة قتَّات»[(١)]. والقتَّات هو النمَّام.

وقيل: النمام هو الذي يكون مع جماعة يتحدَّثون حديثًا، فينم عليهم، والقتات: هو الذي يتسمَّع عليهم، وهم لا يعلمون ثم ينُم.

وقال ﷺ: «شرار عباد الله: المشَّاؤون بالنميمة، المُفرِّقون بين الأحبة، الباغون للبرآء العنت»[(٢)].

إن الإسلام، في سبيل تصفية الخصومة وإصلاح ذات البين، يبيح للمصلح أن يخفي ما يعلم من كلام سيئ قاله أحدهما عن الآخر، ويزيد من عنده كلامًا طيبًا، لم يسمعه من أحدهما في شأن الآخر، وفي الحديث: «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس، فينمي خيرًا، أو يقول خيرًا»[(٣)].

ويغضب الإسلام أشد الغضب على أولئك الذين يسمعون كلمة السوء، فيبادرون بنقلها تزلفًا أو كيدًا، أو حبًّا في الهدم والإفساد.

ومثل هؤلاء لا يقفون عند ما سمعوا، إن شهوة الهدم عندهم تدفعهم إلى أن يزيدوا على ما سمعوا، ويختلقوا إن لم يسمعوا.

إنْ يسمعوا الخير أخفَوه، وإن سمعوا شرًّا أذاعوا، وإن لم يسمعوا كذبُوا[(٤)]

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠٥٦)، ومسلم في الإيمان (١٠٥)، عن همام بن الحارث.

(٢) رواه أحمد (١٧٩٩٨)، وقال مخرجوه: حسن بشواهده. والطبراني في الكبير (٤٢٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٢٣)، والبيهقي في الشعب (١١١٠٨) وضعفه العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (١٨١٣). وقال الهيثمي في المجمع (١٣١٣٨): رواه أحمد وفيه شهر بن حوشب، وقد وثقه غير واحد، وبقية رجال أحد أسانيده رجال الصحيح. وحسَّنه الألباني في غاية المرام (٤٣٤)، عن أسماء بنت يزيد.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الصلح (٢٦٩٢)، ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٦٠٥)، عن أم كلثوم بنت عقبة.

(٤) من شعر طريح بن إسماعيل الثقفي.

دخل رجل على عمر بن عبد العزيز، فذكر له عن آخَرَ شيئًا يكرهه. فقال عمر: إن شئتَ نظرنا في أمرك، فإن كنتَ كاذبًا فأنت من أهل هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات:٦]، وإن كنتَ صادقًا فأنت من أهل هذه الآية: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ۝﴾ [القلم:١١]، وإن شئت عفونا عنك. قال: العفو يا أمير المؤمنين، لا أعود إليه أبدًا[1].

١٠- الاستطالة على عرض المسلم:

لقد رأينا كيف صان الإسلام بتعاليمه وأحكامه الأعراض والحرمات، بل كيف وصل برعاية الحرمات للناس إلى حدِّ التقديس. وقد نظر عبد الله بن عمر ﷺ يومًا إلى الكعبة فقال: ما أعظمك وأعظم حرمتك! والمؤمن أعظم حرمة منك[2]. وحُرمة المؤمن تتمثل في حرمة عرضه ودمه وماله.

وفي حجَّة الوداع خطب النبي ﷺ في جموع المسلمين فقال: «إن أموالكم وأعراضكم ودماءكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا»[3]. وفي الحديث الصحيح: «كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه»[4].

وقد حفظ الإسلام عِرْض الفرد من الكلمة التي يكرهها، تُذكر في غيبته وهي

(١) الزواجر عن اقتراف الكبائر (٢/ ٣٩).

(٢) رواه الترمذي في البر والصلة (٢٠٣٢)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٣٢)، وابن حبان في الحظر والإباحة (٥٧٦٣)، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده قوي. وحسنه الألباني في غاية المرام (٤٣٥)، وقال في صحيح الترغيب والترهيب (٢٣٣٩): حسن صحيح.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (٦٧)، ومسلم في القسامة (١٦٧٩)، عن أبي بكرة.

(٤) رواه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٦٤)، وأحمد (٧٧٢٧)، وأبو داود في الأدب (٤٨٨٢)، عن أبي هريرة.

صدق، فكيف إذا كان الكلام افتراءً لا أصل له؟! إنها حينئذٍ تكون حُوبًا كبيرًا، وإثمًا عظيمًا.

وفي الحديث: «من ذكر امرأً بشيء ليس فيه ليعيبه به، حبسه الله في نار جهنم، حتى يأتي بنفاذ ما قال فيه»[(١)].

وعن سعيد بن زيد: أن النبي ﷺ قال: «إن من أربى الربا الاستطالة في عرض المسلم بغير حق»[(٢)]. ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ [الأحزاب:٥٨].

رمي المؤمنات العفيفات بالفاحشة:

وأشد هذا اللون من الاعتداء على الأعراض: رمي المؤمنات العفيفات بالفاحشة، لما فيه من ضرر بالغ بسمعتهن، وسمعة أسرهن، ومن خطر على مستقبلهن، فضلًا عمَّا فيه من حب إشاعة الفاحشة في المجتمع المؤمن.

ولذا عدَّه الرسول من الكبائر السبع الموبقات[(٣)]، وأوعد القرآن عليه بأشدّ أنواع الوعيد: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٨٩٣٦)، قال المنذري في الترغيب (٤٢٣٢): رواه الطبراني بإسناد جيد. وصححه السيوطي في الصغير (٨٦٧٦). وضعفه الهيثمي في المجمع (١٣١٤٧)، والألباني في غاية المرام (٤٣٧)، عن أبي الدرداء.

(٢) رواه أحمد (١٦٥١)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح، رجاله ثقات، وأبو داود في الأدب (٤٨٧٦)، والطبراني في الكبير (٣٥٧)، والحاكم في البيوع (٢٢٥٩) وصححه، ووافقه الذهبي. وحسنه السيوطي في الصغير (٣٤٧٢).

(٣) إشارة إلى الحديث المتفق عليه: "اجتنبوا السبع الموبقات . . . وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات". رواه البخاري في الوصايا (٢٧٦٦)، ومسلم في الإيمان (٨٩) من حديث أبي هريرة.

﴿يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ [النور:٢٣- ٢٥]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [النور:١٩].

وقد أوجَبَ الإسلام حدًّا شرعيًّا، هو عقوبةٌ بدنيَّة تتمثَّل في ثمانين جلدةً، يُحَدُّ بها مَن قذف المحصنات الغافلات المؤمنات، إلى جوار عقوبات تابعة أخرى، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [النور:٤، ٥].

ومعنى رَمْي المحصنات أي: قذفهنَّ بالزنى، أو بنفي الولد. وجعل القرآن بعد الجلد عقوبة اجتماعية ثانية، وهي: ردُّ الشهادة وعدم قبولها. وهي عند أبي حنيفة وأصحابه لا تسقط أبدًا ولو بالتوبة، لقول الله: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ﴾، كما جعل القرآن بعد ذلك عقوبة دينيَّة عبر عنها بقوله: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟﴾، أي: إسقاط عدالتهم الدينية ما لم يتوبوا، فتقبل توبتهم بالإجماع، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾﴾ [النور:٤].

١١- المراء والجدل:

ومن آفات اللسان التي يجب البعد عنها في أحاديثنا: المراء والجدل، وأدب المسلم في حديثه: ألَّا يجعلَ مهمَّته المراءَ مع المخالفين، والجدالَ مع الآخرين، يعيش في معاركَ متَّصلةٍ مع أهل المِلل والنِّحَل، وأهل الدعاوى والبدع، والمخالفين في السلوك، والمغايرين في الأدب، والمشاغبين في الفكر، والمخاصمين في السياسة، ومَن فتح حسابًا مع كل هذه الفئات، سينفَدُ رصيدُه، ويبقى صِفرًا، لِما يجلبه هذا الجدل الذي لا ينتهي عليه من إفلاس وإبلاس.

فعن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ضلَّ قوم بعد هدى كانوا عليه، إلا أوتوا الجدل» ثم قرأ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨﴾ [الزخرف:٥٨] (١).

وقد ذكرنا عن الإمام المنذري في كتابنا «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» جملةً من الأحاديث الصحيحة والحسنة، انتقيتها من الكتاب، ويحسُن بنا أن نذكرها هنا، وكلُّها حولَ الترهيب من المِراء والجدال، والمخاصمة والمحاججة، والقهر والغلبة، والترغيب في تركها للمُحقِّ والمُبطِل.

عن أبي أمامة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من ترك المِراء وهو مُبطل: بُني له بيتٌ في رَبَضِ الجنة، ومَن تركه وهو محق بُني له في وسطها، ومَن حسُن خلقُه بُني له في أعلاها» (٢).

رَبَضُ الجنة: هو بفتح الراء والباء الموحدة وبالضاد المعجمة، وهو ما حولها.

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: كنا جلوسًا عند باب رسول الله ﷺ نتذاكر، ينزِعُ هذا بآيةٍ، وينزع هذا بآية، فخرج علينا رسول الله ﷺ فكأنما يُفقأُ في وجهه حبُّ الرمان، فقال: «يا هؤلاء، بهذا بعثتم؟! أم بهذا أمرتم؟! لا ترجعوا بعدي كفَّارًا يضرب بعضُكم رقابَ بعض» (٣).

وعن عائشة ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن أبغض الرجالِ إلى الله الألَدُّ

---

(١) رواه أحمد (٢٢١٦٤) وقال مخرجوه: حسن بطرقه وشواهده، والترمذي في التفسير (٣٢٥٣) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه في المقدمة (٤٨)، والحاكم في التفسير (٢/ ٤٤٧)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه الطبراني في الكبير (٦/ ٣٧)، والأوسط (٨٤٧٠)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٤٠): صحيح لغيره.

الخصِم»[1].

الألدُّ بتشديد الدال المهملة: هو الشديد الخصومة، الخَصِم بكسر الصاد المهملة: هو الذي يحُجُّ مَن يخاصمه.

وعن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «المراء في القرآن كفر»[2].

١٢- السِّباب والفُحش:

من آفات اللسان: السِّباب والفحش، والفحش: القبيح من القول والفعل،

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في المظالم والغصب (٢٤٥٧)، ومسلم في العلم (٢٦٦٨)، كما رواه أحمد (٢٤٣٤٣).

(٢) رواه أحمد (٩٤٧٩) وقال مخرجوه: صحيح، وأبو داود في السنة (٤٦٠٣)، والنسائي في الكبرى في فضائل القرآن (٨٠٣٩).

وقال الخطابي في معالم السنن (٤/ ٢٩٧): اختلف الناس في تأويله فقال بعضهم: معنى المراء هنا الشك فيه كقوله: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ [هود: ١٧] أي في شك، ويقال: بل المراء هو الجدال المشكِّك فيه.

وتأوله بعضهم على المراء في قرآنه دون تأويله ومعانيه، مثل أن يقول قائل: هذا قرآن قد أنزله الله تبارك وتعالى. ويقول الآخر: لم ينزل الله هكذا. فيكفر به من أنكره، وقد أنزل سبحانه كتابه على سبعة أحرف كلها شاف كاف، فنهاهم ﷺ عن إنكار القراءة التي يسمع بعضهم بعضًا يقرؤها وتوعدهم بالكفر عليها، لينتهوا عن المراء فيه والتكذيب به، إذ كان القرآن منزلًا على سبعة أحرف، وكلها قرآن منزل يجوز قراءته ويجب علينا الإيمان به.

وقال بعضهم: إنما جاء هذا في الجدال بالقرآن في الآي التي فيها ذكر القدر والوعيد، وما كان في معناهما على مذهب أهل الكلام والجدل، وعلى معنى ما يجري من الخوض بينهم فيها، دون ما كان منها في الأحكام وأبواب التحليل والتحريم والحظر والإباحة، فإن أصحاب رسول الله ﷺ قد تنازعوها فيما بينهم، وتحاجُّوا بها عند اختلافهم في الأحكام، ولم يتحرجوا عن التناظر بها وفيها. وقد قال سبحانه: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾[النساء: ٥٩] فعلم أن النهي منصرف إلى غير هذا الوجه والله أعلم.

ويأتي بمعنى التعدي في الرد والجواب[1].

ومن شأن المسلم إذا تحدَّث: أن يبتعد كلَّ البُعد عن السَّبِّ والشتم، والفُحش في القول، فالوعاء الطيِّب لا يَخرُج منه إلا طيِّبٌ، والخبيثُ لا يأتي إلا بالخبيث، والشيء من معدِنِه لا يُستغرَب، وكل إناءٍ ينضح بما فيه.

والمسلم – بحكم تكوينه الدينيِّ والخلقيِّ والأدبيِّ – ليس سبَّابًا ولا لعَّانًا ولا فاحشًا، إنما هو مصدرٌ لكل قول حسَنٍ، ولكلِّ فعْلٍ حسَنٍ، ويصعُب عليه أن ينطق لسانُه بهذا الذي نُسمِّيه سبًّا أو لعنًا أو فُحْشا يؤذي به المؤمنين والمؤمنات، وكل ما يؤذي المؤمنين والمؤمنات فهو مبغوض مذموم عند الله.

وقد ذكر الحافظ المنذري فيما انتقيناه من كتابه في «الترغيب والترهيب» جملةً وافرةً من الأحاديث الصحيحة والحَسَنَة في باب الترهيب من السَّبِّ، والترهيب مِن قذف المحصنة والمملوك، وكذا الترهيب من سبِّ الدهر، وهذه الأحاديث بلغتْ ستة عشر حديثًا نُسجِّل بعضها هنا لِما فيها من عبرة لأهل الإيمان، وتحذير من هذا السلوك الرديء.

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «المستبَّان ما قالا، فعلى البادئ منهما، ما لم يعْتدِ المظلوم»[2].

وعن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»[3].

---

(١) ينظر: النهاية في غريب الحديث (٣/ ٤١٥)، ولسان العرب (فحش).

(٢) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٨٧)، وأحمد (٧٢٠٥)، وأبو داود في الأدب (٤٨٩٤)، والترمذي في البر والصلة (١٩٨١).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٤٨)، ومسلم (٦٤)، كلاهما في الإيمان، كما رواه أحمد (٣٦٤٧)، والترمذي في البر والصلة (١٩٨٣).

وعن عِيَاض بن حِمَار ﷺ قال: قلتُ يا نبيَّ الله، الرجلُ يشتمني وهو دوني: أعليَّ مِن بأسٍ أن أنتصر منه؟ قال: «المستبَّان شيطانان يتهاتران ويتكاذبان»[1].

وعن أبي جُرَيٍّ جابر بن سُلَيم ﷺ قال: رأيتُ رجلًا يصدر الناسُ عن رأيه، لا يقول شيئًا إلا صدروا عنه، قلتُ: مَن هذا؟ قالوا: رسول الله ﷺ، قلت: عليك السلام، يا رسول الله. مرتين. قال: «لا تقل: عليك السلام. عليك السلام تحية الميت! قل: السلامُ عليك». قال: قلتُ: أنت رسول الله؟ قال: «أنا رسول الله الذي إذا أصابَك ضرٌّ فدعوتَه كشفَه عنك، وإن أصابك عامُ سَنَةٍ[2] فدعوتَه، أنبتَها لك، وإذا كنتَ بأرضٍ قفْرٍ أو فلاةٍ، فضلَّتْ راحلتُك فدعوتَه، ردَّها عليك».

قال: قلت: اعهدْ إليَّ. قال: «لا تسبنَّ أحدًا - فما سببتُ بعدَه حُرًّا ولا عبدًا، ولا بعيرًا ولا شاةً- وإن امرؤ شتمك وعيَّرك بما يعلم فيك، فلا تُعيِّره بما تعلم فيه، فإنما وبال ذلك عليه»[3].

ولابن حبان نحوه، وقال فيه: «وإن امرؤ عيَّرك بشيءٍ يعلمه فيك، فلا تعيِّره بشيء تعلمه فيه، ودعه يكون وباله عليه، وأجره لك، ولا تسبنَّ شيئًا». قال: فما سببتُ بعد ذلك دابَّة ولا إنسانا[4].

أحاديث في النهي عن السب واللعن من «صحيح الجامع»:

ومَن يقرأ كتابَ: «صحيح الجامع الصغير وزياداته» الذي اختاره الشيخ

---

(١) رواه أحمد (١٧٤٨٣) وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، والطيالسي (١١٧٦) وابن حبان في الحظر والإباحة (٥٧٢٦).

(٢) السَّنَةُ: هي العام المقحط الذي لم تنبت فيه الأرض، سواء نزل غيث أو لم ينزل.

(٣) رواه أحمد (٢٠٦٣٥) وقال مخرجوه: حديث صحيح. وأبو داود في اللباس (٤٠٨٤)، والترمذي في الاستئذان (٢٧٢٢) وقال: حسن صحيح. وصححه الألباني في الصحيحة (١١٠٩).

(٤) رواه ابن حبان في البر والإحسان (٥٢١) وقال الأرناؤوط: حديث صحيح.

الألباني من كتاب «الجامع الصغير وزياداته» للسيوطي، يجِد ثلاثةَ عشرَ حديثًا كلُّها صحيحٌ في النَّهي عن السبِّ لكل أحد، وللصحابة، وللأموات، وللدهر، وللديك، وللريح، وللشيطان، ولتُبَّع، ولورقة بن نوفل، وللحُمَّى، وها نحن نضع هذه الأحاديث أمام عينك- أيها المسلم- حتى تكون نبراسًا لك، موقظة لقلبك:

«لا تسبَنَّ أحدًا، ولا تحقرَنَّ من المعروف شيئًا»(١).

«لا تسبوا أصحابي؛ فوالذي نفسي بيده، لو أن أحدَكم أنفَقَ مثلَ أُحدٍ ذهبًا، ما بلغ مُدَّ أحدِهم، ولا نَصِيفَه»(٢).

«لا تسبوا الأموات، فتؤذوا الأحياء»(٣).

«لا تسبوا الأموات، فإنهم قد أفضَوا إلى ما قدَّموا»(٤).

«لا تسبوا الدهر، فإنَّ الله هو الدهر»(٥).

«لا تسبوا الديك، فإنه يوقظ للصلاة»(٦).

«لا تسبوا الريح، فإذا رأيتم ما تكرهون، فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذا الريح، وخيرِ ما فيها، وخيرِ ما أُمرتْ به، ونعوذ بك مِن شرِّ هذا الريح، وشر ما

---

(١) رواه أحمد (٢٠٦٣٥) وقال مخرجوه: حديث صحيح. وأبو داود في اللباس (٤٠٨٤)، والترمذي في الاستئذان (٢٧٢٢) وقال: حسن صحيح. وصححه الألباني في الصحيحة (١١٠٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في أصحاب النبي (٣٦٧٣)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٤١)، عن أبي سعيد الخدري.

(٣) رواه أحمد (١٨٢٠٩)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، والترمذي في البر والصلة (١٩٨٢)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٣٩٧)، عن المغيرة بن شعبة.

(٤) رواه البخاري في الجنائز (١٣٩٣)، وأحمد (٢٥٤٧٠)، والنسائي في الجنائز (١٩٣٦)، عن عائشة.

(٥) رواه مسلم في الألفاظ من الأدب وغيرها (٢٢٤٦)، عن أبي هريرة.

(٦) رواه أحمد (٢١٦٧٩) وقال مخرجوه: رجاله ثقات رجال الشيخين، وأبو داود في الأدب (٥١٠١)، وابن حبان في الحظر والإباحة (٥٧٣١)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٧٩٧)، عن زيد ابن خالد الجهني.

فيها، وشر ما أُمرتْ به»[1].

«لا تسبوا الريح، فإنها من رَوح الله تعالى، تأتي بالرحمة والعذاب، ولكن سَلُوا الله مِن خيرِها، وتعوذُوا بالله مِن شرها»[2].

«لا تسبُّوا الريحَ؛ فإنَّها مِن رَوح الله، وسلوا الله خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أُرسلتْ به، وتعوذوا بالله مِن شرِّها، وشرِّ ما فيها، وشرِّ ما أُرسلتْ به»[3].

«لا تسبُّوا الشيطانَ، وتعوذوا بالله مِن شرِّه»[4].

«لا تسبوا تُبَّعًا، فإنه كان قد أَسْلَمَ»[5].

«لا تسبوا ورقة بن نوفل، فإني قد رأيت له جنةً أو جنتين»[6].

وقال لأم المسيب: «لا تَسبِّي الحُمَّى؛ فإنها تُذهب خطايا بني آدم، كما يُذهب الكير خبَثَ الحديد»[7].

---

(١) رواه الترمذي في الفتن (٢٢٥٢) وقال: حسن صحيح، وصحح الألباني في صحيح الجامع (٧٣١٥)، عن أُبي بن كعب.

(٢) رواه أحمد (٧٤١٣) وقال مخرجوه: صحيح لغيره. وأبو داود (٥٠٩٧)، وابن ماجه (٣٧٢٧)، كلاهما في الأدب، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٣١٦)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه أحمد (٢١١٣٩) وقال مخرجوه: حديث صحيح، والنسائي في الكبري في عمل اليوم والليلة (١٠٧٠٧)، والحاكم في التفسير (٢/ ٢٧٢)، وصححه على شرطهما، وقال الذهبي: على شرط البخاري، وصحح الألباني في صحيح الجامع (٧٣١٧)، عن أبي بن كعب.

(٤) رواه أبو طاهر في المخلصيات (١٥٧٢)، وأبو القاسم تمام الرازي في الفوائد (٧٧٨)، ورجح الدارقطني في العلل (١٩٣٦) الموقوف، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٣١٨)، عن أبي هريرة.

(٥) رواه أحمد (٢٢٨٨٠) وقال مخرجوه: حسن لغيره، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٣١٩)، عن سهل بن سعد.

(٦) رواه الحاكم في تواريخ المتقدمين (٢/ ٦٠٩)، وصحَّحه على شرطهما، ووافقه الذهبي، ورجح الدارقطني في العلل (٣٤٩٥)، المرسل، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٣٢٠)، عن عائشة.

(٧) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٧٥)، عن جابر بن عبد الله.

١٤- من آفات اللسان: اللعن:

ومن آفات اللسان: اللعن لمؤمن أومؤمنة معروفين، أو للمؤمنين والمؤمنات، أو لمن لا يعرف أنه يستحق اللعنة.

ومعنى اللعنة: الطرد من رحمة الله.

ومن يملك هذا إلا الله سبحانه؟! ومن يخبرنا به إلا رسول الله ﷺ في كتابه المنزَّل عليه، أو في حديثه الصحيح؟!

فإذا لم يثبت شيء من هذا، فلا يجوز للمسلم أن يلعن أحدًا، إلا الطوائف التي ثبت كفرها بيقين، مثل المشركين والوثنيين، وعبَّاد النار من المجوس، واليهود والنصارى. ولا يجوز له أن يلعن شخصًا حيًّا معينًا، لاحتمال أن يغيِّر عقيدته، أو يغيِّر سلوكه، فيتغيَّر الحكم عليه.

قال مكيُّ بن إبراهيم: كنَّا عند ابن عَون، فذكروا بلال بن أبي بُردة، فجعلوا يلعنونه ويقعون فيه، وابن عون ساكت. فقالوا: يا ابن عون، إنما نذكره لما ارتكب منك! فقال: إنما هما كلمتان تخرجان من صحيفتي يوم القيامة: لا إله إلا الله، ولعن الله فلانًا. فلأن يخرج من صحيفتي: لا إله إلا الله؛ أحب إلي من أن يخرج منها: لعن الله فلانًا[(١)].

وقد روى ثابت بن الضحاك، عن النبي ﷺ: «لعْن المؤمن كقَتْله»[(٢)].

وقد جاءت نصوص كثيرة تحذر من اللعن، وتحذر اللعَّانين واللعَّانات، إلا من لعن من يستحق اللعن من الله تعالى.

تجنُّب لعن الأشخاص وكل من لا يستحق اللعن:

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في الصمت (٧٤١).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٥٢)، ومسلم في الإيمان (١١٠).

وقد ذكر الحافظ المنذري أيضًا فيما انتقيناه من كتابه في «الترغيب والترهيب» جملةً وافرةً من الأحاديث الصحيحة والحَسَنَة في باب الترهيب من اللعن، ولا سيما لمُعَيَّنٍ، آدميًّا كان أو دابّة أو غيرهما.

وفي هذه الأحاديث زجر عن اللعن، وتربية الإنسان المسلم على نظافة اللسان، فلا ينطق إلا بالخير، وكل إناء ينضح بما فيه:

عن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينبغي لصِدِّيق أن يكون لعَّانًا»[(١)].

وعن أبي الدرداء ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يكون اللعَّانون شفعاء، ولا شهداء يوم القيامة»[(٢)].

وعن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يكون المؤمن لعَّانًا»[(٣)].

وعن سلمة بن الأكوع ﷺ قال: كُنَّا إذا رأينا الرجل يلعن أخاه، رأينا أن قد أتى بابًا من الكبائر[(٤)].

فلم يكتفوا باعتبارهم أنه اقترف محرمًا من المحرمات البيِّنة، بل دخل في الكبائر الموبقة.

وعن أبي الدرداء ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا لعن شيئًا صعدتِ اللعنة إلى السماء، فتُغلَق أبوابُ السماء دونها، ثم تهبط إلى الأرض فتُغلَق

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٩٧)، وأحمد (٨٤٤٧)، والبخاري في الأدب المفرد (٣١٧).

(٢) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٩٨)، وأحمد (٢٧٥٢٩)، وأبو داود في الأدب (٤٩٠٧).

(٣) رواه الترمذي في البر والصلة (١٩٧٧) وقال: حسن غريب. وأحمد (٣٨٣٩) وقال مخرجوه: حديث صحيح. ونصه: "ليس المؤمن بالطعان، ولا اللعان، ولا الفاحش، ولا البذيء".

وقد بوَّب على هذا الحديث الإمام ابن حبان (١/ ٤٢١) بقوله: ذكر نفي اسم الإيمان عمَّن أتى ببعض الخصال التي تنقص بإتيانه إيمانه.

(٤) رواه الطبراني في الأوسط (٦٦٧٤)، وجوَّد إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٤٢١٨)، والهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٠٠٩)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة.

أبوابها دونها، ثم تأخذ يمينًا وشمالًا، فإن لم تجد مساغًا رجعتْ إلى الذي لُعِنَ، فإن كان أهلًا، وإلَّا رجعتْ إلى قائلها»(١).

وعن سَمُرة بن جندب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تلاعنوا بلعنة الله، ولا بغضبه، ولا بالنار»(٢).

وعن ابن عباس ﷺ، أن رجلًا لَعَنَ الريح عند رسول الله ﷺ، فقال: «لا تلعن الريح فإنَّها مأمورة، مَن لعنَ شيئًا ليس له بأهل، رجعتِ اللعنة عليه»(٣).

لعن أصناف وطوائف وأشخاص في القرآن والسنة:

وقد رأينا القرآن والسنة يلعنان أصنافا وطوائف من الكفار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [البقرة: ١٥٩-١٦١].

كما لعن رسول الله أصنافًا من أهل الكفر أو الفسوق أو العصيان، مثل قوله:

---

(١) رواه أبو داود في الأدب (٤٩٠٥)، والبزار (٤٠٨٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٧٩٩)، وجود إسناده ابن حجر في فتح الباري (١٠/ ٤٦٧)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٦٧٢). ويشهد له حديث ابن مسعود عند أحمد (٣٨٧٦) قال مخرجو المسند: إسناده محتمل للتحسين. وصحَّح شاكر إسناده. وبمعناه ذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٤٢٢٠)، وقال بعده: إسناده جيد إن شاء الله تعالى.

(٢) رواه أحمد (٢٠١٧٥) وقال مخرجوه: حسن لغيره، وأبو داود في الأدب (٤٩٠٦)، والترمذي في البر والصلة (١٩٧٦) وقال: حسن صحيح. والحاكم (١/ ٤٨) وصحح إسناده، ووافقه الذهبي.

(٣) رواه أبو داود في الأدب (٤٩٠٨)، والترمذي في البر (١٩٧٨)، وقال: حديث غريب، وفي بعض النسخ: حسن غريب. وابن حبان في الحظر والإباحة (٥٧٤٥)، وصححه الألباني في الصحيحة (٥٢٨).

«لعن الله اليهود والنصارى اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[١]، ولعن آكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهديه[٢]، وقال: «لعن الله المتشبِّهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال»[٣].

قال الإمام النووي في «الأذكار»: «وأما لعن الإنسان بعينه ممَّنِ اتصفَ بشيءٍ من المعاصي؛ كيهودي، أو نصراني، أو ظالمٍ، أو زانٍ، أو مُصوِّرٍ، أو فاسقٍ، أو سارقٍ، أو آكلِ ربا. فظواهرُ الأحاديث أنه ليس بحرام، وأشارَ الغزالي إلى تحريمه، إلا في حقِّ مَن عَلِمْنَا أنهُ مات على الكفر، كأبي لهبٍ، وأبي جهلٍ، وفرعونَ، وهامانَ، وأشباههم . .»[٤].

المهم: أن تلعن من هو أهل اللعنة، ولا تلعن من لا يستحقها، فهنا الخطر الذي يجب أن يحذره كل من يخشى الله.

لعن بعض الطوائف المنحرفة لصحابة رسول الله رضوان الله عليهم:

وقد وجدنا أناسًا يستحلُّون لعن المسلمين، بل منهم من يستحلون لعن أصحاب رسول الله ﷺ، الذين أثنى عليهم الله في كتابه؛ وأثنى عليهم الرسول في سنته، أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وعائشة وأختها أسماء وحفصة بنت عمر، ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص.. وغيرهم.

بل ازداد تطرف بعض هؤلاء أكثر وأكثر فزعموا أن الصحابة ارتدوا عن

(١) متفق عليه: رواه البخاري الجنائز (١٣٣٠)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٢٩)، كما رواه أحمد (٢٤٠٦٠)، عن عائشة.

(٢) رواه مسلم (١٥٩٧)، وأحمد (٣٨٠٩)، عن ابن مسعود.

(٣) رواه البخاري في اللباس (٥٨٨٥)، عن ابن عباس.

(٤) الأذكار ص٥٦٠، ط ابن حزم.

الإسلام إلا نفرا قليلا يعدون على اليدين بل ربما اليد الواحدة.

والحق أن الصحابة هم ذلك الجيل المتميِّز الذي اختاره القدر الأعلى، ليتتلمذ في مدرسة محمد ﷺ، ويتلقَّى القرآن منه غضًّا طريًّا، وليأخذ هذا القرآن على أنه منهاج يُتَّبع، فهو يتلقَّاه للتنفيذ والاتباع، لا لمجرَّد الاستماع، وقد تحمل هذا الجيل القرآني الفريد- كما سمَّاه سيد قطب- عبء الدعوة إلى الله، وما تفرضه على أصحابها من معاناة، ومسِّ البأساء والضراء والزلزلة، وما يوجبه ذلك من تحمُّل ضريبة الجهاد بالنفس والمال، فهم أحقُّ الناس بوصف المؤمنين، الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات:١٥].

وهم الذين أثنى عليهم الله تعالى ثناء عامًّا عاطرًا في ختام سورة الفتح: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح:٢٩].

وأثنى ثناء خاصًّا على السابقين الأولين منهم من المهاجرين والأنصار فقال تعالى في سورة التوبة: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة:١٠٠].

فهذه الآية لم يُكتَفَ فيها بتسجيل مَن رضي الله عنهم من المهاجرين والأنصار وحدهم، بل ضُمَّ إليهم من اتَّبعهم بإحسان.

صحيح أن الصحابة مراتب ومستويات في بذلهم وجهادهم، ولكن الله تعالى

وسعهم جميعًا بفضله، فقال: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد:١٠]، فما أعظم هذا الوعد من ربنا: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾.

وقد حذَّرنا رسولنا الكريم من سب أصحابه، وقال: «لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أن أحدكم أنفق مثل أُحد ذهبا، ما بلغ مُد أحدهم ولا نصيفه»(١).

ومن أصول أهل السنة والجماعة: سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله ﷺ، كما وصفهم الله به في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ١٠].

وإذا كان القرآن ينهى عن سب الأصنام، خشية أن يثير ذلك المشركين، فيسبوا الله تعالى دفاعًا عن آلهتهم المدعاة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، فما بالنا بمن يسب من ﷺ ورضوا عنه، ويسب من وعدهم الله الحسنى، لما كان بينهم من خلافات وفتن؟!

وإنما ينبغي للمؤمن أن يقول كما قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله حينما سئل عن هذه الفتن وما جرى فيها من دماء، فقال: تلك دماء طهر الله منها أيدينا، فلا نلطخ بها ألسنتنا، ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [البقرة: ١٣٤].

تبرئة اللسان عن لعن من لا يستحق اللعنة:

والذي يجب أن نتشبَّث به نحن المسلمين: أن نُبرِّئ ألسنتنا مِن لعن مَن لا

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١) كلاهما في فضائل الصحابة، عن أبي سعيد الخدري.

يستحق اللعن، من إنسان أو حيوان أو جماد، فكل ذلك مذموم.

فعن عمران بن حصين قال: بينما رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، وامرأة من الأنصار على ناقة، فضجرت، فلعنتها، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: «خذوا ما عليها ودعوها، فإنها ملعونة». قال عمران: فكأني أراها الآن تمشي في الناس، ما يعرض لها أحد[(١)].

وعن أنس قال: كان رجل يسير مع رسول الله ﷺ على بعير، فلعن الرجل بعيره، فقال ﷺ: «يا عبد الله، لا تسِرْ معنا على بعير ملعون»[(٢)].

وبهذا علَّمهم رسول الله أن يكونوا في غاية اليقظة العقليَّة، فلا يصبُّون لعنة الله على كل ما لا يروقهم حاله أو تصرُّفه، وربما كان فيه معذورًا، فكل ما جلَّلوه باللعنة، ينبغي أن يبتعدوا عنه ويحذروه[(٣)].

١٥- الحذر من الكلمات التي نهى عنها الشرع:

من ذلك سبُّ الدهر، أو قول: يا خيبة الدهر! فقد قال ﷺ: «لا تسبوا الدهر

---

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٩٥)، وأحمد (١٩٨٧٠)، وأبو داود في الجهاد (٢٥٦١)، عن عمران بن حصين.

(٢) رواه أبو يعلى (٣٦٢٢)، والطبراني في الأوسط (٤٢٢٤)، وابن أبي الدنيا في الصمت (٣٨٧)، وجوَّد إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٤٢٢٢)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٠٣٦): رجاله رجال الصحيح. وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٧٩٥): حسن لغيره. عن أنس بن مالك.

(٣) قال الإمام النووي: «اعلم أن هذا الحديث قد يستشكل معناه، ولا إشكال فيه، بل المراد النهي أن تصاحبهم تلك الناقة، وليس فيه نهي عن بيعها وذبحها وركوبها في غير صحبة النبي ﷺ، بل كل ذلك وما سواه من التصرفات جائز، لا منع منه، إلا من مصاحبة النبي ﷺ بها؛ لأن هذه التصرفات كلها كانت جائزة، فمُنِع بعض منها، فبقي الباقي على ما كان، والله أعلم».

انظر: رياض الصالحين ص ٤٤٢، مؤسسة الرسالة، لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، تحقيق: شعيب الأرنؤوط.

قلت (المؤلف): وفي الحديث تربية وزجر للمسلم أن يعود لسانه السب أو اللعن لأيِّ شيء.

فإن الله هو الدهر»[1].

وفي حديث آخر: يقول الله ﷻ: «يؤذيني ابن آدم فيسُبُّ الدهر، وأنا الدهر، بيدي الأمرُ، أُقَلِّبُ الليل والنهار»[2].

وفي حديث ثالث: «لا يقولَنَّ أحُدكم: يا خيبة الدهر»[3].

قال ابن القيم: «في هذا ثلاث مفاسد عظيمة. إحداها: سَبُّه من ليس بأهلٍ أن يُسَب، فإن الدهرَ خَلْقٌ مُسخَّرٌ من خلق الله، منقادٌ لأمره، مُـذَلَّلٌ لتسـخيره، فسـابُّه أولى بالذم والسب منه.

الثانية: أن سبَّه متضمِّن للشرك، فإنه إنما سبَّه لظنِّه أنه يضرُّ وينفع، وأنه مع ذلك ظالم قد ضرَّ من لا يستحق الضرر، وأعطى من لا يستحق العطاءَ، ورفع من لا يستحقُّ الرِّفعة، وحرم من لا يستحق الحرمان.

وهو عند شاتميه من أظلم الظلمة، وأشعارُ هـؤلاء الظلمـة الخونـة في سبِّه كثيرةٌ جدًّا، وكثيرٌ من الجهال يُصرِّح بلعنه وتقبيحه.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦١٨١)، ومسلم في الألفاظ (٢٢٤٦)، عن أبي هريرة.

قال الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب (بعد الحديث ٤٢٤١): «ومعنى هذا الحديث: أن العربَ كانـتْ إذا نزلتْ بأحدهم نازلةٌ، وأصابته مصيبةٌ أو مكروهٌ: يسب الدهر، اعتقادًا منهم أن الذي أصابه فعْلُ الدهر، كما كانتِ العربُ تستمطر بالأنواء، وتقول: مُطرنا بنوء كذا، اعتقادًا أن ذلك فعـلُ الأنـواء، فكـان هـذا كـاللعن للفاعل، ولا فاعل لكل شيء إلا الله تعالى، خالق كل شيء وفاعله، فنهاهم النبي ﷺ عن ذلك».

وقال الخطابي: «معناه: أنا صاحب الدهر، ومدبِّر الأمور التي ينسبونها إلى الدهر، فمن سب الدهر مـن أجـل أنـه فاعل هذه الأمور، عاد سبه إلى ربه الذي هو فاعلها، وإنما الدهر زمان جعل ظرفـا لمواقـع الأمـور» أعـلام الحديث (٣/ ١٩٠٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٨٢٦)، ومسلم في اللفاظ (٢٢٤٦)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه مسلم في الألفاظ من الأدب وغيرها (٢٢٤٦)، وأحمد (٧٦٨٣)، وأبو داود في الأدب (٥٢٧٤).

ويدخل في هذا الترهيب ما ذكره بعض الأدباء المتأثرين بالغرب من عبارات مثل: قسوة القدر، والقدر الأعمى، ونحو ذلك.

الثالثة: أنَّ السبَّ منهم إنما يقع على من فعل هذه الأفعال، التي لو اتَّبعَ الحقُّ فيها أهواءهم لفسدتِ السماواتُ والأرض، وإذا وقعتْ أهواؤهم، حَمِدُوا الدهر، وأثْنَوا عليه.

وفي حقيقة الأمر: فربُّ الدهر تعالى هو المعطي المانِعُ، الخافِضُ الرافِعُ، المُعِزُّ المُذِلُّ، والدهر ليس له من الأمر شيء، فمسبَّتهم للدهر مسبَّة لله ﷻ، ولهذا كانت مؤذية للرب تعالى، كما في الصحيحين، من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: قال الله تعالى: «يُؤذيني ابنُ آدم: يسُبُّ الدهر، وأنا الدهر»[(١)].

فسابُّ الدهر دائر بين أمرين لا بد له من أحدهما: إما سبُّه لله، أو الشركُ به، فإنه إذا اعتقد أن الدهر فاعل مع الله فهو مشرك، وإن اعتقد أن الله وحده هو الذي فعل ذلك، وهو يسب من فعله، فقد سب الله»[(٢)].

النهي عن قول: تعس الشيطان:

ومن الألفاظ المنهي عنها قول: تعس الشيطان.

فمع ثبوت عداوة الشيطان للإنسان، وطرده من رحمة الله مذؤومًا مدحورًا، نهى النبي ﷺ عن قول: تعس الشيطان، فقال ﷺ: «لا يقولن أحدكم: تَعِسَ الشيطانُ. فإنه يتعاظم حتى يكون مثل البيت، فيقول: بقوتي صَرَعْتُه. ولكن ليقل: باسم الله. فإنه يتصاغر حتى يكون مثل الذباب»[(٣)].

وذلك لأنَّ سب الشيطان عمل سلبيٌّ فارغ، لا وزن له؛ ولهذا يُقِرُّ عينَ الشيطان.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) زاد المعاد (٢/ ٣٢٣، ٣٢٤).

(٣) رواه أحمد (٢٠٥٩١)، وقال مخرجوه: حديث صحيح، وأبو داود في الأدب (٤٩٨٢)، والحاكم في الأدب (٤/ ٢٩٢) وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٨١٩)، عن رديف النبي ﷺ.

أما ذكر اسم الله، فهو عمل إيجابي، يغيظ الشيطان، ويخنس منه ويتصاغر، حتى يكون أصغر من ذباب.

قال ابن القيم: «ومثل هذا قولُ القائل: أخزى اللهُ الشيطان، وقبَّح الله الشيطان. فإن ذلك كُلَّه يُفْرِحُه ويقول: علم ابن آدم أني قد نلته بقوتي، وذلك مما يُعِينُه على إغوائه، ولا يفيده شيئًا.

فأرشد النبي ﷺ من مَسَّه شيء من الشيطان أن يذكر الله تعالى، ويذكر اسمه، ويستعيذ بالله منه، فإن ذلك أنفعُ له، وأغيظ للشيطان.

كراهة قول الرجل: خبثت نفسي، وقول «لو» بعد فوات الأمر:

ومن ذلك: نهيُه ﷺ أن يقول الرجل: خَبُثَتْ نفسي. ولكن ليقل: لَقِسَتْ نفسي[1]، ومعناهما واحد، أي: غَثَتْ نفسي، وساء خُلُقُها، فكره لهم لفظ «الخُبث» لما فيه من القبح والشناعة، وأرشدهم إلى استعمال اللفظ الحسن، وهجران القبيح، وإبدال اللفظ المكروه بأحسن منه.

ومن ذلك: نهيه ﷺ عن قول القائل بعد فوات الأمر: لو أني فَعَلْتُ كذا، كان كذا وكذا. وهذا الحديث كما رواه مسلم عن أبي هريرة: «المؤمن القوي، خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير. احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجِز، وإن أصابك شيء، فلا تقل: لو أني فعلت كذا؛ كان كذا وكذا. ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن «لو» تفتح عمل الشيطان»[2].

فنهاه أن يستخدم لفظة «لو» المتمنية والمتحسِّرة، التي ليس وراءها شيء غير

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦١٧٩)، ومسلم في الألفاظ (٢٢٥٠)، عن عائشة.

(٢) رواه مسلم في القدر (٢٦٦٤)، وأحمد (٨٧٩١)، وابن ماجه في المقدمة (٧٩)، عن أبي هريرة.

تعب النفس، وضيق الصدر، ولذا قال الشاعر(١):

ليتَ شعري، وأين مني «ليتٌ» إنَّ «ليتًا» وإن «لوًّا» عناءُ!

ويقول شاعر آخر(٢):

وليس براجع ما فات مني بـ«لهف» ولا بـ«ليت» ولا «لو اني»!

ولهذا زجر الرسول الكريم في حديثه عن كلمة «لو» وما يجري مجراها، فإن «لو» تفتح عمل الشيطان ووسوسته المضللة عن الطريق الصحيح.

«وأرشده إلى ما هو أنفع له من هذه الكلمة، وهو أن يقول: «قدَّر الله وما شاء فعل»؛ وذلك لأن قوله: لو كنتُ فعلتُ كذا وكذا، لم يَفُتْني ما فاتني، أو لم أقع فيما وقعتُ فيه؛ كلام لا يُجْدِي عليه فائدةً البتة، فإنه غيرُ مستقبِل لما استدبر من أمره، وغيرُ مستبقٍ عَثْرَتَه بـ«لو»، وفي ضمن «لو» ادِّعاء أن الأمر لو كان كما قدَّره في نفسه، لكان غيرُ ما قضاه الله وقَدَّره وشاءه، فإن ما وقع مما يتمنَّى خلافَه إنما وقع بقضاء الله وقدره ومشيئته. فإذا قال: لو أني فعلت كذا، لكان خلافَ ما وقع، فهو مُحال، إذ خلافُ المقدَّر المَقْضِيِّ محال، فقد تضمن كلامه كذبًا وجهلًا ومحالًا، وإن سلم من التكذيب بالقدر، لم يَسْلَمْ من معارضته بقوله: لو أني فعلت كذا، لدفعتُ ما قدَّر الله عليَّ»(٣).

ويتابع الإمام ابن القيم الحديث عن المؤمن القوي، وأن ما وقع به قدر الله، فيقول: «وأما إذا وقع، فلا سبيل إلى دفعه، وإن كان له سبيل إلى دفعه أو تخفيفه بقدر آخر، فهو أولى به من قوله: لو كنتُ فعلته. بل وظيفتُه في هذه الحالة أن

---

(١) هو أبو زبيد الطائي.

(٢) هو علي الغراب الصفاقصي.

(٣) زاد المعاد (٢/ ٣٢٤، ٣٢٥).

يستقبلَ فعلَه الذي يدفع بـه، أو يخفـف أثـرَ مـا وقـع، ولا يتمنَّـى مـا لا مَطْمـع في وقوعه، فإنه عجز محضٌ، والله يلومُ على العجز، ويُحب الكَيْسَ، ويأمر به.

والكَيْسُ: هو مباشرةُ الأسباب التي ربطَ اللهُ بها مُسبَّباتِها النافعة للعبد في معاشه ومعاده، فهذه تفتح عمل الخير. وأما العجز، فإنه يفتح عملَ الشيطان، فإنه إذا عَجَزَ عما ينفعُه، وصار إلى الأمانيِّ الباطلة بقوله: لو كان كذا وكذا، ولو فعلتُ كذا، يفتح عليه عمل الشيطان، فإن بابَه العجزُ والكسلُ، ولهذا استعاذ النبيُّ ﷺ منهما، وهما مفتاح كل شرٍّ، ويصدر عنهما الهمُّ والحزن والجبن والبخل وضلع الدين وغلبة الرجال، فمصدرُها كُلها عن العجز والكسل، وعنوانها «لو» فلذلك قال النبي ﷺ: «فإن «لو» تفتح عمل الشيطان».

فالمتمني من أعجزِ الناس وأفلسهم، فإن التمني رأسُ أموال المفاليسِ، والعجزُ مفتاح كل شر»[(١)] اهـ.

وقد قال علي بن أبي طالب: إيَّاكَ والاتِّكال على المُنى، فإنها بضائع النَّوكى[(٢)]. أي الحمقى. وقد قال الشاعر[(٣)]:

ولا تكن عبد المُنى، فالمنى　　　رؤوس أموال المفاليس!

ألفاظ أخرى تكره:

وقد ذكر ابن القيم في «زاد المعاد»[(٤)] ألفاظًا أخرى مما لا ينبغي للمسلم الحديث بها منها:

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٣٢٦).

(٢) ذكره ابن عبد ربه في العقد الفريد (٣/ ١٠٢)، وابن حمدون في التذكرة (٣/ ٣٣٠).

(٣) من شعر أبو بكر الخالدي.

(٤) انظر: زاد المعاد (٢/ ٤٢٨) وما بعدها.

أن يُسَمّى شجر العنب كرمًا، نهى عن ذلك، وقال: «لا تقولوا: الكَرْم، ولكن قولوا: العنب والحبلة»[1].

وكره أن يقول الرجل: هَلَكَ الناسُ. وقال: «إذا قال ذلك، فهو أهلكهم»[2].

وفي معنى هذا: فسد الناس، وفسد الزمان ونحوه. وفي رواية: «أهلَكُهم» بضم الكاف، في هذه الرواية: أنه أشدُّهم هلاكا، لتفريطه في أمره، وإسرافه على نفسه. وفي الرواية الثانية: «أهلَكَهم» بفتح الكاف، وهذا إنكار عليه، بأنه يتهم الناس بالهلاك وضياع الدين، وهو الذي أهلك الناس بخطابه، وفساده في نفسه ومن حوله، فالأولى أن يتهم نفسه، بدل أن يتهم الناس كافة.

أما إذا قال: هلك الناس، تحزُّنًا عليهم، وأسفًا وتحَسُّرًا عليهم في أنفسهم وفي أهليهم وأموالهم وحياتهم، فلا حرج في ذلك. فهو فرد من المسلمين يسرُّه ما يسرهم، ويؤلمه ما يؤلمهم.

ومنها: أن يُقال: مُطِرْنا بِنَوءِ كذا وكذا، بل يقول: مُطِرْنا بفضل الله ورحمته[3].

ومنها: أن يحلِفَ بغير الله. صحَّ عنه ﷺ أنه قال: «من حلف بغير الله فقد أشرك»[4].

(١) رواه مسلم في الألفاظ (٢٢٤٨)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٩٥)، عن وائل بن حُجر.

(٢) رواه مسلم في البر والصلة (٢٦٢٣)، وأحمد (٧٦٨٥)، وأبو داود في الأدب (٤٩٨٣)، عن أبي هريرة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٨٤٦)، ومسلم في الإيمان (٧١)، عن زيد بن خالد الجهني.

قال الإمام الشافعي في (الأم): (من قال مُطرنا بنوء كذا وكذا على ما كان بعض أهل الشرك يعنون من إضافة المطر إلى مطر نوء كذا، فذلك كفر كما قال رسول الله ﷺ؛ لأنَّ النوء وقت، والوقت مخلوق لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئًا، ومن قال: مطرنا بنوء كذا، بمعنى مُطرنا في وقت كذا، فلا يكون كفرًا، وغيره من الكلام أحبُّ إليَّ منه) اهـ

(٤) سبق تخريجه.

ومنها: أن يقول في حَلِفِه: هو يهُودِي، أو نصراني، أو كافر، إن فعل كذا[(١)].

ومنها: أن يقول: يا كافرُ[(٢)].

ومنها: أن يقول للسلطان: ملك الملوك[(٣)]. وعلى قياسه: قاضي القضاة. وإن كان قد ينازع في هذه بين المسلمين، وكذا ما سمّوا بعض القضاة الكبار: قاضي القضاة.

ومنها: أن يقول السيد لغلامه وجاريته: عَبْدِي، وأَمَتِي، ويقول الغلام لسيده: رَبِّي. وليقل السيد: فَتَايَ وفتاتي. وليقل الغلام: سيدي وسيدتي[(٤)].

ومنها: الدعاء بدعوى الجاهلية[(٥)]، والتعزي بعزائهم[(٦)]، كالدعاء إلى القبائل والعصبيَّة لها وللأنساب، ومثله التعصب للمذاهب والطرائق والمشايخ، وتفضيلُ بعضها على بعض بالهوى والعصبية، وكونُه منتسبًا إليه، فيدعو إلى ذلك، ويُوالي عليه، ويُعادِي عليه، ويَزِنُ الناس به، كل هذا من دعوى الجاهلية.

---

(١) إشارة إلى حديث المتفق عليه: "من حلف بملة غير الإسلام كاذبًا متعمدًا، فهو كما قال، ومن قتل نفسه بحديدة عذب به في نار جهنم" رواه البخاري في الجنائز (١٣٦٣)، ومسلم في الإيمان (١١٠)، عن ثابت بن الضحاك.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦١٠٤)، ومسلم في الإيمان (٦٠)، عن ابن عمر.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٢٠٥)، ومسلم في الآداب (٢١٤٣)، عن أبي هريرة.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في العتق (٢٥٥٢)، ومسلم في الألفاظ (٢٢٤٩)، كما رواه أحمد (٩٤٥١)، عن أبي هريرة.

(٥) إشارة إلى الحديث المتفق عليه: "ليس منا من لطم الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية" رواه البخاري في الجنائز (١٢٩٤)، ومسلم في الإيمان (١٠٣)، عن ابن مسعود.

(٦) إشارة إلى حديث: "إذا سمعتم من يعتزي بعزاء الجاهلية، فأعضوه، ولا تكنوا"، رواه أحمد (٢١٢٣٣) وقال مخرجوه: حديث حسن. والبخاري في الأدب المفرد (٩٦٣)، والنسائي في السنن الكبرى في السير (٨٨١٣)، عن عُتَي بن ضمرة.

ومنها: تسمية العِشاء بالعَتَمَة[1] تسمية غالبة يُهجرُ فيها لفظُ العِشاء.

ومنها: النهيُ عن أن يتناجى اثنانِ دون الثالث[2].

وأن تخبر المرأة زوجها بمحاسن امرأةٍ أُخرَى[3].

ومنها: أن يقول في دعائه: «اللهم اغفر لي إن شِئْتَ، وارحمني إن شئت»[4].

ومنها: أن يسمِّي المدينة بيثرب[5].

تحريم تحديث الرجل بجماع أهله:

ومنها: أن يُحدِّث الرجلُ بجِمَاع أهله، وما يكون بينه وبينها، كما يفعله السُّفلَةُ. ولا يليق برجل مسلم أن يجعل الأمور الخاصة مجالًا لأحاديث العامة، والسفهاء والصبيان وأشباه الصبيان، وقد فصَّلنا القول في ذلك في أثناء حديثنا عن آداب المعاشرة الزوجية.

لفظ «زعموا» ونحوها:

وممَّا يكره من الألفاظ: زعموا، وقد قال النبي ﷺ: «بئس مطية الرجل

---

(١) رواه مسلم في المساجد (٦٤٤)، وأحمد (٤٥٧٢)، عن ابن عمر.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الاستئذان (٦٢٨٨)، ومسلم في السلام (٢١٨٣)، عن ابن عمر.

(٣) رواه البخاري في النكاح (٥٢٤٠)، عن ابن مسعود.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في الدعوات (٦٣٣٩)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٦٧٩)، عن أبي هريرة.

(٥) إشارة إلى الحديث المتفق عليه: "أُمرت بقرية تأكل القرى، يقولون يثرب، وهي المدينة" رواه البخاري في فضائل المدينة (١٨٧١)، ومسلم في الحج (١٣٨٢)، عن أبي هريرة.

قال الحافظ في الفتح (٤/ ٨٧): (أي إن بعض المنافقين يسميها يثرب، واسمها الذي يليق بها المدينة، وفهم بعض العلماء من هذا كراهة تسمية المدينة يثرب، وقالوا: ما وقع في القرآن إنما هو حكاية عن قول غير المؤمنين).

وروى أحمد (١٨٥١٩) عن البراء بن عازب مرفوعًا: "من سمّى المدينة يثرب، فليستغفر الله، هي طابة، هي طابة".

زعموا»[1]. وقد قال العرب: زعموا: مظنَّة الكذب.

وإنما تقال: (زعموا) في حديث لا سند له، وإنما كلام يتردد بين الناس لا تُعلم حقيقته، فمن أكثر من ذلك لم يؤمن عليه الكذب، فضلا عن أن في ذلك شغل الوقت والعمر بما لا فائدة منه.

ومثل (زعموا) كل لفظ لا يدل على التوثق من الأخبار، مثل ذكروا وقالوا، ونحوها. وقد كره النبي ﷺ قيل وقال[2].

تحذير المسلم من طغيان «أنا» و«لي» و«عندي»:

وليحذر المسلم الذي يرجو رحمة ربه، ويخاف عذابه، أن يوسوس له شيطانه أو شياطينه، وما أكثرهم! فيظهر على ألفاظه ما يشعر بالأنانية والغرور والكبر، ولذلك ألفاظ معروفة، وقد حذر الإمام ابن القيم منها حين قال:

«وليحذر كلَّ الحذر مِن طغيان (أنا)، و(لي)، و(عندي)، فإن هذه الألفاظ الثلاثة ابتُلي بها إبليسُ وفرعون وقارون، فـ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ [الأعراف:١٢] لإبليس، و﴿لِي مُلۡكُ مِصۡرَ﴾ [الزخرف:٥١] لفرعون، و﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص:٧٨] لقارون. وأحسن ما وُضِعت (أنا) في قول العبد: أنا العبد المذنب المخطئ المستغفر المعترِف.. ونحوه (لي)، في قوله: لي الذنب، ولي الجُرم، ولي المسكنة، ولي الفقر والذل.

و(عندي) في قوله: «اغفر لي جِدِّي وهَزْلي، وخَطَئِي وعَمْدِي، وكل ذلك

---

(١) رواه أحمد (١٧٠٧٥) وقال مخرجوه: إسناده ضعيف لانقطاعه، وأبو داود في الأدب (٤٩٧٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٦٢)، وصححه الألباني في الصحيحة (٨٦٦).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الزكاة (١٤٧٧)، ومسلم في كتاب الأقضية (٥٩٣).

عندي»[1].

- **آداب الحديث:**

وبعد أن تحدثنا عن مجموعة من آفات اللسان التي يجب على المسلم أن يتوقَّى منها، نذكر بعض الآداب التي يجب أن يتَّصف بها، والتي تميِّزه في حديثه وشخصيَّته، ومن هذه الآداب:

١- اختيار الألفاظ المناسبة:

ومن المهم هنا: أن يجعل المسلم أُسوته في هديه ﷺ، في أدب المحادثة بحفظ المنطق، واختيار الألفاظ المناسبة واللائقة، وتجنُّب كل ما يؤذي أحدًا، من الخلق كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب:٢١].

كان ﷺ يتخيَّر في خطابه، ويختار لأمته أحسن الألفاظ وأجملها وألطفها وأبعدها من ألفاظ أهل الجفاء والغلظة والفُحش، فلم يكن فاحشًا ولا متفحِّشًا، ولا صخَّابًا ولا فَظًّا ولا لعَّانًا.

وكان يكره- كما يقول ابن القيم- أن يُستعمل اللفظُ الشريفُ المصونُ في حقِّ من ليس كذلك، وأن يُستعمل اللفظ المهين المكروه في حقِّ من ليس من أهله.

فمِن الأول: منعُه أن يُقال للمنافق: «يا سيدي أو يا سيدنا». وفي الحديث: «لا تقولوا للمنافق: سيد. فإنه إن يك سيدًا، فقد أسخطتم ربكم ﷻ»[2].

ومنعُه تسميةَ أبي جهل بأبي الحكم، وكذلك تغييره لاسم أبي الحكم من

---

(١) زاد المعاد (٢/ ٤٣٤).

(٢) رواه أحمد (٢٢٩٣٩) وقال مخرجوه: رجاله ثقات رجال الشيخين. وأبو داود في الأدب (٤٩٧٧)، عن بريدة الأسلمي.

الصحابة: بأبي شريح، وقال: «إن الله هو الحَكَم، وإليه الحُكْم»[(١)].

ومن هذا قولُه للخطيب الذي قال: من يُطِع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى: «بئس الخطيب أنت»[(٢)]. إنما أراد أن يقول: «ومن يعص اللهَ ورسولَه» لما أن في الجمع بين الاسمين في ضمير واحد ما قد يشعر بالتسوية.

ومن ذلك قوله: «لا تقُولُوا: ما شَاءَ اللهُ وشَاء فلانٌ. ولكن قُولوا: ما شاء اللهُ ثم ما شاء فلانٌ»[(٣)].

وقال له رجل: ما شاء الله وشئت. فقال: «أجعلتني لله ندًّا؟ قُلْ ما شاء الله وحدَه»[(٤)].

وليس معنى هذا أن يمنع ذكر اسم الله واسم أحد بعده بحرف (واو العطف) التي تفيد مطلق الجمع، ولكن هذا يطلب فيما يوقع الإيهام، ويتطلب العطف بحرف (ثم). ومن هنا لا تجد بأسًا في قولنا: عند الله وعندنا. أو: وعند المؤمنين. ونحن نطلب نصر الله ونصر المؤمنين، ونريد المحبَّة والعزَّة لله وللمؤمنين.. ونحو ذلك من العبارات.

وهو ما جرى عليه القرآن الكريم في كثير من كلماته في القرآن المكي والمدني، كما في قوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر:٣٥]، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ

---

(١) رواه أبو داود في الأدب (٤٩٥٥)، والنسائي (٥٣٨٧)، والبخاري في الأدب المفرد (٨١١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٨٤٥).

(٢) رواه مسلم في الجمعة (٨٧٠)، وأحمد (١٨٢٤٧)، وأبو داود في الصلاة (١٠٩٩)، عن عدي بن حاتم.

(٣) رواه أحمد (٢٣٢٦٥) وقال مخرجوه: حديث صحيح، وأبو داود في الأدب (٤٩٨٠)، والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (١٠٧٥٥)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٣٧)، عن حذيفة بن اليمان.

(٤) رواه أحمد (١٨٣٩) وقال مخرجوه: صحيح لغيره، وابن ماجه في الكفارات (٢١١٧)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٨٣)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٣٩)، عن ابن عباس.

وانظر: زاد المعاد (٢/ ٣٢١، ٣٢٢).

﴿أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنفال:٦٢]، ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [المائدة:٥٥]، ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة:١٠٥]، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨].

فليتنبَّه كثير من إخواننا الدعاة الذين يتشدَّدون في هذه الأمور التي أجازها القرآن بوضوح.

٢- عدم الإفصاح عن الأشياء التي ينبغي الكناية عنها:

ذكر ابن القيم أن من الألفاظ المكروهة الإفصاح عن الأشياء التي ينبغي الكناية عنها بأسمائها الصريحة(١)، وخصوصًا في النواحي «الجنسيَّة»، وما يتعلَّق بها، إلا ما يقتضي المقام بيانه، مثل قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور:٣١].

فالمتحدِّث اللبق ينأى بنفسه عن كلِّ لفظٍ ينبو عنه الذوق الرفيع، أو يخدش الحياء. وإليك بعض الأمثلة في السنة النبوية:

عن عباد بن تميم عن عمه ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «لا ينصرف حتى يسمع صوتًا، أو يجد ريحًا»(٢). يعني المصلي.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقبل صلاة من أحدث حتى يتوضأ»(٣).

ففي هذين الحديثين لم ينطق النبي ﷺ بالاسم الصريح للحدث، وإنما عبَّر عنه بصفته.

---

(١) زاد المعاد (٢/ ٤٣٣).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الوضوء (١٣٧)، ومسلم في الحيض (٣٦١).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الوضوء (١٣٥)، ومسلم في الطهارة (٢٢٥).

وفي قصة ماعز الأسلمي ﷺ لما أقرّ على نفسه بالزنى، سأله النبي ﷺ عن ذلك، فقال له: «هل غاب ذلك منك في ذلك منها» قال: نعم. قال: «كما يغيب المِرْود في المَكْحُلة، والرِّشاء في البئر؟» قال: نعم [(١)].

فعفَّ لسانه ﷺ عن تسمية شيء من أعضاء الرجل أو المرأة، وكنَّى بما أفهم السائل المراد، فأجاب عن ذلك.

وإذا كان ذلك فيما يتعلق ببيان الأحكام، ففيما دون ذلك من باب أولى وأحرى.

ومن تأمل النصوص المتعلِّقة بأمور الطهارة، وعِشرة النساء، لن يجد فيها كلمة تنافي الحياء والعِفَّة.

٣- اغضض من صوتك:

أصل الأدب في الحديث هو خفض الصوت بحيث يُسمِع ويُفهِم، لا رفعُه بحيث يزعج ويُقلق، ففي القرآن الكريم في وصيَّة لُقمان الحكيم ﷺ لابنه: ﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩﴾ [لقمان:١٩]. أي: اخفض منه، ولا ترفعه عاليًا إذا حادثتَ الناس، فإن الجهر الزائد بالصوت مُنكر وقبيح.

ويتأكد الأمر بخفض الصوت أثناء التحاور، لما له من أثر في سكون المحاور، وحفظ وقاره.

قال صديقنا العلامة المحدِّث الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله في رسالته النافعة: «من أدب الإسلام»: «ومن أدب المجالسة: أنك إذا حادثتَ ضيفك أو أحدًا من الناس، فليكن صوتك لطيفًا خفيضًا، وليكن جهرُك بالكلام على قدر

(١) رواه أبو داود في الحدود (٤٤٢٨)، والنسائي في الكبرى في الرجم (٧١٢٦)، وابن حبان في الحدود (٤٣٩٩)، وضعفه الألباني في الإرواء (٢٣٥٤)، عن أبي هريرة.

الحاجة، فإن الجهرَ الزائد عن الحاجة يُخِلُّ بأدب المتحدِّث، ويدل على قِلَّة الاحترام للمتحدَّث إليه. وهذا الأدب تنبغي مراعاته مع الصديق والمثيل، ومع مَن تعرفه ومَن لا تعرفه، ومع الأصغر منك والأكبر، وتزداد مراعاته تأكيدًا مع الوالدين أو من في مقامهما، ومع مَن تُعظِّمه من الناس الأفاضل والأكابر، وإليك بعض النصوص التي تدعو إلى ذلك:

روى البخاري عن عبد الله بن الزبير قال: بعد أن نزلت آية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾ [الحجرات:٢، ٣].

كان عمر بن الخطاب بعد نزول هذه الآية إذا حدَّث النبي ﷺ بحديث حدَّثه كأخي السِّرار- أي: كالمناجي المتحدث بسرٍّ- لم يُسمعه حتى يستفهمه، يخفض صوته ويبالغ، حتى يحتاج إلى استفهامه عن بعض كلامه[(١)].

وحكى الحافظ الذهبي رحمه الله في ترجمة: الإمام محمد بن سيرين- أحد التابعين والأئمة الأجلة الفقهاء-: قال بكَّار بن محمد عن عبد الله بن عون: إن محمد بن سيرين كان إذا كان عند أمِّه، لو رآه رجل لا يعرفه، ظنَّ أن به مرضًا من خفض كلامه عندها[(٢)].

وحكى الحافظ الذهبي أيضًا في ترجمة: عبد الله بن عون البصري- تلميذ الإمام ابن سيرين وأحد الأئمة الأعلام- أن أمه نادته، فعلا صوتُه صوتَها، فخاف، فأعتق رقبتين[(٣)].

---

(١) رواه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٣٠٢)، وأحمد (١٦١٣٣)، عن عبد الله بن الزبير.

(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٦٢٠)، مؤسسة الرسالة، ط. الثالثة، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥م.

(٣) تاريخ الإسلام (٤/ ١٠١)، دار الغرب الإسلامي، ط: الأولى، ٢٠٠٣ م، تحقيق: بشار عوّاد معروف.

وقال عاصم بن بَهْدَلة الكوفي المقرئ- صاحب القراءة المعروفة-: دخلتُ على عمر بن عبد العزيز، فتكلَّم رجل عنده، فرفع صوته، فقال عمر: مَهْ؟ كُفَّ، بحسب الرجل من الكلام ما أسمع أخاه أو جليسه»[1] [2].

٤- أن يتكلم بما يُسمع ويُفهم:

فالمطلوب مِن كل مَن تكلَّم يُحدِّث غيره: أن يرفع صوتَه بحيث يُسمِع العددَ الذي يُنصت إليه، فإن كان يُكلِّم فردًا، كان صوتُه بحيثُ يُسمِع الفردَ، وإن كان يتحدَّث إلى جماعة، رفَعَ صوته بحيث يَسمَعُه الجميع، على حسب هدوء المنطقة التي يتحدث بها أو ضجيجها، وحسب كثرة الجماعة وقلتها، وحسب قوة صوته وضعفه.

ومعنى هذا التوسُّط بأن يتكلم بصوت مسموع، ليس بالمرتفع ولا بالمنخفض، وبعبارةٍ واضحة يفهمها الجميع، بعيدة عن التشدُّق والتفيهق، وعن التصنُّع والمغالاة.

عن عائشة ﵂، قالت: كان كلامُ رسول الله ﷺ فصلًا يفهمه كلُّ مَن سمِعه[3].

وعن جابر بن عبد الله: كان في كلام رسول الله ﷺ ترتيل أو ترسيل[4].

(١) تاريخ دمشق (٢٥/ ٢٢٤).

(٢) من أدب الإسلام ص٣٥، ٣٦.

(٣) رواه أبو داود في الأدب (٤٨٣٩)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٢٠٩٧).

(٤) رواه أبو داود (٤٨٣٨)، وابن أبي شيبة (٦٧)، كلاهما في الأدب، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٨٢٣).

ومعنى الترتيل: التأني والتمهل وتبيين الحروف والحركات. وترسيل: التأني وعدم العجلة.

٥- الإصغاء للمتحدِّث وعدم إظهار المعرفة بما يحدثك به.

وقال العلامة الشيخ عبد الفتاح أبو غدَّة رحمه الله: «ومن أدب المحادثة أيضًا: أنك إذا حدَّثك جليسك بحديث ظنَّك لم تعرفه- وكنت تعرفه- فلا تُخجله بإظهار معرفتك له، ولا تُداخله فيه، وأبْدِ له اهتمامك وإصغاءك.

قال التابعي الجليل الإمام عطاء بن أبي رباح: إنَّ الشاب ليحدِّثني بحديث، فأستمعُ له، كأنِّي لم أسمعه، ولقد سمعتُه قبل أن يولَد[(١)].

وقال خالد بن صفوان التميمي جليس الخليفة عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك: إذا رأيتَ مُحدِّثًا يُحدِّث حديثًا قد سمعتَه، أو يخبرك بخبر قد علمتَه، فلا تشاركْ فيه، حرصًا على أن يعلم مَن حضركَ أنكَ قد علمتَه، فإن ذلك خفةٌ منك وسوءُ أدب[(٢)].

قال الإمام الجليل عبد الله بن وهب القرشي المصري، صاحب الإمام مالك والليث بن سعد والثوري وغيرهم: إني لأسمع من الرجل الحديث قد سمعتُه قبل أن يجتمع أبواه – يعني قبل ولادته ووجوده – فأُنصتُ له كأني لم أسمعه[(٣)].

وقال إبراهيم بن الجُنيد: قال حكيم لابنه: تعلمْ حُسنَ الاستماع، كما تتعلم حُسن الكلام، فإن حُسْنَ الاستماع إمهالك للمتكلم حتى يُفضي إليك بحديثه، وإقبالك بالوجه والنظر عليه، وترك المشاركة له في حديث أنت تعرفه[(٤)].

وأنشد الحافظ الخطيب البغدادي في هذا المقام:

ولا تشـــارك في الحـــديث أهلـــه وإن عرفـــت فرعـــه وأصـــله

(١) ذكره ابن مفلح في الآداب الشرعية والمنح المرعية (٢/ ١٧٠).

(٢) رواه الخطيب في أخلاق الراوي (٣٥٣)، مكتبة المعارف – الرياض، تحقيق: د. محمود الطحان.

(٣) الآداب الشرعية لابن مفلح (٢/ ١٧٠).

(٤) رواه الخطيب في الفقيه والمتفقه (٢/ ٦٢).

٦- الاستفهام بأدب ولطف:

ومن أدب المحادثة أيضًا: أنك إذا أشكل عليك شيء من حديث محدِّثك، فاصبر عليه حتى ينتهي من الحديث، ثم استفهم منه بأدب ولطفٍ وتمهيدٍ حَسَنٍ للاستفهام، ولا تقطعْ عليه كلامه أثناء الحديث، فإنَّ ذلك يُخلُّ بأدب الاستماع، ويُحرِّك في النفس الكراهية، إلا إذا كان المجلس مجلس دراسة وتعلُّم، فإن له حينئذٍ شأنًا آخر، ويحسُن فيه السؤال والمناقشة عند تمام الجملة أو المعنى الذي يشرحه المعلم، وينبغي أن تكون المناقشة فيه بأدب وكياسة، قال الخليفة المأمون: العلم على المناقشة أثبت منه على المتابعة.

٧- عدم المبادرة إلى الإجابة:

ومن أدب المحادثة أيضًا: إذا سُئل جليسك عن شيء، ألَّا تبادرَ أنت إلى الإجابة عنه، بل ينبغي ألَّا تقولَ فيه شيئًا حتى تُسأل عنه، فإن ذلك أحفظ لأدبك، وأنبل لشخصك، وأرفع لحديثك مقامًا.

حكى التابعي الجليل مجاهد بن جَبْر، قال: قال لقمان لابنه: إياك إذا سُئل غيرك أن تكون أنت المجيب، كأنك أصبتَ غنيمةً، أو ظفِرتَ بعطيَّة، فإنَّك إنْ فعلتَ ذلك، أزريتَ بالمسؤول، وعنَّفتَ السائل، ودللْتَ السفهاء على سفاهة حِلمك وسوء أدبك.

قال الشيخ ابن بطَّة المحدث الفقيه الحنبلي: كنت عند الإمام أبي عمر- الزاهد الملقب: غلام ثعلب- فسُئل عن مسألة، فبادرتُ أنا فأجبتُ السائل، فالتفتَ إليَّ أبو عمر الزاهد فقال لي: تعرف الفضوليَّات المنتقبات؟! يعني: أنت فضوليٌّ، فأخجلني![1]

---

(١) الآداب الشرعية، لابن مفلح (٢/ ١٧١). نقلا عن رسالة: من أدب الإسلام ص٣٨.

٨- أن يبتعد عن الإطناب المُمل، والإيجاز المُخلّ:

فالإيجاز في الحديث مُحبَّب إلى عامَّة الناس، ما لم يكن إيجازًا مُخِلًّا، كما يكرهون الإطناب المُمل، وخيرُ الأمور أوسطُها.

وعن عمرو بن العاص قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لقد رأيتُ- أو أُمرتُ- أن أتَجوز في القول، فإنَّ الجواز هو خير»(١).

وقالت عائشة لعبيد الله بن عمر: إيَّاك وإملالَ الناس وتقنيطهم(٢).

وقال عبد الله بن مسعود: حدِّث القومَ إذا أقبلتْ عليك قلوبُهم، فإذا انصرفتْ عنك قلوبُهم فلا تحدِّثهم. قيل: وما علامة ذلك؟ قال: إذا أحدقوا إليك أبصارهم، فقد أقبلتْ عليك قلوبهم، فإذا اتَّكأ بعضُهم على بعض، وتثاءبُوا: فلا تحدِّثهم(٣).

وعن أبي هريرة رفعه إلى النبيِّ ﷺ: «ألا أخبركم بشرار هذه الأمة؟ الثرثارون المُتشدِّقون المتفيْهقون. أفلا أنبِّئكم بخيارهم؟ أحاسنهم أخلاقًا»(٤).

قال أبو عبيد: قلتُ: الثرثار: المِكْثار من الكلام، والمتفيْهق: الذي يتوسَّع في الكلام، ويفهق به فمه. قال الأصمعي: الفهق: الامتلاء.

٩- النظر إلى المحدِّث، وعدم مقاطعته وتسفيهه:

ومن أدب الحديث: أن يُشعِر المستمعُ محدِّثَه بأنه ينظر إليه، ويُصغِي إلى قوله، ويهتمَّ بما يرمي إليه.

---

(١) رواه أبو داود في الأدب (٥٠٠٨)، والبيهقي في شعب (٤٦٢١)، حسن إسناده الألباني في صحيح أبي داود (٤١٨٧).

(٢) رواه البيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (٦٠٢).

(٣) المصدر السابق (٦٠٣).

(٤) رواه أحمد (٨٨٢٢) وقال مخرِّجوه: حسن لغيره. والبيهقي في الآداب (٣١٥).

عن أبي هريرة ﷺ، أن النبي ﷺ . . . لم يكن أحدٌ يصافحه إلا أقبل عليه بوجهه، ولم يصرفه عنه حتى يخلو من كلامه[1].

في الحديث بيان خُلق نبوي كريم عند التخاطب، وهو الإقبال على المتحدث، وعدم صرف الوجه عنه حتى يفرغ من حديثه، وهو متضمِّنٌ لحسن الإصغاء له، وعدم مقاطعته.

وعليه أن يفصل بين المقدِّمات والنتائج، وبين الأمثلة والقواعد، ويجتهد أن يعرف المقصد العام للمتكلِّم، ولا يُجيز لنفسه مقاطعتَه أثناء الحديث، وتسفيه رأيه أو تكذيبَه، إلا إذا قال كَذِبًا صُراحًا، وإذا اضطُر لتصحيح خبرٍ أو فكرة، فليكن بالحكمة، وبصيغة المودَّة والتفاهم.

١٠- إعطاء المجالس حقَّها:

أن يعطيَ المتحدِّث لكل مجلسٍ حقَّه، فلا يهزل في موضع الجِدِّ، ولا يمزح في موقفِ مفاصلة، ولا يضحك في مقامِ حزن، مراعاةً لشعور المحزونين على مَن حزنوا عليه، من أبٍ ميت، أو ابن حبيب، أو أخ عزيز، أو قريب، أو صديقٍ حميم، أو حادثٍ مؤلم وقع لبعضهم، أو أي شيء يؤذيهم وينغِّص عليهم.

وألَّا يتحدَّث عن العلاقة بين الجنسين بوجود نساء، أو بحضرة أقارب زوجته، وهكذا، فلكل مقامٍ مقال.

وفي الحديث عن علي ﷺ قال: كنت رجلًا مذَّاءً، فاستحيَيْتُ أن أسأل رسول الله ﷺ، لمكانة ابنته منّي، فأمرتُ المقدادَ فسأله[2].

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٨٦٨٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٤١٩٢): وإسناد الطبراني حسن.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الغسل (٢٦٩)، ومسلم في الحيض (٣٠٣).

١١- ألا يتكلم فيما لا يعنيه:

على المتحدِّث ألا يتعوَّد الثرثرة فيما يُجْدي وما لا يُجْدي، وأن يعلم أن كل كلامٍ مكتوب عليه أو له، وكل كلمةٍ لها تَبِعَة، وعليها مسؤوليَّة، فعليه ألَّا يُكثِر الكلام، وألَّا يتكلَّم فيما لا يَعْنيه- أي: فيما لا يعود عليه بالنفع في دينه ودنياه- ففي الحديث: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[١].

قال إبراهيم بن أدهم: يُهلك الناسَ خَلَّتان: فضولُ المال، وفضولُ الكلام[٢].

١٢- أن يُحدِّث الناسَ فيما ينفعهم، لا عن نفسه وأهله:

ألا يجعل نفسَه مركزَ الدائرة، ومحورَ العالم، وأصلَ الأصول، ويدير كل شيء حول ذاته، ومآثره ومنجزاته، ومدائح الناس له، حتى ولو كان هذا صحيحًا وصادقًا في نفسه، فإن هذا النوع من الحديث الذي يدور حول الذات وتضخيمها بغيض إلى الناس، والمتواضع يرفعه الله، والمتكبر يضعه الله.

وكذلك لا يُكثر الكلام عن مفاخر أهله، وأمجاد أسرته، ومكارم قومه.

قيل لحكيم: ما الصدقُ القبيح؟ قال: ثناءُ المرءِ على نفسه. يقول الله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم:٣٢].

وقد ذمَّ الله اليهودَ الذين زكَّوْا أنفسهم، وزعموا أنهم شعب الله المختار، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾﴾ [النساء:٥٠].

---

(١) رواه الترمذي في الزهد (٢٣١٧) وقال: غريب. وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٦)، وصححه الألباني في الجامع الصغير (١٠٨٥٤)، وحسنه النووي في الأربعين، عن أبي هريرة.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في الصمت (١٠٣).

وردَّ على اليهود والنصارى الذين زعموا لأنفسهم ما زعموا زُورًا وبُهتانًا، وتقوَّلُوا على الله تعالى ما لم يقُل، فقال سبحانه: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [المائدة:١٨].

﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰۚ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة:١١١، ١١٢].

الأمر عند الله ليس بالأسماء ولا العناوين ولا الشارات، بل بالإيمان الصادق والعمل الصالح، كما قال الله تعالى للمسلمين صراحة: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء:١٢٣، ١٢٤].

فعلى المتحدِّث أن يكون حديثُه في عملِ الخير وخيرِ العمل، مِن كلِّ ما يحبُّه الله ويرضاه، ممَّا يُصلح الفردَ والأسرة والمجتمع، كبِرِّ الوالدين، أو صلة الأرحام، أو رعاية الأزواج، أو إصلاحٍ بين الناس، أو مودَّة لجارٍ، أو قِرى لضيف، أو رعايةٍ ليتيم، أو عناية بمسكين، قال تعالى في آية الحقوق العشر: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء:٣٦].

وقال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [النساء:١١٤].

وقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ۝٩﴾ [المجادلة:٩].

١٣- ضرورة التأكد من الأخبار:

ومن أدب الحديث: ألَّا ينقل خبرًا قبل التأكُّد منه، والتوثُّق من صحَّته، فكم من كلام في المجال العلميِّ أو الدينيِّ أو الأدبيِّ أو الكونيِّ لا دليلَ عليه، وكم من نظريَّات ظلتْ قرونًا يثق الناسُ بها، ولا دليلَ عليها مِن عقلٍ ولا نقل، ولا حِسٍّ ولا وحي.

وكم مِن أخبار ينقلها الناسُ بعضُهم إلى بعض، ولا أصلَ لها، تداولها الناسُ فيما بينهم وصدَّقُوها، ولم يُدقِّق أحدٌ في أصلها الأول: مِن أين أتتْ؟ وهل لها أصل أصيل، أو أيّ دليل؟ لا يوجد شيء من ذلك، فمثل هذه الأخبار تسقط، ولا تُنقَل.

والله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ۝٦﴾ [الحجرات:٦].

وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «كفى بالمرء كذبًا أن يُحدِّث بكل ما سمع»[(١)].

ومِن هنا اشترط المسلمون فيمَن ينقل حديثًا عن رسول الله ﷺ: أن ينقله بسنده، أي: برواته الذين نقلوه بعضُهم عن بعض إلى الصحابي، ولا بدَّ أن يكون كلُّ راوٍ معروفًا بنسبه وأهله وبلده، وشيوخه وتلاميذه، وسيرته وصدقه، وأن يكون كل راو قد أخذ عمَّن قبله مباشرة، وألا يسقط أيُّ راوٍ في وسط السلسلة، أو في أيِّ طريق منها؛ ولهذا قالوا: الإسناد مِن الدين، ولولا الإسناد لقال مَن شاء ما شاء[(٢)]، ونظر

(١) رواه مسلم في المقدمة (١/ ١٠)، وأبو داود في الأدب (٤٩٩٢)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم في المقدمة من صحيحه (١/ ١٥) من قول ابن المبارك.

ابن المبارك إلى كتابٍ في التفسير، فقال: يا له من علم لو كان له إسناد[(١)]!

وفي الآية: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝﴾ [ق:١٨]. وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝﴾ [الأحزاب:٧٠].

وفي حديث معاذ بن جبل: «وهل يكبُّ الناسَ في النار على مناخرهم إلا حصائدُ ألسنتهم»[(٢)].

١٤- ألا يفشي سراً اؤتُمِن عليه ما لم يأذن صاحبُه:

ومِن أدب حديث المسلم: أنَّ ما اؤتُمِن عليه من سرٍّ محفوظٍ عنده، فهو كجوهرةٍ مكنونة، ودُرَّة مصونة، لا يُفرِّط فيه، ولا يُسْلمه لمن يُفشيه، فهو من الأمانة التي يجب أن تُحفظ لأهلها، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝﴾ [المؤمنون:٨]. وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝﴾ [الأنفال:٢٧].

ويقول الشاعر:

إذا أنتَ حمَّلْتَ الخؤونَ أمانةً ... فإنَّك قد أسندْتَها شرَّ مسند[(٣)]!

وقد صرَّح يوسفُ بن يعقوب عليهما السلام لأبيه بما أراه الله من الكواكب الأحد عشرة، والشمس والقمر، رآهم له ساجدين، ففهِم الأبُ المقصود منها، وقال: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝﴾

---

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٦٠/ ١١٥).

(٢) رواه أحمد (٢٢٠١٦)، وقال مخرِّجوه: صحيح بطرقه وشواهده، والترمذي في الإيمان (٢٦١٦)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجهْ الفتن (٣٩٧٣)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١١٢٢)، عن معاذ بن جبل.

(٣) من شعر علي بن مسهر الكاتب.

[يوسف:٥]. فهذا سرٌّ ليوسف يجب أن يُصان له.

وقال النبي ﷺ: «إذا حدَّث الرجلُ ثم التَفَتَ، فهي أمانة»[1]. فإن التفاته يمينًا وشمالًا: يدلُّ على حِرْصه ألَّا يكون أحدٌ قد سمِع الحديث في غفلة منهما، ولذلك يجب حفظ ما ائتمنك صاحبُك عليه.

١٥- الكلام عن الناس بحق وإعطاؤهم ما يستحقون:

من الآداب التي اهتم بها الإسلام، المتعلقة باللسان: الكلام عن الناس بحق، لا تذمُّهم بالباطل، ولا تمدحهم بغير حق، بل تعطي لكل إنسان ما يستحقه في الجانب الإيجابي أو الجانب السلبي. وليس هذا الأمر بالسهل، فقد تعوَّد الناس أن يمضوا على سَنَنِ الحُب والكره، فمن أحبوه مدحوه، وأسرفوا في مدحه، ومن كرهوه ذمُّوه وبالغوا في ذمه، وهذا عيب الإنسان: الخضوع لما تُمليه العواطف، لا الإذعان لما يوجبه الشرع، أو يهدي إليه العقل والحكمة.

١٦- أن يُعرِض عن اللغو والسفاسف:

ومِن أدب المسلم في حديثه: أن يحرص على ما ينفع الناس، يعلِّم الجاهل، ويُنبِّه الغافل، ويُحفز العامل، ويشغل العاطل، ويُصوِّب المخطِئ، ويدفع المصيبَ إلى ما هو أحسن، فترتقي الحياة، وتتزكى الأنفس، ويصعد المجتمع أبدًا إلى أعلى.

ولا ينبغي للمسلم أن يُضيِّع وقته وفكره وجهده في الثرثرة وكثرة الكلام، ولغو القول، الذي تذهب معه الأعمار والأوقات فيما لا فائدة فيه، ولا خيرَ مِن ورائه،

---

(١) رواه أحمد (١٥٠٦٢) وقال مخرجوه: حسن لغيره، وأبو داود في الأدب (٤٨٦٨)، والترمذي في البر والصلة (١٩٥٩) وقال: حديث حسن، وحسنه الألباني في الصحيحة (١٠٩٠)، عن جابر بن عبد الله.

والمرءُ مسؤول عن كل لحظة في عمره، فما هو إلا أيام معدودة، وأنفاس محدودة، ويسرُّني هنا أن أنقل كلمةً ممَّا كتبه شيخنا محمد الغزالي رحمه الله من كتابه «خلق المسلم»، قال: «والبُعْدُ عن اللغو من أركان الفلاح، ودلائل الاكتمال، وقد ذكره القرآن الكريم بين فريضتين من فرائض الإسلام المُحكمة، هما الصلاة والزكاة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝﴾ [المؤمنون:١-٤].

ولو أن العالَم أجْمَعَ أحصى ما يشغل فراغَه مِن لغو في القول والعمل: لراعه أن يجد أكثر القصص المنشورة، والصحف المشهورة، والخطب والإذاعات لغوًا مطردًا، تعْلق به الأعين، وتميل إليه الآذان، ولا ترجع بطائل! وقد كَرِهَ الإسلام اللغو؛ لأنه يكره التفاهات، وسفساف الأمور، ثم هو مضْيَعة للعمر في غير ما خُلِق الإنسانُ له مِن جِدٍّ وإنتاج.

وبقدْرِ تنزُّه المسلم عن اللغو، تكون درجته عند الله.

عن أنس بن مالك قال: تُوفِّي رجل، فقال رجل آخر ورسول الله ﷺ يسمع: أبشِرْ بالجنة. فقال رسول الله: «أوَلا تَدْرِي؟ فلعله تكلَّم فيما لا يعنيه، أو بَخِلَ بما لا يُنقِصُه»[(١)].

واللاغي لضعف الصلة بين فكره ونطقه، يُرسِل الكلام على عواهنه، فربما قذَفَ بكلمةٍ سبَّبَتْ بوارَه، ودمَّرتْ مستقبله، وقد قيل: مَن كثر لَغَطه كثر غلطُه.

(١) رواه الترمذي في الزهد (٢٣١٦) وقال مخرجوه: حديث غريب، والبزار (٧٥٥٧)، وأبو يعلى (٤٠١٧)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٤٣٧١): رواته ثقات، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٨٨٢): صحيح لغيره، عن أنس.

وفي الحديث: «إن العبد ليقول الكلمة، لا يقولها إلا ليُضحك بها المجلس، يهوي بها أبعد ما بين السماء والأرض! وإن المرء ليزل عن لسانه أشد مما يزل عن قدميه»[1].

فإذا تكلم المرء، فليقل خيرًا، وليعود لسانَه الجميل من القول؛ فإن التعبير الحسن عمَّا يجول في النفس أدبٌ عالٍ، أخذ الله به أهل الديانات جميعًا.

وقد أوضح القرآن أن القول الحسن من حقيقة الميثاق المأخوذ على بني إسرائيل على عهد موسى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [البقرة:٨٣].

والكلام الطيِّب العفُّ، يجْمُل مع الأصدقاء والأعداء جميعًا، وله ثماره الحلوة.

فأمَّا مع الأصدقاء: فهو يحفظ مَودَّتهم، ويستديمُ صداقتَهم، ويمنع كيد الشيطان أن يُوهِي حبالهم، ويفسد ذات بينهم: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾ [الإسراء:٥٣].

إنَّ الشيطان متربِّص بالبشر، يريد أن يُوقع بينهم العداوة والبغضاء، وأن يجعل مِن النزاع التافه، عِراكًا داميًا، ولن يسُدَّ الطريق أمامه شيء: كالقول الجميل.

وأما حُسن الكلام مع الأعداء: فهو يطفِئ خصومتَهم، ويكسِر حدَّتهم، أو هو على الأقل يقِفُ تطورَ الشر، واستطارةَ شرره: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت:٣٤][2] اهـ.

---

(١) رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق (٤٠٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٤٩٢)، عن أبي هريرة.

(٢) خلق المسلم لمحمد الغزالي ص ٧٩-٨٠.

أدب التحدث في الهاتف

استحدث الناس في عصرنا أدوات ووسائل للاتصال فيما بين بعضهم وبعض، قرَّبت البعيد، ووسَّعت الضيِّق، وأعطت للإنسان قدرات هائلة، ما كان المرء ليحلم بها، أو يتخيَّلها. فإذا هو في كل مدة قليلة من الزمن يكتشف الكثير، ويخترع الجديد، وهذا من فضل الله على الإنسان، الذي علَّمه ما لم يكن يعلم، ورزقه من النعم ما لا يحصى، وكان فضل الله عليه عظيمًا.

من هذه الوسائل والأدوات المستحدثة: الهواتف (التليفونات)، والبرق (التلغراف)، و(الفاكس)، و(النت)، وما تفرع عنه من وسائل اتصال كثيرة، مثل: «فيس بوك»، و«تويتر»، و«واتس آب»، و«يوتيوب»، وهي وسائل تواصل قادرة على أضعاف أضعاف ما كان البشر يمارسونه بأنفسهم، وقد قال الله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾ [النحل:٨].

فانظر إلى هذا الهاتف الذي هيَّأه الله لخدمة البشر، يستطيع الإنسان أن يتصل بزوجه أو ابنه أو أبيه أو أمِّه، أو أخيه أو أخته، أو قريبه أو صديقه، أو معلِّمه أو تلميذه، أو أحب الناس إليه، في أيِّ وقت، وهو في أقصى الشرق، وصاحبه في أقصى الغرب، يطلبه للحديث، ويقول له كلَّ ما يريد، وبعضُ الهواتف تمكِّن المتصل من أن يرى من اتصل به، فتجمع بين السماع والرؤية.

وقد تطورت صناعة الهواتف تطورًا ضخمًا، فأصبح هناك هواتف المنازل والمحلات والمكاتب وغيرها، وأصبح هناك التليفونات الشخصيَّة المنقولة (الجوَّالات)، و«الهواتف الذكية» التي حملت من المنافع الكثير ما يذهل الناس لها، فهي «كمبيوتر» صغير، يحمله الإنسان، ويُسجِّل فيه ما يشاء من ذكريات،

وصور، ووثائق، ومعلومات، وحسابات، وقرآن كريم، وأحاديث نبويَّة، ومواعيد.. إلخ. ويمكن أن يلتقي على الهاتف الواحد عدة أشخاص من بلاد مختلفة، بل من قارات مختلفة، يتباحثون ويتناقشون.

فلا غرو أن نهتم بفقه الهاتف إذا تحدثنا عن فقه الحديث والكلام مع الناس.

وقد كتب العالم الباحث السعودي د. بكر بن عبد الله أبو زيد رحمه الله: رسالته «أدب الهاتف»، وضمَّنها مجموعة من النصائح والآداب الإسلامية التي يحتاج إليها المسلم المعاصر في زماننا حول استخدام الهاتف استخدامًا يرضي عنه الله ورسوله والمؤمنون، وأذكر بعض هذه الآداب بتصرف واختصار:

الاطمئنان إلى صحة الرقم المطلوب:

فأول ما يجب على المتَّصل: أن يكون على يقين من صحَّة الرقم الذي يتصل به، فإن الغلط في ذلك، قد يسيء إلى المتَّصل به، فقد تكون امرأة لا يجوز الاتصال بها، وقد يكونون أطفالًا لا يسمح لهم بذلك، وقد يكونون مَرْضى، أو نائمين في الظهيرة، أو بعد العِشاء، أو شيخًا كبيرًا يصعب عليه القيام إلى مكان الهاتف، إلى غير ذلك من الملابسات والأعذار.

ولذلك ينبغي للطالب أن يتحرى قبل الاتصال، فإن حدث خطأ بادر بالاعتذار عنه، بكل رفق ولطف إلى المتصل به. وهذا من حقه. وهذا من الرفق الذي أوصانا به النبي ﷺ، وقال: «ما دخل الرفق في شيء إلا زانه، ولا نُزِع من شيء إلا شانه»[(١)]، وقال: «إن الله يحب الرفق في الأمر كله»[(٢)].

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٩٤)، عن عائشة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠٢٤)، ومسلم في الآداب (٢١٦٥)، عن عائشة.

وعلى المتَّصل به أن يقبل هذا الاعتذار، فالغلط وارد وممكن من كل إنسان، وكثيرًا ما يخطئ الإنسان، فيسقط رقمًا، أو يضع رقمًا مكان رقم، وهذا ما يقع من الناس جيمعًا، فلا بد أن يسامح بعضهم بعضًا في ذلك.

الاستئناس في تعرُّف الوقت المناسب:

ومن أدب الاتصال بالهاتف: أن يحسن التعرُّف إلى الوقت المناسب للذي يتصل به، فهناك أناس - كما في بلاد الخليج- يتعوَّدون النوم في القيلولة، فهو وقت غير مناسب للاتصال بهم، وهناك ناس ينامون مبكرين، فلا بد أن تتصل بهم قبل موعد نومهم، وليس من حقك أن تفرض نفسك على الناس في أيِّ وقت شئت، حتى لو كان لك عند من تهاتفه حاجة مشروعة، كأن يكون عالمًا تسأله في فتوى، أو جارًا تحدِّثه في قضية مشتركة، أو قريبًا تناقشه في أمر من أمور العائلة تتطلب البحث والحوار.

ولهذا يقول الله تعالى في الزيارة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ﴾ [النور:٢٧] والاستئناس- كما تقدم- أمر أخص من الاستئذان؛ لأن الاستئذان مجرّد طلب الإذن، أما الاستئناس، فهو يقوم على حسن الإدراك، وتحسُّس الرَّغبات، فلو كان المرء قادمًا من سفر، فليس من اللازم أن تزيد في إرهاقه بالزيارة أو بالمكالمة، ولو كان قادمًا من عمل مرهق، فلا تزده إرهاقًا بالمكالمة. والناس إخوة متحابون، وإخوان متعاونون، ولا بد أن يرعى بعضهم حق بعض، ولا ينسى بعضهم أعذار بعض.

وهذا بخلاف الأماكن المفتوحة لكل من يريد من الناس، مثل المدارس والفنادق، وأقسام الشرطة والنجدة والإسعاف، والمستشفيات ونحوها، ممَّا هو موضوع أساسًا لخدمة الناس، فلا حرج في الاتصال به في أيِّ وقت، ولكن لا بد أن

تكون هناك حاجة ملحَّة، أو مصلحة مهمة، تحتاج إلى أن تقضى من هـذا المكـان وفي هذا الزمان.

إقلال مدة الاتصال:

ومن أدب الاتصال: ألا يسرف في الوقت، ويطيله أكثر من المناسب لمثلـه، فبعض الناس تكفيهم دقيقة أو دقيقتان، وبعض الناس يحبُّون أن يطيلوا المكالمة، فلا تعجل عليهم.

الْبَسْ لكل حالة لَبوسها   إما نعيمها وإما بؤْسها[1]

فليراع مقدار ما تستوعبه الحاجة، وليراع أيضًا مقدار الترحيب من المـتكلِّم الآخر.

وعلى كل حال: فخير الكلام ما قلّ ودلّ.

السلام من المتَّصل بداية ونهاية:

وقال الشيخ بكر في رسالته «أدب الهاتف»: «المتَّصل هو القادم، فإذا رُفعت سماعة الهاتف فبادِرْ بالتحية الإسلامية: «السلام عليكم»، فهي شعار الإسلام، ومفتاح الأمان والسلام، وهي شرف لأمة محمد ﷺ، ويجب الجواب على سامعه، وبهذا وردت السنة الشريفة، فعن ربعي ﷺ قال: أخبرنا رجلٌ من بني عامر أنه استأذَن على النبي ﷺ وهو في بيتٍ، فقال: أألج؟ فقال ﷺ لخادمه: «اخرج إلى هذا فعلِّمه الاستئذان، فقُل له: قُل: السلام عليكم، أأدْخُل؟» فسَمِعَه الرجل فقال: السلام عليكم، أأدخل؟ فأذن له النبي ﷺ، فدخل[2].

(١) من شعر بيهس الفزاري.

(٢) رواه أبو داود في الأدب (٥١٧٧)، وابن أبي شيبة في مصنفه في الأدب (٢٦١٨٥)، وصحح إسناده النـووي في الأذكار (٧٤٢)، وصححه الألباني في الصحيحة (٨١٩).

فدلَّ على تقديم السلام، فليُقدِّم المهاتِفُ السلامَ على الكلام، ولا يسكت حتى يكلمه المتصَلُ به.

ومما يُنْهَى عنه هنا: هجر هذه التحيَّة الإسلاميَّة المباركة، والعدول عنها إلى نحو: «صباح الخير.. صباح النور».

ومما يُنْهَى عنه هنا: المبادرة من المتهاتفين بلفظ: «ألو»، فهي لفظة مُولَّدة، فرنسيةُ المولد، يأباها اللسان العربي، وقد تقلَّص ظِلُّها.

ومما يُنْهَى عنه هنا: سكوت المتَّصِل إذا رُفِعت «السماعة» حتى يتكلم المتصَل به، وهذا فيه إخلال بالأدب من عِدة جهات لا تخفى:

منها: مخالفة السنة في بدء المستأذن والقادم بالسلام.

ومنها: أن المتَّصِل هو الطالب، فعليه المبادرة بالسلام فالكلام.

ومنها: أن بعض من ضَعُف أدبهم، وضَمُر إحساسهم ولُطْفُهم، يقصد الفحص والتعرُّف، هل أنت موجود أم لا؟ فإذا رفعتَ السماعة، وقلت: نعم، عرف المراد، فوضعها. وهذا التفحُّص من التخوُّن المرذول.

- إذا أجابك صاحبُ الهاتف، وقال: من المتكلم؟ فقل: فلان الفلاني، أو بما يُعَرِّف شخصك عنده.

- واحذر الجواب بما فيه تعمية مثل: أنا. أنا صديقه. أنا جاره. وهكذا.

عن جابر ﷺ قال: استأذنتُ على النبيِّ ﷺ، فقال: «من هذا؟» فقلت: أنا. فقال النبي ﷺ: «أنا أنا»[1]. وفي رواية: كأنه كَرِهَه.

ومن التعريف المُبهَم ما يقوله بعضهم، إذا قيل له: مَن المتكلم؟ قال: أبو

(١) سبق تخريجه.

فلان. فما عرف هذا من طريقة السلف، أنهم يعرِّفون الناسَ على ذواتهم بالكنى، وإنما يكون التعريف بجرِّ النسبِ: فلان الفلاني. وكانوا يكتنون ليَدْعُوهم الطالِبُ بها.

هذا ما لم يشتهر الشخص بالكنية، حتى قامت مقام الاسم، ومنها في الصحابة ﷺ: أبو بكر، أبو ذر، أم هانئ، ﷺ.

- واحذرْ أن تحجم عن الإخبار باسمك، إذا لم تجد الشخص المراد، ففي هذا نقصٌ في الأدب، واستصغار للآخرين، وإشغالٌ لبال أهل الدار.

خَتمُ المُهاتفة بالسلام:

كما بدأت المهاتفة بتحيَّة الإسلام، فاختمها كذلك بشعار الإسلام؛ السلام، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا انتهى أحدكم إلى مجلسٍ، فليُسلِّم، فإذا أراد أن يقوم، فليُسلِّمْ، فليست الأولى بأحق من الآخرة»[(١)].

خفض الصوت:

الزَمِ الأدب العام في المحادثة والكلام: «خَفْضَ الصوت»، فليكن صوتُك في الهاتف منخفضًا مسموعًا متوسط الأداء، لا مُزْعِجًا، ولا مُخافِتًا.

وفي هذا أدبٌ جمٌّ مع والديك، ومَن في درجتهما في القدر والمكانة، ومع ذي الشأن، ومع مَن هو دونك في السنِّ أو القدر، تدخل عليه السرور، وأن له عندك منزلة، فتكسب الأصدقاء والمحبِّين.

فاحذَرْ، رفع الصوت عن مقدار الحاجة، واحذر المخافتةَ، فكل منهما إخلال بما أدَّبك الله سبحانه به، في قوله تعالى في وصيَّة لقمان لابنه: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾

(١) سبق تخريجه.

[لقمان:١٩]، وكم فيه من دلالة على ما لا ينبغي، ومنه قلة احترامك لمن تتحدَّث إليه، وكم كانت طريقة بعضهم في المكالمات سببًا للحرمان من المطلوب أو من خير كثير.

الهاتف للمرأة:

وإن كان أحد المهاتفين امرأة، فلتحذر الخضوع بالقول، فإن الله سبحانه نهى نساء نبيِّه ﷺ أمهات المؤمنين ﵅ اللاتي لا يطمع فيهن طامع، وهنَّ في عهد النبوة، وحياة الصحابة ﵃، نهاهنَّ عن أن يخضعن بالقول، فقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٣٢﴾﴾ [الأحزاب:٣٢] فكيف بمن سواهن؟ ومعنى قوله: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٣٢﴾﴾، أي: بلا ترخيم ولا تمطيط، فلا تخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها.

- ولتحذر المرأة الاسترسال في الكلام مع الرجال الأجانب عنها [إلا على قدر الحاجة].

- ولتحذر رفعَ الصوت عن المعتاد، وتمطيط الكلام، وتحسينه وتليينه وترخيمه، وترقيقه وتنغيمه بالنَّبْرَة اللَّيِّنَة واللَّهْجة الخاضعة.

- وإذا كان يحرُم عليها ذلك، فيحرُم على الرجل سماع صوتها بتلذُّذ، وإذا شَعُرت المرأة بذلك حرم عليها الاستمرار في الكلام معه، لما يدعو إليه من الفتنة.

إنزال الناس منازلهم:

راعِ الأدبَ في المهاتفة حَسَبَ مَقام المتكلم معك ومنزلته، في السن والقدر والقرابة وذي الشأن، لا سيما العالم العامل.

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «أنزلوا الناس منازلهم»[1].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليس منا من لم يُوقِّر كبيرنا، ويَرحَم صغيرنا، ويَعرِف لعالمنا حقَّه»[2].

- إذا كلمك صاحبك، فوجدت حفاوته أقلَّ من المعتاد، فلا يؤثِّر ذلك عليك فتَجْفُوه، والتمس له في نفسك العذر، فلعلَّ لديه اهتمامات أخرى هي أهم، أو ما غيَّر مزاجه، وكدَّرَ صفو حياته، فعليك بحسن الظن- رعاك اللَّه- وإن تكون لديك بالقرائن لا بالوساوس، أنها جفوة لأجلك، فكن خفيف الظل، رعاك اللَّه ثانية.

- من الأدب ألَّا تتصل بشخص وأنت في دارك في وسط من اختلاط الأصوات، وضجيج الأولاد، فعليك بالتصون، وحفظ العورات، وإظهار المكرمات، ولا تحملك الألفة على التبذل.

- ولا تحملك الأُلفة- أيضًا- ومَتَانَةُ الصحبة، على القهقهة، والإسفاف، والتبذل، فإنه يجُرُّك إلى استمرائه مع الآخرين، فيصير طبعًا لك تُعرف به.

- ومن رعاية المصالح وحفظ الأمانة، أن تجعل لكل هاتف وظيفته، فلا تشغل هاتف المكتب- الذي تعمل فيه موظفًا- بشؤونك الخاصة، وتدبير أمورك،

---

(١) رواه أبو داود في الأدب (٤٨٤٢)، وعلقه مسلم في مقدمة الصحيح (١/ ٦)، وصححه الحاكم في معرفة علوم الحديث ص ٤٨.

(٢) رواه أحمد (٢٢٧٥٥)، وقال مخرجوه: صحيح لغيره دون قوله: "ويعرف لعالمنا حقه". والطحاوي في مشكل الآثار (٣/ ٣٦٥)، والحاكم في العلم (١/ ١٢٢)، وقال: ومالك بن خير الزيادي مصري ثقة، وأبوقبيل تابعي كبير. وقال الذهبي: مالك ثقة مصري. وحسن إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٦٤)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٠١)، عن عبادة بن الصامت.

هذا هو الأصل، وللناس في ذلك أحوال، ضابطها: رعاية الأصلح[(١)].

استعمال هاتف غيرك:

اجتهد ما استطعت في ترك الاستعمال لهاتف غيرك، فإن ألجأتك حاجةٌ، فاحذر من استعمال هاتفه إلا بَعْدَ التلطُّف باستئذانه، ولا تطلب الإذن من قليل ذات اليد، ولا من ضَيِّق نَفْسٍ؛ يأذَنُ وهو مُتَبَرِّم»[(٢)].

حكم التنصت على المكالمات وتسجيل مكالمات الآخرين دون علمهم:

التنصت على مكالمات الآخرين له حكم التجسس المنهي عنه في القرآن والسنة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات:١٢]. وقال ﷺ: «لا تحسَّسوا، ولا تجسَّسوا»[(٣)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال: «من استمع إلى حديث قومٍ وهم له كارهون، صُبَّ في أذنيه الآنُك يوم القيامة»[(٤)].

ويدخل في ذلك تسجيل مكالمات الآخرين دون علمهم، لإفشائها للآخرين، أو لابتزازهم أو ما شابه.

وكذلك يحرم أن تسجل حديث مُهاتِفك من أجل إطلاع الآخرين عليه، ففي ذلك مكر وخديعة وإفشاء للسر وخيانة للأمانة، وفي الحديث: «إذا حدث الرجل

---

(١) الذي نراه أن استخدام الهاتف في مكالمات يسيرة مما يتسامح في مثله أصحاب الأعمال لا يضر ما دام لم يترتب عليه ضياع وقت، ولا ضياع مال ذي قيمة.

(٢) أدب الهاتف، د. بكر أبو زيد ص ١٢-٢١، دار العاصمة، الطبعة الثانية:١٤١٨ه١٩٩٧م، بتصرف واختصار.

(٣) متفق عليه: البخاري في الآداب (٦٠٦٦)، ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٦٣).

(٤) رواه البخاري في التعبير (٧٠٤٢)، عن ابن عباس.

الحديث ثم التفت فهي أمانة»[1].

حرمة المعاكسة الهاتفية:

الهاتف نعمة من نعم الله، يقضي الناس بها مصالحهم، ويتواصلون، ويطمئن بعضهم على بعض، ونعم الله ينبغي أن تشكر وتصان، ولا يجوز أن تُسخَّر نِعَمَ الله في معصيته، ولكن وُجد في عصرنا مِن معدومي المروءة والشهامة والأخلاق وقليلي الدين والإيمان مَن يستخدمون الهاتف في معاكسة الفتيات أو النساء في بيوتهنَّ، فيقلب النعمة إلى نقمة، والعياذ بالله ﷻ.

ولا يشك عاقل في تحريم المعاكسات الهاتفية وشدة خطورتها على الفرد والأسرة والمجتمع، وأنها من خوارم المروءة وسبل الفساد.

ونذكر هؤلاء بقوله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [ق:١٨].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ۝٣٦﴾ [الإسراء:٣٦].

هذه جملة من آداب استعمال الهاتف، على المسلم التحلِّي بها، ومجموعة من المناهي والمحاذير التي يجب اجتنابها، وهي تدل على غيرها ممَّا لم يذكر، والحمد لله رب العالمين.

❁❁❁

(١) رواه أحمد (١٥٠٦٢) وقال مخرجوه: حسن لغيره، وأبو داود في الأدب (٤٨٦٨)، والترمذي في البر والصلة (١٩٥٩) وقال: حديث حسن، وحسَّنه الألباني في الصحيحة (١٠٩٠)، عن جابر بن عبد الله.

الباب السادس

أدب المسلم

مع الصحة والوقاية والمرض والتداوي والعيادة

الباب السادس

مع الصحة والوقاية والمرض والتداوي والعيادة

الصحة نعمة من أجلِّ نعم الله على الإنسان، التي يجب أن تقابل بالشكر، وأول شكر النعمة الحفاظ عليها، فينبغي للمسلم أن يحرص على أن يكون صحيح الجسم، وينبغي أن يحرص الأبوان على أن يكون ولدهما صحيح الجسم، وأن تحرص الدولة كذلك على صحة مواطنيها، وقاية وعلاجًا، والوقاية أولًا، ودرهم وقاية خير من قنطار علاج.

وشكر النعمة يكون بالمحافظة عليها، وَفق سنن الله في الأسباب والمسببات، يقول ابن القيم ﵀: «ولما كانت الصحة والعافية من أجلِّ نِعم الله على عبده، وأجزل عطاياه، وأوفر منحه، بل العافية المطلقة أجل النعم على الإطلاق، فحقيق لمن رزق حظًّا من التوفيق مراعاتها وحفظها وحمايتها عمَّا يضادها، وقد روى البخاري في «صحيحه» من حديث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «نعمتان مغبونٌ فيهما كثير من الناس: الصحةُ، والفراغ»[(١)].

وفي الترمذي وغيره من حديث عبيد الله بن مِحْصَن الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصبح مُعَافًى في جسده، آمنًا في سربه، عنده قوت يومه،

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٤١٢)، وأحمد (٣٢٠٧)، والترمذي في الزهد (٢٣٠٤).

فكأنما حيزت له الدنيا»[1].

وفي الترمذي أيضًا، من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «أول ما يُسأل عنه العبد يوم القيامة من النعيم أن يقال له: ألم نُصِحَّ لك جسمك، ونُرْوِيك من الماء البارد»[2].

ومن هاهنا قال من قال من السلف في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ [التكاثر: ٨]، قال: عن الصحة.

سؤال الله العافية:

وفي مسند الإمام أحمد، أن النبي ﷺ قال للعباس: «يا عباس، يا عم رسول الله، سل الله العافية في الدنيا والآخرة»[3].

وفيه عن أبي بكر الصديق، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «سلوا الله اليقينَ والمعافاة، فما أُوتي أحد بعد اليقين خيرًا من العافية»[4].

فجمع بين عافيتي الدين والدنيا، ولا يتم صلاح العبد في الدارين إلا باليقين والعافية، فاليقين يدفع عنه عقوبات الآخرة، والعافية تدفع عنه أمراض الدنيا في قلبه وبدنه.

---

(١) رواه الترمذي في الزهد (٢٣٤٦) وقال: حديث حسن غريب، وابن ماجه في الزهد (٤١٤١)، وحسَّنه الألباني في الصحيحة (٢٣١٨).

(٢) رواه الترمذي في التفسير (٣٣٥٨) وقال: حديث غريب، وابن حبان في مناقب الصحابة (٧٣٦٤) وقال الأرناؤوط: حديث صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٠٢٢).

(٣) رواه أحمد (١٧٨٣)، وقال مخرجوه: حسن لغيره، والترمذي في الدعوات (١٧٨٣)، وقال: حديث صحيح، والبخاري في الأدب المفرد (٧٢٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٣٨).

(٤) رواه أحمد (٥) وقال مخرجوه: إسناده صحيح، والترمذي في الدعوات (٣٥٥٨)، وقال: حسن غريب، وقال الألباني في صحيح الترغيب: حسن صحيح (٣٣٨٧).

وفي «سنن النسائي» من حديث أبي هريرة يرفعه: «سلوا الله العفو والعافية والمعافاة، فما أوتي أحد بعد يقين خيرًا من معافاة»[(١)].

وهذه الثلاثة تتضمن إزالة الشرور الماضية بالعفو، والحاضرة بالعافية، والمستقبلة بالمعافاة، فإنها تتضمن المداومة والاستمرار على العافية.

وفي الترمذي مرفوعًا: «ما سُئل الله شيئًا أحبَّ إليه من العافية»[(٢)].

ويذكر عن ابن عباس: أن أعرابيًّا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال له: ما أسأل الله بعد الصلوات الخمس؟ فقال: «سل الله العافية». فأعاد عليه، فقال له في الثالثة: «سل الله العافية في الدنيا والآخرة»[(٣)][(٤)].

---

(١) رواه النسائي في عمل اليوم والليلة (٨٨١)، وأبو يعلى (١٢٤)، والطبراني في مسند الشاميين (٥٧٩).

(٢) رواه الترمذي في الدعوات (٣٥٤٨) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن ابن أبي بكر القرشي، وهو المكي المليكي، وهو ضعيف في الحديث، قد تكلم فيه بعض أهل الحديث من قبل حفظه، وابن أبي شيبة في مصنفه (٢٩٧٩٦)، والطبراني في الدعاء (١٢٩٦)، والحاكم في الذكر والدعاء (١/ ٤٩٨)، وصحَّح إسناده.

(٣) رواه أحمد (١٧٨٣) وقال مخرجوه: حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف. والترمذي في الدعوات (٣٥١٤)، وقال: صحيح. والبخاري في الأدب المفرد (٧٢٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٣٨).

(٤) زاد المعاد (٤/ ١٩٦-١٩٨) نشر مؤسسة الرسالة ببيروت، الطبعة السابعة والعشرين ١٩٩٤م.

الفصل الأول

آداب الصحة والوقاية من الأمراض

إن موقف الإسلام من الصحة والوقاية وسلامة الأبدان، موقف لا نظير له في أيِّ دين من الأديان. فقد حرص الإسلام في تشريعاته وتوجيهاته، على وقاية الإنسان من افتراس الأمراض، والتهام الأدواء، ووضع بعض الآداب والتعاليم التي ينبغي للمسلم الأخذ بها، عناية بعافيته وبصحة جسده، ووقاية من الأمراض، إرضاءً لربه، وحرصًا على توافر القوة له، ليُقوي بها الحق، ويدرأ بها الباطل، ويشتد بها أزر المجتمع، وتقوى بها الأمة الكبرى، وينفع أهل الخير، ويقاوم أهل الشر، ومن ذلك:

أولا: العناية بالنظافة والطهارة:

من أوائل الآداب التي يُوليها المسلم والمسلمة عنايتهما بالنظافة، فقد كان مما شرعه الإسلام في سبيل العناية بالأجسام: «الطَّهارة»، فجعلها عبادة وقربة، بل فريضة من فرائضه.

ولذا كانت كُتب الشريعة في الإسلام تبدأ أول ما تبدأ بالعبادات، لقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات:٥٦].

وأول العبادات وأعظمها: الصلاة. وأول شروط الصلاة أنها تبدأ بباب عنوانه «الطهارة» أي: النظافة. فهذا أول ما يدرسه المسلم والمسلمة من فقه الإسلام، وما ذلك إلا أن الطهارة هي مفتاح العبادة اليومية (الصلاة)، كما أن الصلاة مفتاح الجنة، فلا تصح صلاة المسلم ما لم يتطهر من الحدث الأصغر بالوضوء، ومن

الحدث الأكبر بالغسل. والوضوء يتكرر في اليوم عدة مرات، تغسل فيه الأعضاء التي تتعرض للاتساخ والعرق والأتربة.

ومن شرط صحة الصلاة كذلك: نظافة الثوب والبدن والمكان، من الأخباث والقاذورات. وفوق ذلك أشاد القرآن والسُّنَّة بالنظافة وأهلها. فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة:٢٢٢]، وأثنى على أهل مسجد قُباء فقال: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ [التوبة:١٠٨].

وقال النبي ﷺ: «الطُّهور شَطْر الإيمان»(١)، أي: نصفه.

وعند الطبراني بسند ضعيف: «النظافة تدعو إلى الإيمان، والإيمان مع صاحبه في الجنة»(٢).

ومن ذلك شاعت بين المسلمين هذه الحكمة التي ينطق بها خاصَّتهم وعامَّتهم، ولا يعرف لها مثيل عند غيرهم، وهي: «النظافة من الإيمان».

ورُوِيَ في بعض الأحاديث التي ضعُف سندها: «تنظَّفوا، فإن الإسلام نظيف»(٣). «تنظفوا حتى تكونوا كالشامة بين الأمم»(٤). وإن كان عندنا من الآيات وصحاح الأحاديث ما يكفي.

---

(١) رواه البخاري في البيوع (٢٠٧٢)، وابن ماجه في التجارات (٢١٣٨)، عن المقدام بن معديكرب.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (٧٣١١)، وأبو نعيم في تاريخ أصبهان (٦٣٩)، وقال الهيثمي في المجمع (١٢١٢): فيه إبراهيم بن حيان، قال ابن عدي: أحاديثه موضوعة. وحسنه السيوطي في الصغير (٣٢٦٧)، والمناوي في التيسير (١/ ٩٠٤)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ١٠٣): وقفه في الكبير على ابن مسعود بإسناد حسن، وهو الأشبه.

(٣) رواه الطبراني في الأوسط (٤٨٩٣)، وقال الهيثمي في المجمع (٨٥٧٩): رواه الطبراني في الأوسط، وفيه نعيم بن مورع، وهو ضعيف. وذكره الألباني في ضعيف الجامع (٢٢٨١)، عن عائشة.

(٤) رواه أبو داود في اللباس (٤٠٨٩)، والطبراني (٦/ ٩٤)، والحاكم في اللباس (٤/ ١٨٣)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، وضعَّفه الألباني في الإرواء (٢١٣٣)، عن أبي الدرداء.

وقد عُني النبي ﷺ بنظافة الإنسان، فدعا إلى الاغتسال، وخاصة يوم الجمعة: «غسل الجمعة واجب على كل محتلم»[1]. و«حقٌّ على كل مسلم في كل سبعة أيام: يومٌ يغسل فيه رأسه وجسده»[2].

وعُني بنظافة الفم والأسنان خاصة، فرغَّب في السواك أعظم الترغيب: «السواك مطهرة للفم مرضاة للرب»[3].

وبنظافة الشعر: «من كان له شعر فليكرمه»[4]. وبإزالة شعر الإبط والعانة، وتقليم الأظفار.

وعُني بنظافة البيت وساحاته وأفنيته، فقال: «إن الله جميل يحبُّ الجمال، طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، فنظفوا أفنيتكم، ولا تَشَبَّهوا باليهود»[5].

وعُني بنظافة الطريق، وتوعد كل من ألقى فيه أذًى أو قذرًا، ووعد بالمثوبة من أماط ما يؤذي الناس عنه: «وتميط الأذى عن الطريق صدقة»[6].

وحذَّر أشد التحذير من أعمال قد يرتكبها بعض الجهال دون اكتراث لنتائجها. مع أنها تعد من أشد مصادر العدوى خطرًا، فضلًا عما في ارتكابها من منافاة الذوق السليم، والبعد عن خصائص الإنسان الراقي.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٨٧٩)، ومسلم (٨٤٦)، كلاهما في الجمعة، عن أبي سعيد الخدري.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٨٩٧)، ومسلم (٨٤٩)، كلاهما في الجمعة، عن أبي هريرة.

(٣) رواه أحمد (٢٤٢٠٣) وقال مخرجوه: صحيح لغيره. والنسائي (٥)، وابن حبان (١٠٦٧)، كلاهما في الطهارة، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٥١٧)، عن عائشة.

(٤) رواه أبو داود في الترجل (٤١٦٣)، والطحاوي في مشكل الآثار (٨/ ٤٣٤)، والطبراني في الأوسط (٨٤٨٥)، وصححه الألباني في الصحيحة (٥٠٠)، عن أبي هريرة.

(٥) رواه الترمذي في الأدب (٢٧٩٩) وقال: هذا حديث غريب، وخالد بن إلياس يضعف. ورواه البزار (١١١٤)، وضعفه الألباني في تخريج الحلال والحرام (١١٣)، عن سعد بن أبي وقاص.

(٦) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٨٩)، ومسلم في الزكاة (١٠٠٩) عن أبي هريرة.

ومن هذه الأعمال: البول في الماء، وبخاصة الراكد، والبول في الحمام (حوض الاستحمام)، والتبرز في الظل، أو في الطريق، أو في موارد الماء. وسمى النبي ﷺ هذه الأمور: «الملاعن الثلاث»[1]؛ لأنها تجلب على صاحبها لعنة الله والملائكة والصالحين من الناس.

ثانياً: الحرص على العمل والحركة:

ومن أدب المسلم: أن يعتني بكل ما عُنِي به الإسلام في جانب الصحة، ومن ذلك: دعوته إلى النشاط والعمل، والتعوُّذ بالله من العجز والكسل، والحثُّ على الحركة والبكور، لذلك رغب الإسلام في العمل والنشاط والحركة والبكور، كما جاء في الحديث: «إن الله بارك لأمتي في بكورها»[2]. وفسَّر الرسول القوة في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠] فقال: «القوة: الرمي»[3]. أي: قوة الأبدان وتدريبها على الرمي بالسهام والمدافع والبنادق ونحوها. وحذَّر من التباطؤ والتكاسل والترهُّل: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل»[4]. ودعا إلى رياضة الأجسام بالسباحة والرماية وركوب الخيل، وما شابهها من ألوان الفروسية، وفي الحديث: «ارموا واركبوا»[5]. وجعل من حقِّ الأولاد على آبائهم أن

---

(١) رواه أبو داود (٢٦)، وابن ماجه (٣٢٨)، والحاكم (١/ ١٦٧)، وصحَّح إسناده ووافقه الذهبي، والبيهقي (١/ ٩٧)، جميعهم في الطهارة، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (٢١)، عن معاذ.

(٢) رواه أحمد (١٥٤٤٣) وقال مخرجوه: حسن لغيره، وأبو داود في الجهاد (٢٦٠٦)، والترمذي في البيوع (١٢١٢) وقال: حسن، وابن ماجه في التجارات (٢٢٣٦)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٣٤٥)، عن صخر الغامدي.

(٣) رواه مسلم في الإمارة (١٩١٧)، وأحمد (١٧٤٣٢)، وأبو داود (٢٥١٤)، والترمذي (٣٠٨٣) كلاهما في الجهاد، عن عقبة بن عامر.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٢٣)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٠٦)، عن أنس.

(٥) رواه أحمد (١٧٣٠٠)، وقال مخرِّجوه: حديث حسن بمجموع طرقه وشواهده، وأبو داود في الجهاد

يدربوهم على ذلك، وينشئوهم على رعاية القوة، وشرع التنافس والمسابقات تشجيعًا على ذلك، وإغراء به. وسبَّق النبي ﷺ بين الخيل، وأعطى السابق، كما شرع المسابقة على الأقدام ونحوها.

ثالثًا: البعد عن كل ما يضر الجسد من المسكرات والمفترات:

ومن أدب المسلم: المحافظة على جسده من كل ما يمرضه ويؤذيه ويضعفه ويضره، ومن هنا كانت عناية الإسلام بصحة الأجسام، وكان تحريمه المسكرات والمُفَتِّرات (المُخَدِّرات)، مهما اتخذت لها من أسماء وعناوين، وتشديده في ذلك غاية التشديد، وإيجابه العقوبة الشرعية على من تناولها، وتأثيمه كل من شارك فيها بجهد ما، يساعد على تناولها، حتى إنه لعن في الخمر عشرة[(١)]. والخمر ما خامر العقل، وأخرجه عن صفته، التي تجعله حاكمًا، ومميزًا بين الأشياء.

رابعًا: الاعتدال في تناول الطيبات، فلا يحرم الجسد منها، ولا يسرف فيها:

ومن أدب المسلم: التوسط والاعتدال في تناول الطيبات، فلا يحرم نفسه منها، ولا يسرف فيها، فإن موقف الإسلام هو القصد والاعتدال في تناول ما أحلَّ الله تعالى. فقد أنكر الإسلام على مَنْ حرَّم ما أحلَّ الله من الطيبات تديُّنًا، أو شحًّا، فقال: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف:٣٢]، ﴿يَا أَيُّهَا

= (٢٥١٣)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٣٧)، وقال: حسن صحيح. والنسائي في الخيل (٣٥٧٨)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨١١)، وحسنه السيوطي في الصغير (٩٥٥). وضعَّفه الألباني في غاية المرام (٣٨٨)، عن عقبة بن عامر الجهني.

(١) رواه الترمذي في البيوع (١٢٩٥)، وقال: حديث غريب، وابن ماجه في الأشربة (٣٣٨١)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٢٣٥٧)، عن أنس.

الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾ [المائدة:٨٧].

وفي مقابل ذلك نهى عن الإسراف في الطعام والشراب، خشية الإضرار بالبدن: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأعراف:٣١]. والإسلام دين اعتدال وتوازن في كل شيء.

خامسًا: النهي عن إرهاق البدن:

وهكذا أدب المسلم في حياته كلها، فهو أبدًا مع توجيهات القرآن والسنة، ومع الإسلام الذي حرَّم إرهاق البدن بالعمل وطول السهر والجوع، وإن كان ذلك في صورة عبادة الله تعالى، فقد أنكر النبي ﷺ على رهط من أصحابه: أراد أحدهم أن يقوم الليل فلا ينام، والثاني أن يصوم الدهر فلا يفطر، والثالث أن يعتزل النساء فلا يتزوج. وقال لهم: «أنا أعلمكم بالله وأخشاكم له، ولكني أقوم وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[(١)]. كما أنه أنكر على عثمان بن مظعون وعبد الله بن عمرو وغيرهما الغلو في التعبد، مذكرًا بحق أبدانهم وأسرهم ومجتمعهم عليهم. وقال لعبد الله بن عمرو: «إن لبدنك عليك حقًا - أي: في الراحة - وإن لعينك عليك حقًا - أي: في النوم - وإن لزَوْرك عليك حقًا»[(٢)] - أي: في المشاركة - كما أن لربه سبحانه عليه حقًا، فليعطِ كل ذي حقٍّ حقه.

سادسًا: العدول إلى الرخصة إذا كانت العزيمة تسبِّب أذى للجسد:

ومن أدب المسلم: ألا ينزع إلى التشديد على نفسه دائمًا، بل من حقِّه أن يميل أحيانًا إلى الرُّخَص، تاركًا العزائم، فمن عناية الإسلام بحقِّ الأجسام ما شرعه من

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١)، كلاهما في النكاح، عن أنس بن مالك.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٩٧٥)، ومسلم (١١٥٩)، كلاهما في الصيام.

رُخَص في أداء الفرائض، إذا كان العمل بالعزائم يؤذي الجسم، كأن يسبِّب له مرضًا محتملًا، أو يزيد في مرض قائم، أو يؤخر الشفاء منه، أو يؤدِّي إلى مشقة زائدة، فهنالك يدع الوضوء إلى التيمم، والصلاة قائمًا إلى الصلاة قاعدًا أو مضطجعًا، وله الفطر في رمضان، إلى غير ذلك من أنواع الرخص والتخفيف إلى بدل، أو إلى غير بدل، حتى أصبح مقررًا عند عامة المسلمين: أن صحة الأبدان مقدمة على صحة الأديان.

وصدق الله إذ قال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨]، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء:٢٨].

الفصل الثاني

آداب عامة للطب والتداوي

ومن أدب المسلم: أن يعرض نفسه على الطبيب المختص بالأسرة، أو بالمدرسة، أو بالمستشفى إذا احتاج إلى ذلك.

فالإسلام كما عُني بصحة الأجساد، عُني كذلك بتطبيبها، سواء أكان طبًّا علاجيًّا أم وقائيًّا، وإن كانت عنايته بالوقائي أكثر، لما هو معلوم: أن درهم وقاية خير من قنطار علاج.

وقد ورد عن النبي ﷺ جملة أحاديث تصف بعض الأدوية لبعض الأمراض. وقد اهتمَّ بها بعض العلماء؛ ظانين أنها كلها جزء من الدين والوحي الإلهي، ولكن الواقع أن منها ما هو من خبرات البيئة ونتائجها، ومنها ما يليق ببيئة معينة، في حرارتها ومناخها وظروفها، كالبيئة الصحراوية العربية، ولا يمكن أن يحمل على العموم لكل الناس، كما بين ذلك المحقق ابن القيم رحمه الله[(١)].

القواعد الإسلامية لإقامة صحة إسلامية وطب إسلامي:

على أن هناك جانبًا مهمًّا يتعلق بالطب، يغفله الكثيرون ممَّن يروق لهم الحديث عن الطب النبوي، أو الطب في الإسلام، ذلك هو الجانب التوجيهي الذي يتصل بمهمة الدين ووظيفة الرسول.

---

(١) زاد المعاد (٤/ ١٠٧- ١٠٨).

فقد أدخلت الأديان الوثنية والمحرفة أفكارًا فاسدة، وخرافات باطلة، عوَّقت نمو الطب الصحيح، وأفسدت الانتفاع به، فجاء نبي الإسلام، فطارد تلك الأوهام، وصحَّح تلك الأغلاط، ووضع جملة من المبادئ الخالدة، تعدُّ بحق حَجَر الأساس، لقيام صرح مَشِيد لصحَّة عامَّة، ولطبٍّ إنساني علميٍّ سليم، وهذه القواعد ليست قواعد نظرية، بل هي في الوقت نفسه آداب وقواعد ينبغي للمسلم أن يلتزمها ويتأدب بها ويطبقها كما سنرى.

من هذه القواعد أو المبادئ المحمدية، إقرار قيمة البدن وحقِّه:

من هذه المبادئ الإسلامية في الصحة التي يحرص عليها كل من يتأدَّب بأدب الإسلام: إقرار قيمة البدن، ونعمة العافية في حياة الناس، فقد قرَّر قيمة البدن وحقَّه على صاحبه: حيث سمع الناس لأول مرة في جو الدين: «إن لبدنك عليك حقًّا»[(١)].

وجعل الإسلام من حق البدن على صاحبه أن يطعمه إذا جاع، ويريحه إذا تعب، وينظفه إذا اتَّسخ، ويقويه إذا ضعف، وكذلك يداويه إذا مرض.

وهو حق وواجب، لا يجوز في نظر الإسلام أن يُنسى أو يُهمل لحساب الواجبات الأخرى، أو الحقوق الأخرى، ولو لحق الله ﷻ.

ورأى الناس الدين لأول مرة أن يعلم أتباعه أن يسألوا الله العافية، ففي دعاء القنوت يقول المسلم وهو يصلي: «وعافني فيمن عافيت»[(٢)]. وفي الدعاء بين السجدتين: «اللهم عافني، وارزقني»[(٣)].

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه أحمد (١٧١٨)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح، رجاله كلهم ثقات، وأبو داود في الصلاة (١٤٢٥)، والترمذي في الوتر (٤٦٤)، وقال: حسن، والنسائي في قيام الليل (١٧٤٥)، عن الحسن ابن علي.

(٣) رواه أبو داود (٨٥٠)، والترمذي (٢٨٤)، كلاهما في الصلاة، وحسنه النووي في الخلاصة (١/ ٤١٥)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٣٣)، عن ابن عباس.

وفي الدعاء العام: «اللهم إني أسألك العفو والعافية»[1].

درء تعارض التداوي والإيمان بالقدر:

ومن أدب المسلم: أنه يفكر تفكيرًا سليمًا، ولا يعتقد أن هناك تعارضًا بين التداوي من الأمراض والإيمان بالقدر، فقد كان بعض المتدينين يعتقدون: أنَّ الإيمان بالقدر يعارض التداوي وطلب العلاج، ظانِّين أنَّ عليهم الصبر على البلاء، والرضا بالقضاء، وعدم تطلب الدواء. يقول أبو خزامة: قلت: يا رسول الله، أرأيت رُقًى نسترقيها، ودواء نتداوى به، وتُقاةً نتقيها، فهل ترد من قدر الله شيئًا؟ قال: «هي من قدر الله»[2].

وجاءت الأعراب فقالوا: يا رسول الله، أنتداوى؟ قال: «نعم، فإن الله ﷻ لم يضع داء إلا وضع له شفاء»[3].

وهذا الجواب النبوي هو الجواب الحاسم، فإن الله قدر الأسباب والمسبِّبات، وجعل من سننه في خلقه دفع قدر بقدر، فيدفع قدر الجوع بقدر الغذاء، ويدفع قدر العطش بقدر الشرب، وقدر الداء بقدر الدواء، وكل من الدافع والمدفوع قدر الله، فإنه عليه الصلاة والسلام كان يتداوى في نفسه، ويأمر به لمن أصابه مرض من أهله وأصحابه.

---

(١) رواه أحمد (٤٧٨٥)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح رجاله ثقات، وأبو داود في الأدب (٥٠٧٤)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٧١)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣١٢١)، عن ابن عمر.

(٢) رواه أحمد (١٥٤٧٢) وقال مخرجوه: إسناده ضعيف على خطأ فيه. والترمذي (٢٠٦٥) وقال: حسن، وابن ماجه (٣٤٣٧)، كلاهما في الطب، وحسنه الألباني في تخريج مشكلة الفقر (١١).

(٣) رواه أحمد (١٨٤٥٤)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح، وأبو داود (٣٨٥٥)، والترمذي (٢٠٣٨) وقال: حسن صحيح، كلاهما في الطب، عن أسامة بن شريك.

وفي الصحيح من حديث جابر، أن النبي ﷺ بعث إلى أبيّ بن كعب طبيبًا، فقطع له عرقًا، وكواه عليه[1].

وحينما ذهب عمر إلى الشام، وعلم قبل دخولها أن هناك طاعونًا، شاور أصحابه في الرجوع، واستقرَّ الرأي بعد مشاورات عدة على العودة بمن معه، بُعدًا بهم عن مواطن الخطر، فقد قال أبو عبيدة حينما لقي عمرًا: أنفرُّ من قَدَر الله يا أمير المؤمنين؟ قال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة! نعم، نفرُّ من قدر الله إلى قدر الله، أرأيتَ لو كان لك واديان أحدهما مُخصِب والآخر مُجدِب، أليس إن رعيت المُخصِب رعيته بقدر الله، وإن رعيت المجدب رعيته بقدر الله[2]؟

إقرار الحجر الصحي:

ومن أدب المسلم: أن يحترز من الأمراض المعدية، حسب سنَّة الله في العدوى، كما يحترز من كل الشرور والآفات، فقد أقرَّ الإسلام سنَّة الله في العدوى، وأمر بالاحتراز والوقاية، والعزل الصحي، في الأوبئة العامة، كالطاعون ونحوه، بل وسَّع دائرة الوقاية حتى شملت الحيوان الأعجم. وقال ﷺ: «لا يوردن مُمْرِض على مُصِحّ»[3]، والمُمْرِض: الذي إبلُه مِراض. والمُصِحُّ: الذي إبلُه صحاح. ومعنى: لا يورد عليه: لا يخلط المريضة الجرباء بالصحيحة أثناء ورود الماء للشرب.

وقال الصادق المصدوق: «فِرَّ من المجذوم فرارك من الأسد»[4].

(١) رواه مسلم في السلام (٢٢٠٧)، وأحمد (١٤٣٧٩)، وأبو داود في الطب (١٤٣٧٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الطب (٥٧٢٩)، ومسلم في السلام (٢٢١٩).

وينظر: زاد المعاد لابن القيم (٤/ ١٤-١٥).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الطب (٥٧٧١)، ومسلم في السلام (٢٢٢٠)، عن أبي هريرة.

(٤) رواه أحمد (٩٧٢٢) وقال مخرجوه: صحيح. والبخاري تعليقًا (٥٧٠٧) مجزومًا به، والبيهقي في النكاح (٧/ ١٣٥)، وصححه الألباني في الصحيحة (٧٨٣)، عن أبي هريرة.

وفي صحيح مسلم: أنه كان في وفد ثقيف رجل مجذوم، فأرسل إليه النبي ﷺ: «ارجع فقد بايعناك»[1]. وقال: «لا تديموا النظر إلى المجذومين»[2]. وقال في شأن الطاعون- وهو وباء عام-: «إذا سمعتم به بأرضٍ، فلا تدخلوا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها، فلا تخرجوا منها فرارًا منه»[3].

وهذا حصر للوباء في أضيق نطاق.

أما حديث: «لا عدوى»[4]. فهو صحيح، رواه البخاري، ولكن معناه: أن الأمراض لا تعدي بطبعها وذاتها، كما يعتقد أهل الجاهلية، بل بتقدير الله تعالى، وبناء على سُنَنه الكونية.

مقاومة ما يسمى بـ «الطب الروحاني»:

ومن أدب المسلم: أن يحترم العلم والطب القائم على رعاية سنن الله في الكائنات، وقانون الأسباب والمسبِّبات، ولا يعتمد على خرافات العجائز وأساطير الدراويش، وقد وجد المسلم الإسلام يحترم الطب القائم على الملاحظة والتجربة والأسباب والمسببات، ويحترم السنن الكونية والعلوم الإنسانية القائمة على التجربة والبرهان، وبذلك أبطل ما أشاعته الوثنية الجاهلية عند العرب وغيرهم، حتى عند أهل الكتاب، من اطِّراح الأسباب الظاهرة والسنن الكونية،

---

(١) رواه مسلم في السلام (٢٢٣١)، وأحمد (١٩٤٧٤)، والنسائي في البيعة (٤١٨٢)، وابن ماجه في الطب (٣٥٤٤)، عن الشريد الثقفي.

(٢) رواه أحمد (٢٠٧٥) وقال مخرجوه: إسناده ضعيف. وابن ماجه في الطب (٣٥٤٣)، وأبو داود الطيالسي (٢٧٢٤)، وصححه الألباني بشواهده في الصحيحة (١٠٦٤)، وضعف إسناده ابن حجر في فتح الباري (١٠/ ١٥٩)، عن ابن عباس.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الطب (٥٧٢٩)، ومسلم في السلام (٢٢١٩)، عن عبد الرحمن بن عوف.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في الطب (٥٧٥٥)، ومسلم في السلام (٢٢٢٣)، عن أبي هريرة

والاعتماد على الأسباب الخفية والقوى المجهولة من تمائم ورقًى غير مفهومة، وشعوذة يروجها السحرة والدجّالون.

فعن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت: إن عبد الله إذا جاء من حاجة، فانتهى إلى الباب، تنحنح وبزق، كراهة أن يهجم منا على أمر يكرهه. قالت: وإنه جاء ذات يوم، فتنحنح، وعندي عجوز ترقيني من الحمرة(١)، فأدخلتها تحت السرير. قالت: فدخل فجلس إلى جانبي، فرأى في عنقي خيطًا، فقال: ما هذا الخيط؟! قلت: خيط رُقي لي فيه. فأخذه فقطعه، ثم قال: إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك! سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرُّقَى والتمائم والتِّوَلة شرك». قالت: قلت له: لم تقول هذا، وقد كانت عيني تقذف، فكنت أختلف إلى فلان اليهودي يرقيها، فكان إذا رقاها سكنت؟ فقال: إنما ذاك من الشيطان، كان ينخسها بيده، فإذا رقاها كفَّ عنها، إنما يكفيك أن تقولي كما قال: النبي ﷺ: «أذهب الباس رب الناس، اشف وأنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقمًا»(٢).

والرُّقَى: جمع رقية، وهي دعاء إلى الله، يدعو به المريض، أو من يعوده من المسلمين، أو يداويه، ليشفيه الله تعالى، ولها صيغ نبوية معروفة. والمقصود هنا في الحديث غير هذا، وهو ما كان فيه استعانة بغير الله تعالى، أو كان بغير اللسان العربي.

والتولة: ما تصنعه المرأة من أشياء توصف لها، ليحبها الرجل، أو يصنعها الرجل لتحبه المرأة. وهو من ألوان السحر.

(١) قال ابن منظور: والحمرة: داء يعتري الناس فيحمر موضعها، وتغالب بالرقية. قال الأزهري: الحمرة من جنس الطواعين، نعوذ بالله منها. اللسان (حمر).

(٢) رواه أحمد (٣٦١٥) وقال مخرجوه: صحيح لغيره، وأبو داوود (٣٨٨٣)، وابن ماجه (٣٥٣٠)، كلاهما في الطب، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٨٤٥)، عن ابن مسعود.

والتمائم: جمع تميمة، وهي: ما يعلق على المريض من خرز أو خيط، أو ورق كتب فيه ما لا يفهم، ليشفى به.

وعن عيسى بن عبد الرحمن قال: دخلتُ على عبد الله بن حكيم، وهو مريض، نعوده، فقيل له: لو تعلقت شيئًا. أي حجابًا، أو حِرْزًا أو نحو ذلك. فقال: أتعلق شيئًا وقد قال رسول الله ﷺ: «مَن تعلَّق شيئًا وكل إليه»(١).

وعن عقبة بن عامر، عن الرسول ﷺ: «من علَّق تميمة، فقد أشرك»(٢). وفي رواية: «من علَّق تميمة، فلا أتم الله له، ومن علَّق وَدَعة، فلا ودع الله له»(٣).

ووضع مبدأً تشريعيًّا بقطع الطريق على مَن يدَّعون الطب، وليسوا من أهله، فقال: «مَن تطبَّب ولم يُعرف منه طبٌّ فهو ضامن»(٤).

أي: يدَّعي أنه يعلم الطب ولم يدرس، أو لم يعرف هذا التخصص، أو لم يحسنه، فالواجب عليه ألا يدخل نفسه فيما لا يحسنه، وفي عصرنا: لا بد أن يكون حاملًا للشهادة. ولذا كان من الواجب على من يعرف من نفسه أنه جاهل، أن يتأخَّر عن التطبيب.

وأما الرُّقَى فهي دعاء وتضرُّع إلى الله، وليست بدواء، وقد حصر النبي ﷺ

---

(١) رواه أحمد (١٨٧٨١)، وقال مخرجوه: حسن لغيره، والترمذي في الطب (٢٠٧٢)، والنسائي في تحريم الدم (٤٠٧٩) عن عبد الله بن حكيم.

(٢) رواه أحمد (١٧٤٢٢)، وقال مخرجوه: إسناده قوي، وصححه الألباني في الصحيحة (٤٩٢)، عن عقبة بن عامر.

(٣) رواه ابن حبان في الرقى والتمائم (٦٠٨٦)، والحاكم في الطب (٤/ ٢١٦)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، عن عقبة بن عامر.

(٤) رواه أبو داود في الديات (٤٥٨٦)، والنسائي في القسامة (٤٨٣٠)، وابن ماجه في الطب (٣٤٦٦)، والحاكم في الطب (٤/ ٢١٢)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في الصحيحة (٦٣٥)، عن عبد الله بن عمرو.

الأدوية بحسب زمنه، فقال: «الشفاء في ثلاث: شربة عسل، وشَرْطة مِحْجم، وكية بنار»[(١)]، ولم يعُدَّ منها الرقية أو ما يماثلها.

فتح باب الأمل على مصراعيه أمام الأطباء والمرضى معاً:

ومن أدب المسلم: اتِّساع رجائه في رحمة الله تعالى، وفي أمله في قدرته على شفاء مَن يريد شفاءه، وأنه لا يوجد عند الله مرض ميئوس من شفائه، فكل مرض قابل لأن يزول، وكل مريض قابل لأن يشفى. وهذه من القواعد التي وضعها الإسلام أمام الجميع: أطباء، ومرضى، وأقرباء لهم، فتح باب الأمل أمامهم، وذلك في الشفاء من كل مرض، مهما طال واتصل، وقضى على اليأس المحطِّم، وعلى ما يسمى بالأمراض المستعصية، فقال ﷺ: «ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء»[(٢)].

وعن جابر بن عبد الله، أن النبي ﷺ: «لكل داء دواء، فإذا أُصيب دواءُ الداء، برئ بإذن الله تعالى»[(٣)].

وروى أحمد، عن عبد الله بن مسعود مرفوعًا: «إن الله لم يُنزل داء إلا أنزل له شفاء، علمه من علمه، وجهله من جهله»[(٤)].

قال الشوكاني: «فيه دليل على أنه لا بأس بالتداوي لمن كان به داء، قد اعترف الأطباء بأنه لا دواء له، وأقرُّوا بالعجز عنه»[(٥)].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الطب (٥٧٠٢)، ومسلم في السلام (٢٢٠٥)، عن جابر.

(٢) رواه البخاري (٥٦٧٨)، والنسائي في الكبرى (٧٥١٣)، وابن ماجه (٣٤٣٩)، ثلاثتهم في الطب، عن أبي هريرة.

(٣) رواه مسلم في السلام (٢٢٠٤)، وأحمد (١٤٥٩٧)، عن جابر.

(٤) رواه أحمد (٣٥٧٨) وقال مخرجوه: صحيح لغيره، والحاكم في الطب (٤/ ٣٩٩)، وصححه، ووافقه الذهبي، والبيهقي في الضحايا (٩/ ٣٤٣)، وصححه الألباني في الصحيحة (٤٥١)، عن ابن مسعود.

(٥) نيل الأوطار (٨/ ٢٣١)، نشر دار الحديث- مصر، ط الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

وقال ابن القيم في «زاد المعاد»: «في قوله ﷺ: «لكل داء دواء»، تقوية لنفس المريض والطبيب، وحثٌّ على طلب ذلك الدواء والتفتيش عليه، فإن المريض إذا شعرت نفسه أن لدائه دواء، يزيد تعلُّق قلبه بِرَوْح الرجاء، وبردت عنده حرارة اليأس، وانفتح له باب الرجاء، ومتى قويت نفسه انبعثت حرارته الغريزية، وكان ذلك سببًا لقوة الأرواح الحيوية والنفسانية والطبيعية، ومتى قويت هذه الأرواح قويت القُوى التي هي حاملة لها، فقهرت المرض ودفعته.

وكذلك الطبيب إذا علم أن لهذا الداء دواء أمكنه طلبه والتفتيش عليه، وأمراض الأبدان على وزن أمراض القلوب، وما جعل الله للقلب مرضًا إلا جعل له شفاء بضده، فإن علمه صاحب الداء واستعمله، وصادف داء قلبه، أبرأه بإذن الله تعالى»[1].

عناية الإسلام بالصحة النفسيَّة عناية فائقة:

ومن أدب المسلم: أنه يعتقد في إمكان الشفاء من الأمراض كلها بدنية كانت أو نفسية، ولا حرج على فضل الله، وقد عُني الإسلام ورسوله المعلِّم بالصحة النفسيَّة عناية بالغة، وكما قيل[2]:

فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

ولا ريب أن بين الناحية النفسية والناحية الجسمية تبادلًا في التأثير، كلاهما يؤثر في الآخر: قوة وضعفًا، وصحة وسقمًا، واعتدالًا وانحرافًا، وقد أثبت ذلك علماء النفس، وأطباء الجسم من قديم.

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٦٩).

(٢) القائل أبو الفتح البستي، وهذا عجز بيت، صدره:

أقبل على النفس فاستكمل فضائلها

وقديمًا قالوا: العقل السليم في الجسم السليم. وعلق على ذلك برناردشو فقال: بل الجسم السليم في العقل السليم!

وقد أشار النبي ﷺ إلى قوة الرُّوح، وأثرها في قوة البدن، حين كانوا يبنون المسجد، والصحابة يحملون حجرًا حجرًا، وعمار بن ياسر يحمل حَجَرين حجرين، فقال: «إنَّ عمارًا مُلئ إيمانًا من قرنه إلى قدمه»[1].

وأشار إليها مرة أخرى حين نهاهم عن الوصال في الصيام، فقالوا له: تنهانا عن الوصال وتواصل؟ قال: «وأيكم مثلي! إني أبيتُ يطعمني ربي ويسقيني»[2]. ومَنْ مثله في قوة الروح حتى يحتمل ما يحتمله عليه الصلاة والسلام؟

والمؤمن أقوى الناس رُوحًا، وأصحُّهم نفسًا، فقد ملأ الإيمان ما بين جوانحه أمنًا وطمأنينة، ورضًا وأملًا وحُبًّا، وطهَّر نفسه من أدران الحقد والغلِّ والحسد والبغضاء، وأمراض القلوب الفتاكة.

وإذا كان الحسد يأكل الحسنات، كما تأكل النار الحطب، كما روي ذلك في حديث النبي ﷺ[3]. فالحق أنه يأكل فوق ذلك: صحة الإنسان وأعصابه. وما أصدق القائل: لله در الحسد ما أعدله، بدأ بصاحبه فقتله!

---

(١) رواه ابن حبان في المناقب (٧٠٧٩) وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الصحيح، وأبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ١٣٩)، عن ابن عباس.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٢٩٩)، ومسلم في الصيام (١١٠٣)، عن أبي هريرة.

(٣) إشارة إلى قوله ﷺ: «إياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب» أو قال: «العشب». رواه أبو داود في الأدب (٤٩٠٣)، والبيهقي في شعب الإيمان في الحث على ترك الغل والحسد (٦٦٠٨)، وضعَّفه الألباني في الضعيفة (١٩٠٢)، وقال البخاري في التاريخ الكبير (٨٧٦): لا يصح. عن أبي هريرة.

والقائل:

*اصبر على كيد الحسو دِ فإن صبرك قاتله

النار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله[1]*

وفي الحديث: «دب إليكم داء الأمم من قبلكم: الحسد والبغضاء، والبغضاء هي الحالقة»[2]. والحسد داء اجتماعي ونفسي لا ريب، ومع هذا فهو داء جسماني أيضًا.

هذه هي الآداب والمبادئ الخالدة التي أرسى الإسلام قواعدها، وحرص النبي ﷺ على تثبيتها، وتأديب أمته بها، وهي جديرة إذا روعيت وطُبِّقت: أن تنشئ أجيالًا من الأصحاء الأقوياء، الذين لا ينتصر الدين ولا ترقى الدنيا إلا بهم.

(١) من شعر عبد الله بن المعتز.

(٢) رواه أحمد (١٤١٢) وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف لانقطاعه، والترمذي في صفة القيامة (٢٥١٠)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢١٢٢)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ٦١): حسن لغيره، عن الزبير بن العوام.

الفصل الثالث

أدب المريض وتصبُّره ورضاه

التغيُّر هو إحدى الظواهر العامة في المخلوقات المشهودة في عالمنا، وخصوصًا في الكائنات الحية، ولهذا تتعرض هذه الكائنات للصحة والمرض، الذي قد ينتهي بها إلى الموت.

والإنسان أرقى هذه الكائنات الحية، فلا غرو أن يصيبه ما يصيبها، بل ربما كان أكثر عرضة للإصابة بها من غيره، نتيجة لتدخل العوامل الإرادية مع العوامل الطبيعية في التأثير على حياته. ومن ثم اعتبرت الشريعة الإسلامية المرض ظاهرة عادية في حياة الإنسان، يُبتلى به كما يبتلى بغيره من الآلام، وفقًا للسنن والنواميس التي تحكم نظام الكون والحياة والإنسان.

ومن نظر في القرآن الكريم وجد كلمة «المرض» وما يشتق منها قد ذُكرت نحو خمس وعشرين مرة. بعضها يتعلّق بمرض القلوب، وأكثرها يتعلق بمرض الأبدان.

كما ذكر القرآن كلمة «الشفاء» وما اشتقّ منها ستّ مرات، جلُّها في الشفاء المعنوي. وقد عُني بذلك المحدِّثون أيضًا، كما عني الفقهاء، ولهذا نجد في كتب الحديث التي ألفت على الأبواب والموضوعات كتاب «الطب»، كما في الصحيحين، وسنن أبي داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه. وفي بعضها- مثل صحيح البخاري- كتاب «المرضى». هذا بالإضافة إلى أبواب في الرُّقى والتمائم،

والعين والسحر ونحوها. كما أن بعض ما يتعلق بالمرض مذكور في كتاب «الجنائز».

ومن هنا جاءت الشريعة الإسلامية بآداب وأحكام تتعلق بالمرض، ينبغي للمسلم أن يعرفها، أو يعرف الأهم منها، حتى يكيّف حياته في مرضه- كما يكيّفها في صحته- وفقًا لما يحبه الله تعالى ويرضاه، بعيدًا عما يكرهه ويسخطه.

ومن هذه الآداب- ما مرَّ معنا – ممَّا يتعلَّق بمداواة المرضى، وحكم هذا التداوي، ومن يقوم به، وما يتصل بذلك من أمور الطب والعلاج والدواء، وما للمرض من رخص وتخفيفات بالنسبة للفرائض والعبادات، أو بالنسبة للمحرمات والمنهيات. ويضاف إلى ذلك ما يتعلق بحال المؤمن مع الشدائد عمومًا، والمرض خصوصًا، وحقوق المريض وواجباته، ومن حوله، وسنعرض لذلك فيما يلي:

حال المؤمن مع الشدائد والمرض:

من أدب المسلم: أنه بمقتضى إيمانه بالله، وتوكله عليه: ثابت كالجبل، لا تزحزحه رياح الشدائد وإن عصفت، بل هو يرى أن الابتلاء سنة من سنن الله في خلقه، جرت على الأولين كما تجري على الآخرين، فلا ينجو منه أحد، ويكون بالخير كما يكون بالشر، وفي كلّ ما يحبّ الإنسان ويكرَه، قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ [الأعراف:١٦٨]، وقال سبحانه: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء:٣٥]، يقول ابن عباس رضي الله عنهما: نبتليكم بالشدّة والرخاء، والصحّة والسّقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، والطّاعة والمعصية، والهدى والضلالة[1].

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (١٧/ ٢٥).

ويشتدُّ البلاء على الأنبياء والصالحين، كما قال ﷺ: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلبًا اشتد بلاؤه»[1].

والابتلاء بالمرض من أنواع المصائب التي تنزل بالإنسان، ويكاد يكون ملازمًا للإنسان في حياته الدنيا، فلا ينجو منه أحد، حتى الأنبياء والرسل، وقد ورد في القرآن الكريم قصة ابتلاء سيدنا أيوب وأهله بالمرض- قال المفسرون: ثمانية عشر عامًا- فكان من الصابرين المتضرعين إلى الله بالدعاء الخالص الصادق، فكشف الله عنه الضر، يقول ﷻ: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٨٣ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ۝٨٤﴾ [الأنبياء:٨٣، ٨٤].

آداب المريض:

وللمرض إذا نزل بالمريض آداب ينبغي أن يتأدب بها نوجزها فيما يلي:

١- الصبر والرضا وعدم الشكوى:

المؤمن دائمًا راضٍ عن ربه، كيف لا وقد آمن بكماله وجماله، وأيقن بعدله ورحمته، واطمأن إلى علمه وحكمته، أحاط سبحانه بكل شيء علمًا، وأحصى كل شيء عددًا، ووسع كل شيء رحمة وعلمًا، لم يخلق شيئًا لهوًا، ولم يترك شيئًا سدًى، له الملك، وله الحمد، نعمه عليه لا تعد، وفضله عليه لا يحد، فما به من نعمة فمن الله، وما أصابه من حسنة فمن الله، وما أصابه من سيئة فمن نفسه، يردد دائمًا

(١) رواه أحمد (١٤٨١) وقال مخرجوه: إسناده حسن. والترمذي في الزهد (٢٣٩٨) وقال: حسن صحيح، والنسائي في الكبرى كتاب الطب (٧٤٨١)، عن سعد بن أبي وقاص.

هذا الثناء الذي ردده من قبل أبونا إبراهيم خليل الرحمن: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝٨٢﴾ [الشعراء: ٧٨ – ٨٢].

ويعين المؤمن على الصبر في مرضه الذي نزل به عدة أمور:

- **علمه أن المرض وقع بقدر الله:**

أولها أنه يعلم من كتاب ربه وسنة نبيه ﷺ: أن الصحة والمرض هي بقدر الله، لذلك فحال المؤمنين أمام المرض ليس كحال غيرهم، فإيمانهم بالقدر يُهون عليهم البلاء، فهم يعلمون أنَّ ما ينزل بهم من مصائب ليس ضربات عجماء، ولا خبط عشواء، ولكنه وفق قدر معلوم، وقضاء مرسوم، وحكمة أزلية، وكتابة إلهية، فآمنوا بأن ما أصابهم لم يكن ليخطئهم، وما أخطأهم لم يكن ليصيبهم: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٢٢ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣].

- **لطف الله تعالى:**

ومنها: أن لطف الله مصاحب لقدره، فالمؤمنون يعرفون من صفات الله تعالى أنه يقدِّر ويلطف، ويبتلي ويخفِّف، ومن ظن انفكاك لطفه عن قدره، فذلك لقصور نظره: ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٠٠﴾ [يوسف: ١٠٠].

وكم في المحن من منح، والله تعالى يقول: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح: ٥، ٦]. فالعسر يلاصق اليسر دائمًا، لذا استخدم القرآن لفظة (مع) الدالة على المصاحبة، فهو لا يتأخَّر عنه، بل يواكبه ويزاحمه حتى يطرده.

وعرفوا من لطف ربهم أن هذه الشدائد دروس قيِّمة لهم، وتجارب نافعة لدينهم ودنياهم، تُنضِج أنفسهم، وتُصقل إيمانهم، وتُذهب صدأ قلوبهم، كما في

الحديث: «مثل المؤمن تصيبه الوعكة من البلاء، كمثل الحديدة تدخل النار، فيذهب خَبَثُها، ويبقى طيِّبها»[1].

وما أبلغ ما قال الرافعي: «ما أشبه النكبة بالبَيضة! تُحسب سجنًا لما فيها، وهي تحوطه، وتربِّيه وتعينه على تمامه، وليس عليه إلا الصبر إلى مدة، والرضا إلى غاية، ثم تُنْقف البيضة، فيخرج خلقٌ آخر.

وما المؤمن في دنياه إلا كالفرخ في بَيْضته: عمله أن يتكوَّن فيها، وتمامه أن ينبثق شخصه الكامل، فيخرج إلى عالمه الكامل»[2].

- شعور المؤمن بنعمة الله في السراء والضراء:

والمؤمنون عرفوا من مظاهر هذا اللطف والرحمة الإلهية ما عرفه أحد السلف حين قال: وما أصبت في دنياي بمصيبة، إلا رأيت لله عليَّ فيها ثلاث نعم: أنها لم تكن في ديني، وأنها لم تكن أكبر منها، وأنني أرجو ثواب الله عليها[3].

وتلك نعم تلابس كل مصيبة في دنيا الناس، جديرة أن تشعر المؤمن بشعور الشكر لله، فضلًا عن الرضا بقضائه، والصبر على بلائه.

- مصائب الدنيا تهون:

فكل مصيبة في دنيا الإنسان في بدنه أو صحته أو ماله أو غير ذلك، قد تُعوَّض بخير منها، أما مصيبة الدين، فخسارة لا تُعوَّض، ولذلك حين خيِّر يوسف عليه السلام بين أن يصاب في دنياه، فيسجن ويكون من الصاغرين، وأن يصاب في دينه فيصبو إلى النسوة ويكون من الجاهلين، كما قالت امرأة العزيز للنسوة: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن

---

(1) رواه الحاكم في الإيمان (1/ 73)، وصحح إسناده ووافقه الذهبي، عن عبد الرحمن بن أزهر.

(2) وحي القلم (2/ 97)، نشر دار الكتب العلمية، ط الأولى 1421هـ-2000م.

(3) انظر: إحياء علوم الدين (4/ 129).

نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۝ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسف:٣٢].

حين خُيِّر يوسف بين الأمرين، كان لا بد أن يختار مصيبة الدنيا، فقال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسف:٣٣].

وكان مما علَّمه نبيُّ الإسلام لأمته أن يقولوا: «اللهم لا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همِّنا، ولا مبلغ علمنا»(١).

- بعض البلاء أهون من بعض:

وإن كل مصيبة لا شك أن هناك أكبر منها، وقديمًا قال الناس: بعض الشر أهون من بعض، وبلاء أخف من بلاء، ومن نظر لبلوى غيره، هانت عليه بلواه.

والمؤمن ينظر بعين بصيرته، فيحمد الله على أمرين:

أولهما: دفع ما كان يمكن أن يحدث من بلاء أكبر.

وثانيهما: بقاء ما كان يمكن أن يزول من نعمة غامرة وفضل جزيل.

فهو ينظر إلى النعمة الموجودة، قبل أن ينظر إلى النعمة المفقودة، وينظر إلى البلاء المتوقع، بجانب نظره إلى البلاء الواقع.

وهذا بلا شك يُحدث كثيرًا من الارتياح والرضا، فالبلاء المتوقع كثير، وقد دُفِع عنه، والنعم الموجودة كثيرة، وقد بقيت له.

وهذا عروة بن الزبير أحد فقهاء التابعين في الإسلام، وشقيق عبد الله بن الزبير، وابن أسماء بنت أبي بكر، مَثَل صالح للمؤمن الصابر الراضي، المقدِّر لنعم الله، فقد رَوَوْا أن رِجْله وقعت فيها الأَكِلة، فقرَّر الأطباء قطعها حتى لا تسري

(١) رواه الترمذي في الدعوات (٣٥٠٢)، وقال الترمذي: حسن غريب، والنسائي في الكبرى، في عمل اليوم والليلة (١٠١٦١)، وحسَّنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٧٨٣)، عن ابن عمر.

إلى ساقه كلها، ثم إلى فخذه، وربما ترقَّت إلى الجسد فأكلته، فطابت نفسه بنشرها. فعرضوا عليه أن يشرب شيئًا يغيب عقله، حتى لا يحس بالألم، ويتمكَّنوا من قطعها. فقال: ما ظننتُ أن أحدًا يؤمن بالله يشرب شيئًا يغيب عقله، حتى لا يعرف ربه ﷻ، ولكن هلموا فاقطعوها! فقطعوها من ركبته، وهو صامت لا يتكلم، ولا يُعرف أنه أنَّ (اشتكى وتوجع)!!

وشاء القدر أن يبتلى الرجل على قدر إيمانه، ففي هذه الليلة التي قطعت فيها رجله سقط ابن له- كان أحب أولاده إليه- من سطح، فمات، فدخلوا عليه فعزَّوه فيه، فقال: اللهم لك الحمد، كانوا سبعة، فأخذت واحدًا، وأبقيت ستة، وكان لي أطراف أربعة، فأخذت واحدًا، وأبقيت ثلاثة، فإن كنتَ أخذتَ، فلقد أعطيت، ولئن كنتَ قد ابتليت، فقد عافيت(١)!!

صبر أيوب:

وقد ذكر الله لنا في موضعين من كتابه العزيز قصة أيوب وصبره على المرض وعلى ما ابتلاه الله به في نفسه وماله وولده، قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء:٨٣، ٨٤]. من أدبه أنه لم يسأل شيئًا، ولكن بيَّن حاله، وما أصابه، ولم يبالغ فيما ابتلي به، وقال لربه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾، فهو مجرد شيء أصابه، وأثنى على ربه بما هو أهله ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾. ولكن في هذا الثناء على الله دعاء بلسان الحال، وربما كان أبلغ من لسان المقال. ولهذا قال تعالى عقب ذلك: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ

(١) انظر: البداية والنهاية (٩/ ١٢٠).

﴿مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء:٨٤].

يقول صاحب الظلال: «وقصة ابتلاء أيوب من أروع قصص الابتلاء. والنصوص القرآنية تشير إلى مجملها دون تفصيل. وهي في هذا الموضع تعرض دعاء أيوب واستجابة الله للدعاء؛ لأن السياق سياق رحمة الله بأنبيائه، ورعايته لهم في الابتلاء. سواء كان الابتلاء بتكذيب قومهم لهم وإيذائهم، كما في قصص إبراهيم ولوط ونوح. أو بالنعمة في قصة داود وسليمان. أو بالضر كما في حال أيوب ..

وأيوب هنا في دعائه لا يزيد على وصف حاله : ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾.. ووصف ربه بصفته: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾. ثم لا يدعو بتغيير حاله، صبرا على بلائه، ولا يقترح شيئًا على ربه، تأدبا معه وتوقيرا.

فهو نموذج للعبد الصابر لا يضيق صدره بالبلاء، ولا يتململ من الضر الذي تضرب به الأمثال في جميع الأعصار، بل إنه ليتحرج أن يطلب إلى ربه رفع البلاء عنه، فيدع الأمر كله إليه، اطمئنانا إلى علمه بالحال وغناه عن السؤال.

وفي اللحظة التي توجه فيها أيوب إلى ربه بهذه الثقة وبذلك الأدب كانت الاستجابة، وكانت الرحمة، وكانت نهاية الابتلاء : ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ ..

رفع عنه الضر في بدنه فإذا هو معافى صحيح. ورفع عنه الضر في أهله فعوضه عمن فقد منهم، ورزقه مثلهم. وقيل هم أبناؤه فوهب الله له مثليهم. أو أنه وهب له أبناء وأحفادًا.

﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ فكل نعمة فهي رحمة من عند الله ومنة.

﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾. تذكرهم بالله وبلائه، ورحمته في البلاء وبعد البلاء.

وإن في بلاء أيوب لمثلًا للبشرية كلها وإن في صبر أيوب لعبرة للبشرية كلها. وإنه لأفق للصبر والأدب وحسن العاقبة تتطلع إليه الأبصار.

والإشارة ﴿لِلْعَٰبِدِينَ﴾ بمناسبة البلاء إشارة لها مغزاها. فالعابدون معرضون للابتلاء والبلاء. وتلك تكاليف العبادة وتكاليف العقيدة وتكاليف الإيمان. والأمر جد لا لعب. والعقيدة أمانة لا تسلم إلا للأمناء القادرين عليها، المستعدين لتكاليفها وليست كلمة تقولها الشفاه، ولا دعوى يدعيها من يشاء. ولا بد من الصبر ليجتاز العابدون البلاء»[١].

وذكرت قصة أيوب وصبره ودعائه ورفع البلاء عنه، وتعويض الله له في أهله في الدنيا قبل التعويض الأكبر يوم القيامة في صورة (ص)، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص:٤١-٤٤].

- حلاوة الثواب ومرارة الألم:

ورجاء مثوبة الله تعالى على ما يُبتلى به الإنسان في دنياه نعمة روحية أخرى تهوِّن على الإنسان البلاء، وهذه المثوبة تتمثل في تكفير السيئات، وما أكثرها!! وزيادة الحسنات، وما أحوج الإنسان إليها!! وفي الحديث الصحيح: «ما يصيب المسلم من همٍّ ولا غمٍّ، ولا نَصبٍ ولا وصبٍ، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفَّر الله بها من خطاياه»[٢].

---

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٢٧٥٠، ٤٧٥١).

(٢) رواه البخاري في المرضى (٥٦٤٥)، ومعنى النَّصَب: التَّعب، والوصب: المرض، وقيل: هو المرض اللازم.

أصاب أَحَدَ الصالحين شيءٌ في قدمه، فلم يتوجَّع، ولم يتأوَّه، بل ابتسم واسترجع، فقيل له: يصيبك هذا ولا تتوجع؟ فقال: إن حلاوة ثوابه أنستني مرارة وجعه[1]!

فعلى كل من ابتلي في بدنه أو صحته أن يصبر على ما نزل به، ولا يتسخط، ويرضى بقضاء الله وقدره، والصبر ثوابه الجنة: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾ [الرعد:٢٢]، ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر:١٠]، ﴿وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الإنسان:١٢]، ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد:٢٤].

ما جاء في ثواب الصبر على المرض:

ويحسن بنا أن نذكر طرفًا فيما جاء من أحاديث رسول الله ﷺ في جزاء من ابتلي بالمرض، وصبر عليه، مما انتقيناه من «الترغيب والترهيب» للمنذري:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من يُرد الله به خيرًا يصب منه»[2].

يصب منه: أي يوجِّه إليه مصيبة ويصيبه ببلاء.

وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «ما يصيب المؤمن من نَصَب، ولا وَصَب، ولا همٍّ، ولا حزن، ولا أذًى، ولا غمٍّ، حتى الشوكة يشاكُها، إلا كفر الله بها من خطاياه»[3].

رواه البخاري، ومسلم ولفظه: «ما يصيب المؤمن من وصَب، ولا نصَب، ولا سقم، ولا حُزْن، حتى الهم يهمه، إلا كفَّر به من سيئاته».

(١) انظر: مدارج السالكين (٢/ ١٦٧).

(٢) رواه البخاري في المرضى (٥٦٤٥).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في المرضى (٥٦٤١)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٧٣).

وفي رواية له: «ما من مؤمن يشاكُ بشوكة في الدنيا يحتسبها، إلا قص بها من خطاياه يوم القيامة»(١).

النصب: التعب، والوصب: المرض.

وعن أبي بردة ﷺ قال: كنت عند معاوية، وطبيب يعالج قرحة في ظهره وهو يتضرر، فقلت له: لو بعض شبابنا فعل هذا لعبنا ذلك عليه، فقال: ما يسرني أني لا أجده، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم يصيبه أذى من جسده، إلا كان كفارة لخطاياه»(٢).

وروى المرفوع منه أحمد بإسناد رواته محتج بهم في الصحيح، إلا أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من شيء يصيب المؤمن في جسده يؤذيه إلا كفر الله به من سيئاته»(٣).

وعن عائشة ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما من مصيبة تصيب المسلم، إلا كفَّر الله عنه بها، حتى الشوكة يشاكها»(٤).

وفي رواية لمسلم: «لا يصيب المؤمن شوكة، فما فوقها، إلا نقص الله بها من خطيئته»(٥).

وفي أخرى: «إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه بها خطيئة»(٦).

---

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٧٣).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (١٦١).

(٣) رواه أحمد (١٦٨٩٩) وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٧٩٣): رجاله رجال الصحيح.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في المرضى (٥٦٤٠)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٧٢).

(٥) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٧٢) (٥٠).

(٦) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٧٢) (٥١).

وفي أخرى له قال: دخل شباب من قريش على عائشة ﵂ وهي بمِنًى وهم يضحكون، فقالت: ما يضحككم؟ قالوا: فلان خرَّ على طنب فُسطاط، فكادت عنقه أو عينه أن تذهب، فقالت: لا تضحكوا، فإني سمعت رسول الله ﷺ، قال: «ما من مسلم يشاك بشوكة فما فوقها، إلا كتبت له بها درجة، ومُحيت عنه بها خطيئة»(١).

وعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله، حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة»(٢).

وعن عائشة أيضًا ﵂ أن النبي ﷺ قال: «إذا اشتكى العبد المؤمن، أخلصه الله من الذنوب كما يُخلص الكيرُ خَبَثَ الحديد»(٣).

وعن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس: ألا أُريك امرأة من أهل الجنة؟ فقلت: بلى. قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي ﷺ، فقالت: إني أصرع، وإني أتكشَّف، فادع الله لي. قال: «إن شئتِ صبرتِ ولكِ الجنة، وإن شئتِ دعوتُ الله أن يعافيك» فقالت: أصبر. فقالت: إني أتكشف، فادع الله لي ألَّا أتكشف، فدعا لها(٤).

وعن عائشة ﵂ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما ضرب على مؤمن عِرْق قط، إلا حط الله به عنه خطيئة، وكتب له حسنة، ورفع له درجة»(٥).

---

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٧٢) (٤٦).

(٢) رواه الترمذي في الزهد (٢٣٩٩) وقال: حسن صحيح، وابن حبان في الجنائز (٢٩٢٤) وقال الأرناؤوط: إسناده حسن، والحاكم في الجنائز (١/ ٣٤٦) وصححه على شرط مسلم.

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد (٤٩٧)، وابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (٩٠)، وابن حبان في الجنائز (٢٩٣٦) وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين غير عبد الرحمن بن إبراهيم، فإنه من رجال البخاري.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في المرضى (٥٦٥٢)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٧٦).

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (٢٠٧)، والطبراني في الأوسط (٢٤٦٠)، والحاكم في الجنائز (١/ ٣٤٧) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، وعمران بن زيد التغلبي شيخ من أهل الكوفة. ووافقه الذهبي.

وعن أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مرض العبد أو سافر، كُتِب له مثل ما كان يعمل مقيمًا صحيحًا»[1].

وعن عبد الله بن عمرو ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «ما من أحد من الناس يصاب ببلاء في جسده إلا أمر الله ﷻ الملائكة الذين يحفظونه، قال: اكتبوا لعبدي في كل يوم وليلة ما كان يعمل من خير ما كان في وثاقي»[2].

وفي رواية لأحمد: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا كان على طريقة حسنة من العبادة، ثم مرض، قيل للملك الموكَّل به: اكتُبْ له مثل عمله إذا كان طليقًا، حتى أطلقه، أو أكفته إليَّ»[3].

قوله: «أكفته إلي» - بكاف، ثم فاء، ثم تاء مثناة فوق- معناه: أضمه إليَّ وأقبضه.

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا ابتلى الله ﷻ العبد المسلم ببلاء في جسده، قال الله ﷻ للملك: اكتب له صالح عمله الذي كان يعمل، فإن شفاه غسله وطهَّره، وإن قبضه غفر له ورحمه»[4].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تبارك وتعالى: إذا ابتليتُ عبدي المؤمن فلم يشكُني إلى عوَّاده، أطلقته من إساري، ثم أبدلته لحمًا

---

(١) رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٩٦).

(٢) رواه أحمد (٦٤٨٢) وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. والحاكم في الجنائز (١/ ٣٤٨) وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٣) رواه أحمد (٦٨٩٥) وقال مخرجوه: حديث صحيح.

(٤) رواه أحمد (١٢٥٠٣) وقال مخرجوه: صحيح لغيره، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٨١٢): رجاله ثقات.

خيرًا من لحمه، ودمًا خيرًا من دمه، ثم يستأنف العمل»(١).

وعن أبي هريرة ﷺ قال لمَّا نزلت: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ [النساء:١٢٣] بلغت من المسلمين مبلغًا شديدًا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «قاربوا وسدِّدوا، ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة، حتى النكبة ينكبها، أو الشوكة يشاكها»(٢).

وعن عائشة ﷺ: أن رجلًا تلا هذه الآية: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ [النساء:١٢٣] فقال: إنا نُجزى بكل ما عملنا؟ هلكنا إذن! فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «نعم يُجزى به في الدنيا، من مصيبة في جسده مما يؤذيه»(٣).

وعن أبي بكر الصديق ﷺ أنه قال: يا رسول الله كيف الصلاح بعد هذه الآية: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ [النساء:١٢٣].. الآية، وكل شيء عملناه جُزينا به؟ فقال: «غفر الله لك يا أبا بكر، ألستَ تمرض؟ ألست تحزن؟ ألست يصيبك اللأواء؟» قال: فقلت: بلى. قال: «هو ما تُجزون به»(٤).

واللأواء- بهمزة ساكنة بعد اللام وهمزة في آخره ممدودة- هي شدة الضيق.

وعن ابن مسعود ﷺ قال: دخلت على النبي ﷺ، فمسسته فقلت: يا رسول الله إنك توعك وعكًا شديدًا؟ فقال: «أجل إني أوعك كما يوعك رجلان منكم» قلت: ذلك بأن لك أجرين؟ قال: «أجل ما من مسلم يُصيبه أذًى من مرض

(١) رواه الحاكم في الجنائز (١/ ٣٤٨)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٢) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٧٤).

(٣) رواه ابن حبان في الجنائز (٢٩٢٣) وقال الأرناؤوط: رجاله ثقات.

(٤) رواه أحمد (٦٨) وقال مخرجوه: حديث صحيح بطرقه وشواهده، وابن حبان في الجنائز (٢٩١٠)، والحاكم في الجنائز (٣/ ٧٤)، وصحح إسناده ووافقه الذهبي.

فما سواه، إلا حط الله به سيئاته كما تحطُّ الشجرة ورقها»[1].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال المَلِيلة والصُّداع بالعبد والأَمَة، وإن عليهما من الخطايا مثل أُحُد، فما تدعهما وعليهما مثقال خردلة»[2].

والمليلة: حرارة يجدُهَا الرَّجل، وَهِيَ حُمَّى في العَظْم[3].

وعن عبد الله بن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «من صُدِّع رأسُه في سبيل الله، فاحتسب، غُفر له ما كان قبل ذلك من ذنب»[4].

وعن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ دخل على أم السائب- أو أم المسيب- فقال: «ما لك تزفزفين؟» قالت: الحُمَّى، لا بارك الله فيها. فقال: «لا تسُبِّي الحمى، فإنها تذهب خطايا بني آدم كما يذهب الكير خبث الحديد»[5].

«تزفزفين» روي براءين وبزاءين، ومعناهما متقارب: وهو الرعدة التي تحصل للمحموم.

وعن عائشة ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «الحُمَّى حظ كل مؤمن من النار»[6].

عن أنس ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله ﷻ قال: إذا ابتليتُ عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة»[7] يريد عينيه.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في المرضى (٥٦٦٠)، ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٧١).

(٢) رواه أبو يعلى (٦١٥٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٧٩٧): رجاله ثقات.

(٣) لسان العرب ملل.

(٤) رواه ابن أبي شيبة في الجهاد (١٩٨١٠)، والطبراني (١٣/ ٢٧) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٨٠٠): إسناده حسن.

(٥) سبق تخريجه.

(٦) رواه البزار (٧٦٥)، كما في كشف الأستار، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٨٢٥): إسناده حسن.

(٧) رواه البخاري في المرضي (٥٦٥٣).

رواه البخاري، والترمذي، ولفظه: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله ﷻ: إذا أخذت كريمتي عبدي في الدنيا لم يكن له جزاء عندي إلا الجنة»[(١)].

وفي رواية له: «من أذهبت حبيبتيه، فصبر واحتسب، لم أرضَ له ثوابًا دون الجنة»[(٢)].

الرخصة للمريض بالشكوى من الألم:

ولا بأس للمريض أن يشكو إلى طبيبه أو ممرضه، أو قريبه أو صديقه: ما يجده من وجع، وما يحسه من ألم، ما لم يكن ذلك على سبيل التسخُّط للقدر، وإظهار الجزع والضجر.

وذلك أن المشكو إليه وخصوصًا الطبيب والممرض، قد يكون عنده من الدواء ما يزيل ألمه، أو يخففه على الأقل. على أن في الشكوى لمن يثق الإنسان به نوعًا من التخفيف عن النفس، وخصوصًا إذا تجاوب معه المشكو إليه وواساه، وشاركه مشاركة وجدانية. وقديمًا قال الشاعر:

شكوتُ وما الشكوى لمثلي عادة ... ولكن تفيض الكأس عند امتلائها![(٣)]

وقال آخر:

ولا بد من شكوى إلى ذي مروءة ... يواسيك أو يسليك أو يتوجع[(٤)]!

وقد روى البخاري عن ابن مسعود ﷺ: أن النبي ﷺ قال: «إني لأوعك كما يوعَكُ رجلان منكم»[(٥)].

(١) رواه الترمذي في الزهد (٢٤٠٠).

(٢) رواه الترمذي في الزهد (٢٤٠١)، وقال: حسن صحيح، عن أبي هريرة.

(٣) من شعر أبي تمام.

(٤) من شعر بشار بن برد.

(٥) سبق تخريجه.

وروى عن القاسم بن محمد، أن عائشة رضي الله عنها قالت: وارأساه. وأن النبي ﷺ قال: «بل أنا وارأساه»[(١)].

وروى عن سعد قال: جاءني رسول الله ﷺ، يعودني من وجع اشتد بي زمن حجة الوداع، فقلت: بلغ مني الوجع ما ترى.. الحديث[(٢)].

وروى البخاري في الأدب المفرد عن عروة بن الزبير قال: دخلتُ أنا وعبد الله بن الزبير على أسماء- يعني بنت أبي بكر وهي أمهما- فقال لها عبد الله: كيف تجدينك؟ قالت: وجعة[(٣)].

وهذا يرد على من قال من العلماء: إن أنين المريض وتأوُّهه مكروه.

وتعقبه النووي فقال: هذا ضعيف أو باطل، فإن المكروه ما ثبت فيه نهي مقصود. وهذا لم يثبت فيه ذلك، ثم احتج بحديث عائشة. ثم قال: فلعلهم أرادوا بالكراهة خلاف الأولى، فإنه لا شك أن اشتغاله بالذكر أولى[(٤)].

قال القرطبي: والتحقيق أن الألم لا يقدر أحد على رفعه، والنفوس مجبولة على وجدان ذلك، فلا يستطاع تغييرها عما جُبلت عليه، وإنما كُلِّف العبد ألا يقع منه في حال المصيبة ما له سبيل إلى تركه، كالمبالغة في التأوه، والجزع الزائد؛ لأن من فعل ذلك خرج عن معاني أهل الصبر، وأما مجرد التشكي فليس مذمومًا، حتى يحصل التسخط للمقدور[(٥)].

بل روى مسلم عن عثمان بن أبي العاص: أنه شكا إلى رسول الله ﷺ وجعًا

---

(١) رواه البخاري في المرضى (٥٦٦٦)، وأحمد (٢٥١١٣).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في مناقب الأنصار (٣٩٣٦)، ومسلم في الوصية (١٦٢٨).

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد (٥٠٩)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٢٠٤).

(٤) فتح الباري (١٠/ ١٢٤).

(٥) نقله الحافظ في فتح الباري (١٠/ ١٢٤).

يجده في جسده، فقال له: «ضع يدك على الذي يألم من جسدك، وقل: باسم الله ثلاثا، وقل سبع مرات: أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»[(١)].

قال العلماء: يؤخذ منه ندب شكاية ما بالإنسان لمن يتبرَّك به، رجاءَ لبركة دعائه[(٢)].

وكان الإمام أحمد يحمد الله أولًا، ثم يخبر عما يجده، لخبر ابن مسعود: إذا كان الشكر قبل الشكوى فليس بشاكٍ[(٣)].

قال الحافظ ابن حجر تعقيبًا على قول النبي ﷺ في حديث عائشة: «بل أنا وارأساه»: «فيه أن ذكر الوجع ليس بشكاية، فكم من ساكت وهو ساخط، وكم شاك وهو راض. فالمعول في ذلك على عمل القلب، لا على نطق اللسان»[(٤)].

التخفيف عن المريض باللمسة الحانية والدعاء الصالح والتذكير بالصبر:

وينبغي لمن شَكا إليه المريض أن يخفِّف عنه باللمسة الحانية، والكلمة الهادية، والدعوة الصالحة، كما فعل الرسول الكريم مع سعد، فقد روت عائشة بنت سعد أن أباها قال: تشكيت بمكة شكوى شديدة، فجاء النبي ﷺ يعودني... الحديث، وفيه: ثم وضع يده، ثم مسح يده على وجهي وبطني، ثم قال: «اللهم اشف سعدًا، وأتمِمْ له هجرته» قال: فما زلت أجد برده على كبدي- فيما يخال إليَّ- حتى الساعة[(٥)].

---

(١) رواه مسلم في السلام (٢٢٠٢)، وأحمد (١٦٢٦٨).

(٢) ذكره العلامة القاري في مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٢/ ٢٩٨).

(٣) المبدع في شرح المقنع (٢/ ٢١٥).

(٤) فتح الباري (١٠/ ١٢٥، ١٢٦).

(٥) رواه البخاري في المرضى (٥٦٥٩).

وقال ابن مسعود: دخلتُ على رسول الله ﷺ، وهو يُوعَك وعكًا شديدًا، فمسسته بيدي، وقلت: يا رسول الله، إنك توعك وعكًا شديدًا. فقال رسول الله ﷺ: «أجل، كما يوعك رجلان منكم» فقلت: ذلك أن لك أجرين؟ قال: «أجل» ثم قال: «ما من مسلم يصيبه أذى، مرض فما سواه، إلا حطَّ الله سيئاته، كما تحط الشجرة ورقها»(١).

وهنا ينبغي لمن شكا إليه المريض أن يخفف عنه، بذكر فضل الصبر على البلاء، والرضا بالقضاء، وثواب من ابتلي فصبر واحتسب، وأن ما يصيبه من ألم هو طهارة له وكفارة لسيئاته، أو زيادة في حسناته، أو رفع لدرجاته، وأن أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، ويذكر له من الآيات والأحاديث، وسير الصالحين، ما يثبت قلبه دون أن يمله ويثقل عليه، كما يحسن أن يعلمه ما يرقي به نفسه، كما فعل النبي ﷺ مع عثمان بن أبي العاص. وهذا في الشكوى إلى الخَلْق.

الشكوى إلى الخالق تبارك وتعالى:

أما الشكوى إلى الخالق جل شأنه، فقد حكاه القرآن الكريم عن أنبياء الله تعالى ورسله الكرام: فعن يعقوب عليه السلام قال: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف:٨٦]. وعن أيوب عليه السلام: ﴿وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٨٣﴾ [الأنبياء:٨٣].

وفي هذا رد على من زعم من الصوفية: أن الدعاء بكشف البلاء يقدح في الرضا والتسليم(٢)، وفي هذا يقول بعضهم: علمه بحالي يغني عن سؤالي!

(١) متفق عليه: رواه البخاري في المرضى (٥٦٤٧)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٧١).

(٢) فتح الباري (١٠ / ١٢٤).

ولكن المؤكد أن الدعاء والابتهال إلى الله عبادة، بل «هو العبادة» كما صح في الحديث عن رسول الله ﷺ: «الدعاء هو العبادة»(1)؛ لأن معنى العبادة التوجه إلى الله بصدق، والشعور بالافتقار إليه.

إنما المكروه حقًّا هو شكوى العبد ربه! وشكواه إنما هو ذكره للناس على سبيل التضجُّر، وهذا متفق عليه، وهو ما يقع فيه بعض من يغفل عن النعم. ولا يذكر إلا البلاء.

تمني المريض الموت:

وإذا جاز للمريض أن يشكو مما يجده من ألم، كما ذكرنا، فليس يحسُن به أن يتمنى الموت، أو يدعو به للضر الذي به، لما روى الشيخان، عن أنس أن النبي ﷺ قال: «لا يتمنينَّ أحدكم الموت من ضر أصابه، فإن كان لا بد فاعلًا، فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي، وتوفَّني إذا كانت الوفاة خيرًا لي»(2).

وقد بيَّن حديث أبي هريرة عند البخاري وغيره الحكمة في هذا النهي، فقال: «ولا يتمنينَّ أحدكم الموت، إما محسنًا فلعله أن يزداد خيرًا، وإما مسيئًا، فلعله يستعتب»(3). ومعنى يستعتب: أي يرجع عما أوجب العتب عليه، وذلك بالتوبة النصوح.

وفي صحيح مسلم عنه: أن النبي ﷺ قال: «لا يتمنينَّ أحدكم الموت، ولا يدعُ به من قَبْل أن يأتيه: إنه إذا مات أحدكم انقطع عمله، وإنه لا يزيد المؤمنَ

---

(1) رواه أحمد (١٨٣٥٢) وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح، وأبو داود في الوتر (١٤٨١)، والترمذي في تفسير القرآن (٢٩٦٩) وقال: حديث صحيح، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٢٨)، عن النعمان بن بشير.

(2) متفق عليه: رواه البخاري في المرضى (٥٦٧١)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٦٨٠)، عن أنس.

(3) رواه البخاري في التمني (٧٢٣٥)، وأحمد (٧٥٧٨).

عمرُه إلا خيرًا»[(١)].

قال العلماء: إنما يكره تمنِّي الموت إذا كان لضر في بدنه، أو ضيق في دنياه، ولا يكره إذا كان لخوف فتنة في دينه لفساد الزمان، وهو مفهوم من حديث أنس المذكور. وقد جاء عن كثير من السلف تمنِّي الموت حين خافوا على دينهم[(٢)].

ويؤيد ذلك حديث معاذ بن جبل من دعاء النبي ﷺ: «اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحبَّ المساكين، وإذا أردت بقوم فتنةً، فتوفني إليك غير مفتون»[(٣)].

وقد جاء في أحاديث أشراط الساعة: أن الرجل يمر بقبر أخيه، فيقول: يا ليتني كنتُ مكانه[(٤)].

كما أن كراهية تمنِّي الموت مقيدة بما إذا فعل ذلك قبل أن تحل به مقدماته، أما عند مجيئها، فلا مانع من تمنيه، رضًا بلقاء الله تعالى، وحبًّا للقائه ﷻ. ولهذا ذكر البخاري في هذا الباب حديث عائشة، قالت: سمعت النبي ﷺ وهو مستند إليّ يقول: «اللهم اغفر لي وارحمني، وألحقني بالرفيق الأعلى»[(٥)]. إشارة إلى أن النهي مختص بالحالة التي قبل نزول الموت[(٦)].

---

(١) رواه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة (٢٦٨٢)، وأحمد (٨١٨٩).

(٢) انظر: شرح السنة للبغوي (٥ / ٢٥٩)، والمجموع للنووي (٥ / ١٠٦، ١٠٧).

(٣) رواه أحمد (٢٢١٠٩)، وقال مخرجوه: ضعيف لاضطرابه. والترمذي في التفسير (٣٢٣٥)، وقال: حسن صحيح، وذكر تصحيحه عن البخاري. ورواه أيضًا البزار (٢٦٦٨)، وصححه الألباني في المشكاة (٧٤٧)، عن ابن عباس.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٧١١٥)، ومسلم (١٥٧)، كلاهما في الفتن، عن أبي هريرة.

(٥) متفق عليه: رواه البخاري في المرضى (٥٦٧٤)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٤٤).

(٦) انظر فتح الباري (١٠ / ١٣٠).

الفَصْلُ الرَّابِعُ

عيادة المريض وآدابها

المريض إنسان ضعيف، يحتاج إلى الرعاية والمساندة، والرعاية أو المساندة ليست مادية فحسب، كما يحسب الكثيرون، بل هي مادية ومعنوية معًا.

من أجل ذلك كانت «عيادة المريض» من هذا الباب، فهي تُشعره بأهميته لدى من حوله، وحُبِّهم له، وحرصهم عليه، وتمنِّيهم لشفائه، وهذه المعاني تمنحه قوة نفسية، يقاوم بها هجمة المرض المادية.

وبذلك تكون عيادة المريض والسؤال عنه والدعاء له جزءًا من العلاج عند العارفين من أهل الذكر، فليس العلاج كله ماديًّا، ومن هنا كانت من الآداب الأساسية في الإسلام.

ولهذا حثَّت الأحاديث النبوية على «عيادة المريض» بأساليب شتى، وألوان من الترغيب والترهيب، حتى جعلها النبي ﷺ من الحقوق الأساسية للمسلم على المسلم.

ففي الحديث الصحيح المتفق عليه، عن أبي هريرة، أن النبيَّ ﷺ قال: «حقُّ المسلم على المسلم خمس: رد السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس»(١).

وقال رسول الله ﷺ: «أطعموا الجائع، وعُودوا المريض، وفكُّوا العاني»(٢). بهذا الأسلوب الآمر.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجنائز (١٢٤٠)، ومسلم في السلام (٢١٦٢).

(٢) رواه البخاري في الأطعمة (٥٣٧٣)، عن أبي موسى.

وقال البراء بن عازب: أمرنا رسول الله ﷺ بسبع.. وذكر منها: عيادة المريض[1].

حكم عيادة المريض:

واختلف العلماء: هل الأمر في هذا الحديث والذي قبله للوجوب أم للاستحباب؟ فذهب الإمام البخاري إلى أن الأمر هنا للوجوب، وترجم في صحيحه لذلك بقوله: «باب وجوب عيادة المريض»[2].

«وقال ابن بطال: يحتمل أن يكون الأمر على الوجوب بمعنى الكفاية، كإطعام الجائع، وفك الأسير.

ويحتمل أن يكون للندب، للحث على التواصل والألفة.

وجزم الداودي بالأول، فقال: هي فرض يحمله بعض الناس عن بعض.

وقال الجمهور: هي في الأصل ندب، وقد تصل إلى الوجوب في حق بعض دون بعض.

وعن الطبري: تتأكد في حق من تُرجى بركته، وتُسن فيمن يُراعي حاله، وتباح فيما عدا ذلك.

ونقل النووي الإجماع على عدم الوجوب، يعني: على الأعيان»[3].

والذي يترجَّح لي من ظاهر الأحاديث: أنها فرض من فروض الكفاية، على معنى أنه لا يجوز أن يُهمل المريض دون أن يعوده أحد، فيجب على المجتمع المسلم بالتضامن أن يكون منهم من يسأل عن المرضى ويعودهم، ويدعو لهم

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجنائز (١٢٣٩)، ومسلم في اللباس (٢٠٦٦).

(٢) صحيح البخاري قبل الحديث (٥٦٤٩)..

(٣) فتح الباري (١٠/ ١١٢، ١١٣).

بالشفاء والعافية، وقد كان بعض أهل الخير من المسلمين في الزمن الماضي يخصصون بعض الوقف الخيري لمثل ذلك، مراعاة منهم لهذا الجانب الإنساني.

وأما في حق عموم الناس، فهي مستحبة استحبابًا مؤكدًا، قد يرتقي إلى الوجوب في حقِّ بعض الناس، الذين لهم بالمريض صلة خاصة وثيقة؛ كالقرابة، والمصاهرة، والجوار اللصيق، والزمالة الطويلة، والأستاذية، والصداقة الحميمة، أو نحو ذلك، بحيث يتأثر المريض كثيرًا بعدم عيادته من فلان هذا ويفتقده.

ولعل هذا النوع من الناس هو المقصود بكلمة (حق) في قوله: «حق المسلم على المسلم خمس»[(١)]. إذ لا يتصور أن يطلب من جميع المسلمين أن يعودوا كل مريض، بل يطلب ممَّن له به صلة خاصة، تقتضي منه مثل هذا الحق.

قال الحافظُ رحمه الله: «وقد تبيَّن أنَّ معنى (الحقِّ) هنا الوجوب، خلافًا لقول ابن بطَّال: المراد حقُّ الحرمة والصحبة.

والظاهر أنَّ المراد به هنا وجوب الكفاية»[(٢)].

وقال الشوكاني في «نيل الأوطار»: «والمراد بقوله: «حق المسلم»: أنه لا ينبغي تركه ويكون فعله: إما واجبًا، أو مندوبًا ندبًا مؤكدًا شبيهًا بالواجب. ويكون استعماله في المعنيين من باب استعمال المشترك في معنييه، فإن «الحق» يستعمل في معنى «الواجب». وكذا يستعمل في معنى «الثابت» ومعنى «اللازم» ومعنى «الصدق» وغير ذلك»[(٣)].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) فتح الباري (٣/ ١١٣).

(٣) نيل الأوطار للشوكاني (٤/ ٤٣، ٤٤).

فضل عيادة المريض وثوابها:

ومما يؤكد استحباب عيادة المريض: ما جاء في فضلها ومثوبة من قام بها من أحاديث مثل:

حديث ثوبان مولى رسول الله ﷺ، عن رسول الله ﷺ، قال: «من عاد مريضًا لم يزل في خُرْفة الجنة». قيل: يا رسول الله، وما خرفة الجنة؟ قال: «جَناها»[(١)].

والجنى: ما يجنى من الشجر.

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، قال: «مَن عاد مريضًا نادى منادٍ من السماء: طبتَ وطاب ممشاك، وتبوأت من الجنة منزلًا»[(٢)].

وحديث أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ﷻ يقول يوم القيامة: يا ابن آدم، مرضتُ فلم تعدني! قال: يا رب، كيف أعودك وأنت رب العالمين؟! قال: أما علمت أن عبدي فلانًا مرض فلم تعده؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟ يا ابن آدم، استطعمتُك فلم تُطعمني! قال: يا رب، كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟! قال: استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟! يا ابن آدم، استسقيتُك فلم تسقني؟ قال: يا رب، كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟! قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه، أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي؟»[(٣)].

---

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٨).

(٢) رواه أحمد (٨٥٣٦) وقال مخرجوه: إسناده ضعيف، والترمذي في البر والصلة (٢٠٠٨) وقال: حسن غريب، وابن ماجه في الجنائز (١٤٤٣)، وابن حبان في الجنائز (٢٩٦١)، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (١١٨٤).

(٣) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٩).

وحديث عليٍّ ﷺ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلمٍ يعود مسلمًا غدوة، إلا صلَّى عليه سبعون ألف ملك حتى يُمسي، وإن عاده عشيَّة، صلَّى عليه سبعون ألف ملك حتى يُصبح، وكان له خريف في الجنة»[(١)].

والخريف الثمر المخروف.

آداب عيادة المريض:

ولعيادة المريض آداب، أجملها الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني في «الفتح» فقال: «وجملة آداب العيادة عشرة أشياء، ومنها ما لا يختص بالعيادة:

ألا يقابل الباب عند الاستئذان، وأن يدقَّ الباب برفق، وألا يُبهم نفسه، كأن يقول: أنا. وألا يحضر في وقت يكون غير لائق بالعيادة، كوقت شرب المريض الدواء [أو وقت التغيير على جرحه، أو وقت نومه وراحته] وأن يخفف الجلوس [إلا لمن له به علاقة خاصة كما سيأتي] وأن يغض البصر [أي إذا كان في المكان نساء غير محارم له] وأن يقلل السؤال، ويظهر الرقة، وأن يخلص الدعاء، وأن يوسع للمريض في الأمل، وأن يشير عليه بالصبر، لما فيه من جزيل الأجر، ويحذره من الجزع لما فيه من الوزر»[(٢)]. وفيما يلي تفصيل بعض هذه الآداب والزيادة عليها:

١- النية الصالحة:

بأنْ يَقصد بعيادة المريض وجْهَ الله ﷻ، وتحصيل الأَجْر منه سبحانه، والفوز بِثَوابه، وأن يقوم بأداء حقِّ أخيه المسلم، ليزداد التَّرابط والتَّراحم بين المسلمين.

---

(١) رواه أحمد (٦١٢) وقال مخرجوه: صحيح موقوفًا، رجاله ثقات رجال الشيخين، لكن اختلف في وقفه ورفعه، والوقف أصح، وأبو داود (٣٠٩٨، ٣٠٩٩)، والترمذي في الجنائز (٩٦٩) وقال: حديث حسن غريب.

(٢) فتح الباري (١٠ / ١٢٦)، بزيادات زدناها بين معقوفين، وبعض ما ذكره ابن حجر هو آداب عامة للزيارة سواء أكانت عيادة مريض أو غيرها من الزيارات، وبعضها مختص بعيادة المريض.

ومِمَّا يُعينه على تلك النِّيَّة أن يَعرف فضل عيادة المريض، وقد ذكرنا بعض الأحاديث في فضلها.

٢- اختيار الوقت المناسب:

على العائد أن يَختار الأوقات التي اعتادها النَّاس، أو الأوقات التي يُسمَح فيها بالزِّيارة، فلا يعود في وقتٍ يسبِّب له حَرجًا أو ضجرًا، أو يشقُّ فيه على أهل المريض، ولذلك لم تنصَّ الأحاديثُ على تحديد أوقاتٍ لعيادة المريض.

قال ابن القيِّم رحمه الله: «ولم يكن من هدْيِه عليه الصَّلاة والسَّلام، أن يخص يومًا من الأيام بعيادة المريض، ولا وقتًا من الأوقات، بل شَرع لأمته عيادة المريض ليلًا ونهارًا، وفي سائر الأوقات»[(١)].

متى يُبدأ بعيادة المريض؟

قد ذهب بعضُ العلماء إلى أنَّ عيادة المريض تبدأ بَعْد ثلاثة أيام من بداية مرَضه، وجزم بذلك الغزاليُّ في «إحياء علوم الدين»، ومستندهم في ذلك ما رواه ابن ماجه، عن أنس: كان النبيُّ ﷺ لا يعود مريضًا إلَّا بعد ثلاث[(٢)]. وهو حديثٌ ضعيف جدًّا، لا يجوز الاحتجاج به.

والرَّاجح ما ذهب إليه جمهورُ العلماء: أنَّ ابتداء الزيارة لا يُخَصُّ بوقت يمضي من ابتداء مرضه، لعموم أدلة الأمر بالعيادة، ومنها قوله ﷺ: «عودوا

(١) زاد المعاد (١/ ٤٩٧).

(٢) رواه ابن ماجه (١٤٣٧)، قال البوصيري في مصباح الزجاجة (٢/ ٢٠): في إسناده مسلمة بن علي قال فيه البخاري وأبو حاتم وأبو زرعة منكر الحديث، وقال الحافظ في فتح الباري (١٠/ ١١٣): وجدت له شاهدًا من حديث أبي هريرة عند الطبراني في الأوسط، وفيه راوٍ متروك أيضًا.

المريض»[1]. قال الحافظ ابن حجر ﷺ: «ويُؤخذ من إطلاقه: عدمُ التَّقييد بزمانٍ يَمضي من ابتداء مَرَضِه، وهو قول الجمهور»[2].

٣- مشروعية العيادة لكل المرضى:

وفي الأحاديث الآمرة والمرغبة في عيادة المريض: دلالة على مشروعية العيادة لكل مريض، سواء أكان مرضه شديدًا أم خفيفًا، وأما ما أخرجه البيهقي والطبراني مرفوعًا: «ثلاثة ليس لهم عيادة: العين، والدُّمَل، والضرس»[3]، فصحّح البيهقي أنه موقوف على يحيى بن أبي كثير[4]، ومعنى هذا أنه لم يصح مرفوعًا إلى النبي ﷺ، ولا حجة إلا في كلامه.

قال الحافظ ابن حجر: «وقد جاء في عيادة الأرمد بخصوصها حديث زيد بن أرقم قال: عادني رسول الله ﷺ من وجع كان بعيني»[5].

كما تشرع عيادة المريض سواء أكان متعلمًا أم جاهلًا، حضريًا أم بدويًا، يقدر معنى العيادة أم لا يقدرها.

وقد ذكر الإمام البخاري في «كتاب المرضى» من صحيحه «باب عيادة الأعراب» ذكر فيه حديث ابن عباس ﷺ، أن النبي ﷺ دخل على أعرابي يعوده، قال له: «لا بأس طهور إن شاء الله». قال- أي الأعرابي- : قلتَ: طهور؟! كلا، بل

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) فتح الباري (١٠/ ١١٤).

(٣) رواه الطبراني في الأوسط (١٥٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٨٧٥٥).

(٤) شعب الإيمان (١١/ ٤١٤).

(٥) فتح الباري: (١٠/ ١١٣)، والحديث رواه أبو داود (٣١٠٢)، والحاكم (١/ ٣٤٢)، وصحَّحه على شرط الشيخين، كلاهما في الجنائز، وصححه النووي في المجموع (٥/ ١١٢)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (٢٦٥٩).

هي حمى تفور- أو تثور- على شيخ كبير، تُزيره القبور. فقال النبي ﷺ: «فنعم إذن»[1].

ومعنى قول النبي ﷺ: «لا بأس، طهور إن شاء الله». أنه يرجو للأعرابي زوال البأس والشدة عنه، كما يرجو أن يكون المرض مُطهِّرًا له من ذنوبه ومكفِّرًا لخطاياه، فإن حصلت العافية، فقد حصلت الفائدتان، وإلا حصل ربح التكفير.

ومن جفاء هذا الأعرابي أنه أنكر رجاء النبي ﷺ ودعاءه، فولاه النبي الكريم ما تولَّى، وقال له: «فنعم إذن». أي: إذا أبيت، فنعم، أي كان كما ظننتَ. وقد ذكر في «الفتح» أن الدولابي في «الكنى» وابن السكن في «الصحابة» أخرجا قصة الأعرابي وفيها: فقال النبي ﷺ: «ما قضى الله فهو كائن». فأصبح الأعرابي ميتًا![2]

ونقل عن المهلب قوله: فائدة هذا الحديث أنه لا نقص على الإمام في عيادة مريض من رعيته، ولو كان أعرابيًّا جافيًا، ولا على العالم في عيادة الجاهل، ليعلِّمه، ويذكِّره بما ينفعه، ويأمره بالصبر، لئلَّا يتسخَّط على قدر الله، فيسخط عليه، ويُسليه عن ألمه، بل يُغبطه بسقمه، إلى غير ذلك من جبر خاطره، وخاطر أهله.

وفيه: أنه ينبغي للمريض أن يتلقى الموعظة بالقبول، ويحسن جواب من يذكره بذلك[3].

عيادة الصبي والمغمى عليه:

على أن عيادة المريض ليست له فقط، إنما هي مجاملة لأهله أيضًا. ولذلك لا

---

(١) رواه البخاري في المناقب (٣٦١٦).

(٢) الكنى والأسماء (١/ ٢٤٩)، دار ابن حزم - بيروت/ لبنان، ط الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م.

(٣) فتح الباري (١٠/ ١١٩).

بأس أن يُعاد الطفل المريض الذي لا يُميِّز، فإن ذلك يسرُّ أهله، ويجبُر خاطرهم.

ومثل ذلك: المريض في حالة الغيبوبة، فإن زيارته إنما هي مواساة لأهله وذويه، وتخفيف عنهم. وقد يفيق المريض، ويمنُّ الله عليه بالعافية، فيذكر له من زاره أثناء غياب وعيه، فيجد في ذلك راحة وسرورًا.

وفي صحيح البخاري «باب عيادة الصبيان»، ذكر فيه حديث أسامة بن زيد ﷺ، أن ابنة النبي ﷺ أرسلت إليه- وهو مع النبي ﷺ وسعد وأُبيّ- نحسب أن ابنتي قد حُضرت، فاشهدنا- وفي رواية: فاشهدها- فأرسل إليها السلام، ويقول: «إنَّ لله ما أخذ، وما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فلتحتسب ولتصبر». فأرسلت إليه تقسم عليه... فقام النبي ﷺ وقمنا.. فرُفع الصبيّ في حجر النبي ﷺ، ونفسه تقعقع[1]، ففاضت عينا النبي ﷺ- أي بالدمع- فقال له سعد: ما هذا يا رسول الله ؟ قال: «هذه رحمة وضعها الله في قلوب من شاء من عباده، ولا يرحم الله من عباده إلا الرحماء»[2].

ومعنى «حُضرت»: أي حضرها الموت، فهي في اللحظات الأخيرة. ومعنى «فاشهدنا»: أي احضرنا.

وفي البخاري أيضًا «باب عيادة المُغمى عليه»: ذكر فيه حديث جابر بن عبد الله ﷺ يقول: مرضتُ مرضًا، فأتاني النبي ﷺ، يعودني وأبو بكر، وهما ماشيان، فوجداني أُغمِيَ عليّ، فتوضأ النبي ﷺ، ثم صبَّ وضوءه عليَّ، فأفقتُ، فإذا النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله، كيف أصنع في مالي؟ كيف أقضي في مالي؟ فلم يجبني

(١) تقعقع: أي تتحرك وتضطرب.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في المرضى (٥٦٥٥)، ومسلم في الجنائز (٩٢٣).

بشيء، حتى نزلت آية الميراث[(١)].

قال ابن المنيِّر: «فائدة الترجمة [أي عنوان الباب] ألا يعتقد أن عيادة المغمى عليه ساقطة لكونه لا يعلم بعائده.. قال الحافظ: ومجرد علم المريض بعائده لا تتوقف مشروعية العيادة عليه؛ لأن وراء ذلك جبر خاطر أهله، وما يُرجى من بركة دعاء العائد، ووضع يده على المريض، والمسح على جسده، والنفْث عليه عند التعويذ، إلى غير ذلك»[(٢)].

عيادة النساءِ للرجال:

والعيادة المشروعة للمريض تشمل فيما تشمل عيادة النساء للرجال، ولو كانوا أجانب عنهنَّ، كما تشمل عيادة الرجال للنساء: ومن أبواب البخاري في «كتاب المرضى» من صحيحه: «باب عيادة النساء الرجال». وذكر في هذا حديثًا معلَّقًا: أن أم الدرداء عادت رجلًا من أهل المسجد من الأنصار.

وقد وصله البخاري في «الأدب المفرد» من طريق الحارث بن عُبَيد، قال: رأيت أمَّ الدرداء على رحالها أعوادٌ ليس عليها غشاء، عائدة لرجل من الأنصار في المسجد[(٣)]. كما ذكر حديث عائشة ﵂ قالت: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، وعك أبو بكر، ووعك بلال ﵄، قالت: فدخلتُ عليهما، فقلت: يا أبتِ، كيف تجدك؟ ويا بلال كيف تجدك؟ قالت: وكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول:

كل امرئ مصبَّح في أهله ... والموت أدنى من شراك نعله!

(١) متفق عليه: رواه البخاري في المرضى (٥٦٥١)، ومسلم في الفرائض (١٦١٦).

(٢) فتح الباري (١٠/ ١١٤).

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد (٥٣٠)، وضعف إسناده الألباني في ضعيف الأدب المفرد ص٥٦.

وكان بلال إذا أقلعت عنه يقول:

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلةً بواد وحولي إذْخر وجليل؟!
وهل أرِدَنْ يومًا مياه مَجَنّة؟ وهل يبدُوَنْ لي شامةٌ وطَفِيلُ؟!

قالت عائشة: فجئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال: «اللهم حبِّب إلينا المدينةَ كحبِّنا مكة أو أشد»[1].

والشاهد في الحديث: دخول عائشة على أبيها وعلى بلال، وقولها لكلٍّ منهما: كيف تجدك؟ وبلال لم يكن محرمًا لأم المؤمنين.

وممَّا لا ريب فيه أن هذه العيادة مقيَّدة بشروطها الشرعية المعتبرة: من الاحتشام، والالتزام باللباس الشرعي، وأدب المسلمة في المشي والحركة والنظر والقول، وعدم الخلوة، وأمن الفتنة، بالإضافة إلى إذن الزوج للمتزوجة، أو الولي لغير المتزوجة.

ولا ينبغي للزوج أو الولي أن يمنعها من عيادة مَن له حق عليها، من قريب غير محرم، أو صهر، أو أستاذ، أو زوج قريبة، أو والدها، أو أخيها، أو نحو ذلك بالشروط المعتبرة المذكورة.

عيادة الرجال للنساء:

وكما أجازت الأحاديث عيادة النساء للرجال بشروطها، إذا كان لهنَّ بهم صلة، ولهم عليهنّ حق، فإن عيادة الرجال للنساء مشروعة كذلك بالشروط نفسها، إذا كان لهم بهن صلة وثيقة، من قرابة، أو مصاهرة، أو جوار، أو غير ذلك من الأواصر التي تجعل لها حقوقًا اجتماعية أكثر من غيرهم.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في فضائل المدينة (١٨٨٩)، ومسلم في الحج (١٣٧٦)، عن عائشة.

ومن الأدلة على ذلك: عموم الأحاديث التي حثَّت على عيادة المرضى، ولم تفرِّق بين رجل وامرأة.

ومن الأدلة الخاصة لذلك: ما رواه الإمام مسلم في صحيحه، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ دخل على أم السائب- أو أم المسيّب- فقال: «ما لك يا أم السائب- أو يا أم المسيّب- تزفزفين؟». قالت: الحُمَّى، لا بارك الله فيها! فقال: «لا تسبِّي الحُمَّى، فإنها تذهب خطايا بني آدم، كما يذهب الكير خَبَث الحديد»(١). ولم تكن أم السائب هذه من محارمه ﷺ.

ولا بد من رعاية الشروط الشرعية، ومنها: أمن الفتنة، ومراعاة العرف كذلك، فالعرف في الشرع له اعتبار.

عيادة غير المسلم:

وجَعْل عيادة المريض من حق المسلم على أخيه المسلم فيما ذُكر من الأحاديث؛ لا يعني أن المريض غير المسلم لا يُعاد إذا مرض، فإن عيادة المريض أيًّا كان جنسه أو لونه أو دينه أو وطنه عمل إنساني، يعتبره الإسلام عبادة وقربة.

ولا غرو أن عاد النبي ﷺ غلامًا يهوديًّا كان يخدمه، فمرض، فذهب يعوده، وعرض عليه الإسلام، فنظر إلى أبيه، فأشار إليه أبوه أن أطع أبا القاسم، فأسلم قبل أن يموت، فقال ﷺ: «الحمد لله الذي أنقذه بي من النار»(٢). ويتأكّد ذلك إذا كان لغير المسلم حقٌّ على المسلم من جوار أو زمالة، أو قرابة أو مصاهرة، أو نحو ذلك.

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٧٥).

(٢) رواه البخاري في الجنائز (١٣٥٦)، عن أنس بن مالك.

إنما أفادت الأحاديث السابقة تأكيد حق المسلم، لما توجبه الرابطة الدينية من حقوق، فإذا كان جارًا أصبح له حقان: حق الإسلام، وحق الجوار. فإذا كان قريبًا، غدا له ثلاثة حقوق: حق الإسلام، وحق الجوار، وحق القرابة.. وهكذا.

وقد عقد الإمام البخاري بابا في «عيادة المشرك» ذكر فيه حديث أنس بشأن الغلام اليهودي، الذي عاده النبي ﷺ ودعاه إلى الإسلام فأسلم، كما ذكرنا.

وحديث سعيد بن المسيب عن أبيه: لما حُضِر أبو طالب جاءه النبي ﷺ.. الحديث، وقد رواه كل من الإمام البخاري في غير هذا الموضع والإمام مسلم موصولًا[1].

ونقل ابن حجر في «الفتح» عن ابن بطال أن عيادة غير المسلم إنما تشرع إذا رُجي أن يجيب إلى الدخول في الإسلام، فأما إذا لم يطمع في ذلك، فلا.

قال الحافظ: «والذي يظهر أن ذلك يختلف باختلاف المقاصد، فقد يقع بعيادته مصلحة أخرى.

قال الماوردي: عيادة الذمّي جائزة، والقربة موقوفة على نوع حرمة تقترن بها، من جوار أو قرابة»[2].

عيادة العصاة:

وإذا كانت عيادة المريض الكافر مشروعة، وربما كانت قربة وعبادة، فمن باب أولى أن تكون مشروعة في حقِّ المسلم العاصي.

وذلك أن الأحاديث التي أمرت بعيادة المريض، وجعلتها من حق المسلم على المسلم، لم تخص بها أهل الطاعة والصلاح من غيرهم، وإن كان حقهم أوكد.

---

(1) متفق عليه: رواه البخاري في الجنائز (١٣٦٠)، ومسلم في الإيمان (٢٤)، عن المسيب بن حزن.

(2) فتح الباري (١٠ / ١١٩).

قال الإمام البغوي في «شرح السنة» بعد ذكر حديث أبي هريرة في «الحقوق الستة» للمسلم على المسلم، وحديث البراء بن عازب في السبع المأمور بها: «هذه المأمورات كلها من حق الإسلام، يستوي فيها جميع المسلمين برهم وفاجرهم، غير أنه يخص البر بالبشاشة والمساءلة والمصافحة، ولا يفعلها في حق الفاجر المظهر للفجور»[(١)].

واستثنى بعض العلماء المبتدعين، فلا يعادون، إظهارًا للبغض في الله[(٢)].

والذي أرجّحه أن بدعة هؤلاء، أو معصية أولئك، لا تخرجهم من دائرة الإسلام، ولا تحرمهم من حق المسلم على المسلم، وقد تكون عيادتهم دون ترقب منهم ولا توقع- وخصوصًا من مسلم صالح أو عالم أو داعية- سفير خير، ورسول صدق، إلى قلوبهم، فتنشرح صدورهم بعد ذلك لتلقي الحق، واستماع الكلمة الطيبة، والإنسان أسير الإحسان، وكما شرع الإسلام تألف قلوب بعض الناس بالمال، فلا غرو أن يشرع تألف آخرين بالبر واللطف وحسن المعاشرة، وهذا أمر جربه الدعاة الصادقون، ففتح الله لهم به كثيرًا من القلوب المغلقة.

قال العلماء: «ويستحبُّ أن يعم بعيادته الصديق والعدو، ومَن يعرفه ومَن لا يعرفه، لعموم الأحاديث»[(٣)].

٤- كم يعاد المريض؟ وما مدة العيادة؟

وإذا كانت عيادة المريض واجبًا أو سنة على ذويه وجيرانه وأصحابه، فكم مرة تكون؟ وما مدة العيادة؟

---

(١) شرح السنة (٥/ ٢١١، ٢١٢)، ط المكتب الإسلامي بتحقيق شعيب الأرناؤوط.

(٢) المبدع في شرح المقنع لابن مفلح الحنبلي (٢/ ٢١٥).

(٣) المجموع للنووي (٥/ ١١١، ١١٢).

أعتقد أن هذا أمر متروك للعرف ولظروف الناس، وظروف المريض نفسه، ولمدى قوة الصلة بالمريض. والمريض الذي يطول مرضه يزار بين كل فترة وأخرى، وليس في ذلك زمن محدَّد.

قال بعض العلماء: ينبغي أن تكون العيادة للمريض غِبًّا، لا يواصلها كل يوم إلا أن يكون مغلوبًا. وقال بعضهم: كل أسبوع مرة.

وتعقب ذلك النووي قائلًا: «هذا لآحاد الناس، أما أقارب المريض وأصدقاؤه ونحوهم، ممن يأتنس بهم، أو يتبرَّك بهم، أو يشق عليهم إذا لم يروه كلَّ يوم، فليواصلوها، ما لم ينْهَ، أو يعلم كراهية المريض لذلك. وإذا عاد المريض كره إطالة القعود عنده، لما فيه من إضجاره، والتضييق عليه، ومنعه من بعض تصرفاته»[1].

أمَّا مقدار اللُّبث عند المريض:

فلم يأتِ في ذلك نصٌّ من كتابٍ ولا سُنَّة، لكن يُراعى في ذلك عدم المشقَّة على المريض، فلا يطولنَّ في المكث عنده.

قال طاووس رحمه الله: أفضلُ العيادة أخَفُّها[2].

وعاد الأوزاعيُّ ابنَ سيرين وهو مريض، فكان يعوده قائمًا[3].

وهذا أيضًا لا ينطبق على كل عائد، فقد يحب المريض من بعض عُوَّاده أن يطيلوا المكث عنده، وخصوصًا من طال مرضه، واعتبر العيادة إيناسًا له وتهوينًا عليه، ولا سيما إن طلب ذلك بنفسه.

---

(١) المجموع للنووي (٥ / ١١٢).

(٢) التمهيد، لابن عبد البر (٢٤/ ٢٧٧).

(٣) المصدر السابق.

٥- تعهد المريض وتفقد أحواله:

والمريض الغائب أو البعيد- ممن له الحق- تكون عيادته بالسؤال عنه بالهاتف، لمن قدر عليه، أو بالبرق، وخصوصًا بعد نجاح العمليات الجراحية الخطيرة ونحوها، أو بالبريد.

وما زلت أذكر يوم قُدِّر لي أن أجري عملية الانزلاق الغضروفي التي عملتها في «بون» بألمانيا، صيف سنة ١٩٨٥م، وأمضيت فترة بعدها تحت العلاج الطبيعي، أذكر كيف توافدت على الهواتف (التليفونات) الأخوية من الدوحة والقاهرة وغيرهما ومن أوربا وأمريكا، مستفسرة وداعية. وكم كان لها في نفسي من أثر طيب، خفَّف عني الألم، وقرَّبني من الشفاء.

قال الحافظ ﷺ: «ويلتحق بعيادة المريض: تعهُّده وتفقُّد أحواله والتلطُّف به، وربَّما كان ذلك في العادة سببًا لوجود نشاطه وانتعاش قوته»(١).

وفي «صحيح البخاري»، عن ابن عبَّاس ﷺ: أنَّ عليًّا ﷺ خرج من عند رسول الله ﷺ في وجعه الذي توفِّي فيه، فقال الناس: «يا أبا الحسَن، كيف أصبح رسول الله ﷺ؟ قال: أصبحَ بِحَمد الله بارئًا».. الحديث(٢).

قال ابن حجر ﷺ: «يُسنُّ السُّؤال عن حاله مِمَّن يَعلمه؛ لأنَّ المريض إذا بلَغَه ذلك يُسَرُّ به»(٣).

---

(١) فتح الباري (١٠/ ١١٣).

(٢) رواه البخاري في المغازي (٤٤٤٧). ومعنى قوله: "أصبح بحمد الله بارئًا"؛ أي: قريبًا من البرء، وذلك بحسب ظنِّه، أو قال ذلك على سبيل التَّفاؤل، أو المعنى بارئًا من كل ما يعترض المريض من قلقٍ وغفلة.

(٣) نقلًا من الفتوحات الربانية لابن علان (٤/ ٥٢).

٦- قول: «لا بأس طَهورٌ إن شاء الله» والقعود عند رأس المريض:

من الآداب عند زيارتك للمريض أن تبدأ بالسَّلام، ثم تدعو له بهذا الدُّعاء: «لا بأس، طَهورٌ إن شاء الله»؛ وذلك لما ثبتَ في الحديث عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما أنَّ النبي ﷺ دخل على أعرابي يعوده، قال: وكان النبيُّ ﷺ إذا دخل على مريضٍ يعوده، قال له: «لا بأس، طَهورٌ إن شاء الله»[1].

ومن الأدب أيضًا: أن تقعد عند رأسه إن أمكنَك ذلك؛ لأنَّ فيه إيناسًا للمريض، ولأنَّ ذلك يكون أسهلَ عليك في وضع يدك على المريض، والدُّعاء له بالرُّقْية الشرعية.

وأما دليل القعود عند رأس المريض: فقد تقدَّم أن النبيَّ ﷺ عندما عاد الغلام اليهوديَّ، قعد عند رأسه، لكن قد لا يتيسَّر له ذلك؛ لكثرةِ العُوَّاد مثلًا، أو ضِيق المكان، أو لغير ذلك، فلا بأس أن يجلس في أيِّ مكان.

٧- سؤال المريض عن حاله:

وذلك لما ثبت في الحديث عن أنسٍ رضي الله عنه قال: دخل النبيُّ ﷺ على شابٍّ وهو في الموت، فقال: «كيف تجِدُك؟» قال: أرجو الله، يا رسول الله، وأخاف ذنوبي. فقال رسولُ الله ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبدٍ في مثل هذا الموطن، إلَّا أعطاه الله ما يَرجوه، وأمَّنَه مِمَّا يخاف»[2].

ويسنُّ للمريض إذا سأله العائد عن حاله أن يقول خيرًا؛ كأنْ يحمدَ الله، أو أنَّه يرجو رحمة الله، ولا يقول كلامًا فيه تسخُّط وضجَر واعتراضٌ على قدَرِ الله.

---

(١) رواه البخاري في المناقب (٣٦١٦).

(٢) رواه الترمذي في الجنائز (٩٨٣)، وقال: غريب، والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (١٠٩٠١)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٦١)، وجوَّد النووي إسناده في خلاصة الأحكام (٢/ ٩٠٢).

٨- وعلى العائد أن يبشِّر المريض بثواب المرض:

فعن أمِّ العلاء رضي الله عنها قالت: عادني رسولُ الله ﷺ وأنا مريضة، فقال: «أبْشري يا أمَّ العلاء، فإنَّ مرض المسلم يُذهب الله به خطاياه، كما تُذهب النار خبثَ الذَّهب والفضة»[(١)].

وعن أبي هُريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أنَّه عاد مريضًا ومعه أبو هريرة مِن وَعَكٍ كان به، فقال رسولُ الله ﷺ: «أبشِر؛ فإنَّ الله يقول: هي ناري أسلِّطها على عبدي المؤمن في الدُّنيا، لتكون حظَّه من النَّار في الآخرة»[(٢)].

ومعنى أنَّ الحُمَّى حظُّ المؤمن من النار؛ أي: إنَّ الله عز وجل يُسلِّطها على عبده المؤمن في الدنيا، ليكون ذلك نجاةً له من عذاب النار، فهي فكاكه إنْ كان عليه ما يوجب دخولَ النار، وذلك من رحمة الله بعباده المؤمنين.

٩- الثناء على المريض بمحاسن عمله:

يُسنُّ للعائد أن يُذكِّر المريض بمحاسن عمَلِه، وبما أعدَّه الله من ثوابٍ لِهذه الأعمال، وذلك ليذهب عنه خوفه، وليحسن الظن بربِّه.

ففي «صحيح البخاري»: عن المسور بن مخرمة رضي الله عنه قال: لَمَّا طُعِن عمر جعل يألَم، فقال له ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما وكأنَّه يجزِّعه[(٣)]: يا أمير المؤمنين، ولئنْ كان ذلك؛ لقد صَحِبتَ رسول الله ﷺ، فأحسنتَ صحبته، ثم فارقتَه وهو عنك راضٍ،

---

(١) رواه أبو داود في الجنائز (٣٠٩٢)، وعبد بن حميد في المنتخب (١٥٦٤)، والطبراني (٢٥/ ١٤١)، وصححه الألباني في الصحيحة (٧١٤).

(٢) رواه أحمد (٩٦٧٦)، وقال مخرجوه: إسناده جيد. والترمذي في الطب (٢٠٨٨)، ابن ماجه في الطب (٣٤٧٠)، والحاكم (١/ ٣٤٥)، وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٢).

(٣) يجزِّعه؛ أي: يزيل عنه الجزع، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ [سبأ: ٢٣]؛ أي: أزيل عنهم الفزَع.

ثم صحبتَ أبا بكرٍ فأحسَنْت صحبته، ثم فارقته وهو عنك راضٍ، ثم صحبت صحبتَهم، فأحسنتَ صحبتهم، ولئن فارقتَهم لَتُفارقَنَّهم وهم عنك راضون.. الحديث[1].

وفي «صحيح البخاري» أيضًا أنَّ عمر ﷺ لما احتُمِل إلى بيته بعد ما طعنَه أبو لؤلؤة المجوسيُّ: . . وجاء رجلٌ شابٌّ فقال: أبشِرْ يا أمير المؤمنين، بِبُشرى الله لك، مِن صحبةِ رسول الله ﷺ، وقدَمٍ في الإسلام ما قد عَلِمتَ، ثم وليتَ فعدَلْت، ثم شهادة. قال عمر: وددتُ أنَّ ذلك كَفَافٌ لا عليَّ ولا لي.. الحديث[2].

وفي «صحيح مسلم»: عن أبي شماسة قال: حُضِر عمرُو بن العاص وهو في سياقة الموت يبكي طويلًا، وحوَّل وجهه إلى الجدار، فجعل ابنُه يقول: يا أبتاه، أَلَمْ يُبَشِّرْك رسولُ الله ﷺ بكذا، ألم يبشرك رسول الله ﷺ بكذا؟[3].

وفي «صحيح البخاري»: عن القاسم بن أبي بكر، أن عائشة ﷺ اشتكَت، فجاء ابنُ عبَّاس ﷺ فقال: يا أمَّ المؤمنين، تَقْدمين على فَرَطِ صِدْق[4]؛ على رسول الله ﷺ وعلى أبي بَكْر[5].

١٠- تقوية الرجاء في العافية عند المريض:

وإذا عاد المسلم أخاه المريض، فيحسن به أن يغذِّي فيه رُوح التفاؤل والرجاء، ويحمل إليه البشرى والأمل في الشفاء، وأن المؤمن لا ييئس من رَوْح

(١) رواه البخاري في أصحاب النبي ﷺ (٣٦٩٢).

(٢) رواه البخاري في أصحاب النبي ﷺ (٣٧٠٠).

(٣) رواه مسلم في الإيمان (١٢١).

(٤) الفرَط هو الذي يَسبق القوم، ليعدَّ لهم السُّقيا، والمقصود: أنها تَقْدم على رسول الله ﷺ وعلى أبي بكر رضي الله عنه.

(٥) رواه البخاري في أصحاب النبي ﷺ (٣٧٧١).

الله، ولا يقنط من رحمة ربه، وأن الذي كشف الضر عن أيوب، ورد البصر إلى يعقوب، قادر أن يكشف عنه ضره، ويرد عليه عافيته، ويبدله من السقم صحة، ومن الضعف قوة.

ولا يحسن به أن يذكر للمريض الذين ماتوا، بل يذكر الذين استردُّوا عافيتهم بعد المرض الطويل، وبعد جراحات خطيرة، وذلك لتقوية روحه المعنوية، وهذا جزء من العلاج عند حُذَّاق الأطباء قديمًا وحديثًا، إذ لا انفصال بين النفس والجسم، إلا في البحث النظري أو التجريد الفلسفي.

ولهذا كان النبي ﷺ يقول للمريض إذا عاده: «لا بأس، طهور إن شاء الله» كما تقدم في الصحيح[1].

ومعنى «لا بأس» أي: لا شدة ولا حرج، فهو تفاؤل ودعاء بأن يزول عنه البأس والضر، وترجع إليه الصحة والعافية، فضلًا عما وراءها من التطهير والتكفير.

وقد روى الترمذي وابن ماجه، عن أبي سعيد الخدري مرفوعًا: «إذا دخلتم على المريض، فنفِّسوا له في أجله، فإن ذلك لا يرد من القدر شيئًا، وهو يطيب نفسه»[2].

ومعنى «نفِّسُوا له»: أي أطمعوه في الحياة وطول الأجل، كأن يقول له: إن شاء الله تسترجع عافيتك، وتقوم بالسلامة، ويرزقك الله طولَ العمر، وحسن العمل،

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه الترمذي في الطب (٢٠٨٧) واستغربه، وابن ماجه في الجنائز (١٤٣٨)، وقال الحافظ في فتح الباري (١٠/ ١٢١): سنده لين. وقال الإمام النووي في الأذكار ص١٣٩: ويغني عنه حديثُ ابن عباس رضي الله عنهما السابق في: باب ما يُقال للمريض: "لا بأسَ، طهورٌ إنْ شاءَ اللَّهُ" عند البخاري في المناقب (٣٦١٦).

ونحو هذه العبارات. ففي ذلك تنفيس لما هو فيه من الكرب، وطمأنينة لقلبه. قال النووي: وهو معنى قوله ﷺ للأعرابي: «لا بأس»(١).

ومن وصل به المرض إلى حالة لم يعد يُرجى شفاؤه منها- وفْق سنن الله- سأل الله له أن يلطف به، ويخفف عنه، ويختار له الخير، يقول ذلك في نفسه، ولا يسمعه إياه، حتى لا يؤثر ذلك على نفسيته.

١١- وضع اليد على المريض:

ومما يرفع من معنوية المريض ويُطيِّب نفسه، ويشعره براحة نفسية: وضع اليد عليه، أو على موضع الوجع منه، مع الدعاء له، وخصوصًا لِمَن يظن بهم الخير والصلاح، كما فعل النبي ﷺ، مع سعد بن أبي وقاص، فقد مسح على وجهه وبطنه، ودعا له بالشفاء.

فعن سعد بن أبي وقَّاص ﷺ قال: «تشكَّيتُ بمكَّة شَكْوى شديدة، فجاءني النبيُّ ﷺ، يعودني..»، فذكر الحديثَ إلى أن قال: «ثُم وضعَ يده على جبهتي، ثُمَّ مسح يده على وجهي وبطني، ثم قال: «اللهمَّ اشف سعدًا، وأتْمِم له هجرتَه» فما زلت أجدُ بَرْدَه على كبدي فيما يُخال إليَّ(٢).

وعن ابن مسعودٍ ﷺ قال: دخلتُ على رسول الله ﷺ وهو يُوعَك وعكًا شديدًا، فمسِسْتُه بيدي، فقلت: إنَّك توعك وعكًا شديدًا، قال: «أجَل، كما يُوعَك رجلانِ منكم»(٣).

(١) انظر: فتح الباري (١٠ / ١٢١، ١٢٢).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في المرضى (٥٦٥٩)، ومسلم في الوصية (١٦٢٨).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في المرضى (٥٦٤٨)، ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٧١).

وقد وردَتْ أحاديثُ أخرى في هذا المعنى، مِنْها عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسولُ الله ﷺ إذا عاد مريضًا يضع يده على المكان الذي يألَم، ثُم يقول: «باسم الله»(١).

قال ابن بطَّال رحمه الله: «وفي وضع اليد على المريض تأنيسٌ له، وتعرُّفٌ لشِدَّة مرَضِه، ليَدعو له بالعافية على حسب ما يبدو له منه، وربَّما رقَاه بيده، ومسح على ألَمِه بما ينتفع به العليل، إذا كان العائدُ صالحًا».

قال الحافظُ رحمه الله: «وقد يكون عارفًا بالعلاج، فيعرف العلَّة، فيصف له ما يُناسبه»(٢).

١٢- الدعاء للمريض ورقيته:

ويتميز أدب عيادة المسلم لأخيه المريض من عيادة غيره، بما يصحبها من دعاء ورقية.

فمن السنة: أن يدعو عائد المريض له، ويرقيه بما أُثِر عن رسول الله ﷺ.

وقد ترجم الإمام البخاري لذلك بقوله: «باب دعاء العائد للمريض»، وذكر حديث عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ كان إذا أتَى مريضًا، أو أُتِيَ به إليه، قال عليه الصلاة والسلام: «أذهب الباس، رب الناس، اشفِ وأنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقمًا»(٣).

---

(١) رواه أبو يعلى (٤٤٥٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٧٨٠): رجاله موثقون. وحسنه الحافظ في فتح الباري (١٠/ ١٢١).

(٢) فتح الباري (١٠/ ١٢٠).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في المرضى (٥٦٧٥)، ومسلم في السلام (٢١٩١).

وقد عاد النبي ﷺ سعد بن أبي وقاص، ودعا له فقال: «اللهم اشفِ سعدًا، وأتمم له هجرته»[(١)].

ومن الغريب ما ذكره في «الفتح» من استشكال بعضهم الدعاء للمريض بالشفاء، مع ما في المرض من كفارة الذنوب والثواب، كما تضافرت الأحاديث بذلك.

وأجاب الحافظ: «أن الدعاء عبادة، ولا ينافي الثواب والكفارة؛ لأنهما يحصلان بأول مرض، وبالصبر عليه، والداعي بين حسنتين: إما أن يحصل له مقصوده، أو يعوَّض عنه بجلب نفع أو دفع ضرر. وكلٌّ من فضل الله تعالى»[(٢)].

ثم إن المسلم يصبر على المرض إذا أصابه، وعلى البلاء إذا حلَّ به، ولكنه يسأل الله تعالى العافية، كما في الحديث الصحيح: «لا تتمنَّوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»[(٣)].

وفي الحديث: «سلوا الله العفو والعافية، فإن أحدًا لم يُعطَ بعد اليقين خيرًا من العافية»[(٤)].

وفي حديث ابن عباس: أنَّ النبي ﷺ قال: «أكثر من الدعاء بالعافية»[(٥)].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) فتح الباري (١٠ / ١٣٢).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٦٥، ٢٩٦٦)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٤٢)، عن عبد الله بن أبي أوفى.

(٤) رواه أحمد (٣٤)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح، والترمذي في الدعوات (٣٥٥٨)، وقال: حسن غريب، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٦٣٢)، عن أبي بكر.

(٥) رواه الطبراني (١١/ ٣٣٠)، والحاكم في الدعاء (١/ ٥٢٩)، وصحَّحه على شرط البخاري، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٣٧٤): رواه الطبراني، وفيه هلال بن خباب، وهو ثقة، وقد ضعَّفه جماعة، وبقية رجاله ثقات، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١١٩٨).

ومن أدعيته ﷺ: «اللهم إني أسألك العفو والعافية في دنياي وديني وأهلي ومالي»(١).

ومن الأدعية المأثورة:

ما رواه عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا جاء الرجل يعود مريضًا، فليقل: اللهم اشفِ عبدك، ينكأ لك عدوًّا، ويمشِي لك إلى صلاة»(٢).

يعني: إن في شفاء المؤمن خيرًا لنفسه بالصلاة، ولأمته بالجهاد.

ومنها: ما رواه ابن عباس، عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن عاد مريضًا لم يحضر أجله، فقال عنده سبع مرات: أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك. إلا عافاه الله من ذلك المرض»(٣).

الرقية للمريض:

ومما يقترب من هذا الباب: الرُّقية الشرعية البريئة من الشرك، ولا سيما بالمأثور من رُقى رسول الله ﷺ، وخصوصًا إذا كانت من مسلم صالح.

روى مسلم عن عوف بن مالك قال: كنا نرقي في الجاهلية، فقلنا: يا رسول الله، كيف ترى في ذلك؟ فقال: «اعرضوا عليَّ رقاكم، لا بأس بالرقى، ما لم يكن فيه

---

(١) رواه أحمد (٤٧٨٥)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح رجاله ثقات، وأبو داود في الأدب (٥٠٧٤)، والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (١٠٣٢٥)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٧١)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣١٢١)، عن ابن عمر.

(٢) رواه أحمد (٦٦٠٠) وقال مخرجوه: إسناده ضعيف، وأبو داود في الجنائز (٣١٠٧)، وابن حبان (٢٩٧٤)، والحاكم (١/ ٣٤٤) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي، كلاهما في الجنائز، وصححه الألباني في الصحيحة (١٣٠٤).

(٣) رواه أحمد (٢١٣٧) وقال مخرجوه: حديث صحيح، وأبو داود في الجنائز (٣١٠٦) والترمذي في الطب (٢٠٨٣) وقال: حسن غريب، والحاكم في الطهارة (١/ ٣٤٢)، وصححه على شرط البخاري ووافقه الذهبي، وصحح إسناده ابن حجر في نتائج الأفكار (٤/ ١٨٤).

شرك»[1].

وروى عن جابر: نهى رسول الله ﷺ عن الرُّقى، فجاء آل عمرو بن حزم فقالوا: يا رسول الله، إنه كانت عندنا رقية نرقي بها من العقرب! قال: فعرضوا عليه، فقال: «ما أرى بأسًا، من استطاع أن ينفع أخاه فلينفعه»[2].

قال الحافظ: «وقد تمسك قوم بهذا العموم، فأجازوا كل رقية جُرِّبت منفعتها، ولم يُعقل معناها، لكن دل حديث عوف: أنه مهما كان من الرقى يؤدي إلى الشرك يُمنع، وما لا يعقل معناه لا يُؤمن أن يؤدِّي إلى الشرك، فيُمنع احتياطًا»[3]. وشرط المنفعة لا بد منه.

وقد ثبتت شرعية الرقية، بالسنة القولية والفعلية والتقريرية.

فقد رقى النبي ﷺ بعض أصحابه بنفسه، ورقاه جبريل عليه السلام. وأمر بعض أصحابه بالرقية، وكذلك نصح بعض أهله وذويه. وأقر من رقى من الصحابة على فعله.

فعن عائشة: أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى الإنسان الشيء منه، أو كانت به قرحة أو جرح، قال النبي ﷺ بإصبعه هكذا، ووضع سفيان- راوي الحديث- سبابته بالأرض، ثم رفعها: «باسم الله، تربةُ أرضنا، بِرِيقة بعضنا، يُشفى به سقيمُنا، بإذن ربنا»[4].

ومعنى الحديث: أنه يأخذ من ريق نفسه على إصبعه السبابة، ثم يضعها على

(1) رواه مسلم في السلام (٢٢٠٠)، وأبو داود في الطب (٣٨٨٦).

(2) رواه مسلم في السلام (٢١٩٩)، وأحمد (١٤٣٨٢).

(3) فتح الباري (١٠ / ١٩٥، ١٩٦).

(4) متفق عليه: رواه البخاري في الطب (٥٧٤٥)، ومسلم في السلام (٢١٩٤).

التراب، فيعلق بها منه شيء، فيمسح به على الموضع العليل أو الجريح، ويقول هذا الكلام في حال المسح.

وعنها قالت: كان إذا اشتكى رسول الله ﷺ رقاه جبريل[1].

وعن أبي سعيد: أن جبريل أتى النبي ﷺ وقال: يا محمد، اشتكيت؟ فقال: «نعم». قال: «باسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس أو عين حاسد، الله يشفيك، باسم الله أرقيك»[2].

وعن عائشة: أن النبي ﷺ، كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوِّذات وينفث، فلما اشتد وجعه، كنت أقرأ عليه، وأمسح عنه بيده، رجاء بركتها[3]. والنفث: نفخ لطيف بلا ريق.

وعنها: أن رسول الله ﷺ كان يأمرها أن تسترقي من العين[4].

وعن جابر: أن النبي ﷺ قال لأسماء بنت عُمَيس: «ما لي أرى أجسام بني أخي ضارعة- أي نحيفة- تصيبهم الحاجة؟» قالت: لا، ولكن العين تسرع إليهم. قال: «ارقيهم». قالت: فعرضت عليه، فقال: «ارقيهم»[5].

يعني: أولاد ابن عمه جعفر بن أبي طالب، وكانت أسماء زوجته.

وقال للصحابة الذين رقى واحد منهم سيد الحي في سفر لهم بفاتحة الكتاب، فأعطاه قطيعًا من الغنم، فأبى أن يقبلها، حتى يسأل النبي ﷺ، فأتى النبيَّ ﷺ، فذكر ذلك له، وقال: واللهِ ما رقيتُ إلا بفاتحة الكتاب، فقال ﷺ: «خذوا منهم،

---

(١) رواه مسلم في السلام (٢١٨٥)، وأحمد (٢٥٢٧٢).

(٢) رواه مسلم في السلام (٢١٨٦)، وأحمد (١١٢٢٥).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في فضائل القرآن (٥٠١٦)، ومسلم في السلام (٢١٩٢).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في الطب (٥٧٣٨)، ومسلم في السلام (٢١٩٥).

(٥) رواه مسلم في السلام (٢١٩٨).

واضربوا لي بسهم معكم»[1].

١٣- أمر العائدِ المريضَ بالمعروف ونهيه عن المنكر:

ومن الأدب الجميل لعائد المريض المسلم أن ينصح له بصدق، ويأمره بالمعروف، وينهاه عن المنكر، فإن الدين النصيحة، والأمر والنهي فريضة، ومرض المسلم لا يعفيه من تقبل الكلمة الطيبة، والنصيحة المخلصة، وكل ما هو مطلوب أن يُراعي الناصح حاله، فيرفق به، ولا يُثقل عليه، والله تعالى يُحبُّ الرفق في الأمر كله، ومع الناس جميعًا، وهو مع المريض أولى.

وما دخل الرفق في شيء إلا زانه، وما نزع من شيء إلا شانه.

ويتأكد طلب الرفق إذا كان المريض يجهل ما ضيَّع من معروف، أو ما وقع فيه من منكر، مثل كثير من أبناء المسلمين الذين يجهلون أوليات الإسلام.

فمن عاد مريضًا ووجده لا يصلي كسلًا أو جهلًا، لظنِّه أنه لا يستطيع الصلاة، لعدم قدرته على الوضوء، أو عجزه عن القيام أو الركوع أو السجود، أو عدم تمكُّنه من التوجه إلى القبلة، أو غير ذلك، فالواجب أن ينبِّهه على أن الصلاة تجب على المريض وجوبها على الصحيح، وأنها لا تسقط إلا بفقد الوعي، وأن المريض الذي يعجز عن الوضوء يمكنه أن يتيمم بأي شيء من جنس الأرض، ويمكن مساعدته بإحضار بعض الرمل النظيف في علبة أو كيس، أو حجر أو بلاطة، أو نحو ذلك.. على مذهب من يرى ذلك صعيدًا طيبًا. وأنا منهم.

وكذلك يستطيع المريض أن يصلي كيفما استطاع: قاعدًا إن لم يستطع القيام، أو مضطجعًا على جنب، أو مستلقيًا على ظهره، إن لم يستطع القعود، ويكفيه الإيماء

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الإجارة (٢٢٧٦)، ومسلم في السلام (٢٢٠١)، عن أبي سعيد.

والإشارة. وقد قال النبي ﷺ لعمران بن حصين: «صلِّ قائمًا، فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلى جنب»(١).

والله تعالى يقول: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن:١٦]. والرسول الكريم يقول: «إذا أمرتكم بأمر، فائتوا منه ما استطعتم»(٢).

وكذلك إذا لم يتمكَّن من استقبال القبلة، فإنها تسقط عنه، ويصلِّي إلى أي جهة، فكل شروط الصلاة تسقط بالعجز، وقد قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة:١١٥].

وإن وجد المريضَ متضجِّرًا من المرض، ضائقَ الصدر به، فينبغي أن يذكره بما للمريض عند الله من عظيم المثوبة، وأن الله يطهره بالمرض من خطاياه، وأن أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، وما يزال البلاء ينزل بالعبد حتى يمشي على الأرض وما عليه خطيئة، كما صحَّت بذلك الأحاديث.

وإذا وجد عند المريض ما لا يجوز شرعًا، نهاه عنه بلطف وحكمة، وذكر له من أدلة الشرع ما يُزيح عنه الجهل والغفلة، دون تعنيف له، ولا استعلاء عليه، وخصوصًا ما عمَّت به البلوى في كثير من المجتمعات؛ مثل تعليق التمائم ونحوها، ولُبس الرجال خواتم الذهب، أو السلاسل في الرقبة، فهذه لا تجوز للرجال، وإن كانت من فضة أو نحاس، فإذا كانت من ذهب كانت أشد حُرْمة، وإذا كان يعتقد في بركتها، فهي أشد إثمًا.

فعلى من يعود من كان هذا حاله أن يُعلِّمه من كتاب الله ومن سنة رسوله ﷺ

---

(١) رواه البخاري في أبواب تقصير الصلاة (١٠٦٦)، عن عمران بن حصين.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٢٨٨)، ومسلم في الحج (١٣٣٧)، عن أبي هريرة.

ما يرشده إلى الحق، ويهديه إلى الصواب، مثل قوله ﷺ: «من علَّق تميمة، فقد أشرك»[1].

ولا ينبغي أن ينكر على المريض إلا ما أجمع العلماء على أنه منكر، أما ما اختلف فيه ثقات أهل العلم بين مجيز ومانع، ففيه فسحة لمن أخذ بأحد الرأيين، مجتهدًا كان أو مقلِّدًا، ولا داعي للدخول في جدل حول أي الرأيين أصح وأرجح، فظروف المرض لا تسمح بذلك، إلا إذا سأل هو أو رغب في ذلك.

حكم تعليق التمائم المشتملة على كلام الله ورسوله:

مثال ذلك: تعليق التمائم إذا كانت من آيات القرآن الكريم، أو الحديث الشريف، أو مشتملة على ذكر الله تعالى، والثناء عليه، والدعاء له. فهذا مما اختُلف فيه بين الإجازة والكراهة.

روى الإمام أحمد، عن عبد الله بن عمرو قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا كلمات نقولهنَّ عند الفزع من النوم: «باسم الله، أعوذ بكلمات الله التامة، من غضبه وعقابه، وشر عباده، ومن همزات الشياطين، وأن يحضرون». فكان عبد الله يعلمها من بلغ من ولده أن يقولها عند نومه، ومن كان منهم صغيرًا لا يعقل أن يحفظها كتبها له، فعلَّقها في عنقه[2].

وقال إبراهيم النخعي: كانوا يكرهون التمائم كلها، من القرآن وغيره[3].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه أحمد (٦٦٩٦) وقال مخرجوه: حديث محتمل للتحسين، وأبو داود في الطب (٣٨٤٣)، والترمذي في الدعوات (٣٥١٩)، وقال: حسن غريب. والنسائي في عمل اليوم والليلة (٧٦٥).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في الطب (٢٣٩٣٣).

وقوله: (كانوا) يشير إلى أصحاب ابن مسعود، مثل الأسود وعلقمة ومسروق، وغيرهم. والكراهية دون الحرمة.

ولا بأس أن يُذكِّر للمريض برفق: أنَّ الأولى والأحوط ترك التمائم كلها، لعموم النهي، وسدًّا للذريعة، وخشية أن يدخل بها المرحاض ونحوه، على ألا يشتد عليه في ذلك، لوجود الاختلاف فيه.

الفصل الخامس

أهل المريض وماذا عليهم تجاهه؟

يجب على أهل المريض أن يعتنوا به العناية اللائقة بمثل حاله، وألا يضيقوا به، بل يصبروا عليه، ولا يجعلوه يحس بأنه عبء ثقيل، وأشد من ألم المرض أن يشعر المريض أنه أصبح عبئًا على أهله، وأن يرى ذلك على صفحات وجوههم، وفي نظرات أعينهم، وفلتات ألسنتهم، وهناك واجبات عليهم تجاهه، وآداب ينبغي لهم أن يتأدبوا بها، وهي:

الصبر على المريض:

أول هذه الآداب التي ينبغي على أهل المريض وقرابته الأخذ بها، والحرص عنيها- بل هي من قبيل الآداب الواجبة- أن يصبروا عليه، ولا يضيقوا به، أو يملُّوا منه، وخصوصًا إذا طال مرضه. فإن الأشد من المرض إيجاعًا وإيلامًا، أن يشعر المريض أنه أصبح عبئًا على أهله، وأنهم يتمنون أن يريحهم الله منه، يرى ذلك على صفحات وجوههم، وفي نظرات أعينهم، وفلتات ألسنتهم.

وإذا كان صبر المريض على ما ابتلي به من المرض، من أعظم ما يثيب الله تعالى عليه، كما صحَّت بذلك الأحاديث، فإن صبر آله وذويه على تمريضه ومعاونته على الشفاء لا يقل مثوبة عنه، بل قد يزيد عليه؛ لأن صبر المريض أشبه بصبر الاضطرار، وصبر أهله صبر اختيار، ذلك صبر على البلاء، وهذا صبر على فعل الخير.

صبر كل من الزوجين على مرض الآخر:

ومن أوجب من يجب عليه الصبر على صاحبه إذا حلَّ به المرض: الزوج على زوجته، والزوجة على زوجها. فالحياة أزهار وأشواك، ونفحات ولفحات، ولذَّات وآلام، وصحة وسقام، ودوام الحال من المحال. ولا يجوز لرجل ذي دين وخلق أن ينعم بزوجته حال الصحة، ويتبرَّم بها عند المرض، فيأكلها لحمًا، ويرميها عظمًا، ويمص عصارتها شابة، ثم يرمي بها قشرة حالة الضعف والعجز، فليس هذا من الوفاء، ولا من حسن العشرة، ولا من أخلاق الرجال، ولا خصال المؤمنين.

كما لا يجوز لامرأة سعدت بالحياة مع زوجها شابًّا صحيح البدن، قوي البنية أن تضيق ذرعًا به إذا داهمه المرض، فاعتلَّ بعد صحة، وضعف بعد قوة، وتنسى أن الحياة الزوجية الفاضلة: هي التي تقوم على التعاون الدائم على الحلوة والمرة، والعافية والبلاء.

وقد شكا الشاعر العربي قديمًا من امرأته «سُليمى» حين ضجرت منه لمرضه، فلما سُئِلت عنه قالت: لا حيٌّ فيرجَى، ولا ميْت فيُنْسى! على حين كانت أمه حانية عليه، ملهوفة على شفائه، حريصةً على بقائه، فقال في ذلك:

أرى أم صخر ما تجف دموعها ... وملَّت سُلَيْمَى مضجعي ومكاني!

فأي امرئٍ ساوى بأم حليلة ... فلا عاش إلا في أسى وهوان!

لعمري لقد نبَّهت من كان نائمًا ... وأسمعت من كانت له أذنان![1]

الصبر على مرض الأبوين:

وأوجب من صبر كل من الزوجين على مرض صاحبه، وشريك حياته: صبر

(١) الأبيات لصخر بن عمرو بن الشريد السلمي، ينظر: الأصمعيات ص١٤٦، وعيون الأخبار (٤/ ١١٦)، والكامل في اللغة (٤/ ٥١).

الابن على مرض الوالدين. فإن حقهما بعد حق الله تعالى، وبرهما من أصول الفضائل التي جاءت بها الرسالات الإلهية، ولهذا وصف الله تعالى يحيى عليه السلام بقوله: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٤﴾ [مريم:١٤]. وأنطق المسيح عيسى ابن مريم في المهد صبيا، فكان مما وصف به نفسه: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۝٣٢﴾ [مريم:٣٢].

ومثل الابن: البنت؛ بل هي أحق برعاية أبويها وتمريضهما، وأقدر عليه من الابن لما حباها الله به من حنان دافق، وعاطفة فياضة، لا تتوافر دائمًا عند الأبناء الذكور.

وقد جعل القرآن الإحسان بالوالدين بعد توحيد الله تعالى، كما في قوله ﷻ: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء:٣٦]، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ﴾ [الإسراء:٢٣].

وقد نبَّه القرآن في هذه الآية الكريمة على حالة خاصَّة، أو مرحلة معينة من العمر، يتأكَّد فيها البر والإحسان، وهي حالة الكبر والشيخوخة، التي يكون فيها الأبوان في غاية من الحساسية النفسية لأي كلمة تصدر من أولادهما، تشعرهما بالتأفُّف أو الضجر من وجودهما، وهو ما صرح القرآن بالنهي عنه تعيينًا وتحديدًا في قوله سبحانه: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝٢٣ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ۝٢٤﴾ [الإسراء:٢٣-٢٤].

وتعبير القرآن بقوله: ﴿يَبْلُغَنَّ عِندَكَ﴾ يدل على أنه أصبح مسؤولًا عنهما، وأنهما أصبحا في عداد عياله.

والصبر على الأبوين في حالة الضعف والكبر من أوسع الأبواب المؤدِّية إلى

الجنة والمغفرة، ومَن ضيَّع هذه الفرصة فقد ضيَّع على نفسه مغنمًا كبيرًا، وخسر خسرانًا مبينًا.

وقد ثبت في الحديث الصحيح، أن النبي ﷺ قال فيما رواه عنه أبو هريرة: «رغم أنفه، ثم رغم أنفه، ثم رغم أنفه!» قِيلَ: مَنْ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «من أدرك أبويه عند الكبر، أحدهما أو كليهما، ثم لم يدخل الجنة»[1].

وفي الحديث الآخر، الذي رواه كعب بن عجرة وغيره: أن جبريل أمين الوحي دعا على من أضاع هذه الفرصة على نفسه، وأمَّن على ذلك النبي ﷺ ونص دعوة جبريل: «بعُد من أدرك أبويه عند الكبر أو أحدهما فلم يدخل الجنة»[2].

ومثل حالة الشيخوخة: حالات المرض كلها، التي تجعل الإنسان في صورة من الضعف والحاجة إلى رعاية الغير، وعدم القدرة على الاستقلال بشؤون النفس.

وإذا كان هذا في شأن الأبوين عامَّة، فإن الأم خاصَّة أحق بالرعاية لتأكيد القرآن والسنة الوصية بها. قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ﴾ [الأحقاف:١٥]. ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان:١٤].

وروى الطبراني في الصغير عن بريدة: أن رجلًا جاء إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني حملتُ أمِّي على عنقي فرسخين في رمضاء شديدة، لو ألقيت فيها

---

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٥١)، وأحمد (٨٥٥٧).

(٢) رواه الطبراني (١٩/ ١٤٤)، والحاكم في البر والصلة (٤/ ١٥٣)، وصحح إسناده ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي (١٧٣١٧): الطبراني رجاله ثقات، وقال الألباني في صحيح الترغيب (٩٩٥): صحيح لغيره.

بَضعة لحم لنضجت، فهل أديتُ شكرها؟ قال: «لعله أن يكون لطلقة واحدة»[1].

وحكوا أن رجلًا قال لعمر بن الخطاب: إن أمي قد بلغت من الضعف والهَرَم بحيث لا تقضي حاجتها إلا وظهري لها مطية- يعني أنه صنع لها ما كانت تصنع هي له- فهل وفيت ديني لها؟ قال: إنك تصنع لها ذلك، وترتقب موتها غدًا أو بعد غد، أما هي فكانت تصنع ذلك لك، وهي ترجو لك عمرًا طويلًا!»[2].

مسؤولية الأهل تجاه المريض فاقد الأهلية:

وتزداد مسؤولية الأهل عن المريض إذا كان فاقد الأهلية، مثل الطفل، - ولا سيما غير المميز - والمجنون، لما يحتاج إليه كل منهما من رعاية مكثفة، وعناية بالغة.

فالإنسان المميز والعاقل يستطيع أن يطلب ما يريده، ويشرح ما هو في حاجة إليه، ويستعجل طلبه إذا تأخر عنه، ويقنع من يقوم على علاجه أو تمريضه بضرورته، أما الطفل أو المجنون أو من في حكمهما، فلا يمكنه شيء من ذلك، ومن ثم يتضاعف العبء على أهله، فعليهم أن يكونوا في غاية اليقظة لحالته الصحية، وما يعطى له من أدوية موصوفة في مواعيدها المنتظمة، وما قد يطرأ عليه من تطورات تحتاج إلى عرضه على الطبيب المعالج، أو إدخاله مستشفى متخصِّصًا، أو غير ذلك مما لا يمكن حصره وضبطه من الأحوال.

---

(١) رواه الطبراني في الصغير (٢٥٥)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٣٩٤): رواه الطبراني في الصغير، وفيه الحسن بن أبي جعفر وهو ضعيف من غير كذب، وليث بن أبي سليم مدلس.

(٢) انظر: البر والصلة لابن الجوزي ص ٤٠، طبعة مؤسسة الكتب الثقافية، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م.

مراعاة المريض مرضًا نفسيًا:

ومما ينبغي التنبيه عليه هنا: المريض مرضًا نفسيًّا، فإن كثيرًا من الناس، حتى أهل المريض نفسه، وأقرب الناس إليه يغفلون عنه، ولا يهتمون بحقوقه عليهم؛ لأنهم لا يرون عليه أي أثر لمرض عضوي، فيضعونه في زمرة الأصحاء، وهو غير صحيح، ونظرًا لأن مرضه غير مشاهد ولا ملموس، وإنما يتعلق بوجدانه ومشاعره وأحاسيسه، أو بأفكاره ونظرته إلى الناس والحياة، فينبغي مراعاة ذلك في التعامل معه، والتدقيق في الكلمة والنظرة معه، والاستئناس في ذلك برأي الطبيب المختص.

النفقة على علاج المريض:

ومن الآداب التي رغب فيها الإسلام، وخصوصًا على أهل المريض وذويه: أن يتكفَّلُوا بنفقة علاجه، إذا لم يكن لديه من سعة المال ما يُمكِّنه من ذلك، وكان لديهم من السعة واليسار ما يقدرون به على ذلك: من العرض على الطبيب المختص، وأجرة الدواء، وما يلزم من دخول المستشفى، وإجراء الفحوص الضرورية، أو العمليات الجراحية، وذلك في حدود مقدرتهم وحاجته، دون إسراف ولا تقتير، ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ [البقرة:٢٣٦]. ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق:٧].

وليس هذا لازمًا لكل مرض، بل المرض الذي يؤلم صاحبه، أو يُخشى ازدياده، أو يعطِّله عن واجب، وله علاج مجرَّب وناجح، وفْق ما جرت به سنن الله في الناس.

وكلما كان المرض أشد، والدواء أنجع، والمريض أحوج إلى العون، كانت النفقة على علاجه من أعظم القربات، فإن من نفَّس عن مسلم كربة من كربات

الدنيا نفَّس الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه. ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣٢].

وليس من اللازم أن يتحمَّل القريب أو الصديق- أيضًا- كل نفقات العلاج، فقد يُساهم في جزء منه مع غيره، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝﴾ [الزلزلة:٧]، ويمكن أن يكون ذلك قبل العلاج، ويمكن أن يكون ذلك بعد العلاج، حين يطلب من المريض عند خروجه من المستشفى مبلغٌ كبير لا يقدر على دفعه، فمن أغاث لهفته في تلك الساعة الحرجة كان من الله بمكان.

وأهل المريض بالنسبة للإنفاق على علاجه ينقسمون إلى قسمين:

١- قسم من الناس يبخل على المريض بما يحتاج إليه من نفقات العلاج والغذاء، وكل ما يعينه على استرداد عافيته، ولو كان هذا المريض أمه التي ولدته، أو أباه الذي رباه، أو ابنه وفلذة كبده، أو زوجته وأم أولاده، وهؤلاء يكون المال أعز عليهم من أهليهم وأقرب الناس إليهم.

فقد تكون راحة المريض وشفاؤه في دواء ناجع مجرَّب وصفه له طبيب مختص، أو في إجراء عملية جراحية معتادة يجريها له نِطَاسي ماهر، أو في دخول مستشفى أو مِصَحَّة فترة من الزمن يكون فيها تحت الرعاية الشاملة، ويحتاج كل ذلك إلى قدر من المال يُبذل لإنقاذ المريض، فلا تجود أنفس أهله به، ولا تنبسط أيديهم ببذله، نتيجة لغلبة الشح، والشح أحد المهلكات وفي الحديث الصحيح: «اتقوا الشحَّ، فإنه أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»(١).

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٧٨)، عن جابر.

٢ – وقسم آخر من أهالي المرضى يتباهون بالإنفاق عليهم، فيما ينبغي وما لا ينبغي، وفيما يُحتاج إليه، وما لا يُحتاج إليه، تظاهرًا بالغنى، ومكاثرة بالمال، ومراءاة للناس.

فتراهم يتنقلون بمريضهم من طبيب إلى طبيب، ومن مستشفى إلى غيره، ومن بلد إلى آخر، مع أن المرض قد عُرِف، والتشخيص قد اتَّضح، والأطباء قد وقفوا فيه عند حد انتهت إليه قدرتهم، وعجز عمَّا بعده علمهم، ولم يبق إلا ما هو أكبر منهم: أمر الله الذي لا مردَّ له، بالعافية، أو بالموت، وكثيرًا ما يكون في هذا التنقُّل زيادة متاعب على المريض، لا ضرورة لها، فضلًا عن متاعبهم هم من وراء ذلك.

وكثيرًا ما يكون المريض أقرب إلى الموت، وأولى به أن يموت في بلده وبين أهله وأرحامه وخِلَّانه، ولكن المبالغة في إظهار العناية به، وعدم البخل عليه، وإبراز القدرة على الإنفاق، وإن بلغ ما بلغ، قد يؤدي إلى هذه المبالغة.

وأولى بهم أن ينفقوا هذا المال باسمه صدقة في وجوه الخير، وخصوصًا على المستشفيات الخيرية، وعلاج الفقراء وذوي الدخل المحدود من الناس. فهذا قد يدفع بعض المنتفعين به إلى الدعاء له بالشفاء بظهر الغيب، فيستجيب الله له. ولهذا ورد في الحديث: «داووا مرضاكم بالصدقة»[(١)].

ولو وَضِع هذا المال في صورة صدقة جارية، فإن له أجره ما دام ينتفع به منتفعٌ إلى يوم القيامة.

(١) رواه أبو داود في المراسيل (١٠٥)، عن الحسن البصري مرسلًا.

المريض الذي مات دماغه يعتبر ميتاً شرعاً:

وهنا ينتهي بنا البحث إلى حالات معينة لبعض المرضى، لا يكون المريض فيها أقرب إلى الموت، بل يكون قد مات دماغه بالفعل، وتعطَّلت كل أجهزته الدماغية تعطلًا نهائيًا لا رجعة فيه، في نظر الأطباء والثقات المتخصصين، ومع هذا يصر أهله وذووه على أن يظل تحت أجهزة الإنعاش، التي توفِّر له الغذاء والتنفس واستمرار عمل الدورة الدموية، وقد يدوم على هذا الحال شهورًا أو سنين، وهم ينفقون عليه بسخاء، ويتجشَّمون البقاء من حوله، ولو بالتناوب، ويظنُّون بذلك أنهم يراعون مريضهم ولا يهملونه.

والحق الصراح في ذلك أن ذلك الراقد على سريره لم يعد في عالم المرضى، بل هو في الواقع في عالم الأموات، منذ تحقَّق موت دماغه بالكلية.

وبهذا يكون الاستمرار في علاجه بطريق أجهزة الإنعاش ضربًا من العبث، وإضاعة الجهد والمال والوقت في غير طائل، وهو ينافي ما جاء به الإسلام.

ولو فقه أهل المريض دينهم حقًّا، ووعوا حقيقة الأمر وعيًا جيدًا، لأيقنوا أن الأولى بهم والأكرم لميتهم- الذي يعدونه مريضًا- أن توقف عنه الأجهزة الصناعية، وعندئذ ستتوقف تلك المضخة التي تمد عروقه بالدم، ويرى الجميع أنه ميت حقًّا.

وحينئذٍ يوفر أهل المريض جهدهم ومالهم، ويوفِّرون سريرًا لمريض آخر، محتاج إليه، وأجهزة الإنعاش هي في العادة محدودة قليلة العدد، ليستفيد منها مريض حي بالفعل.

إن هذا الذي أقوله لم يعد رأيًا خاصًّا لي، بل هو قرار اتخذه المجمع الفقهي الإسلامي العالمي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي، والذي درس هذا الموضوع

دراسة مستفيضة في دورتين من دوراته، وقدم فيه عدد من البحوث من الفقهاء والأطباء المعنيين، وبعد البحث والمناقشة أصدر المجمع قراره التاريخي في دورته التي عقدت في مدينة عمان بالأردن من (٨ - ١٣ صفر ١٤٠٧ هـ) إلى (١١- ١٦ أكتوبر ١٩٨٦م)، بعد تداوله في سائر النواحي التي أثيرت حول موضوع (أجهزة الإنعاش) واستماعه إلى شرح مستفيض من الأطباء المختصين.

قرر ما يلي:

يعتبر شرعًا أن الشخص قد مات وتترتب عليه جميع الأحكام المقررة شرعًا للوفاة عند ذلك إذا تبينت فيه إحدى العلامتين التاليتين:

١ - إذا توقف قلبه وتنفسه توقفًا تامًّا، وحكم الأطباء بأن هذا التوقف لا رجعة فيه.

٢ - إذا تعطَّلت جميع وظائف دماغه تعطلًا نهائيًّا، وحكم الأطباء الاختصاصيون الخبراء بأن هذا التعطل لا رجعة فيه، وأخذ دماغه في التحلُّل، وفي هذه الحالة يسوغ رفع أجهزة الإنعاش المركبة على الشخص، وإن كان بعض الأعضاء كالقلب لا يزال يعمل آليًّا بفعل الأجهزة المركبة. والله أعلم!!

وترتب على هذا القرار جملة أحكام شرعية، منها:

أولًا: جواز رفع أجهزة الإنعاش والتنفس عن هذا الشخص لعدم جدوى بقائها.

بل أقول: يجب رفع هذه الأجهزة أو إيقافها؛ لأن إبقاءها يخالف الشريعة في أمور عدة، منها:

تأخير تجهيز الميت ودفنه بلا ضرورة، وتقسيم تركته، ودخول زوجته في العدة، إلى غير ذلك مما يترتب على الحكم بالوفاة.

ومنها: إضاعة المال وإنفاقه في غير جدوى، وهي منهيٌّ عنها.

ومنها: الإضرار بالآخرين بحرمانهم من الانتفاع بالأجهزة التي تستخدم لإنعاشه بغير حق، ومن القواعد القطعية التي نطق بها الحديث النبوي: «لا ضرر ولا ضرار»[1].

وثانيًا: يجوز التبرع ببعض أعضائه في هذه الحالة، وتكون صدقة له يثاب عليها، وإن لم يوصِ بها.

وقد صح في الحديث أن الإنسان يثاب على ما يؤكل من ثمر زرعه وغرسه، سواء أكله إنسان أو طير أو بهيمة، ويكون له به صدقة[2]. وإن لم يقصد ذلك.

بل قد ثبت أن المؤمن يثاب على ما يصيبه من نصب أو وصب أو غم أو حزن أو أذًى أو بلاء، حتى الشوكة يشاكها، يكفر الله بها من خطاياه[3].

فلا غرو أن يؤجر الإنسان المسلم إذا تبرع أهله عنه ببعض أعضائه عند ثبوت موت دماغه، لمريض آخر يحتاج إلى هذا العضو لإنقاذ حياته أو استرجاع بصره أو صحته . ولا يرتاب مسلم في فضل هذا العمل وعظيم قيمته ومثوبته عند الله تعالى.

وإذا تم هذا التبرع جاز أخذ هذه الأعضاء قبل نزع أجهزة الإنعاش؛ لأنها أُخذت من ميت بالفعل حسب القرار المذكور؛ ولأن أخذها بعد نزع الأجهزة يحول دون الاستفادة منها، في عملية الزرع لإنسان آخر؛ لأنها تكون قد فقدت حرارة الحياة، وأصبحت أعضاء ميتة

(١) رواه أحمد وابن ماجة عن ابن عباس، وابن ماجة عن عبادة، وهو صحيح بمجموع طرقه، انظر: سلسلة (الصحيحة) للألباني رقم (٢٥٠)، وانظر: الأشباه والنظائر لابن نجيم (القاعدة الخامسة : الضرر يزال) وفروعها ص ٨٥ - ٩٢ ط . الحلبي

(٢) إشارة إلى حديث: «ما من مسلم يغرس غرسًا، أو يزرع زرعًا، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة، إلا كان له به صدقة». رواه البخاري في المزارعة (٢٣٢٠)، عن أنس، ومسلم في المساقاة (١٥٥٢)، عن جابر.

(٣) سبق تخريجه.

رفع أجهزة الإنعاش عن المريض الميئوس منه:

وأكثر من ذلك: أن المريض الذي طال مرضه، وظل تحت أجهزة الإنعاش، ما شاء الله له، ولم يتقدم إلى الأمام خطوة، وقرَّر أطباؤه المعالجون والمختصون أن شفاءه- وفق سنن الله تعالى- لا أمل فيه، وأن إبقاءه تحت الأجهزة لا نفع فيه ولا طائل تحته، وأن الذي يبقيه على قيد الحياة ربطه بهذه الأجهزة، فلو رفعت عنه لفارق الحياة بعد قليل؛ أقول: هذا المريض لا حرج شرعًا في رفع الأجهزة عنه، وتركه لقدَرِه المقدور، دون تدخل منَّا.

وهذا لا يدخل فيما يسمونه (قتل الرحمة)؛ لأننا لم نقتله، كل ما فعلناه أننا أوقفنا مداواته أو معالجته عن طريق الأجهزة الصناعية.

ولا يستطيع فقيه واحد أن يقول: إن المعالجة عن طريق تلك الأجهزة واجب شرعًا لا يجوز الإخلال به، حتى إذا ما أوقفت نكون قد خالفنا حكم الشرع.

بل من المقرر المعلوم لدى علماء الشريعة أن التداوي كله لدى المذاهب الأربعة، وجمهور الفقهاء: حكمه الإباحة وليس الوجوب اللازم.

وقليل جدًّا من الفقهاء من قال باستحبابه، وأقل منه من قال بوجوبه[1].

والذي أرجحه هو القول بالوجوب إذا كان المرض شديدًا، والدواء مجرَّبًا ناجحًا، حسب الغالب المعتاد.

---

(١) انظر: الهداية مع تكملة فتح القدير (٨/ ١٦٤)، والمجموع (٥/ ١٠٦)، والمبدع (٢/ ٢١٣، ٢١٤)، والإنصاف (٢/ ٤٦٣)، وقد عقد الإمام الغزالي في (الإحياء) بابًا في الرد على من قال: ترك التداوي أفضل بكل حال!

أما عندما يكون الأمل ضعيفًا- بل يكون معدومًا أحيانًا- وفق تقرير المختصين؛ فلا مجال للقول بالوجوب، ولا الاستحباب بالنسبة للعلاج والتداوي.

وبهذا يكون إيقاف أجهزة الإنعاش بالنظر لمثل هذا المريض، ليس أكثر من ترك أمر مباح، إن لم يكن هو الأفضل، كما يرى الإمام أحمد وغيره، بل الذي أراه أرجح هو الوجوب.

٣- التبرع بالدم للمريض:

ومن أفضل ما يُقدِّمه أهل المريض وأصحابه له: التبرع بالدم له إذا احتاج إليه عند إجراء جراحة، أو لإسعافه وتعويضه عما نزف منه، فهذا من أعظم القربات وأفضل الصدقات؛ لأن إعطاء الدم في هذه الأحوال بمثابة إنقاذ الحياة، وقد قرَّر القرآن الكريم في معرض بيان قيمة النفس الإنسانية: ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

وإذا كان للصدقة بالمال منزلتها في الدين، وثوابها عند الله، حتى إن الله تعالى يتقبَّلها بيمينه، ويضاعفها أضعافًا كثيرة إلى سبعمئة ضعف، إلى ما شاء الله، فإن الصدقة بالدم أعلى منزلة وأعظم أجرًا؛ لأنه سبب الحياة، وهو جزء من الإنسان، والإنسان أغلى من المال، وكأن المتبرع بالدم يجود بجزء من كيانه المادي لأخيه حُبًّا وإيثارًا.

ويزيد من قيمة هذا العمل الصالح: أن يغيث به ملهوفًا، ويُفرِّج به كربة مكروب، وهذه مزية أخرى تجعل له مزيدًا من الأجر عند الله تعالى، ففي

الصحيح: «من فرَّج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرَّج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة»(١).

بل صح عن رسول الله ﷺ أن إغاثة الحيوان المحتاج إلى الطعام أو الشراب له عظيم الأجر عند الله، كما في حديث الرجل الذي سقى كلبًا عطشان، وجده يلهث يأكل الثرى من شدة العطش، فملأ خفه ماء من البئر، وأمسكه بفيه، وسقاه حتى ارتوى، قال النبي ﷺ: «فشكر الله له، فغفر له». قال الصحابة دهشين: أئن لنا في البهائم لأجرًا يا رسول الله؟! قال: «نعم، في كل كبد رطبة أجر»(٢).

ويبدو أن الصحابة كانوا يظنون أن الإحسان إلى هذه المخلوقات لا يقابله أجر عند الله، وأن الدين لا يهتم به، فبيَّن لهم الرسول الكريم أن الإحسان إلى أي كائن حي فيه أجر، ولو كان حيوانًا أو كلبًا، فما بالك بالإنسان؟ وما بالك بالإنسان المؤمن؟

والصدقة بالدم لها ثوابها الجزيل بصفة عامة، ولكن صدقة القريب على قريبه مضاعفة بصفة خاصة، لما فيها من توثيق روابط القربى، وتأكيد الصلة بين الأرحام.

وفي هذا يقول الرسول ﷺ: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم ثنتان: صدقة وصلة»(٣).

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في المظالم (٢٤٤٢)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٠)، كما رواه أحمد في المسند (٥٦٤٦)، وأبو داود في الأدب (٤٨٩٣)، والترمذي في الحدود (١٤٢٦) عن ابن عمر.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في المظالم (٢٤٦٦)، ومسلم في السلام (٢٢٤٤)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه أحمد (١٦٢٣٣)، وقال مخرجوه: صحيح لغيره، والترمذي (٦٥٨) وقال: حديث حسن، والنسائي (٢٥٨٢)، وابن ماجه (١٨٤٤)، ثلاثتهم في الزكاة، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٨٥٨)، عن سلمان بن عامر الضَّبي رضي الله عنه.

ويتضاعف ذلك الأجر إذا لم تكن العلاقة على ما يرام بين الأقارب بعضهم وبعض، بأن نزغ الشيطان بينهم، وأوقد بينهم نار الخصومة والقطيعة، فإذا انتصر أحدهم على نفسه وشيطانه، وتخطَّى هذه الجفوة المذمومة عند الله وعند الناس، وبذل لقريبه المحتاج من ماله، أو تبرع له من دمه، فإن هذا يعده الرسول ﷺ أفضل الصدقات بالنسبة للمتصدق عليه، وفي هذا يقول: «أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح»[(١)]. يعني بذي الرحم الكاشح الذي يضمر العداوة في كشحه، وليس صافيًا ولا وادًّا لقريبه.

٤- تذكير المريض بالتوبة والوصية:

ومن الآداب المستحبة لأهل المريض وأصدقائه، ومن يعوده من أهل الخير والصلاح، أن يذكِّروه بالمبادرة بالتوبة إلى الله تعالى، والندم على ما فرط في جنب الله، والعزم على طاعة الله تعالى، والخروج من مظالم العباد، وردِّ حقوقهم إليهم مهما صغرت، فإنَّ حقوق الله مبنية على المسامحة، وحقوق العباد مبنية على المشاحَّة.

وإن التوبة مطلوبة من جميع المؤمنين كما قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٣١﴾ [النور:٣١].

وهي على المريض أوجب، وهو إليها أحوج، والربح بها عظيم، والخسارة بضياعها هائلة، والسعيد من بادر قبل فوات الأوان: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء:١٨].

(١) رواه أحمد (٢٣٥٣٠) وقال مخرِّجوه: صحيح، والطبراني في الكبير (٤/ ١٣٨)، والأوسط (٣٢٧٩)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (١١١٠)، عن أبي أيوب الأنصاري.

وكل إنسان مهما اجتهد في طاعة الله وفي نصرة دينه، وإقامة الحق، ومقاومة الباطل، فإنه لا ينفكّ من لحظة يغفل فيها عن ربه، وعن بعض ما يجب عليه، أو يستحبّ منه، فالأولى أن يسارع إلى التوبة، فإن الله غفور رحيم.

وكذلك **ينبغي تذكير المريض بالوصية**، ورد ما عنده من حقوق الناس، وبحث ما له عند غيره، وكذلك بفعل الخير عنه، إن لم يكن وصّى من قبل، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي به، يبيتُ لَيْلتين، إلا ووصيته مكتوبة عنده»[1].

وإذا قُدِّر للمريض أن يكتب الله له الشفاء من مرضه، استُحبَّ وعظه وتذكيره بالوفاء بما عاهد الله عليه وقت المرض من التوبة وعمل الصالحات، وفعل الخيرات، شكرًا لله تعالى، ووفاء بعهده.

وينبغي للمريض المحافظة على ذلك، فقد قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾﴾ [الإسراء:٣٤]. وقد مدح الله أهل البر والتقوى بقوله: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ [البقرة:١٧٧].

ومن دلائل الخير: أن يوفق المرء قبل موته لعمل صالح يُختم له به، فإنما الأعمال بالخواتيم. ومن الأحاديث المأثورة: «اللهم اجعل خير عمري آخره، وخير عملي خواتمه»[2]. وقد رُوي أكثر من حديث في ذلك منها حديث أنس: «إذا أراد الله بعبد خيرًا استعمله»، قيل: كيف يستعمله؟ قال: «يوفقه لعمل صالح قبل

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٧٣٨)، ومسلم (١٦٢٧)، كلاهما في الوصية، عن ابن عمر.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (٩٤١١)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (١٢١)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٦٩٧٤): رواه الطبراني في الأوسط، وفيه أبو مالك النخعي، وهو ضعيف، عن أنس بن مالك.

الموت فيقبضه عليه»[1]. وفي بعض طرقه: «عَسَّله» بدل «استعمله» أي طيَّب ثناءه بين الناس.

ومنها حديث أبي أمامة: «إذا أراد الله بعبد خيرًا طهَّره قبل موته» قالوا: وما طُهور العبد؟ قال: «عمل صالح يلهمه إياه، حتى يقبضه عليه»[2].

❁❁❁

(١) رواه أحمد (١٢٠٣٦)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين. والترمذي في القدر (٢١٤٢)، وقال: صحيح، وابن حبان في البر والإحسان (٣٤١)، والحاكم في الجنائز (١/ ٣٣٩-٣٤٠) وصححه على شرط الشيخين، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١٧٤١).

(٢) رواه الطبراني (٨/ ٢٣٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١١٩٣٢): رواه الطبراني من طرق وفي بعضها (عسله) بدل (طهره)، وفي إحدى طرقه بقية بن الوليد، وقد صرح بالسماع، وبقية رجالها ثقات، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٦).

البَابُ السَّابِعُ

أدب المسلم مع الضحك والمزاح واللهو

الباب السابع

أدب المسلم مع الضحك والمزاح واللهو

الضَّحِكَ مِن خصائص الإنسان، فالحيوانات لا تضحَك؛ لأنَّ الضحك يأتي من الضاحك، بعد نوع من الفهم والمعرفة لقولٍ يسمعُه، أو موقفٍ يراه، فيضحك منه. وهذا لا يتيسر للحيوان.

ولهذا قيل: «الإنسان حيوان ضاحك»، ويصْدُقُ القولُ هنا: «أنا أضحك، إذن أنا إنسان».

وحاجة الإنسان السويِّ إلى اللهو: حاجةٌ فطريَّة. بل قال الإمامُ الغزالي: «اللهو مُروح للقلب، ومُخفِّفٌ عنه أعباءَ الفكْر، والقلوب إذا أُكرهتْ عَمِيتْ، وترويحُها إعانةٌ لها على الجِدِّ.

فالمواظبُ على التفكُّر مثلًا ينبغي أن يتعطَّل يومَ الجمعة؛ لأن عُطلة يومٍ تساعدُ على النشاط في سائر الأيام، والمواظب على نوافل الصلوات في سائر الأوقات ينبغي أن يتعطَّل في بعض الأوقات، ولأجله كُرِهتْ الصلاة في بعض الأوقات، فالعطْلة معُونة على العمل، واللَّهو مُعِين على الجدِّ، ولا يصْبِر على الجدِّ المحْض، والحق المُرِّ، إلا نفوسُ الأنبياء عليهم السلام.

فاللهو دواء القلب مِن داءِ الإعياء، فينبغي أن يكون مُباحًا، ولكنْ لا ينبغي أن يُستكثَر منه، كما لا يُستكثَر مِن الدواء. فإذن اللهو على هذه النيَّة يصير قربةً»[1]، وهو كلامٌ نفيس يعبِّر عن روح الإسلام الحقَّة.

(١) الإحياء: كتاب السَّماع (٢/ ٣٨٧).

رسول الله هو الأسوة في المداعبة والمباسطة والمزاح:

وأسوة المسلمين في ذلك هو: رسول الله ﷺ، فقد كان- برغم همومه الكثيرة والمتنوعة- يمزح ولا يقول إلا حقًّا، ويَحْيا مع أصحابه حياةً فطريَّة عاديَّة. يُشاركُهم في ضحِكهم ولعِبهم ومزاحهم، كما يشاركُهم آلامِهم وأحزانهم ومصائِبَهم.

يقول زيد بن ثابت- وقد طُلِب إليه أن يحدِّثهم عن حال رسول الله ﷺ-: كنتُ جارَه، فكان إذا نزل عليه الوحْيُ بعَثَ إليَّ فكتبتُه له، فكان إذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا، وإذا ذكرْنا الآخرة ذكرها معنا، وإذا ذكرنا الطعام ذكره معنا، وقال: فكُلُّ هذا أحدِّثُكم عن رسول الله ﷺ؟[1].

وقد رأيناه في بيته ﷺ يُمازح زوجاتِه ويُداعبُهنَّ، ويستمع إلى أقاصيصهنَّ، كما في حديث أُمّ زرع الشهير[2].

وكما رأينا في تسابقه مع عائشة رضي الله عنها، حيث سبقتْه مرة، وبعد مدة تسابقا، فسبقَها، فقال لها: «هذه بتلك!»[3] أي: «تعادُلٌ» بلغة الكرة اليوم!

وأذكر أني كنتُ أدرِّس لطالباتِي في جامعة قطر «السيرة النبوية»، وذكرتُ لهُنَّ القصة، وقلتُ لهُنَّ: ماذا تقُلْنَ لو رأيْتُنَّني مرةً أتسابق في العَدْو مع زوجتي؟ ستقلْنَ: جُنَّ الشيخ!

وقد ورَدَ أنه ﷺ وطَّأ ظهرَه لسبْطيه: الحسن والحسين، في طفولتهما ليركبَا،

(١) رواه الطبراني (٥/ ١٤٠) والأوسط (٨٦٩٧)، والبيهقي في الدلائل (١/ ٣٢٤)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٤١٩٩): إسناده حسن.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في النكاح (٥١٨٩)، ومسلم الفضائل (٢٤٤٨)، عن عائشة.

(٣) رواه أحمد (٢٦٢٧٧)، وقال مخرِّجوه: إسناده جيد، وأبو داود في الجهاد (٢٥٧٨)، وابن ماجه في النكاح (١٩٧٩)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٣١)، عن عائشة.

ويستمتعا دون تزمُّتٍ ولا تَحرُّجٍ، وقد دخل عليه أحد الصحابة ورأى هذا المشهد، فقال: نِعْمَ المركَبُ ركِبتُما. فقال عليه الصلاة والسلام: «ونعم الفارسان هما»[(١)]!

ورأيناه يمزح مع تلك المرأة العجوز التي جاءت تقول له: ادع الله أن يدخلني الجنة، فقال لها: «يا أمَّ فلان، إنَّ الجنَّة لا يدخلها عجوز»! فبكَتِ المرأةُ حيثُ أخذتِ الكلام على ظاهره، فأفهمها: أنها حين تدخل الجنة لن تدخلها عجوزًا، بل شابة حسناء، تنشأ إنشاء جديدًا، يجري عليها تحسين إلهي جديد. وتلا عليها النبي ﷺ قول الله تعالى في نساء الجنة: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ۝ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ۝ عُرُبًا أَتۡرَابٗا ۝﴾ [الواقعة:٣٥-٣٧][(٢)].

وجاء رجل يسأله ﷺ أن يحمله على بعيرٍ، فقال له عليه الصلاة والسلام: «إنَّا حامِلُوكَ على ولد الناقة»! فقال: يا رسول الله، وماذا أصنع بولد الناقة؟!- انصرف ذهنه إلى الحُوار الصغير- فقال ﷺ: «وهل تلد الإبل إلا النوق؟»[(٣)]

وقال زيد بن أسلم: إن امرأةً يُقال لها: أم أيمن، جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: إن زوجي يدعوك، قال: «ومن هو؟ أهو الذي بعينه بياض؟» قالت: والله ما بعينه بياض. فقال: «بلى، إنَّ بعينه بياضًا» فقالت: لا والله. فقال ﷺ: «ما من أحد إلا بعينه بياض»[(٤)]. وأراد به البياض المحيط بالحدقة.

---

(١) رواه البزار (٢٩٣)، وأبو يعلى كما في المطالب العالية (٣٩٦٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٥٠٧٨): رواه أبو يعلى في الكبير، ورجاله رجال الصحيح، ورواه البزار بإسناد ضعيف، عن عمر بن الخطاب.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (٥٥٤٥)، والترمذي في الشمائل (٢٤٠)، والبيهقي في البعث والنشور (٣٣٥)، وحسنه الألباني في غاية المرام (٣٧٥)، عن عائشة.

(٣) رواه أحمد (١٣٨١٧) وقال مخرجوه: إسناده صحيح، وأبو داود في الأدب (٤٩٩٨)، والترمذي في البر والصلة (١٩٩١) وقال: صحيح غريب. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧١٢٨)، عن أنس بن مالك.

(٤) قال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء (١/ ١٠١٩): رواه الزبير بن بكار في كتاب (الفكاهة والمزاح)، وابن أبي الدنيا من حديث عبدة بن سهم الفهري مع اختلاف.

وقال أنس: كان لأبي طلحة ابنٌ صغير يُقال له: أبو عُمَيْر، وكان رسول الله ﷺ يأتِيهم ويكلم الطفل، ويقول: «يا أبا عُمَيْر، ما فعل النُّغَيْر؟» لنُغَيْرٍ كان يلعب به[(١)]. وهو فرخ العصفور.

وقالت عائشة رضي الله عنها: كان عندي رسول الله ﷺ وسودة بنت زمعة، فصنعت حريرةً[(٢)] وجئتُ به، فقلتُ لسودةَ: كُلِي. فقالتْ: لا أحبُّه. فقُلتُ: والله لتأكلِنَّ أو لأُلَطِّخَنَّ به وجهَكِ. فقالتْ: ما أنا بِذائقتِه. فأخذتُ بيدي من الصحفة شيئًا منه، فلطختُ به وجهَها، ورسول الله ﷺ جالس بيني وبينها، فخفض لها رسول الله ركبتيه لتستقيد مني، فتناولتْ من الصحفة شيئًا فمسحتْ به وجهي! وجعل رسول الله ﷺ يضحك[(٣)].

ورُوي أن الضحَّاك بن سفيان الكلابي كان رجلًا دميمًا قبيحًا، فلما بايعَه النبيُّ ﷺ، قال له الضحاكُ: إن عندي امرأتين أحسن من هذه الحميراء- وذلك قبل أن تنزل آية الحجاب- أفلا أنزل لك عن إحداهنَّ فتتزوجها؟! وعائشة جالسة تسمع، فقالتْ: أهي أحسنُ أم أنتَ؟ فقال: بل أنا أحسن منها وأكرم، فضحِك رسول الله ﷺ من سؤالها إياه؛ لأنه كان دميمًا[(٤)].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٢٠٣)، ومسلم في الآداب (٢١٥٠)، عن أنس.

(٢) دقيقٌ يطبخُ بلبنٍ أو دَسَمٍ.

(٣) رواه النسائي في الكبرى، في عشرة النساء (٨٨٦٨)، وأبو يعلى (٤٤٧٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧٦٨٣): رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح خلا محمد بن عمرو بن علقمة، وحديثه حسن، وحسنه الألباني في الصحيحة (٣١٣١).

(٤) قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (١/ ١٠٢٠): أخرجه الزبير بن بكار في (الفكاهة) من رواية عبد الله بن حسن مرسلًا أو معضلًا، وللدارقطني نحو هذه القصة مع عيينة بن حصن الفزاري بعد نزول الحجاب من حديث أبي هريرة.

وكان ﷺ يحب إشاعة السرور والبهجة في حياة الناس، وخصوصًا في المناسبات السائدة مثل: الأعياد والأعراس.

ولما أنكر الصديق أبو بكر ﷺ غناء الجاريتين يوم العيد في بيته وانتهرهما، قال له الرسول الكريم: «دعهما يا أبا بكر، فإنها أيام عيد»[1]! وفي بعض الروايات: «إن لكل قوم عيدًا، وهذا عيدنا»[2].

وقد أذن للحبشة أن يلعبوا بحِرابهم في مسجده عليه الصلاة والسلام في أحد أيام الأعياد، وكان يحرِّضُهم ويقول: «دونكم يا بني أَرْفِدة»[3]!

وأتاح لعائشة أن تنظر إليهم مِن خلفه[4]، وهم يلعبون ويرقصون، ولم يرَ في ذلك بأسًا ولا حرجًا.

كما أتاح لها أن تلعب بالبنات (اللُّعب) مع صويحباتها[5].

واستنكر يومًا أن تُزفَّ فتاةٌ إلى زوجها زفافًا صامتًا، لم يصحبه لهو ولا غناء، وقال: «ما كان معها لهو؟! فإن الأنصار يعجبهم اللهو»[6]. وفي بعض الروايات: «هلَّا بعثتُم معها مَن تغنِّي وتقول: أتيناكم أتيناكم.. فحيونا نحييكم»[7].

الصحابة على هَدْي رسول الله:

وكان أصحاب النبي ﷺ ومَن تبِعهم بإحسان في خيرِ قرونِ الأمة يضحكون

(١) رواه البخاري في كتاب العيدين (٩٤٩)، ومسلم في كتاب صلاة العيدين (٨٩٢) عن عائشة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٩٨٧)، ومسلم (٨٩٢)، كلاهما في صلاة العيدين، عن عائشة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٩٤٩، ٩٥٠)، ومسلم (٨٩٢)، كلاهما في صلاة العيدين، عن عائشة.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في الصلاة (٤٥٤)، ومسلم في صلاة العيدين (٨٩٢)، عن عائشة.

(٥) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦١٣٠)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٤٠)، عن عائشة.

(٦) رواه البخاري في النكاح (٥١٦٢) عن عائشة.

(٧) رواه أحمد (١٥٢٠٩) وقال مخرجوه: حسن لغيره، وابن ماجه (١٩٠٠)، والنسائي في الكبرى (٥٥٤٠)، كلاهما في النكاح، وحسنه الألباني في غاية المرام (٣٩٨). عن جابر بن عبد الله.

ويمزحون، اقتداءً بنبيِّهم ﷺ، واهتداء بهَدْيه، حتى إنَّ رجلًا مثل عمر بن الخطاب- على ما عُرِف عنه من الصرامة والشدة- يُروى عنه أنه مازح جاريةً له، فقال لها: خلقَني خالقُ الكرام، وخلقكِ خالقُ اللئام! فلما رآها ابتأستْ مِن هذا القول، قال لها مُبيِّنًا: وهل خالق الكرام واللئام إلا الله ﷻ؟[1]

وقد عُرِف بعضُهم بذلك في حياته ﷺ، وأقرَّه عليه، واستمرَّ على ذلك مِن بعده، وقبِله الصحابةُ، ولم يجدوا فيه ما يُنكَر، برغم أن بعض الوقائع المرويَّة في ذلك لو حدثتِ اليوم لأنكرها مُعظم المتديِّنين أشدَّ الإنكار، وعدُّوا فاعلها مِن الفاسقين أو المنحرفين!

حدود المشروعيَّة في الضحك والمزاح:

ومن هنا نقول: إن الضحك والمرح والمزاح: أمر مشروع في الإسلام، كما دلتْ على ذلك النصوص القولية، والمواقف العمليَّة للرسول الكريم ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم.

وما ذلك إلا لحاجة الفطرة الإنسانيَّة إلى شيء من الترويح يخفِّف عنها لأْواءَ الحياة وقسوتَها، وتشعُّبَ همومها وأعبائها.

وفي هذا قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: روحوا عن القلوب، وابتغوا لها طرائف الحكمة، فإنها تملُّ كما تملُّ الأبدان[2].

كما أن هذا الضرب من اللهو والترفيه يقوم بمهمة التنشيط للنفس، حتى تستطيع مواصلة السير والمضيَّ في طريق العمل الطويل، كما يريح الإنسان دابته في السفر، حتى لا تنقطع به.

(١) معرفة الرجال لابن معين (١/ ١٦٥)، وأخبار الحمقى لابن الجوزي (١/ ١٤٦). مختصرا.

(٢) رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق (٧١٩).

وفي هذا يقول أبو الدرداء ﷺ: إني لأستجم نفسي بالشيء من الباطل[1]، ليكون أقوى لها على الحق[2]. ويراد بالباطل: اللهو واللعب.

شروط مشروعية المزاح:

فمشروعيَّة الضحك والمرح والمزاح لا شك فيها في الأصل، ولكنَّها مقيدةٌ بقيود وشروط لا بد أن تُراعى:

١- اجتناب الكذب في المزاح:

ألا يكون الكذبُ والاختلاق أداةَ الإضحاك للناس، كما يفعل بعضُ الناس في أولِ إبريل (نيسان) فيما يسمُّونه: كذبة إبريل.

ولهذا قال ﷺ: «ويلٌ للذي يُحدِّث فيكْذِب، ليُضحك القوم، ويلٌ له، ويلٌ له»[3].

وقد كان ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقًّا[4].

هل النِكات تعد من الكذب؟:

النكات من الوسائل التي ابتكرها الناس للترويح أو الإضحاك، وقد برع فيها المصريون، واشتهروا بها بين الشعوب، وهي أنواع مختلفة، ولها مهمات متعددة، ومنها: «النكت السياسية» التي تهزأ بالحُكَّام الظالمين وأعوانِهم، وخصوصًا في أوقات التسلُّط والاستبداد السياسي.

(١) يقصد بالباطل ما لا فائدة فيه إلا مجرد اللهو. انظر السياسة الشرعية لابن تيمية ص١٥٩.

(٢) ذكره المبرد في الكامل في اللغة والأدب (٢/ ٢١١).

(٣) رواه أحمد (٢٠٠٢١)، وقال مخرجوه: إسناده حسن، وأبو داود في الأدب (٤٩٩٠)، والترمذي في الزهد (٢٣١٥)، وحسنه، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٧١٣٦)، عن معاوية بن حيدة.

(٤) رواه أحمد (٨٤٨١)، وقال مخرجوه: إسناده قوي، والترمذي في البر والصلة (١٩٩٠) وقال: حديث حسن، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٧٢٦)، عن أبي هريرة بلفظ: إني لا أقول إلا حقًّا، قال بعض أصحابه: فإنك تداعبنا يا رسول الله، فقال: إني لا أقول إلا حقًّا.

ولا يكاد يجلس الناسُ بعضُهم إلى بعض إلا حكَوا من هذه النكت ما يُضحكهم ويسرِّي عنهم بعضَ ما يعانون. أحيانًا يسندونها إلى أسماء معروفة، مثل (جُحا)، أو أبي نواس، أو غيرهما، وأحيانًا لا ينسبونها إلى معيَّن.

وليس من الضروري أن تكون النكت مخبرة عن واقع حقيقي، بل قد تكون مختلقة، كما يختلق القَصّاص والروائيّ الأحداث، لينسج منها قصةً قصيرةً أو رواية طويلة، ولا يعتبر هذا من الكذب المحرم؛ والناس يعلمون أن هذه الأحداث من نسج وخيال القصاص الروائي الأديب. وكذلك النكت.

وهذا موجود لدى الشعوب عامة، حتى إن كثيرًا من النكت التي نسمعها في مصر عن «الصعايدة» وجدتُها في باكستان يحكونها أو مثلها تمامًا عن «السيخ».

وفي سوريا نجد نكتًا عن أهل حلب وأهل حماة وعن أهل حمص. وأهل البلدان المختلفة يتسامحون في العادة في إنشاء هذه النكت أو روايتها. حتى إني رأيت بعض «الصعايدة» ينكتون على «الصعايدة».

وهناك أناس لا يقتصرون على حكاية النكت عن غيرهم، بل هم ينشئون نكتًا على البديهة، وهذا شأن الشخصيات الفكهة، مثل «أشعب» قديمًا، ومثل الشيخ «عبد العزيز البشري» حديثًا في مصر.

وممَّا يحكونه عن الشيخ البشري: أن امرأةً أعطته رسالةً ليقرأها لها، فلم يُحسِن قراءتها لرداءةِ الخطِّ. فقال لها: يا خالتي، لم أستطع أن أقرأها. فقالت له: رجل محترم بعمامة، ولا تُحسن أن تقرأ رسالة؟! فوضع العمامة على رأسها، وقال: هذه هي العمامة. اقرئيها أنت الآن!!

وكانت في مصر بعض المجلات المتخصِّصة في هذا اللون، أشهرها مجلة «البعكوكة».

ويلحق بذلك فن «القفشات» وما يسمّيه المصريون «الدخول في قافية»، وهو لون من استخدام المجاز والتورية حول موضوع واحد، يتطارح فيه الطرفان.

٢- ألّا تشتمل على احتقار أو سخرية للآخر:

ألا يشتمل المزاحُ والمرحُ على تحقيرٍ لإنسان آخر، أو استهزاءٍ به وسخرية منه، إلا إذا أذِنَ بذلك ورضي. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾. [الحجرات:١١]. على أنه لا يجوز الإذن إلا في حقه الشخصي، ولا يتناول الأسرة أو القبيلة، أو ما هو أكبر.

وجاء في الحديث الصحيح: «بحسب امرئٍ من الشرِّ أنْ يحقِر أخاه المسلم»[(١)].

وذكرتْ عائشة أمام النبي ﷺ إحدى ضرائرها، فوصفتها بالقِصَر، تعِيبُها به، فقال: «يا عائشة، لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته»[(٢)]. قالت: وحكيتُ له إنسانًا- أي قلّدته في حركته أو صوته أو نحو ذلك- فقال: «ما أحِبُّ أنّي حكيتُ إنسانًا وأنَّ لي كذا وكذا»[(٣)].

---

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٤)، وأحمد (٧٧٢٧)، وأبو داود في الأدب (٤٨٨٢)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد (٢٥٥٦٠) وقال مخرجوه: إسناده على شرط مسلم، وأبو داود في الأدب (٤٨٧٥)، والترمذي في صفة القيامة (٢٥٠٢) وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في تخريج الحلال والحرام (٤٢٧)، عن عائشة.

(٣) رواه أحمد (٢٥٥٦٠) وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، وأبو داود في الأدب (٤٨٧٥)، والترمذي في صفة القيامة (٢٥٠٢)، (٢٥٠٣)، وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٨٣٤)، عن عائشة.

٣- ألّا يترتب عليه ترويع لأحد:

ألا يترتب على المزاح والمرح تفزيع وترويع لمسلم. فقد روى أبو داود عن عبد الرحمن بن أبي ليلي، قال: حدثنا أصحاب محمد ﷺ، أنهم كانوا يسيرون مع النبي ﷺ، فقام رجل منهم، فانطلق بعضُهم إلى حبْل معه فأخذه، ففزع! فقال رسول الله ﷺ: «لا يحل لمسلم أن يروِّع مسلمًا»[(١)].

وعن النعمان بن بشير قال: كُنَّا مع رسول الله ﷺ في مسير، فخفق رجل على راحلته- أي نعس- فأخذ رجل سهمًا من كنانته، فانتبه الرجل، ففزع، فقال رسول الله: «لا يحل لرجل أن يروِّع مسلمًا»[(٢)]. والسياق يدل على أن الذي فعل ذلك كان يُمازحه. وقد جاء في الحديث الآخر: «لا يأخذنَّ أحدُكم متاعَ أخيه لاعبًا ولا جادًّا»[(٣)].

٤- ألّا يضع المزاح في موضع الجد:

ألا يهزل في موضع الجِدِّ، ولا يضحك في مجالٍ يستوجب البكاء، فلكل شيء أوانُه، ولكل أمرٍ مكانُه، ولكل مقامٍ مقال. والحكمة وضع الشيء في موضعه المناسب. ومِن مَمَادح الشعراء:

---

(١) رواه أحمد (٢٣٠٦٤) وقال مخرجوه: إسناده صحيح، وأبو داود في الأدب (٥٠٠٤)، وصححه الألباني في تخريج الحلال والحرام (٤٤٧).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٢١/ ١١٦)، والأوسط (١٦٧٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠٥٢٩): رواته ثقات، عن النعمان بن بشير.

(٣) رواه أحمد (١٧٩٤٠) وقال مخرجوه: إسناده صحيح، وأبو داود في الأدب (٥٠٠٣)، والترمذي في الفتن (٢١٦٠)، وقال: حسن غريب، وحسنه الألباني في إرواء الغليل (١٥١٨)، عن يزيد بن ثمامة الكندي.

إذا جدَّ عند الجِدُّ أرضاك جدُّه ... وذو باطلٍ إن شئتَ ألهاك باطلُه[1]!

والباطل هنا يقصد به اللهو والمرح.

وقال آخر:

أُهازِلُ حيثُ الهزْلُ يحسُن بالفتى ... وإنِّي إذا جَدَّ الرجالُ لذو جِدِّ[2]!

وقد قال أبو الطيب:

ووضْعُ النَّدَى في موضِع السَّيْفِ بِالعُلا ... مُضِرٌّ كوضعِ السيفِ في موضع النَّدَى

وفي الحديث: «ثلاث جِدهن جِد، وهزلهنّ جِد: النكاح، والطلاق، والعِتاق»[3]. وقد أخذ به من أخذ من الفقهاء.

وقد عاب الله تعالى على المشركين أنهم كانوا يضحكون عند سماع القرآن وكان أولى بهم أن يبكوا، فقال تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ۝﴾ [النجم:٥٩-٦١].

كما أنكَرَ عليهم ضحِكَهم من المؤمنين، استهانةً بهم، وسخريةً منهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ۝ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ۝﴾ [المطففين:٢٩- ٣١].

وعاب على المنافقين فرَحَهم وضحِكَهم لتخلُّفهم عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وافتعالهم الأعذار الكاذبة للقعود مع الخوالف، فقال تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي

---

(١) من شعر زينب بنت الطثرية. ينظر: ديوان المعاني (١/ ٥٧)، نشر دار الجيل – بيروت.

(٢) محاضرات الأدباء (١/ ١٢٩).

(٣) رواه أبو داود (٢١٩٤)، والترمذي (١١٨٤) وقال: حديث حسن غريب، وابن ماجه (٢٠٣٩)، ثلاثتهم في الطلاق، وحسنه الألباني في إرواء الغليل (١٨٢٦)، عن أبي هريرة. وفيه كلام ذكرناه في الجزء الأول من كتابنا (تيسير الفقه للمسلم المعاصر) ص ٥٣ وما بعدها.

الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [التوبة: ٨١- ٨٢].

الاعتدال والقصد، وعدم الغلو والإسراف:

أن يكون المزاح والمرح بقدرٍ معقول، وفي حدودِ الاعتدال والتوازن، الذي تقبله الفطرةُ السليمة، ويرضاه العقل الرشيد، ويلائم المجتمع الإيجابي العامل، ولا يطغى على الحقوق المفروضة لله وللناس.

والإسلام يكره الغلو والإسراف في كل شيء، ولو في العبادة، فكيف باللهو والمرح؟!

ولهذا كان التوجيه النبوي: «ولا تكثر من الضحك، فإن كثرة الضحك تميت القلب»(١). فالمنهيُّ عنه: هو الإكثار والمبالغة.

وقد قيل: أعطِ الكلام من المزح، بمقدار ما تعطي الطعام من المِلْح(٢).

وهو قولٌ حكيم، يدل على عدم الاستغناء عن المزح، كما يدل على ضرر الإفراط فيه.

والمبالغة: هي التي يُخشَى من ورائها الإلهاءُ عن الأعباء، أو تجريء السفهاء، أو إغضاب الأصدقاء.

فالمبالغة في المزاح كالمماراة، كلتاهما تؤدِّي إلى إيغار الصدور.

وقال سعيد بن العاص لابنه: اقتصد في مزاحك، فالإفراط فيه يذهب البهاء،

---

(١) رواه أحمد (٨٠٩٥)، وقال مخرجوه: حدي جيد، والترمذي (٢٣٠٥) وقال: حديث غريب، وابن ماجه (٤١٩٣)، كلاهما الزهد، والبخاري في الأدب المفرد (٢٥٢)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٥٠٦)، عن أبي هريرة.

(٢) نهاية الأرب في فنون الأدب (٤/ ٧١).

ويجرِّئ عليك السفهاء، وتركه يقبض المؤانسين، ويوحش المخالطين[1].

وخير الأمور هو الوسط دائمًا، وهو نهْج الإسلام وخصيصته الكبرى، ومناط فضل أمته على غيرها. وهو الصراط المستقيم الذي ندعو الله أن يهدينا إليه، ويثبِّتنا عليه في الأقوال والآراء والأعمال والمواقف، اللهم آمين.

❁❁❁

(١) محاضرات الأدباء، الراغب والأصبهاني (١/ ٣٤٦).

الباب الثامن

أدب المسلم في السفر والارتحال

الباب الثامن

أدب المسلم في السفر والارتحال

أودع الله في فطرة الإنسان حبَّ وطنه، الذي ولد ونشأ ورُبِّيَ فيه، وعرف فيه أمَّه وأباه، وإخوته وأقاربه، وزملاءه وأصدقاءه، عرفهم وعرفوه، وأحبهم وأحبوه، فلذلك يرتبط قلبه وعواطفه بهذا الموضع، وكل ما فيه من أناس ومنازل وحيوان وطيور وأشجار وزرع ومياه وصحراء، وأرض وسماء، وجبال ووديان. كل هذه الأشياء التي يختزنها في ذهنه وفي ذاكرته، تجعله محبًّا لهذا المكان؛ لكل من فيه، وكل ما فيه، وفي ذلك يقول ابن الرومي:

وحَبَّبَ أوطانَ الرجال إليهمُو ... مآربُ قضَّاها الشباب هُنالِكا

إذا ذكروا أوطانهمُ ذكَّرتهمُو ... عهودَ الصِّبَا فيها فحنُّوا لذلِكا

الحاجة إلى السفر:

ومع هذا، فإن ظروف الحياة وتقلباتها، وحاجات الناس وتصرفاتها، وطلب أناس أشياء ليست في أوطانهم، وحاجة الناس إلى من ينقلها إليهم، وتعثُّر الحياة في بعض البلدان، اضطر الناس أن يهاجروا من بلادهم، إلى بلاد أخرى، لقضاء مطالبهم، أو لزيارة أقاربهم، أو غير ذلك من الأغراض.

بل قد تجد القبيلة الواحدة، بل العائلة الواحدة متفرقة في بلدان عدة.

ولهذا تجد الشعراء من قديم يحثون على السفر، ويشوِّقون الناس إليه بما يسوقونه من أمثلة وعبر.

يقول الإمام الشافعي:

ما في المقام لذي عقل وذي أدب   من راحة فدع الأوطان واغترب
سافر تجد عوضًا عمّن تفارقه   وانصبْ فإن لذيذ العيش في
إني رأيت وقوف الماء يفسده   إن سال طاب، وإن لم يجْرِ لم يَطِب
والشمس لو وقفت في الفلك   لملَّها الناس من عجم ومن عرب
الأُسْدُ لولا فراق الغاب ما   والسهم لولا فراق القَوْس لم
والتّبر كالتُّرب ملقًى في أماكنه   والعُود في أرضه نوعٌ من الحطب
فإن تغرّب فهذا عزَّ مطلبه   وإن تغرَّب ذاك اعتز كالذهب

ويقول الطغرائي الشاعر المشهور في لاميته:

إن العُلا حدثتني وهي صادقة   فيما تُحَدِّث: أن العز في النُّقَلِ
لو أنّ في شرف المأوى بلوغَ   لم تبرحِ الشمسُ يومًا دارة

أحكام السفر وآدابه:

ولا غرو أن اهتم الإسلام بالسفر، وجعل له دائرة في شريعته، فيها أحكامه وآدابه ورخصه ووصاياه، واهتمَّ به الصوفية في كتبهم، وجعل له الإمام الغزالي في الربع الثاني من كتابه «إحياء علوم الدين» وهو يتعلَّق بالعادات والمعاملات، جزءًا من الأجزاء العشرة، وألَّف فيه الإمام الزركشي كتابه «الغرر السوافر عما يحتاج إليه المسافر» الذي حققه في الأردن الأستاذ أحمد مصطفى القضاة حفظه الله.

وكتب فيه العلامة أحمد بك الحسيني كتابه: «دليل المسافر»، كما ألّف فيه أحد إخواننا من علماء الأزهر، الذين أعيروا إلى جامعة قطر عدة سنوات، وزاملنا، وانتفعنا به.

وكتب الدكتور محمد حسين قنديل أستاذ الشريعة في الفقه المقارن كتابه: «الأحكام المتعلقة بالسفر في الفقه الإسلامي»

وقد نشرت مكتبة وهبة بالقاهرة رسالة في «أحكام السفر في الإسلام» للأستاذ علي يحيى معمر، وهو ليبي ينتمي إلى المذهب الإباضي، وإن لم يذكر ذلك في كتابه، وحاول أن يقدم الأحكام بعيدًا عن التعصب المذهبي.

وقد طلب مني الأستاذ الدكتور عبد الله عمر نصيف عندما كان أمينًا عامًّا لرابطة العالم الإسلامي: أن أكتب كتابًا مُيَسَّرًا عصريًّا في قضية «السفر وأحكامه وآدابه» على طريقتي التي ألفها الناس في كتبي من الاستناد إلى الأدلة الشرعيَّة، مع مراعاة الواقع وحسن تكييفه، دون الاعتماد على مذهب معيَّن.

وكنت بدأت الكتابة في هذا الكتاب، وأكملت- على ما أذكر - أكثر من نصفه، ثم لا أدري ما الذي شغلني عنه، فلم أُكمله، وظلَّ أمامي سنين طويلة، كغيره من الكتب الناقصة، ثم اختفى عن عيني، لا أدري أين ذهب، مع أن أوراقي المكتوبة عادة لا تضيع. فأنا في غاية الاهتمام بها.

أسفار العصر مغايرة تماماً لأسفار القرون الماضية:

وأحب أن أذكر هنا: أن السفر في أيامنا لم يعد كالسفر في أيام الرسول الكريم ﷺ والصحابة الميامين ﷺ والتابعين لهم بإحسان، والقرون الماضية بصفة عامة.

ولا بد للفقيه المسلم أن يدرك الفرق الواضح والحاسم بين الأمور المهمة في مختلف العصور، والفرق بينها وبين عصرنا الحاضر.

فلقد تغيَّرت الأمور تغيُّرًا كليًّا وجذريًّا، وأصبح كثير ممَّا يقوله الناس قديمًا، لا مجال له اليوم، ولا يجد المرء له مساغًا.

أصبح السفر أمرًا ميسَّرًا لمعظم الناس، السفر القصير، والسفر المتوسط، والسفر الطويل، ولم يعد- كما كان في السابق- بالمشي على الأقدام، أو بالدواب، فمعظم

السفر اليوم عن طريق القطارات (السكك الحديد)، وعن طريق السيارات (الحافلات أو السيارات الصغيرة)، وعن طريق البواخر في البحار، وعن طريق الطائرات في الجو، وأصبح الناس يفكرون فيما سيجري في المستقبل، هل يمكن استعمال المراكب الفضائيَّة لسكنى المريخ أو غيره من الكواكب؟

هذه حقائق لا بد أن تُعرف وأن يُسلَّم بها.

ولا بد أن نسلِّم أن السفر من بلد إلى بلد آخر، أصبح ضرورة لا بد منها في حياتنا؛ لأن العالم يقترب بعضه من بعض، حتى قال بعضهم: إن العالم هو قريتنا الصغرى! ذلك لأن القرى الكبيرة كان لا يعلم الناس بعض الأحداث فيها إلا في اليوم التالي، ونحن نعلم أحداث العالم في ساعة وقوعها، وتنقل إلينا بالتلفزيون وغيره من وسائل الاتصال الحديثة.

وأصبحت صلة البلاد بعضها من بعض، أشبه بصلة القرى المتصلة قديمًا بعضها ببعض، حيث لم تكن قرية تستغني عن قرية، ولا أهل هذه عن أهل تلك.

ولهذا تقوم علميات الاستيراد والتصدير في العالم كله، شرقه وغربه، وشماله وجنوبه، على قدم وساق.

كل بلد لديها بضائع تفيض عنها، وتزيد عن حاجاتها من زراعتها أو من صناعتها وما عملته أيديها، أو من معادن نفيسة في أرضها، تحتاج إلى أن تصدرها إلى غيرها، وبلاد أخرى تحتاج إلى هذه البضائع، لتستوردها، ولتصدر مكانها بضائع من عندها لا تحتاج إليها.

ولا بد أن تنتظم هذه المعاملات بين الناس في كل بلد بين بعضها وبعض، وبين البلدان المختلفة بعضها وبعض، ولا بد أن تقوم مؤسسات دوليَّة، ترعى هذه الشركات العابرات للقارات، وأن توضع القوانين اللازمة لها، والمحاكم التي تلجأ إليها عند المنازعات.

ولا شك أن هيئة الأمم المتَّحدة، وما تفرَّع عنها من منظَّمات ومؤسَّسات دوليَّة، مثل منظمة اليونسكو، والمحاكم الدولية، وغيرها كلها تقوم بنصيبها في حفظ هذا الهيكل العالمي وتحريكه.

وحاجة العالم بعضه إلى بعض تتمثل في أمور أخرى كثيرة: في الطب والعلاج، حيث يحتاج بعض المرضى إلى السفر إلى الخارج، لعلاج ما عجز الأطباء المحليون عن معرفة حقيقته، أو لم يجدوا عندهم الأدوية أو الأجهزة اللازمة له، أو التمريض الملائم له، فيذهب إلى البلد الأنسب لهذا المريض، ومعالجة هذا المرض.

وهناك بعض البلاد ليس عندها القدرة على تعليم بعض أنواع من العلوم التي ارتقت في بعض البلاد إلى درجات عليا، لم تبلغها بعض البلاد التي أخَّرها الاستعمار في هذه النواحي تأخرًا كثيرًا، فلذلك تفتح البلاد المتقدمة جامعاتها لاستقبال الطلاب من تلك البلاد التي تفتقر إلى هذه المزيَّة.

وهناك الكثير من الناس ممَّن يحب أن يعرف العالم، وما تزدان به أسواق العالم، وموائد العلم، وأنواع الفنون، وروائع الصناعة والتكنولوجيا، وآيات الله في العالم، فهو يريد أن يستكشف هذا العالم الجديد، ويطلع عليه بنفسه، ويرى بعينيه، ويسمع بأذنيه، ويدرك بعقله ووجدانه وإرادته ما في العالم من عجائب كشف عنها الكاتبون، وقرأ عنها القارئون.

هذا هو عالَمنا الجديد:

وقد تقارب هذا العالم في كل شيء، وأصبحت هناك باستمرار مؤتمرات وندوات ولقاءات عالمية وإقليمية ومحلية، في ميادين العلوم والآداب والفنون، والدين والأخلاق، والثقافة وتنمية المجتمعات، وأصبحت لها مكتسبات هائلة، وأصبح لها رجال ومدارس وأنصار وخصوم، ولا بد لنا نحن المسلمين، ونحن أمَّة كبرى تبلغ مليارًا وثلاثة أرباع المليار من البشر، وربما تزيد، أن نسافر أسفارًا متواصلة، لملاحقة

هذا العالم، ومعرفة ما فيه، وتحليله وتأويله وتنزيله، حتى نحدِّد موقفنا منه، ولا نقف متخلِّفين أو رافضين لكل شيء.

كان السفر قديمًا يعني: الانقطاع عن الأهل والأصدقاء والوطن، ويعني: أن يهيِّئ الرجل نفسه ومَن يصحبه لتحمُّل الآلام في البر أو البحر، والتعرُّض لأخطار الطريق، وربما يخرج من داره، فلا يعود إليها، حيث تنقطع الأخبار، وتتباعد المسافات، ومن هنا كان الناس يعتبرون المسافر في غمٍّ وهمٍّ واكتئاب، للبُعد الشديد عن وطنه وأقاربه، فلا يعرف عنهم شيئًا، ولا يعرفون عنه شيئًا.

ومن هنا كان خطر الأسفار وثقلها على النفس، وشدة وطأتها على الخلق. ولذلك قالوا: الغربة دُربة، لولا أنها كُرْبة، وفي السفر اهتمام، لولا أنه اغتمام.

ولهذا قالوا: إن الشاعر المعروف الحطيئة، أراد يومًا سفرًا، فلما أعد العدة للركوب، قالت له زوجته: متى الرجوع؟ فأنشد:

عُدِّي السنين لغَيْبَتي وتَصَبَّرِي ... ودعي الشهورَ فإنهنَّ قصارُ!

فردَّت عليه بشعر من البحر نفسه والقافية نفسها:

اذكر صبابتنا إليك وشوقنا ... وارحم بناتك إنهنَّ صغارُ

فحطَّ رحله، وعدل عن السفر[(١)].

لذا كان الحكماء والأدباء والشعراء يحثُّون على السفر إذا كان وراءه غرض صحيح، ولم يكن طريقه مخوفًا، وكان مع المسافر رفقة موافقة، وليس هناك آفات تخشى من وراء السفر، وكانت صحة المسافر مواتية لأعباء السفر، وأولاده من بعده مؤمَّنينَ وفي عافية، وكل الأمور ميسَّرة له.

---

(١) المستطرف في كل فن مستطرف، للأبشيهي ص ٢٩٣، عالم الكتب، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ

تحذير الحكماء والشعراء من السفر والاغتراب:

فإذا لم يكن السفر كذلك، حذَّروا من هذا السفر، وشنَّعوا على صاحبه، وهلَّلوا ورحَّبوا بالمقيم، الذي يعيش بين أهله ويكره الاغتراب عنهم، وأنشدوا:

وإن اغتراب المرء من غير فاقة ... ولا فاقة يسمو لها لَعجيبُ
فحسْبُ الفتى ذُلًّا وإن أدرك العلا ... وإن نال ملكًا أن يقال: غريبُ[1]

وأنشدوا أيضًا:

وكل غريب سوف يمشي بذلة ... إذا بان عن أوطانه وجفا الأهلا[2]

وذكر ابن عبد البر، أن الإمام الشافعي، خرج في بعض أسفاره، فضمَّه الليل إلى مسجد، فبات فيه، وإذا بالمسجد قوم يتحدثون ويضربون ألوانًا من اللحن، فأنشد:

وأنزلني طول النَّوى دار غربة ... إذا شئت لاقيتُ الذي لا أشاكلُهْ
أحامقه حتى يقال: سجيَّة ... ولو كان ذا عقل لكنت أعاقله[3]

ولذا قيل لأعرابي: ما الغِبْطة؟ قال: الكفاية مع لزوم الأوطان، والجلوس مع الإخوان. قيل: فما العزلة؟ قال: التنقل في البلدان، والتنحي عن الأوطان[4].

وقال حكيم: عُسْرك في بلدك خير من يُسْرك في غربتك.

ولا عجب أن يذكروا في عيوب السفر أمورًا كبيرة، من أهمها: فقد الأحباب، وفراق الأصحاب، والبعد عن الأولاد، وتقطيع الأكباد، وترك المألوف، واقتحام المخوف، والدخول في المجهول، والوصول إلى غير الموصول، مع ما يقابلها، من

(١) من شعر منصور الحلبي.
(٢) ذكره الجاحظ في الرسائل دون أن ينسبه لأحد (٢/ ٤٠٤)، نشر مكتبة الخانجي - القاهرة، ط عام: ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.
(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٩/ ١٥٢).
(٤) رسائل الجاحظ (٢/ ٤٠٧).

المشقَّات والأزمات، مع طول المسافات، وقلة المساعد والمعين، إلى غير ذلك مما حكاه المسافرون، وما يعرفه العارفون.

ولذلك روى البخاري في صحيحه من طريق مالك، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «السفر قطعة من العذاب، يمنع أحدَكم طعامه وشرابه ونومه، فإذا قضى نهمته فليعجل إلى أهله»(١).

قال النووي: «معناه: يمنعه كمالَها ولذيذَها؛ لِمَا فيه من المشقَّة والتعب، ومقاساة الحر والبرد، والسُّرَى والخوف، ومفارقة الأهل والأصحاب، وخشونة العيش»(٢).

وقال ابن حجر رحمه الله: «السفرُ قطعةٌ من العذابِ»؛ أي: جزء منه، والمراد بالعذاب الألم الناشئ عن المشقَّة، لِمَا يحصل في الركوب والمشي من ترك المألوف»(٣).

قال الزركشي في «الغرر السوافر عما يحتاج إليه المسافر»: «ولا معارضة بينه وبين الأحاديث الدالة على مدح السفر، كما ظنَّه قوم، لاحتمال أن يكون العذاب، وهو التعب والنصب، مبتدأ للصحة والراحة.

قال ابن بطال: لأن في الحركة والرياضة منفعة، ولا سيما لأهل الدَّعة والرفاهية، كالدواء المرّ المُعْقِب للصحة، وإن كان في تناوله كراهية»(٤).

وقوله في آخر الحديث: «فإذا قضى نهمته، فليعجل إلى أهله». أي: يسرع الرجوع إليهم، ليزول عذابه، ويطيب له طعامه وشرابه.

قال الإمام النووي: «في هذا الحديث: استحباب تعجيل الرجوع إلى الأهل بعد

(١) متفق عليه: رواه البخاري في العمرة (١٨٠٤)، ومسلم في الإمارة (١٩٢٧).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٣/ ٧٠).

(٣) فتح الباري (٣/ ٦٢٣).

(٤) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٤/ ٤٥٥)، مكتبة الرشد - السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم. والغرر السوافر عما يحتاج إليه المسافر، للزركشي ص ٣٩. دار عمار، الأردن. الطبعة الأولى: ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م، تحقيق: أحمد مصطفى القضاة.

قضاء شغله، ولا يتأخر بما ليس له بمهم»[1].

«وذكر الإمام الخطابي: أن في الحديث حجة لمن رأى في تغريب الزاني سُنَّة بعد جلده، لقوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ [النور:٢][2].

وقال ابن عبد البر: فيه دليل على أن طول التغريب عن الأهل والوطن لغير حاجة من دين أو دنيا لا يصلح ولا يجوز، وأن من انقضت حاجته لزمه الاستعجال لأهله»[3].

على أن من المسافرين من يظفر في سفره بما يحب، فمنهم من يجمع المال، ومنهم من يُرزق بالأولاد، ومنهم من يجمع العلم الغزير، ومنهم من يحصل على الأدب الوفير، ومنهم من يعود كما ذهب: خاوي الوفاض، بادي الإنفاض[4]، كما قال الشاعر:

وما زلتُ أقطع عَرْضَ البلاد ... من المشرقين إلى المغربين
وأدَّرِع الخوف تحت الدُّجى ... وأستصحِب الجَدْيَ والفَرْقَدَين
وأطوى وأنشر ثوب الهموم ... إلى أن رجعت بخُفَّيْ حُنَيْن[5]

وقد قال امرؤ القيس:

لقد طوفْتُ في الآفاق حتى ... رضيتُ من الغنيمة بالإياب!

---

(١) شرح مسلم للنووي (١٣/ ٧٠)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٢) أعلام الحديث للخطابي (٢/ ٩١٥)، تحقيق د. محمد بن سعد بن عبد الرحمن آل سعود، نشر جامعة أم القرى، ط الأولى، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨م.

(٣) التمهيد (٢٢/ ٣٦) ت: مصطفى بن أحمد العلوي، ومحمد عبد الكبير البكري، نشر: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب، ١٣٨٧هـ، والغرر السوافر عما يحتاج إليه المسافر ص٤٠.

(٤) أنفض القوم: هلكت أموالهم وفني زادهم.

(٥) هذه الأبيات وردت في العقد الفريد (٢/ ٣٤٠).

فوائد السفر لأصحابه:

هناك من الناس من ذمُّوا السفر، ورغَّبوا في الإقامة، وقالوا: لزوم الإقامة، دليل على الاستقامة. ولكن هناك أكثر منهم من عشقوا السفر، وألفوا الارتحال، ورغَّبوا فيه غيرهم، بما نالوا ما ذكروه في فضله وآثاره الطيبة من شعر ومن نثر.

ومن أشعر من رُوِي عنه في ذلك الإمام محمد بن إدريس الشافعي صاحب المذهب، وفقيه السُّنة، ﷺ، فهو الذي جاءت عنه الأشعار الكثيرة في السفر وفضائله.

ومن أبرز ما قيل في فضل السفر وفوائده: ما جاء في ديوان الشافعي ممَّا حفظناه صغارًا، ورددناه كبارًا في خطبنا ودروسنا ومحاضراتنا ووصايا ديننا:

تغرّبْ عن الأوطان في طلب ... وسافرْ ففي الأسفار خمسُ

تفرُّج همٍّ واكتساب معيشة ... وعلم وآداب وصحبة ماجدِ

وقد اجتهد العلامة الزركشي أن يشرح هذه الفوائد الخمس، شرحًا جيدًا، يحسن أن نذكر منه هنا ما يفيدنا بتصرف واختصار مع بعض إضافات تضيفها.

الفائدة الأولى: انفراج الهم:

فإن الله أجرى العادة بأن الملازم لمكان واحد، ولطعام واحد، يسأم منه، لا سيما إذا كان في همٍّ كثير.

فإذا انتقل عن تلك الحالة أو تشاغل بغيرها، انصرف عنه الهم على التدريج، وانبعثت روحانيته لما يروم.

قال يحيى بن عدي: إن الطبيعة تمَلُّ الشيء الواحد إذا دام عليها، ولذلك اتُّخِذَتْ ألوان الطعام، وأُطلِقَ التزويج بأربع نسوة، ورُسِمَ التنزه والتحول من مكان إلى مكان، والإكثار من الإخوان، والتفنُّن في الآداب، والجمع بين الجدِّ والهزل.

قال الحريري:

وجدتُ بها ما يملأُ العينَ قُرَّةً ويسلي عن الأوطانِ كلَّ غريبِ[(١)]

وهذا ما نصح به الأطبَّاء النفسيون، فقد نَصَحوا مَن أصيب بذلك أن يسافر، وقد قيل:

لَا يُصلحُ النفس إذ كانت مدبَّرة إلا التنقلُ من حال إلى حال[(٢)]

والفائدة الثانية: اكتساب المعيشة:

فإنها لا تكون إلا بالحركة. وقد قال العرب: الحركة بركة، والجمود هلكة.

فمَن ضاق عليه رزقه في بلده، فلا حرجَ عليه في السفر إلى بلدٍ أخرى؛ سعيًا للرزق، وطلبًا له، فقد أرشد الله عباده إلى ذلك، فقال ممتنًّا عليهم: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك:١٥].

قال ابن كثير ﷺ: «أي: فسافروا حيث شئتُم من أقطارها، وتردَّدوا في أقاليمها وأرجائها، في أنواع المكاسب والتجارات»[(٣)].

وقد شاهدنا أناسًا كثيرًا كانتْ أرزاقهم مضيَّقة عليهم في بلدانهم، فلما سافروا لطلب الرزق الحلال، فتح الله عليهم من خزائنه الملأى، وأغدق عليهم من فضله الجزيل.

وقال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠].

وفي التوراة: ابن آدم، خُلقت من الحركة فتحرَّك، وإني معك[(٤)].

وأعتقد أن ما يقوله العلماء العرب عن التوراة، كثيرًا ما يقصدون به الكتابات

(١) مقامات الحريري ص ٥٢٤، نشر مطبعة المعارف - بيروت، نشر عام: ١٨٧٣م.

(٢) من شعر أبي العتاهية. ينظر: زهر الآداب وثمر الألباب لأبي إسحاق القيرواني ص ٥٢٤، نشر دار الجيل - بيروت.

(٣) تفسير ابن كثير (٨/ ١٩٩)، ط العلمية.

(٤) انظر: زهر الأكم في الأمثال والحكم، نشر الدار البيضاء - المغرب، ط الأولى، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م.

الإسرائيليَّة، ولو كانت من غير الأسفار الخمسة المعروفة أنها هي التوراة عند القوم.

ومن الكلم النوابغ: صعود الآكام وهبوط الغِيضَان- أي: الوديان- خير من القعود بين الحيطان.

وقال الشاعر:

ليس ارتحالك ترتادُ الغِنَى سفرًا بل المُقام على بؤس هو السفر[١]

وقال رجل لمعروف الكرخي: يا أبا محفوظ! أتحرك لطلب الرزق أم أجلس؟ قال: لا، بل تحرك، فإنه أصلح لك. فقال له: أتقول هذا؟! فقال: ما أنا قلت، ولكن الله ﷻ أمر به، حيث قال لمريم: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ۝٢٥﴾ [مريم:٢٥] ولو شاء أن ينزله عليها- أي من غير هز- لفعل[٢].

وأنشد الثعالبي:

ألم تَرَ أن الله قال لمريم وهزي إليك الجذع يسَّاقطُ

ولو شاء أن تجْنيه من غير هزِّها جنته، ولكنْ كلُّ شيء له سببُ[٣]

وقال النابغة:

إذا المرء لم يطلب معاشًا لنفسه شكا الفقرَ، أو لامَ الصديقَ فأكثرا

فَسِرْ في بلاد الله والتمس الغنى تَعش ذا يَسار أو تموتَ فتعذرا[٤]

وقال ابن عبد ربِّه: هل يجوز في عقل، أو يمثُل في وهم، أو يصحُّ في قياس: أن

---

(١) من شعر ابن السكيت. ينظر: روض الأخيار ص ٣٨٥، نشر دار القلم العربي- حلب، ط الأولى ١٤٢٣هـ.

(٢) نثر الدر في المحاضرات، للآبي (٤/ ١١٦)، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م، تحقيق: خالد عبد الغني محفوظ.

(٣) التمثيل والمحاضرة ص ٢٦٩.

(٤) البيتان نسبهما الأصفهاني في محاضرات الأدباء (١/ ٥٧٢) لعروة بن الورد، ونسبهما ابن حمدون في التذكرة (٨/ ٩٩) لأبي عطاء السندي.

يُحصَد زرع بغير بذر، أو يُجْنى ثمر بغير غرس، أو يُورَى زَنْدٌ بغير قَدْح، أو ينمو مال بغير طلب؟[1]

الفائدة الثالثة: حصول العلم:

ومن الفوائد التي ذكرها الزركشي في فوائد التغرُّب والسفر: تحصيل العلم، بكل ألوانه وأنواعه: العلم الديني، والعلم الدنيوي، والعلم الإنساني، والعلم الكوني، وعلم كل حقيقة يعرفها الإنسان في هذا العالم.

وأول علم حصله المسلمون: هو علم القرآن وما يتعلق به، ثم علم السنة وعلومها التي بلغت تسعين علمًا، ذكرها السيوطي في كتابه «تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي»، ثم علوم اللغة وآدابها، ثم علوم السِّيَر، والتواريخ، تواريخ الأمم، وتواريخ الطبقات، وتواريخ الشخصيَّات، وتاريخ الأمة الإسلاميَّة في مختلف مراحلها، وفي سائر بلدانها.

ثم دخل المسلمون في العلوم الطبيعيَّة والكونيَّة والرياضيَّة، وعلوم الفلك والبحار، والطب والهندسة والتشريح والجراحات.. وغيرها، حتى فاقوا أمم الأرض كلها في وقت ازدهارهم ورُقي حضارتهم واتِّساعها، وترجموا العلوم من اللغات المختلفة، وشرحوا وتوسعوا، وهذَّبوا وأصلحوا واخترعوا.

ولولا السفر، ما وصل المسلمون إلى هذا الحد العلمي الهائل، فبسفر المسلمين إلى بلاد الآخرين، وسفر الآخرين إلى بلادهم، ونشاط الجميع في خدمة العلم، وترقيته ونموه وتوسعته، حقق المسلمون ما حقَّقوا.

رحلة الصحابة في طلب العلم:

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم وتلاميذهم وأتباعهم يرحلون ويسافرون،

(١) العقد الفريد (٢/ ٣٣٩)، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤هـ

من أجل طلب حديث واحد، كما قال الإمام سعيد بن المسيّب: إن كنتُ لأسير الليالي في طلب الحديث الواحد[1].

والصحابة هم أول من سنُّوا هذه السُّنة، حتى إن الواحدَ منهم كان يقطع المسافات الطويلة ليسمع حديثًا واحدًا من أحاديث رسول الله ﷺ.

فهذا جابر بن عبد الله ﷺ رحل مسيرةَ شهرٍ إلى عبد الله بن أُنيس في حديثٍ واحد، كما روى البخاري في «الأدب المفرد» أن جابر بن عبد الله قال: بلغني حديثٌ عن رجلٍ من أصحاب النبي ﷺ، فابتعتُ بعيرًا، فشددتُ إليه رَحْلي شهرًا، حتى قدمتُ الشام، فإذا عبد الله بن أُنيس، فبعثتُ إليه أن جابرًا بالباب، فرجع الرسول، فقال: جابر بن عبد الله؟! فقلت: نعم، فخرج فاعتنقني، قلتُ: حديثٌ بلغني لم أسمعْه، خشيتُ أن أموت أو تموت.. فذكر الحديث[2].

وهذا عُقْبة بن الحارث سافر من مكة إلى المدينة ليلقى رسول الله ﷺ يسألُه عن مسألة رضاعٍ وقعتْ له؛ فعن عقبة بن الحارث: أنه تزوج ابنةً لأبي إهاب بن عَزيز، فأتته امرأةٌ فقالت: إني قد أرضعتُ عقبة والتي تزوج. فقال لها عقبةُ: ما أعلمُ أنك أرضعتِني، ولا أخبرتِني! فرَكِب إلى رسول الله ﷺ بالمدينة فسأله، فقال رسول الله ﷺ: «كيف وقد قيل؟!» ففارقها عقبة، ونكحتْ زوجًا غيره[3].

وهكذا سافر التابعون وتابعوهم، ورحلوا لطلب العلم وتحصيله.

قال الإمام الشعبي: لو سافر رجل من الشام إلى أقصى اليمن في كلمة تدله على

---

(١) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (٥٦٩)، نشر دار ابن الجوزي- السعودية، ط الأولى، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (٩٧٠)، وعلقه في صحيحه قبل الحديث (٧٨)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٦٠).

(٣) رواه البخاري في العلم (٨٨)، وأحمد (١٦١٥٤).

هدى، أو ترده عن ردى (هلاك)، ما كان سفره ضائعًا[1].

وقد سافر وارتحل لطلب العلم وتحصيله وجمعه أنبياءُ الله ﷺ، ومنهم كليمُ الله موسى عليه السلام في قصته مع الخضر، وسافر الصحابة الكرام، وقطعوا لهذا الغرض الفيافِي والقِفَار.

ولما سُئِل الشعبي عن هذا العلم الغزير الذي وهبه الله: من أين لك هذا العلم؟ قال: بنفي الاعتماد، والسير في البلاد، وصبر كصبر الجماد، وبكورٍ كبكور الغراب[2].

ولم يزلِ العلماء يسافرون لطلب العلم وتحصيله، ولا يزالون كذلك ما بقيت الحياة.

ويروى عن موسى عليه السلام أنه قال: لا تلوموا السفر، فإني أدركت منه ما لم يدركه أحد[3].

قال الزركشي: يريد: أن الله تعالى كلَّمه.

يعني أنه لم يحصل على مكالمة الله تعالى إلا بعد أن سافر فارًّا من فرعون وجنده إلى مدين، وأتم الأجل الذي اشترطه عليه الرجل الصالح، وفي طريق عودته إلى مصر، رأى إلى جانب الطور نارًا ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾ [القصص: ٢٩، ٣٠].

وكلَّمه الله أيضًا حين أتمَّ ميقات ربه، وودَّع قومَه، وولَّى عليهم أخاه هارون، وقال له: ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝﴾ [الأعراف: ١٤٢].

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٤/ ٣١٣).

(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٠٠).

(٣) العقد الفريد (٢/ ٣٣٨).

وكان ربه قد وعده ثلاثين ليلة، ثم أتمها بعشر ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ﴾ [الأعراف:١٤٢].

وفُتن قوم موسى من بعده فتنةً كبيرة، حيث عبدوا العجل الذي اتخذه لهم للسامري ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ [الأعراف:١٥٠].

وأيضًا عرف موسى فضل السفر حينما سافر هو وفتاه حتى بلغا مجمع البحرين، وقال موسى: ﴿لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا ٦٢﴾ [الكهف: ٦٢]. ولقي موسى الخضر وكان من أمره ما ذكره القرآن في سورة الكهف.

والفائدة الرابعة: تحصيل الأدب:

ذكر الشافعي في الآداب التي يحصلها الإنسان في أسفاره: الأدب. فالعلم وحده لا يكفي، ولا بد مع العلم من أدب. وكم من علماء عندهم علم متين، ولكنه يصعب أن ينتفع الناس به، إلا مع أدب مُعين، وهو ما يكسبه من الناس في بلدانهم المختلفة، وفي مكتباتهم ومدارسهم وجامعاتهم وجوامعهم.

قال الزركشي: كما يرى من الأدباء، ولقاء العلماء والعقلاء الذين لا يَرِدُون قُطْره، فيكتسب من أخلاقهم وخلائقهم، ويتحلى بفوائدهم وحقائقهم، كما قيل:

إذا أعجبتكَ خلالُ امرئٍ ... فكُنه، يكُنْ فيكَ ما يُعجبُكْ
فليس على المجد والمكرُمات ... إذا رُمتها حاجبٌ يحَجبُكْ(١)

الفائدة الخامسة: صحبة الأمجاد:

وهي فائدة غالية، يشهد لها الحق والواقع. وصحبة الأمجاد ترفع المنقوص،

(١) من شعر أبي العَيْناء.

وترقيه إلى رتبة أهل الخصوص، وتدخله في زمرتهم، وتنسجه في لحمتهم، ولله در القائل[1]:

نزلتُ على آل المُهَلَّب شاتيًا غريبًا عن الأوطان في زمن المَحْلِ[2]
فما زالَ بي إحسانهم، وجميلهم وبرهُمُو، حتى حسبتهُمو أهلي

وقال آخر:

لولا الضرورات ما فارقتكم أبدًا ولا تقلبت من ناسٍ إلى ناسِ[3]

وآخر[4]:

وكل امرئ يُولِي الجميلَ محبَّبٌ وكل مكانٍ ينبتُ العزَّ طيبُ!

ومن فضائل السفر التي لم تذكر:

وقال الثعالبي: من فضائل السفر: أن صاحبه يرى من عجائب الأمصار، ومن بدائع الأقطار، ومحاسن الآثار، ما يزيده علمًا بقدرة الله تعالى، ويدعوه إلى تذكر نعمه[5].

وقال المأمون: لا شيءَ ألذّ من السفر في كفاية؛ لأنك كل يوم تحل محَلَّة لم تحلها، وتعاشر قومًا لم تعاشرهم[6].

وقال عنترة: السفر يشدُّ الأبدان، وينشط الكسلان، ويُشَهّي الطعام.

وقال ابن رشيق: كتب إليَّ بعض إخواني: مثل الرجل القاعد – أعزك الله – كمثل

---

(١) هو بكير بن الأخنس.

(٢) المحل: انقطاع المطر ويبس الأرض من الزرع.

(٣) البيت ورد في الواقي بالوفيات (١٠/ ٢٢٧)، دون عزو.

(٤) من شعر المتنبي.

(٥) التمثيل والمحاضرة ص ٣٩٩.

(٦) العقد الفريد (٢/ ٣٣٨).

الماء الراكد، إن تُرِكَ تغير، وإن حُرِّكَ تكدَّر، ومثل المسافر كالسحاب الماطر، هؤلاء يدعونه رحمة، وهؤلاء يدعونه نقمة، فإذا اتصلت أيامُه، ثقل مُقامه، وكثر لُوَّامه[(١)]، فأجمع لنفسك فرحة الغَيْبة، وفرحة الأوبة. والسلام[(٢)].

وقال الحكماء: لا تُدرَك الراحة إلا بالتعب، ولا الرغبة إلا بالنصب.

قال الزركشي: ولهذه الفوائد أو بعضها أكثر الناس من الأسفار حتى قيل:

كريشة بمهب الريح ساقطة ... لا تستقر على حال من القلق[(٣)]

أو كما قال ابن اللبان:

كأنما الأرض عني غيرُ راضية ... فليس لي وطنٌ فيها ولا وطرُ[(٤)]

أو كما قال الشهاب المناوي[(٥)]:

إن عشتُ عشتُ بلا أهل ولا وطنٍ ... وإن قضيتُ فلا قبرٌ ولا كفنُ

أظن قبري بطونَ الوحشِ ترحلُ بي ... بعد الممات، ففي الحالين لي ظَعَن[(٦)]

أحكام السفر الشرعيَّة الخمسة:

السفر يختلف حكمه باختلاف المسافر، ووجهته، ونيته من سفره، وطبيعة السفر.

قال الإمام الزركشي: «اعلم أن السفر مشروع في الجملة، ولكنه ينقسم إلى: طلب

---

(١) أي من يستبطئه وينتظره.

(٢) زهر الأكم (١/ ٢١٤).

(٣) من شعر المتنبي.

(٤) انظر: شرح لامية العجم ص٢٩، تحقيق الدكتور جميل عبد الله عويضة، طبعة ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

(٥) المصدر السابق ص٢٩، ٣٠.

(٦) انظر الغرر السوافر، ص ١٥ - ٢٧.

وهرب، وكل منهما ينقسم إلى الأحكام الخمسة[1].

سفر الخروج والهرب:

أما الهرب، فينقسم إلى: واجب، ومستحب، وحرام، ومكروه، ومباح.

أما الواجب: فالخروج من أرضٍ غَلب فيها الحرام، فإنَّ طلبَ الحلال فريضة على المسلم.

وأما المستحبُّ: فالخروج من أرضٍ غَلب فيها البِدَع، إذا لم يقدر على إنكارها، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام:٦٨].

وأما الحرام: فالخروج من أرض تعيّن عليه فيها وظيفةٌ، كمن يتعيَّن عليه قضاء البلد.

[وذلك كما إذا كان البلد في حاجة إلى قاضٍ يقضي بأحكام الشرع، ولا يعرف الناسُ من يستوفي شروط القضاء إلا فلان بن فلان. فالواجب عليه: أن يقبل، إلا أن يمنع مانعٌ شرعي أو واقعي].

وأما المكروه: فالخروج من أرض وقع فيها الطاعون فرارًا منه، فقد نهى النبي ﷺ عن ذلك[2].

وأما المباح: فخروج المريض من الأرض الوَخِمة إلى النزهة، وقد أذن النبي ﷺ في ذلك للرعاء حين استوخموا المدينة[3].

---

(١) أي الأحكام الشرعية الخمسة، وهي: الوجوب، والندب، والإباحة، والكراهة، والتحريم.

(٢) إشارة إلى الحديث المتفق عليه: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه». رواه البخاري في الطب (٥٧٢٩)، ومسلم في السلام (٢٢١٩)، عن عبد الرحمن بن عوف.

(٣) إشارة إلى الحديث المتفق عليه: أن ناسا من عكل وعرينة قدموا المدينة على النبي ﷺ وتكلموا بالإسلام، فقالوا يا نبي الله: إنا كنا أهل ضرع، ولم نكن أهل ريف، واستوخموا المدينة، فأمر لهم

سفر الطلب:

وأما سفر الطلب: فينقسم أيضًا إلى: واجب، ومندوب، وحرام، ومكروه، ومباح.

فالواجب: سفر الجهاد والحج وتحصيل القوت، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

والمستحب: السفر لطلب العلم، والزيارة للأرحام والأصدقاء، والعِشرة والرباط، والحج والعمرة في غير الفريضة المطلوبة.

والحرام: سفر المعاصي.

والمكروه: سفر الاستكثار من المال وغيره.

والمباح: سفر التنزُّه والتجارة، وكسب الزائد على القوت الذي لا ينتهي به إلى حد الطغيان للغنى»[(١)].

من السفر المستحبُّ ما قد يكون واجبًا:

وأحب أن أقول هنا كلمة لا بد منها: وهي الأصل في السفر لطلب العلم هو أن يكون مستحبًّا، لكن إذا قلَّ طلاب العلم المتميِّزون، ووجد هذا الطالب نفسه متميزًا، وعنده القدرة على التوسُّع والتبحر، بحيث يكون مرجعًا للناس، فهنا يصبح الأمر واجبًا عليه.

كما أن السفر في طلب المال والغنى الشخصي الذي قد يُعتبر لبعض الأشخاص مباحًا، ولبعضهم مكروهًا، فأرى أن الأمر يختلف إذا نظرنا إلى الأمر نظرة كليَّة، باعتبار حاجات الأمم، فإذا نظرنا إلى أن الأمم يجب أن تقوى، وتكثر أموالها، وتمتد

رسول الله ﷺ بذود وراع، وأمرهم أن يخرجوا فيه فيشربوا من ألبانها وأبوالها.. رواه البخاري في المغازي (٤١٩٢)، ومسلم في القسامة (١٦٧١)، عن أنس.

(١) الغرر السوافر ص٤٦-٤٨.

مزروعاتها، وتكثر منتجاتها، وتنتشر صناعاتها، وتنافس غيرها من الأمم.. وقوة الأمم تقاس بما تملك من عشرات المليارات أو مئاتها، أو آلافها، أو أكثر من النقود.. فهنا يكون للفرد موقف آخر، ونرى أن واجبًا عليه أن يخطو خطوات كبرى في سبيل التقدم المادي، وامتلاك الثروة، التي يدّخرها لقومه، ويعتبر غناه جزءًا من غنى أمته.

سفر السياحة:

وقد ذكر الزركشي أن سفر السياحة لا لغرض، ولا إلى مكان مقصود منهيٌّ عنه.

ونقل عن الإمام أحمد: ما السياحة من الإسلام في شيء، ولا من فعل النبيين، ولا الصالحين[1]. ولأن السفر مشتت للقلب، فلا ينبغي للمريد أن يسافر إلا في طلب علم أو مشاهدة شيخ يقتدي به. انتهى.

وفي الحديث: «سياحة أمتي الجهاد، ورهبانيتهم الجلوس في المسجد، وانتظار الصلاة»[2].

وعن عكرمة في قوله تعالى: ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ [التوبة:١١٢] قال: هم طلبة الحديث[3][4].

غير أني أنظر إلى السياحة نظرة أخرى، غير نظرة القدماء، فهناك سياحة للتعرف على العالم، وما فيه من آثار قديمة نفيسة، ومن أشياء جديدة رائعة. ولا بد من الانتفاع بنفاسة القديم، وروعة الجديد، وكيف وصل القوم إلى ما وصلوا إليه، ولا يكون هذا إلا بالسفر والنظر والتأمل، والسؤال، وحسن التعامل مع الناس.

(١) مختصر منهاج القاصدين ص١٢١، نشر مكتبة دار البيان- دمشق، نشر عام ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨م.

(٢) رواه أبو داود في الجهاد (٢٤٨٦)، والطبراني (٨/ ١٦٨)، والحاكم في الجهاد (٢/ ٧٣)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (٢٢٤٧)، عن أبي أمامة.

(٣) رواه الخطيب في الرحلة في طلب الحديث (١١).

(٤) انظر: الغرر السوافر، ص٤٨، ٤٩.

كلام الإمام الغزالي عن السفر في الإحياء:

وللإمام الغزالي أبي حامد في «الإحياء» كلام عن السفر ننقل خلاصة ما قاله مع زيادات وتعليقات:

«في آداب المسافر من أول نهوضه إلى آخر رجوعه، وهي:

قضاء الديون ورد المظالم:

أن يبدأ بردِّ المظالم، وقضاء الديون، وإعداد النفقة لمن تلزمه نفقته، وبرد الودائع إن كانت عنده، ولا يأخذ لزاده إلا الحلال الطيِّب، وليأخذ قدرًا يوسع به على رفقائه.

قال ابن عمر ﵄: من كرم الرجل طيب زاده في سفره[(١)].

ولا بد في السفر من طيب الكلام، وإطعام الطعام، وإظهار مكارم الأخلاق في السفر، فإنه يخرج خبايا الباطن. ومن صلح لصحبة السفر، صلح لصحبة الحضر. وقد يصلح في الحضر من لا يصلح في السفر. ولذلك قيل: إذا أثني على الرجل معاملوه في الحضر، ورفقاؤه في السفر، فلا تشكُّوا في صلاحه.

والسفر من أسباب الضجر، ومن أحسن خُلقه في الضجر فهو لحسنُ الخلق، وإلا فعند مساعدة الأمور على وَفق الغرض قلَّما يظهر سوء الخلق.

---

(١) رواه عبد الله بن أيوب المخزومي في جزء حديثي (٣٥٦)، ضمن سلسلة مجاميع الأجزاء الحديثية. طبعة أضواء السلف، تحقيق: نبيل سعد الدين جرار.

وقال الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين) (٤/ ٧٣٢ دار الكتب العلمية): وهذا يحتمل أن يكون معناه نفاسة زاده، أو المراد طيبُ نفسه في بذله.

قلت (القرضاوي): وهذا ما ذكره الإمام الغزالي في إحيائه. وهو مبنيٌّ على طبيعة السفر القديم. الذي كان المسافر يغيب عن أهله وبلده، فلا يعرفون عن حاله شيئًا كأنما هو مفقود. ولم يعد السفر في عصرنا يتطلب ذلك، فمن الناس من يسافر يوميا من بلده ويعود إليها. ومنهم من يسافر أسبوعا ومنهم.. ومنهم.. وهؤلاء لا يحتاجون إلى قضاء الديون، ولا إلى رد الودائع، ولا إعداد النفقة لمن تلزمه نفقته. فلا بد من النظر إلى تغيُّر طبيعة السفر من العصور السابقة إلى عصرنا.

وقد قيل: ثلاثة لا يُلامون على الضجر: الصائم والمريض والمسافر[(١)].

وتمام حُسن خُلق المسافر: الإحسان إلى المُكارِي، ومعاونة الرُّفقة بكل ممكن، والرِّفق بكل منقطع، بألا يُجاوزه إلا بالإعانة بمركوبٍ، أو زاد، أو توقُّفٍ لأجله. وتمام ذلك مع الرُّفقاء بمزاح ومطايبة في بعض الأوقات، من غير فحش ولا معصية، ليكون ذلك شفاءً لضجر السفر ومشاقِّه.

الرفيق قبل الطريق:

أن يختار رفيقًا، فلا يخرج وحده، فالرفيق ثم الطريق.

[قلت: وهذا في السفر الذي يطول عادة، مثل الحج، أو الدراسة، أو العلاج في الخارج. أما الأسفار اليوميَّة فلا تحتاج إلى مثل ذلك، وإن كان الأولى إذا كثر المسافرون أن يختار من بينهم الموافق له].

وليكن رفيقه ممَّن يعينه على الدين، فيذكِّره إذا نسي، ويساعده إذا ذكر، فإن المرء على دين خليله، ولا يعرف الرجل إلا برفيقه.

وقد نهى ﷺ عن أن يسافر الرجل وحده[(٢)]. وقال أيضًا: «إذا كنتم ثلاثة في السفر فأمِّروا أحدكم». وكانوا يفعلون ذلك، ويقولون: هذا أميرنا أمَّره رسول الله ﷺ[(٣)].

وليؤمِّروا أحسنهم أخلاقًا، وأرفقهم بالأصحاب، وأسرعهم إلى الإيثار وطلب

---

(١) ذكره أبو طالب المكي في قوت القلوب (٢/ ٣٤٧).

(٢) روى البخاري في الجهاد والسير (٢٩٩٨): «لو يعلم الناس ما في الوحدة ما أعلم، ما سار راكب بليل وحده» عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا.

وعنه رضي الله عنه قال: نهى ﷺ عن الوحدة، أن يبيتَ الرجلُ وحده. أو يسافرَ وحده. رواه أحمد (٥٦٥٠)، وقال مخرجوه: صحيح. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٢٠٨): رجاله رجال الصحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٩١٩). عن ابن عمر.

(٣) رواه البزار (٣٢٩)، والحاكم في الصوم (١/ ٤٤٣)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩٣٠٥): رجاله رجال الصحيح خلا عمار بن خالد، وهو ثقة. عن عمر بن الخطاب.

الموافقة. وإنما يُحتاج إلى الأمير؛ لأن الآراء تختلف في تعيين المنازل والطرق ومصالح السفر، ولا نظام إلا في الوَحْدة، ولا فساد إلا في الكَثْرة. وإنما انتظم أمر العالم؛ لأن مدبِّر الكل واحد: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]. ومهما كان المدبِّر واحدًا انتظم أمر التدبير. وإذا كثر المُدبِّرون فسدت الأمور في الحضر والسفر، إلا أن مواطن الإقامة لا تخلو عن أمير عام، كأمير البلد، وأمير خاص كربِّ الدار»[١].

الوداع للرفقاء والأصدقاء:

ومن الآداب التي ذكرها الغزالي: أن يودِّع رفقاء الحضر والأهل والأصدقاء.

قلت: وهذا في سفر الأزمنة الماضية، وما كان مثله أو يقاربه في الزمن الحاضر، أما الأسفار المستمرة التي تتكرر باستمرار، فلا تحتاج إلى مثل هذا الوداع.

قال الغزالي: «وليدعُ عند الوداع بدعاء رسول الله ﷺ.

قال بعضهم: صحبتُ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما من مكة إلى المدينة حرسهما الله، فلما أردت أن أرافقه شيَّعني، وقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «قال لقمان: إنَّ الله تعالى إذا استودع شيئًا حفظه. وإني أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك»[٢].

وقال موسى بن وردان: أتيتُ أبا هريرة رضي الله عنه أودعه لسفر أردته، فقال: ألا أعلِّمُك يا ابن أخي شيئًا علَّمَنيه رسول الله ﷺ عند الوداع. فقلتُ: بلى. قال: قل: «أستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه»[٣].

---

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ٢٥١ - ٢٥٣) بتصرف وزيادة بين معكوفين.

(٢) رواه أبو داود في الجهاد (٢٦٠٠) مختصرا، والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (١٠٢٧٣)، وجوَّد إسناده العراقي في تخريج الإحياء (١٩٥٣)، والألباني في الصحيحة (١٤).

(٣) رواه أحمد (٨٦٩٤) وقال مخرجوه: صحيح لغيره، والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (١٠٢٦٩)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٢٥)، والطبراني في الدعاء (٨٢٠)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٦).

وعن أنس بن مالك ﷺ: أن رجلًا أتى النبيّ ﷺ فقال: إني أريد سفرًا فأوصني، فقال له: «في حفظ الله وفي كنفه، زودك الله التقوى، وغفر ذنبك، ووجّهك للخير حيث كنت» أو «أينما كنت»[(١)]. شكَّ فيه الراوي[(٢)].

ويُستحبُّ له أن يطلب الوصية من أهل الخير:

فعن أبي هريرة ﷺ أن رجلًا قال: يا رسول الله، إني أريد أن أسافر فأوصني. قال: «عليك بتقوى الله تعالى، والتكبير على كل شَرَفٍ». فلما ولّى الرجل قال: «اللهم اطْوِ له البعيد، وهوِّن عليه السفر»[(٣)].

والشَّرف: هو المكانُ العالي المرتفع.

صلاة الاستخارة:

وأن يصلي قبل سفره صلاة الاستخارة، فمن همَّ بأمر وكان لا يدري عاقبته، ولا يعرف أن الخير في تركه أو في الإقدام عليه، ينبغي له أن يستخير الله الذي يعلم بيده الأمر، فعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يعلِّمُنا الاستخارةَ في الأمور كلِّها كما يعلمنا السورةَ من القرآن، يقول: «إذا همَّ أحدُكم بالأمرِ، فليركع ركعتين من غيرِ الفريضة، ثم ليقل: اللهمَّ إني أستخيرك بعلمك، وأستقْدرك بقدْرتك، وأسألك من

---

(١) رواه الدارمي في الاستئذان (٢٧١٣)، والخرائطي في مكارم الأخلاق (٨٠٨)، وابن السني في عمل اليوم الليلة (٥٠٣).

وعن أنس رضي الله عنه قال: جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني أريدُ سفرًا، فزوِّدني. فقال: «زوَّدك اللهُ التقوى» قال: زدني. قال: «وغفر ذنبَك» قال: زدني. قال: «ويسَّر لك الخيرَ حيثما كنت».

رواه الترمذي (٣٤٤٤) وحسنه، وابن خزيمة (٢٥٣٢)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٥٠٥).

(٢) إحياء علوم الدين (٢/ ٢٥١-٢٥٣).

(٣) رواه أحمد (٨٣٨٥) وقال مخرجوه: إسناده حسن، والترمذي في الدعوات (٣٤٤٥) وقال: حسن، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٧١)، والحاكم في الصوم (١/ ٤٤٥)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علَّام الغيوب. اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خيرٌ لي في ديني ودنياي وعاقبة أمري، وعاجله وآجله؛ فاقدره لي، وبارك لي فيه، ثم يسِّره لي. وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شرٌّ لي في ديني، ودنياي، وعاقبة أمري، وعاجله وآجله؛ فاصرفني عنه واصرفه عني، واقدر لي الخير أينما كان، إنك على كل شيء قدير»(١).

أدعية السفر

ومن المطلوب أن يردِّد المسافر المسلم الأذكار المأثورة في السفر، فيقول إذا خرج من بيته:

«باسم الله، توكلتُ على الله، اللهم إنَّا نعوذ بك من أن نَزِلّ أو نُزل، أو نَضِلَّ أو نُضل، أو نظلم أو نُظلم، أو نجهل، أو يُجهل علينا»(٢).

وأن يودِّع أهله وإخوانه ويستودعهم الله: فعن ابن عمر ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى إذا استُودع شيئًا حفظه»(٣).

والسنة أن يقول له من يودِّعه ما رواه أبو داود في سننه عن قزعة قال: قال لي ابن

---

(١) رواه البخاري في الدعوات (٦٣٨٢)، وأحمد (١٤٧٠٧)، وأبو داود في فضائل القرآن (١٥٣٨).

(٢) رواه أحمد (٢٦٦١٦) وقال مخرجوه: إسناده ضعيف لانقطاعه، وأبو داود في الأدب (٥٠٩٤)، والترمذي في الدعوات (٣٤٢٧) وقال: حسن صحيح. والنسائي في الاستعاذة (٥٤٨٦)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٨٤)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣١٦٣)، عن أم سلمة.

وعن أنس رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال: «من قال- يعني- إذا خرجَ من بيته: باسمِ الله، توكلتُ على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، يُقال له: هُديتَ، وكُفيتَ، ووُقيت، وتنحَّى عنه الشَّيطان». وفي رواية: «فيقول –يعني– الشيطان لشيطان آخر: كيف لك برجلٍ قد هُدِي وكُفي ووُقي». رواه أبو داود (٥٠٩٥)، والترمذي (٣٤٢٦)، وحسَّنه الحافظ في نتائج الأفكار.

(٣) رواه أحمد (٥٦٠٥) وقال مخرجوه: إسناده صحيح، والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (١٠٢٧٣)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٤).

عمر ﷺ: تعالَ أودِّعك كما ودَّعني رسول الله ﷺ: «أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك»[1].

قال الإمام الخطابي: الأمانة هنا: أهله ومن يُخلِّفه، وماله الذي عند أمينه. وإنما ذكرَ الدِّين مع الوداع؛ لأنَّ السَّفر موضعُ خوف وخطر، وقد يصيبه من المشقةِ والتعب، فيكون سببًا لإهمالِ بعض الأمور المتعلِّقة بالدين، فدعا له بالمعونةِ والتَّوفيق فيها، وذكر الدين هنا؛ لأن السفر مظنة المشقة، فربما كان سببًا لإهمال بعض أمور الدين[2].

وروى الترمذي أيضًا عن نافع عن ابن عمر قال: كان النبي ﷺ إذا ودَّع رجلًا أخذ بيده، فلا يدعها حتى يكون الرجل هو الذي يدع يد رسول الله ﷺ، ويقول: «أستودع الله دينك وأمانتك وآخر عملك»[3].

وعن أنس رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبيِّ ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني أريد سفرًا، فزودني. فقال: «زوَّدك الله التقوى». قال: زدني. قال: «وغفر ذنبك». قال: زدني. قال: «ويسَّر لك الخير حيثما كنتَ»[4].

الدعاء عند ركوب وسيلة النقل:

ويسنُّ له أن يقول إذا ركب دابَّته أو ما يقوم مقامها من وسائل المواصلات الحديثة أن يقول ما أمر به القرآن في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾

(١) رواه أحمد (٤٥٢٤)، وقال مخرجوه: صحيح، وأبو داود في الجهاد (٢٦٠٠)، والترمذي في الدعوات (٣٤٤٣)، وقال: حديث حسن صحيح غريب، وابن ماجه (٢٨٢٦)، والحاكم (٢/ ٩٧)، وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي، كلاهما في الجهاد، عن ابن عمر.

(٢) معالم السنن للخطابي (٣/ ٧٦).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) رواه الترمذي في الدعوات (٣٤٤٤) وقال: حسن غريب، والبزار (٦٩٣٣)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٧٣٩)، عن أنس.

﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ۝١٤﴾ [الزخرف: ١٢ - ١٤].

وعن علي بن ربيعة قال: شهدت علي بن أبي طالب ﷺ، أُتِي بدابّة ليركبها، فلما وضع رِجله في الركاب قال: باسم الله. فلما استوى على ظهرها قال: الحمد لله. ثم قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ۝١٤﴾ [الزخرف: ١٣، ١٤]. ثم قال: الحمد لله. ثلاث مرات. ثم قال: الله أكبر. ثلاث مرات. ثم قال: سبحانك إني ظلمت نفسي فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. ثم ضحك، فقيل: يا أمير المؤمنين، من أيِّ شيء ضحكتَ؟ قال: رأيتُ النبي ﷺ فعل مثل ما فعلتُ ثم ضحك. فقلتُ: يا رسول الله، من أي شيء ضحكتَ؟ قال: «إن ربك سبحانه يعجب من عبده إذا قال: اغفر لي ذنوبي، يعلم أنه لا يغفر الذنوب غيري»(١).

وعن عبد الله بن سرْجس ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا سافر يتعوذ من وَعْثاء السفر، وكآبة المنقلب، والحَوْر بعد الكوْر، ودعوة المظلوم، وسوء المنظر في الأهل والمال(٢).

وعن عبد الله بن عمر ﷺ: أن رسول الله ﷺ، كان إذا استوى على بعيره خارجًا

(١) رواه أحمد (٧٥٣) وقال مخرجوه: حسن لغيره، وأبو داود في الجهاد (٢٦٠٢)، والترمذي في الدعوات (٣٤٤٦ وقال: حسن صحيح، والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (٨٧٤٨)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٧٤٢).

(٢) رواه مسلم في الحج (١٣٤٣)، وأحمد (٢٠٧٧١)، والنسائي في الاستعاذة (٥٤٩٩).

ومعنى: «وعْثاء السَّفر»: شدَّته ومشقته. وكآبة المنقلب؛ أي: تغيُّر النفس من حزنٍ وغيره؛ أي: لا ينقلبُ إلى أهله من سفره كئيبًا غير مقضي الحاجة، أو منكوبًا ذهب مالُه أو أصابته آفة في سفره، أو أن يردَ على أهله، فيجدهم مرضى، أو يفقد بعضَهم، أو غير ذلك من المكروه.

والحَوْر بعد الكَوْر؛ أي: الرجوع من الاستقامةِ إلى الانحراف، ومن الإيمان إلى الكفر، ومن الطَّاعةِ إلى المعصية. ومن دعوة المظلوم؛ أي: الظُّلم وما يترتب عليه دعوة المظلوم.

إلى سفر كبَّر ثلاثًا، ثم قال: «﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الزخرف: ١٣، ١٤]. اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هوِّن علينا سفرنا هذا، واطْوِ عنا بعده. اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم إني أعوذ بك من وَعْثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في المال والأهل». وإذا رجع قالهنَّ، وزاد فيهنَّ: «آيبون تائبون عابدون، لربِّنا حامدون»[(١)].

ويستحب له أن يكثر من الدعاء في السفر؛ لأن السفر من مظانِّ الإجابة، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد»[(٢)].

وقد يجمع شخص واحد هذه الدعوات الثلاثة، كأن يكون مظلومًا ومسافرًا ووالدًا، أو اثنتين منها.

فالسفر مظِنَّة لاستجابة الدعاء، وخاصة إذا كان السفر طويلًا، كما جاء في حديث أبي هريرة ﷺ الذي فيه: «ثم ذكر الرجل يُطِيل السفر، أشعثَ أغبر، يمدُّ يديه إلى السماء: يا رب يا رب، ومطْعمُه حرام، ومَشْرَبُه حرام، ومَلبَسه حرام، وغُذِّي بالحرام، فأنَّى يستجاب لذلك»[(٣)]!

قال الحافظ ابن رجب: «ومتى طال السفر كان أقرب إلى إجابة الدعاء؛ لأنه مظنة حصولِ انكسارِ النفس بطول الغربة عن الأوطان، وتحمُّلُ المشاقّ. والانكسارُ من أعظم أسباب إجابة الدعاء»[(٤)].

---

(١) رواه مسلم في الحج (١٣٤٢)، وأحمد (٦٣٧٤).

(٢) رواه أحمد (٧٥١٠) وقال مخرجوه: حسن لغيره، وأبو داود في فضائل القرآن (١٥٣٦)، والترمذي في البر والصلة (١٩٠٥) وحسَّنه، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٦٢).

(٣) رواه مسلم في الزكاة (١٠١٥)، وأحمد (٨٣٤٨)، والترمذي في تفسير القرآن (٢٩٨٩).

(٤) جامع العلوم والحكم (١/ ٢٦٩) ت الأرنؤوط.

الدعاء إذا رأى قرية يريد دخولها:

فإذا رأى قرية يريد دخولها قال: «اللهم ربَّ السماوات السبع وما أظللن، وربَّ الأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما ذرين، أسألك خير هذه القرية وخير أهلها، وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرها، وشر أهلها، وشر ما فيها»[(١)].

ويُروى أنه ﷺ كان يقول: «اللهمَّ بارك لنا فيها- ثلاثَ مرات- اللهم ارزقنا جَنَاها، وحبِّبْنا إلى أهلِها، وحبِّب صالحي أهلِها إلينا»[(٢)].

التعجيل بالرجوع:

عن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «السَّفر قطعةٌ من العذاب، يمنع أحدَكم طعامَه وشرابه ونومه، فإذا قضى أحدكم نَهمتَه من وجهه، فليعجِّل إلى أهلِه»[(٣)].

ومعنى (نهمته)؛ أي: حاجتَه ومقصوده، فيسنُّ للإنسان الرجوعُ إلى بلدِه بعد قضاء حاجته وغرضه من سفرِه.

إحضار الهدايا للأهل:

ويُستحسن أن يحمل لأهل بيته وأقاربه هدية من مطعومٍ أو غيره على قدر إمكانه. وفي هذا مبالغة في الاستحثاث على هذه المكرمة؛ لأن الأعين تمتد إلى القادم من السفر والقلوب تفرح به، فيتأكد الاستحباب في تأكيد فرحهم وإظهار التفات القلب في السفر

(١) رواه النسائي في الكبرى في السير (٨٧٧٥)، والبزار (٢٠٩٣)، وابن خزيمة في المناسك (٢٥٦٥)، وابن حبان في الصلاة (٢٧٠٩) وقال الأرناؤوط: إسناده حسن، وصححه الألباني في تخريج الكلم الطيب (١٧٩).

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (٤٧٥٥)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧١١٥): إسناده جيد.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الحج (١٨٠٤)، ومسلم في الإمارة (١٩٢٧).

إلى ذكرهم بما يستصحبه في الطريق لهم.

وهذا مما استحبَّه العلماءُ واستحسنوه؛ لأنَّ فيه إدخالَ السرور على الأهل، وقد ورد في الحديث: «أحبُّ الأعمالِ إلى الله ﷻ سرورٌ يدخله على مسلم، أو يكشف عنه كربة، أو يقضي عنه دَيْنًا»[(١)].

لكن الأحاديث الواردة في ذكر الهدية على وجهِ الخصوص في السَّفرِ لا تصحُّ.

عدم طروق المسافر أهله ليلاً:

ومما ذكره حجة الإسلام أبو حامد: أن لا يقدُمُ على أهله ليلًا يفجؤهم بقدومِه، بل السنَّةُ أن يقدمَ عليهم أولَ النهار أو آخره؛ فعن أنس ﷺ قال: كان النبي ﷺ لا يطرقُ أهلَه ليلًا، وكان يأتيهم غدوةً وعشيةً».

وقد بيَّنت الأحاديثُ العلةَ من ذلك، فعن جابر ﷺ: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «مهلوا حتى تدخلوا ليلًا[(٢)] – أي عشاء – لكي، تمتشطَ الشعثَة، وتستحدَّ المُغيبة»[(٣)].

و«الشعثة»: التي تفرّق شعر رأسِها.

و«تستحدَّ» أي: تزيل شعرَ العانَة، و«المُغيبة» التي غاب زوجُها.

وهذا الحكمَ يدور مع العلةِ وجودًا وعدمًا، فإنه إذا أمكنَ إخبارُ الأهلِ بوقت قدومِه، فإنه يجوزُ الطروقُ ليلًا لزوالِ العلة.

وعلى كل حال، لم يعد وقت القدوم في يد مسافر، إلا إذا كان مسافرًا في سيارته، أو نحو ذلك، وإلا فالأمر ليس في يده، وإنما في يد صاحب آلة السفر.

فليحضر في أي وقت، وليُعلم أهله بموعده قبل ذلك بالهاتف أو بغيره.

قد تيسَّرت لنا في هذا الزمان وسائلُ التخاطبِ عبر الهاتف، مما يعينُ على تعريفِ

(١) رواه عبد الله بن المبارك في الزهد (٦٨٤) عن أبي شريك.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الحج (١٨٠١)، ومسلم في الإمارة (٧١٥).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في النكاح (٥٠٧٩)، ومسلم في الإمارة (٧١٥).

وإخبار أهله بوقتِ قدومِه، فلا بأسَ إذن بعد إعلامِهم أن يقدمَ عليهم ولو كان ذلك ليلًا، أو في أيِّ وقت. والله أعلم.

وليخبر أهله برجوعه:

أي إنه إذا قربَ من وصولِه إلى بيته، فيستحبُّ إرسال من يخبرهم بقدومِه.

قال الإمام النووي ﷺ: «ويستحبُّ إذا قرب من وطنِه أن يبعثَ إلى أهله مَن يخبرهم لئلا يقدمَ بغتة، فإن كان في قافلةٍ كبيرة واشتهر عند أهلِ البلد وصولهم ووقت دخولهم، كفاه ذلك عن إرسالِه مُعينًا»[١].

استقبال المسافر

يسنُّ للأقاربِ والأصحاب تلقي المسافرين لا سيما القادمون من مكان بعيد، وبعد زمن مديد، وأن يُخرجوا معهم الأطفالَ لاستقبالِهم، لحديث ابنِ عباس ﷺ: أنَّ رسول الله ﷺ قدم من سفرٍ، فاستقبله أُغيلمةُ بني عبد المطلب، فجعل واحدًا بين يديه وآخر خلفه[٢].

وعن عبد الله بن جعفر ﷺ قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا قدم من سفرٍ تُلُقِّي بصبيانِ أهلِ بيته، وإنه قدم من سفرٍ فسُبِقَ بي إليه، فحملني بين يديه، ثم جيء بأحدِ ابني فاطمة فأردَفَهُ خلفَه، فدخلنا المدينةَ ثلاثة على دابة[٣].

فهذه جملةٌ من الآداب الظاهرة التي ذكرها الإمام الغزالي مع زيادات وإضافات وتعليقات[٤].

---

(١) المجموع (٤/ ٣٩٩).

(٢) رواه البخاري في الحج (١٧٩٨).

(٣) رواه مسلم في فضائل الصحابة (٢٤٢٨)، وأحمد (١٧٤٣).

(٤) انظر: إحياء علوم الدين (٢/ ٢٥١-٢٥٤).

الآداب الباطنة للمسافر:

وبعد أن ذكر الغزالي الآداب الظاهرة للمسافر شرع على عادته في الإحياء في بيان الآداب الباطنة.

قال الإمام الغزالي: «وأما الآداب الباطنة، فهي:

ألَّا يسافر إلا إذا كان زيادة دينه في السفر، ومهما وجد قلبه متغيرًا إلى نقصان فيقف ولينصرف، ولا ينبغي أن يجاوز همه منزله، بل ينزل حيث ينزل قلبه.

وينوي في دخول كل بلدةٍ أن يرى شيوخها، ويجتهد أن يستفيد من كل واحد منهم أدبًا أو كلمة لينتفع بها، لا ليحكي ذلك، ويُظهر أنه لقي المشايخ.

ولا يقيم ببلدة أكثر من أسبوع أو عشرة أيام، إلا أن يأمره الشيخ المقصود بذلك..

وإن كان قصده زيارة أخ فلا يزيد على ثلاثة أيام، فهو حد الضيافة، إلا إذا شقَّ على أخيه مفارقته.

وإذا قصد زيارة شيخ فلا يقيم عنده أكثر من يوم وليلة.

ولا يشغل نفسه بما لا فائدة فيه، فإن ذلك يقطع بركة سفره.

وكلما دخل بلدًا لا يشتغل بشيء سوى زيارة الشيخ بزيارة منزله، فإن كان في بيته فلا يدق عليه بابه، ولا يستأذن عليه، إلى أن يخرج، فإذا خرج تقدَّم إليه بأدب فسلم عليه، ولا يتكلم بين يديه إلا أن يسأله، فإن سأله أجاب بقدر السؤال، ولا يسأله عن مسألة ما لم يستأذن أولًا.

وإذا كان في السفر فلا يكثر ذكر أطعمة البلدان وأسخيائها، ولا ذكْر أصدقائه فيها، وليذكر مشايخها وفقراءها[1].

ولا يهمل في سفره زيارة قبور الصالحين، بل يتفقدها في كل قرية وبلدة.

---

(١) الفقراء مصلح يطلقه الصوفية على أنفسهم، والحق أنه ينبغي أن يذكر أهل التقوى والورع من كل المشارب الإسلامية الملتزمة بصحيح الدين وبالسنة النبوية العطرة.

قال القرضاوي: والمقابر العامة يختلط فيها المقبورون بعضهم ببعض، فإن كان هناك قبر لصالح معروف فليزره، وإلا فليزر الجميع، وليدع للصالحين.

قال الغزالي: ولا يظهر حاجته إلا بقدر الضرورة ومع من يقدر على إزالتها.

ويلازم في الطريق الذكر وقراءة القرآن، بحيث لا يسمع غيره، وإذا كلمه إنسان فليترك الذكر وليجبه ما دام يحدثه، ثم ليرجع إلى ما كان عليه.

فإن تبرّمت نفسه بالسفر أو بالإقامة فليخالفها، فالبركة في مخالفة النفس، وإذا تيسّرت له خدمة قوم صالحين فلا ينبغي له أن يسافر تبرُّمًا بالخدمة، فذلك كُفران نعمة. ومهما وجد نفسه في نقصان عما كان عليه في الحضر فليعلم أن سفره معلول، وليرجع إذ لو كان لحَقٍّ لظهر أثره.

قال رجل لأبي عثمان المغربي: خرج فلان مسافرًا. فقال: السفر غربة، والغربة ذِلة، وليس للمؤمن أن يذل نفسه[1]. وأشار به إلى أن مَن ليس له في السفر زيادة دين، فقد أذل نفسه، وإلا فعز الدين لا ينال إلا بذلة الغربة.

فليكن سفر المريد من وطن هواه ومراده وطبعه، حتى يعز في هذه الغربة ولا يذل، فإن من اتبع هواه في سفره ذل لا محالة، إما عاجلًا وإما آجلًا»[2].

❁❁❁

(١) ينظر: المحاسن والأضداد (ص ١١٨).

(٢) إحياء علوم الدين (٢/ ٢٥٧).

الْبَابُ التَّاسِعُ

أدب المسلم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الباب التاسع

أدب المسلم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

من الآداب المهمة، التي عُني بها الإسلام في قرآنه وسنَّته، وعُني بها الصحابة ومن اتَّبعهم بإحسان، وعُني بها علماء الأمَّة في شتى الأعصار، وفي مختلف الأقطار، من مفسِّرين ومُحدِّثين، وفقهاء، وأخلاقيين، ولغويين وأدباء وعلماء كونيين، ورجال سلوك وتربية: أدب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

لقد عُني علماؤنا في عدد من التَّخصُّصات التي تهتم بالإنسان، وتعمل على رُقيِّ أفكاره واعتقاده وعمله ودعوته، وتكوين شخصيته المتوازنة والمتكاملة، التي تكتمل فيها جوانب الحق والخير والجمال، ولكنها لا تكتفي بذلك، بل تعمل بكل طاقتها على إيصال ما عندها من حقٍّ وخير وجمال إلى غيرها، إذ لا يكفي المسلم الحق أن يكون صالحًا في نفسه، إلا بكونه مصلحًا لغيره، ولمجتمعه وأمته، وللبشرية جمعاء، وذلك عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

تعريف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند العلماء:

والمعروف: هو اسم جامع لكل ما عُرِف من طاعة الله تعالى والتقرب إليه، والإحسان إلى الناس.

والمنكر: ضد المعروف، وهو: كل ما قبَّحه الشرع وحرَّمه؛ فهو منكر.

فالمعروف هو: كل ما أمر الله به ورسوله ﷺ.

والمنكر هو: كلُّ ما نهى الله عنه ورسوله ﷺ.

والأمر بالمعروف: الدعوة إليه، والترغيب فيه، وتمهيد أسبابه حتى تتوطد أركانه وتتبين سبله، ويعم الخير به.

والنهي عن المنكر: الصدُّ عنه، والتنفير منه، ومقاومته، وقطع السبل عليه، حتى لا يقع أصلًا، أو يتكرَّر.

وهو ما فرضه الإسلام على المسلم فرضًا بالنصوص الصريحة، المستمدة من كتاب الله، ومن أحاديث رسوله الكريم.

التواصي بالحق والتواصي بالصبر:

انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾ [العصر: ١-٣].

هذه سورة مكية أقسم الله تعالى فيها بالعصر، وهو الزمان، ومن حقِّه أن يقسم بما شاء من خلقه، ليلفتنا إلى آثاره وأهميته، أقسم على أن كل إنسان خاسر وضائع، إذا مشى وحده، بعيدًا عن ربِّه ووحيه، واستثنى من ذلك من جمع أربعة أوصاف أساسية، هي: الإيمان، وعمل الصالحات، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر.

والذي يهمنا هنا الأخيران: التواصي بالحق، والتواصي بالصبر. إذ الوصفان الأولان، وهما الإيمان وعمل الصالحات، مفروغ منهما.

ومعنى التواصي بهما: أن يُوصي كلُّ مؤمن غيرَه بالحق: من الإيمان به، وفرضيَّة الدعوة إليه، ويوصيه أيضًا بضرورة الصبر عليه؛ إذ لا حق إلا بصبر. فهو يوصي بهذا، ويقبل الوصيَّة من غيره إذا وصَّاه، وهذا معنى التواصي. فهو على صيغة التفاعُل التي تعني أن الفعل من الجانبين.

فلا يقبل الإسلام من مسلم أن يعيش وحده مصليًا صائمًا عاملًا للصالحات، والفساد يعيث في الأرض من حوله، والظلم يتبختر في الأرض، ولا يجد من يقف في

وجهه. فكان لا بد من هذا التواصي، فليس هناك أحد أصغر من أن يُوصِي، ولا آخر أكبر من أن يُوصَى.

على كل مؤمن أن يكون داعية:

وبهذا كلف الإسلام كل مؤمن أن يكون داعية لدينه، على قدر ما يتَّسع واديه، لأن الله تعالى خاطب الناس جميعًا بقوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل:١٢٥]. فهذا خطاب للرسول ولكل من يصلح خطابه من المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٣﴾ [فصلت:٣٣]. فقدّم الدعوة إلى الله على العمل الصالح، ليدلُّنا على أهمية الدعوة في الحياة الإسلاميَّة.

وقال ﷻ: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يوسف:١٠٨]. فهذه سبيل محمد رسول الله، وسبيل كل من اتبع سبيله، فإن كنت ممَّن اتَّبع سبيل محمد ﷺ، فهذه سبيله، فكُنْ معه، ولا تتخلَّف عنه، فتكون مع القاعدين، ومع الخالفين، الذين ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ٨٧﴾ [التوبة:٨٧].

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الفريضة الخامسة:

وهذه هي الفريضة أو الشعيرة الخامسة من فرائض الإسلام وشعائره، وهي سياج الشعائر السابقة وحارستها.

وربما استغرب بعض الناس أن تكون هذه ضمن الفرائض الأساسية في الإسلام.

ولكن المتتبع للقرآن والسُّنَّة يجد ذلك أوضح من فلق الصباح.

فالقرآن يجعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الخصيصة الأولى التي

تميَّزت بها هذه الأمة المسلمة، وفاقت بها أمم الأرض، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فبيَّن سبحانه أنَّ خيريَّة هذه الأمة على الأمم كلها إنما وضعت وتمَّت لأمرين: الأمر والنهي أولًا، والإيمان بالله ثانيًا.

وهذا يدل على فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ بيَّن أنهم كانوا به خير أمة أخرجت للناس.

فالأمة المحمديَّة خير أمة أُخرِجت للناس، ما دامت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وسوف تظل خير الأمم وأعلاها ما دام أبناؤها قائمين على هذا الواجب، ثم إذا تخلَّت عنه، فسوف تسقط عنها هذه الخيرية، وتصبح أمة ضعيفة ذليلة، لا قيمة لها، ولا وزن.

وقدَّم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الذكر على الإيمان، مع أن الإيمان هو الأساس؛ لأن الإيمان بالله قدْر مشترك بين الأمم الكتابية جميعًا، ولكن الأمر والنهي فضيلة هذه الأمة، التي لم تخرج للوجود من نفسها، بل أخرجها الله إخراجًا، ولم يخرجها لتعيش لنفسها، فحسب، بل أُخرجت للناس، للبَشرية كلها، فهي أمة دعوة ورسالة، همها أن تُشيع المعروف وتُثبِّته، وأن تزيل المنكر وتمنعه.

ولأنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سِياج الإيمان، وبهما يستمرُّ نقاؤه وصَفاؤه، بل استمراره، وكلَّما ضعُف الإيمان ضعف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكلَّما ضعُف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضعُف الإيمان، ودخلت عليه البِدَع والمعاصي التي تَحُول دون تمامه وقوته[1].

(١) ينظر: تفسير أبي السعود (٢/ ٧١)، والمنار (٤/ ٦٤).

وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

وقبل الآية المذكورة من سورة آل عمران ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٠] ببضع آيات جاء قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران:١٠٤].

وفي الآية بيان الإيجاب، فإن قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن﴾ أمر، وظاهر الأمر الإيجاب، وخصوصًا إذا كان في القرآن.

وفيها: بيان أن الفلاح منوط به إذ حصر، قال: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾. فهم وحدهم المفلحون، ولا فلاح لغيرهم.

(من) في قوله (منكم) للبيان لا للتبعيض:

وقد فهم بعض الناس من هذه الآية: أن (مِنْ) في قوله: ﴿مِّنكُمْ﴾ للتبعيض، وأنه واجب على بعض الناس أن يدعوا إلى الخير ويأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر، وليس ذلك واجبًا على الجميع.

ولكن هذا الرأي لا يناسب ختام الآية: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾، فحصر الفلاح فيهم، وليس في أحد غيرهم. ومعنى هذا: أنه يجب على الجميع أن يحرصوا على الدعوة والأمر والنهي.

وإذن تكون (مِنْ) في الآية ليست للتبعيض، ولكنها للبيان، أشبه بقولهم: ليكن لي منك الصديق الوفي. أي: كنت أنت الصديق الوفي لي. فيكون معنى الآية: كونوا أمة تدعو إلى الخير، حتى تستحقوا الفلاح وحدكم.

وهذا يتفق مع الآيات التي جعلت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، صفات عامة للمؤمنين، كقوله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [التوبة:١١٢].

وعلى المعنى الثاني للآية: أن تكون «مِنْ» في ﴿مِنكُمْ﴾، للتبعيض كما هو الشائع المتبادر وهو خلاف ما رجحتُه، فمقتضى هذا أن يكون في المجتمع المسلم طائفة متخصصة قادرة متمكنة، مُعَدة الإعداد الملائم، لتقوم بواجب الدعوة والأمر والنهي، والمخاطَب بهذا الأمر الإلهي (إيجاد الطائفة المذكورة) هم جماعة المسلمين كافة، وأولو الأمر خاصة، فعليهم تهيئة الأسباب لوجودها، وإعانتها ماديًّا وأدبيًّا لتقوم برسالتها، فإذا لم توجد هذه الأمة أو هذه الطائفة المنشودة، عمَّ الإثم جميع المسلمين، ككل فرض كفائي يُترك ويُهمل.

ولا يكفي أن يوجد أفراد متناثرون، يقومون بالوعظ والإرشاد، في دولة تدير لهم ظهرها، ومجتمع ينأى عنهم بجانبه، فالقرآن لم يرد ذلك، إنما أراد وجود «أمة»، فالأفراد المتناثرون لا يكوِّنون «أمة»، كما يُفترض أن تكون لهذه الأمة حرية الدعوة إلى الخير، وأعظم أبواب الخير هو الإسلام. وأن تكون قادرة على أن تأمر وتنهى.

والأمر والنهي شيء أخص وأكبر من الوعظ والتذكير، فكل ذي لسان قادر على أن يعظ ويذكِّر، وليس قادرًا دائمًا أن يأمر وينهى، والذي طالبت به الآية الكريمة إنما هو إيجاد أمة، تدعو وتأمر وتنهى.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من سمات المجتمع المسلم:

وفي بيان السمات العامة لمجتمع المؤمنين، والتي يتميز بها عن مجتمع المنافقين يقول القرآن في سورة التوبة: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة:٧١].

ومن الجميل في الآية أنها قرنت المؤمنات بالمؤمنين، وجعلت الجميع بعضهم أولياء بعض، وحمَّلتهم- رجالًا ونساءً- تبعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقدَّمت شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الصلاة والزكاة؛ لأنها السمة الأولى للمجتمع المسلم، ولأفراد المجتمع المسلم.

وفي سورة التوبة أيضًا، بيان لأوصاف المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، وذلك قوله: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [التوبة: ١١٢].

وفي سورة الحج ذكر القرآن أهم واجبات الأمة المسلمة حين يمكِّن الله لها في الأرض، ويكون لها دولة وسلطان، فقال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: ٤٠، ٤١].

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - إلى جانب الصلاة والزكاة- أهم ما تقوم به دولة الإسلام بعد أن يمكِّن الله لها وينصرها على عدوها، بل هي لا تستحق نصر الله، إلا بهذا، كما بيَّنت الآيتان الكريمتان.

هذه هي فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن، إنها عَلَم على وجوب التكافل الأدبي بين المسلمين، كما أن الزكاة عَلَم على وجوب التكافل المادي بينهم.

عدم التناهي عن المنكر سبب في الطرد من رحمة الله:

إنَّ الله لعن بني إسرائيل على لسان أنبيائه، وضرب قلوب بعضهم ببعض، وسلّط عليهم مَن لا يرحمهم، لانتشار المنكرات بينهم دون أن تجد مَن يغيِّرها أو ينهى عنها.

وأسوأ مما ذكرنا أن يموت الضمير الاجتماعي للأمة، أو يمرض على الأقل، بعد طول الإلف للمنكر والسكوت عليه، فيفقد المجتمع حسه الديني والأخلاقي، الذي يعرف به المعروف من المنكر، ويفقد العقل البصير الذي يميز الخبيث من الطيب،

والحلال من الحرام، والرشد من الغي، وعند ذلك تختل موازين المجتمع وتضطَرِبُ مقاييسه، فيرى السُّنَّة بدعة، والبدعة سُنَّة، أو يرى ما نحسه ونلمسه في عصرنا عند كثيرين من أبناء المسلمين، من اعتبار التدين رجعية، والاستقامة تزمُّتًا، والاحتشام جمودًا، والفجور فنًّا، والإلحاد تحررًا، والانحلال تقدُّمًا، والانتفاع بتراث السَّلَف تخلُّفًا في التفكير، إلى آخر ما نعلم وما لا نعلم.

وبعبارة موجزة: يصبح المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا!

وأسوأ من هذا وذاك: أن يخفت صوت الحق، وتتعالى صيحات الباطل، تتجاوب بها الأرجاء داعية إلى الفساد، آمرة بالمنكر، ناهية عن المعروف. صيحات الذين وصفهم الحديث الشريف بأنهم: «دعاة على أبواب جهنم، مَن أجابهم إليها قذفوه فيها»[1].

هذا هو شأن مجتمع المنافقين الذين جعلهم القرآن في الدرك الأسفل من النار، وهو المجتمع الذي حدَّدت معالمه الآية الكريمة: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [التوبة: ٦٧].

وهذه الخصال مناقضة تمام المناقضة لمجتمع المؤمنين، كما صوَّرته آية: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة:٧١]، والذي يعنينا هنا أنه مجتمع منكوس على رأسه، يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف.

فإذا ارتفع فيه للحق صوت يدعو إلى الله، ويأمر بالقسط، وينهى عن الفساد والظلم، كان جزاؤه الموت جهارًا على حبل المشنقة في وضح النهار، أو الاغتيال

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الفتن (٧٠٨٤)، ومسلم في الإمارة (١٨٤٧)، عن حذيفة.

خفية- بالرصاص أو بسياط التعذيب- في جنح الليل. كما صنع بنو إسرائيل بأنبيائهم حين قتلوهم بغير حق، فمنهم مَن ذبحوه بالسكين، ومنهم مَن نشروه بالمنشار، ومنهم مَن تآمروا على قتله وصلبه، فرفعه الله إليه. وحق على قتلة الأنبياء والدعاة إلى الله قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقٍّ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢١ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٢٢﴾ [آل عمران:٢١، ٢٢].

إن هذه المراحل المتدرجة في الانحطاط والفساد يأخذ بعضها بحُجزِ بعض، ويجر بعضها إلى بعض، فالشبهات تجر إلى صغائر المحرّمات، والصغائر تجر إلى الكبائر، والكبائر تجر إلى الكفر، والعياذ بالله.

المهم هو تأكيد هذه الفريضة العظيمة وإحياؤها، وإحياء وظيفة «المحتسب» الذي جسَّد هذه الشعيرة في الحياة العملية، وكان له شأن خطير في مجتمع المسلمين.

وإذا كان بعض الناس في عصرنا يتحدثون عن «الرأي العام» وأثره في الرقابة على رعاية مبادئ الأمة وأخلاقها وآدابها ومصالحها، وتقويم ما يعوجُّ من شؤون حياتها، فإن فريضة الأمر والنهي كفيلة بأن تنشئ الرأي العام الواعي البصير، المستند إلى أقوم المعايير الأخلاقية والأدبية، وأعدلها وأخلدها وأثبتها؛ لأنها معايير مستمَدة من الحق الأزلي الأبدي من الله ﷻ.

كلام الإمام الغزالي في فرضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

وقد ذكر الإمام الغزالي في الإحياء ما يؤيِّد ذلك، فقال: «ويدل على ذلك- بعد إجماع الأمة عليه وإشارات العقول السليمة إليه – الآيات القرآنيَّة، والأحاديث، وإجماع الأمة».

آيات القرآن الدالة على وجوب الأمر والنهي:

أما الآيات، فقد ذكر من الآيات سوى ما قدَّمته من آيتي آل عمران والتوبة والحج الآيات التالية:

١- قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [آل عمران: ١١٣، ١١٤]. فلم يشهد لهم بالصلاح بمجرَّد الإيمان بالله واليوم الآخر، حتى أضاف إليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٢- وقال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩]، وهذا غاية التشديد، إذ علل استحقاقهم للَّعنة بتركهم النهي عن المنكر.

٣- وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأعراف: ١٦٥]. فبيَّن أنهم استفادوا النجاة بالنهي عن السوء. ويدل ذلك على الوجوب أيضًا.

٤- وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة:٢]. وهو أمر جزم، ومعنى التعاون: الحث عليه وتسهيل طرق الخير، وسد سبل الشر والعدوان بحسَب الإمكان.

٥- وقال تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [المائدة: ٦٣] فبيَّن أنهم أثموا بترك النهي.

٦- وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا

مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ [هود:١١٦]. فبيَّن أنه أهلك جميعهم، إلا قليلًا منهم، كانوا ينهون عن الفساد.

٧- وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء:١٣٥]، وذلك هو الأمر بالمعروف، للوالدين والأقربين.

٨- وقال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤].

٩- قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة:٧١]. قال الإمام الغزالي تعليقًا على الآية: أفهمت الآية أن من هجرهما خرج من المؤمنين[(١)].

وقال القرطبي: جعله الله تبارك وتعالى فرقًا بين المؤمنين والمنافقين[(٢)].

وقد نصَّ عدد من الفقهاء ﷺ على أن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يعد من كبائر الذنوب.. ومن أولئك الإمام بدر الدين الزركشي[(٣)] والإمام ابن حجر الهيتمي في كتابه «الزواجر عن اقتراف الكبائر»، حيث عدَّ ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع القدرة من الكبائر[(٤)].

١٠- وقال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي﴾ [الحجرات:٩] الآية.

والإصلاح نهي عن البغي، ودعوة للعودة إلى الطاعة، فإن لم تفعل فقد أمر الله

---

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ٣٠٧).

(٢) تفسير القرطبي (٤/ ٤٧).

(٣) البحر المحيط (٦/ ١٥٥).

(٤) الزواجر (٢/ ٢٧١)، نشر دار الفكر، ط الأولى، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

تعالى بقتالها، فقال: ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾، وذلك هو النهي عن المنكر.

الأحاديث النبويَّة الدالة على وجوب الأمر والنهي:

وكما وجدنا جملة كبيرة من آيات القرآن الدالة بوضوح على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الأمة (أمّة الإسلام) في الفرائض العامة، والمُحرَّمات العامة، التي لا تخفى على أحد، وجدنا عددًا كبيرًا من الأحاديث النبوية انتقيناها ممَّا وضعه الحافظ المنذري في كتابه: «الترغيب والترهيب» تحت عنوان:

«أحاديث الترغيب في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والترهيب من تركهما، والمداهنة فيهما».

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن رأى منكم مُنكَرًا فليُغَيِّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[(١)].

رواه مسلم، عن طريق طارق بن شهاب عن أبي سعيد، وعنده قال: أول من بدأ بالخطبة يوم العيد قبل الصلاة: مروان، فقام إليه رجل، فقال: الصلاة قبل الخطبة، فقال: قد ترك ما هنالك. فقال أبو سعيد: أما هذا فقد قضى ما عليه. أي: لزمه الإنكار فأنكر، ثم روى هذا الحديث.

ورواه الترمذي، وابن ماجه، والنسائي ولفظه: أن رسول الله ﷺ قال: «من رأى منكم مُنكَرا، فغَيَّره بيده فقد بَرِئَ، ومن لم يستطع أن يغيِّره بيده، فغيَّره بلسانه فقد برئ، ومن لم يستطع أن يغيِّره بلسانه فغيَّره بقلبه فقد برئ، وذلك أضعف الإيمان»[(٢)].

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (٤٩)، وأحمد (١١٤٦٠).

(٢) رواه الترمذي في الفتن (٢١٧٢)، والنسائي في الإيمان (٥٠٠٨)، وابن ماجه في الصلاة (١٢٧٥).

وعن عُبادة بن الصامت ﷺ قال: بايَعْنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليُسر، والمنْشَط والمكْرِه، وعلى أَثَرةٍ علينا، وألا نُنَازِع الأمر أهلَه، إلا أن تروا كفرًا بَواحًا عندكم من الله فيه برهان، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم[(١)].

وعن أبي ذر ﷺ، أن أناسًا قالوا: يا رسول الله، ذهب أهلُ الدُّثُور بالأجور، يُصلُّون كما نصلِّي، ويصومون كما نصوم، ويتصدَّقون بفضول أموالهم، قال: «أوَليس قد جعل الله لكم ما تصدَّقون به؟ إنَّ بكل تسبيحة صدقة، وبكل تكبيرة صدقة، وبكل تحميدة صدقة، وبكل تهليلة صدقة، وأمْرٌ بالمعروف صدقة، ونَهْي عن منكرٍ صدقةٌ»[(٢)].

فهذا الحديث يجعل للأمر والنهي مكانة في عبادة المسلم، وطاعته اليومية لله.

وعن أبي عبد الله طارق بن شهاب البَجَلِيّ الأحمسي، أن رجلًا سأل النبي ﷺ، وقد وضع رجله في الغَرْز: أيُّ الجهاد أفضل؟ قال: «كلمة حق عند سلطان جائر»[(٣)].

وإنما كان أفضل الجهاد؛ لأنَّ فيه مخاطرة بالنفس في سبيل الله، أكثر من مخاطرة المقاتل، الذي كثيرًا ما يسلم ويعود بالأجر والغنيمة، ولأن الفساد الداخلي – وبخاصة طغيان الحكام – أشد خطرًا من الغزو الخارجي، فلهذا كانت مقاومته أفضل.

وعن جابر ﷺ عن النبي ﷺ قال: «سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الفتن (٧٠٥٥، ٧٠٥٦)، ومسلم في الإمارة (١٧٠٩)، كما رواه أحمد (٢٢٦٧٩).

(٢) رواه مسلم في الزكاة (١٠٠٦)، وأحمد (٢١٤٦٩)، وابن حبان في النكاح (٤١٦٧).

(٣) رواه أحمد (١٨٨٣٠) وقال مخرجوه: إسناده صحيح، والنسائي في البيعة (٤٢٠٩).

والغَرْز – بفتح الغين المعجمة وسكون الراء بعدهما زاي –: هو ركاب كور الجمل إذا كان من جِلْد أو خشب، وقيل: لا يختص بهما.

قام إلى إمام جائر، فأمره ونهاه، فقتله»(١).

وعن النعمان بن بَشير ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «مثل القائم في حدود الله والواقع فيها، كمَثَل قومٍ استَهَمُوا على سفينة، فصار بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استَقَوْا من الماء مَرُّوا على مَن فوقهم، فقالوا: لو أنَّا خرقنا في نصيبنا خَرْقا، ولم نُؤذِ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نَجَوا، ونجوا جميعًا»(٢).

وهكذا صور الرسول العظيم الأمم أبناء المجتمع الواحد، كأهل السفينة الواحدة، وإن قُسمت إلى طابقين أو أكثر، فلا يجوز لأحد في أيِّ مكان من السفينة أن يُحدث خرقًا فيها، وإن كان دافعه طيبًا: أن يخفف عن الآخرين. فإن أي خرق في السفينة، وإن كان صغيرًا، يؤدي إلى غرقها كلها. فلا يجوز التساهل في ذلك أبدًا.

وعن ابن مسعود ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبيٍّ بَعَثَه الله في أُمَّة قبلي، إلا كان له من أمَّته حواريُّون وأصحاب يأخذون بسنَّته، ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلُفُ من بعدهم خُلوف، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمَن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومَن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومَن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»(٣).

سمَّى الحديث الأمرَ والنَّهيَ جهادًا في سبيل الله، وهو كذلك، لما فيه من إعلاء الخير على الشر، ونشر الفضيلة ضد الرذيلة، ومن قُتِل في سبيل ذلك فهو شهيد.

---

(١) رواه الحاكم في معرفة الصحابة (٣/ ١٩٥) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجها. وقال الذهبي: الصفار لا يُدرى من هو. وصححه الألباني في الصحيحة (٣٧٤).

(٢) رواه البخاري في الشركة (٢٤٩٣)، وأحمد (١٨٣٦١)، والترمذي في الفتن (٢١٧٣).

(٣) رواه مسلم في الإيمان (٥٠)، وأحمد (٤٣٧٩. و(الْحَوَارِيّ): هو الناصر للرجل، والمختص به، والمُعِين، والمُصَافي.

وعن زينب بنت جحش ، أن النبي ﷺ دخل عليها فزعًا يقول: «لا إله إلا الله، ويلٌ للعرب مِن شرٍّ قد اقترب، فُتِح اليوم من رَدْم يأجوج ومأجوج مثل هذه». وحلَّق بين أُصبعيه: الإبهام والتي تليها، فقلت: يا رسول الله، أنهلِك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم، إذا كثر الخبث»(1).

علَّق الرسول هلاك المجتمع وهلاك الأمَّة على كثرة الخبَث، ويعني به: الظلم والشر والفساد. فإذا كثُر الذين يمثلون الخبث والفساد، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً﴾ [الأنفال:٢٥].

وعن عائشة قالت: قلتُ: يا رسول الله، إن الله إذا أنزل سطوته بأهل الأرض، وفيهم الصالحون، فيهلكون بهلاكهم؟ فقال: «يا عائشة، إن الله ﷻ إذا أنزل سطوته بأهل نقمته، وفيهم الصالحون، فيصيرون معهم، ثم يُبْعَثون على نيَّاتهم»(2).

والله سبحانه هو الذي يعلم النيَّات، فمن كان من أهل الإيمان والصدق ظهر ذلك في نيَّته وأُثيب عليها، ومن كان عكس ذلك، عرفه الله تعالى، وعرَّف به ملائكته، فنال ما يستحقُّه من عقاب.

وعن حُذيفة ، عن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لتأمُرُنَّ بالمعروف، ولتنْهَونَّ عن المنكر، أو ليوشكنَّ الله أن يبعث عليكم عذابًا منه، ثم تدعونه فلا يستجيب لكم»(3).

---

(1) متفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٤٦)، ومسلم في الفتن (٢٨٨٠)، كما رواه أحمد (٢٧٤١٣).

(2) رواه ابن حبان في مناقب الصحابة (٧٣١٤) وقال الأرناؤوط: صحيح لغيره، وأصل الحديث متفق عليه: رواه البخاري في البيوع (٢١١٨)، ومسلم في الفتن (٢٨٨٤). ولفظه عند البخاري: «يغزو جيش الكعبة، فإذا كانوا ببيداء من الأرض، يخسف بأولهم وآخرهم» قالت: قلت: يا رسول الله، كيف يخسف بأولهم وآخرهم، وفيهم أسواقهم، ومن ليس منهم؟ قال: «يخسف بأولهم وآخرهم، ثم يبعثون على نياتهم».

(3) رواه أحمد (٢٣٣٠١) وقال مخرجوه: حسن لغيره، والترمذي في الفتن (٢١٦٩)، وقال: حديث حسن غريب.

إذًا ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كان دليلًا على غضب الله على الجماعة، ولم ينفعهم دعاء الصالحين لهم.

وعن قيس بن أبي حازم قال: قام أبو بكر ﷺ، فحمد الله ﷻ وأثنى عليه، فقال: يا أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ [المائدة:١٠٥]. وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر، ولا يغيِّروه[1]، أوشك الله أن يعمهم بعقابه»[2].

وفي رواية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من قوم يُعمل فيهم بالمعاصي، ثم يقدرون على أن يغيِّروا، ثم لا يغيِّروا إلا يوشك أن يعمَّهم الله منه بعقاب»[3].

وقد دلَّنا هذا الحديث على ضرورة الربط بين القرآن والسنة، حتى لا نسيء فهم القرآن.

والاستدلال بقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝١٠٥﴾ [المائدة:١٠٥] على ترك الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هو من ضرب النصوص الشرعية بعضها ببعض، ووضع لهذه الآية في غير موضعها، فإن الله تعالى قال في الآية: ﴿إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾. ومن الهداية: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأخذ على يد الظالم، فإن فعل المسلم كل ذلك فلا يضرُّه من ضلَّ.

---

(١) كذا هي بحذف النون.

(٢) رواه أحمد (٥) وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين. والترمذي في التفسير (٣٠٥٧)، والنسائي في الكبرى في التفسير (١١٠٩٢)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٠٥)، وابن حبان في البر والإحسان (٣٠٤). وهو من أشهر أحاديث أبي بكر، فيا عجبًا كيف نسيه الحافظ المنذري ولم يعزه إليه في الترغيب والترهيب.

(٣) رواه أبو داود في الملاحم (٤٣٣٨)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٣١٧).

وعن أبي كثير السُّحَيمي، عن أبيه قال: سألتُ أبا ذر، قلتُ: دُلَّني على عمل إذا عمل العبد به دخل الجنة. قال: سألتُ عن ذلك رسول الله ﷺ، قال: «تؤمن بالله واليوم الآخر». قلتُ: يا رسول الله، إنَّ مع الإيمان عملًا؟ قال: «يرضخ مما رزقه الله». قلت: يا رسول الله، أرأيت إن كان فقيرًا لا يجد ما يرضخ به؟ قال: «يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر». قال: قلت: يا رسول الله، أرأيت إن كان عَيِيًّا لا يستطيع أن يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر؟ قال: «يصنع لأخرق». قلت: أرأيت إن كان أخرق لا يستطيع أن يصنع شيئًا؟ قال: «يعين مغلوبًا». قلتُ: أرأيت إن كان ضعيفًا لا يستطيع أن يعين مغلوبًا؟ قال: «ما تريد أن يكون في صاحبك من خير! يمسك عن أذى الناس».

فقلتُ: يا رسول الله، إذا فعل ذلك دخل الجنة؟ قال: «ما من مسلم يفعل خَصلة من هؤلاء إلا أَخَذتْ بيده حتى تدخله الجنة»[1].

هذا الحديث يدعو المسلم مهما يكن ضعيفًا في قدرته الماليَّة أو المهنيَّة أو الجسديَّة، أن يُؤدِّي ما يستطيع لخدمة المجتمع ولرفعته ونمائه، إسهامًا منه في خيره، فإن لم يستطع فعليه أن يمسك عن أذى الناس، حتى يمكنه دخول الجنة.

وعن حذيفة ﷺ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «تُعرض الفتن على القلوب كالحصير عُودًا عُودًا، فأيّ قلب أُشربها نُكِتت فيه نُكْتة سوداء، وأيُّ قلب أنكرها نُكِتت فيه نُكْتة بيضاء، حتى تصير على قَلبين: على أبيضَ مثل الصَّفا، فلا تضرُّه فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مُربادًّا كالكوز مُجَخِّيًا لا يعرف معروفًا،

(١) رواه الطبراني في الكبير (٢/ ١٥٦)، وابن حبان في البر والإحسان (٣٧٣)، والحاكم في الإيمان (١/ ٦٣)، وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني لغيره في الصحيحة (٢٦٦٨).

ولا ينكر منكرًا، إلا ما أُشرِب من هواه»[1].

فذكر في وصف صاحب القلب الأسود المرباد أنه لا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكرًا.

ومعنى الحديث: أن القلب إذا افتُتِن، وخرجت منه حرمة المعاصي والمنكرات، خرج منه نور الإيمان، كما يخرج الماء من الكوز إذا مال أو انتكس.

وعن عبد الله بن عمرو ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «إذا رأيتَ أمَّتي تهاب أن تقول للظالم: يا ظالم. فقد تُوُدِّع منهم»[2].

أي: استوى وجودهم وعدمهم، أو تُركوا وخُذلوا وحُرموا من تأييد الله تعالى. فهو لا يريد من المسلم الاستكانة، ولكنه يُجرِّئه على أن يرفع رأسه، ويعلي صوته، في وجه الظالم المتجبِّر في الأرض. والله معه، والمؤمنون معه، والملائكة بعد ذلك ظهير.

وعن عُرْس بن عَميرة الكِندي ﷺ: أن النبيَّ ﷺ قال: «إذا عُملت الخطيئة في الأرض، كان مَنْ شهدها وكرهها- وفي رواية: فأنكرها- كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها»[3].

ومعنى هذا: أن أخطر الأشياء هو الرضا بالمعصية، فمن رضيَها ولو كان غائبًا عنها، كان كمن شهدها وشارك فيها، أما من شهدها، ولكنه كرهها وأنكرها بلسانه أو بقلبه على قدر استطاعته، كان كمن غاب عنها.

---

(1) رواه مسلم في الإيمان (١٤٤). وقوله: مُجَخِّيًا- هو بميم مضمومة، ثم جيم مفتوحة، ثم خاء معجمة مكسورة -: يعني مائلًا، وفسره بعض الرواة بأنه المنكوس.

(2) رواه أحمد (٦٧٨٤) وقال مخرجوه: إسناده ضعيف لانقطاعه، والحاكم في الأحكام (٤/ ٩٦) وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، والبزار (٢٣٧٥)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢١١٠): رواه أحمد والبزار بإسنادين، ورجال أحد إسنادي البزار رجال الصحيح، وكذلك رجال أحمد.

(3) رواه أبو داود في الملاحم (٤٣٤٥)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٣٢٣).

وعن ابن عباس ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «ليس مِنَّا من لم يرحم صغيرنا، ويُوقِّر كبيرنا، ويأمر بالمعروف، ويَنْهَ عن المنكر»[(1)].

دلَّ هذا الحديث على أمور مهمة من مقومات المجتمع المسلم، مَن حافظ عليها، كان جزءًا من هذا المجتمع، ومن أضاعها، فلا يجوز أن يعدَّ نفسه من هذا المجتمع، ويبرأ الرسول منه. من هذه الأساسيات: رحمة الصغير، وتوقير الكبير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

من ترك هذه الأمور، فقد قال رسولنا: ليس منا، ليحاول أن يستعيد حياته الإسلامية، وصلته الربَّانية والمحمديَّة.

دلالة هذه الأحاديث على وجوب إنكار المنكر بحسب القدرة عليه:

هذه الأحاديث وغيرها تدل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد ذكر الإمام ابن رجب بعضًا منها وذكر غيرها في «جامع العلوم والحكم» ثم قال الإمام: «فدلَّت هذه الأحاديث كلها على وجوب إنكار المنكر بحسب القدرة عليه، وأن إنكاره بالقلب لا بد منه، فمن لم ينكر قلبه المنكر، دلَّ على ذهاب الإيمان من قلبه.

وقد رُوي عن أبي جُحيفة، قال: قال علي: إن أول ما تُغلبون عليه من الجهاد: الجهاد بأيديكم، ثم الجهاد بألسنتكم، ثم الجهاد بقلوبكم، فمن لم يعرف قلبُه المعروفَ، وينكر قلبُه المنكرَ، نُكِس فجعل أعلاه أسفله[(2)].

وسمع ابن مسعود رجلًا يقول: هلك من لم يأمر بالمعروف، ولم ينْه عن المنكر، فقال ابن مسعود: هلك من لم يعرف بقلبه المعروف والمنكر[(3)]. يشير إلى أن معرفة

(1) رواه أحمد (٢٣٢٩) وقال مخرجوه: صحيح لغيره، والترمذي في البر والصلة (١٩٢١) وقال: حسن صحيح. وابن حبان في البر والإحسان (٤٥٨).

(2) رواه ابن أبي شيبة في الفتن (٣٨٧٣٣).

(3) رواه نعيم بن حماد في الفتن (٤١١)، وابن أبي شيبة في الفتن (٣٨٧٣٦).

المعروف والمنكر بالقلب فرض لا يسقط عن أحد، فمن لم يعرفه هلك.

الإنكار باليد واللسان بحسب الطاقة:

وأما الإنكار باللسان واليد، فإنما يجب بحسب الطاقة، وقال ابن مسعود: يوشك مَن عاش منكم أن يرى منكرًا لا يستطيع له غير أن يعلم الله من قلبه أنه له كاره[(١)] . . .

الإنكار بالقلب فرضٌ على كل مسلم في كل حال:

فتبيَّن بهذا أن الإنكار بالقلب فرضٌ على كل مسلم، في كل حال، وأما الإنكار باليد واللسان فبحسب القدرة، كما في حديث أبي بكر الصدِّيق ﷺ عن النبي ﷺ، قال: «ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي، ثم يقدرون على أن يغيِّروا، فلا يغيِّروا، إلا يوشك أن يعمَّهم الله بعقاب». أخرجه أبو داود بهذا اللفظ، وقال: قال شعبة فيه: «ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي هم أكثر ممن يعمله»[(٢)].

وخرَّج أيضًا من حديث جرير: سمعت النبيَّ ﷺ يقول: «ما من رجل يكون في قوم يَعمَل فيهم بالمعاصي، يقدرون أن يغيِّروا عليه، فلا يُغيِّرون، إلا أصابهم الله بعقاب قبل أن يموتوا»[(٣)].

وخرَّجه الإمام أحمد، ولفظه: «ما من قوم يُعمَل فيهم بالمعاصي هم أعزُّ وأكثر ممن يعمله، فلم يغيِّروه، إلا عمَّهم الله بعقاب»[(٤)].

وخرَّج أيضًا من حديث عديّ بن عَميرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن

(١) رواه ابن أبي شيبة في الفتن (٣٨٧٣٧).

(٢) رواه أبو داود في الملاحم (٤٣٣٨)، والترمذي في التفسير (٢١٦٨) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه في الفتن (٤٠٠٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٩٧٣).

(٣) رواه أبو داود في الملاحم (٤٣٣٩)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٠٩)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٣٣٥٣).

(٤) رواه أحمد (١٩٢٥٣) وقال مخرجوه: إسناده حسن.

الله لا يعذِّب العامَّة بعمل الخاصَّة، حتى يَروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه، فلا ينكرونه، فإذا فعلوا ذلك، عذَّب الله الخاصَّة والعامَّة»[(١)].

وعن أبي سعيد الخدري، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن الله ليسأل العبد يوم القيامة، حتى يقول: ما منعك إذا رأيتَ المنكر أن تنكره؟ فإذا لقَّن الله عبدًا حجَّته، قال: يا رب، رجوتك، وفَرِقْتُ الناس»[(٢)].

وعن أبي سعيد أيضًا، عن النبي ﷺ أنه قال في خطبته: «ألا لا يمنعنَّ رجلًا هيبةُ الناس أن يقول بحق إذا علمه»[(٣)]. وبكى أبو سعيد، وقال: قد والله رأينا أشياء، فهبنا.

وهذا الحديث محمول على أن يكون المانع له من الإنكار مجرَّدَ الهيبة، دون الخوف المسقط للإنكار.

أمر السلطان بالمعروف ونهيه عن المنكر:

قال سعيد بن جبير: قلت لابن عباس: آمرُ السلطانَ بالمعروف، وأنهاه عن المنكر؟ قال: إن خفت أن يقتلك، فلا. ثم عدت، فقال لي مثل ذلك، ثم عدتُ، فقال لي مثل ذلك، وقال: إن كنت لا بد فاعلًا، ففيما بينك وبينه[(٤)].

وقال طاوس: أتى رجلٌ ابنَ عباس، فقال: ألا أقوم إلى هذا السلطان، فآمره وأنهاه؟ قال: لا تكن له فتنة. قال: أفرأيتُ إن أمرني بمعصية الله؟ قال: ذلك الذي تريد،

---

(١) رواه أحمد (١٧٧٢٠) وقال مخرجوه: حسن لغيره، وابن أبي شيبة في مسنده (٥٨٦)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٤٣١).

(٢) رواه أحمد (١١٢٤٥) وقال مخرجوه: إسناده حسن. وابن ماجه في الفتن (٤٠١٧)، وعبد بن حميد (٩٧٤)، وأبو يعلى (١٣٤٤)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٢٤٤).

(٣) رواه والترمذي (٢١٩١) وحسَّنه، وابن ماجه (٤٠٠٧)، كلاهما في الفتن، وصحَّحه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٢٣٧).

(٤) رواه سعيد بن منصور في التفسير (٤/ ١٦٥٧)، وابن أبي الدنيا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٨٠)، والبيهقي في الشعب (٧١٨٦).

فكن حينئذٍ رجلًا[(١)] . . .

وعن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم إنها يخلف من بعدهم خُلوف، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يأمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»[(٢)] الحديث، وهذا يدل على جهاد الأمراء باليد.

وقد استنكر الإمام أحمد هذا الحديث في رواية أبي داود، وقال: هو خلاف الأحاديث التي أمر رسول الله ﷺ فيها بالصبر على جَور الأئمة.

وقد يجاب عن ذلك: بأن التغيير باليد لا يستلزم القتال. وقد نصَّ على ذلك أحمد أيضًا في رواية صالح، فقال: التغيير باليد ليس بالسيف والسلاح. وحينئذٍ فجهاد الأمراء باليد: أن يُزيل بيده ما فعلوه من المنكرات، مثل أن يُريق خمورهم، أو يكسر آلات الملاهي [أي: المحرّمة] التي لهم، ونحو ذلك، أو يُبطل بيده ما أمروا به من الظلم إن كان له قدرة على ذلك، وكل هذا جائز، وليس هو من باب قتالهم، ولا من الخروج عليهم الذي ورد النهي عنه، فإن هذا أكثر ما يخشى منه أن يقتل الآمر وحده»[(٣)].

تخشين القول ومنع المنكر بالقهر حق للحاكم وليس للرعية:

وأنقل هنا ما قاله أبو حامد الغزالي في إحيائه والذي يتوافق مع ما قاله ابن رجب الحنبلي، قال الإمام الغزالي مُبيِّنًا درجات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: «أوله: التعريف. وثانيه: الوعظ. وثالثه: التخشين في القول. ورابعه: المنع بالقهر في الحمل

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (١٠٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧١٨٧).

(٢) رواه مسلم في الإيمان (٥٠).

(٣) جامع العلوم والحكم (٢/ ٢٤٥- ٢٤٩).

على الحق بالضرب والعقوبة. والجائز من جملة ذلك مع السلاطين الرتبتان الأُوليان، وهما التعريف والوعظ.

وأما المنع بالقهر، فليس ذلك لآحاد الرعيَّة مع السلطان، فإن ذلك يحرِّك الفتنة، ويُهيِّج الشر، ويكون ما يتولَّد منه من المحذور أكثر.

وأما التخشين في القول كقوله: يا ظالم. يا من لا يخاف الله. وما يجري مجراه، فذلك إن كان يحرك فتنة يتعدَّى شرها إلى غيره لم يجز، وإن كان لا يخاف إلا على نفسه، فهو جائز، بل مندوب إليه. فلقد كان من عادة السلف التعرض للأخطار، والتصريح بالإنكار، من غير مبالاة بهلاك المُهجة، والتعرض لأنواع العذاب، لعلمهم بأن ذلك شهادة»[1].

الخروج بالسيف على الحكام:

قال الحافظ ابن رجب: «وأما الخروج عليهم بالسيف، فيُخشى منه الفِتنُ التي تُؤدِّي إلى سفك دماء المسلمين. نعم، إنْ خشي في الإقدام على الإنكار على الملوك: أن يؤذي أهلَه أو جيرانه، لم ينبَغِ له التعرُّض لهم حينئذٍ، لما فيه من تعدِّي الأذى إلى غيره، كذلك قال الفضيل بن عياض وغيره. ومع هذا، فمتى خاف منهم على نفسه السيف أو السوط، أو الحبس، أو القيد، أو النفي، أو أخذ المال، أو نحو ذلك من الأذى، سقط أمرُهم ونهيُهم، وقد نصَّ الأئمة على ذلك، منهم: مالك وأحمد وإسحاق وغيرهم.

قال أحمد: لا يُتعرَّض للسلطان، فإن سيفَه مسلول.

وقال ابن شُبرمة: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر كالجهاد، يجب على الواحد أن يصابر فيه الاثنين، ويَحْرُم عليه الفرارُ منهما، ولا يجب عليهم مصابرة أكثر من ذلك.

---

(١) الإحياء (٢/ ٣٤٣).

فإن خاف السَّبَّ، أو سماعَ الكلام السيء، لم يسقط عنه الإنكار بذلك. نصَّ عليه الإمام أحمد.

وإن احتمل الأذى، وقَوِي عليه، فهو أفضل، نصَّ عليه أحمد أيضًا.

وقيل له: أليس قد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «ليس للمؤمن أن يُذِلَّ نفسه» أن يعرّضها من البلاء لما لا طاقة له به»[1]؟ قال: ليس هذا من ذلك.

ويدلُّ على ما قاله ما خرّجه أبو داود، وابن ماجه، والترمذي من حديث أبي سعيد عن النبي ﷺ، قال: «أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»[2]. وخرَّج ابن ماجه معناه من حديث أبي أمامة[3]»[4].

وأقول هنا: إن الخروج على الحكام المنهي عنه في الأحاديث، وفي كلام الفقهاء، إنما هو الخروج المسلح، أما طرق المعارضة الأخرى (أو الإنكار بالاصطلاح الشرعي) من العصيان المدني والمظاهرات والمعارضة السياسية وغيرها، فليست من المنهي عنه في الأحاديث.

الحافظ ابن رجب يرى سقوط الأمر والنهي عند عدم القبول والانتفاع به:

قال الحافظ ابن رجب: «وقد ورد ما يُستدلُّ به على سقوط الأمر والنهي عند عدم القبول والانتفاع به.

ففي سُنَن أبي داود، عن عبد الله بن عمرو قال: بينما نحن حول رسول الله ﷺ، إذ ذكر الفتنة، فقال: «إذا رأيتم الناس مَرَجَتْ عهودهم، وخفَّت أماناتهم، وكانوا

---

(١) رواه أحمد (٢٣٤٤٤) وقال مخرجوه: إسناده ضعيف، والترمذي (٢٢٥٤) وقال: حسن غريب. وابن ماجه (٤٠١٦)، كلاهما في الفتن، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٢٤٣).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه ابن ماجه في الفتن (٤٠١٢)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٣٠٧): حسن صحيح.

(٤) جامع العلوم والحكم (٢/ ٢٤٩، ٢٥٠).

هكذا». وشبَّك بين أصابعه، فقمت إليه، فقلتُ: كيف أفعل عند ذلك، جعلني الله فداك؟ قال: «الزم بيتك، واملك عليك لسانك، وخذ بما تعرف، ودع ما تنكر، وعليك بأمر خاصَّة نفسك، ودع عنك أمر العامَّة»(١).

وكذلك رُوي عن طائفة من الصحابة في قوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة:١٠٥]. قالوا: لم يأتِ تأويلُها بعد، إنما تأويلها في آخر الزمان(٢).

وعن ابن مسعود، قال: إذا اختلفت القلوب والأهواء، وأُلبِستم شِيَعًا، وذاق بعضكم بأس بعض، فيأمر الإنسان حينئذٍ نفسَه، حينئذٍ تأويل هذه الآية(٣).

وعن ابن عمر، قال: هذه الآية لأقوام يجيئون من بعدنا، إن قالوا لم يُقبل منهم(٤).

وقال جبير بن نُفَير، عن جماعة من الصحابة، قالوا: إذا رأيت شُحًّا مطاعًا وهوًى متَّبعًا، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بنفسك، لا يضرُّك من ضلَّ إذا اهتديت(٥).

وعن مكحول، قال: لم يأتِ تأويلها بعد، إذا هاب الواعظ، وأنكر الموعوظ، فعليك حينئذٍ بنفسك، لا يضرك من ضلَّ إذا اهتديت(٦).

وعن الحسن: أنه كان إذا تلا هذه الآية، قال: يا لها من ثقة ما أوثقها! ومن سعة ما أوسعها(٧)!

---

(١) رواه أحمد (٦٥٠٨) وقال مخرجوه: حديث صحيح، وأبو داود في الملاحم (٤٣٤٢)، وابن ماجه (٣٩٥٧)، والحاكم في الفتن (٤/ ٤٣٥)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، كلاهما في الفتن.

(٢) رواه الطبري في تفسيره (١١/ ١٤٢).

(٣) رواه القاسم بن سلام في الناسخ والمنسوخ (٥٢٦).

(٤) رواه الطبري في تفسيره (١١/ ١٣٩).

(٥) المصدر السابق (١١/ ١٤٢، ١٤٣).

(٦) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٥/ ١٧٩).

(٧) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٢١٨) لعبد بن حميد وأبي الشيخ.

وهذا كله قد يُحمل على أن مَن عجز عن الأمر بالمعروف، أو خاف الضرر، سقط عنه.

وكلام ابن عمر يدل على أن من علم أنه لا يُقبل منه لم يجب عليه، كما حُكي روايةً عن أحمد، وكذا قال الأوزاعيُّ: مُرْ من ترى أن يقبل منك»[1].

لا يسقط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعدم الاستجابة:

ولكن بعض العلماء يرى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يسقط على مَن علم أو غلبه الظن بعدم استجابة المأمور بالمعروف أو المنهي عن المنكر، بل يجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لطلب رضا الله ﷻ، وإحياءً لهذه الشعيرة، ولتحجيم المنكر وتقليله، ولأنه أيضًا من الذكرى النافعة للمؤمنين التي ربما تؤثر ولو بعد حين، كما أن القيام به عذر أمام الله. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [الأعراف:١٦٤].

والمطلوب من المسلم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الخير، ولو لم تتحقق النتائج المرجوة، إذ لو كانت الاستجابة شرطًا لما تعيَّن الإنكار القلبي على كل مسلم.

قال النووي: «قال العلماء ﷺ ولا يسقط عن المكلَّف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكونه لا يفيد في ظنه، بل يجب عليه فعله، فإن الذكرى تنفع المؤمنين، وقد قدمنا أن الذي عليه: الأمر والنهي، لا القبول»[2].

---

(١) جامع العلوم والحاكم (٢/ ٢٥٢، ٢٥٣).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٢/ ٢٣).

الإنكار باليد والتغيير بالقوة المادية:

الإنكار باليد إذا لم تخشَ منه مفسدة راجحة ليس مختصًّا بالحاكم، وهو قول جمهور العلماء، بل ادَّعى عليه الإجماع ابن عبد البر والجُوَيني، وقد دلَّ على ذلك الكتابُ والسُّنَّةُ، فقد قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤]: «المقصودُ مِنْ هذه الآية أنْ تكونَ فِرْقةٌ من هذه الأمَّةِ مُتصدِّيةً لهذا الشأنِ، وإن كان ذلك واجبًا على كلِّ فردٍ من الأمَّةِ بحسبِه، كما ثبتَ في صحيح مسلم، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده..». ثم ساق الحديث»[١].

وقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

قال أبو بكرٍ الجصَّاصُ بعد أن ذكرَ طائفةً من الآياتِ في هذا الصَّددِ: «فهذه الآي ونظائرُها مُقتضيةٌ لإيجابِ الأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المُنكر، وهي على منازلَ أولها: تغييرُه باليدِّ إذا أمكن فإذا لم يمكن وكان في نفسِه خائفًا على نفسِه إذا أنكرَ بيدِه، فعليه إنكارُه بلسانِه، فإن تعذَّرَ ذلك لما وصفنا فعليه إنكاره بقلبِه»[٢].

وقال ابنُ عبد البرِّ ﷺ: «وأجمع المسلمون على أنَّ تغيير المنكر واجبٌ على من قَدِرَ عليه، وإنَّه إذا لم يلحقه بتغييرِه إلَّا اللَّوم الذي لا يتعدَّى إلى الأذى، فإنَّ ذلك لا يجبُ أن يمنعه، فإن لم يقدرْ فبلسانِه، فإن لم يقدرْ فبقلبِه، ليس عليه أكثر من ذلك، وإذا

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٧٨) ط العلمية، والحديث في صحيح مسلم برقم (٤٩) من حديث أبي موسى الأشعري، قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله: وهم الحافظ ابن كثير وهما شديدا، فحديث: «من رأى منكم منكرا» هو حديث أبي موسى.

(٢) أحكام القرآن للجصاص (٢/ ٣٨) ط العلمية.

أنكر بقلبه فقد أدَّى ما عليه إذا لم يستَطِعْ سوى ذلك»[1].

وقال ابن عطية في «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز»: «والناس في تغيير المنكر والأمر بالمعروف على مراتب:

ففرض العلماء فيه: تنبيه الحكام والولاة، وحملهم على جادة العلم.

وفرض الولاة: تغييره بقوتهم وسلطانهم، ولهم هي اليد.

وفرض سائر الناس: رفعه إلى الحكام والولاة بعد النهي عنه قولًا. وهذا في المنكر الذي له دوام، وأما إن رأى أحد نازلة بديهة من المنكر، كالسلب والزنى ونحوه، فيغيرها بنفسه بحسب الحال والقدرة، ويحسن لكل مؤمن أن يحتمل في تغيير المنكر وإن ناله بعض الأذى»[2].

لكن ينبغي أن يُعلم أن التغيير باليد منوط بالقدرة، ومتعلِّق بالموازنة بين المصلحة والمفسدة، فلا يكون إنكاره مؤدِّيا لمنكر آخر أكبر منه، فلا ينكر المنكر إذا كان إنكاره يؤدي إلى مفسدة أرجح، وغالبًا ما يكون تصدِّي آحاد الناس لإنكار المنكر باليد مؤديًا إلى مفاسد راجحة، كما أنه لا يجوز إتلاف ما يستعمله مرتكب المنكر في وجه مباح، ولا إفساد ماله المحترم لما في ذلك من إضاعة المال.

فإذا ترتب عليه منكر أكبر، فلا يجوز عندئذ الإنكار باليد.

قال ابن القيم في «إعلام الموقعين»: «إنكار المنكر أربع درجات:

الأولى: أن يزول ويخلفه ضده.

الثانية: أن يقل وإن لم يزل بجملته.

الثالثة: أن يخلفه ما هو مثله.

الرابعة: أن يخلفه ما هو شرٌّ منه.

---

(١) التمهيد (٢٣/ ٢٨١).

(٢) المحرر الوجيز (١/ ٤٨٦)، ط. دار الكتب العلمية – بيروت، ط. الأولى – ١٤٢٢هـ.

فالدرجتان الأوليان مشروعتان، والثالثة موضع اجتهاد، والرابعة محرَّمة»[1].

شروط تغيير المنكر باليد:

لتغيير المنكر شروط يجب أن يعلمها من يغير المنكر، أذكر منها ما ذكرته في كتابي: «فتاوى معاصرة» حيث قلت:

«كل ما هو مطلوب من الفرد المسلم، أو الفئة المسلمة، أن يراعي الشروط التي لا بد منها عند التغيير.

الشرط الأول: أن يكون مُحرَّمًا مجمعًا عليه:

أي أن يكون «منكرًا» حقًّا، ونعني هنا: المنكر الذي يطلب تغييره باليد أولًا، ثم باللسان، ثم بالقلب عند العجز.

ولا يطلق «المنكر» إلا على «الحرام» الذي طلب الشارع تركه طلبًا جازمًا، بحيث يستحق عقاب الله من ارتكبه. وسواء أكان هذا الحرام فِعْلَ محظور، أم تَرْكَ مأمور.

وسواء أكان الحرام من الصغائر، أم من الكبائر، وإن كانت الصغائر قد يتساهل فيها ما لا يتساهل في الكبائر، ولا سيما إذا لم يُواظَب عليها، وقد قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء:٣١].

وقال ﷺ: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات لما بينهن، إذا اجتنبت الكبائر»[2].

فلا يدخل في المنكر - إذن - المكروهات، أو ترك السنن والمستحبَّات، وقد صحَّ في أكثر من حديث أن رجلًا سأل النبي ﷺ عما فرض الله عليه في الإسلام، فذكر

---

(١) إعلام الموقعين (٣/ ١٢)، نشر دار الكتب العلمية - بيروت، ط الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

(٢) رواه مسلم في الطهارة (٢٣٣)، وأحمد (٩١٩٧)، عن أبي هريرة.

له الفرائض من الصلاة والزكاة والصيام، وهو يسأل بعد كل منها: هل عليّ غيرها؟ فيجيبه الرسول الكريم: «لا، إلا أن تطّوع» حتى إذا فرغ منها، قال الرجل: والله يا رسول الله، لا أزيد على هذا ولا أنقص، منه فقال عليه الصلاة والسلام: «أفلح إن صدق، أو دخل الجنة إن صدق»[1].

وفي حديث آخر: «مَن سرَّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة، فلينظر إلى هذا»[2].

لا بد- إذن- أن يكون المنكر في درجة «الحرام»، وأن يكون منكرًا شرعيًّا حقيقيًّا، أي ثبت إنكاره بنصوص الشرع المحكمة، أو قواعده القاطعة، التي دلَّ عليها استقراء جزئيات الشريعة.

وليس إنكاره بمجرَّد رأي أو اجتهاد، قد يصيب وقد يُخطئ، وقد يتغيَّر بتغيُّر الزمان والمكان والعرف والحال.

وكذلك يجب أن يكون مُجْمَعًا على أنه منكر، فأما ما اختلف فيه العلماء المجتهدون قديمًا أو حديثًا، بين مجيز ومانع، فلا يدخل دائرة «المنكر» الذي يجب تغييره باليد، وخصوصًا للأفراد.

فإذا اختلف الفقهاء في حكم التصوير، أو الغناء بآلة، وبغير آلة، أو في كشف وجه المرأة وكفَّيها، أو في تولي المرأة القضاء ونحوه، أو في إثبات الصيام والفطر برؤية الهلال في قطر آخر، بالعين المجرَّدة، أو بالمرصد أو بالحساب أو غير ذلك من القضايا التي طال فيها الخلاف قديمًا وحديثًا. لم يجُز لإنسان مسلم، أو لطائفة مسلمة أن تتبنى رأيًا من الرأيين، أو الآراء المختلف فيها، وتحمل الآخرين عليه بالعنف.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٦)، ومسلم (١١)، كلاهما في الإيمان، كما رواه أحمد (١٣٩٠)، وأبو داود في الصلاة (٣٩١)، عن طلحة بن عبيد الله.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الزكاة (١٣٩٧)، ومسلم في الإيمان (١٤)، كما رواه وأحمد (٨٣٩٥)، عن أبي هريرة.

حتى رأي الجمهور والأكثريَّة، لا يسقط رأي الأقل، ولا يُلغي اعتباره، حتى لو كان المخالف واحدًا، ما دام من أهل الاجتهاد، وكم من رأي مهجور في عصر ما، أصبح مشهورًا في عصر آخر.

وكم ضُعِّف رأي لفقيه، ثم جاء مَن صحَّحه ونصره وقوَّاه، فأصبح هو المعتمد والمفتى به.

وهذه آراء شيخ الإسلام ابن تيمية ومدرسته، في الطلاق وأحوال الأسرة، قد لقي من أجلها ما لقي في حياته، وظلت تقاوم قرونًا عدَّة بعد وفاته، ثم هيَّأ الله لها في عصرنا مَن نشرها وأيَّدها، حتى غدت عمدة الإفتاء والقضاء والتقنين في كثير من الأقطار الإسلامية.

إن المنكر الذي يجب تغييره بالقوة لا بد أن يكون منكرًا بيِّنًا ثابتًا، اتفق أئمة المسلمين على أنه منكر، وبدون ذلك يفتح باب شر لا آخر له، فكل من يرى رأيًا يريد أن يحمل الناس عليه بالقوة!

في بعض الأقطار الإسلامية قام مجموعة من الفتيان المتحمسين لتحطيم المحلات التي تبيع الدمى «العرائس واللعب» للأطفال؛ لأنها أصنام، وصور مجسَّمة تعتبر من أكبر الكبائر!

ولما قيل لهم: إنَّ العلماء من قديم أجازوا لعب الأطفال، لما فيها من امتهان الصورة، وانتفاء تعظيمها.. إلخ، قالوا: كان هذا في صور غير هذه الصور المتقنة التي تفتح عينيها وتغلقها.

قيل لهم: ولكن الطفل يرمي بها يمينًا وشمالًا، ويخلع ذراعها ورجلها، ولا يمنحها أي قدر من التعظيم أو التقديس. لم يجدوا جوابًا!

وفي بلاد إسلامية أخرى قام بعض الشباب يحاول أن يغلق المطاعم ومحلات العصير والقهوة ونحوها بالقوة، حين أعلنت بعض الأقطار الإسلامية بدء الصيام،

ورؤية الهلال، فرأى هؤلاء المتحمسون أن رمضان قد ثبت، فلا يجوز المجاهرة بالإفطار.

ومثل ذلك ما قام به بعض الشباب المسلم الغيور في مصر في أحد أعياد الفطر حيث ترجَّح لدى الجهات الشرعيَّة في مصر عدم ثبوت شهر شوال لاعتبارات شتى منها: قطع الفلك أن من المستحيل رؤية الهلال تلك الليلة. ولم يُر الهلال في مصر. ولكن بعض الأقطار أعلنت رؤية الهلال، فأصرَّ هؤلاء على أن يفطروا ويقيموا شعائر العيد وحدهم، ضد الدولة، وأغلبيَّة الأمة، وحدث من جراء ذلك صدام مع أجهزة الأمن لا مبرِّر له.

ورأيي أن هؤلاء وأولئك أخطؤوا من جملة أوجه:

الأول: أن الفقهاء مختلفون في طريق إثبات الهلال، فمنهم مَن اكتفى بشاهد واحد، ومنهم من طلب شاهدين، ومنهم من اشترط في حالة الصحو شهادة الجمع الغفير، ولكلٍّ أدلته ووجْهته. فلا يجوز إجبار الناس على مذهب واحد، من غير ذي سلطة.

الثاني: أنهم اختلفوا كذلك في مسألة اعتبار اختلاف المطالع أو عدم اعتباره. وفي عدد من المذاهب: أن لكل بلد رؤيته، ولا يلزم بلد برؤية بلد آخر، وهو مذهب ابن عباس ومن وافقه، كما هو معروف من حديث كريب في صحيح مسلم[(١)].

الثالث: أن من المقرَّر في الفقه: أن حكم الإمام أو القاضي في الأمور الخلافية يرفع الخلاف، ويلزم الأمة اتباعه. ولهذا إذا أخذت السلطات الشرعيَّة بقول إمام أو اجتهاد مذهب في هذه القضايا فالواجب اتِّباعها، وعدم تفريق الصف.

وقد قلت في بعض ما أفتيت به: إذا لم نصل إلى وحدة المسلمين جميعًا في الصيام

(١) رواه مسلم في الصيام (١٠٨٧)، وأحمد (٢٧٨٩)، وأبو داود في الصيام (٦٩٣).

والفطر، فعلى الأقل يجب أن يتَّحد أهل البلد الواحد في شعائرهم، فلا يقبل بحال أن ينقسم أهل البلد الواحد إلى فريقين: فريق صائم وفريق مفطر.

ولكن هذا الخطأ في الاجتهاد من شباب مخلصين لا يقاوم بالرصاص، بل بالإقناع»[1].

الشرط الثاني: ظهور المنكر

أي أن يكون المنكر ظاهرًا مرئيًّا، فأما ما استخفى به صاحبه عن أعين الناس وأغلق عليه بابه، فلا يجوز لأحد التجسُّس عليه، بوضع أجهزة التصنُّت عليه، أو كاميرات التصوير الخفية، أو اقتحام داره عليه لضبطه متلبِّسًا بالمنكر.

وهذا ما يدل عليه لفظ الحديث: «من رأى منكم منكرًا فليغيره»، فقد ناط التغيير برؤية المنكر ومشاهدته، ولم يَنُطه بالسماع عن المنكر من غيره.

وهذا لأن الإسلام يدع عقوبة من استتر بفعل المنكر ولم يتبجَّح به إلى الله تعالى يحاسبه في الآخرة، ولم يجعل لأحدٍ عليه سبيلًا في الدنيا، حتى يُبدي صفحته ويكشف ستره.

حتى إن العقاب الإلهي ليُخفَّف كثيرًا على من استتر بسِتْر الله، ولم يظهر المعصية كما في الحديث الصحيح: «كل أمتي معافًى إلا المجاهرين»[2].

لهذا لم يكن لأحد سلطان على المنكرات الخفية، وفي مقدمتها معاصي القلوب من الرياء والنفاق والكبر والحسد والشح والغرور ونحوها... وإن اعتبرها الدِّين من أكبر الكبائر، ما لم تتجسد في عمل ظاهر، وذلك لأننا أُمِرْنا أن نحكم بالظواهر، ونكل إلى الله تعالى السرائر.

(١) فتاوى معاصرة (٢/ ٦٨٣-٦٨٦)، نشر دار الوفاء، ط الثالثة ١٩٩٤م.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٦٩)، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٩٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ومن الوقائع الطريفة التي لها دلالتها في هذا المقام ما وقع لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ، وهو ما حكاه الغزالي في كتاب «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» من «الإحياء»: أن عمر تسلَّق دار رجل، فرآه على حالة مكروهة، فأنكر عليه، فقال: يا أمير المؤمنين، إن كنتُ أنا قد عصيتُ الله من وجه واحد، فأنت قد عصيتَه من ثلاثة أوجه، فقال: وما هي؟ قال: قد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ [الحجرات:١٢]، وقد تجسَّستَ، وقال تعالى: ﴿وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَآ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وقد تسوَّرت من السطح، وقال تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النور: ٢٧] وما سلمت، فتركه عمر، وشرط عليه التوبة[(١)].

الشرط الثالث: أن يكون مريد التغيير باليد قادرًا على التغيير:

ومن الشروط أيضا: أن يكون مريد التغيير باليد قادرًا بنفسه أو بمن معه من أعوان على التغيير بالقوة.

بمعنى أن يكون لديه قوة ماديَّة أو معنويَّة تُمكِّنه من إزالة المنكر بسهولة.

وهذا الشرط مأخوذ من حديث أبي سعيد أيضًا؛ لأنه قال: «فمن لم يستطع، فبلسانه». أي: فمن لم يستطع التغيير باليد، فليدع ذلك لأهل القدرة، وليكتفِ هو بالتغيير باللسان والبيان، إن كان في استطاعته.

وهذا في الغالب إنما يكون لكلِّ ذي سلطان في دائرة سلطانه، كالزوج مع زوجته، والأب مع أبنائه وبناته، الذين يعُولهم ويلِي أمورهم، وصاحب المؤسسة في داخل مؤسسته، والأمير المطاع في حدود إمارته أو سلطته، وحدود استطاعته.. وهكذا.

وإنما قلنا: القوة الماديَّة أو المعنويَّة؛ لأن سلطة الزوج على زوجته أو الأب على

(١) انظر: إحياء علوم الدين للغزالي (٢/ ٣٢٥).

أولاده، ليست بما يملك من قوة ماديَّة، بل بما له من احترام وهيبة تجعل كلمته نافذة، وأمره مطاعًا.

إذا كان المنكر من جانب الحكومة:

هنا تظهر مشكلة، إذا كان المنكر من جانب الحكومة أو الدولة، التي تملك مقاليد القوة الماديَّة والعسكريَّة، ماذا للأفراد والفئات أو عليهم أن يعملوا لتغيير المنكر الذي ترتكبه السلطة أو تحميه؟

والجواب: أنَّ عليهم أن يملكوا القوة التي تستطيع التغيير، وهي في عصرنا إحدى ثلاث:

الأولى: القوات المسلحة التي يستند إليها كثير من الدول في عصرنا- ولا سيما في العالم الثالث- في إقامة حكمها، وتنفيذ سياستها، وإسكات خصومها بالحديد والنار، فالعمدة لدى هذه الحكومات ليس قوة المنطق، بل منطق القوة، فمن كان معه هذه القوات استطاع أن يضرب بها كل تحرك شعبي يريد التغيير، كما رأينا ذلك في بلاد شتى آخرها في سوريا واليمن ومصر وليبيا.

الثانية: المجلس النيابي الذي يملك السلطة التشريعيَّة، وإصدار القوانين وتغييرها، وفقًا لقرار الأغلبية، المعمول به في النظام الديمقراطي، فمن ملك هذه الأغلبية في ظل نظام ديمقراطي حقيقي غير مزيَّف، أمكنه تغيير كل ما يرى من منكرات بوساطة التشريع الملزم، الذي لا يستطيع وزير، ولا رئيس حكومة، ولا رئيس دولة أن يقول أمامه: لا.

الثالثة: قوة الجماهير الشعبيَّة العارمة التي تشبه الإجماع، والتي إذا تحركت لا يستطيع أحد أن يواجهها، أو يصدَّ مسيرتها؛ لأنها كموج البحر الهادر أو السيل العرم، لا يقف أمامه شيء، حتى القوات المسلحة نفسها؛ لأنها في النهاية جزء منها، وهذه

الجماهير ليسوا إلا أهليهم وآباءهم وأبناءهم وإخوانهم. كما رأينا ذلك بوضوح في ثورات شعوب العالم، وثورة تونس ومصر وليبيا.

فمن لم يملك إحدى هذه القوى الثلاث، فما عليه إلا أن يصبر ويصابر ويرابط، حتى يملكها، وعليه أن يغيِّر باللسان والقلم، والدعوة والتوعية والتوجيه، حتى يوجد رأيًا عامًّا قويًّا يطالب بتغيير المنكر، وأن يعمل على تربية جيل طليعي مؤمن يتحمل تبعة التغيير[(١)].

الشرط الرابع: ألا يخشى من أن يترتَّب على إزالة المنكر بالقوة منكر أكبر منه، كأن يكون سببًا لفتنة تسفك فيها دماء الأبرياء، وتنتهك الحرمات، وتنتهب الأموال، وتكون العاقبة أن يزداد المنكر تمكنًا، ويزداد المتجبرون تجبرًا وفسادًا في الأرض.

ولهذا قرَّر العلماء مشروعيَّة السكوت على المنكر مخافة ما هو أنكر منه وأعظم، ارتكابًا لأخف الضَّرَرين، واحتمالًا لأهون الشرين.

وفي هذا جاء الحديث الصحيح، أن النبي ﷺ قال لعائشة: «لولا أن قومَكِ حديثو عهد بشرك، لبنيتُ الكعبة على قواعد إبراهيم»[(٢)].

وفي القرآن الكريم ما يؤيِّد ذلك، وهو موقف هارون عليه السلام مع قومه في قصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل، حين ذهب إلى موعده مع ربه، الذي بلغ أربعين ليلة، وفي هذه الغيبة فتنهم السامري بعِجْله الذهبي، حتى عبده القوم، ونصحهم أخوه هارون، فلم ينتصحوا وقالوا: ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ۝٩١﴾ [طه:٩١].

وبعد رجوع موسى ورؤيته لهذا المنكر البشع - عبادة العجل - اشتدَّ على أخيه في

---

(١) انظر: فتاوى معاصرة (٢/ ٦٨٤-٦٨٩)، وفقه الجهاد (٢/ ١١٤٩-١١٥٢)، نشر مكتبة وهبة، ط الثالثة، ٢٠٠٩م.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الحج (١٥٨٣)، ومسلم في الحج (١٣٣٣).

الإنكار، وأخذ بلحيته يجره إليه من شدة الغضب، ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ۝ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ۝ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ۝﴾ [طه:٩٢-٩٤].

ومعنى هذا: أن هارون قدَّم الحفاظ على وحدة الجماعة في غَيْبة أخيه الأكبر، حتى يحضر، ويتفاهما معًا كيف يواجهان الموقف الخطير بما يتطلبه من حزم وحكمة.

هذه هي الشروط التي يجب أن تتوافر لمن يريد تغيير المنكر بيده، وبتعبير آخر: بالقوة المادية المرغمة.

تغيير المنكرات الجزئيَّة ليس علاجًا:

وأودُّ أن أنبِّه هنا على قضية في غاية الأهمية لمن يشتغلون بإصلاح حال المسلمين، وهي أن التخريب الذي أصاب مجتمعاتنا، خلال عصور التخلف، وخلال عهود الاستعمار الغربي، وخلال عهود الطغيان والحكم العلماني؛ تخريب عميق ممتد، لا يكفي لإزالته تغيير منكرات جزئيَّة، كحفلة غناء ماجن، أو تبرج امرأة في الطريق، أو بيع أشرطة «كاسيت» أو «فيديو» تتضمن ما لا يليق أو ما لا يجوز.

إن الأمر أكبر من ذلك وأعظم، لا بد من تغيير أشمل وأوسع وأعمق.

تغيير يشمل الأفكار والمفاهيم، ويشمل القيم والموازين، ويشمل الأخلاق والأعمال، ويشمل الآداب والتقاليد، ويشمل الأنظمة والتشريعات.

وقبل ذلك لا بد أن يتغير الناس من داخلهم بالتوجيه الدائم، والتربية المستمرة، والأسوة الحسنة، فإذا غيَّر الناس ما بأنفسهم كانوا أهلًا لأن يغير الله ما

بهم وفق السنة الثابتة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١] [(١)].

نظام الحِسْبة في الإسلام:

اختار الإمام الغزالي في «الإحياء» عبارة «الحسبة» بدلًا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي نظام اتَّخذه المسلمون، وعيَّنوا له رجالًا لهم فهم شرعي، ولهم سلطة تنفيذيَّة، أشبه بعصرنا بما يسمى بالضبطية القضائية.

وقد سمى الفقهاء الآمرَ الناهيَ بالمحتسِب، وسموا عمله احتسابًا؛ لأنه يحتسب ذلك العمل عند الله.

فالحِسبة لغة: مشتقة من الاحتساب وهو طلب الأجر كما في الحديث: «من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا». أي طلبًا للأجر من الله تعالى.

والحسبة عند الفقهاء: أمرٌ بالمعروف إذا ظهر تركُه، ونهيٌ عن المنكر إذا ظهر فعله.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أعم من الحسبة، فيؤمر بالمعروف وإن لم يترك، وينهى عن المنكر وإن لم يرتكب، كما يفعل الخطباء والعلماء من الحث على فعل الخيرات وترك المنكرات، فتكون الحِسْبة أخص من حيث إنها تتعلق بالمعروف الذي ترك، والمنكر الذي فعل».

أركان الحسبة وشروطها:

قال الإمام الغزالي: «اعلم أن الأركان في الحسبة التي هي عبارة شاملة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أربعة: **المحتسِب، والمحتَسَب عليه، والمحتسَب فيه، ونفس الاحتساب.**

---

(١) فتاوى معاصرة (٢/ ٦٩٠، ٦٩١)، وفقه الجهاد (٢/ ١١٥٤، ١١٥٥).

فهذه أربعة أركان، لكلِّ واحد منها شروطه».

- **الركن الأول: المُحتسِب**

وله شروط خمسة فصَّلها الإمام الغزالي، وسننقلها هنا أو أهم ما فيها؛ ليعرف القارئ المسلم ما فيها من فقه يجب معرفته.

١- شرط التكليف:

الشرط الأول: وهو التكليف، فلا يخفى وجه اشتراطه، فإنَّ غير المكلَّف لا يلزمه أمر، وما ذكرناه أردنا به شرط الوجوب، فأما إمكان الفعل وجوازه، فلا يستدعي إلا العقل؛ حتى إنَّ الصبي المراهِق للبلوغ المميِّز وإن لم يكن مكلفًا، فله إنكار المنكر، وله أن يريق الخمر ويكسر الملاهي، وإذا فعل ذلك نال به ثوابًا، ولم يكن لأحد منعه من حيث إنه ليس بمكلَّف.

٢، ٣- شرطا الإيمان والعدالة:

الشرط الثاني: وهو الإيمان، فلا يخفى وجه اشتراطه؛ لأن هذا نصرة للدين، فكيف يكون من أهله من هو جاحد لأصل الدين وعدوٌّ له؟

الشرط الثالث: وهو العدالة، فقد اعتبرها قوم، وقالوا: ليس للفاسق أن يحتسب»[١].

الرد على من منع الفاسق من الاحتساب:

وقد ذكر الغزالي ما ربما يستدل به هؤلاء من النكير الوارد على من يأمر بما لا يفعله، مثل قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة:٤٤]، وقوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝﴾ [الصف:٣].

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ٣١٢).

وما روى أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ليلة أُسْرِيَ بي رجالًا تُقرض شفاههم بمقاريض من النار، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: الخطباء من أمتك، الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون؟»[(١)].

وفي رواية قال: «أتيت ليلة أسري بي على قوم تُقرض شفاههم بمقاريض من نار، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: خطباء أمتك الذين يقولون ما لا يفعلون ويقرؤون كتاب الله ولا يعملون به»[(٢)].

وقد أورد المنذري في «الترغيب والترهيب» هذين الحديثين في الترهيب من أن يأمر بمعروف وينهى عن منكر ويخالف قولُه فعلَه، وقد انتقيتهما منه مع حديث أسامة بن زيد ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُؤتى بالرجل يوم القيامة، فيُلقَى في النار، فتندلق أقتاب بطنه، فيدور بها كما يدور الحمار في الرَّحى، فيجتمع إليه أهل النار، فيقولون: يا فلان، ما لك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر؟! فيقول: بلى، كنت آمرُ بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه»[(٣)].

والجواب عن هذا الاستدلال: أن الوعيد على ترك المعروف وليس على الأمر بالمعروف، فإن الذم في الآية الأولى ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة ٤٤] إنما هو على ترك البر لا على الأمر بالبر.

---

(١) رواه أحمد (١٢٢١١) وقال مخرجوه: حديث صحيح، وابن أبي الدنيا في الصمت (٤٥)، وابن حبان في الإسراء (٥٣).

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (١٦٣٧)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٢٩).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٦٧)، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٨٩).

قال القرطبي: «اعلم وفَّقك الله تعالى أن التوبيخ في الآية بسبب ترك فعل البر لا بسبب الأمر بالبر، ولهذا ذمّ الله تعالى في كتابه قومًا كانوا يأمرون بأعمال البر ولا يعملون بها، وبَّخهم به توبيخًا يُتْلَى على طول الدهر إلى يوم القيامة»[(١)].

وممَّا يجاب به عن تلك الشبهة، أن ترك أحد الواجبَيْن ليس مسوِّغًا لترك الواجب الآخر، فهناك واجبان على المسلم هما: فعل المعروف واجتناب المنكر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فإذا ما قصَّر الإنسان في أحد الواجبين فليس ذلك مُخَوِّلًا له أن يقصر في الواجب الثاني، فإذا كان على سبيل المثال مُقصِّرًا في الصلاة، فإنه يلزمه الأمر بها، وكذلك في جانب المنكر، إذا كان يأكل الربا مثلًا، فإنه يلزمه النهي عن أكل الربا.

فليس هذا الوعيد في الآيات والأحاديث في حق من يخالف فعلُه قوله فقط، وإنما لمن ترك الامتثال مع علمه بوجوب ذلك، وفعل المحذور مع علمه بوجوب تركه، ولذا دخل معه في النار من كان يأمرهم وينهاهم، فمن كان عالمًا ويخالف ذلك كان هذا عقابه.

فارتكاب المعاصي ليس عُذْرًا في عدم قيامه بهذه الشعيرة، بل يجب عليه الأمر والنهي في حق نفسه، وكذلك في حق غيره، فإن أخلَّ بأحدهما لم يجُز له الإخلال بالآخر، ثم إنه لا يوجد أحد سالم من المعاصي البتة.

وقد ذكر المُناوي أنه قيل للحسن: فلان لا يعظ، ويقول: أخاف أن أقول ما لا أفعل. قال: وأيُّنا يفعل ما يقول؟! ودَّ الشيطان لو ظفر بهذه منكم، فلا يأمر أحد بمعروف، ولا ينهى عن منكر[(٢)].

---

(١) تفسير القرطبي (١/ ٣٦٦).

(٢) فيض القدير (٥/ ٥٢٢).

وقال ابن عطية: «قال بعض الأصوليين: فرضٌ على الذين يتعاطون الكؤوس أن ينهى بعضُهم بعضًا»(١).

وقال حجة الإسلام الغزالي في الرد على قول مشترطي العدالة فيمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بعد أن ذكر بعض ما يستدلون به من جهة القياس: «وكل ما ذكروه خيالات، وإنما الحق أن للفاسق أن يحتسب.

وبرهانه: هو أن نقول: هل يشترط في الاحتساب أن يكون متعاطيه معصومًا عن المعاصي كلها؟

فإن شَرَط ذلك، فهو خرْق للإجماع، ثم حسْم لباب الاحتساب، إذ لا عصمة للصحابة فضلًا عمَّن دونهم . . . ولهذا قال سعيد بن جبير: إن لم يأمر بالمعروف ولم ينْه عن المنكر إلا من لا يكون فيه شيء، لم يأمر أحد بشيء(٢). فأعجب مالكًا ذلك من سعيد بن جبير»(٣).

٤- شرط الإذن من الإمام والراجح عدم اشتراطه:

قال الإمام الغزالي: «الشرط الرابع: كونه مأذونًا من جهة الإمام والوالي، فقد شرط قوم هذا الشرط، ولم يثبتوا للآحاد من الرعيَّة الحسبة.

وهذا الاشتراط فاسد؛ فإن الآيات والأخبار التي أوردناها، تدل على أن كل من رأى منكرًا فسكت عليه عصى، إذ يجب نهيه أينما رآه، وكيفما رآه على العموم، فالتخصيص بشرط التفويض من الإمام تحكُّم لا أصل له.

(١) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٢٢٤).

(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره (١/ ١٥٢).

(٣) إحياء علوم الدين (٢/ ٣١٢، ٣١٣).

فإن قيل: في الأمر بالمعروف إثبات سلطنة وولاية واحتكام على المحكوم عليه، ولذلك لم يثبت للكافر على المسلم مع كونه حقًّا، فينبغي ألَّا يثبت لآحاد الرعيَّة إلا بتفويض من الوالي وصاحب الأمر.

فنقول: أما الكافر، فممنوع لما فيه من السلطنة وعز الاحتكام، والكافر ذليل، فلا يستحق أن ينال عزَّ التحكم على المسلم، وأما آحاد المسلمين، فيستحقُّون هذا العز بالدين والمعرفة، وما فيه من عزِّ السلطنة والاحتكام لا يحوج إلى تفويض، كعزِّ التعليم والتعريف، إذ لا خلاف في أن تعريف التحريم والإيجاب لمن هو جاهل ومقدِّم على المنكر بجهله، لا يحتاج إلى إذن الوالي، وفيه عزُّ الإرشاد وعلى المعرَّف ذلك التجهيل، وذلك يكفي فيه مجرد الدين وكذلك النهي.

كما رُوِيَ أن مروان بن الحكم خطب قبل صلاة العيد، فقال له رجل: إنما الخطبة بعد الصلاة، فقال له مروان: اتركْ ذلك يا فلان. فقال أبو سعيد: أما هذا، فقد قضى ما عليه، قال لنا رسول الله ﷺ: «من رأى منكم منكرًا فلينكره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[1]. فلقد كانوا فهموا من هذه العمومات دخول السلاطين تحتها، فكيف يحتاج إلى إذنهم؟»[2]

٥- قدرة المحتسب:

«**الشرط الخامس**: كونه قادرًا، ولا يخفى أن العاجز ليس عليه حِسْبة إلا بقلبه، إذ كلُّ من أحب الله يكره معاصيه ويُنكرها.

وقال ابن مسعود ﷺ: جاهدوا الكفار بأيديكم، فإن لم تستطيعوا إلا أن

(١) سبق تخريجه.

(٢) الإحياء (٢/ ٣١٥، ٣١٦).

تكفهروا في وجوههم فافعلوا[(١)].

واعلم أنه لا يقف سقوط الوجوب على العجز الحسِّي، بل يلتحق به ما يخاف عليه مكروهًا يناله، فذلك في معنى العجز، وكذلك إذا لم يَخَفْ مكروهًا، ولكن علم أن إنكاره لا ينفع، فليلتفت إلى معنيين:

أحدهما: عدم إفادة الإنكار امتناعًا.

والآخر: خوف مكروه.

ويحصل من اعتبار المعنيين أربعة أحوال:

أحدها: أن يجتمع المعنيان بأن يعلم أنه لا ينفع كلامه، ويُضرب إن تكلم، فلا تجب عليه الحِسْبة، بل ربما تحرم في بعض المواضع، نعم يلزمه ألَّا يحضر مواضع المنكر، ويعتزل في بيته حتى لا يشاهد، ولا يخرج إلا لحاجة مهمة أو واجب، ولا يلزمه مفارقة تلك البلدة والهجرة، إلا إذا كان يُرهَق إلى الفساد، أو يُحْمَل على مساعدة السلاطين في الظلم والمنكرات، فيلزمه الهجرة إن قدر عليها، فإن الإكراه لا يكون عذرًا في حقِّ من يقدر على الهرب من الإكراه.

الحالة الثانية: أن ينتفي المعنيان جميعًا، بأن يعلم أن المنكر يزول بقوله وفعله، ولا يُقدَرَ له على مكروه، فيجب عليه الإنكار، وهذه هي القدرة المطلقة.

الحالة الثالثة: أن يعلم أنه لا يفيد إنكاره، لكنه لا يخاف مكروهًا، فلا تجب عليه الحسبة لعدم فائدتها، ولكن تُستحب لإظهار شعائر الإسلام، وتذكير الناس بأمر الدين.

الحالة الرابعة: عكس هذه، وهو أن يعلم أنه يُصاب بمكروه، ولكن يبطل

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (١١٦).

المنكر بفعله، كما يقدر على أن يرمي زجاجة الفاسق بحجر فيكسرها، ويريق الخمر، ويتعطَّل عليه هذا المنكر، ولكن يعلم أنه يرجع إليه فيضرب رأسه، فهذا ليس بواجب، وليس بحرام، بل هو مستحب، ويدل عليه الخبر: «كلمة حق عند إمام جائر»[1]. ولا شك في أن ذلك مظنَّة الخوف.

ويدل عليه أيضًا: ما رُوِيَ عن أبي سليمان الداراني رحمه الله أنه قال: سمعت من بعض الخلفاء كلامًا، فأردت أن أنكر عليه، وعلمت أني أقتل، ولم يمنعني القتل، ولكن كان في ملأ من الناس، فخشيت أن يعتريني التزيُّن للخلق، فأقتل من غير إخلاص في الفعل»[2].

وقد تقدم رأينا في شرط القدرة في الاحتساب باليد والتغيير بالقوة المادية.

معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾:

قال الإمام الغزالي: «فإن قيل: فما معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٥٩]؟

قلنا: لا خلاف في أن المسلم الواحد له أن يهجم على صف الكفار ويقاتل وإن علم أنه يقتل، وهذا ربما يظن أنه مخالف لموجب الآية، وليس كذلك، فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس التهلكة ذلك، بل ترك النفقة في طاعة الله تعالى[3].

أي: من لم يفعل ذلك فقد أهلك نفسه.

وإذا جاز أن يقاتل الكفار حتى يُقتل، جاز أيضًا له ذلك في الحسبة، ولكن لو علم أنه لا نكاية لهجومه على الكفار كالأعمى يطرح نفسه على الصف، أو العاجز،

(١) سبق تخريجه، بلفظ سلطان.

(٢) قوت القلوب، لأبي طالب المكي (٢/ ٢٣١).

(٣) تفسير الطبري (٣/ ٥٨٤).

فذلك حرام، وداخل تحت عموم آية التهلكة، وإنما جاز له الإقدام إذا علم أنه يقاتل إلى أن يقتل، أو علم أنه يكسر قلوب الكفار بمشاهدتهم جراءته واعتقادهم في سائر المسلمين قلة المبالاة وحبهم للشهادة في سبيل الله، فتنكسر بذلك شوكتهم.

فكذلك يجوز للمحتسب، بل يُستحب له أن يعرض نفسه للضرب وللقتل، إذا كان لحسبته تأثير في رفع المنكر، أو في كسْر جاه الفاسق، أو في تقوية قلوب أهل الدين، وأما إن رأى فاسقًا متغلّبًا وعنده سيف، وبيده قَدَح، وعلم أنه لو أنكر عليه لشرب القدح وضرب رقبته، فهذا مما لا أرى للحسبة فيه وجهًا، وهو عين الهلاك، فإن المطلوب أن يؤثر في الدين أثرًا ويفديه بنفسه، فأما تعريض النفس للهلاك من غير أثرٍ، فلا وجه له، بل ينبغي أن يكون حرامًا.

وإنما يستحب له الإنكار إذا قدر على إبطال المنكر، أو ظهر لفعله فائدة، وذلك بشرط أن يقتصر المكروه عليه، فإن علم أنه يضرب معه غيره من أصحابه أو أقاربه أو رفقائه، فلا تجوز له الحسبة، بل تحرم؛ لأنه عَجَز عن دفع المنكر، إلا بأن يفضي ذلك إلى منكر آخر[1].

ولا يبعد أن يفرق بين درجات المنكر المغيَّر، والمنكر الذي تفضي إليه الحسبة والتغيير، فإنه إذا كان يذبح شاة لغيره ليأكلها، وعلم أنه لو منعه من ذلك لذبح إنسانًا وأكله، فلا معنى لهذه الحسبة، نعم لو كان منعه عن ذبح إنسان أو قطع طرفه يحمله على أخذ ماله، فذلك له وجه، فهذه دقائق واقعةٌ في محل الاجتهاد،

(١) ولما كان هذا الباب موضع اجتهاد، فلا يجوز أن يقتحمه إلا العلماء الذين يحسنون تقدير المصالح والمفاسد، وليس ذلك لآحاد الناس، خصوصا في الأمور العامة الدقيقة، التي تحتاج إلى حسن تقدير.

وعلى المحتسب اتباع اجتهاده في ذلك كله.

ولهذه الدقائق نقول: العامي ينبغي له ألَّا يحتسب إلا في الجليات المعلومة، كشرب الخمر والزنى وترك الصلاة، فأما ما يعلم كونه معصية بالإضافة إلى ما يطيف به من الأفعال ويفتقر فيه إلى اجتهاد، فالعامي إن خاض فيه كان ما يفسده أكثر مما يصلحه»[1].

ما حد المكروه الذي يسقط وجوب الأمر والنهي به؟

قال الإمام الغزالي: «المكروه نقيض المطلوب، ومطالب الخلق في الدنيا ترجع إلى أربعة أمور:

أما في النفس، فالعلم.

وأما في البدن، فالصحة والسلامة.

وأما في المال، فالثروة. ومعنى الثروة: ملك الدراهم.

وأما في قلوب الناس، فقيام الجاه. ومعنى الجاه: ملك قلوب الناس.

وكل واحدة من هذه الأربعة يطلبها الإنسان لنفسه ولأقاربه والمختصين به، ويكره زوالها.

وفوات الأمور الأربعة مكروه، ومعتبر في جواز السكوت، إلا العلم، فإن فواته غير مَخُوف، إلا بتقصير منه، وإلا فلا يقدر أحد على سلب العلم من غيره، وإن قدر على سلب الصحة والسلامة والثروة والمال، وهذا أحد أسباب شرف العلم، فإنه يدوم في الدنيا ويدوم ثوابه في الآخرة، فلا انقطاع له أبد الآباد.

وأما الصحة والسلامة، ففواتهما بالضرب، فكل من علم أنه يُضرب ضربًا مؤلمًا يتأذَّى به في الحِسْبة، لم تلزمه الحِسْبة، وإن كان يُستحبُّ له ذلك كما سبق،

(١) الإحياء (٢/ ٣١٩، ٣٢٠).

وإذا فَهِمَ هذا في الإيلام بالضرب، فهو في الجرح والقطع والقتل أظهر.

وأما الثروة، فهو بأن يعلم أنه تُنهب داره، ويخرب بيته، وتسلب ثيابه، فهذا أيضًا يُسقط عنه الوجوب، ويبقى الاستحباب، إذ لا بأس بأن يفدي دينه بدنياه.

وأما الجاه، ففواته بأن يُضرب ضربًا غير مؤلم في ملأ من الناس، أو يُطرح منديله في رقبته ويدار به في البلد، أو يسوَّد وجهه ويطاف به، وكل ذلك من غير ضرب مؤلم للبدن، وهو قادحٌ في الجاه ومؤلمٌ للقلب، وهذا له درجات: فالصواب أن يُقسم إلى ما يعبر عنه بسقوط المروءة، كالطواف به في البلد حاسرًا حافيًا، فهذا يُرخَّص له في السكوت؛ لأن المروءة مأمور بحفظها في الشرع، وهذا مؤلِمٌ للقلب ألمًا يزيد على ألم ضربات متعددة، وعلى فوات دريهمات قليلة.

أما لو علم أنه لو احتسب لكُلِّف المشي في السوق في ثياب لا يعتاد هو مثلها، أو كُلِّف المشي راجلًا وعادته الركوب، فهذا من جملة المزايا، وليست المواظبة على حفظها محمودةً، وحفظ المروءة محمودٌ، فلا ينبغي أن يسقط وجوب الحِسْبة بمثل هذا القدر.

وفي معنى هذا: ما لو خاف أن يُتعرَّض له باللسان، إما في حضرته بالتجهيل والتحميق، والنسبة إلى الرياء والبهتان، وإما في غَيْبته بأنواع الغِيبة، فهذا لا يسقط الوجوب، إذ ليس فيه إلا زوال فضلات الجاه، التي ليس إليها كبير حاجة.

وأما امتناعه لخوف شيء من هذه المكاره في حقِّ أولاده وأقاربه، فهو في حقِّه دونه؛ لأن تأذيه بأمر نفسه أشد من تأذيه بأمر غيره، ومن وجه الدِّين هو فوقه؛ لأن له أن يسامح في حقوق نفسه، وليس له المسامحة في حق غيره، فإذن ينبغي أن يمتنع، فإنه إن كان ما يفوت من حقوقهم يفوت على طريق المعصية كالضرب والنهب، فليس له هذه الحِسْبة؛ لأنه دفْع منكر يفضي إلى منكر، وإن كان يفوت لا

بطريق المعصية فهو إيذاء للمسلم أيضًا، وليس له ذلك إلا برضاهم.

فإذا كان يؤدي ذلك إلى أذى قومه فليتركه، وذلك كالزاهد الذي له أقارب أغنياء، فإنه لا يخاف على ماله إن احتسب على السلطان، ولكنه يقصد أقاربه انتقامًا منه بواسطته، فإذا كان يتعدَّى الأذى من حسبته إلى أقاربه وجيرانه، فليتركها فإن إيذاء المسلمين محذور كما أن السكوت على المنكر محذور.

نعم إن كان لا ينالهم أذى في مال أو نفس، ولكن ينالهم الأذى بالشتم والسب، فهذا فيه نظر، ويختلف الأمر فيه بدرجات المنكرات في تفاحشها، ودرجات الكلام المحذور في نكايته في القلب وقدحه في العرض»[(١)].

آداب المحتسب:

ذكر الإمام الغزالي أنه لا بد من ثلاث صفات في المحتسب: العلم، والورع، وحسن الخُلُق.

١، ٢- العلم والورع:

أما العلم: فليعلم مواقع الحِسْبة وحدودها، ومجاريها وموانعها، ليقتصر على حد الشرع فيه.

والورع: ليردعه عن مخالفة معلومة، فما كل من علم عمل بعلمه.

٣- حسن الخُلُق:

وأما حسن الخلق: فليتمكن به من اللطف والرفق، وهو أصل الباب وأسبابه.

والعلم والورع لا يكفيان فيه، فإن الغضب إذا هاج، لم يكف مجرَّد العلم والورع في قمعه، ما لم يكن في الطبع قبوله بحُسن الخلق.

---

(١) الإحياء (٢/ ٣٢١، ٣٢٣).

وعلى التحقيق فلا يتمُّ الورع إلا مع حُسن الخلق، والقدرة على ضبط الشهوة والغضب، وبه يصبر المحتسب على ما أصابه في دين الله، وإلا فإذا أصيب عرضه أو ماله أو نفسه، بشتم أو ضرب نسي الحسبة، وغفل عن دين الله، واشتغل بنفسه، بل ربما يُقدِم عليه ابتداء لطلب الجاه والاسم.

قال الحسن البصري رحمه الله: إذا كنت ممَّن يأمر بالمعروف، فكن من آخَذِ الناس به وإلا هلكت[(١)]. وقد قيل:

لا تلم المرء على فعله ... وأنت منسوب إلى مثله

من ذمَّ شيئًا وأتى مثله ... فإنما يُزري على عقله[(٢)]

ولسنا نعني بهذا أن الأمر بالمعروف يصير ممنوعًا بالفسق، ولكن يسقط أثره عن القلوب، بظهور فسقه للناس.

٤- توطين النفس على الصبر:

وأوصى بعض السلف بنيه، فقال: إن أراد أحدكم أن يأمر بالمعروف فليوطِّن نفسه على الصبر، وليثق بالثواب من الله، فمن وثق بالثواب من الله لم يجد مسَّ الأذى.

فإذن من آداب الحسبة: **توطين النفس على الصبر**، ولذلك قرن الله تعالى الصبر بالأمر بالمعروف، فقال حاكيًا عن لقمان: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ﴾ [لقمان:١٧][(٣)].

(١) رواه ابن أبي الدنيا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٩٨).

(٢) من شعر محمد بن عيسى بن طلحة التيمي القرشي.

(٣) قال القرطبي (التفسير ١٤/ ٦٨): قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ يقتضي حضًّا على تغيير المنكر وإن نالك ضرر؛ فهو إشعار بأن المغيِّر يؤذى أحيانا؛ وهذا القدر على جهة الندب والقوة في ذات الله؛ وأما على اللزوم، فلا.

٥- تقليل العلائق وقطع الأطماع عن الخلائق:

ومن الآداب: تقليل العلائق حتى لا يكثر خوفه.

وقطع الطمع عن الخلائق حتى تزول عنه المداهنة، فمن لم يقطع الطمع من الخلق لم يقدر على الحسبة، ومن طمع في أن تكون قلوب الناس عليه طيبة وألسنتهم بالثناء عليه مطلقة، لم تتيسر له الحسبة.

٦- ضرورة الرفق في الإنكار:

وينبغي لمن ينهى عن المنكر أن يعامل الناس بالرفق ويتلطف في دعوته لهم، فذلك أزكى عند الله، وأدعى إلى الاستماع إليه، ففي الصحيحين من حديث عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يحب الرفق في الأمر كله»(١). وعنها أنه قال: «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه»(٢).

قال الإمام الغزالي: «ويدل على وجوب الرفق، ما استدلَّ به المأمون إذ وعظه واعظ، وعنَّف له في القول، وكان المأمون على فقه وحلم، فلم يعالجه بالعقاب، كما يفعل كثيرون من الخلفاء والأمراء، بل قال له: يا رجل ارفق، فقد بعث الله مَنْ هو خير منك إلى مَنْ هو شرٌّ مني. وأمره بالرفق [يريد إرسال موسى وهارون إلى فرعون] فقال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه:٤٤]. فليكن اقتداء المحتسب في الرفق بالأنبياء صلوات الله عليهم»(٣).

قلت: وهذا التعليل بحرف الترجي ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ برغم ما ذكره الله

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٩٣)، عن عائشة.

(٣) انظر إحياء علوم الدين (٢/ ٣٣٣، ٣٣٤).

تعالى من طغيان فرعون ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝﴾ دليل على أن الداعية لا ينبغي أن يفقد الأمل فيمن يدعوه مهما يكن كفره وظلمه، ما دام مستخدمًا طريق اللين والرفق، لا طريق الخرق والعنف.

وأورد الغزالي في كلامه عن وجوب الرفق هذا الحديث:

روى أبو أمامة أنَّ غلامًا شابًّا أتى النبيَّ ﷺ، فقال: يا نبي الله، تأذن لي في الزنى؟ فصاح الناس به، فقال النبي ﷺ: «قرِّبوه، ادْنُ» فدنا حتى جلس بين يديه، فقال النبي ﷺ: «أتحبُّه لأمك؟» فقال: لا، جعلني الله فداك. قال: «كذلك الناس لا يحبُّونه لأمَّهاتهم. أتحبه لابنتك؟» قال: لا، جعلني الله فداك. قال: «كذلك الناس لا يحبونه لبناتهم. أتحبه لأختك؟» وزاد ابن عوف: حتى ذكر العمَّة والخالة، وهو يقول في كل واحد: لا، جعلني الله فداك. وهو ﷺ يقول: «كذلك الناس لا يحبونه». وقالا جميعًا في حديثهما- أعني ابنَ عوف والراوي الآخر-: فوضع رسول الله ﷺ يده على صدره، وقال: «اللهم طهِّر قلبه، واغفر ذنبه وحصِّن فرجه» فلم يكن شيء أبغض إليه منه، يعني: من الزنى[(١)] ا.هـ[(٢)].

قال الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم»: «وبكل حال يتعيَّن الرفق في الإنكار، قال سفيان الثوري: لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فيه خصال ثلاث: رفيق بما يأمر، رفيق بما ينهى، عدلٌ بما يأمر، عدلٌ بما ينهى، عالم بما يأمر، عالم بما ينهى»[(٣)].

---

(١) رواه أحمد (٢٢٢١١) وقال مخرجوه: إسناده صحيح، والطبراني (٨/ ١٦٢)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥٤٣): رجاله رجال الصحيح.

(٢) إحياء علوم الدين (٢/ ٣٣٤، ٣٣٥).

(٣) رواه الخلال في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ص ٢٤.

وقال أحمد: الناس محتاجون إلى مداراة ورفق الأمر بالمعروف بلا غِلظة، إلا رجل معلن بالفسق، فلا حرمة له. قال: وكان أصحاب ابن مسعود إذا مرُّوا بقوم يرون منهم ما يكرهون، يقولون: مهلًا رحمكم الله، مهلًا رحمكم الله[(١)].

وقال أحمد: يأمر بالرفق والخضوع، فإن أسمعوه ما يكره، لا يغضب، فيكون يريد ينتصر لنفسه»[(٢)].

- **الركن الثاني للحسبة، ما فيه الحسبة**

قال الإمام الغزالي: «وهو كل منكر موجود في الحال، ظاهر للمحتسب بغير تجسُّس، معلوم كونه منكرًا بغير اجتهاد. فهذه أربعة شروط:

١- أن يكون منكرًا محذور الوقوع في الشرع:

الشرط الأول: كونه منكرًا، ونعني به أن يكون محذور الوقوع في الشرع، وعدلنا عن لفظ المعصية إلى هذا؛ لأن المنكر أعم من المعصية، إذ من رأى صبيًّا أو مجنونًا يشرب الخمر، فعليه أن يُريق خمرَه ويمنعه. وكذا إن رأى مجنونًا يزني بمجنونة أو بهيمة، فعليه أن يمنعه منه.

وليس ذلك لتفاحش صورة الفعل وظهوره بين الناس، بل لو صادف هذا المنكر في خلوة لوجب المنع منه، وهذا لا يسمَّى معصية في حق المجنون، إذ معصية لا عاصي بها محال، فلفظ: المنكر، أدل عليه وأعم من لفظ المعصية، وقد أدرجنا في عموم هذا الصغيرةَ والكبيرة، فلا تختص الحسبة بالكبائر، بل كشف

---

(١) الآداب الشرعية لابن مفلح (١/ ١٩١).

(٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ٢٥٦).

العورة في الحمام، والخلوة بالأجنبية، وإتباع النظر للنسوة الأجنبيات، كل ذلك من الصغائر، ويجب النهي عنها.

أن يكون موجودًا في الحال:

الشرط الثاني: أن يكون موجودًا في الحال، وهو احتراز أيضًا عن الحِسبة على من فرغ من شرب الخمر، فإن ذلك ليس إلى الآحاد، وقد انقرض المنكر، واحتراز عما سيوجد في ثاني الحال، كمن يُعلَم بقرية حال أنه عازم على الشرب في ليلته، فلا حسبة عليه، إلا بالوعظ، وإن أنكر عزمه عليه، لم يجُز وعظه أيضًا، فإن فيه إساءة ظن بالمسلم، وربما صدق في قوله، وربما لا يقدم على ما عزم عليه لعائق.

أن يكون ظاهرًا للمحتسب بغير تجسس:

الشرط الثالث: أن يكون المنكر ظاهرًا للمحتسب، بغير تجسُّس، فكل من ستر معصية في داره، وأغلق بابه، لا يجوز أن يُتجسَّس عليه، وقد نهى الله تعالى عنه.

ولذلك شاور عمر الصحابة ﷺ وهو على المنبر، وسألهم عن الإمام إذا شاهد بنفسه منكرًا، فهل له إقامة الحد فيه؟ فأشار علي ﷺ بأن ذلك منوط بعدلين، فلا يكفي فيه واحد»[1].

حد الظهور والاستتار:

وقد بين الإمام الغزالي أن من أغلق باب داره، وتستَّر بحيطانه، فلا يجوز الدخول عليه بغير إذنه، لنعرف المعصية، إلا أن تظهر في الدار ظهورًا يعرفه من هو خارج الدار، وكذا إذا ارتفعت أصوات السكارى بالكلمات المألوفة بينهم، بحيث يسمعها أهل الشوارع، فهذا إظهار موجب للحِسْبة. فإذا رؤي فاسق، وتحت ذيله

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ٣٢٤، ٣٢٥).

شيء، لم يجز أن يكشف عنه، ما لم يظهر بعلامة خاصة، فإن فسقه لا يدل على أن الذي معه خمر، إذ الفاسق محتاج أيضًا إلى الخل وغيره، فلا يجوز أن يُستدل بإخفائه، وأنه لو كان حلالًا لما أخفاه، لأن الأغراض في الإخفاء مما تكثر، وإن كانت الرائحة فائحة، فهذا محل النظر، والظاهر أن له الاحتساب؛ لأن هذه علامة تفيد الظن، والظن كالعلم في أمثال هذه الأمور»(١).

١- **أن يكون معلومًا بغير اجتهاد:**

«**الشرط الرابع**: أن يكون كونه منكرًا معلومًا بغير اجتهاد، فكل ما هو في محل الاجتهاد فلا حسبة، فليس للحنفي أن ينكر على الشافعي أكله الضَّب والضَّبُع ومتروك التسمية، ولا للشافعي أن ينكر على الحنفي شربه النبيذ الذي ليس بمسكر، وتناوله ميراث ذوي الأرحام، وجلوسه في دار أخذها بشفعة الجوار، إلى غير ذلك من مجاري الاجتهاد»(٢).

- **الركن الثالث: المُحتَسب عليه**

قال الإمام الغزالي: «وشرطه: أن يكون بصفة يصير الفعل الممنوع منه في حقه منكرًا، وأقل ما يكفي في ذلك: أن يكون إنسانًا، ولا يشترط كونه مكلَّفًا، فالصبي لو شرب الخمر منع منه واحتسب عليه وإن كان قبل البلوغ، ولا يشترط كونه مميزًا إذ بينا أن المجنون لو كان يزني بمجنونة منعه منه.

نعم من الأفعال ما لا يكون منكرًا في حق المجنون، كترك الصلاة والصوم وغيره، ولكنا لسنا نلتفت إلى اختلاف التفاصيل، فإن ذلك أيضًا مما يختلف فيه المقيم والمسافر والمريض والصحيح.

---

(١) الإحياء (٢/ ٣٢٥).

(٢) المصدر السابق.

فإن قلت: فاكتفِ بكونه حيوانًا، ولا تشترط كونه إنسانًا، فإن البهيمة لو كانت تفسد زرعًا لإنسان لكُنا نمنعها منه، كما نمنع المجنون من الزنى، وإتيان البهيمة.

فاعلم أن تسمية ذلك حسبة لا وجه لها، إذ الحسبة عبارة عن المنع عن منكر لحق الله، صيانة للممنوع عن مقارفة المنكر، ومنع المجنون عن الزنى، وإتيان البهيمة لحق الله، وكذا منع الصبي عن شرب الخمر.

والإنسان إذا أتلف زرع غيره منع منه لحقين:

أحدهما: حق الله تعالى، فإن فعله معصية.

والثاني: حق المُتلَف عليه، فهما علّتان تنفصل إحداهما عن الأخرى.

فلو قطع طرف غيره بإذنه، فقد وُجِدَت المعصية، وسقط حق المجني عليه بإذنه، فتثبت الحسبة والمنع بإحدى العلتين.

هل كل من رأى بهائم قد استرسلت في زرع إنسان يجب عليه إخراجها؟ وكل من رأى مالًا لمسلم أشرف على الضياع يجب عليه حفظه؟

القول الوجيز فيه أن نقول: مهما قدر على حفظه من الضياع من غير أن يناله تعب في بدنه أو خسران في ماله أو نقصان جاهه وجب عليه ذلك، فذلك القدر واجبٌ في حقوق المسلم»[١].

- **الركن الرابع: نفس الاحتساب**

قال الإمام الغزالي: «وله درجات وآداب.

(١) الإحياء (٢/ ٣٢٧، ٣٢٨).

درجات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

أما الدرجات، فأولها: التعرُّف، ثم التعريف، ثم النهي، ثم الوعظ والنصح، ثم السبُّ والتعنيف، ثم التغيير باليد، ثم التهديد بالضرب، ثم إيقاع الضرب وتحقيقه، ثم شهر السلاح، ثم الاستظهار فيه بالأعوان وجمع الجنود.

١- درجة التعرف:

أما الدرجة الأولى: وهي التعرف، ونعني طلب المعرفة بجريان المنكر، وذلك منهيٌّ عنه وهو التجسس. فلا ينبغي أن يستنشق ليدرك رائحة الخمر، ولا أن يستخبر من جيرانه ليخبروه بما يجري في داره، نعم لو أخبره عدلان ابتداء من غير استخبار بأن فلانًا يشرب الخمر في داره، أو بأن في داره خمرًا أعدَّه للشرب، فله إذ ذاك أن يدخل داره، ولا يلزم الاستئذان، ويكون تخطِّي ملكه بالدخول للتوصل إلى دفع المنكر . . .

٢- درجة التعريف:

الدرجة الثانية التعريف: فإن المنكر قد يُقدم عليه المُقدم بجهله، وإذا عرف أنه منكر تركه، ويجب التعريف باللطف من غير عنف؛ وذلك لأن ضمن التعريف نسبة إلى الجهل، وقلما يرضى الإنسان بأن ينسب إلى الجهل بالأمور لا سيما بالشرع، ولذلك ترى الذي يغلب عليه الغضب كيف يغضب إذا نُبِّه على الخطأ والجهل، والطباع أحرص على ستر عورة الجهل منها على ستر العورة الحقيقية، فلذلك يعظم تألم الإنسان بظهور جهله، ويعظم ابتهاجه في نفسه بعلمه، وإذا كان التعريف كشفًا للعورة مؤذيًا للقلب فلا بد وأن يعالج دفع أذاه بلطف الرفق.

فإن إيذاء المسلم حرامٌ محذورٌ، كما أن تقريره على المنكر محذورٌ، وليس من العقلاء من يغسل الدم بالدم أو بالبول، ومن اجتنب محذور السكوت على

المنكر، واستبدل عنه محذور الإيذاء للمسلم مع الاستغناء عنه، فقد غسل الدم بالبول.

٣- درجة الوعظ والنصح والتخويف:

الدرجة الثالثة: النهي بالوعظ والنصح والتخويف بالله تعالى، وذلك فيمن يُقدم على الأمر، وهو عالم بكونه منكرًا، أو فيمن أصرَّ عليه بعد أن عرف كونه منكرًا، كالذي يواظب على الشرب، أو على الظلم، أو على اغتياب المسلمين، أو ما يجري مجراه، فينبغي أن يوعظ ويُخوف بالله تعالى، وتُورد عليه الأخبار الواردة بالوعيد في ذلك، وتُحكى له سيرة السلف، وعبادةُ المتقين، وكل ذلك بشفقة ولطف، من غير عنف وغضب، بل ينظر إليه نظر المترحِّم عليه، ويرى إقدامه على المعصية مصيبة على نفسه، إذ المسلمون كنفس واحدة.

وهاهنا آفة عظيمة ينبغي أن يتوقَّاها، فإنها مَهلَكة، وهي أن العالِم يرى عند التعريف عزَّ نفسه بالعلم، وذُلَّ غيره بالجهل، فربما يقصد بالتعريف الإدلال وإظهار التمييز بشرف العلم، وإذلال صاحبه بالنسبة إلى خسَّة الجهل، فإن كان الباعث هذا، فهذا المنكر أقبح في نفسه من المنكر الذي يعترض عليه.

وذلك يرجع إلى الرياء وطلب الجاه، وهو الشهوة الخفية الداعية إلى الشرك الخفي، وله مَحَك ومعيار ينبغي أن يمتحن المحتسب به نفسه وهو: أن يكون امتناع ذلك الإنسان عن المنكر بنفسه أو باحتساب غيره أحب إليه من امتناعه باحتسابه.

٤- السب والتعنيف بالقول الغليظ الخَشِن:

وذلك يعدل إليه عند العجز عن المنع باللطف، وظهور مبادئ الإصرار

والاستهزاء بالوعظ والنصح، وذلك مثل قول إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء:٦٧].

ولسنا نعني بالسب والفحش بما فيه نسبة إلى الزنى ومقدِّماته، ولا الكذب، بل أن يخاطبه بما فيه، ممَّا لا يعدُّ من جملة الفحش، كقوله: يا فاسق، يا أحمق، يا جاهل، ألا تخاف الله يا غبي؟! وما يجري هذا المجرى.

وهذه الرتبة أدبان:

أحدهما: ألَّا يقدم عليها إلا عند الضرورة والعجز عن اللطف.

والثاني: ألا ينطق إلا بالصدق، ولا يسترسل فيه، فيطلق لسانه الطويل بما لا يحتاج إليه، بل يقتصر على قدر الحاجة.

٥- درجة التغيير باليد:

وذلك ككسر الملاهي «المحرمة»، وإراقة الخمر، وخلع الحرير من رأسه، وعن بدنه، ومنعه من الجلوس عليه، ودفعه عن الجلوس على مال الغير، وإخراجه من الدار المغصوبة بالجر برجله، وإخراجه من المسجد إذا كان جالسًا وهو جنب، وما يجري مجراه.

ويتصور ذلك في بعض المعاصي دون بعض.

فأما معاصي اللسان والقلب، فلا يُقدر على مباشرة تغييرها، وكذلك كل معصية تقتصر على نفس العاصي وجوارحه الباطنة.

وفي هذه الدرجة أدبان:

أحدهما: ألَّا يباشر بيده التغيير، ما لم يعجز عن تكليف المحتسب عليه ذلك، فإذا أمكنه أن يُكلِّفه المشي في الخروج عن الأرض المغصوبة والمسجد، فلا ينبغي أن يدفعه أو يجره.

الثاني: أن يقتصر في طريق التغيير على القدر المحتاج إليه، وهو ألَّا يأخذ بلحيته في الإخراج، ولا برجله إذا قدر على جرِّه بيده، فإن زيادة الأذى فيه مستغنًى عنه.

٦- درجة التهديد والتخويف:

كقوله: دع عنك هذا، أو لأكسرنَّ رأسك، أو لأضربنَّ رقبتك، أو لآمرنَّ بك، وما أشبهه.

وهذا ينبغي أن يُقدَّم على تحقيق الضرب إذا أمكن تقديمه.

والأدب في هذه الرتبة: ألَّا يهدِّده بوعيد لا يجوز له تحقيقه، كقوله: لأنهبنَّ دارك، أو لأضربنَّ ولدك، أو لأسبينَّ زوجتك، وما يجري مجراه، بل ذلك إن قاله عن عزم، فهو حرام، وإن قاله من غير عزم فهو كذب.

٧- الضرب بغير السلاح:

الدرجة السابعة: مباشرة الضرب باليد والرجل وغير ذلك، ممَّا ليس فيه شهر سلاح، وذلك جائز للآحاد بشرط الضرورة، والاقتصار على قدر الحاجة في الدفع، فإذا اندفع المنكر فينبغي أن يكف.

٨- الاستعانة بالأعوان وشهر السلاح:

الدرجة الثامنة: ألَّا يقدر عليه بنفسه، ويحتاج فيه إلى أعوان يُشهرون السلاح، وربما يستمد الفاسق أيضًا بأعوانه، ويؤدِّي ذلك إلى أن يتقابل الصفان، ويتقاتلا، فهذا قد ظهر الاختلاف في احتياجه إلى إذن الإمام، فقال قائلون: لا يستقل آحاد الرعيَّة بذلك؛ لأنه يؤدِّي إلى تحريك الفتن وهيجان الفساد وخراب البلاد.

وقال آخرون: لا يحتاج إلى الإذن، **وهو الأقيس**؛ لأنه إذا جاز للآحاد الأمر

بالمعروف، وأوائل درجاته تجر إلى ثوان، والثواني إلى ثوالث. وقد ينتهي لا محالة إلى التضارب، والتضارب يدعو إلى التعاون، فلا ينبغي أن يبالي بلوازم الأمر بالمعروف»[(١)].

والذي أراه: أن أمر الاستعانة بالأعوان وشهر السلاح خطير جدًّا، وخصوصًا في عصرنا الذي تطور فيه السلاح تطورًا بالغًا، وبلغت شدته مبلغًا لم يكن يتصوره القوم في العصور السابقة، وفتح الباب للزيادة في العدد والعدة لا حد له.

فأرى ضرورة التأكيد على حرمة الدماء، والعمل على صيانتها، حتى لا تسيل أنهارًا.

اللهم احم المسلمين وأعنهم على أن يحافظوا على أنفسهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ۝﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١]

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

❁❁❁

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ٣٢٩-٣٣٣).

النادي الشبابي

المحتويات